

3132 ✓
CIA

تقریظ

CHECKED • 1963

حضرة صاحب العزة

حاج الحرمین الشریقین الأميرالای

حسین بك محمد مصطفى

الحقنى الشاذلى حفظه الله آمین

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

الحمد لله الذى تجلى على قلوب أصفائه بطاقت العرفان ، وخهم من بين عباده بخصائص الاحسان ، فاستضاءت أفئدتهم بأشعة أنواره الأنسية ، وانجلى ضمائرهم بأنوار تجلياته القدسية ، والصلاة والسلام على واسطة عقد الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه الزهر الأعلام ، نجوم الهدى ومصابيح الظلام .

وبعد فلما كان كلام الله المجيد ، الذى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم جيد) مدار سعادة الدنيا والدين ، والسراج المنير لمداية العالمين ، الى الحق المبين ، وكان تأسيس قواعد الاسلام ، واستنباط الحلال والحرام ، انما هو على تفسيره وتأويله ، وبيان إجماله وتفصيله ، وكان علماء الأمة الأعلام ، عليهم رحة الملك العلام ، قد كتبوا وودتوا فى هذا الشأن ، بحسب طاقة الانسان ، تصانيف جيدة ، وتفسير مقبولة مفيدة ، بين مطول ومختصر ، جزاهم الله عن الأمة الاسلامية الجزاء الأوفر . وكانت تفسير المحققين المؤيدة بالقل الصحيح ، والمؤولة بالفكر الصائب الرجيع ، جامعة لجل الاحكام الدينية والدنيوية ، كافلة للسعادة السرمديه ، وهى فى غاية البهت والتبيين .

ظل المسلمون غافلين عما هو أعظم من أسرار العلوم القرآنية ، وبيان سنان الله فى الكائنات الأرضية والسمائية . حتى ظهر لنا هذا التفسير المسمى

الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

الذى تصفحناه وفهمناه ، فوجدناه تفسيراً وجيزاً لا يفتقر الى البيان ، جزل لا يحوى والامنى ، مع مزج بدیع رائع ، وتلويح لطيف فى تناسب الآيات ، وتلخيص شريف الى الصفات . كاشفاً عن حقائق الحكم والمعارف ، التى يتعرف بها كل عاقل وعارف .

صفحاته جنات فهوم عالية ، قطوفها لتتصادق دانية ، لاتسمع فيها لآغبة القصاص ، بل تبيح كل فقرة منها غبطة للعوالم والخواص ، وحكمة لأرباب الاختصاص .

فيهذه الوجوه الباهرة ، قد فاق التفاسير السائرة ، الا أنه كان مطروحا في زاوية النسيان ، في غفلة المسلمين بالعلوم الشائعة ، وما يحويه القرآن الكريم من الممانى الرائعة .

فألم الله عبده الصالح الولي (طنطاوى جرهري) بعد أن وفقه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم لاظهار ما كان خافيا عن حقيقة ما يحويه القرآن ، من العلوم والحكم الجليلة العظيمة ، المبشرة بارتقاء الدين الاسلامي ، وإثارة عقول المسلمين . وانا نحمد الله على هذه المنة الربانية والحمد لله رب العالمين ،

وقد أظهر لنا فضيلة الأستاذ للمؤلف ما أدركه من العلوم وأسرار القرآن ، وهي أنوار لاحت جواهرها وفواصلها ، وإن ما برز منه الى الظهور في تفسيره ، هو من مكامن خزائن الأسرار فقد أظهر بدرا سطاعا في راتمة النهار ، الادھو التفسير الشريف الذي عزّ عن النظر والأنظار ، واستخرجه مؤلفه بصفاء باطنه من خزائن الأسرار ، فكان روضة زاهية الأزهار ، وجنة تجري من تحتها الأنهار .

فلهذا ساء (تفسير الجواهر) للواردات الإلهية ، وصار كما قال مطابقا اسمه معناه ، وسالما عن اعتراض معناه ، ولا غرو فؤله العارف بالله العالم العلامة فيلسوف الاسلام الأستاذ الحكيم [الشيخ طنطاوى جوهرى] المصرى الأزهرى للمدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلم بوزارة المعارف العمومية سابقا

ولقد أبرز في تفسيره ما خفي من أسرار القرآن ، وألقى الجواهر لللتقط ، مناديا بكل احسان ، أكرم الله مثواه ، وأعطاه ماتمناه ، من نعيم الدارين .

وأصبح كتابه الشريف الذى انبسط فيه البشرى للأمة المحمدية الاسلامية ، مطبوعا بهم على الهمم ، [الشيخ مصطفى البانى الحلبي وأولاده] ، فزاهم الله خير الجزاء ، لما قاموا به لخدمة الدين بنشر هذا التفسير ، الذى هو فاضل المقتلات ، وحلال المشكلات .

فلمسلمين عامة ، ومواطنينا السودانيين خاصة ، قول : لقد جاءكم تفسير كريم ، عليه آثار القبول ، وأنوار الفتوح . فبادروا الى تأمل معانيه ، ففي كل سطر منه قبس من أسرار العلوم ، وإشارة الى ستن الله فى الكائنات ، وإبداع آياته فى خلق الأرض والسماوات . وفى ذلك قلينافس المتنافسون ، والحمد لله رب العالمين ، والسلامة والسلام على نبينا وسيدنا محمد أشرف خلق الله ، وخير الرسلين ، وعلى آله وأزواجه وذريته وأصحابه وأنصاره وأئمة أجمعين آمين .

الأبوالإي

أحمد حرمان [سودان]

حسين محمد مصطفى

فى ١٢ سبتمبر سنة ١٩٣١ م

موافق ٢٩ ربيع الثانى سنة ١٣٥٠ هـ

١٧١

الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

الشمس على عجايب أبلغ المآثر وأغرب الآيات بأمر

تأليف

الأستاذ المحكم شيخ طنطاوى جوهري
الدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
متع الله المسلمين بمبادئه

الجزء الحادي والعشرون

طبع مطبعة

مطبعة السباني الحسيني وأولاده بمصر

حقوق الطبع محفوظة

وبشرطه محمد امين عمران

محرم سنة ١٣٥٠ هـ

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الدخان

(هي مكية)

آياتها ٥٩ - نزلت بعد الزخرف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتُمْ مُوقِنِينَ * لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ * فَأَرْسَلْنَا يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ * يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ * أَتَى لَهُمُ الْدُّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ بَجْنُونَ * إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ

الْكُبْرَى إِنَّا مُتَقِمُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَذْوَ
 إِلَىٰ عِبَادَةِ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَنْ لَا تَغْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ *
 وَإِنِّي عَلْتُ رَبِّي وَرَبَّكُمْ أَنْ تَرْجُونِ * وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعْتَزَلُونِ * فَقَدَا رَبَّهُ أَنْ
 هُوَ لَا قَوْمَ مُجْرِمُونَ * فَأَمَرَ بِبِأَدَىٰ لَيْلَا إِيَّاكُمْ مُتَبَعُونَ * وَأَتْرَكَ الْبَحْرَ رَهْوَ إِيَّاهُمْ
 جُنْدٌ مُفْرَقُونَ * كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَوُجُودٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنِعْمَةً كَانُوا
 فِيهَا فَأَكْبَهْنَ * كَذَلِكَ وَأُورَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * قَبَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ
 وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ * وَلَقَدْ نَجَّيْنَا سَيِّ إِسْرَافِيلَ مِنَ الْمَذَابِ الْمُبِينِ * مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ
 كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ * وَلَقَدْ اخْتَرْنَا لَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآيَاتِنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ
 مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ * إِنْ هُوَ إِلَّا يَقُولُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُغْتَرِبِينَ *
 فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ
 إِيَّاهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَحْيَيْنَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا
 إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنْ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ * يَوْمَ
 لَا يُغْنِي مَوْتَى عَنْ مَوْتَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ
 الرَّحِيمُ * إِنْ شَجَرَتِ الزُّقُومِ * طَعَامُ الْآيِمِ * كَالْمُهْلِ يَنْفِلِي فِي الْبَطُونِ * كَصَلَى
 الْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ * ثُمَّ صَبُّوا قَوْقُ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ *
 ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ * إِنْ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ * إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامِ
 أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَوُجُودٍ * يَلْبَسُونَ مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ * كَذَلِكَ
 وَزُوجْنَاهُمْ بِمُحُورٍ عَيْنٍ * يَدْخُلُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ * لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا الْمَوْتَ
 إِلَّا الْمَوْتَةُ الْأُولَىٰ وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *
 فَإِنَّمَا يَسْتَرْاهُ بِلسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * فَأَرْتَبَ إِيَّاهُمْ مُرْتَبُونَ *

هذه السورة قصتان

{ القسم الأول } في تفسير البسملة

{ القسم الثاني } في تفسير السورة كلها

القسم الأول في تفسير البسملة

حضر اليوم الثلاثاء (٩) من شهر ديسمبر سنة ١٩٣٠ صديقى العالم الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير فقال : لم يبق فى البسملة معنى إلا ظهر فى السور السابقة . قلت : إن المعانى التى خُطرت فى هذه البسملة أجلّ قدراً ، وأوسع مدى ، وأعظم ذخراً ، وأبلى قبل أن أذكر فيها أسألك فى مقسمتها وهوماتهم من آراء الحكماء شرقاً وغرباً فى آية « **إِنِّ الْقَدِيرَ قُلُوبَنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَنْزِيلَ لِلْمَلَائِكَةِ الْأَنْخَافُوا وَلَا تَخْزُوا وَأُبَشِّرُوا بِالْجَنَّةِ إِنِّي كُنْتُ تَوَعَّدُونَ** » ، فإن كنت ذاكرًا لما تقدم هناك فلخصه الآن . فقال نعم :

إن بارتنلى ساتيلير (الذى ترجم علم الأخلاق لنيقوميطنوس تأليف أرسطاطاليس من اليونانية إلى الفرنسية ، وصدره بمقدمة هامة فى علم الأخلاق ونقل أخيراً إلى اللغة العربية) قد رتب علماء الأخلاق لجعل أرسطاطاليس الثالث وأفلاطون الأول والاستاذ كانت الألمانى الثانى ، وأما دعه إلى ذلك ما رآه كل من هؤلاء فى تأسيس علم الأخلاق وبينان قواعده ، وهل قواعده الثقة وأساسه إلا أدلة أثبت صانع العالم ، أفلاطون أثبت أن هذه العوالم ذاتاً قديمة منها صدرت العوالم العنوية والمثل التى سبها الناس أفلاطونية ، وهذه المثل هى ينباع والاصول التى على نهجها وبواسطتها صدر هذا العالم للمشاهد كما أن الحوادث على الأرض والمواليد حدثت بأثر الشمس ، فهنا عالم محسوس من آثار الشمس بفعل الله تعالى وهى القائمة بهداية الحيوان منه إلى السبل فى الأرض ، وهناك عالم عقلى ثابت بثبات تلك القلت المقدسة ، ونسبة عيوننا إلى ضوء الشمس إذ ترى آثارها كنسبة عقولنا إلى الهداية الواصلة من تلك الذات القدسية لتدرك آثارها الدائمة وإحفاقنا الثابتة كالجمال والعدل والصدق والشرف وكل ما هو بهى عجيب منزّه عن المادة

هذا ملخص آراء أفلاطون ، وقد تعقبه أرسطاطاليس بأن المعانى السكية التى سميت (مثلاً) لوجود لها إلا فى أذهاننا ، والذى فى أذهاننا ناجم مما رأيناه فى المادة والصورة ، ومافى المادة والصورة من المعانى تجعله عقولنا كليات كالإنسان والحيوان والجناد والحجر والشجر وهكذا ، فهذه أمور تصورتها عقولنا لا أمور لها وجود فى أنفسها وأطال فى ذلك ، فأما الاستاذ كانت الألمانى فانه أثبت الذات المقدسة بقانون الأخلاق إذ رأى أن الإنسان عليه أن يكون نوراً للناس نافعا لهم ، ولكن الجزاء على محاسن الأخلاق وفضائل الأعمال قلما يأتى فى هذه الحياة . إذن لابد من بقاء الروح ودوامها ، ولابد من ذات قديمة تكفى الروح على أفعالها الجلية

هذه هى الآراء الثلاثة ، وهناك الرواقيون الذين حدثوا قبل الميلاد وبعد موت أرسطاطاليس ، فهؤلاء لهم طريقة فى علم الأخلاق تشبه طريقة الصوفية فى أمم الاسلام ، وحدثت فرقة تسمى الأفلاطونية الحديثة بعد الميلاد بقرنين ، وهذه سارت شوطاً بعيداً فى العلم والحكمة وتطبيق المذاهب القديمة اليونانية ، وقد أقر (بارتنلى) فى غير ما موضح أن علماء اليونان أثبت قديماً فى علم الأخلاق ، وفى هذه الأدلة المتقدمة ، ولم يظهر فى أوروبا إلا الاستاذ (كانت) وحده ، وأن علماء اليونان لهم القدح الملقى إلى الآن والسبق والفضل بالنسبة لهذا الموضوع ، وقد نلص فلسفة اليونان للرسم الايطالى المشهور المسمى (روفاثيل) فرسم فى الصورة التى جعلها تمثل مدرسة أثينا صورة سقراط رافعا يده إلى السماء ، وأرسطاطاليس مشيراً يده إلى الأرض

هذا هو الذي تقدم ، ولكنك أنت لما طلعت على آراء الأمم في (٢٥) قرنا فكرت فيها وقلت : اذا كان برهان أفاطون هو آخر ما يصل له العلم في هذه الأمم ، فاني أعلن للآء برهانا يكون أقرب الى أذهان الأمم وبسطت ذلك وشرحت من نفس جسم الانسان ، وأن الحواس منظمة من أسفل الى أعلى بحيث ترى حاسة البصر أدناها ، وحاسة البصر أعلاها ، والعقل هو الإدراك ، وهذا العقل في القوة العليا ، واذا كانت كل حاسة قد اتصلت بعالم يلائمها وكانت العين أشرف الحواس وأعلاها قد اتصلت بعالم النور الذي لا تعرف له حدا وهو أوسع من عالم الهواء المعروف حده قريبا ، فان الإدراك الذي فوق مرتبتها وهو العقل متصل بعالم ألقف وأوسع من النور وهو عالم كله علم وجمال ، وعلى ذلك أصبح الانسان الآن يشهد تلك العوالم العقلية بعقله كما يشهد الخشن والناعم ، والتقيل والخفيف بيده ، وغاية الأمر أن القئين سمعهم فلاسفة ما هم إلا أناس وضعوا في درجاتهم في الحياة ، فمن وقف عند المحسوسات بالحواس فهو رجل لم ترق نفسه وقد غفل عن عقله والعالم الانساني حاضراته مقلد ، وكل امرئ يقد من تصبوا اليه نفسه ، فالعقول الصغيرة وأرباب الشهوات اذا سمعوا من يقول : « إن العقل اقراز للمخ كما تفرز الكبد الصفراء » ، يفرحون بهذا ويقولون وصلنا الى نهاية الحكمة ويسفهون آراء من هم أعلم منهم ، وقد غفلوا غفلة تامة عن الفرق بين الكبد والمخ ، فالمخ يدرك الكليات وهو يشرف على الحواس والحواس لها مخزن خارج الجسم تلائمها والعقل مخزنه أوسع وألقف كما تقدم ، وهذا المخزن هو عالم للمعقولات التي يستمد منه العقل معقولاته كما تستمد العين صور المرئيات ، وهذا برهان أول ، ولك برهان ثان وهو أنك قلت ان الأرض مهيئت من أن تأتي لحيوانها ونبتاتها بحرارة تثير الهواء فيصير رياحا ، وتثير البخار فيصير سحابا ، وهذان يتجهان الى الأرض فيكون الزرع والضرع والحيوان ، ومن أن تأتي للنبات والحيوان بضوء يساعدن إصلاح غذاء الأول وفي هداية الثاني الى ما يحتاجه ولاجرم أن إثارة البخار والرياح وإصلاح تغذية الحيوان وهدايته الى السى في الأرض أسهل مما فوق ذلك من هداية الحشرات وسائر الحيوان ومن علوم الانسان ومعارفه والرجة التي تفرس في الأم لترضع ولدها ومن إثارة الهمم وإبراز الجبال في العوالم وحقه ورقشه ، فهذه المادة بجزءها عن أضف التسمين وهو الحرارة والضوء برهنت على أنها أكثر هجرا وأشد ضعفا عن إبراز العقول الشريفة ، والعواطف الجلية ، والقشور البديعة ، واذن يكون جسم هذا الانسان فيه برهان يأتي من طريق قوانا العقلية ، وبرهان يأتي من طريق عواطفنا الشريفة وأخلاقنا ، فلكل منهما أصل استمد منه ، فعولنا مستمدة من علم أعلى وعواطفنا مستمدة من آثار احسان ورجة عاتية ، إذ لا سبيل لاستناد هذه العلوم وهذه العواطف والأخلاق الى هذه المادة العاجزة عن احداث أحسن الأحرين ، فاذن هي عن أشرفهما أعجز

ثم قال صديق العالم : هذا ما خطر لي في تلخيص ذلك للقال في تفسير قوله تعالى « إن الذين قالوا ربنا الله هم استقاموا » في سورة فصلت فعلى ونمت الى تلخيصه فذكره لمن قرأه وتبصرة لمن لم يقرأه فأرجو أن أسمع ما يزيد من تفسير البسملة في { سورة النحل } الذي جعلته مرتبا على ما تلخصه الآن . فقلت : لقد أحسنت صنعا وأجلت تلخيصا ، والآن أقول : اتى في ليلة الجمعة الماضية (٥ ديسمبر سنة ١٩٣١ م) فكرت في معنى البسملة في هذه السورة ، وهناك فرحت النفس فرحا كثيرا وانهضت ابتهاجا تاما ، لأنها انتقلت من عالم المادة الى عالم الجبال ، وأخذت ترتقى الى عوالم عرفها العقل يبرهانه ، وأخذت تسى حيثما الى الملا وتعجز العوالم المادية التي قام البرهان على أنها أشبه بلخيل ، وأجنت بأن صور العلوم والمعارف الخزونة في عقولنا لها عوالم وراءها جلية وكل قش وبهجة وعلم ورجة وكال وجمال في عولنا ان هو إلا آثار من ذلك الجبال ، وأخذ عقى يفكر في تلك العوالم الجلية التي يستمد منها ويقول : يا هجبا ! إذن كانت محبتي للعلم وغازي بالحكمة وشوقى الى تسهيلها أليم شباين لها اتصال بحب أعلى ، إذن هذا الحب ورايه حب علم ،

وحب العلم الذى حدث فى نفسى وأبهج قلبي من أيلم الشباب الى الآن مستمدة من حب أعم وأعلى ، وهذه
المعارف التى أعرفها مستمدة من علوم يديعة وعواطفى من الشفقة والرحمة التى أحس بها فى نفسى مستندة
الى رجة أعم ، والجمال الذى أبهج قلبي حين أنظر فى القنوش والجمالب فى هذه الدنيا إن هو إلا أثر لجمال
أرقى ، وإذا لم يكن كذلك فمن أين أتى حى العلم ، ولىق الإنسانية ؟ ومن أين أتت عواطفى القليلة ، ورجحى
للضعاء ، ولبن أعمولهم ، أمن المادة التى أعلنت مجزها عن حرارة وضوء يقربان منها ولم تنلها إلا من الأثير
الذى تؤثر فيه الشمس بإشراقها فتكون حرارة ويكون نور فى نفس الأثير ، فإذا كانت المادة استعارت
هذين من الأثير الذى هو ألفت منها فإذا فعل هذه للسكنة فيما هو أعلى من الحرارة ومن الضوء ، ثم قلت
ان هذا البرهان الذى ظهر لى والكشف الذى كشف لى هذه الأيام هو يقينى والانسانية من قبلنا لم تضع
لها كما افصح لها الآن ، فلى إذن أن أتأمل فى عقلى وفى عواطفى ، وإذن أعجب من هذه النفس الجيلة
الشرقة ذات العقل وذات العواطف وذات الحب ، ذلك الحب الذى هو أشرف ما نالت نفسى ، ذلك الحب المفرح
الساير البهيج ، ذلك الحب الذى لا يدر جلالا إلا علق به فى السماء وفى الأرض ولا علما إلا أحبه على مقدار
ما وصل الى من علمه ، ولا عسنا رجا إلا أحبه على مقدار احسانه ، ولا شجاعة نافعا إلا أغرم بسباع أخباره ،
هذا الحب الذى استمد من حب علم فوقه ، وإذا كنت أنا مع شعنى وحدوثى أجد حى يشمل الصور الجيلة
والعقول الشرقة ، والأخلاق انفاضة عموما بهيئة علمة إجمالا ، ويشمل اليسير من ذلك العموم بهيئة خاصة
تفصيلا فكيف بمن يعلم كل معلوم : إن حبه الذى من آثاره كل حى يشمل كل عالم شمسى وفرمى وكوكبى
وجميع المجرات والسدم

هنالك سعد عقل فوق المجرات والسدم والسموات والنجوم وأخذ يلقى نظره على هذه العوالم ويقول :
« لآكن هنا لآكن سجدا لأفرح بهذا الكشف ، لآكن فى جور من النور وبجرمن الرجات وجمال وبهجة
أمد الحياة ، لاموت وإنما هو انتقال فلا فرح به ، ما أجهل الانسانية ، انها ضيقة ، الناس لاهون لاطلمون
لماذا خلقوا ، هاهوذا البرهان ، فمن ذا ينقذه ، هاهوذا الأجيال الانسانية قبلنا قد غاب عن أكرها هذا
الجمال ومن عرفه منهم كتمه ، فلا جد ولأجل حياتى كلها جلالا ، وأجد فى منقعة الناس مادمت حيا اقتداء
بتلك القات المقدسة التى قام البرهان اليقينى الذى لا يدخله النك على حبا العلم ورجتها وجمالها وقد أحست
نفسى بذلك البرهان إحساسا لا تقتر عنه ، فأنا إذن سعيد ، وأنى مسعدة أكبر من اليقين ، بثت الحياة حياة
الجهل ، ونصمت الحياة حياة العلم ، هذه هى المخاطر التى خطرت لى لية الجملة المذكورة ، هذه هى السراء
وأعقبها :

امتحان هذه النفس بالضرراء

فى يوم الجمعة ، وفى لية السبت بعدها حدثتلى حادثتان : إحداهما منزلية ، والأخرى خارجية ، فالخارجية
كانت يوم الجمعة ، والمنزلية كانت لية السبت ، فى يوم الجمعة توجهت خارج القاهرة لأقابل الحادث الخارجى ،
وفى لية السبت قابلتى حادث داخل فى المنزل فاعتزاتى غم شديد ، وهما أخذت أفكر فى هذه النفس وأبحث
عن ذلك السرور والبهجة والجمال فأجد غما وهما ، فقلت أيتها النفس : ماذا حدث ؟ أرايت البرهان المتقدم
نافعا ؟ قالت : كلا . قلت : أليس علمك وحبك ورجحك كل ذلك آثار لرجة وحب لقبات مقنسة بينك
وبينها صلة ما وحب ما . قالت بلى . قلت : لماذا أرى البهجة قلت والسرور هنا فنوديت فى سرى إن ذلك
نعمة لائقمة ، لودام ذلك السرور لقلتك ، وهذه هى النظريات التى أنت تقولها فى التفسير كثيرا ، إن ذلك
الجمال البديع أرقى من أرواح أهل الأرض ، ومتى فتح على روح فتح ودام أمد طويلا أهلا كما فلا بد من

التم حتى تعطل الروح ، وأخذت أسأل قصي أراضية بهذا فوجدتها متممة بنعمة الرضا تمتعا حقيقيا وقلت في نفسي : « إن هذا يراد به خير لي لا شر » وهذا الرضا أنا به موقن ، فأنا راض أن يكون هناك حجاب يحجبني عن التفكير لأني موقن بمد هذه المباحث العلمية أن ذلك كله خير لي أنا ، فهو شر ظاهر أخير باطنا وهذا هوسر قوله **عليه السلام** « وأن تؤمن بالقدر غيره وشره من الله » وسرابة « يا أيها النفس الطمئة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي »

ولقد زارني ليلة السبت أثناء الحادث المنزلي صديق جاء يسمى ليوزوني ، فأحس بذلك الحادث المنزلي ، فأخذ بأسف على أن يضع وقتي في أحوال تعكر صفوي ، فأسررت إليه أني فرح بهذا الحادث لأن هذا هو الاعتدال والنظام فلا بد من مقوم يقوم هذه النفوس الأرضية ويعتدله ، وإذا دامت سرقات العلمية أهلكتنني فأنا الآن عندي مسرة معنوية ترجع إلى الرضا الحقيقي اليقيني ، لأن رضا الإنسان بالقضاء إما أن يكون عن تقليد لإيمان غيب ، وهذا هو التسليم بلا برهان . ولما أن يكون عن يقين ، وبرهان ، وهذا هو الرضا الحقيقي فأنا الآن عندي الرضا الحقيقي ، ولكن لا أدري هل هذه النفس في حوادث أخرى يكون عندها هذا الرضا الحقيقي ، أم تكون واجبة ؟ أنا لا علم لي بالمستقبل فأكل أمرها إلى الله

وما جاء يوم السبت حتى خرجت من القاهرة فمعي لأتوجه إلى بلدة شين القناطر لمعالجة الحادث الخارجي في نزاع آثاره جار سوء في الحقل ، فاجلس في العربة الجارية في الطريق التي تسير بالكهرباء وهي مزودة أزالها تماما بالراكبين وتخترق المزارع حتى أحسست بأن هذه النفس قد بارحت هذا الجوّ وصرجت إلى عالم السموات ، أنا جالس مع الناس وأحس بمن حولي وأحفظ قواي وموازيتي مع الراكبين ولكن سرعان ما رأيت في خيالي أن هناك سلما منصوبا بين السماء والأرض ، فأخذت روسي تعلوه درجة فدرجة حتى وصلت إلى عالم السموات (كل هذا تخيلته وأنا في اللحظة والناس حولي) ولما وصلت إلى عوالم فوق هذه الطبقات الكوكبية ، خيل لي أن هناك علما من النور يهيجها بدنها ، عيب الألوآن ، سريع القلب جاله يسبي العقول ويحير الأبواب ، فما قوس قزح ، وما الصور الجلية في أرضنا ، وما البساتين الأرضية ، وما الشموس والأقمار ، وما الكواكب ، هو فوقها جلالا وبهاء وحسنا ، ثم غادرت علم الأنوار ، فألقيت نهرًا متلاطم الأمواج ، صافي الماء ، سريع الجريان ، وعلى حافته قصور جيلات ، فهبطت قيات مارأت عيني أجل منهنّ ، قد لبس الحلى والحلل ، وازدنت بأنواع الأحجار الكريمة ، والمرّ والمرجان والياقوت ، وبالجملة ففي عالم الأنوار ، وفي ذلك النهر ، وفي تلك الصور على حافته ما يجير الأبواب ويسبي العقول

هناك حارلي وأخذت أقول : ياليت شعري ، ما هذا الخيال ؟ أنا في العربة والركب حولي ، فأين الثريا وأين الثرى ، هناك خيل لي أن روحا لطيفة تمثل لي بيئة إنسان مصنوع من النور جيل المهيأ لجميع المنظر فسلم عليّ وحياتي وهو يسلم التغر منشرح الصدر . فقال : لعلك في حيرة مما رأيت . قلت لى وروى أنه خلق لقد جرت العادة أثناء هذا التفسير أن لا يمرّ بخاطري إلا ما يناسب السورة التي يكون فيها التفسير ، فما هذه المناظر وأين هذه من تفسير البسملة في سورة النحل ، فتبسم - احكما وقال هي نفس التفسير . وهأنذا أشرح ذلك المقام فهيأنا :

لقد ضاق صرعى جزعا في هذين اليومين . قلت نعم . فقال : وقد استعجبت بالماء الحار وأتبعت بالماء البارد أمس واليوم فكان ذلك ملطفا لأحوال النفس لأن للجسم عليها تأثيرا . قلت نعم . قال : وهأنذا اليوم خيل لك سلم صعدت عليه حتى وصلت إلى هذه المناظر البديعة . قلت نعم . قال لا أدري ما هذا السلم . قلت لا فال : إن الجنين في بطن أمه يتخلق أولا ببيئة بوضعية بسيطة ، ثم يصير ثانيا دودة وثالثا حلزونة ورابعا سمكة وخامسا ذبابة وسادسا قردا وسابعا إنسانا ، ولا يتوارى ذنبا إلا في الصورة الانسانية

هذه درجات يتقلب فيها الجنين في بطن أمه ، وهناك درجات أخرى وهي للمدرجات الست أعلى الحواس الخمس والعقل . إذن الانسان يتقطع درجات في ارتقاء جسمه ، ودرجات أخرى في ارتقاء عقله ، وهذه الدرجات بقسمها قد مثلت لك الآن بمرتبة سلام مرتبت عليها ، فأما الأنوار فهو العلم الذي منه استمدت علمك ، وأما هذا النور الصافي فهو يمثل لك الدرجة العاثة ، وأما هذه الحور المقصورات البديعات وما عليها من الخلق والحلل ، وما فيها من رقة وشعور وحب وطهارة فهنّ أوّلا مثال آخر للدرجة تجلّت في أخلاقهنّ ، وثانياً مثال لإبداع الصنع وإتقانه ، وثالثاً هنّ يمثلن الحب بأجلى مظاهره . أنت قد اعتراك غم مضاعف وهذا الغم أشبه بقطرة حرجت عليها روحك ، ألم تر أن هذه اللؤلؤ لم تظهر عليك إلا بعد أن وقعت في هذا الغم وما مثل ما يحلّ لك الآن في خيالك من الجلال إلا كمثل النوع الانساني عند الموت ويوم القيامة فإن قوى العقول الكبيرة ، والنفوس العظيمة إذا دهمهم الموت ، أو أصابهم الفزع الأكبر يوم القيامة لا يمرّ عليهم هذان الخلدان إلا كما مرّ عليك الخلدان المنزل والخارجي أس والبارحة فتجلى لهم بعد الموت وفي يوم القيامة حقائق الأشياء ويكون الموت وتكون القيامة قطرتين يمرّون عليهما سرعاً الى معرفة الحقائق لأقلّ ولا أكثر كما أن هذين الخلدتين أعقبهما هذا الخيال الذي أبرز لك المعاني المجرّدة التي صرفها عقلك بصور تمثيلية كما قال تعالى « فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً » . وإذا كنت الساعة مخاطبك خطاباً خيالياً فإن الحكم عند موته وعند قيام الساعة تتلقاه لللائكة ومخاطب خطاباً حقيقياً كما خاطبك أنت خطاباً خيالياً وهذا قوله تعالى : « لا يهزمنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم لللائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون » وما هذان الخلدان لك بأول ماسدك ، فإني ما ألفت كتاباً ولا أبرزت حكماً إلا بعد حدث أزعجك في هذه الحياة ، فهذه قاعدة مطردة . قلت : حقاً هو ذلك . قال : انظر في الآدوار الأربعة التي هي المقصود الحقيقي وهي العلم والرحمة والجلال والحب

هذه هي الأصول والبنائيج التي يستمد منها كل مافي الأرض وما في السماء . ولقد درست أنت آثار هذه الأربعة في الأرض . إن قلبك يحب كل جلال ، وكل علم ، وكل حاذق ، في علم أو صنعة ، ويجب كل عسّن في الأرض ، وما هذه إلا نزر يسير جداً من هذا العالم التورّي للبرصن العلم والنور والحبور المعبرات عن الرحمة والجلال وأحكام الصنع والحب . فهذه الرجات ، وهذه العلوم ، وهذه المحبّات ، وهذا الجلال لا حدّ لها ولا نهاية . فإذا اتجه حبك لأهل الأرض كان محدوداً . وإذا اتجه لهذه البنائيج كان الحب لا حدّ له والسعادة لانهاية لها ، وأين السعادة إلا في الحب ، حب لعم ، وحب لرحمة واحسان ، وحب لجلال ، وحب لآفاق ، وحب لنفس الحب العلم الذي منه ينبع كل حب في الأرض كحب الأم وأبني الطائر والأنعام للطفل والفرخ الصغير وفصيل الناقة . إن نفسك التي أدركت أن المادة (وقد هجرت هجراً تاماً عن أن تكفل لما عليها حرارة ونورا ظاهرين) حرة أن تهجز عن إعطاء الأم وأبني الطيور والناقة الغرام والحيام بالابن وبالفرخ وبالتفصيل . إذن هذا الحب له منبع أعلى كما أن الحرارة لها منبع وهي الشمس

وإذا كنتم يا أهل الأرض تهجون بطائسكم ومخترعكم وقوادكم والمخافطين على أوطانكم وتقرحون بهم ويدعشكم جمال الصور القاتن لتقولكم ، فكيف بكم إذا غادرتم هذا الجسم ، والمعلم على هذه المنابع ورأيتم الحب العام يميون تخلف لكم ، إنكم إذ ذاك تحسون بلطف نسبتها الى قناتكم الآن كنسبة رجة الناقة لفصيلها الى الرجة التي عمت كل طير ، وكل حوت ، وكل دابة ، وكل كوكب ، وكل مجرّة

فإذا لم تكن حياتكم في الأرض لها هذا الأثر فلها تكون لها ولها ، وهذا قوله تعالى في هذه السورة « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا عيناً واحدة خلقناهما وإلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون » والافعلنا هذه الأجرام العظيمة المتحركة ، ولماذا ترون الشمس والقمر يجرّيان حولكما ، وهل هذه النفوس

الحب

الجمال .

..... الرحمة

العلم .

الحب

:
:
:
:
:
:
:
:
:
:
:
:
:
:
:

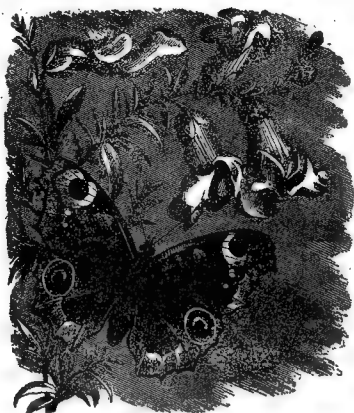
زول

بصر
 سمع
 شم
 ذوق
 لمس
 انسان
 حيوان راقى (كاترد) ..
 سمكة
 حلزونة
 دودة
 بويضة

:
:
:
:
:
:
:
:
:
:
:
:
:
:
:

صعود

فلما اطلع صاحبي على هذا الشكل ووضحه . قال : أريد أن تضرب لي مثلا لهذا الموضوع كله بحيث يكون مشاهدا . فقلت : انظر حشرة أبي دقيق الطلوسى (شكل ١ فى الصفحة التالية)
 أليس الجمال فى المنظر ودفقة السنع فى إحسانه وإتقانه نابعة من العلم ، أولست الحشرة فى هيئة سعيدة بالرحمة وهى ذات رحمة لنظام يعضها وهى تحافظ على ذرية لن ترأها ، فهاتان رحمتان : رحمة لها هى ، ورحمة منها لتدريتها المستقبلية المخبوءة فى يعضها علت أم لم تلم ، فقد ظهر الجمال فى التقش والعلم فى النبات الظاهر والباطن ، والرحمة واصله لها ولتدريتها ، وهل يكون هذا إلا بحب من العالم الأعلى ، وهذا كله يورث قلوبنا حبا لمسدى هذه النعم وأن حشرة أبى دقيق هنا رمز للعالم كله ، ففيه الجمال والاتقان والرحمة ، وهو يهيئنا للحب ، وحبنا هو نهاية السعادة ، أنا لا أنفهم للسعادة معنى إلا بالحب ، والحب هو السعادة ، والسعادة هى الحب ههنا قل لى صديقى العالم : هاأنذا عرفت الجمال بهذا الشكل ، فأرجو إضاح هذه المبرجات فى أصل الموضوع فى السلام . فقلت : أما السلم الذى على يمينك فانه يربنا ارتقاء الجنين أولا فارتقاء العقول ثانيا ، فاذا وصل الانسان الى المستوى الذى يتصل فيه بالعلم والرحمة والجمال مثل كثير من قراء هذا التفسير ، فانه إذ ذاك تكون روحه نورا مشرقا يفيض على النوع الانسانى مآثر وعالوما واحسانا وحبا كما ترى فى السلم الذى



(شكل ١ - حشرة أبى دقيق الطاووسى)

على اليسار، فكما ارتقى من أدنى إلى أعلى كما فى السلم الذى على اليمين هكذا هو يلقى أشعة أنواره ورجائه وعلومه وجاهه على اخوانه من النوع الانسانى مبتدئاً بأعلاه لأنهم اليه أقرب ، وكل طبقة تعطى ماتحتها هذا هو الانسان الذى جعله الله خليفة فى الأرض يسوس عبادته ويخلف صانع العالم فى اسعاد خلقه وتعليمهم وتزويدهم ونشوتهم وارتقايتهم

فقال صديقى : وهل هذا الذى وصفته يخاطب الملائكة ويتصل بالملأ الأعلى حياناً ؟ أم ذلك يكون بمجرد العقل والفكر ؟ فقلت : ان الذى وصفته الآن انما هو الانسان المفكر الذى يرقى بما يلمه الله من الفكر والعلم ، أما أولئك الذين يكلمون الملائكة ويحادثونهم فليس كلامى فيهم لأننا الآن نتحدث فى أن تتعلم لا أن تتكلم على غيرنا ، وهذا التفسير جاء لتربية الانسانية المحمدية . أما ذلك الذى وصفته فأمر آخر ، الأخرى أن فى العالم الانسانى أناسا يخلقون على صفات كاملة يظفرونهم ، ولهم اتصال بتلك العوالم الشريفة ، وآخرين دونهم فى الميزة وهم متصلون أيضاً ، ونحن لانشرب الى تلك الميزة ، فان المفتوح عليهم من طريق الولاية وقد اتصلا بالعوالم العلية على خطر عظيم كما يقوله الشيخ الدباغ والشيخ الخواص إذ يجزمون بأن مانعنا عليه من الحجاب مع البحث العقلى أهدى سبيلا وأقوم قليلا ، أما الذين كشف عنهم الحجاب فهم دائماً فى خطر عظيم ، لأن نفوس الناس فى هذه الأرض جاءت لتتربى فيها لا لأنها تمتع بتلك الذات العلية فى زمان هى أحوج الى العروج فيه بالترية والعبادة والخدمة والمجاهدة . فقال : أرجو أن تصف لى أولئك الذين فطروا على الكمال والذين هم دونهم ليتم القول فى هذا المقام . فقلت : اسمع ماجاء فى (كتاب الابرز) فى صحيفة ١٤١ وما بعدها وهذا نصه :

« إن النبوة والولاية وإن اشتركتا فى أن كلا منهما نور وسر من أسرار الله عز وجل ، فنور النبوة مبين لنور الولاية ، وماله المبينة لا يدرك على الحقيقة إلا بالكشف . غير أن نور النبوة أصل ذاتى حقيق مخلوق مع الذات فى أصل نشأتها ولذا كان النور معصوماً فى كل أحواله ، ونور الولاية بخلاف ذلك ، فان المفتوح

عليه اذا نظر الى ذات من صيبر وليا يرى ذاتا كساثر القنوت ، واذا نظر الى ذات من صيبر نيا رأى نور النبوة في ذاته سابقا ويرأى تلك القنوت مطبوعة على أجزاء النبوة السابقة التي سبقت في حديث « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف » فيكون صاحبها مطبوعا على قول الخلف ولو كان مرآة ، وعلى الصبر التي لا يصب مع بآلم ولا تكون معه كلمة ، وعلى الرحمة الكاملة ، وعلى معرفة الله عز وجل على الوجه الذي ينبغي أن تكون المعرفة عليه ، وعلى الخوف التام منه عز وجل خوفا يخرج فيه الخوف الباطني بالخوف الظاهري حتى يدوم له الخوف في سائر أحواله ، وعلى بغض الباطل بضادا دائما ، وعلى الغفر الكامل حتى يصل من قطعه وينفع من ضرره » فهذه هي خصال النبوة وأجزاؤها السبعة التي تطلع عليها ذات النبي قبل الفتح وبعده ، وأما ذات الولي فأنها قبل الفتح من جهة القنوت ليس فيها شيء زائد ، فإذا فتح عليها جامتها الأنوار فأثوارها عارضة ، ولقد كان الولي غير معصوم قبل الفتح وبعده ، وأما ما ذكره في الفرق بين النبي والولي من نزول الملك وعدمه فليس بصحيح لأن المفتوح عليه سواء كان نبيا أو وليا لابد أن يشاهد الملائكة بذواتهم على ما هم عليه ، ويخطبهم ويخاطبونه ، وكل من قال : « إن الولي لا يشاهد الملك ولا يكلمه » فذلك دليل على أنه غير مفتوح عليه . قلت : وكذا قال الحاشي رحمه الله في الفتوحات المكية في الباب الرابع والستين وثلاثة غلط جليلة من أصحابنا منهم الامام ابو حامد محمد الغزالي في قولهم في الفرق بين النبي والولي « ان النبي ينزل عليه الملك ، والولي يلهم ولا ينزل عليه الملك » . قال : والصواب أن الفرق فيما ينزل به الملك فالولي إذا نزل عليه الملك فمديامه بالاتباع ، وقد يخبره بمسحة حديث ضعفه العلماء ، وقد ينزل عليه بالبشرى من الله وأنه من أهل السعادة والأمان كما قال تعالى : « لم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة » . قال : وسبب غلط هؤلاء ظنهم أنهم هموا طرق الله بساؤكم بحيث لما لم ينزل عليهم ملك ظنوا أنه لم ينزل على غيرهم ولا ينزل أصلا على ولي ولو سمعوا من ثقة نزوله على ولي لرجعوا عن قولهم لأنهم يستقون بكرامات الأولياء وقد رجح لقولي جماعة كانوا يعتقدون خلافه . انتهى ملخصا من كتاب الابرز

هاأنذا أبها الذي أوفيت لك المقام بقدر طاقتي ، ووصلت معك الى مقام الرحمة والعلم والجمال والحب التي يتعرف منها أهل العقول والذين يوحى اليهم . فقال : الله أكبر . جل الله . إذن نحن الآن نتمتع بمعرفة الطرق العسكرية ، ووصف طرق الوحي والالهام . إذن هذا التفسير أشبه بسوق الصور التي تعرض فيه الصور يوم القيامة وكل يلبس ما يشاء منها . فقلت له : أنا أجد الله عز وجل على نعمة العلم والهداية الى طرق الكمال والى هنا تم الكلام على تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الخميس ١١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ م

مقاصد هذه السورة

- (١) إزال القرآن ، والدلالة على التوحيد
- (٢) الإنذار بالعذاب في الدنيا والآخرة للكافرين
- (٣) ذكر قوم فرعون وهلاكهم
- (٤) ذكر اختيار الله لنبى اسرائيل : ورجوع الى العرب الذين في زمن النبي ﷺ وموازياتهم بقوم تبع (بشديد الباء) وأن أولئك مع عظم بطشهم هلكوا فكيف هؤلاء مع قلة شأنهم بالنسبة لأولئك
- (٥) الاستدلال على البعث بدليل عقلي ، فيقال : « اذا لم يكن هناك بعث فهذا العالم لنولافائدة منه »
- (٦) وصف عذاب جهنم يوم القيامة
- (٧) وصف النعم في الجنة
- (٨) انتظار العاقبة لمن تكون ، أفرسول ، أم للكافرين

﴿ التفسير اللفظي ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(حم) تقدم الكلام عليها في السور السابقة (والكتاب المبين) أي المبين ما يحتاج اليه الناس من حلال وحرام وغير ذلك ، وهذا قسم جوابه قوله (إنا أنزلناه في ليلة مباركة) أي أنزلنا القرآن في ليلة القدر بأن بدأنا إنزاله فيها ، ثم أنزل بعد ذلك نحوها في عشرين سنة ، وإنما كانت مباركة لبركة ما نزل فيها من القرآن ولأنها يستجاب فيها الدعاء ، ونزل فيها لللائكة والرحمة ، وهي ليلة مجهولة ، وأكثر الأقوال أنها في شهر رمضان ، ثم استأنف بذكر جلتين تبيينان مقتضى الانزال . فقال : (إنا كنا منفردين * فيها يفرق كل أمر حكيم) يقول إنا أنزلنا القرآن لأن من علمنا الانذار بالعقاب حتى يخاف الناس بطشنا ، وإنا خصصنا بهذه الليلة لأن أنزال القرآن من الأمور ذات الحكمة ، وهذه الليلة فيها فصل كل أمر محكم ، فيها تكتب أرزاق العباد وأجالهم وأصلهم فتعرف إلى ليلة القدر التالية ، ولما كان القرآن أهم الأمور المحكمة أنزلناه فيها . ثم قال أعني بهذا الأمر (أمرنا) حاصلنا (من عندنا) كما اقتضاه علمنا وتديننا ، يريد بذلك أن هذه الأمور التي تكتب في صحائف اللائكة ليلة القدر هي التي اقتضاه علمه القديم ، وحكمته الواسعة ، وعنايته الشاملة ، إذن هذه الأمور التي تفرق في تلك الليلة شأنها عظيم . ثم قال : وإنما يفرق فيها كل أمر حكيم من عندنا لأننا من شأننا إرسال رسلنا ، ولا جرم أن فصل الأمور ونظمها وتحديد ما رجة من الله تعالى وهذا قوله (إنا كنا منفردين * رجة من ربك) وفي ذكر الرب تبيان مناص الرب ، فهي رجة من الرب ، والمراد لا يعطى إلا بقدر كما يفعل بلبن الأم ، وكما يعطى المعلم تعليمه على مقدار استعداده ، فتبين الأرزاق والأحوال وأزوال القرآن في أوقات خاصة . كل هذا رجة مصحوبة بالترية ، والرجة متى قيلت بالترية كانت تامة بخلاف الرجة المهملة فلا تنظم فانها ضالعة ، هذا معنى ذكر الرب ، وإنما أضاف الرب إليه إشارة إلى أنه بريك ، وعلى ذلك تكون أعماله وَاللَّهُ ستكون بنظام وحكمة ، ورجته مصحوبة بترية الأمة (انه هو السميع) لأقوال العباد (العليم) بأحوالهم (رب السموات والأرض وما بينهما) بدل من ربك (إن كنتم موقنين) أي إن كنتم من أهل الايقان فاعلموا ذلك (لا إله إلا هو) إذ لا خلق سواه (يعي ويميت) هو (ربكم ورب آبائكم الأولين) وقرئ الوصفان بالجزم على البدل أيضا (بل هم في شك يلعبون) أي انهم ليسوا موقنين لما ارتطموا فيه من الشك واللعب (فارتقب) فانتظر (يوم تأتي السماء دخان ميين) (١) يوم شدة ومجاعة فقل الأمطار ولعلها يظلم الهواء ويكثر الضباب (٢) أو يأتي شر غالب يصبر عنه العرب بلفظ دخان (٣) أزان الجائع يخيل له أن بينه وبين السماء دخان ، وقد قطع العرب حتى أكلوا جيف الكلاب وعظامها (٤) أو هو دخان يحى قبل قيام الساعة ولم يأت سابقا ، وقد جاء في الحرب الكبرى التي بدأت سنة ١٩١٤ ميلادية فان الدخان كان فيها من أعظم الآلات الحربية ، وقد اخترعه الألمان وصارته عادة ثابتة حربية ، فيكون الدخان عند العرب الأولين قطعاً ، وعند المسلمين الحاليين حرباً وهلاكاً كما سيأتي إيضاحه ، فارتقب الدخان العرب هم البطشة الكبرى يوم بدر ، وينتظر المسلمون اليوم حوادث كبرى ، فإن لم يرجعوا عن جهلهم وتزغياتهم الجاهلية هلكوا ، وقوله (يشئ الناس) أي يحيط بهم وهوقة لشان وهو منطبق على دخان الحرب الماضية ، فإن الدخان يدخل الحنادق ، ويحيط بالمحاربين من كل جانب ، ويكون قطعاً مظلمة عظيمة كالسحب العظيمة تحيط بالناس حال كونهم قائلين (هذا عذاب أليم * ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون) أي سنؤمن ان تكشف عنا العذاب ، وهذه عادة الناس انهم اذا وقعوا في شدة أيا كانت يدعون بالتوبة والرجوع عما هم فيه ، ولكن

الأخلاق الثابتة والملكات المتكئة تمنح أصحابها من فعل الخير ، ولقد قال : (أنى لم الذكري وقد جاهدكم رسول مبین ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون) أى كيف يذكرون ويتطلون ويضون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب وقد جاهدكم ما هو كافي في رجوعهم الى الصواب فلم يرجعوا إذ أرسلنا اليهم رسولا أنى بالمجزات فلم يؤمنوا ، يقول : التوبة إما أن تكون بما ينال الناس من التواب ، وإما أن تكون بما ينفع لهم من الخفائي ، وهؤلاء قد أقضت لهم الخفائي فلم ينفقوها فأخذنا لعاقبهم ، وكيف يرجعون بالعقاب وقد ذكرناهم بالآيات وظهروا للخفائي التي هي في مجموعها أجمع أثرا من العقاب ، فأعرضوا عنها ، وقال بعضهم انما يصله غلام أعمى لبعض شقيف ، وقال آخرون : انه مجنون تلقى اليه الجن هذه الكلمات حال ما يمرض له الفشى . هذه أحوال هؤلاء الكافرين ومع ذلك نكشف عنهم العذاب قليلا (إنا نكشفو العذاب) كشفا (قليلا انكم عائدون) الى الكفر الذى كنتم فيه لما غلب على طباعكم ، ولما كان العذاب القليل لم يؤثر والاصلاح بالعلم والإيمان لم يقد أمهلناكم الى يوم البطشة الكبرى حيث لا توبة بعدها فننتقم (يوم نبطش البطشة الكبرى) يوم القيامة أو يوم بدر (إنا منتقمون) أى ننتقم منهم في ذلك اليوم .

الاعتبار بأمر فرعون

وقياس أمر هؤلاء على أمره ، وقد تم ذلك كله

قال تعالى (ولقد قلنا قبلهم قوم فرعون) امتحانهم بإرسال موسى ، وتوسعة الرزق عليهم ، وامهالهم كما امتحنا هؤلاء بإرسال النبي ﷺ (وجاهدكم رسول كريم) على الله وفي نفسه (أن) بمعنى أى المفسرة (أدتوا الى عباد الله) أى سلموا الى عباد الله وهم بنو اسرائيل ولا يتقوهم في الذل والمهانة كقوله « أرسل معنا بنى اسرائيل ولا تضربهم » (إلى لكم رسول أمين) على رسالتي غير منهم (وأن) هى كالأولى (لا تقاوا على الله) أى لا تستكبروا على الله بالاستهانة برسوله ووجه (اتى آتاكم بسلطان مبين) بحجة واضحة تدل على أنى نبي (واتى عن ربى وبرك أن ترجون) أى التجأت اليه وتوكلت عليه ان تستنتم وتقولوا هذا ساحر أو ترجون بالحجارة ، والمعنى انه عاقد بره مشكل على انه يصمه منهم ومن كيدهم ، فهو غير مبال بما كانوا يتوعدونه به من الرجم والقتل والأذى (وإن لم تؤمنوا لى فاعتلون) فكونوا بمنزلة من لا تلى ولأى واعتزلوا أذى باليد واللسان ، ومع هذا كله لم يؤمنوا (قدما ربه أن هؤلاء قوم مجرمون) كما جاء في آخر السورة السابقة « وقيل يارب ان هؤلاء قوم لا يؤمنون » خاتمت هذه السورة ليبان نتيجة القيل هناك ، فاذا قال هنا « أن هؤلاء قوم مجرمون » فهو تكرر يرض باللعاء عليهم بذكر ما يوجب وهو الاجرام ، فهكذا في السورة السابقة عدم الإيمان سبب للدعاء ، ثم قال : « فاصفع عنهم وقل سلام فسوف يعلمون » * ولما ذكر هنا أمر قوم فرعون ودعاء نبيهم عليهم سيقفه بذكر النتيجة ليكون تبياناً لعاقبة أولئك ، فهذه من المناسبة بين السورتين ، فقال الله ان كان الأمر كذلك (فأمر بعبادى ليلا انكم متبعون) سببكم فرعون وجنوده (وأترك البحر) اذا قلعت أنت وأصحابك (وهو) ساكنا فتركه على حاله حتى يدخله فرعون وقومه ، يقال ان موسى لما قطع البحر رجع ليضربه بساه ليلتم وخاف أن يتبعه فرعون بمجنوده فقال لموسى اترك البحر كما هو حتى يسخلوه (لهم قوم مفرقون) فأخبر موسى بفرقه ليطمئن قلبه في ترك البحر كما هو (كم تركوا) بعد الفرق (من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم) مجلس شريف حسن (ونعمة) وعيش لين رغد (كانوا فيها) في تلك النعمة (فأكفين) أى ناعمين (كذلك) أفضل من عصافى من عبادى (وأورثناها قوما آتريين) عطف على تركوا ، المراد أن قوما غير بنى اسرائيل دخلوا مصر ، وذلك انه بعد هذا التاريخ قلب على مصر الآشوريون والبابليون تارة ، والحبش مرة أخرى ، والفرس مدة ، والبولان

آونة ، والرومان أخيرا ، ثم أمة العرب ، ثم الطولونيون ، والاششيديون ، والقاطميون ، والماليك البرية والبحرية ، والترك ، والفرنسيون ، والانجليز ، وهاتين أولاد الآن في مصر يجاهد في خروجهم منها ، أما بنو اسرائيل فلم يغتلبوا عليها (فا بكت عليهم السماء والأرض) محجز عن عدم الاكتراث ، وهذا التعبير يكثر ذكره في كلام العرب فيقولون : « بكت عليهم السماء ، وكسفت لهملكهم الشمس » كما قال الشاعر برقي عمر بن عبد العزيز ربه الله تعالى :

الشمس طالعة ليست بكسفة * نبيك عليك نجوم الليل والقمر

ويروي في الأخبار أن المؤمن يبكى عليه مصلاته ، ومحل عبادته ، ومصدق عمله ، ومهبط رزقه ، فأما هؤلاء فلا بكاء عليهم ، والمعنى ما علمت وهو الاكتراث وعدمه (وما كانوا منتظرين) بمهلين وقتا (ولقد نحينا بني اسرائيل من العذاب الملهين . من) استعباد (فرعون) وقتله أبناءهم (إله كان عاليا) جبارا متكبرا (من) المسرفين في القتل (ولقد اخترناهم) بني اسرائيل (ط ع) علمه الله تعالى فيهم (ط العالين) على زمانهم (وأآيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين) نعمة ينة كفاني البحر ، وتظليل الضمام ، وإزالة اللقي والسوي إلخ أول الرضاء والشدة .

رجوع الى مشركي مكة

قال الله تعالى (إن هؤلاء ليقولون إن هي إلا موتة إلا هذه التي نموتها في الدنيا (وما نحن بمنشرين) بمجوتين بعد موتنا (فأتوا بآياتنا) خطاب لمن وهنهم بالفتور وهم النبي والمؤمنون (إن كنتم صادقين) أنا نبأ أشياء بعد الموت ، فقد طلبوا من النبي ﷺ أن يحيي لهم قصي بن كلاب

تخوف مشركي مكة بأن قوم تبع (بقشيد البلاء) أقوى منهم فهل سكو لما كفروا

قال تعالى (أهم خبر أم قوم تبع والذين من قبلهم) كعاد وثمود ، كأنه قيل ما علم ؟ قال : (أهلكناهم) انهم كانوا عجميين) واعلم أن ملوك حير (بكسر الحاء وسكون الميم) طبقتان : الطبقة الأولى ملوك سبأ وريدان من سنة ١١٥ قبل الميلاد الى سنة ٢٧٥ بعد الميلاد ، والطبقة الثانية ملوك سبأ وريدان وحضرموت والشعر وغيرهما من سنة ٢٧٥ بعد الميلاد الى سنة ٥٢٥ بعد الميلاد أولهم شمر يرض وأخوهم ذونواس ثم ذوجدن ، وهذا لم يحكم ، ودهم ذوالقرنين أو أفريقش وهو الثاني من ملوكهم يسمى الصب ، وبعده عمرو زوج بقبس وتسمى القلعة ، ثم الهدمد أخوها ، ثم ملك كروب ، ثم أبو كروب أسد ابنه ، ثم حسان بن سعد ، ثم شرحبيل ، ثم شرحبيل بنوف ، ثم معدى كروب بنم وابنه ، ثم سمد ، ثم ذونواس

هؤلاء هم الذين أتوا في العصر الحاضر في الآثار والنقوش القديمة ، وهؤلاء هم التباية جمع تبع ، وهذا اللقب أشبه بفرعون عند المصريين ، ويشترط تبع أن يملك الشعر وحضرموت . وأما الطبقة الأولى فتسمى دولة سبأ وقبلها دولة معين ، وهذه الأخيرة لم تكن معروفة في كتب أسلافنا ، وأعلم أن الذين اشتهروا من هؤلاء الملوك في كتب أجدادنا ثلاثة وهم : شمر يرض ، وذوالقرنين أفريقش (الصب) ، وأسعد أبو كروب ، فذكروا في الأول أنه دخل العراق وفارس وخراسان والهند وراء جيحون قتلت الجهم (شمر كند) أي شمرخوب ، وبني مدينة هناك سميت باسمه ، وعربها العرب فصارت (سمرقند) وملك بلاد الروم ، وهذه الروايات مبالغ فيها ، ولا مانع من محنتها ، ولكن يجوزها بقوة الآثار ولكتب الأئمة المعاصرة لهم ، وذكروا في الثاني أنه قاتع بلاد المغرب (أفريقية) وهو الذي قتل قبائل نجرع إليها ، وهذه أيضا مبالغ فيها وربما صح بعضها ، وذكروا في الثالث أنه غزا أفريجانا رقتي الترك وهزمهم وقتل وسي ، ثم رجع الى اليمن ، وهادته ملوك الهند ، ثم رجع لنزول الترك ، وبث ابنه حسنا الى الصد ، وابنه يفرالى الروم ، وابن

أحبه شمر للقلب فبني الجناح الى القوس ، وأن شمرا لقي ملك القوس فهزمه ، وهكذا ملك سمرقند ، وجاز الى الصين فوجد أخاه حسا قد سته اليها ، فانتصرا ورجعا بالقناصم ، وبث ابنه يغرالى القسطنطينية ، ففقدوا له ، ثم سار الى رومه وحصرها ، ووقع انطاعون في عسكره ، فهاجم عليهم الروم ولم يفلت منهم أحد ثم رجع الى الصين ، وزعموا انه ترك في بلاد الصين فرما من حير وانهم بها لهذا العهد اه
وأما سبب أن هذه أقاصيص خيالية ، وأما ذكرتها لتقف على ما كتبت ، وأما الآية في قوم تبع ولم يخص ؛ اعدا من هؤلاء ، يقول الله : هؤلاء أهل مكة الذين لا ملك لهم ولا سلطان ولا دولة خير لم قوم تبع الذين هم أقوى منكم ، وهم أقرب الى زمانكم ، وأما إلههم أقرب اليكم لاسيا مع المبالغات التي تروى فيكم وقد عرفتها ، هؤلاء أهل كتابهم ، فكيف يمكن أنتم أنها للضغناء بالنسبة لهم ، هذا هو مغزى القرآن الذي يفتح لنا باب التاريخ في غصور المواقف ليصكون للعلم لما لا يؤول ، عارفا بالأخبار ، يظافي جميع الأحصاء ، فليقرأ أهل التذكي اسمهم وسمكة ، وليحمد الله معي على جلال العلم وبهاء الحكمة الصادقة ، والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم .

ذكر البرهان القلي على البعث

بعد الاخافة بللرا عطف التاريخية

يقول الله : أيها الناس ، أما خلت السموات والأرض ، وأدبرت الشمس والقمر ، وأزرت السبل ، ونظمت أحوال المدهش ، ورينت كل شيء ، وبعثت الجبال باديا في جليل الامور وحقيقتها ، ولم أفر ذرة إلا نظمها ، راحة إلا ريتها ، ولا عملا إلا أتمته ، انظروا الى آثار الحكمة في الأنوار ، وفي الشمس ، وفي اللباب ، وفي أجسامكم الانسانية ، والأجسام الحيوانية ، انظروا في ذلك كله ، هل نظمت عبثا ؟ أو خلقت باطلا ؟ أخلق مالا مستقيل له ؟ إذن فلماذا هذا الاحكام والانعام ، ولماذا هذه النظم القوية ، والجهاب العظيمة والرحمة العظيمة ، انظر هذا كله كلباء في الهواء ، والصف في الصحراء ، والفسلال في اليباء ، وعمل أرباب الربا ، وكسر الطفل للزنا ، وتلمه البغاة ، وجريه في الماء ، أنهي عن الضلال وأبنيه ؟ أم أمر بالبر وأما من مافيه ؟ أم أمنع الشر وأقم فيه ، كلا ، أيها الناس : فليكونوا مفكرين ، وفي أعمالكم متبصرين ، وهذا قوله (وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين) لاهين ، أنا خلقناها وجعلنا منها الحيا ، الرزق والعدل والصدق (ما خلقناهم إلا باخلق) لجلد لا للعب ، ومن العب أن أخلقكم في الأرض غافلين ، ثم أعدم أرواحكم حالكم ، كن يوقد المصلح في التبار ويطلقه ، ويقتل الجبل وينقشه ، ويعني الزنا في الحال بهمه ، لا لاسب إلا هواه ، لا للجل إلا ما جاهد ، فصل البلاء ، والأذلة الجبناء ، الذين لا يمتنون (وكنتم لا تبصرون) فله فقد هم ، ولو أنهم فكروا بقولهم لأدركوا ولم يفوا أن من يسمو الجسم الانساني وقد حافظ على حياته وقائه أمدا طويلا في الدنيا بما دبر في صمته من عين تبصر النافع والضار ، وإله يديم ما يصلح للقاء وما لا يصلح ، وذوق عجز الخليفة من الطيب ، وأذن تسمع صوت الصواعق المجرى ، وتصدق كلامه ، وعقل حكم في سائر القضايا ، ويدفع دفع المواجه ، وتجلب النافع ، ورحل يكون بها السلب والحرب ، وأحشاء نهضم الطعام وتدفق ما فضل ، وأمور أخرى لا يسع فضيلها . إن من غذا فضله وهذه رحمة لا يدر هذه الأرواح تخطو الى لضم به هذه التم ، فلو علموا ما فضلهم ، لأقتنوا بما كانوا عفا به ، وانما أوتيت بقول (اليوم اكمل) فصل الحق من الباطل ، والحق من المبطل بالجزاء (بمقامهم جميع) رقب مواسمهم (لا يفي مولى ع ، مولى شيئا) يوم لا يدفع ولا ينفع أي قريب عن أي قريب آخر شئت فلا يشفع له ولا يدفع عنه أي شيء من دابة الله (ولا هم ينصرون) أن ولا الأولياء ينجون من عذاب الله (من حم الله) من المؤمنين فانه ينفع بعضهم في بعض ، فالعالم يشفع لمن تعلم منه ، والشهيد

يشفع ، والأنبياء يشفعون ، وتلك الشفاعات في الآخرة مابعة للاقصداء في الدنيا ، فهي أثر من آثار العلم والتعليم كما أوجهنه في (سورة البقرة) أيما إصلاح (إله هو العزيز) لا ينصر من أراد تعذيبه (الرحيم) لمن أراد أن يرجه

وصف العذاب لأهل النار

قال الله تعالى (إن شجرة الزقوم) شجرة على صورة الشجر في الدنيا ، والزقوم ثمرها ، وتقدم الكلام عليها في (سورة الصافات) (طعام الأنيم) للفاجر الكثير الآثام ، وروى أن أبا البرداء كان يقرئ رجلاً فكان يقول : طعام الينيم ، فقال قل طعام الفاجر بلهنا ، وبهذا استدلو على أن ابدال كلمة جائز إذا كانت مؤدية معناها ، ولذلك أجاز أبوحنيفة رضي الله عنه القراءة بالفارسية بشرط أن يؤدى القارئ المعاني كلها على كمالها من غير أن يفرغ منها شيئاً . قالوا : وهذه الشريعة تشهد بأنها اجزاة كلا اجزاة لأن كلام العرب فيه من الدقائق والنظم ما لا يحل عمله لغة أخرى فيه لافارسية ولا غيرها ، ويروى رجوعه الى قول صاحبه وعليه الاعتداد ، وقوله (كلهل) أى مثل دردى الزيت الأسود ، ويقال كالقضة المذابة (يخل في البطون) في بطون الكفار (كفى الجيم) أى كلاله الحار إذا اشتد غليته ، ثم يقول الله للزبانية (خنوه فاعلوه) جفروه وادفعوه وسوقوه بالعنف ، والضمير للزئيم (الى سواء الجليم) أى الى وسط النار (ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الجليم) * قيل ان خزون النار يضرب على رأسه فيقتب رأسه من حذافه ، ثم يصب فيه ماء حما قد انتهى حرقه ، ثم يقال له (ذق) هذا العذاب (إنك أنت العزيز الكريم) أى عند قومك بزعمك يقال أن أبا جهل كان يقول : أنا أعز أهل الوادى وأكرمهم فيقول له ولأمثاله خزنة النار هذا على طريق الاستخفاف والتوبيخ (ان هذا ما كنتم به تمترن) تشكون فيه ولا تؤمنون به .

وصف أهل الجنة

قال الله تعالى (إن المتقين في مقام أمين) أى في مجلس أمنوا فيه من غيرهم (في جنات وعبور) يلبسون من سندس واستبرق) السندس مرق من الديباج ، والاستبرق ما غلظ منه وهو معرب استبر ، حال كونهم (مقابلين) في مجالسهم وهوائهم للأنس (كذلك وزوجناهم) وقرانهم (بحور عين) والحوراء البيضاء ، والعباء عظمى العينين ، وهل هن نساء الدنيا أو غيرهم ؟ لا يعلم ذلك إلا الله ، وليس هذا تزويجا كتزويج الدنيا بل هو مجتمع دائم من غير كلفة (يدعون فيها) يطلبون ويأمرسون (بكل فاكهة) باحضار ما يشتهون من الفواكه لا يتقيدون بزمان ولا بمكان (أمين) من الضر ، ومن فساد الفواكه ، ومن الموت والنصب والشيطان والمرض والكبر والتعفف (لا يذوقون فيها الموت إلا للموت الأول) بل يحيون فيها أى لا يذوقون في الجنة الموت لكن للموت الأول ذا قهرها . ويقال بوجه آخر : إن الحياة الدنيا عند الأصفياء متصلة بالحياة الأخرى ، فكأنهم عند الموت دخلوا الجنة ، فهم حين يموتون يكونون في قس الجنة ، وقوله « إلا للموت الأول » استثناء متصل على هذا الوجه ، وكأن للموت العظمى وجبت في قس الجنة لأن الروح وقت خروجها تكون فرحة متممة بروحها وريحتها ، وهذا المعنى الذى قاله المفسرون هو الذى نطق به الأرواح . فقالوا : « إن النفوس الشريفة التى كرهت للعلاقات الدنيوية والحماة وليست لباس الحكمة اذا حل بها الموت تكون متيقظة مستبشرة ، لا يهبطها أنها قتلت من حال الى حال ، بل ترى أنها دخلت في حظيرة السعادة ، وساحة السلامة ، أما الأرواح التى لم تتجرد من علاقت الدنيا فلها اذا ماتت نظرت فرأت لها جسما كالجسم الذى كان لها في الأرض ، ويحصل لها دهنى كدهش النائم بين اليقظة والنوم ويصبح العقل الانسانى كالغشى عليه ، فهذه الروح تقي أيلها وأشهرها أوسنين وهى في بهت ودهن ، ثم تنجلي عنها

الغياض شيئا فشيئا ، وتتأكل في ما بينها وحاضرها ومستقبلها ، وتعرف ما تبقى قضاة في هذه المرحلة الأثرية وماذا صنعت لرقها واسعادها وسفرها الطويل ، وهنا يكون الفرح العظيم ، أو الشقاء الطويل ، والتدمر والويل والألم الويل . إن ذكر الموت يشعر بألم ، لكن الأرواح الشريفة عند الموت لا تحسّ بذلك الألم لأنه ثبت أن الألم إنما يكون بالأحاساس ، وللموت هو أخذ الروح في الاتصال عن الجسم ، والاتصال عن الألم ليس ألما ، وإذا كان التنويم المغناطيسي لا يحسّ معه النورم عند التنويم بألم من حيث هو تنويم ، فبالك بالموت وهو النوم الأتمّ ، بل هو عند الناس أخوالهم ، وإنما ألم الناس عند الموت للفراق لأنهم ظنوا أنه لا وجود إلا في هذه الأجسام فصب عليهم فراقها ، وحزنوا على معادرتها ، فظنهم أن لاهية بملها ، ولاجرم أن النفوس الشريفة لا تنهل الموت ، ولا تحزن للفراق ، لأنها ترى أنها خرجت من سجنها ، ودخلت في نعيمها ، فهي لا تألم بالموت ، بل تفرح به ، لذلك أعقب ذكر الموت للشعر بالألم بقوله (ووقاهم عذاب الجحيم) فلا يحسون بألم الفراق ، ولا يبرز الضمير الذي يشعر به من تعلق قلبه بالهنا وهو مذنب ولا يخاف من عذاب النار الجسمية ، كما لا يخاف من التيران القلبية ، أعطوا ذلك (فضلا) عطاء وتفضلا (من ربك ذلك) المذكور (هو الفوز العظيم) لأنه خلاص من المكروه وفوز بالمطال . ولما أتمّ المقاصد التي أراد ذكرها في هذه السورة لمصها قال (فأما يسرناه بلسانك) سهلناه حيث أزلناه بلسانك (لعلهم يتذكرون) لعلهم يتفكرون ويضمون (فارتق) فانتظروا ما يحلّ بهم كالحلّ قوم تبع (بشديد الباء) وقوم فرعون (انهم مرتقبون) ما يحلّ بك . انتهى التفسير المنطقي

لطائف هذه السورة

- (١) في قوله تعالى : «إنا أنزلناه في ليلة مباركة»
- (٢) في قوله تعالى : «فارتق يوم تأتي الساعة بغتة وهم لا ينالون»
- (٣) في قوله تعالى : «وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا في ستة أيام وما نعبأ بالمعول»

اللطيفة الأولى

في قوله تعالى : «إنا أنزلناه في ليلة مباركة»

اعلم أن الأيام والليالي وجميع الأزمنة وكذا الأمكنة لا فصل لواحد منها على الآخر من حيث هو زمان أو مكان ، وإنما فصل كل باعتبار ما حلّ به من عبادة أو عمل صالح أو عمل أو ظهور حكمته ، وعلى ذلك ما جاء في هذه الآيات وتخصيصها بما جاء فيها من قسم الأرزاق أو استجابة الدعاء أمر إلهي أراد به الله كما خص الوجه بالعينين ، والسر بالقلب ، والرحم بالجنين ، واليد بالبطش ، والرجل بالمشي ، فهو الذي يخصص الأزمنة والأمكنة ببعض الأماكن المقدسة عند الناس ، وقد أخفى تلك الليلة حتى يكون الإنسان في كل وقت مشمرا للطاعة ، متقادرا للأوامر ، كما أخفى يوم الموت ، ولذلك أراني كلما وصلت إلى تفسير سورة أجد الله إذ أبقاني حتى وصلت إليها . ومن أعجب الأمور ما سأفصسه عليك من نأ هذه السورة وهي السنان ، فاني منذ نحو عشرين سنة قبل الحرب الكبرى بنحو عشرين كتبت رسالة طلبها مني الأستاذ ذاكر أفندي القادري لأرسلها إلى بلاد القازان ، فألفها وسميتها (الرسالة القارانية) وفيها نبأ عن السنان المذكور في هذه السورة وعن قصص أمة الاسلام اليرم ، وعن معجزة القرآن بذلك ، وما كنت أعلم أني أعيش حتى أرى الحرب الكبرى وقد طهر فيها السنان بأجسى مظاهره معجزة للقرآن كما ستره ، وما كنت بالأولى أظن أني أعيش بعد ذلك حتى أفسر القرآن وأصل لث هذه السورة وأقص هذا القصص وأكتب الرسالة التي نشرت

في مصر وفي بلاد الاسلام مشيرة الى هذه السورة ، كل ذلك كان مجهولا عندي ، فلما وصلت الى هذه السورة في التفسير حدث الله عز وجل إذ تجلّى لي نور الحكمة في هذه السورة ، وأشرقت الأرض بنور ربها ، والحمد لله رب العالمين .

ثم اعلم أن الانسان ما عمل عملا إلا كان للكان والزمان استحضار ذهني في ذلك العمل ، حتى ان الانسان اذا ذكر عملا من الأعمال ، أو ثرا من الآثار ، أو حادثا من الحوادث كان الزمان والمكان لهما معه ، فلذلك نزل القرآن على وفق ما اعتاده الانسان من ذكر الزمان أو المكان ، وهذا من حكمة القرآن وإلى هنا تم الكلام على الطليقة الأولى

الطليقة الثانية

في قوله تعالى : فارتقب يوم تأتي الساعة بغنمنا مبين * يغشى الناس هذا عذاب اليم
ليكن الكلام في هذا المقام على قسمين : القسم الأول في العذاب التي يستحقه المذنبون ، القسم الثاني في المنان وزوله على للذنين

بيان القسم الأول وهو استحقاق العذاب لأجل الذنوب

اعلم أن الذنوب على ثلاثة أقسام : سلبية ، وقلبية ، وجسمية . السلبية هي الآثام التي يتحملها الانسان باعماله ما يقدر عليه من عظام الامور ، وتركه ما في استعداده من المنافع العامة ، فكل من أعطى مالا أو ذكاه خارقا للعادة ، أو منبها ، أو ذكرا حسنا ، أو قوة نافعة ، ثم سكت عن العمل بها أو صرفها فيها هو أقل من طاقها عذب في الدنيا والآخرة عذابا شديدا (يانه) أن أمة الاسلام اليوم أكثرهم من أهل الشرق وأهل الشرق هم أهل السلاطنت ، وأهل الفلسفة ، وأهل الحكمة ، ولقد سكتوا عن الحكمة حينما من البحر وناموا مئات السنين ، فانظر ماذا فعل الله فيهم ، قال الله لهم قولوا بلسان الحال : إى عبادى ، ألم أعطكم بلاد الشرق ، ألم أضئ شمسكم ، ألم أفرقكم ، ألم أجعلكم في أرض خصبة ؟ ستقولون بلى ياربنا ، فيقول ألم أجعلكم أذكي الأمم ، فان كنتم في شك من ذلك فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون بالنبات والزبر ، إن الأنبياء منكم ، والعلماء منكم ، والحكماء منكم ، خرج الأنبياء من الشام ، ومن جزيرة العرب ، وخرج الحكماء من الهند ومن الصين ، فباعبادى أتم من نسلهم ، فالحقول رابحة ، والأرض خصبة والسما صافية ، والنم متوافرة ، وأنتم ياعبادى عطلمتم نعمى ، عطلمت مواهبى ، عطلمت ما وهبت لعبادى من المنافع ، فأغتم العقول ، وعكستم آية العلم والحكمة ، فبعنى أقول : انى لم أخلق العالم سدى ، بل خلقت الخلق لغاية ، وأنتم وقتتم في طريقها ، فأنا الحكيم العظيم ، سلطت عليكم من يسوسونكم ويسومونكم سوء العذاب ، ويستخرجون منافع أرضى ، ويفهمون سمواتى ، ويفرحون بنعمى ، ويشكرون مواهبى هذا هو العقاب التي يراه الشرق والمسلم اليوم متجلبا أمام عينه ، ولا يعلم أنه معذب ومهان ، فالتاس معذوبون ولا يعلمون أنهم معذبون ، هذا هو المسمى عذاب الخزي في الحياة الدنيا وللعذاب الآخرة أخزى والله هو الحكم العدل

هذه هي الذنوب السلبية وهي أسوأ الذنوب وإن كان أكثر الناس لا يعلمون ، وتسمى في ديننا فرض كافية ، ولكن المسلمون اليوم قلما يفكرون في هذا ، واليوم سيفكرون

القسم الثاني وهو الذنوب القلبية

اعلم ربك الله أن تلك ا- نوب ترجع الى الحسد والحقد والطعم والشر ، ويلحق بها العيسة والغيرة

وأمثال ذلك ، وهي ترجع الى قسمين : النفس ، والشهوة ، فكل ما يحجم عن حب الشهوات ، وعن القوة النفسية من ذلك فهو صائد للإنسان عن المعالي ، وهذا القسم أوفى الامام الغزالي في الاحياء في الجزء الثالث وهذه الذنوب أفسى وأشد من الذنوب الظاهرية لأنها ملازمة للقلب محيطة به

القسم الثالث : الذنوب الجسمية

وهي ضربان : ذنوب أقامت لها الشرائع الحدود والأحكام لأنها مضبوطة معاومة كلزنا والقتل والسرقة وأشرب الخمر وما أشبه ذلك ، وضرب ليس مضبوط ولم يكن له في الشرع حدود ولا أحكام ، وهذا القسم عسر كثيرا للفروع وذلك كالأكل فوق الشبع ، وكتعاطي الأغذية التي لا توافق الجسم ، وكالتوم كثيرا ، وكالتعرض للبرد ، وللعطش الشديد . وبالجملة كل ما يؤذي الانسان في جسمه أو عقله . فهذه أحوال لا ضابط لها . ولم يرد لها في الشرائع رادع ولا زاجر إلا أوامر عامة ونصائح كلية كقوله تعالى : « كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » ومن هذا القسم الاسراف في تعاطي تجارة الأمم القوية العظيمة ، فانهم يضعون على أذناب الأمة الجاهلة ، ويستنفدون مالههم من المال بما يبيعون لهم من الملابس البهجة والزينة البديعة ويشنون على عقولهم ، فهذا من التجارة المباحة ، ولكنها تنتهي بخراب البلاد ، وهكذا من يكثر من التمتع باللذات المباحة من مأكل وملبس ومشرب ونساء ، فهؤلاء يضيعون أيام حياتهم ، وتقوسهم تعيش في قفس وتموت على ما عاشت عليه

فهذه الأقسام الثلاثة من الذنوب عقابها حاضر عند الأمم والأفراد ، فمن القسم الأول ذهاب أنواع العاوم والصناعات ، ونتيجة ذلك تهقر المسلمين والشرقيين . ومن القسم الثاني العداوة والحسد والبغضاء بين الأحزاب والجماعات في الشرق ، وتشتد الفرق الجاهلة النبية ، وذلك يمكن العقوم منهم ويسدهم عن العاوم فان القدي يصنع وقته في مدافعة أقرانه وأعدائه لا يجد وقتا يتفرغ فيه لتكميل نفسه ، فالانهماء في الذنوب القلبية يقع قصص العاوم أي ان القسم الثاني من الذنوب يقع القسم الأول منها . وأما الذنوب الجسمية كالسرقة والزنا وما أشبهها فضللها في الدنيا ظاهر وهو الأحكام التي يقبها القضاة بين الناس والحيس والتغريم ، ثم احتقار الناس للجرم وإهاتته ، وهذا عذاب ظاهر في الدنيا . وأما الذنوب التي لا ضابط لها فهي أدهى وأمر وقد شرحت لك بعضها وبها تكون الأمراض والعلل ، وبالأفراض والعلل يحتل أمر الجسم وينبع ضعف العقل ، وهناك نسب واتصال بين جميع الذنوب فانه يقع بعضها بضا وتصبح دائرة أولها آخرها

إذا ثبت لك هذا علمت معنى قوله تعالى : « يوم نطش البطشة الكبرى أنا منتقمون » وقوله أيضا « هذا عذاب أليم » وما روى عنه عليه السلام انه قال : « ما من خدش عود ، ولا عثرة قدم ، ولا اختلاج عرق إلا بذنب ، وما يغفوه الله عنه أكثر » وما روى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه . قال : « ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله تعالى حدثنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما أصابكم من مصيبة فبما كبت أيديكم ويعفو عن كثير ، وسأفسرها لكم يا علي : ما أصابكم من مصيبة أي مرض وعقوبة ، أو بلاء في الدنيا فبما كبت أيديكم الخ . وقال عكرمة : « ما من نكبة أصابت عبدا غاف فوقها إلا بذنب لم يكن الله ليغفره إلا بها » فهذه الأحاديث وأمثالها لا يمكن معرفة حقائقها إلا بمعرفة ما تقدم . انظر كيف ذكر عثرة القدم ، وعثرة القدم تكون لسوء العادة في المشي ، أو غلط في الطريق مثلا ، فسوء العادة في المشي يرجع لعدم الكمال والنظام في المشي ، وهذا من الذنوب التي ليست مضبوطة من أحد قسمي الذنوب الجسمية ، وأما الغلط في الطريق فذلك لكساد العاوم وتأخر النظام المدني ، وهذا بسبب ترك نظام الطرق فيعثر الانسان لذلك ، وهذا ذنب عام فان اصلاح الطرق ونظام المدن من فروض الكفاية وفرض الكفاية يعاقب عليه عموم الأمة ، فهذا

من عقاب الله في الحياة الدنيا ويستمر العذاب يوم القيامة ، وذلك لأن عثرة الرجل أضعف الصحة وكل ما من شأنه أن يكرهوا للنهن يؤخر الانسان عن تأدية بعض واجباته ، وذلك يعوقه عن رقي نفسه ، فاذا مات لم يرتفع الى درجات العاملين ، وانما اختلج عرق كما ذكر في الحديث قائما يكون ذلك الاختلاج بسبب اختلال في الصحة ، والاختلال في الصحة إما لسوء الغذاء نوعا أو زمانا أو مكانا أو مقادرا أو غير ذلك ، وكل هذا لجهل الانسان ، أولشرهه ، أولفته ضبطه نفسه ، والجاهل ليس بمحذور ، فبينما ﷺ يشير بذلك الى أن الناس ينبغي لهم أن يدركوا حقائق الأشياء ، والا فالعقاب واقع دنيا وأخرى ، وذلك لأخراج المسلمين من تواكلهم واتكاملهم على أنهم دخلوا الاسلام وبني دخوله لا يعاقبون ، فأفهم النبي ﷺ أصحابه أن المسلم يعاقب كما هو مشاهد بالمرض أو غيره ، وذلك بذنبه ، وأما البلاد في الدنيا فهو أمر عام يشمل أنواعا كثيرة عامة وخاصة . انتهى الكلام على القسم الثالث

السنان ورسائله على للذنين

قد عرفت فيما تقدم أن السنان يشمل السنان الحقيقي والسنان الوهمي كما تقدم ، والنفار الناجم من قلة الأمطار ، وهكذا يشمل ما كانت قوله العرب من أن الشر الغالب دنان ، والسنان يشمل ما ذكره السنان المعبود من أشرار الساعة . قال عليه الصلاة والسلام : « أول الآيات السنان ، ونزل عيسى ، وارتفع من قمر عدن آيين تسوق الناس الى المشرق . قيل وما السنان ؟ فتلا رسول الله ﷺ الآية ، وقال : يلا ما بين المشرق والمغرب يكثر أربعين يوما ويلة ، أما المؤمن فيصيبه كهية الزكام ، وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من مغزبه وأذنيه وديره » اهـ

ويجوز أن يكون السنان يوم القيامة . وفي حديث البخاري ان السنان قد مضى أمره فانه أصابهم من الجوع كالظلمة في أصارهم ، أي فهو إذن دنان وهمي . وقال غيره : هو دنان قبل قيام الساعة فيدخل أسباع الكفار والمناقين حتى يكون الرجل رأسه كرأس الخنزير يعني الشوى ، ويعتري المؤمن كهية الزكام وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه ، وهذا القول لابن عباس وابن عمر والحسن ثبت لك من هذا أن العلماء في الصدر الأول جعلوها تشمل دنان الجوع ودنان النفار والسنان الذي قبل قيام الساعة والسنان الذي سيكون يوم القيامة كما تقدم ، وأيضا تشمل كل شر غالب . فكل هذا يطلق عليه دنان ، وأظهر المعاني السنان المحسوس الذي قبل قيام الساعة ، وأهم المعاني الذي يدخل فيه هذا وقبره الشر الغالب سواء كان فيه دنان أم لا . هذا بتحقيق المقام وجع الأقوال

كيف كان السنان عذابا

جعل الله السنان عذابا وقد أزل على قرين . وذلك أن رسول الله ﷺ لما رأى من الناس إدبارا قال اللهم سبعا كسيع يوسف . وفي رواية لما دعا أريشا فكذبوه واستعصوا عليه قال اللهم أعني عليهم يسع كسيع يوسف فأخذتهم سنة حسنت كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة من الجوع . وبظن أحدهم الى السماء فيرى كهية السنان . فأتاه أبوسفان فقال : يا محمد انك جئت تأمرنا بطاعة الله وبصلة الرسم وأن قومك قد هلكوا فادع الله لهم . قال الله عز وجل : « فارتقب يوم تأتي السماء بدنان ميين » الى قوله « عائدون » فهذا دنان مضى وانهى أمره . فأما السنان الآخر فقد ظهر في الحرب الكبرى . وهنا أرجع بك الى أول هذا المقال والبحث في الذنوب وأقسامها . وكيف يكون العذاب بسبب الذنوب واذ كر قوله تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبا كسبت أيديكم » فلذا فهمنا أن السنان الذي سيطر على أهل مكة بكفرهم فليكن السنان الذي سيطر على المسلمين في الحرب الماضية بهمهم . نعم لم يم للمسلمين بل كان مرسلا على عموم الصاكر المحاربين

شرقيين وغربيين . والله قبل أن يخلق هذه الأجيال أنزل القرآن وأخبر أن هناك دخانا . وأخبر ﷺ أن السلم يصيبه السمان كهيئة الزكام ، فأما الكافر فهو كالسكران ، وأيضا تكون الأرض كلها كوقد ذلك كله إلقاء للسلمين وتحذير ، إن الأمم اليوم دخلت في دور من الحرب عظيم ، ويشاع أن الألمان وعدوا أن يرسلوا دخانا علما فيهلك أمتا كثيرة ، ويقال أيضا أنهم قالوا : يمكنهم إرسال دخان في الهواء فيهلك أهل الأرض جميعا وهم معهم ، قيل : أنهم قالوا لا تفعل هذا إلا إذا يقننا من الأمم وانصافها فانظر كيف يقول : « فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين » ، وكيف يقول العلماء ان الدخان يكون من أشراط الساعة ، وكيف يقال ان الألمان سيفعلون ذلك ، وكيف يقول ﷺ ان المؤمن يصيبه كهيئة الزكام وأن الكافر يكون كالسكران

إن المسلمين اليوم في أول زمن الاقواء وعذابهم بالسمان إنما يحل بهم إذا كانوا جاهلين ما بشه الله من العلوم ، الا ترى الى ماقتنائه أن هذا من الذنوب السلبية ، فراجع ما تقدم ، وهي الذنوب التي تشترك فيها الأمم كلها كترك العلوم النافعة ، فهاهوذا السمان ظهر ، وهام أولاء المسلمون تنهوا ، فليستروا في العلم ، وليقرءوا كل ما عرفت الأمم الحالية حتى إذا أرسل السمان كانوا منه محترسين وأصابعهم الزكام كما في الحديث ، ولا يكونون من الأمم الغافلة التي يزل بها البلاء وهي ساهية لاهية ، والانتباه إنما يكون بدراسة العلوم كلها كما قرأناه مرارا في هذا التفسير

فصيبة السمان المنتشرة في العلوم الحربية اليوم لن تذهب من ذهن رجال الحرب ، وسيكون لها شأن ولا يقتل مصائبها عن أمة الاسلام إلا العلوم ، فبأنها المسلمون : بذنوبكم يقتلكم السمان ، والذنوب هنا هي الذنوب السلبية المشروحة فيما مضى ، أتمم لا ترمون العلوم وهذا عقاب ربكم وصدق نبينا ﷺ « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » فإذا غلبنا الأمم فبجعلنا ، وإذا سلطوا علينا السمان ونحن غير محترسين فبجعلنا ، فالعلم هو الباب للخروج من المأزق والله هو الولي الحميد

فإذا سمعت قوله ﷺ « وتكون الأرض كلها كبيت أوقد فيه » وسمعت قوله : « حتى يكون الرجل كالخيزد أي المشوي » الخ ، عرفت أن ذلك السمان هو التي ظهر في حرب الألمان وهومن أشراط الساعة ، ولعلك تقول : أشراط الساعة تنوم القيامة بعدها ؟ أقول لك هذا خطأ فان الله يقول : « وانه لعل الساعة » فجعل عيسى علامة على الساعة وقد مضى له ألفا سنة إلا قليلا ، فآلاف السنين ، بل مئات الآلاف لا تؤثر في قرب هذه الامور العظيمة « إنهم يرونه بعيدا ونراه قريباً »

وقد كتبت ثلاث مقالات نشرت في بلاد روسيا مترجمة باللغة القازانية كما فتت لك في أول هذا المقال أنذر المسلمين فيه السمان ، وقد تم ما ذكرته ، فها أنا ذا أكتب تلك الرسالة السهلة بالقازانية في التفسير معيدا تذكير المسلمين قائلا : إن ما أُنذِرهم به قد تم وظهر السمان في الحرب ، والمسلمون كانوا مطمح الفاتحين ومصرى مدافع الأوروبيين ، ومظهر الملة والوطن ، إلا قليلا منهم كأهل الأقطان وبعدهم الفرس والترك فقد خرجوا من ذلة الاستعباد وقد كشف الله العذاب قليلا ، فليحذر المسلمون النوم ، فالوقت جد وقد أخبر ﷺ أن السلم يضره زكام وأن الكافر يكون كالسكران ، فلتكونوا أتم ذلك ، المؤمن الذي قرأ العلوم فاحترس فأصابه شر قليل من الحرب المستطير . إن الأرض قائمة على حروب وأحوال فاحذروا أن تكونوا مطمح الرعي ، وان كان ذلك الشر قليلا فلتكونوا من أعلم الأمم لتنجوا من شره ، وان كان بعيدا بعد مئات السنين فقد كفيتم أتم شره ، وليكن العلم رائدكم حتى تاحذروا مكاتكم بين الأمم ، واليك ملخصا من الرسالة القازانية ، وقد كنت كتبها في جريدة الراء ونشرت أيضا في كتابي « نهضة الأمة وحياتها » المجلد سنة ١٩٠٨ م رداك فيها :

الرسالة القارانية

وهي عبارة عن إجابة سؤال وجهه الى المؤلف أحد شبان القازان يقول : « أبلغ علماء الاسلام المتقدمين النهاية فلا تفكر نحن بعدهم ؟ أم بقي لنا مجال للتفكير في أمر الدين ؟ » فاجابة على هذا السؤال أقول : أيها القارئ : سأنتي عن مبلغ ما وصل اليه علماءنا السابقون ، وهل شادوا صروح المدنية ومهدوا سبلها وأوفوا بما عهد اليهم من القيام بما يكفل للأمة ثباتها ودوامها ، ويكلاً غدوها ورواحها ، سألت من أحسنت به غنا ومن لي بأن أكون ذلك الخبر الخبير العالم بأسرارهم ، المحيد بملأهم ، المطلع على جلياتهم وخفياتهم وما كان لي أن أقف حكماً في موقف عظيم مهيب ، طأطأت لعظمته رموس الرموس ، وخضعت لجلالاته أكبر حكماء الشرق ، وأساطين الحكمة في الغرب ، قوم يقول فيهم الاستاذ (صديو الفرنسي) في كتابه : « إن هؤلاء الأطباء القهخام ، والفلاسفة الكبار ، والهندسين الأجلاء ، والعلماء الأعلام ، في قارة أوروبا انما هم تلاسيد علماء الأندلس المسلمين ، وبرهن على ذلك بآيات بينات ، وحجج وانحاشات جليات ، قسم كتابه أيوباً . ولأن فيه أن كثيراً من مخترعات الادوريين ، واكتشاف المكتشفين ، كانت قسبات من أنوارهم وقصحات من أسرارهم ، عثر عليها الباحثون في كتبهم فنقبوا عن أسرارها ، واكتتبوا كتبها ، ثم ترجوها فأسوقوها . وأسندوا الاكتشافات الى أنفسهم . ولقد فصل ذلك فصلاً في الفلك والطبيعة والكيمياء وذكر أسماء أناس غربيين في نحو القرن الرابع عشر ادعوا اكتشاف عجائب من الفلك ، قدحس حججهم بأنه إذ ذاك لم تكن صروح الرصد قائمات ، ولا بروج لبوغ أسباب السماء مبنيات ، في عواصم الشرق . أناس كانوا نور الله للناس فازدات بهم الدنيا . وأشرق بهم الأرض فأفاضوه على غيرهم من الأمم الغربية لكك تريد بالسؤال علماء الدين كالأئمة رضوان الله عليهم فن بعدهم ، أولئك كانوا مصايح الديجي وأنوار البصائر ، وشموس الحق ، في آفاق الشرق

أيها القارئ : تنحصر أعمال أولئك الأئمة العظام في أمرين : خاص وعام ، فأما الخاص فذلك تفصيل فروع الفقه اذا لم يتم غيرهم مقامهم وهي أمور ضرورية كفصل المحصولات والمساوي والميراث والعبادات ، وأما العام فانهم قالوا : « إن عامة العلوم والصناعات التي يحتاجها الناس في حياتهم الدنيا فروع كفايات يقوم بها أناس ساعدتهم أمزجتهم ، وأسقطهم استعدادهم لحلها ، ولم يفرقوا بين علم الفقه وغيره فكفت العقول من عقلها . ونهضة الأمة من مرقدتها وانقشرت الحرارة الحيوية وأشرق شمس العلم على ربوع البلاد فظهر فيهم أمثال المنصور والشيد والمأمون وترجوا الكتب اليونانية الى العربية وقامت الحركة الفكرية وساروا شوطاً بعيداً في ميدان الحياة والمعاداة »

طويت تلك القرون كطي السجل للكتاب . وحصر علماء الدين مهمهم في فروع الفقه وحدها وقصروا مهمهم على القضايا الفقهية . وجالوا فيها جولات . وحجى بينهم وطيس الجبال . في ميدان الخلاف . وتسابقوا لأصولها وفروعها ولم يعبروا غيرها الفتاة بل زادوا الطين بلة ووضعوا ضئلاً على إبله إذ ذموا علماء الطبيعة والفلك والفلسفة . وقد علت انهم نظراؤهم في قيامهم بركن من أركان الحياة وسعجهم معهم الى رقي الأمة وسعادتها . ولقد حلهم على ذلك أمران : الأول انهم رأوا الأئمة العظام رضوان الله عليهم هم الذين دؤنوا هذه الأحكام بأجتادهم ولم يظنوا انهم أوجبوا العلوم على السواء ولم يفرقوا في الوجوب بين فروع الطب والزراعة وفروع الفقه وقيامهم به وحدهم لأنه أهم فتقدمه عظم وتركوا النظر في العلوم الأخرى لسواهم . الثاني انهم إذ رأوا تلك العلوم ليس فيها استغلة على الأقران ولا تولى الادارات القضائية والأحكام السلطانية بنبوها بل ذموا القائمين بها فانهم الناس إذ ذاك فريدين : فريق تاملهم . وفريق للدين

ثم قامت طائفة من العلماء كالشيخ الغزالي ورأوا أن السلف الصالح خلف من يهدم خلف أضاعوا
 العلوم ، وانكبوا على فروع الفقه ، وصرفوا كثيرا من الناس عن علوم الحياة والعمران والطبيعة والرياضة
 والفلك والفلسفة وقملوا أن الدين يطلبها كالفقه سواء ، فأخذوا يحملون للناس على قراءتها وعقوتها علوما
 دينية . أتب الامام الغزالي كتابا سماه « إحياء علوم الدين » ومنهج الفقه كطلال والحرام بجانب الحكمة
 الإلهية كالسحاب والهواء والماء والأرض والأنهار والسماء والنجوم والشمس والقمر وجماعتها ، ونواميس
 الطبيعة وفلسفة الضوء وشرح علم النفس . ولقد شرح في كتاب الشكر من الأحياء أنواع السمادات وجعلها
 (١٦) قسما وأدخل فيها العلوم أجمع ، وترى الامام الغزالي أتى بحجج حجاب في حكمه ، فتارة تراه يذم الفلاسفة
 ويكفرهم ، وأخرى يذم الفقهاء ويرميهم بالتصور والجهل ، ثم أشار في كثير من كتبه الى أنهم من المعلمة هم
 ورجال علم التوحيد . ولقد فكرت في ذلك كثيرا فذهمت أن الرجل رأى للمسلمين قد أشربوا كراهة العلوم
 بما أوحى اليهم أولئك العلماء القاصرون ، فأعجى على الفلاسفة في تعاليمهم وكفرهم موافقة للامة ، ولكن
 في نحو ثلاث مسائل لاغير ، ثم رجع الى أولئك العلماء القاصرين فأوسعهم ذما وقرعها ليطلق الناس من
 أسرهم ويترك قيود عقيدتهم . ولما أعلن ذلك عمد الى مسائل الفلسفة فوضعها في قوالب اسلامية ، فتراه
 ذكر في باب الشكر نواميس كثيرة ، وفي باب الفكر جهات السفة الإلهية ، وتراه اقتبس أقبيسة المنطق
 الأربعة في كتاب القسطاس من القرآن استنساها قلوب عامة المسلمين لحوزة هذه العلوم واسترجاعا لهم من
 حظيرة الجلود على أقوال العلماء الرسميين الذين اشتروا الضلالة بالهدى غرروا المسلمين العلوم العقلية والحكمة
 وأنبه ابن رشد وناقشه في بعض القول ، وأوضح في كتابه في التوحيد ما يجب على علماء الاسلام من معرفة
 العلوم الكونية ، وأعجى على الجاهلدين الجاهلين ، وأناخ بكل كلمة على طريقة تعليم التوحيد ، وأشار الى من
 بعده أن يمزجوا علوم الكون بالدين ويحتوا في اكتسابها واكتناه كنهها والتشهير في طلابها ثم خلف
 من بعده خلف رأوا دعورة الطريق وبعد الشقة ، فاستصعبوا الأمر وأوجسوا خيفة أن يصغروا في أعين
 أتباعهم فحكموا بكفر أولئك المرشدين ، وصارت تلك سنة في الغابرين ، كلما جاءهم عالم بمالاتهوى أنفسهم
 من الجلود والجهل استكبروا عليه ، سترأ لجهلهم ، وحفظا لمرأ كرههم ، وصونا لثقافتهم أن تسام بسوء ،
 فزرقا كذبوا وفريقا يقتلون ، ولئن سألتهم : لم يذم هذه العلوم ؟ قالوا قلوبنا غلف ، وفي آذاننا وفر
 ولعمرك اذا كفر الرازي وابن رشد والغزالي وأضرابهم وهم الذين طأطأت لهم رءوس الماضين والغابرين
 من العلماء فبمس على وجه البسيطة مؤمن . ومن الجيب أن العلماء يعظمونهم عند ذكرهم ، واذا قلت
 لهم هؤلاء دونوا العلوم التي يقرؤها صغار التلاميذ في المدارس ، وأهل أوروبا يدرسون علومهم في مدارسهم
 يفضنون اليك رؤسهم ويقولون مالنا ولهذا ، اتنا قرأ الوجيز والبسيط للغزالي وماعدها فليس من الدين في
 شيء . ويتنازى هؤلاء يفضنون العلماء من وجه نرى زعافت الصوفية (لا أكبرهم) يرحسون في الأرض
 بغير الحق ويقولون : « اللهم حجاب بينك وبين الله فاجعل صورة شيخك في خيالك والله من ورائها وإياك
 والعلوم » . يقولون ذلك لئلا يستغنى الناس بأنوار المعارف فيفتضح أمر هؤلاء الجهالين وينبذونهم بذ
 النواة . فأرسل الله طائفة أخرى ظلمة غشمتهم بنقشة من عذاب الظلم والصف فأرهقت الأمة واستعبدتها
 وأخذت تحرب زعافت الصوفية وقصطنهم آلات ككهر باية تحرك بهم صورا من الرجال وأشباها من
 الجهال في حراسح الحياة وتمثل بهم فصولا في الحياة والسياسة . فلما استحكمت تلك الحفلات الثلاث ونامت
 الأمم الاسلامية أجت في البحر خلفا من بعد خلق في ظلمات ثلاث سطا عليهم سيولا جارفة . ومواحق محرقة
 من أم القرينجة فأذلهم واستعبدهم ومرتقوهم كل غزق وتغررقوا أيدي سبا

المقالة الثانية

أيها النكّي: إذا اختصرنا هول: «أضلع الاسلام ملك ظالم، وصوفى طامع، وحقبه جاهل، اتحدوا على جهالة الأمة لينالوا حظ الرئاسة، أما وربك لوأنهم رجعوا الى القرآن لرأوه سوى بين العالم على تباين مشاربها، ليس الفقه تلك الفروع المدونة، ألا انما الفقه هو الفهم، فليس عتصما بنحرف فروع الحيف التي قد تبلغ أربعة الآلاف»

اليس القاتل في الحيف: «ويسألونك عن الحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يظهن فإذا ظهرن فأنتوهن من حيث أمركم الله لأن الله يحب المتطهرين» هو بذاته الذي أنزل قوله تعالى: «إن الله فائق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ذلكم الله فائق توفيقون». نعم هو الذي لم يزل آية حيض النساء إلا بعد أن سئل النبي ﷺ وأنزل ناموس النبات وبجانبه بدون سؤال، أليس ذلك برهانا قويا، وحجة لامة، على أن هذه العلوم الطبيعية أولى بالوجوب على الأمة من تلك الفروع الفقهية التي يشيب الصغر ولا يسأل عنها سائل، لا بل أصبحت ككأنها عبادة يتعبد بها الناس وهم لا يعلمون ما بها يصنعون، لم يجب عن انحر والقيام إلا بعد السؤال. فقال: «يسألونك عن انحر والميسر قل فيها إثم كبير ومنافع للناس» ولكنه أنزل بيان هجائب الليل وبدائع الصبح واشراق الآفاق، وبين بديعة من الهجائب بلا سؤال. فقال: «فائق الاصباح يجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبا ذلك تقدير العزيز العليم»

أيها النكّي: إني أناك تسأني عن أحكام الدين من الطلاق والخلع والفقة والعدة وماشا كل ذلك مما قد يتخذ بعض العلماء حرفة يحترفون بها، إني أنبئك عن ذلك:

إن المستقبل للشيعة فلا تنكحوا إلا على أنفسكم، قل تعالى أتل ما حرم عليكم ربكم الأذنبوا الإصلاح اتباعا لفقيه متعصب، ولا تكونوا لطلب تاركين، ولا تهتدس ناسين، وعن العلوم السكونية معرضين، ولا تكونوا عالة على الأمم الغربية، بل اسعوا سعهم، واقرعوا علومهم، وسيروا معهم بسلم وفاق، وتذكروا قوله تعالى: «ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين وربها وأنهم لا يتكبرون»

أيها النكّي: إن جاءكم فاسق بنبأ الأخذلان والجهل فتبينوا خبره، ولا يصدنكم عن سبيل الله فقيه متعصب قائما بالتصديق لبقوته لا للإسلام، ولا يجبركم شنائن بعض الصوفية للعلوم وبضهم المعارف، ولا يرهقكم الأمراء بالجهل، ابتغوا الوسيلة للعالي بالعلوم، ولئن اتبعت أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل العلا والشرف: «أن يقيمون إلا الفسق وإن هم إلا يخرصون»

انفضوا كل رئيس لا يمين على العلوم، وأصبوا كل أمير وعلم وصوفى يحكم على مجارة الفريسين أيها النكّي: إما لفرجكم فوق ماسطرناه، نرجو أن تكونوا قدوة الأمم أجعين، فإبائنا أصبحنا أذنايا عاجزين، وفي أخريات الأمم قاصرين، وفي فيات الجهالات تأهين، وعن سبيل الإصلاح معرضين. انتهى الكلام على المقالة الثانية

المقالة الثالثة

أيها النكّي: ليكن كل قدم ومشار وبرة ويخار وسجدة وكهر با. مما عملت أيدينا، ومتى أهوزتنا الأيام إلى إبرة أومدفع مما عمل سوانا فذلك إثم كبير على المسلمين فعذب به مرتين: مرة في الحياة وأخرى في للمات

أليس الذى قال فى الكتاب : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » هو الذى يقول : « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل » فأوجب على فريق أن ينظر أحوال الأمم وعمرانها وخربها وسياساتها كما أوجب الحج فى ميقاته على المستطيع ، أتدري لماذا ترك الناس الأول وأدوا الثانى لأن الحج سهل معروف ، أما السيرة فى الأرض فما أحوجها الى اللغات وفهمها ، والأموال وصرفها ، والعالم وجمعها ، وذلك أصعب الامور وأشق على الجمهور ، فاستحب الناس العمى على الهدى ، والراحة مع القلة ، وذل الاستعداد مع التخلف ، وطبع على القلوب فهم لا يفقهون

طمس على قلوب كثير فاتبعوا أهواءهم ، وصنوا الناس عن سبيل الإصلاح ، صرح بهذا الكتاب المجيد فقال « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تسمى إلا بصار ولكن تسمى القلوب التى فى الصدور » وفى هذه الآية من التبريع والتم والتوبيخ على الكسل والتخلف عن السير فى الأرض ما يدلك على ما ذكرناه ، وتراه لم يكف بذلك التوبيخ بالعمى بل صرح بأن إعانهم معلوم فقال : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض وما تفى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » . ثم هدد بالعذاب فى الدنيا فقال : « فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلكم قل فانظروا إلى معكم من المنتظرين » وقد أكد ذلك الانذار والتهديد بقوله : « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض » ثم ذاق المسلمون أنهم تفرقوا شيعا وتفرقوا طرائق ، وتفرقوا سرائق ، واقتتلا أجيالا طولا وهو قوله « يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض » واسلط عليهم أخص الممالك ، وأحقرا الممالك ، فأذلوا ملوك الباسيين ، والبول الإسلامية كالممالك البرية والبحرية ، وهل ينظر المسلمون اليوم إلا انذار العذاب من السماء التى نصت عليه بقوله « أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم » وتراه أشد وضوحا وذكر مشروحا فى قوله عز وجل : « أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ان نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء » وفى قوله « وان يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مكرهم » أتدري ما ذلك الكسف المكرهم والعذاب الموعود تلك البالونات الهوائية ، والأساطين الجوية ، والدفاع الكسبية ، وتلك الآلات الجهنمية ، تعدها الآن الأمم الغربية ، فاذا وقعت الواقعة ، وانفشت المرائر ، وأمطرت السماء مطرا من سجين ، وتزلت الصواعق على الغافلين ، فشد ذلك لا ينفع قضا لإعانتها من المسلمين إلا الذين آمنوا ونظروا وعلموا وجاروا الغريبيين ، أولئك هم الناجون من ذلك العذاب الواقع « إن عذاب ربك لواقع » ما له من دافع « هل أولئك المسلمين الذين لا ينتظرون ولا يفتكرون ، ولا يستنبئون بالأندلس وهلاكهم ، وخواب ديارهم ، وأهل أمريكا وعذابهم وفنائهم ، فالى متى أيها الناس أتم ساهون ؟ أنفركم صيحة فاجعة ، وسحوبا واقعة ، فاذا جاءت الطامة الكبرى وشاهدتم سحابتكم كرمها بالدفاع والجند ، وأرسلت الصواعق من البارود ، وزجرت الرعود ، وأمطرت السماء حجارة وحديد ، ودعما ورصاصا ، فأول واقع فى العذاب : هم الجاهلون ، ولن ينجو من هولها إلا العالمون الذين يسلحون فى الأرض وهم يقاتلون ، وانفخوا لهم حصونا فى الهواء ، ولن يكون ذلك إلا اذا أفتت الصناعات ، وقررت الرياضيات ، وفهمت الطبيعيات ، وعلمت التولاميس ، ودرست السياسات ، وصرم أمة كالأمم

هذه نصيحة لكم فاقبضوها وإياكم أن تضيعوها فوالله إنى لأعلم ذلك يقينا وكأنى باليسدان يجرى فى السماء كالسحاب والبول تصطبغ فى الهواء أساطيلها ، وتقتل على بلاد الاسلام جيوشها ، والمسلمون ينظرون ولا يشكمون إلا من يعقلون منهم ويعلمون ، فانظروا لأنفسكم قبل أن يأتى ذلك اليوم المشوم لعلكم تتخذون لكم مع القوم سبيلا ، وأنفركم يوم تصطف المراكب الهوائية ودى تقرب من السحاب ، هناك تنزل الصواعق

وتهطل الجحارة ، شائب شائب تلك الصروح ، وتهشم البيوت ، وتدهور القصور ، يوم تمور السماء مورا بالجيوش الحربية ، يوم تأتي السماء بدخان ميين يفضي الناس في الشرق والغرب هذا عذاب أليم « ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون »

أيها التقي : أنذر المسلمين الصيحة العظمى ، والبطشة الكبرى ، « أم أمنت من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير »

هاهوذا اقرب زمان الدخان يفضي الناس من فوقهم من تلك الأساطيل الهوائية التي تعدّها الدول لمحاربة الأمم الجاهلة « قد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون » ولا يعلمون تلك النواويس الحبيبة للدهشة تلك الصواعق تنزلت على الناس لتنتشلهم من مراض جهلهم الى إعلاء عرش العلم والحكمة . أنذر الله الناس وحذرهم مم هو يد لهم الأساطيل الهوائية ترميهم بمحجارة من سجيل حتى يكونوا كصصف مأكول « ولقد أنذرهم بعثتنا فناروا بالترنر »

ولعل فريقا يقولون : انما وعدنا هذا يوم القيامة ، وهانحن أولاء الآن في الدنيا ، تقول على رسلكم فما من صورة في الآخرة والقيامة الكبرى إلا وهما أخت نظيرتها في الدنيا « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا » ، ولئن سألتهم لم تدهور للمسلمون ، وارتطموا في هدمتهم ، وزلوا من حلق يقولون الفقهاء انهم عاصون مجرمون ، ليسوا على الصراط السوي . ولئن سألتهم عدوا المعاصي لأجابوك : هي الزنا والخمر والميسر والأنصاب والأزلام وكلها رجس من عمل الشيطان والغيبة والفيمة وهلم جرا يحییونك بهذا الجواب الأبر الناقص ويندرون الذنوب الكبرى والمعاصي والموبقات العظمى وهي سحاب الجهل المركومة تفضي عقوبتهم ، وتعجب نورهم ، وترسل عليهم غاشية من نار ودخان ، بهل تلك التي يسومونها فروض كفايات

العلوم كلها فروض كفايات كما قدمنا ، رأوا بعد الشقة وطول السفر ووعورة الطريق ومشقته فأعرضوا عنها وتولوا ولم يذكروا للناس من المعاصي إلا أسهلها وهي التروك ، من ترك شيئا فقد عاش بغيره وما أسهل ترك الخمر والميسر والأصنام ، الترك أمر سهل ، فأعرض عن الشيء يعرض عنك . فأما العلوم فلن تال إلا بمشقة وسهر وتعب أمد العمر فكانت الكلفة فيها أشق ، والعمل أصعب ، والفكر فيها أدق ، والحيلة لجليلها أغمن ، والقيام عليها أدم وأعظم ، لذلك هربوا منها ولم يحوموا حولها ، وقالوا للناس ما أمك المسلمين إلا تلك المعاصي المألوفة ونسوا حظا مما ذكروا به من فروض الكفايات ولم يذكروهم بنحو قوله تعالى : « أفلم يروا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض » الآية « سنجريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » « كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا » هكذا كان حتى قرعت القارعة ، وانفتحت للرائر ، وأحيط بنا ، وأصبنا مضغة الأفواء

أيها الشبان : إليكم أوجه خطائي ، وأدعوكم للعلم والعمل ، فقد بزغت شمس الإصلاح ، وبشرت بوادر الامور بالاقبال ، فالأمال بهذا الجبل المقودة قابسروا بالنجاح وتذكروا قوله تعالى : « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » انتهى ما أردته من كتابي « هبة الأمة وحياتها » ولحمد لله رب العالمين

الطيارات في الجو والضباب للقاتل

إن ما قدم هو الذي نشرته سابقا في جريدة اللواء بذلك الترخ ، وحذرت المسلمين منه قبل الحرب الكبرى وصار ضمن كتاب سميت « هبة الأمة وحياتها » كما ذكرت سابقا ، فانا الآن أكرر القول بأني أجد الله عز وجل اتى بقيت في الحياة الدنيا حتى شاهدت ما قر في صدرى قبل تلك الحرب وأن نهاية

الاصطدام بين الأمم كان باستيلاء الظالمين منهم على أمم الاسلام وظلمهم وارتدادهم ، فلا كتب اليوم مصداق ما كنت كتبت إذ ذاك محنرا ومبشرا ، وأنا واثق بجهنم التبعة ينشأ السعادة لأمم الاسلام في يوم من أيام شهر ابريل سنة ١٩٣١ بينا أنا في جهة العباسية شمال القاهرة إذ رأيت الناس يهرعون وينظرون الى السماء ويقولون : « زبلن زبلن » بحركات غير عادية ، وسمعت تصفيقا وأصواتا واستصاها فنظرت اذا بمطاد (زبلن) يطير فوق المنازل كأنه المحوت يعوم في البحر ، واستمر يطوف فوق الأحياء أمدا طويلا ، ونوجه الى المطار للمدة في المناظرة التي تقرب من مصر الجديدة (هليوبوليس) وتقبلته شرفة من الصاكر الانجليزية وأمكوا به وهالك صوريته (انظر شكل ٢) و (شكل ٣)



(شكل ٢ - الجنود يمشون الجبال لآزال النقاد في مطار أمانه)



(شكل ٣ - صورة النقاد يمشون في المطار)

فالمسيرة الأولى تمثل المنطاد والجند يشتدون الجبال لا تزال المنطاد في مطار ألساته ، والثانية تصور المنطاد بعد نزوله ، وذلك النزول كان في صباح يوم السبت ١١ ابريل سنة ١٩٣١ وهذا المنطاد طوله يقرب من ٢٣٥ مترا وقطر محيطه يبلغ نحو ٣٧ مترا وهو جسم مهول يطير في الجو لم نحمل به الصور في يوم ٩ ابريل سنة ١٩٣١ م أخرج المنطاد من حظيرته بكل سهولة عند الساعة السادسة من الصباح ، وكان هناك جمهور من الذين تمكنوا من دخول المنطقة خيوا للمنطاد . قال أحد الركاب : « قد ساعدت برودة الجو على أن يحلق للمنطاد صعودا في الجو قبل ادفلة المحركات ، ولما بلغ الى علو ١٠٠ متر أدبرت المحركات فأصبحتنا في جو مدينة (فريدريكسهافن) في دقيقة واحدة ، ثم اجتازنا بحيرة (بودن) وعند الساعة السادسة والحقبة ٢٣ كنا قد وصلنا الى بحيرة كونستانس ، وواصلنا السير فوق اليرين حتى دخلنا سويسرا فقررنا بمدينة (بريسن) الساعة ٦ والحقبة ٤٣ ثم اجتازنا الساعة ٧ والحقبة ٢٠ شافوز حيث شاهدنا شلالات نهر اليرين المشهورة بروعتها وبلغنا مدينة بال الساعة ٨ والربع فدخلنا حدود فرنسا وحلقنا فوق مدينة (بزانسون) على علو يقارب بين ٤٠٠ و ٦٠٠ متر ، وكانت سرعة المنطاد في بداية الرحلة ٩٥ كيلومترا في الساعة الى أن بلغت بالنسبة ١٢٠ كيلومترا ، وقد كان الجو صحو ، والشمس مشرقة ، غير أن السماء لم تخل من قطع الغمام وخصوصا في جو سويسرا . ولما أصبحنا في الجهة الشمالية الشرقية لمدينة ليون حول المنطاد سيره الى الجهة الجنوبية . وذلك لأن السلطات الفرنسية أبلغت قائد المنطاد في الساعة الأخيرة انه لا يجوز له أن يمر في جو مدينتي ليون ومرسيليا ، وهذا بعكس ما كان قد وقع في رحلات المنطاد السابقة ، ولاحق لنا مدينة ليون عن بعد عند الساعة العاشرة ، ولكن المنطاد انحرف في سيره ليتصد عنها ، وقد حلفت طائرة فرنسية وسارت المنطاد في منطقة ليون حتى اتجه الى الجهة الجنوبية الغربية مارا بمدينة فينيسو فمدينة جيفور ، ثم تابعنا وادى نهر الرون حتى بلغنا فالانس عند الساعة ١٠ والحقبة ٥٥ وهي المنطقة التي وقعت فيها أربعة محركات من محركات المنطاد في الرحلة التي قام بها في مايو سنة ١٩٢٩ فاضطر المنطاد الى النزول في مطار كوريس بيفرو التي تمكن من الوصول اليه بقوة محرك واحد ، وظلت مناظر المدن تتابع كشرائط السينما ، فقررنا بمدن موتيليار وأورانج وافيونيون وطراسكون وارل الى أن بلغنا جنوبي سهل (كرو) . وساعدت الأحوال الجوية سير المنطاد أثناء الليل فرآ على مقربة من مالطه في منتصف الليل ، وفي الساعة السادسة صباحا وصلنا الى الشاطئ الافريقي شرقي بنغازي ، وفي الساعة السادسة والحقبة ٤٣ وصلنا الى درنا » وقال أيضا :

من ألمانيا الى افريقيا في ٢٤ ساعة

« ليستصور القارئ كيف تناولنا في بكورأمس فطورنا بندق كورجان في فريدريكسهافن وفطورنا الثاني فوق بلزانكون بفرنسا وغدا ما مقابل كتيانزور ، والنشأ فوق جنوب كرسكا والعشاء فوق غرب صقليا ، وتناولنا الفطور اليوم فوق المياه للمصرية ، وهكذا جاء جراف زبلن بنا من ألمانيا الى الشاطئ الافريقي في ٢٤ ساعة بالضبط ، فقد غادر حظيرتنا في الساعة السادسة من صباح أمس ، وشرع في رحلته في الساعة السادسة والحقبة الثامنة ، ثم وصل الى افريقيا في الساعة السادسة من صباح اليوم » انتهى ما أردت اثباته في هذا المنام والحادثة رب العالمين



السخان والضباب وآثارها في الأمم في زماننا ، وكيف وافق نص القرآن

الكلام على أن السخان سلاح الحرب للقبلة

وأن ضبابا أحدث قتلا في أوروبا ، وهذا من هجائب القرن العشرين ، مصداق آيات القرآن جاء في جريدة مصر يوم ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٣٠ مقالا تحت العنوان التالي مانصه :

الحرب القلادة وسلاحها الحديث

أصبحت العلوم الكيميائية من أهم العوامل في حياة الأمم الحديثة وسورها لأنها أساس النخيرة الحربية والمؤن المختلفة اللازمة للقتالين والأهلين ، وقد كان لها الأثر الأكبر في إطالة مدة القتال في الحروب العظمى فلأن ألمانيا مثلا لم تتمكن من استخراج الحوض الترياك من أزوت الهواء للاستعاضة به عن التترات التي كانت تستوردها وهجرت عن عمل البارود والمفرقات لاضطرت إلى التسليم في أول سني الحرب وما قبل بشأن الأزوت يقال أيضا بشأن المعادن والمنسوجات والمطاط والمواد المعدنية وسائر المواد الغذائية وكان هناك ارتباط وثيق بين الكيمياء الغذائية والكيمياء الحربية ، فلأن الألمان مثلا حرموا الزراعة من الأسمدة الأزوتية للاحتفاظ بالأزوت للمفرقات ، أو استخدموا البطاطس وهي أساس غذاء الأهالي لعمل الكحول اللازم لحلات المجاعة لاحتالة البلاد ، على أن الكيمياء الألمانية تمكنت من حل المشكلتين في آن واحد ، صراعية لولزم النخيرة والمؤنة للغذاء ، ولولا استمداد معاملها الكيميائية وتجهيزها منذ زمن بعيد للقيام بكل ما يطلب منها لما استطاعت هذا أن تقف للموقف الذي وقفت من أعضائها طول مدة الحرب ، فلها كانت بين أمرين لاثناك لهما إما انتاج ما يلزمها وإما التسليم فتمكنت مدة طويلة من الانتاج بفضل كيميائيتها العديدين الذين كانوا مدرسين على العمل

ولم يكن للحلفاء يد من مقابلة ألمانيا بالمثل فتمكنوا من مقابلة الاختراع بمثله ، فازدادت بذلك الاختراعات المييدة والنافعة في وقت واحد ، حتى إذا خيم السلام على العالم انتفع الناس بتلك الاختراعات سواء في المسائل الصناعية أو الزراعية أو التجارية أو الفنية ، حتى صرنا كلما قلنا بحجة علمية من المجالات الأوروبية الجامعة نجد بها كثيرا من الآلات التي اخترعت أثناء الحرب وبعدها وهملت الأعمال الحيوية المختلفة أمام المستجيبين في كل قطر من أقطار الأرض ، ويكفي أن نشير فقط إلى أن الغازات السامة والحارقة التي ابتدعها الألمان أصبحت تستخدم اليوم في إبادة الجرذان والجراد وغيرها من الحيوانات والموام التي تعشى الزارع والحقل ، وأن آلات حفر الخنادق أصبحت تستعمل الآن في حفر الجدران ودك الأحجار وإزالة الأرسنة كما أن السبائك تستخدم في تسوية الأراضي البحرية ونسف اللال وغير ١٤١ يعوق نظام الأراضي

هذه فوائد اختراعات الحرب ، غير أن الرسائل الحربية لمجلة نيويورك العلمية الجامعة يقول إن العلوم الكيميائية سيكون لها الفضل في الحرب القادمة التي أخذ شعبها الخيف يحول الآن فوق سماء أوروبا لأن كيميائيي الألمان باختراعاتهم الغازات الخائفة والسامة وغيرها مهدوا لغيرهم أن يخترعوا غازا أشد فتكا منها كغاز اليوسيت الخائف الذي اخترعه أحد كبار ضباط الأمريكان وله قوة على القتل أشد من سائر الغازات التي كانت مستعملة قبل الحرب

وهذا الغاز عبارة عن سيال زهني تشتم منه رائحة الجرايموم وقت اشجاره ويلهب بملامسة الهواء ، أما إذا أطلق في الهواء فإنه يتحول إلى غاز يكثر لساعته بمجرد امتشاق شيء يسير منه لأنه يسمم الدم ويقتك بالقلب والرئتين وإن سقيت منه قطرة واحدة على الكف سببت الموت بعد ساعات قليلة بقضيتها صاحبها مختضرا

في عذاب أليم

وقد وضع الأمريكان هذا الغاز في شكل قنابل طول الواحدة عشرون سنتيمترا تطلق بالآلات موضوعة على محلات سيارة تقطع ٢٤ كيلومترا في الساعة ، وقد اختبرت فنجبت للغاية ودلت على أن هذه المحلات تستطيع أن تطلق قنابلها الغازية على مسافة ثمانين كيلومترا وتأثير اليوست عند انتشار غازه يبق شديدا الى مسافة بعيدة حتى ان فتكه يكون ذريعا على مسيرة أميال كفتكه عند مدبره ، وإذا ألقى من طائرة انشر في بقعة عظيمة وقتل الآلاف من الناس بالدرجة ، ولذا أقيمت ست قنابل منه على عاصمة من العواصم الكبرى أهلكت سكانها وأبادتهم في الحال وهذا الاختراع وضع في يد الأمريكان أقوى سلاح عرف منذ خلق العالم ، ومن يعلم غدا ما تقتفه عقول المخترعين من الاختراعات الرهيبة في الحرب المقبلة التي ستكون أشد الحروب ويلا وأعظمها فظاعة . انتهى

الكلام على الضباب

جاء في تلفراف خاص من لندن من مراسل جريدة «الفياء» بتاريخ يوم الخميس ١١ ديسمبر سنة ١٩٣٠ م تحت العنوان التالي وهذا نصه :

تكاث الضباب في انكلترا

تكاث الضباب ثانيا وعرقل سير المواصلات في شواطئ انكلترا الجنوبية وفي لندن وضواحيها ، ولكنه اقلع في اليومين الأخيرين في خليج المانش ، أما في ساوثبتون فكان كثيرا ، وكذلك في دورف عند مصب نهر التيمس ، وكان بنوى جلالة الملك الخروج للصيد لأول مرة بعد إبله من مرضه في سنة ١٩٢٨ إلا ان حالة الضباب جعلته يضطر الى العدول عن الصيد ، وفي توبكتهم قد انتشع الضباب عنها قليلا عند الظهر فحماي الضباب في البلجيك

يقول الخبيرون انه لا بد أن الضباب الذي غشى جزر البلجيك كان مصحوبا بمواد غازية خائفة والتي كانت سببا في هلاك ٩٠ شخصا ولكن لم يثبت بعد أن اللهب الكبير في الصاعد من المصانع كان له أي أثر في ذلك ، وفيه أيضا ما يأتي :

هل أصبحت مسألة الضباب سرا فامضا ؟

برلين في ١٠ ديسمبر مراسل الفياء الخاص : يكتنف مسألة الهول الناجم عن تكاث الضباب ومخايله سرا غامضا نظرا لهلاك كثيرين بسببه في الوادي القريب من ليبج ، ولكن يظهر أن هذا السر المقنع أمكن الآن إزاحته بالتحقق من أن الأسباب المباشرة لضحاياه هو الاعتراف بوجود بخرة خائفة من الستان المؤذي المتصاعد من مداخن المعامل ثم يرسب ويتجمد ، وقد كان عدد فحماي الضباب ١٣٠ شخصا بخلاف الذين قتلوا الى المستشفيات والذين تحت خطر الهلاك اشتتقا ، ولكن اتضح من تقرير البحث طبيا أنه لا أثر فيها للغازات السامة كدلت تقارير الخبراء الاختصاصيين ، وقد فتحت هذه الحادثة المروعة والغريبة في بابها بابا للعلماء لاكتشاف مفتاح هذا السر الغامض ، وبدؤوا يزاولون بحثهم بغير توان ولا كل ينشأ تفرق أمامهم مواكب الجنازات التي يشعون فيها المنكوبين الى مرقدهم الأخير ، وقد أرسلت فرق من البوليس لحفظ النظام في الأقاليم المنكوبة اه

وجاء في تلفراف آخر من برلين من مراسل جريدة الاهرام الخاص بتاريخ ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣٠ ميلادية مانصه :

عودة الضباب الرباني الى بلجيكا

جاء من بروكسل أن الهول الإنساف الذي أودى بحياة الكثيرين في وادي الموز في أوائل هذا الشهر عدل في عيد الميلاد ، إذ نعيم ذلك الضباب الرباني القتال على مدينتين في المنطقة الجنوبية ، قضى على حياة ثلاثة أنفس ، وهناك عدد كبير من الصائين بهذا الوباء في حالة خطيرة ، وأثارت الحكومات الناس بملزمة التنازل ، وقصد أعضاء اللجنة التي انتدبت لفحص الضباب الأول الى تلك المنطقة لمواصلة المباحث العلمية لمعرفة العلة اه

هلهوذا سلاح الطيران في الحرب الكبرى السابقة وفي الحرب المقبلة وهو السنان ، وهاموذا الضباب التي أخذ يظهر في أوروبا قليلا قليلا ويقتل الناس . أيها الناس : أليس هذا هجبا ! ينزل الله سورة باسم السنان ، ثم يقوم الناس باستخراج ذلك السنان من المواد الأرضية وينشرونه بينهم فيقتل الناس بسهولة ثم ترى الله عز وجل يخرج من الله ضبابا وينشره بينهم في بلجيكا وغيرها فيموت به أماس ، أليس هذا الثاني هو نفس السنان الذي جاء وصفه في الحديث الشريف المتكتم ، وأن هذه الانسانية الجاهلة الغبية لما أن سارعت الى استخدام السنان الصناعي في المحاربة أشار الله لهم بالحكمة القرآنية بالضباب في أوروبا من صنعه هولاء من صنع الانسان ، وكأنه سبحانه يقول لهم : أما قدر أن أبث عليكم عنابا بنفس السنان وأنشره بينكم فهل تكون في يوم أو بعض يوم ، فقد شرحتم الجثث التي أماتها دخاني ، فهل وجدتم فيها أثرا غير دخاني أنا ؟ وما أوتيتهم من العلم إلا قليلا . إن الضباب الذي أهلك النفوس انذار للأثم كلها بالهلاك عاجلا أو آجلا اذا لم تقطع عن الشر ومصادق النبوة واستجمال الآيات التي مستغرقيل قيام الساعة ، فكأن العناية الإلهية أظهرت هذا لتدل المسلمين على أن مافي كتابكم من السنان هذا نخوفه وعنوانه ، فكتابكم صدق وحق ، ولكن ليس معنى هذا انكم تكونون جهلاء فلا بد من التعلم والجد وبجارية الأمم حتى تفوزوا في الدنيا والآخرة . والى هنا تم الكلام على الطيفة الثانية والحمد لله رب العالمين

الطيفة الثالثة

في قوله تعالى : واخلقنا السموات والأرض وما بينهما لامين

هذه الطيفة فيها جوهرتان

الجوهرة الأولى : محاوره سقراط مع أرسطو ديموس

علم سقراط من أرسطو ديموس انه لا يقرب القرابين ويحضر الامور الدينية ويسخر من يعتنى بالعبادة فقال له : أي الناس من يحبك براعته في الصنعة ؟ فقال نعم يسي الشعراء والمؤرخين من كان منهم أربع من غيره فقال سقراط : أيعايندك أرفع شأنا ؟ أم صنع الخناثيل العارية عن الحركة والعقل ؟ أم من يصور الأشباح الحية المتحركة ؟ فقال من صنع الصور الحية المتحركة اللهم إلا اذا كانت تلك الصور من عمل المصادفة والاتفاق لا من عمل العقل . قال سقراط : اذا فرضنا أشياء لا يظهر المقصود منها وأشياء أخرى بينة القصد والمنفعة فما قولك في تلك الأشياء ماعى عندك من فعل العقل . وماهى من فعل الاقان ؟ قال لاشك ان ماظهر قصده ومنفعته من فعل العقل . قال سقراط : أوليس ترى أن صانع الانسان في أول نشأته جعل له الآلات والحس لما في تلك الآلات من اللتعة الظاهرة فأعطاه البصر والأذنين ليصرويسمع ما يكون ليعيشه ناضا ، ومافائدة الزوايح لو لم يكن لنا الخياشيم ، وكيف ندرك المطاعم ، وحقق بين الحلو والمر والمز لو لم يكن لنا لسان نذوق به ، ان بصرا معرض للآفات ، أوليس ترى كيف أعتقت القدرة الإلهية بذلك فجعلت

الأجنان له كالأبواب لتفتح ما يسبب البصر ويجعل الأشقر كلتناخل لتقها من أضرار الرياح لما قولك في آلة السمع وهي قبل جميع الأصوات ولا تمتد أبدا ، لما رأيت الحيوان كيف ربت أسنانها المقدمة وأعدت لتطعم الأشياء فتلقها الى الأرض اسرعا فتدقها دقا ، فلذا تأملت في ترتيب ذلك أتمكن لك أن تشك هل هي من فعل الاتفاق أو العقل ؟ قال أرسطو ديموس : نعم اذا فكرنا في ذلك لان شك في أنها من فعل صانع حكيم كثير العناية بمصنوعاته . قال سقراط : اعتبر ما جبل عليه الذكور من حب التناسل وفي الاناث من الحنين الى بنها ، وهوه غروس في كل حيوان من الشوق الى الحياة ، والتفوق من الموت ، أليس ذلك من عناية صانع قد أراد بقاء مصنوعاته ، فلذا تحققت وجود العقل فيك فكيف تظن ألا وجود للعقل فيها هو خارج عنك مع انك اذا فكرت في الأرض واتساعها وقست ذلك بجسدك فقد تحققت أنه ليس لك من الأرض إلا أنص جزء وأقله وكذلك الرطوبة التي منها تركب جسدك فلها ليست من مجموع الرطوبة إلا أحقر جزء وكذلك بقية ما في جسدك فكيف تظن انك منفرد تتبدل بالعقل دون بقية العالم على سعة ورجه ، وأن هذه للمصنوعات التي لا تدخل تحت الحصر ، وهذا النظام الغريب الحاصل فيها لإيماننا من عدم العقل قال لا والله وانما لا أرى أصحاب هذه العجائب كأشاهد أصحاب القنايل والصور المصنوعة في علتنا هذا . قال سقراط : انك لا ترى نفسك المدبرة لبدنك ، فلي هذا كان ينبغي لك أن تقول ان أهلك صادرة عن اتفاق ومصادفة لاهن عقل . قال اني لا أستعير الاوهوت وانما أراها تهل عن أن تكون محتاجة لبداني . قال سقراط : فلذا كانت لاهل عن العناية بك كان من الواجب أن تحرمها . ثم قال : اعلم أيها الحبيب أن نفسك تدبر جسدك ما دامت مقارنة لياه ، فليكن أن تستقد أن الحكمة الموجودة في العالم تدبر كل شيء كما شئت . أفتظن أن بصرك يقدر على ادراك ما بعد عنك على مسافة بعيدة ، وأن بصر الإله لا يقدر على أن يحيط بجميع ما في العوالم . انتهى ملخصا

وانما خلت هذه المحاوره لأنها من أحسن ما قاله الناس في نظام هذه الدنيا وعناية الله بها وهو معنى قوله تعالى : « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لالعبي » . فالمحاوره تبين بالعقل وجود الله تعالى وعنايته بالمخلوقات . ثم ان سقراط استدلل على بقاء النفس بأدلة في المحاوره التي بينه وبين فيثون في بقاء النفس بعد الموت وهالك ملخصا منها :

قال سيبس : ما هي الصلة فيما يقوله الناس ؟ انه لا يسوغ قتل المرء نفسه ؟ هذا ما كان يقوله فيلاوس وغيره ، ولكن لم أعرف من أحد بوجه شافية في ذلك ، قال سقراط : طب قسا ، لعلك ترشد اليوم الى ما يطلبه بل ولعلك تقضي الحجب بما أقوله وهو انه يجب على كل امرئ أن يعيش وان كان من الموت خيرا له من الحياة ، ألا تستغرب انه لا يجوز لمن يؤثّر الموت على الحياة أن يتخلص منها بنفسه ، والله من الواجب عليه أن ينتظر من يخلصه منها . فقال سيبس : الله أعلم على عادة بلاده . قال سقراط : هذا الرأي مخالف للعقل في ظاهره ، ومع ذلك فله حجة مقبولة ، نعم ان ما قال عند تعليمنا أسرار العبادة : « ان الانسان كالجندي المنصوب لحراسة لايسوغ له أن يتركه بدون إذن » فهو مصعب الفهم ويتجاوز قدرتنا . فالأحسن أن يقال « إن لللائكة لهم عناية بالنفس ، وأن البشر متاع لللائكة وملئكة » ، ألا ترى هذا حقا يا قابس ؟ فقال قابس : نعم . قال سقراط : لو أن بعض رفيقك قتل نفسه من غير انك ذلك لضربت عليه ولعاقبه لو كان من الممكن ولهذا السبب فقد يسوغ القول بأنه لا يجوز للانسان أن يقتل نفسه ، وينبغي له أن ينتظر الاذن بالخروج من الحياة مثل ما أتاني اليوم . قال قابس : وهذا لا يعيد عندي أيضا ، لكه اذا ثبت عناية الللائكة بالبشر وأن البشر من ربهم ومتاعه ، كيف قول ان الفيلسوف يميل الى الموت بإرادته ؟ وكيف يعقل أن يجب الفيلسوف الخروج من ولاية الللائكة وترك هذه الحياة اذا تفرغ عنه ان أفضل الولاية يصرفون عنايتهم اليه

مادام حيا ، أظن انه يدبر نفسه أحسن مما يدبرون ، ثم إن السفيه قد يحاول الفرار من ربه بكل وسيلة ولا يفهم انه لولازم ماهو أفضل منه لكان خيرا له ، لكن العقول يريد أن يبقى دائما في ولاية من هو أفضل منه ، ولذلك تأتي أقول بأسقراط قبض ما قوله أنت ، فأقول إن العقول يشتق عليه الموت ، فلايسر بالموت إلا المجنون . فقال سقراط : ماهو رأيك في الموت ؟ أليس هي فراق الروح من البدن بحيث يصير الروح وحده الى جهة والبدن وحده الى جهة أخرى ، أليس هذا ما يدعي الموت . قال سيمياس : وهو كذلك . قال سقراط : فهل ترى انه يناسب الفيلسوف أن يحصر على ماقال له للملاذ مثل الطعام والمشرب وغيره من اللذات التابعة للبدن ، فيكون حوصه مثلا على الملابس القلوة ، والنعال المزخرفة ، وباقي مايزين به البدن ، هل ترى انه يحظم أمرها ، أو انه يحقرها إلا اذا أوجبه الضرورة الى استعمالها . قال سيمياس : أرى أن الفيلسوف الحقيقي لايسمه إلا استتار كل ذلك . قال سقراط : فأنك ترى إذن أن اجتهد الفيلسوف أنما قصده ليس البدن ، وأن يفرغ جهده في التبعاد عنه قدر إمكانه ليترفع لصالح نفسه دون غيرها ، وعلى ذلك فإن الفيلسوف يختص دون غيره من البشر باجتهاده في الفصل بين نفسه وبدنه والفرق بينهما . قال سيمياس : وذلك ظاهر ، إلا ان أغلب الناس يرون أن من لم يلتذ بتل ما ذكره ولا يستعمله فهو عن لايحسن التصرف في حياته ، وانه أقرب الى الموتى منه للأحياء . قال سقراط : وهذا حق ؟ فإذا تقول في اكتساب العلم ؟ هل ترى أن البدن مما يوقه ، أو انه يعين عليه ، هل ترى أن البصر والسمع مثلا مما يدرك به الحق اليقين ، أم الخلال كما قال الشعراء اما لانسمع ولا نبصر شيئا كما هو في الحقيقة ، فإذا لم يثبت شيء مما نذكره بهاتين الحاستين لم يثبت شيء مما نذكره بالحواس الأخرى ، لأنها تنقص عنها قوة وإدراكا ، وعلى هذا اذا سألتنا عن الوقت الذي نذكر فيه الروح الحق لا يقال انها تجد الحق مادامت مشتركة للبدن ، لأننا نرى عيانا أن البدن يزفها عن الطريق الحق ويملؤها أوهاما ، فينبغي أن يقال : « أن الروح لا يدرك الحق » إلا بالنسبة ، ونرى أن الفكر أقوى ما يكون اذا لم يشوشه البصر ولا السمع ولا اللم ولا اللمنة ، فأعجز في نفسه وفارق البدن مغفلة تامة وتعلق بما هو موجود ليعلمه . قال سيمياس فم ما قلت . قال سقراط : أوليس تحقر الروح البدن في قتل تلك الأوقات وتفرغه ، وتحاول في أن تنفرد بنفسها . قال سيمياس : اني أرى ذلك أيضا . قال سقراط : فإذا تقول في بعض الأشياء كالعدل مثلا والخير والجمال ، هل تقول انها موجودة أم لا ؟ قال سيمياس : لاشك في وجودها . قال سقراط : هل رأيته يبصر هل أدركت بحاسة من حاساتك الأخرى الصحة والعظم والقوة وغير ذلك مما هو جوهر الأشياء أي ماهيتها ، هل تعلم حقيقة ذلك بواسطة البدن ، أوليس من الثابت أن ذلك إنما يدرك أتم إدراكا اذا تنهى الانسان لأن يدركه بالعقل وحده ، وانه يبلغ في ذلك غاية اليان اذا جعل كل شيء نصب بصره من غير أن يستعين بالبصر وغيره من الحواس البدنية واستعمل فكره صافيا من غير شائبة شيء . فلوته فأقول بأن يدرك جوهر الأشياء الصافي الحقيقي دون مشاركة العينين ولأذنين منفكا عن بدنه انتفكا كما تاما إذ لا يحصل له من مشاركته بالبدن ، إلا القشويش وعدم وجدان الحق ، فأقول : انه اذا قدر أحد على إدراك جواهر الأشياء فلا يقدر عليه إلا مثل من ذكره الآن

فتثبت انه اذا أردنا أن نعلم شيئا حق للمعرفة فلا بد من الانفصال عن البدن حتى تنفرد النفس بالنظر فيها قصدنا معرفته فلانال المعرفة التي صرحنا بحجها لإعند ذلك أي بعد موتنا ومفارقة الحياة ، وهذا مما يقو به العقل أيضا ، فانه لما بين انه من المستحيل أن نعلم شيئا صافيا مادام في حجة البدن لا يخلو الأمر من حالين إما اما لانضم الحق أبدا ، ولما اننا نعلمه بعد الموت لأن الروح إذ ذاك يكون مأكلا لنفسه حرا بما يوقه الآن فإدنا في قيد الحياة لا تقترب من الحق إلا بقدر ما تنباعد عن البدن وتنفك عن الخلطة معه إلا بقدر ما ندعو إليه الحاجة ولا نخبره أن يعدونا بما فيه من اللذات طباعا رقيقا به أهطنا صافية من فاندوراه الى أن نخلصنا

الله ، فإذا تخلصنا من سفاهة البدن يشبه أن يكون كلامنا إذن مع من نخلص مثلنا فنقطع بنفسنا جوهر الأشياء الصافي وهو أصله ما يدعى الحق ، هذا ما يقوله الفلاسفة فيما بينهم على ما أراه . فإذا كان الأمر كما ذكر فإن كل من هو بسدد السفر حيث أنا متوجه كان له أن يرجو ادراك الحق التي أجهلنا طلبه في هذه الحياة وعلى ذلك فإن هذا السفر الذي أمرني به الإله قد ملائني رجاء ، وعلى مثل هذا يكون كل من اعتقد من نفسه أنها مستعدة لمعرفة الحق أي أنها بلغت من الصفاء والقوة والقدرة اللازم ، وهذا الصفاء لا يصحكون إلا بانفصال النفس عن البدن وتوحيدها على الانفراد بنفسها دون مشاركة قبيحها البدني ، وإذا كان الموت ليس إلا هذا الفراق بين النفس والبدن ، أليس من الصواب أن يقال : إن الفيلسوف لا يشغل له إلا هذا الفراق فإذا سعى عمره كله لنيل هذا الغرض ثم تأسف وغضب عند اقتراب الموت أليس ذلك من الضحك ؟ قال سيمياس : نعم ما قلت . انتهى كلام أفلاطون وهو الليل الأول على أن الموت لا يخاف منه من تفرغ للفلسفة إلا أن المحضر أن يقول : ما الدليل على بقاء النفس بعد الموت ، فأذا لم يكن لنا ثبوت ببقائها فأنى لفيلسوف ما كان يرجوه من ادراك الحق عند مقارفة بدنه ، فأخذ سقراط في الرد على هذا الاعتراض وبيان بقاء النفس بعد موتها ، فأنى بأدلة : أولها أنا شاهدنا في العالم الضد إنما يتولد عن ضده ، فأجل مثلنا ينشأ عن الصحيح ، والعدل عن الجور ، واليقظة من النوم ، والنوم من اليقظة ، والقوة من الضعف ، وبالعكس فالأشياء تستحيل بعضها إلى بعض ، ثم ترجع إلى صفة الباترة إلى ما كانت عليه ، والحياة والموت والوجود والعدم قضيان ، فالحياة تنشأ عن العدم ، والموت ينشأ عن الحياة ، وعلى ذلك فيازم أن تنشأ الحياة من الموت إذ لا بد أن يكون للموت ما ينقضه والا فقد تخالف الطبيعة قاعدتها المطردة في جميع الأشياء : ثانيا ما يستدل به من طبيعة العلم ، وذلك أن العلم إنما هو قد كثر النفس ما كانت قد علمت في حياة سابقة ومصادقه أنه أجهل الناس إذا سئل سؤالاً منتظماً عن مبادئ الهندسة مثلا ، وانتقل به السؤال من أصل إلى أصل شيئاً فشيئاً على الترتيب فقد يجد من نفسه مبادئ الهندسة ومبادئ كل علم ، وهذا لا يمكن إلا إذا كانت تلك الأصول منطبعة في فطرته ، موجودة عنده قبل ولادته ، وهناك دليل آخر من هذا النوع ، وهو أن لولا فرضنا علما سابقا موجودا في ذهننا لما تمكنا من فهم شيء من الموجودات فإنا إذا قابلنا مثلا شيئاً بشيء آخر ما أمكن لنا أن نقول أنه مساو أو غير مساو لولم يكن في ذهننا قبل كل مقابلة معنى المساواة المطلقة التي لم نستفدها من الأشياء المحسوسة إذ لا شيء منها يتحقق فيه المساواة إلا بنوع قريب ومسامحة فوجب أن تكون معنى المساواة مرتسمة في ذهننا حتى نحكم على الأشياء أنها متساوية بعضها ببعض أو غير متساوية ، ومثل هذا يقال في باقي ما يحكم به فكرونا كالجمال والعدل والوجود وغيره ، فإن كل ذلك يستدعي معرفة تلك المعاني قبل الحكم بها فيازم منه أن العقل البشري إنما اكتسب هذه المعرفة بمشاهدة تلك المعاني صافية غير مشوبة بلادة قبل ورودها إلى هذا العالم

الآن لنتأمل أن يقول هذا الليل قد يكفي لبيان وجود النفس قبل هذه الحياة الدنيا ، فالليل على بقائها بعد الموت ؟ فأجاب عدة أجوبة أولها : أن النفس جوهر غير مرمي فيازم منه أنه على غير طبيعة الأجسام لأن من طبيعة الجسم أن يكون مدر كاً بأحدى الحواس وإذا كانت على غير طبيعة الجسم فهي إذن غير مدركة لأن التركيب من طبيعة الأجسام ، وإذا كانت بسيطة فأنها غير قابلة للانحلال لأن الانحلال يعزى للمركب إلى المواد التي منها تركيب ، فإذا كانت النفس بسيطة فلا يتصور انحلالها . الثاني : أن النفس هي الأمرة والبدن هو للمأمور فمن طبيعة الأمور الإلهية أن تكون أمرة ومتصرفه ، ومن طبيعة الأمور السفلية أن تكون مأمورة فالتنفس إذن من الأمور الإلهية وهو غير قابل للزوال ، فهي إذا بقيت على صفاتها وفطرتها من غير أن تشارك البدن في أدناسه فأنها تلتحق بعد الموت بوجود مثلها فتبقى معه سعيدة متبهجة محررة من أوهامها وأحرفها

وأهوائها وكل ما كان يستعمرها ويشوشها إذ كانت في قيد الحياة ، وإذا تركت البدن مائة مدنة غير معتدة من الوجود إلا ما يؤكل ويشرب ويدرك بالحواس فلا يسعها إلا أن ترجع إلى الحياة فتتعلق بأبدان مشاكلة لطبيعتها ، فمن جعل بطنه إله يلتحق بأجسام حديد أو خنازير ، ومن كان دأبه التعسّي والظلم والعدوان يتعلق بأجسام الزناب والبوازي وغيرها من الحيوانات الضارية ، ومن اعتاد الخمر والصلاح ، لكن بقوة الطبيعة والملكة دون أن يشاركها الفلسفة والفكر فقد يصبر من التحمل والفعل وغيره من الحيوانات النافسة ، أو يتعلق بأبدان الصالحين من الرجال ، ولما الاتحاق بالملائكة فلا يجوز إلا لمن ترك الحياة وهو على غاية من النقاوة والصفاء ، وهذا مختص بالفيلسوف الحقيقي دون غيره

قال أفلاطون : وقد سكت سقراط بعد هذا الكلام برهة وسكت أصحابه مفكرين ، ثم رجع سقراط لسؤالهم : هل ماسمعوه منه يكفي في إثبات بقاء النفس بعد الموت ، أوفى الأقل في ترجيح هذا الرأي على غيره إذ هي الغاية القصوى التي يمكن ادراكها في هذه الحياة في مثل هذا الموضوع ، فاعترض عليه بعض التلاميذ باعتراضين : الأول . قائل أن يقول إن النفس لبدن كالألحان لآلات الموسيقى ، فإذا انكسرت الآلة وفسدت لم يبق للألحان وجود ، وهكذا يمكن أن يقال : إن النفس ما هي إلا نتيجة تكافؤ العناصر واعتدالها في المزاج الإنساني ، فإذا فسد الاعتدال وتلاشى المزاج ففسد النفس لا محالة ، والاعتراض الثاني أن يقال : قد سلمنا بوجود النفس قبل هذه الحياة وإنما أفضل من البدن وأقوى منه وإنما تبقى بعد موته غير أنه لا يترتب على ذلك جازاؤها على النجوم إذ قد يتأني أنها تبقى بعد موت بدنها ، ثم بعد موت بدن ثان ، فتنتقل هكذا من بدن إلى بدن مدة ، ثم تضيئ بفتنة أحد أبدانها كما يموت الإنسان وهو قد أخلق الثوب بعد الثوب ، ثم يموت من آخر ثوب قد أخلقه

فأجاب سقراط عن الاعتراض الأول بقوله : إذا سلمنا أن العلم والتمتع إنما هو ذلك النفس ما كانت قد علمت في حياة سابقة ، فلا يسوغ أن يقال إن النفس نتيجة اعتدال المزاج إذ لو كان كذلك لما سبق وجودها وجود المزاج ، فكيف تذكر معلوماتها في حياة سابقة ، فإذا وجب الاعتراف بأن العلم لا يتصور إلا بوجود هذه المعلومات السابقة في النفس لزم منه أن لا تكون النفس نتيجة المزاج . وهناك جواب آخر وهو أنه لو كانت النفس نتيجة المزاج لكانت تابعة للمزاج ولا تخالفه في شيء بل تكون مسخرة له ، ونجد الأمر على خلاف ذلك في الواقع إذ قد نرى النفس تنهى البدن عن أشياء ، وتأمره بأشياء ، وتصرف فيه بوجوه مختلفة ، وهذا يدل على أنها مغيرة للبدن مستقلة عنه ، وأن جوهرها أعلى وأفضل من طبيعة البدن إذ لو كانت تابعة للمزاج لما كانت تفارقه في شيء ، ولما كانت النفس تختلف عن النفس إذ لا فرق بين الألحان والألحان إلا في القوة والضعف لا من حيث أنها ألحان ، ونحن نشاهد بين النفس وأخرى التفاوت العظيم . أما الاعتراض الثاني لجوابه أن الأشياء المحسوسة الغاية لا يتصور قيامها إلا بوضع معان غير محسوسة أزلية ككلمة الوجود ، وأن هذه المعاني مادامت هي هي لا تقبل شيئا عما ينافضها وبمثل ذلك فإن معنى العدل لا يقبل شيئا من الجور والفساد لا يدخلها شيء من التفاوت ، والفرد مادام على جوهر الفرد لا يقبل من الزوجية شيئا والعكس بالعكس ، والقول في النفس على مثل القول في المعاني سواء بسواء إذ قد قرر أن النفس جوهر بسيط قائم بنفسه بخلاف المعاني فيكون حكمه مثل حكم المعاني من عدم قبول الضد والتقيض ، ولا شك أن النفس أصل للحياة في كل حي فهي إذن حية من ذاتها فهي إذن لا تقبل قبضها أي الموت مادامت على جوهرها وهو عين الحياة ، فكما أن الفرد مثلا لا يكون زوجا ، ولا العدل جورا ما بقي على حالهما ، كذلك النفس لا تقبل الموت ولا يدخلها الفناء فهي إذن أزلية ، ثم إذا كان الموت نهاية كل شيء كان فيها فائدة عظيمة للشرير والظالم فانه يستريح بالموت من نفسه ، ومن بدنه ، ومن شره ، ومن عواقب شره دفعة واحدة ،

وهذا مما لا يرضيه العقل ولا الانصاف ، فتمين أن نعتقد في النفس أنها اذا فترت البدن فقد تعمل معها ما كانت عليه من الأوصاف وأن عاقبتها تكون في الحياة القابلة على نسبة تلك الأوصاف أن خيرا غير وان شراً فشر فمن ترك وهو في قيد الحياة ملاذ البدن ومتاع الدنيا واجتنب ما يضيء أو يضرب ولم يطلب من اللذة إلا ما يحصل عن العلم ، وزين ضميره بما يرويه من الزينة كاللغة والعدل والبرودة والحريّة والصدق فله أن يترقب وقت السفر من غير اضطراب . انتهى الكلام على الجوهرة الأولى

يقول المؤلف : الألة جيلة ، ولست اخاف سقراط في مسألة التناسخ وانتقال أرواح الناس الى حيوانات فهذه محدودة ردا بشدة ، وأيضا الناس ليسوا ملكا للملائكة بل ملكا لله وحده اه

الجوهرة الثانية

حكاية

قد جاء في الجرائد الفرنجية منذ سنين أن التلاميذ في إحدى الكليات بإنجلترا ليل سمعوا ضجة عظيمة في المدرسة ، ذلك انهم أزعجهم طلقة نارية ، فهرولوا الى مكان الحادثة ، فأروا نعلينا يهوديا مضربا بدمه ، وبجانبه الآلة التي ضرب نفسه بها وهي (الريفر) ووجدوا ورقة مكتوبة بجانبه فيها : « أنا القى قتل نفسي لأنا في هذا اليوم قرأ علينا الأستاذ قول أرسطاطليس : إن الانسان لا سعادة إلا بعد الموت ، فهاأنذا قتل نفسي لأصل الى السعادة » .

وقال أصحاب هذا التحيز : انه قال عند المساء ، أتى سأقتل نفسي الليلة ، فضحك منه أصحابه ، وقالوا : لماذا ؟ قال لأصل الى السعادة ، فان أرسطاطليس يقول : « إن الانسان مادام في البدن فان البدن يعوقه عن سعادته ، فزاد فحكمهم ، وظنوا انه يلهو ويلعب ، وقد تم ما قصده » اه

يقول المؤلف : وهذا هو القدي في هذه المقالة

خاتمة المقال

في معجزات القرآن ، في سورة النحل

تبين لك في هذه السورة أن النحل رأه أهل مكة ، وأنذروا البطشة الكبرى ، وقد تم ذلك يوم بدر والمسلمون اليوم رأوا النحل في الحرب الكبرى ، وأنذروا البطشة الكبرى ، والبطشة الكبرى آتية لا ريب فيها في الدنيا أوفى الآخرة ، والأقرب أن تكون في العارفين ، فكما كانت البطشة الكبرى يوم بدر ولم تمنع من بطشة القيامة فهكذا ستكون البطشة الكبرى في الدنيا ولا تمنع من بطشة يوم القيامة ، والبطشة الكبرى يوم بدر كانت على الكافرين ، والبطشة الكبرى المستقبلية ستكون على من يجهلون نظام الله تعالى (وبعبارة أخرى) انها ستكون على المعاصي السلية المتقدم ذكرها ، فمن تزوا العالم والمعارف والصناعات والمواهب التي أعطاها الله في الأرض فانهم للاحطة تميميم البطشة الكبرى فليكن المسلمون على حذر ، إن الله ما ذكر البطشة الكبرى إلا بعد ما قال في سورة سبأ : « سأوريكم آياتي فلا تستعجلون » وقال : « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها الخ »

فانه اليوم قد أبان الحقائق للشعوب ، والأم الإسلامية تنظر ولا تصمل ، فالبطشة الكبرى موجهة لهم ولأمثالهم ممن يتعاملون عن الحكمة والعلم ولم يأخذوا الحيطة والحذر ، إن في تسمية السورة باسم النحل أمرا عجيبا ، وكيف تسمى السورة باسمه ، وينتظره المسلمين به ، وينذروهم بطشته الكبرى ، إن هذا من أكبر المعجزات في هذا الزمان ، فقد أرى الله المسلمين الآيات ، وأظهر لهم المعجزات ، وأبان لهم النجيات ، ولم ينر

حجة إلا أمامها ، ولا آية إلا أبرزها ، فان نام المسلمون بعد الآن جاءتهم البطشة الكبرى فكانوا لها خاضعين ومن فكر وتدبر منهم لم يسبهم من الننان المزمع حوله إلا كهيئة الزكلم ، فليستعذ للمسلمون للعلم وليحفظوا النوم والكسل ، وقد أذرت وحذرت وإلته هوالولى الجيد تمت سورة الننان يوم الجمعة ١ مايو سنة ١٩٢٥

تذييل لسورة الننان

قد أصبحت مسألة الننان من المسائل المعتادة في العالم الانساني ، ولما ختمت تفسير السورة يوم الجمعة في التاريخ المتخصص اطلعت يوم السبت الموافق ٢ مايو سنة ١٩٢٥ م على مقال تحت عنوان « آراء في وادى النيل وسكانه » جاء في التفرعات العمومية « تشرت قله ليعلم قارى هذا التفسير أن ذكر الننان في القرآن وتسمية السورة باسمه من أكبر معجزات القرآن ، في هذا الزمان ، وهذا نمه :

نشرت جريدة مفشستر جارديان اليوم مقالا للسترانسوم وصف فيه سياحته من القاهرة الى الشلال فقال ما يأتى : « إن مصر ليست بلادا بل نهرا فتقه الأرض الضيقة على ضفتى النهر هي الصالحة للسكنى وهي تتوقف بكل ما فيها من عوامل الحياة على مجرى ماء واحد ، ففى وسع من يسافر فى النهر أن يرى الصحراء وراء المصور على الجانبين ، واذا وضع مدفع على أحد الجانبين فانه يسيطر على اللادكلها . الى أن قال : وتهبّ الريح الشمالية على طول ذلك الوادى الصيق مدة شهور عديدة ، فاستعمال الغازات السلقة على الطريقة الحديثة يكفى وحده بدون صعوبة لاهلاك جميع الأهالى ، وتقع النتيجة نفسها اذا أمكن حجب النهر أو تحويل مجراه . انتهى المقصود منه

فانظركيف أصبح الكلام على الغازات السامة أمرا عاديا ، وأصبح الننان بمثابة السيف والمدفع ، فكما يقال سيف ومدفع يقال غازات خائفة أوسامة ، وهوالذى أعلنه القرآن منذ ألف وثلاثمائة سنة ، والعالم الانساني اليوم قادم على أمور هائلة ، فلما فناء عظيم تقوم واذلال لآخرين ، واما أن يكون الناس قادمين على زمن انقلاب الى حال أجل عما نحن فيه لأن الشئ متى جاوز حده القلب الى ضده . وبهذا تمّ تفسير « سورة الننان » والحمد لله رب العالمين



تفسير سورة الجاثية

(هي مكية)

إلا قوله تعالى : وفي خلقكم وما يت من دابة آيت لقوم يوقنون . فندنية

آياتها ٣٧ — نزلت بعد النحل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حم * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَخِلَافَ
الَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَضَرِّيفَ
الرِّيَّاحِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ الْحَقُّ قُبَائِي حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ
وَأَيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ * وَلِلَّهِ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٌ * يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُكَلِّمُ عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرُ مُسْتَكْبِرًا
كَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرُهُ بِعَذَابِ أَلِيمٍ * وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ مُهِينٌ * مِنْ وَرَثَتِهِمْ جَحَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ
أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ
أَلِيمٍ * اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَسْكَمُ
تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَنْفَعُوا لِلَّذِينَ لَا يُرْجُونَ أَلَامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا
كَانُوا يَكْسِبُونَ * مَنْ حَمَلَ صَاحِبًا فَلْنَبْشِرْهُ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلِينَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم تُرْجَعُونَ *
وَلَقَدْ آتَيْنَا نَبِيَّ إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَوَرَقْنَا هُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَا هُمْ
عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ يَتَنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَنِي
يَنْبَنُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ
مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَنْ يُنْتَفَعُوا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ شَيْئًا
وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ * هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ

لَقَوْمٍ يُوفُّونَ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 سَوَاءٌ عِندَنا وَعِندَهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَئِنْ جَزَى
 كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * أَقْرَبْتُمْ مِنَ اتِّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاءَ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ
 وَخَصَّ عَلَى تَمِيمِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَنَ يَهْدِيهِ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ *
 وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ
 هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * وَإِذَا تُنْزِلَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا يَنْتَابُ مَا كَانُوا حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا بُرَاهِنًا
 إِنَّا كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلِ اللَّهُ يُخَيِّكُم مِمَّ يُبْخِسُكُمْ ثُمَّ يُبَحِّثُكُمْ ثُمَّ يُحْجِسُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ
 فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * وَفِي ذَلِكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ
 يُومِئِذٍ يَخْسِرُ الْمُبْطِلُونَ * وَتَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَنُونَ
 مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنْطَلِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ
 تَعْمَلُونَ * فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
 الْمُبِينُ * وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَاتِي تُنْزَلُ عَلَيْكُمْ فَأَسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا
 مُجْرِمِينَ * وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ
 نَعْلَمُ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّبِعِينَ * وَبَدَأَ لَهُمْ سَبْعَاتٍ مَا عَمِلُوا وَخَافَ بَيْنَهُمْ مَا كَانُوا بِهِ
 يَسْتَهْزِءُونَ * وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمُ
 مِنْ نَاصِرِينَ * ذَلِكَ بِأَنكُمْ اتَّخَذْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّبْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ
 لَا يُمْرَحُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ * فَفِيهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ * وَلَهُ الْكِبَرِيَّةُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *

هذه السورة قسبان

(القسم الأول) في تفسير البسملة

(القسم الثاني) في تفسير السورة كلها

القسم الأول في تفسير البسملة

في يومى الثلاثاء والأربعاء ١٧ و ١٨ من شهر مارس سنة ١٩٣١ م نجى لى يوم الثلاثاء هذا الجسم

الانسان بهيئة هجيبة ، وأخذت أدهش وأعجب من نظمه البديع ، أرائى أقف على قدمي ، أما اليدان فانهما مطلقتان ، ولما فصل الأصابع ، وابداع الأنامل والبنان أثر عظيم في الصناعة والزراعة والسياسة والتجارة ، ولم تكن أيدينا معاشرتي آدم على هذا المنوال وبهذه الهيئة لم نحسن عملا من أعمالنا التي برعنا فيها ، يداي حوتان ورجلاي لامقتان بالأرض عند الوقوف ، حوالب الأرض وبهائمها وأنعامها وزواحفها التي تسط هذه الزوية ، وإذا كانت يداي مطلقتين فلا جرم أطلق معهما عقل فأدرك بعض الحقائق والمعارف التي تصوغها اليدان ، فلم يك للحصان ولا للقطب الذين شغلت أيديهما بحمل جثثهما ليحريا فوق الأرض من الفكر مابه صنعا ما يصنع الانسان ، لا عقل ولا فكر إلا حيث يمكن العمل ، ولو أعطينا عقلا يقدران به على صنع الملابس والتصور في مدتنا العظيمة وحما باقيا بحالهما لم تتغير أيديهما لكان ذلك خطلا في النظام ، إذن العقل لا يعطى إلا على قدر الحاجة ، وكل مالم يسط من الأيدي ما أعطى الانسان لا ينال من الفكر والفكره المناسب لصنع اليدين ما أعطيه الانسان

ثم نظرت اذا الطير في جوف السماء تطير بأجنحتها ، ورأيت نهر النيل أمامي يجري فيه السمك ، ورجعت الى الانسان فوجدته لم يتجاوز صنع يديه من الأعمال مابه لرفع عن الطير في الجو ، أو انحط عن السمك في الماء ، الانسان محكوم عليه بالجلوس في هذه الأرض ، هو مع هذه الحرية مسجون سجننا مؤقتا ، وهذا السجن نهاية الموت ، الأرض سجن سجن فيه الحيوان والنبات والانسان ، النبات لاصق بالأرض والحيوان منجذب اليها ، والانسان هو القى ارتقى بعقله ، وكل ما قصه بطبعه ناله بعقله وضع يده ، فها هو ذا اكتفى بجلايب من صنع يديه بدل الأشجار والأولر ، وارتقى في الجو كالطيور بالطيارات ، وجرى في البحر والهر كالسمك وذلك بالقواصمات ، الانسان لم يرتق الى الأفلاك ، ولم يصل الى القمر أولم يخترع أولمشترى فضلا عن السباك ، ولم يخترق الأرض فيغوص في قاعها ، ولم يصل الى مركزها مخفوقا قشرتها ومأتمت قشرتها ، إذن صنعاته لم ترتفع به فوق الطيور ، ولم تنزل به تحت السمك

الانسان رقيه القدي وصل اليه في الأرض لم يزل محدودا معدودا ، الانسان حور وهو عبد ، مختار وهو مجبور ، لا يقضى له أن يصعد الى الجوزاء فيعرف أخبارها ، ولأن يصل الى بطن الأرض فيدرس عالمها ، وأتى سجن أشد من هذا ، وليس سجنه قاصرا على هذا ، بل هو مسجون في طبعه وأخلاقه وآرائه وأحواله ونظام عيشته ، وهو اندامته ، وقليله لآبائه وأسائنته ، وليس له خروج من رقة التقليد إلا بقوة تغلب على مادته تضارع قوة الطير في الجو إذ تعالى عن الجذبية التي تلمصه بالأرض ، فأخذ يضرب هواء الجو بجناحيه فهرب الهواء الى الزواء ، ثم يكره الهواء راجعا الى الأمام فيضرب الجناح ، وبهذا يكون الطيران ، فهذه العملية التي قام بها الطير جعلته بعيدا عن الأرض غير لاصق بها ، وهذه جعلت درسا للانسان ، وعلى هذه الشريعة صنع الطيارات فطارها ، والى هنا وقفت أعمال الانسان من حيث الارتفاع في وقتنا الحاضر ، نعم الانسان محبوس بمحدود الارتفاع ، بمحدود السياحة في بطن الأرض ، ولكنه من جهة أخرى له سياحة عقلية ، هو يدرك الأفلاك بعقله ، ويدرسها بفكره ، وبالعقل وحده طار في عوالم الأفلاك ، وغاص في بطن الأرض وعرف أعماقها وأطوارها ومساحتها ودرس ما أمجز كل حيوان على هذه الأرض ، فلذا كان الانسان في سجن من حيث جسمه ، فهو في حرية من حيث عقله

الانسان مجبور مختار مجوس مطلق

لم يحبس الانسان في الأرض لنظمه ولا لإهائته . كلا . ولكنه حبس ليدرس ، وبقي ليتعلم ، ولوائه أطلق سراحه وقيل له طركا بطير الطلوس ، وحلق في جوف السماء ، وتنقل في الكواكب ، وابتهج بجماله

كما يتجهج التحلات الطائرات في الخدائق بجمال الأزهار .

أقول : لو أنه قيل له ذلك فخرج من الحياة بغير طائل لأنه لم يدرك كوكبا واحدا فضلا عن كواكب ، بل يعيش ويموت وهولاء له ولا حكمة وليس له كتاب منير ، ويكون مثل الانسان إذ ذاك كمثل الذين يفتنون ويروحون في دور السينا (الصور المتحركة) يقضون أوقاتهم فيها هوا ولعبا ثم يرجعون ولا هم يقولون لو أن الانسان كان هذا شأنه لم يكن انسايا بل لم يكن إلا حشرات طائرات بين الكواكب كالخشرات الطائرات بين الأزهار .

تلك هي الحكمة في تباعد الكواكب واختلاف أضوائها وبعد الشقة بينها حتى مستقر كل جماعة في كوكبهم ويدرسوا نظامه ، ومعنى كلت قوسهم بمحصل الملكات العلوية ، هنالك يصلحون لمراسة نظام ماقى الكواكب ، فإذا تحت الأرواح عن أجسامها وغادرت هذه الأرض بالوت طارت الى تلك الكواكب وهي عالة قادرة على التعقل والفهم ، وهنالك تكون السعادة والسلام .

حبس الانسان في الأرض إخذ رحمة

إذن ماظهرنا أنه شر هو في حقيقته خير ، فهنا أمران : جسم ظاهره شر وباطنه نعمة لأنه كان سببا في دراستنا هذه الأرض مدة حبسنا فيها مدة الحياة بما فعل لتثنيته وتحيته ومداداته ولباسه والمداومة عنه بنخال الأعداء والحساد ، وروح لما الاشراف على العوالم كلها ، فالروح خير والجسم يعين على خير الروح لأنه جعل لتلقيها ، فجميع الأغلال التي تحيط بنا في هذه الحياة ، وأنواع الهوان والذل . كل ذلك لرقى أرواحنا فاذا رأينا هذه الأجسام منجنية نحو الأرض ، وهذه الشهوات الحيوانية تعذبنا كالللال والولد ، وأنواع الزينة والمتاع فاك ذلك لترقية الروح . إذن الضدان وهما الخير والشر أو الروح والجسم ما لهما الرحمة . وهذا معنى « بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » فاحب هذه الرحمة المذكورة في هذه السورة . ثم احب لما خطرت . فاقضى خطرتي أن للانسان جسما وللاسان روحا . فبالجسم أصبح الانسان والحيوان أشبه بالحيوسين في جهنم الذين قيل فيهم : « وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد سرايلهم من قطران وتغشى وجوههم النار »

أنا لست أقول ان الحيوان والانسان اليوم في جهنم . كلا . ولكني أقول ان هذه الأجسام الحيوانية لها شبه ضليل من حيث طباعها بطباع أهل جهنم كما أن قول القائل : « فلان وجهه كالبرص » ليس معناه انه مشبه من كل وجه . والانسان خاصة تراه بلبس ملابس مصبوغة بمواد القطران المستخرجات من الفحم الحجري كما هو معروف وتقدم في هذا التفسير موضحا ، والحرارة والبودة تزيدان وتنقصان وهما نصيبان وحده الانسان والحيوان . وترى أن الأم الظلمة في وقتنا الحاضر أشبه بزبانية جهنم لأنهم قوم مجرمون يضحكون على ذوقن الأم الضعيفة الشريفة ويعيون لهم الصنوعات الجلية ويفسوسهم في العيم ويدقونهم العذاب ألوانا ويمتثلون ببلادهم . وقد تنبه الشريكون اليوم لهذه المخازي . وأول من استيقظ لذلك أهل الهند واتبعهم العرب ومنهم أهل بلادى عند كتابة هذه المقالة . فهنا أولاء أخنوا يقاطعون البصائح الأجنبية لأنها نذير الهوان والشر . والله .

وبالجلة ان الأجسام الانسانية يحيط بها الشقاء ، ومن الشقاء أن الفول الظالمة معذبات بظلمها لأن الشر يصبح فيها عادة وذلك يضعفها بعد حين . فانظروا معذبة وقت ظلمها ، والظلمة سلتى جزاءها في نفس الحياة بعد حين باستفحال الشر فيها . وهذه الشرور الالاقات بالطالين والمطلعين نتائجها الباسر والحكمة والعلم والصبر . فهذه دروس تعبر بها الأمم ويخرج بها رجال يذيعون العلم في أكناف هذه الأرض في كل حين

وبالروح أدرك الانسان الحقائق حتى أشبه الملائكة الكرم ، وهذا ملخص ما تقدم ، أليس هذا هو معنى الرحمة في البسملة ؟ يا هبها ! شرّ وخبرهما يصحان رحمة ، إذن الشرّ رحمة والخير رحمة ، الضدان رحمة ، أليس هذا به تصرف معنى ماورد في الصحيح « الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالتقدير خيره وشره من الله » وإذا كان التقدير خيره وشره من الله فلم يقل : بسم الله الرحمن الرحيم ، هلا قلنا بسم الله الرحمن المنتقم ، ولم يقل : الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ، ولم يقل : فلك الحمد على ما قضيت ؟ وقد قلنا ان اقتضاء فيه الخير والشر ، ولا جرم أن الحمد لا يكون إلا على نعمة ، والشرّ في ظاهره ليس نعمة .

هذه بعض أسرار بسم الله الرحمن الرحيم ، فهو باحداث الخير رحيم ، وباحداث الشرّ والآلام يحافظ بهما على الخير كما حافظ على عقولنا ورباها بما حبس أجسامنا في الأرض وأحاطها بالتكاليف . كل ذلك يقوى الروح فتقوى على السير في العوالم الأخرى .

هذه هي الأسرار التي ألفتها في هذا اليوم ، وهذه الأسرار ظهرت في قوله تعالى في أول السورة « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » ، فزنته ظهرت في قهرنا ببقائنا في الأجسام الأرضية وشرورها وحروبها ووزاقتها ، وحكمته ظهرت في ارتقاء أرواحنا بذلك السجّ . ومن عجب أن السورة بدت بالعزة والحكمة وختمت بهما ، ففي أولها « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » وفي آخرها « فقه الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين » . وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم . . وهل افتتحتها واختتمتها بالعزة والحكمة معا إلا ليقاظنا لدراسة هذه الدنيا ، لأننا إذا لم ندرسها نعيش أشبه بالمنافقين لأننا نقول : بسم الله الرحمن الرحيم مع ان النوع الانساني يعيش وهو في شقاء أمد الحياة ، فأين هذه الرحمة ؟ فيقول الله : أيها الانسان ، أنا عزيز وحكيم ، فتهرب لك مصعوب بالحكمة في تريتك ، وأنت لن تفصل هذا إلا بالدراسة ، فدرس الأرضين وما عليها ، فبذلك تكون من المؤمنين

واعلم أيها النقي أن أسماء الله عز وجل ليس يعرف معناها هذا الانسان إلا بدراسة هذه الدنيا ، وكيف نعرف تكرار الترية ثلاث مرات في آخر هذه السورة إذ يقول : « فقه الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين » مع ذكر الكبرياء والعزة والحكمة إلا بالدراسة الصحيحة ، فهو مربّب وذو كبرياء وعزة مع الحكمة ، ثم كيف فهم قوله : « إن في السموات والأرض لآيات للذين يؤمنون » وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون » (ومعلوم أن الايمان أقلّ من الايقان فلم يجعل الأول مع اجمال خلق السموات والأرض وجعل الثاني وهو اليقين الذي اليه تشدّ الرجال وهو الذي طلبه الخليل وناله كما تقدم في سورة الأنعام) مع تفصيل خلق الانسان والحيوان . كل ذلك إنما يعرف بالدراسة والجد . إن ما ذكرته الآن من أن حبس الانسان في الأرض وإن كان ظاهره شرا هو في حقيقته خيراً من حيث انه يدرس هذه الدنيا ويتقن دراستها على قدر طاقتة بمثل صلة الى آية « وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون » لأن البحث العلم لا يورث اليقين ، فأما البحث الخاص والوقوف على الحقائق فهو الذي يورث اليقين ودراسة الانسان والحيوان تضيلا أسهل من دراسة العوالم كلها

ومن عجب أن الأقوال في الصلاة تتجه نحو هذه المعاني ، فانظر أليس المصلي عند قيامه يحمد الله الذي برى العالمين ويرحمهم ويحاسبهم ويهديهم الصراط المستقيم ، وعند الرفع والاعتدال يحمده مل السموات ومل الأرض ومل ما بينهما ومل ما يشاء من شيء بعد . فأقول المصلي في قيامه وفي رفعه من الركوع كلها اجمال لا تفصيل فيه ، وهذا بالإيمان أنسب وهو أشبه بالآية هنا « إن في السموات والأرض لآيات للذين يؤمنون » فإيمان قوله في ركوعه وسجوده (إذ يذكر للعوالم العامة ويتجه الى الأحوال الخاصة الأرضية فيقول : « خضع لك سمعي وبصري ونفسي وعظمي وعصبي وما استقلت به قدمي لله رب العالمين » في حال الركوع ، ويقول :

« سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره الخ » في حال السجود يرجع الى الدراسة المفصلة لأن تفصيل تشريح الانسان وبقية ماحوله من الحيوان هو الذي يورث اليقين .
 الله أكبر ، إن هذا من أعظم أسرار آية « واسجد واقترب » والحديث « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » ، ألا ترى أن في السجود ذكر تشريح الانسان ، وبإتقان دراسته هو وما يتصل به من علم الحيوان يكون اليقين ، وباليقين يكون الحب ، والحب هو أقصى سعادة الانسان ، انظر ما تقدم في سور كثيرة من اجمال العلماء أن اليقين والحب لا يكونان إلا بالدراسة التفصيلية . والآية هنا جعلت اليقين في دراسة خلقنا وخلق حيواننا . اللهم إن هذا عجب وأى عجب ، فمزه عز وجل بحبسه لنا في الأرض جعلتنا موقنين بالدراسة الخاصة ، ولولم يحبسنا لعشنا جهالا ، فالحمد لله على العلم والفهم والحكمة .

خوالطرى يوم الأربعاء ١٨ مارس سنة ١٩٣١ في تفسير البسطة في سورة الجاثية

إن هذه الخواطر متممة لما تقدمها في يوم الثلاثاء ، ذلك أتى قد أصابني مرض خفيف ، وقد جرت عادتي أثناء هذا التفسير أن أعمل بما أكتبه فيه من علم الصحة ، ولقد تقدم فيه أن أطباء العصر الحاضر قد رأوا أن الانسانية كثيرة الاسراف في ملابها وماكلها ومشاربها وشهواتها وضفوها الناس أن يلتصوا الشفاء في ترك كثير مما تلبسوا به ، ومن ذلك أن يجعلوا أجسامهم معرصة للشمس بشروط خاصة تقدمت في ﴿ سورة يونس ﴾ في أوّلها ، وأنا قد عملت بهذه الشروط ، وصرت أجلس في الشمس عاريا بعد التدرّج في ذلك (وذلك في الخلالات) للتداوى ، ففي يوم الأربعاء فطت ذلك ، وفي أثناء هذه الجلسة أخذت أفكر في أمر هذا الانسان في الأرض ، وكيف كانت رحمة الشمس عامة ، وقد تعرض لها النبات والحيوان فكانت الصحة والقوة

أما الانسان فإن أمره عجب ! أسرف في ملابسه وجعلها زينة له كما افتخر بلما كل والمنابر وهو في كل ذلك يحفر قبره يسديه ويتجمل المرض والموت والفقر والقل ، ولقد عجبت لأمر هذا الانسان وملاوكه وأغنيائه كيف شملت الغفلة أكثرهم ، وعمت أغلبهم ، ذلك أنهم لا يكادون ينالون تلك النعم حتى يضالوا ما يضلّه الصبيان والنساء فيظهرون بالزينة والزخارف والقصور ويتناولون ألوان الطعام وقد نسوا علم الصحة وجهوا حقيقة السعادة في هذه الحياة الدنيا ، أوليس من العجب أن هذا الانسان المسكين تسميه الحكمة الإلهية سياسة الانسان للعواب ، ألم تر أن الانسان ربما يمك حشائش يسديه وقد تكون من مستنقع يضرب بالعواب ضررا بليغا فيقذفها للجاموسة الشاردة فتزجج اليه ، أليس الملاك والأمرأ لما قصرت أظفارهم وقلت علومهم في أكثر هذا النوع الانساني قيل لهم احفظوا الأمم واحكموا البول وهاكم الملابس والماء كل نخلوا منها ما تشاؤون ، إذن جزاء قيام بعضهم بحفظ أنفسهم قد يجلب المرض والضعف والموت الزوال لهم .

يا سبحان الله : ضوء الشمس رحمة أرسلها الله لعباده غرموا منها أجسامهم بما أكثروا من ملابهم ، ولم ينالوا من ذلك الضوء ما ناله الأساد والتمور في القفار وحومت الأجسام من تدخل الضوء في السام الجلدية الانسانية كما تدخل في السام الجلدية الحيوانية والتمتحات الشعرية في أوراق الشجر والنبات .

ما أعظم الجهل في أرضنا ، أرى الأغنياء في بلادنا المصرية الذين يملكون أرضا شاسعة قد يمرّون وهم مكبلون بملابهم على الزرع الذين في مزارعهم وهم عراة الأجسام ماعدا عوراتهم فيرونهم أقوياء الأبدان أما هم فاهم مرضى الأجسام فلا يفكرون في ذلك .

يا سبحان الله : مصيبة آدم تلبس بها بنوه فحرم أكثرهم السعادة « ولات حين مناص » ، يولد الطفل ويحرم جسمه من ضوء الشمس من يوم الولادة الى يوم الوفاة وهذه من أكبر الضررات على هذه الانسانية

في يوم الأربعاء استجمعت بالماء الحار وأتبعته بالماء البارد ، وهذه الطريقة كما تقدم مفيدة ، ثم جلست في الشمس ، فقال جسمي حزيتين : مزية الماء ، والشمس ، فهما نعمتان غلبتهما معا في هذا اليوم ، وإن كنت لم أعلم بهذه النعمة إلا في أيام كبر سنّي ، وما لا يدرك كله لا يترك كله ، ضوء الشمس نعمة ، وكلما خفت للملابس كان الجسم الى الضوء أقرب وبالصحّة أولى .

حرم كثير من الناس هذه النعمة جهلا بنعمة الشمس واتباعا للعادة الراسخة في نوع الانسان ، ضوء الشمس نعمة والناس جهالوها ، ومن جهل النعمة حرمها ، إن الحرمان من تلك النعمة يتبعه النمل ، فإذا انتاب المرء أكثر للناس وقصرت أعمارهم بحرمان جلودهم من ضوء الشمس فإن بعض الأمم الشرقية أغنياءهم وقرأهم بسبب الغرام بالتقليد الأحمى كتقليد القرد لم يكتفوا بما يتجده صناع بلادهم من الملابس وإن لم تكن من أجود الأنصاف بل أخذوا يتقنون فيها ويشتريها من الملابس التي تسجها الغربية في بلادهم وذلك من أكبر الجبهالات الفاشية في أمم الشرق الأدنى كبلاد شمال أفريقيا وبعض بلاد العرب ، تلك الأمم التي نالت نوما عظيما ، فلبست ملابس الغربية وصارت تلك الملابس أسفادا قيديا بها وأغلايا في أعناقهم وهم يسحبون في جيم الاستعداد ، وأما أحد الله إذ كتبت هذا وأنا أعلم أن الأمم العربية على بكرة أيها قد استيقظت لهذا الخطر وأخذت تمت له عنده ، وبالأجل إن نصمة ضوء الشمس عامة ، ولما توارى عنها الانسان وأسرف في تواريه باللباس أوردته ذلك الاسراف إما ضررا في الصحّة كالاهراء والمملوك ، وأما أن يضاف اليه شيء آخر ، وهو القتل والاستعباد بالاستدانة والترف والنعيم .

هذا ملخص هذا المقال وهو الذي خطري وأنا معرض جسمي لضوء الشمس ، ثم أتى بعد الظهر أخذت أمشي على شاطئ النيل في المنيل وقد تجلّت لي هذه الدنيا بهيئة جيلة ، وأخذت أفكر في هذا الهيكل الانساني ، ذلك أن لي حاسة بها ألس الحار والبارد ، والرطب واليابس ، وأعرف الثقل والخفيف ، والناهم والخنث ، فهذه الحاسة كأنها ربة هذه المحسوسات ، ولي حاسة أخرى تفرق بين الطيب والخبث من الروائح وهناك حاسة أعلى منها بها أعرف الأصوات وأنواعها ، وأخرى بها أعرف القريب والبعيد والألوان والسطوح والأجسام والحركات والسكنات ، وهذه هي حاسة النظر وعمدتها الشمس التي أرواها أسمى في المنيل يا نجيبا ! هذه الشمس أسمى قد ملأت الأفق تيرا ثرته في القعر والحقل والحديقة والبر والبحر ، ها هوذا الضوء منشور في كل مكان ، وهذا التبر به أعرف الطرقات وأفرح بالجمال ، والصين أعظم الخواص الظاهرة كما أن الشمس أبهى الموجودات المحسوسات ، فلا تخذ الى ما وراء ذلك ، فها هو ياترى ؟ إن ما وراء ذلك هو عقلي ، ووراء الشمس عقل عام .

يا نجيبا ! هذا اللس يميز بالامعة لكل ماحول ، وحاسة التذوق تعرف الحلو والمر ، والحريف والمالح ، والحامض والعفص الخ ، وحاسة الشم تميز الروائح ، وحاسة السمع تعرف الأصوات ، وحاسة البصر تميز للبصرات فهل وراءها إلا العقل ، ذلك العقل الذي به نذكر حقائق ماحولنا ثم نجد له نظيرا في الأرض والسما . أنا أشرب الماء وللماء يحيط بالأرض لا ينفذ ، أنا أشم الروائح وهي أيضا في كل مكان لا تقاد لها ، أنا أأخذ الهواء بالشميق فيدخل في رثتي ، والهواء يحيط بالأرض لا ينفذ ، أنا أرى النور والنور يحيط بالأرض وذلك بصرى ، فلم يبق إلا أن أقول : أنا لي عقل يفكر الحقائق ، وهذا العقل أرى آثار نظيره في الشمس وفي القمر والكواكب والنبات والحيوان والسحاب وكل مركب وبسيط . فهنا عقل عام لي أنا شعبة منه كما كان لي شعبة من الهواء . وأخرى من الماء ، العقل العام يحيط بالكائنات إحاطة التأثير بها ، وإذا كان ماء جسمي وهو ماء ومولده الأرضية لها ارتباط بالماء والهواء والمواد الأرضية ، فما لا ريب فيه أن هنا عقلا عاما يحيط بهذه كلها ولا فائدة له وهو متعل بعقلي وروحي ، وهذا العقل الكلي بالنسبة لله عز وجل أشبه بضوء الشمس

بالنفسية للشمس ، وهذا الجرم الدقيق للتقريب والا فالأمر فوق عقولنا ، إذن هنا رحمتان عامتان : أولاهما رحمة الشمس وضوئها التي جهلها الناس فاقبلت عذابا في الدنيا بالأمراض إذ حجبوها عن أجسامهم ، وبذعاب مجدهم واستغلالهم بالاسراف فيها يسترون به أبدانهم . ثانيتهما : رحمة العقل العام الذي اشتقت منه عقولنا واتصلت به ، وهذا العقل مستمد من نور الله الذي ليس ككله شيء وهو السميع البصير . وهذه الرحمة الروحية العقلية يحملها كل انسان في هذه الأرض ولكنها رحمة مخبوءة . الله رحم الناس بضوء الشمس فجعلها ، فنعوا الضوء عن أجسامهم ، فاعتزلتهم الأمراض ، وضاعت بلادهم بالاسراف فيها يلبسون ، ورحمهم بإشراق قوسهم وعقولهم ، ولكنهم بظلمتهم نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، ذلك لأن أنفسهم مستمدة من العقل العام ، والعقل العام نور أودعه الله في العوالم كلها وعقول بني آدم فروع منه ، ولولأنهم استيقظوا لذلك النور بالدراسة والصالح وتقليل الشهوات لكأنوا دائما في حضرة مفيض ذلك النور وصاله واقربوا منه « إن رحمة الله قريب من المحسنين » وإلى هنا تم الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين

القسم الثاني في تقسيم السورة

هذه السورة ثلاث مقاصد

﴿ المقصد الأول ﴾ دلائل التوحيد بخلق السموات والأرض والدواب ، واختلاف الليل والنهار ، وانزال المطر ، وتصريف الرياح ، وتسخير الفلك ، وما يتبع ذلك من المكاسب في التجارة ، وصيد السمك ، وحوز الثروة والمرجان بالفصوص عليهما ، وتخلل ذلك جهالات الكفار ، ووجوب صفح المسلمين عنهم ، ومغفرتهم لهم من أول السورة الى قوله : « ثم إلى ربكم ترجعون »

﴿ المقصد الثاني ﴾ فيه ذكر أن بني اسرائيل كان فيهم كتاب التوراة والشرايع العظيمة والنبوة ومبجزاتها وعندهم الرزق الحسن ، وفوق ذلك كانوا مفضلين على عالي زمانيهم ، وكانت لهم أدلة في أمور دينهم ، ومع هذا كله قد اختلفوا فيها بينهم فغلبت الشهوات والحسد والعداوات ، فلأن أهل الأرض متشابهون ، أشبه الآخرون الأولين ، فقومك على هذه الطريقة في هذه الحال اقطعوا ، ولقد بلوناكم كما بلوناكم فهل تصبرون فاصبر يا محمد وليصبر أصحابك والمصلحون من أمك فان عالمكم هكذا شأنه ، قدم على شريعتك ولا تعبا بمن خالفك ، وهذا القسم الى قوله : « ورحمة تقوم يرقنون »

﴿ المقصد الثالث ﴾ من قوله تعالى : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات » الى آخر السورة ، وهذا في حاجة الكافرين وتقريرهم

في التفسير اللفظي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(حم) إشارة الى الحمد على النعم التي لا تحصى المذكورة بحجة في هذه السورة . وأيضا سيأتي في آخرها « فله الحمد » ان الحمد في أمة الاسلام هوكل دينها ، لأن الحمد راجع الى مجاميع العلوم والأعمال ، الحمد يستوجب كل علم وكل عمل ، فكان « آل حم » تفسير لسورة الحمد وهي الفاتحة ، أوهي مثال العلوم النافعة للأمة كلها ، وللإشارة أيضا الى الحكمة المذكورة في قوله (حكيم) فيها الحاء والميم ، وذلك فوق ما عرفت من حزايا الحروف كلها مجتمعة في سور كثيرة ، أولها سورة « البقرة » والحمد والحكمة مجاميع الجانبات

لأن الجدل لا يكون إلا على ما علم من النعم والحكمة ونظام هذه الدنيا . والحق أن هذه السورة ميتنفع لك فيها من غرائب العلم وبتداع الحكمة ما ينهل له الغافلون من المسلمين الذين غنوا الجدل وعلم الفقه بكيفيات أمة الاسلام المظلمة للهمومة الحقوق التي ملأها أم أوروبا بعد أن طاردها علماءها ومنعوا من الاستفادة بالأنوار الالهية ، فآلهم قبض لأمتنا من يهدى الى الهدى ، ويردّها عن الردى ، ويهديها الى الصراط المستقيم (تنزيل الكتاب) كائن (من الله العزيز) الغالب (الحكيم) في تديره ، ولا جرم أن ذكر الحكمة بعد العزة يعرّفنا أنه مع قهره للعوالم المادية والروحية لا يتصرف فيها إلا بحكمة فهو غالب قاهر وقهره مصحوب بالحكمة كما يشاهد في النبات والحيوان والأجسام الانسانية وديوان الكواكب وانتظامها في سيرها وصلها حتى أنشأت ، كل ذلك من اتهم والغلبة لها مع الحكمة في صنعها ، ولذلك أعقبه بتأنيج العزة والحكمة فقال سبحانه (إن في السموات والأرض لآيات للؤمنين) أى علامات وعبرا للعدين (وقى خلقكم) أى وقى تحويل أحوالكم حالا بعد حال آية وعبرة لكم (وما يثمن دابة) وما يفرق في الأرض من جيج الحيوانات (آيات) دلالات تدل على حكمة خلقها وجبال صنم وابداعه (قوم يوقنون) ورفع آيات على محل إن واسمها لأن محلها رفع ، وقرئت بالنصب كما تقول ان زيدا في الدار وثالثها ، أو وثالثها في السوق ، فأنصب بالرفع على اسم إن ، والرفع بالطف على محل ان واسمها وهو الرفع (واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق) من مطر هو سبب الرزق (فأحيا به الأرض بعد موتها) يسها (وتصرف الرياح) باختلاف جهاتها (آيات قوم يعقلون) ليس في اعراب هذه الآية صعوبة عند الأخص ، فأما سيوبه فانه يقترب لفظي أى وفي اختلاف الخ ولم تقدر في لز الصنف على معمولين لعاملين مختلفين عند سيوبه فلا تضليل بالكلام فيه ، يقول الله تعالى : انكم اذا تأملتكم الحكمة المنتجة في السموات والأرض آتمتم ، فاذا ازددتم علما وفهما وبخا ازدادت عقائدكم فصرتم موقنين لأن الايقان بتوافر الأدلة وتكاثرها ، ومتى أيقن الانسان بنظام هذه الدنيا أصبح ذا عقل لأن العقول لا تربي إلا بالزواجة ، فأول المراتب إيمان بالله فاذا زاد الانسان حكمة وعلما وبحث في دقائق المخلوقات ومجاليها أصبح موقنا بره ، وكلما زاد بحثا ازداد عقله دراية ، فأصبح في الأرض نوراً يستضاء به ، وهذا يدلنا أن الله تعالى لم يرد نظرنا في العوالم مجرد الإيمان أو الايقان ، بل يراد فوق ذلك تربية عقولنا ، وتربية العقول في العالم الانساني اليوم في مدارس أوروبا وغيرها لاتتم إلا بقرأة علم الفلك والعلوم الرياضية والطبيعية والحيوان والنبات والانسان والمعدن ، تلك هي التي تربي العقول ، هذا مقصود الآية ، فانه يقول لنا : أما أمرنكم بالنظر في العالم أولاً لتؤمنوا فاذا زدتم علما أيقنتم في ذلك كله برى عقولكم ، فنتيجة هذا الوجود تربية العقول ، فليفكر المسلمون في هذه الآيات ، وليجيبوا من أمة هذا دينها يطلب منهم الإيمان بم الايقان ويقال لهم : نحن نربي عقولكم فيقول القوم الجاهل من المسلمين الذي غره مغار العلماء . كلا . والله لقد عرفت الله وآمنت به ، ومتى آمنت بالله فلا سبب لنظري في العوالم بل هو فضول ، فعل المسلمون ذلك وجاءت أوروبا فظفرت في الكون فلزادت عقول أبنائها لجأوا الى الشرق فحكوا وابلدنا . كل هذا لتدهور العقول والتعاليم في بلاد الاسلام . يقوم هلا قام فيكم عالم فنصعكم . يقوم هلاطنا كم النهاء عن هذا التصير والتعاضد . يقول الله لكم فكروا في العوالم لتؤمنوا ، ثم يكون الايقان ، ثم يأتي بالمقصود وهو تربية العقل بزاوية العلوم الكمائية والطبيعية والحيوانية والانسانية . يا الله أشكو اليك قادة ناموا ، وأسألك أن تعني هذه الأمة التي أماتها الجهل ، اللهم أنز البصائر وعمم العلم في بلاد الاسلام . يربى الله عقولنا بتلك العلوم ، ويشير الى ذلك بهذه الآيات وتقوم أوروبا فتوجب هذه العلوم في المدارس الثانوية ليكون قادة الأمة ، والطبقة الوسطى من الشعب قد استنارت بصائرهم بدراسة ماحولهم الكائنات ، فتربي فيهم الملكات ، فيحفظون بلادهم ، ويرقون شعبهم ، والسلم قد غمض عيذه عما حوله

فلارى ولا يقل ويكتفى بالإيمان ، فيكون العالم والعالم على حد سواء ، وهذه هي العلامة الكبرى ، وسأزيد المقام إضاحاً إن شاء الله تعالى (تلك آيات الله) أى آيات دلائله حال كونها (تتلوها عليك) ملتبسين (بالخلق) ولما كان هذا المقام عظيم الشرف ، جليل القدر ، عليه ارتقاء العقول ، ورفق الأمم ، وإن لم يصرح به أعقبه بقوله (فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون) أى بعد آيات الله ، وذلك كما قول : أعجبني زيد وكرمه أى كرم زيد ، فذكر زيد للبالغة والتعظيم ولم يقل فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون اكتفاء بالأول لأنه للعموم ، أما الإيقان فهو للخصوص وقرية العقل كذلك ، والأمة الإسلامية تركت مباحث كبار العلماء فى الكتب ، ولم ترد أن تعمل بها ، وسأقل لك خلاصة ما ذكره العلامة الرازى قريباً لتعرف كيف كان حكماء الأمة يفهمون ويعتصمون ، وكيف كان بقية العلماء لا يشكرون ، ومن رقى الأمة معرّمون ، فأن الله وأنا إليه راجعون ، تشير الآية هنا إلى أن الإيقان وقرية العقل إنما تكون بما ذكر من العالم العلوى والسفلى والمسلمون ينامون ويمرضون ، ويكتفون بإيمان البهائم وعقول الغنم لإقلالها منهم « وقيل من عبادى الشكور » وقلبك أعقب سبحانه بضمّ المعرضين الذين لا يؤمنون فقال (ويل لكل أفاك) كذاب (أثيم) كثير الآثام (يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر) يقيم على كفره (مستكبراً) عن الإيمان بالآيات وإنما ذكر « م » لبيان استبعاد الإصرار على الكفر بعد ما يسمع الآيات تتلى عليه (كأن لم يسمعها) أى كأنه لم يسمعها فهو يصر مثل غير السامع (فبشره بعذاب أليم) دلى لإصراره (وإذا علم من آياتنا شيئاً) إذا بلغه شيء من آيات القرآن (اتخذها هزواً) أو تلك لهم عذاب مهين * من وأههم جهنم أى من خلفهم لأنها بعد آجالهم (ولا يلقى عنهم ما كسبوا شيئاً) ولا يدفع عنهم ما كسبوا من الأموال شيئاً من عذاب الله (ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء) كالأنصام (ولهم عذاب عظيم) لا يتحملونه (هذا) القرآن (هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجوا أليم) الرجز أشدّ العذاب (الله الذى سخر لكم البحر) فجعله لطيفاً يعمل الفلك قطعاً ولا ترسب فيه بنواميس جلاها ، وحكم أبداءها ، بحيث خلق للمواد الخشبية والحديدية ، وجعلها قابلة لعمل السفن وأن يتحيل الناس فى ذلك حتى لا ترسب ثقلاً بل تسير فوق الماء ، وأجرى الرياح فوقها لتساعد على جريها ، وخلق القمح وأشابه ثوقه النار فتتحرك الآلات البخارية فتسير السفن ، فأهواء تجرى ، وبالنار تجرى ، وبالكهرباء والبرق ، وهما يسيران النار تجرى .

سبحم نسجت يد حكمت * ثم اختصت بالنسج

وهذا من معنى قوله (تجري الفلك فيه بأمره) وما يدخل فى هذا المقام البوصلة البحرية التى تدل الرّبان على الجهات الشرقية والغربية والشمالية والجنوبية ، وكذلك علوم الفلك وعلوم الطرق البحرية فيعرف بها النجوم ومواقعها فى السماء والطرق والجهات ، فإن النجوم فى السماء جهات علامات تعرف بها الطرق ، ولها جداول بها يدرك الرّبان ما يريد ، وبالطرق البحرية يتجنب الرّبان المضار ، والفلك فى البحر لا بدّ فيها من علوم الصناعات لعمل السفن ، ولصنع القلوع ، ولإدارة الآلات البخارية ، ومن معرفة النجوم بالبلقة ، ومعرفة الطرق البحرية ، ومعرفة البوصلة . هذا معنى تسخير البحر لنا لتجربى ذلك فيه بأمره ، ثم عطف عليه بعض النتائج من تسخير السفن فقال (ولتبتغوا من فضله) بالتجارة والقوص على المرجان والقرى . ثم إن فى قرار البحر عجائب الحيوان البديع الذى لم يسله ضوء فؤوس نوراً يستضيء به من جسمه هو ، وذلك لاستنارة عقولكم ، فهذا وغيره من فضل الله تعالى (ولعلكم تشكرون) هذه النعم ، ولما كان العالم كله كأنه جسم واحد يحتاج كل جزء منه إلى الأجزاء الباقية ، فلا يستقيم مطر بلا حواء شمس ، ولا منعمة لحرارة الشمس بدون نظام فى البر ، ولا ريح إلا بحرارة ، ولا سفن إلا بهواء وكواكب مرصودة وخم ، أو كبرياء وحديد وخشب ومما شابه ذلك بحيث يرى الإنسان أن هذا العالم كله كساعة منظمة أردها بما يفيد

ذلك فقال (وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جيما) بأن خلقها مافعة لكم حال كون مافى السموات ومافى الأرض جيما كائنة (منه) وحاصلة من عنده * قال ابن عباس: كل ذلك رحمة منه . وقال غيره فضل واحسان (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) وهذا هو الكمال العلوى ، ثم أتبعه بالكمال العلى فقال (قل للذين آمنوا اغفروا اغفروا) ويغفروا ويغفروا (لذين لا يرجون أيام الله) لا يتوفعون وقائمه بأعدائه كما تقول لواقع العرب أيام العرب ، وإنما أمروا بالغفرة ليجزيهم على صبرهم يوم القيامة بالجنة وهذا قوله تعالى (ليجزى قوما) بصبرهم على أذى أعدائهم (بما كانوا يكسبون) من العمل الصالح والصبر على الأذى ويجوز أن يراد بالقوم الفريقان ، وبالكسب ما يعم الشر والخير ، ويناسب للمعنى الثانى قوله (من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها) إذ لها ثواب العمل ، وعليها عقابه (ثم إلى ربكم ترجعون) فيجازيكم على أعمالكم

الاعتبار والتأسى بقصص بنى اسرائيل

قال تعالى (ولقد آتينا بنى اسرائيل الكتاب) التوراة (والحكم) الحكمة النظرية والعملية وفصل الخصوصيات (والنبوة) فقد كان فيهم أنبياء فى أكثر الأزمان ، وهذه هى النعم الروحية والأخروية (ورزقناهم من الطيبات) مما أحل الله من الرزق الواسع (وفضلناهم على العالمين) حيث أعطيناهم ما لم نعط غيرهم (وآتيناهم بينات من الأمر) أى أمر الدين كبيان الحلال والحرام (فما اختلفوا) فى ذلك الأمر (إلا من بعد ما جاءهم العلم) بحقيقة الحال (فبما بينهم) عداوة وحسد (إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) بل لا يخفى المجازاة (ثم جعلناك على شريعة) طريقة (من الأمر) أمر الدين (فاتبعها) فاتبع شريعتك الثابتة بالجميع (ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون) أى مراد الكافرين ، فقد كانوا يقولون له ارجع إلى دين آبائك فأنهم كانوا أفضل منك (إنهم لم ينفوا عنك) لن يدفعوا عنك (من الله شيئا) أى من عذاب الله شيئا إن اتبعت أهواءهم (وأنه ولي للذين آمنوا) أى هو ناصرهم فى الدنيا والآخرة (هذا) القرآن (يسائر للناس) أى معال للناس فى الحدود والأحكام يصبرونها به (وهدى ورحمة لقوم يوقنون) يطلبون اليقين (أم حسب الذين) أى بل أحسب الذين (اجترحوا السيئات) اكتسبوا المعاصى والكفر ، يقال : فلان جارحة أهله أى كسبهم (أن يحملهم كافرين آمنوا وعلماوا الصالحات) أى مثلهم ، إذ قال قوم من مشركى مكة للمؤمنين : لئن كان ما تقولون حقا لنفعلن عليكم فى الآخرة كما فعلنا عليكم فى الدنيا (سواء محابهم ومعاتهم) أى أحسبوا أن حياة الكافرين ومعاتهم كحياة المؤمنين ومعاتهم سواء . كلا . فالؤمن مؤمن فى الحياتين ، والكافر كافر فى الحياتين ، وقوله «سواء محابهم الخ» أى حال كونهم مستريا محابهم الخ وإن قرئ سواء بالرفع ، فالبطل بدل من الكاف (سواء ما يحكمون) أى بش ما يقضون إذا حسبوا أنهم كل مؤمنين ثم أتى بالدليل على ذلك من علم المخالقات المشاهدة قائلا (وخلق الله السموات والأرض بالحق) بالنظام التام والعدل والقسط ، ولولا العدل ما انتظمت أحوال هذه الدنيا ، فلولا سير الشمس فى أوقات معينة ونظام تام ولولا دخول العناصر فى النبات بحسب معين ، ولولا وضع الأعضاء بعدد مخصوص فى الحيوان ومقادير معينة لم يستقم لهذا العالم وجود وللعنه العلم ، وهذا كالأية السابقة فى سورة الشورى «الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان» إذ أفاد أن ما لا يقوم فيه العدل فى الدنيا من طريق القضاء الذى نزل به الكتاب يكون العدل فيه فى الآخرة تبعاً لميزان العلم ، وهنا يقول : إن الله خلق السموات والأرض بالعدل والقسط ، ولا يعقل هذا حتما إلا الذين درسوا هذه العوالم وأستوا دراستها ، ولم تكن دراستهم مجرد الوظاف ، وألجئرت الصناعات بل يكون القرض منها الوقوف على نظام هذه الدنيا حتى تطمئن النفس لما يجرى به القدر عليها وعلى غيرها ، ومتى عرفت النفس ذلك أشرقت بالنور ، ووقفت على السر المكنون ، وأيقنت بالعدل فى

الموت والحياة ، والخفض والرفع ، والإيمان والكفر ، واذن لم أن الله خلق العالم بنظام وحساب ليعدل في تسويته في ذراته ومركباته (ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظنون) بنقص ثواب وتضعيف عقاب . واعلم أنه لا يعقل العدل في هذا العالم ، ولا في الثواب والعقاب إلا من درس هذا الوجود وأقن فهمه ، واذن يصير من تربت عقولهم الذين ذكروا في أول السورة إذ أبان أن التفكير يكون أولا مؤثما ثم موقنا ثم عاقلا وقد قدّمنا أن المراد بالعقل هنا هو الذي تربي تربية إلهية ، والتربية الإلهية بقراءة الكتاب الذي خلقه الله بيينه ووضعه وهو هذا الوجود الذي لا يقرؤه إلا المفكرون ، ولا يعقله إلا العالمون ، فلفظ العقل اذا أطلق في مثل هذا المقام إنما يراد به العقل الذي تربي على المبادئ الأولية بالتفكير في نظام الوجود ، وكما أن طبيعة الحيوان تكون حاصلة من تفاعل المواد التي دخلت في عداد جسمه وصار لها مزايا خاص ناشئ من تفاعل العناصر الداخلة في جسمه وانتظامها والتماها حتى يرى على شكل خاص ناجم من تلك المواد وانتظامها ، هكذا عقول الحكماء والمفكرين تربي تربية خاصة بالنظر في العوالم فلها تقتضى تقنية روحية . كل نظرة من نظراتها . وكل خطرة من خطراتها تزيدها نموًا وتكاملًا الى أن يتم مزاجها ويكمل وجودها . وحينئذ تنسحق تلك النفس خليفة الله في الأرض لأنها قرأت ما خلقه بيينه ، وصنع يده ، وهندسه بحكمته ، وزوقه بعلمه ونمائه ، وأحكامه وسواءه ، فتنتطح تلك النظم في عقله ، فتصيح تلك النفس إلهية حكيمة مشرقة عللة ، فاذا ورد عليها أمثال هذه الآية « وخلق الله السموات والأرض بالحق » فبعثها لأنها ترى في العلوم المدونة الأرضية ذلك مسطورا في لوح الوجود . واذا سمعت « ولتجزى كل نفس بما كسبت » أيقنت بذلك لأنها تشاهد الظلم دائما ، وتقول حقا إني أشاهد أن الذين يهملون أنفسهم بلا تعليم ولا تأديب يصحون في الدنيا مقتررة فيجتمهم بمقدار حالهم ، ويراهم الناس على مقدار ما وصلوا اليه ، ومن عرف سر صناعة نرا يكافأ بآراء مصنوعة بحكمة ، ومن جهل ذلك يبتذ ، وهكذا أصبح الناس في نظر الحكم وأعمالهم كالأشجار وأحوالها ، فعلى مقتضى نظام الشجر وأصله يكون نموه لاخلل فيه هكذا على مقدار ما كسب الانسان تكون نتائج أعماله فتواب الأعمال ليس إلا نتائج لها كما أن ثمر الأشجار نتائج لها ، واذا كانت الحرارة تفيجتها نمو النبات والبرودة تفيجتها ضعفه وخطوه من قوة الحياة ، فهكذا الأعمال الطيبة والأعمال الخبيثة نتائجها لازمة لها لزوما عديدا « وهم لا يظنون » ومن شرب المسهل أتعج ما أعد له من الأسهال ، ومن تعاطى الدواء المسكن أو المهيج أو الحار أو البارد أو تعاطى السم ، فكل أولئك ينجون على مقدار ما تعاطوا تسكينا وتهييجا وحرارة وبرودة وموا ، هكذا نرى للتكبرين والمستنلين ببجين ، وسريي الغضب ، والبخلاء ، وذوى الخرص ، كل أولئك ينالون في الحياة مقت الناس ، أو ذلهم ، أو بفضدهم ، أو ذمتهم ، وهكذا نرى العلماء والكرماء والشجعان ، وذوى القلوب البقية ، والعافين عن الناس ، ينالون احترام الناس ، وحبههم وقضاء حاجاتهم ، وذكرهم بالجليل . كل ذلك نتائج كثرات الأشجار . ومن نال ما لا يستحقه في الدنيا ، أو مال أقل من حقه فيعد الموت ترجع الامور الى ضابطها وتكون هناك الثمرات مقدرات يميزان . هذا معنى هذه الآية . فاذا كانت آية الميزان جاءت في سورة الشورى ونص السورة مسجاة باسم يشعر بالميزان والعدل بين الناس اذا التأموا وتشارروا ، فهكذا جاءت هذه الآية هنا دلالة على العدل المتشاهد في نفس الطبيعة لمن عقل ولا يعقلها إلا الممارسون لنظام السموات والأرض ، أما أولئك الذين لا يدرسون ولا يعقلون ، وصاروا هم معبودهم فان الله ينزهم المنة التي هم بها جديرون لأن الأرواح الانسانية طوائف ، فيها المظلمة ، ومنها النيرة ، ومنها المتوسطة فهذه الأرواح القليلة الغليظة التي لم تصل لدرجة النضج والكمال بعد فان الله حكم ببقائها في الضلال لأنه عالم بجوهرها وأنها لا قبل لها بالحكمة والعلم ، وهؤلاء يقولون : ما الحياة إلا حياتنا الدنيا ، وموتنا إنما يكون بمرور الزمان ، فلا نظام ولا مظم ، ولا حساب ولا عاقل ، ولا عدل ولا عادل ، وانما صدر ذلك منهم لقا

علمهم ، وانما ينطقون بالقول تقليدا لأبائهم وأسائدتهم ومعلمهم وقربائهم ، وهذا قوله تعالى (أفرايت من اتخذ إلهه هواه) أى هو مطواع طوى النفس ، يقع ما يدعوه اليه ، فكأنه يبعده كما يبعد الرجل إلهه (وأضله الله على علم) أى وخله علما بضلته وفساد جوهر روحه استعدا معلوما فى الأزل (وختم على سمعه وقلبه) فلا يبالي بما يسمع من وعظ (وجعل على بصره غشاوة) فلا ينظر بين الاستبصار (فمن يهديه من بعد الله) من بعد اضلاله (أفلا تذكرون * وقالوا ما هى) ما الحبل أوما الحياة (إلا حياتنا الدنيا) التى نحس فيها (موت ونعيم) أى يبين الموت والحياة فيها ، وليس وراء ذلك الموت حياة (وما يهلكنا إلا الله) (والأمرور الزمان) (وما لم يزل من علم إن هم إلا يظنون) وانما ذلك بناء على التقليد والانكار . فأما العلون فهم أولئك الذين فكروا قائموناً يقتوا ، وهناك تربت عقولهم كما جاء فى أول السورة . فأما هؤلاء فلم تربت عقولهم لحرمانها من الغذاء النفسى وهو دراسة ما صنع الله تعالى ، فهو غذاء العقول كما أن المادة غذاء الأجسام فكما نرى المزارع والأشجار ، والحبوب بها حياة الأجسام ، هكذا نظامها وحكمها واتقنا بدراسة حياة العقول . فهذه المخلوقات ألفت أجسامنا والتفكر فيها تمحو عقولنا ، والمحروم من ذلك ضال (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات) والضحكات اللذلة على خلاف ما يعتقدون (ما كان حجتهم) ما كان ما يزعمون أنه حجة (إلا أن قالوا أتوا باياتنا) أى أميهم (إن كنتم صادقين) فى دعوى البعث (قل الله يحييكم فى الدنيا ثم يميتكم) فيها عند انتهاء آجالكم (ثم يجمعكم إلى يوم القيامة) أى يبعثكم يوم القيامة جميعا ، فالتين باياتكم أيسر من ذلك (لأرب فيه) أى فى الجبع (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك لأنهم لا يفكرون فى نظام هذا العالم ، ولأنهم فكروا لعرفوا بعقولهم سعة القدرة وبتداع الحكمة فى هذا العالم الواسع ، وعبر عن سعة بقوله (وقته ملك السموات والأرض) وهو مسرح الانظار ، وقبة النظر ، ونور الاستبصار . وضياء للأبصار فالوفهموه لعرفوا بعقولهم ما تضمنه قوله تعالى (ويوم تقوم الساعة يومئذ ينصر المبطلون) يومئذ بدل من يوم الملتقى ينصر أى يومئذ يظهر خسران أصحاب الأهلل وهم الكافرون (وترى كل أمة جاثية) أى باركة على الركب وهى جلسة الخاصمين بدى الحاكم ينتظر القضاء (كل أمة تدعى إلى كتابها) التى فيه أعمالها ويقال لهم (اليوم نحجزون ما كنتم تعملون) وتقولون فى الدنيا (هذا كتابنا) ديوان الحفظه (ينطق عليكم بالحق) يشهد عليكم ببيان شاف كأنه ينطق (إنا كنا نستنسخ) نستكتب الملائكة (ما كنتم تعملون) أعمالكم أى نأمر الملائكة بنسخ أعمالكم وكتابها وإبائتها عليكم (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحته) جته (ذلك هو الفوز المبين) النظر الظاهر (ولأما الذين كفروا) فيقال لهم (أفلم تكن آياتى تتلى عليكم) أى آيات القرآن (فاستكبرتم) عن الإيمان بها (وكنتم قوما مجرمين) كافرين منسرين (وإذا قيل إن وعد الله حق) أى البعث كائن (والساعة لأرب فيها) لأشك فى أنها كائنة (قلتم ما ندرى ما الساعة) أى أنكرتموها وقتل (إن نطق لإلنا) أى مانع من ذلك إلا نوحها (وما نحن بمقتنين) أنها كائنة (وبدا لهم) وظهر لهم (سبائات ماعوا) على ما كانت عليه بأن ظهرت لهم صور أنفسهم الحقيقية بعد الموت ويوم القيامة فرأوا قبورها ، وتشبه صورها (وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) أى زل بهم بهم جزاؤه (وقيل اليوم نساكم) تحرككم فى العذاب ترك النفس (كما نسيت لقاء يومكم هذا) أى كما تركتم الإيمان والعمل لقاء هذا اليوم (ومأواكم النار وما لكم من ناصرين) يخلصونكم منها (ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا) استهزأتم بها فلم تتفكروا فيها (وغيرتكم الحياة الدنيا) خبثتم أن لاهية سواها (فاليوم لا يخرجون منها) من النار (ولا هم يستنبون) أى ولا يطلب منهم أن يرضوا ربهم لقوات أرواه (فقه الجند رب السموات ورب الأرض رب العالمين) فإن كل ذلك مثار الحمد وسبب له ، فحجاب السموات ، وبدائم الأرض ، وتربية المخلوقات المحدثات ، ينشع بدراسة النفس أبواب العلوم ، وبالعرفة تكون المحامد (وله

الكبرياء في السموات والأرض) لظهور آثارها فيهما (وهو العزيز) الذي لا يظلم (الحكيم) فيما أقتد وقدره . انتهى التفسير للفتى

ابتداء السورة كأنها

انظر كيف ابتداء السورة بالعمزة والحكمة ، وقد بينا لك أن القهر والحكمة مصطحبان معا في غضون هذه العوالم ، مشاهدات في صغيرات الامور وكبيراتها ، وتلك ذكر العوالم من مطر ونبات وحيوآن الخ لأن العمزة والحكمة شملتاها ، هكذا ختم السورة بذنك الوصفين ، ليبين أن هاتين الصفتين واحة آثارهما في السموات والأرض وما بينهما والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

- (١) في قوله تعالى : إن في السموات والأرض آيات للؤمنين
- (٢) في قوله تعالى : وفي خلقكم وما يثمن دابة . الى قوله : وتصريف الرياح الخ
- (٣) في قوله تعالى : الله الذي سخر لكم البحر الخ وهي المجرعها يهبجة العرفان الخ
- (٤) في قوله تعالى : أم حسب الذين اجتروا البيئات الخ .
- (٥) في قوله تعالى : إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون .
- (٦) في قوله تعالى : وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم

اللطفة الأولى

في قوله تعالى : إن في السموات والأرض آيات للؤمنين
وفيها غرضان : الفرض الأول في ذكر عشرة أسئلة وأجوبتها . الفرض الثاني : كيف قصر المسألون في هذه العلوم ، وكيف خالفوا علمهم .

الفرض الأول في ذكر عشر مسائل وأجوبتها

تلا من كتابي جواهر العلوم

ثم سألتها فأتلا :

- (١) ما مقدار محيط الكرة الأرضية عند خط الاستواء بالأمتار ؟
- (٢) وما مقدار نصف قطر الأرض بالأمتار أيضا ؟
- (٣) وما مقدار سرعة الحركة الأرضية في مصرفى الثانية الواحدة ؟ وما مقدارها في خط الاستواء ؟ وما مقدارها في باريس عاصمة فرنسا ؟
- (٤) وقال العلماء : إن دوران الأرض كلما زادت سرعتة قص قل الاجسام عليها على حسب السرعة فكيف سرعة مثل الحالية تحتاجها الأرض حتى يعدم الوزن ن خط الاستواء وتبطل مقادير الموازين ؟
- (٥) وهل يمكن وزن الهواء الجوى ؟
- (٦) وما مقدار ارتفاعه بالأمتار ؟
- (٧) وهل بين قل الهواء والزئبق نسبة معلومة ؟
- (٨) في أى درجة من درجات العرض يصير أطول نهار ٢٤ ساعة ، وأقصر ليل معدوم بالرة فيكون الشروق مع الغروب . فالتا الفتاة عندئذ : مجبا للقدرة الباهرة والصنع العجيب ١

الغرض الثاني

كيف قصر المسلمون في هذه العلوم وعصوا علماءهم

انظر إليها القسمة إلى الأمة الإسلامية كيف نامت دهورا ودهورا ، وضلت في نومها غطيلا ، وعلماؤها برقتونها وهي غافلة ، وعلماؤها وهي راغبة لا تبسدى حواكا ، ولا تريد فسكا ، غابت عنها شمس العلم فأظلم جوها ، وسكنت ريجها ، وذهب عزها ، وطلح مجدها ، فلا تعلم كيف تبدى وتعيد .

انظر إلى ملجأ في هذه الآيات كيف طلب الله من المسلم أن يفكر في السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، وإنزال المطر ، وبث الحيوان ، وخلق النبات بمجرد عقله ونظره لا بالتقليد والسماع . وانظر كيف ذكر أن هذا النظر به إيمان وبه إيمان وبه عقل ، وانظر كيف كان علماؤنا يقولون ذلك والشعب غافل عما يقولون .

يقول العلامة الرازي في هذه الآيات مانسه : « وإعلم أن كثيرا من الفقهاء يقولون انه ليس في القرآن العلوم التي يبحث عنها المسلمون ، بل ليس فيه إلا ما يتعلق بالأحكام والفقه وذلك غفلة عظيمة لأنه ليس في القرآن سورة طويلة منفردة بذكر الأحكام وفيه سور كثيرة خصوصا المسكيات ليس فيها إلا ذكر دلائل التوحيد والنبوة والبث والقيمة . وكل ذلك من علم الأصوليين (يريد علماء التوحيد) . قال : ومن تأمل علم أنه ليس في يد علماء الأصول إلا تفصيل ما اشتمل القرآن عليه على سبيل الاجال ، ثم قال تعالى : تلك آيات الله تتلوا عليك بالحق ، والمراد من قوله الحق هو أن معناه معاومة بالدلائل العقلية ، وذلك لأن العلم بأنها منه صحيحة إما أن يكون مستفادا من النقل أو العقل . والأول باطل لأن صحة الدلائل العقلية موقوفة على سبق العلم بآيات الله العالم القادر الحكيم ، وبأثبت النبوة ، وكيفية دلالة المعجزات على معناه ، فلو أثبتنا هذه الأصول بالدلائل العقلية لزم الدور وهو باطل ، ولما بطل هذا ثبت أن العلم بحقيقة هذه الدلائل لا يمكن تحصيله إلا بمحض العقل . وإذا كن كذلك كن قوله : « تلك آيات الله تتلوا عليك بالحق » من أعظم الدلائل على الترغيب في علم الأصول (يريد علم التوحيد) وقرير المباحث العقلية ، ثم قال تعالى : « فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون » يعني أن من لم ينتفع بهذه الآيات فلا شيء بعده يجوز أن ينتفع به ، وأبطل بهذا قول من يزعم أن التقاليد كلف ، وبين أنه يجب على المكلف التأمل في دلائل دين الله ، انتهى ما أردته من مقال العلامة الرازي في تفسيره « مفاتيح الغيب »

انظر كيف أثبت علماؤنا في القرون الأولى أمثال هذا القول ، وكيف أبانوا أن العلوم الطبيعية والفلكية المذكورة في السور المسكية الكثيرة واجبة على كل مكلف ، وأن المسلم لاحق له أن ينأى عن هذه العلوم مكتفيا بالتقليد

إن هذه العلوم لا يخرج للمسلمون من ذلم إلا بدراستها وفهمها ، ويكون المتعلمون فيها قسمين : قسم يختص بتلك العلوم كاختصاص طائفة بعلم الفقه وبعلم النحو كاهوجار اليوم في بلاد الإسلام ، والقسم الثاني وهما أكثر الأمة يستنبطون بأضواء هؤلاء العلماء ، فكما أننا نرى في الإسلام اليوم فقهاء متتورين والعامة يسألونهم في أمور دينهم ، هكذا يجب أن يكون في الأمة قوم مختصون بهذه العلوم حتى يرجع إليهم الشعب في فهمها ، ويؤلفون الرسائل المشوقة لتلك العلوم كآراهم يؤلفون رسائل في علم الفقه ونحوه ، وعلى المسلمين في أقطار الأرض أن لا يكتفوا من الفلسفة في القدرة والارادة وسائر الصفات ، بل يبحثون في معرفة الآثار طبقا لمقتضى القرآن ، فالقرآن وجه العناية إلى الآثار ومعجزاتها ، ذلك هو النور المبين فيهبها لأمة يقول علماؤها : « إن الدين لا يقوم الاستدلال بآياته إلا بعد ثبوت القدرة والعلم والحكمة

والوجود والنبوة ثبوتا عقليا ، ومعنى هذا أن الإيمان به ﷺ وبإلهه وقدرته وحكمته إنما يكون بالمقل ثم بعد ذلك نكون قد قررنا أن الدين حق ، فلا بد من الإلزام على العقل أولا ثم النقل ثانيا . هذا المختصر ماضى من كلام العلامة الرزى ، وإله هو الولي الحيد .

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : وفي خلقكم ومايت من دابة آيات لقوم يوقنون * واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح الخ في هذه اللطيفة غرضان

الغرض الأول اختلاف الليل والنهار

وقد مر الكلام عليه في (سورة البقرة) و(يس) وغيرها ، ولكن لابد من ذكر ما يناسب المقام مختصرا ، فهناك جدولان تعرف منه النقص والزيادة في الليل والنهار في كل يوم من أيام السنة ، واليوم الذي يدخل فيه البرج من الشهور الشمسية القبطية وموازتها بالشهور السريانية وشهور الروم ، والمنازل وطول المنازل بالفجر ، وإنما أوردت لك هذا الجدول ليكون لك نموذجيا تعرف به نظام الشمس في سيرها ، وإذا فكرت فيه وعقلته في ذهنك قام مقام النتيجة السنوية قلما إجماليا بحيث تعرف في أي يوم من أيام السنة مقدار اليوم ومقدار الليل أي مقدار مدة ظهور الشمس ومدة اختفائها واحتجابها تقريبا ، وإنما قلنا تقريبا لأن الحساب إجمالي .

انظر في الجدول (في صفحة ٥٧ الآتية) وتأمل في دخول البروج في الشهور القبطية ، فإني لما أردت موازته بما في النتائج المعتادة وجدت الفرق يكون يوما أو يومين ، مثلا ترى الشمس قد حلت في السنبلة سنة ١٣٤٣ هـ التي هي سنة تأليف هذا الكتاب يوم ٢٢ المحرم وهو يوم ١٧ مسرى وفي الجدول يوم ١٩ وحلت في الميزان يوم ١٢ مسرى ، وفي الجدول يوم ١٤ وحلت في العقرب يوم ١٣ من بابه وفي الجدول يوم ١٥ منها ، وحلت في القوس يوم ١٣ هاتور ، وفي الجدول يوم ١٤ منه . وحلت في الحدي يوم ١٢ كيهك ، وفي الجدول يوم ١٤ منه ، وحلت في الثور يوم ١١ من طوبه ، وفي الجدول يوم ١٣ منها . وحلت في الحوت يوم ١١ من أمشير ، وفي الجدول يوم ١٣ منه ، وحلت في الجمل يوم ١٢ من برمهات ، وفي الجدول يوم ١٣ منه ، وحلت في الثور يوم ١٢ من برموده ، وفي الجدول يوم ١٤ منه ، وحلت في الجوزاء يوم ١٢ من بشنس ، وفي الجدول يوم ١٤ منه ، وحلت في السرطان يوم ١٤ بؤنه ، وفي الجدول يوم ١٦ منها ، وحلت في الأسد يوم ١٤ آيب ، وفي الجدول يوم ١٧ منه

فأنت ترى من هذا أن هذا الجدول الذي جاء في الكتب القديمة يخالف الحساب اليوم في يومين غالبا وقد يكون يوما ، ويندر أن يكون ثلاثة أيام ، والقصد من ذكر الجدول بيان نظام الله تعالى الذي لا يتغير ولا يتبدل على مدى السنين ، فأما تلك الفروق القليلة فإن الذي أوجها تداول السنين وتغير أوضاع الكواكب التابعة ، وذلك يعرف من مسألة مبادرة الاعتدالين ، ولا تظيل في ذلك ، ولندكر لك قبل ذكر الجدول مقدمة تعلم منها عجائب الحساب عند الأمم ، فقول :

الكلام على السنة الاصلاحية

وهي الشمسية وشهورها اثنا عشر شهرا كما في السنة الطبيعية إلا أن كل طائفة راعت دوران سنيها جعلت في أشهرها زيادة في الأيام إما جلة واحدة ولما متفرقة ، وسمتها نسيئا بحسب ما اصطالحوا عليه ،

وعدد أيامها عند جميع الطوائف من القبط والفرس والسريان والروم وغيرهم ثلاثمائة يوم وخمسة وستون يوما وربع يوم فتكون زيادتها عن العريسة عشرة أيام وثمانية أعشار يوم وخمس سدس يوم . وقد قال بعض حذاق المفسرين في قوله تعالى : « ولبثوا في كهفهم ثلاث مئة سنين ولزادوا تسعا » انه ان حل على الستين القمرية ، فهو على ظاهره من العدد ، وان حل على الستين الشمسية فالسبعة الزائدة هي تفاوت زيادة الشمسية على القمرية لأن في كل ثلثائة سنة تسعة سنين لا تحل بالحساب أصلا .

قال صاحب مناهج الفكر : « وكذلك كانوا في صدر الاسلام يسقطون عند رأس كل ثلاث وثلاثين سنة هر ميتة ، ويسمون سنة الازدلاف ، لأن كل ثلاث وثلاثين سنة عربية اثنتان وثلاثون سنة شمسية تقريبا . قال : وأما حكمهم على ذلك القرار من اسم النسيء الذي أخبر الله تعالى انه زيادة في الكفر . ثم اعتبرون السنة الشمسية اختلفت مصطلحاتهم فيها بحسب اختلاف مقاصدهم .

(المصطلح الأول) — مصطلح القبط ، وقد اطلقوا على أن جعلوا شهرهم ثلاثين يوما كما تقدم فلذا اقتصت الاثنا عشر شهرا أضافوا إليها خمسة أيام يسمونها أيام النسيء ، بضامن ذلك ثلاث سنين متوالية فلذا كانت السنة الرابعة أضافوا إليها خمسة النسيء المذكورة ما اجتمع من الربيع الزائد على الخمسة أيام في السنة الشمسية فصيرت أيام ، وبجعلها كريمة في تلك السنة ، وبعض طرفاتهم تسمى الخمسة الزائدة السنة الصغيرة . قال أصحاب الزيجات : وأول ابتدائهم ذلك في زمن أغسطس ، وكانوا من قبل يتركون الربيع الى أن تجمع أيام سنة كاملة ، وذلك في ألف سنة وأربعمائة واحد وستين سنة ، ويسقطونها من سنينهم ، وعلى ذلك المصطلح استقر عملهم بالهيل المصرية في الاقطاعات والزروع والخراج وماشا كل ذلك .

(المصطلح الثاني) — مصطلح الفرس ، وشهورهم كشههور القبط في عدد الأيام على ما تقدم ، وقد أطل فيه القفندي .

(المصطلح الثالث) — مصطلح السورين ، وشهورهم على ما تقدم منها سبعة أشهر يزيد كل شهر منها يوما على الثلاثين كما سيأتي في الجدول الآتي في الصحيفة التالية ، فتكون الزيادة سبعة أيام يكمل منها شباط وهوثمانية وعشرون يوما يومين بقي خمسة أيام وهي نظير النسيء في سنة القبط والفرس .

(المصطلح الرابع) — مصطلح اليهود ، ولا حاجة للإطالة فيه ، ولأنهم يسمون أن نين لك في الجدول الآتي في الصحيفة التالية الستين الرومية والقبطية والسريانية والفسول والبروج وعدد أيام الشهور والمنازل وطاوعها بالفجر

الفرض الثاني في الكلام على قوله تعالى : وتصريف الرياح

قد مر الكلام على الرياح في تفسير سورة الحجر ، وهو مفصل أيضا في سورة الأعراف . فترى هناك كيف كانت الرياح تمر بين استراليا والمند والهند ، ولا بد من إيضاح لقام هنا ليحب المسكون من عجائب تدير الله تعالى .

أنظر أيها القاري الى الشمس في سيرها كما تراه في الجدول ، وكيف انتقلت في البروج ، وانظر آثارها ، آثارها هي الحرارة بالقرب ، والبرودة بالبعد ، فليسبحان الله : حرارة بقرها وبرودة يبعدها يكون بهما نظام أرضنا ، وكيف يتم النظام إلا اذا كان ذلك بحسب . هاتت ذا رأيت الحسب ، فانظر الآن الى الأرض عند خط الاستواء ، ألم تر أن الشمس هناك شديدة الحرارة ، انها تلمح دائما على تلك المنطقة ، فاذا يحصل يحصل أن الهواء يسخن ، يسخن جدا ، ومتى سخن عذ في الجو ، وهذا الملو لا بد أن يصل الى غاية متناه لشدة الحرارة هناك بحيث لا يكون للهواء في الأرض علق فوق علوه ، ومتى وصل الى نهاية الملق قابل الطبقة

الباردة ، لأنك تعلم أن زوايا انعكاس الضوء تكون متفرجة كلما ارتفعنا الى أعلى ، وتزيد انحرافا كلما زاد البعد امتدادا ، وهناك تزيد البرودة وتقل الحرارة تدريجيا بعكس طبقات الأرض ، فأنك كلما أوغلت فيها قصت البرودة وازدادت الحرارة ، فلذا وصل الهواء المرتفع الى الطبقة الباردة اجتمع فصار سحابا فأماط ، فظهر هناك دائم لسوام التبخر ، وهذا الهواء الذى ارتفع الى أعلى اذا وصل الى متناه أخذ يسبحه الشمال وجهة الجنوب لأن هواء غيره يعمل عمله من أسفل لشدة الحرارة على الأرض ، والهواء الذى يعمل عمله أت من الشمال والجنوب ، وهذا الهواء الجديد يتأثر سرعيا بالحرارة فيرتفع أيضا ويعمل مكانه غيره ، وهكذا ولذلك تهب دائما نحو خط الاستواء رياح من الشمال الشرقى ومن الجنوب الغربى تسمى للرياح المنتظمة أو الرياح التجارية ، وهذا الهواء المرتفع المنحدر الى الجنوب والشمال لا يزال يسبح حتى يصل الى درجة (٢٥) شمال وجنوب خط الاستواء ، فاذن يقل ويهبط الى الأرض ، ومتى وصل سطحها لسهته الحرارة فارتفع ثانيا فسكران الحرارة عصا من عصي الله يضرب بها الهواء فيرتفع وينقسم قسمين : أحدهما يرجع الى خط الاستواء ، والثاني يذهب الى جهة القطب ، فما يتجه جهة خط الاستواء يسمى بالاسم المتقدم وهى الرياح المنتظمة أو التجارية ، والتي تتجه الى الجهة القطبية تسمى الرياح للمتفرقة ، أو التجارية الضدية ، فلذا وصلت الرياح التجارية الضدية الى الدائرة القطبية الشمالية والدائرة القطبية الجنوبية ، فهناك يرتفع الهواء كما ارتفع عند خط الاستواء لأنه يقابل الهواء البارد الآتى من جهة القطبين ، وهذا الهواء البارد يعمل عمل ذلك الحار فيرتفع الحار ويعمل عمله الرياح القطبية الشمالية والرياح القطبية الجنوبية كل منهما في مكانه . ثم انك ترى جنوب آسيا الغربى وجنوبها الشرقى تهب عليها رياح غير ما تقدم تسمى الرياح الموسمية ، ذلك أن داخل القارة في فصل الصيف أشد حرارة من البحار المحيطة بها ، ذلك لأن اليابس يتأثر بالحرارة أسرع من الماء وأشد منه فاذن يصعد الهواء عن سطح الأرض ويعمل عمله هواء آخر يهب من الجنوب الغربى والجنوب الشرقى فيحدث كثيرا من الأمطار على الشواطئ ، أما في فصل الشتاء فانه يكون بالعكس فيكون داخل القارة أبرد من البحار المحيطة بها ولذا تخرج الرياح منه الى الجنوب الغربى والجنوب الشرقى ، وتكون جافة وشديدة البرودة . وهناك نسيان أحدهما يسمى نسيم البر ، والآخر نسيم البحر ، فترى الجهات القريبة من البحار يهب فيها الهواء تنهارا من البحر الى البر ، ويسمى نسيم البحر ، وفى الليل يهب من البر الى البحر لأن الأرض تتأثر بالحرارة أسرع من البحر فتكون في النهار أكثر حرارة من البحر فيرتفع هوائها ويعمل عمله نسيم البحر الذى هو أقل حرارة . أما في الليل فلان البر يكون أبرد من البحر لسهولة برده لأن ما يسخن بسرعة يبرد بسرعة ، ومتى برد البر ليعاقل هوائه ، فأما هواء البحر فانه لا يزال خفيفا لأن البرودة لا تسرع فيه كسرعتها فى البر فيجربى نسيم البر الثقيل ويعطرد نسيم البحر الخفيف الى أعلى ، ففى النهار يكون الهواء على البر أكثر حرارة وأقل كثافة من هواء البحر فيرتفع الأول ويعمل عمله الثانى ، وفى الليل بالعكس .

الآن نحب مما ترى هواء جهة خط الاستواء ارتفع بالحرارة فوصل الى الطبقة الباردة فحل عمله من أسفل هواء من الجنوب والشمال فصار هوائا الجهتين حتى وصل الى قرب مدارى السرطان والجدي فقتل فهو الى الأرض لأنه وجد الجو أبرد فتأثرت الحرارة فارتفع واتجه الى خط الاستواء بعضه الى الدائرتين القطبيتين البعض الآخر ، ولما وصل الى الدائرتين القطبيتين عمل معه مثل ما حصل له فى خط الاستواء ارتفع الى أعلى وحل عمله البارد الآتى من القطبين ، وهكذا تجد قارة آسيا اذا كان الحر فى الصيف أناها النسيم من البحر على شواطئها الجنوبية فكثرت الأمطار . وإذا كان الشتاء برد جوها فحل عمله النسيم البحرى الذى هو أقل كثافة فهب النسيم من قس القارة الى البحار ، وهكذا نسيم البر والبحر فى كل مكان بالليل والنهار على هذه القاعدة يذهب نسيم البحر الى البر نهارا ونسيم البر الى البحر ليلا ، وكل هذه الرياح على قاعدة

أسباب كثرة الأمطار

(١) أسباب كثرة الأمطار أن يرتفع البخار فيصل للطبقة الباردة كما في خط الاستواء فان شدة الحرارة ترفعه الى أعلى جدا فيصيب الطبقة الباردة فيمطر ، ولما كان ذلك أمرا دائما كثرت الأمطار هناك .

(٢) وكذلك في الجهات التي تكون الجبال فيها ، فان الهواء اذا قابل الجبل اضطر أن يرتفع فيصل الى الطبقة الباردة ، ولتلك يكثر المطر على سفوح الجبال ، فالهواء في خط الاستواء انما ترفعه الحرارة ، وعلى سفوح الجبال ترفعه الجبال .

(٣) وهكذا الرياح الضدية المتقدمة تتجه من الجهات الحارة الى الباردة وان لم تكن مرتفعة ، ولذلك يسقط مطر غزير على القسم الغربي من أوروبا .

(٤) وتري الرياح الموسمية المتقدمة من هذا القبيل ، فانها تهب على جنوب آسيا الشرق في فصل الصيف لأنها كما علمت تنقل من خط الاستواء الى الجهات الشمالية التي تزيد برودة عليها فيسقط مطر غزير على بلاد الهند والصين واليابان . وتحقيق هذه وإيضاحها في سورة الأعراف عند الآية التي ذكر فيها الرياح ، وكذلك في سورة الحجر عند آية : « وأرسلنا الرياح لواقح »

هذا هو معنى قوله تعالى هنا : « وتصريف الرياح » . ها أنذا أدعوك لتتصرف في الرياح ، أدعوك لتأمل كيف كان أصل هذا كله ؟ أصله الشمس ، فلو وقفت ولم تتحرك لكان للعالم شأن غير هذا ولكنها تحركت بالحساب الذي في الجداول السابق ، وبحركتها أزعجت الشعاع والحرارة على الأرض ، ولما أزعجها عليها رفعت الهواء جهة خط الاستواء ، وحركت ريحين شالية وجنوبية ، وهذان انجبا الى الجهتين وزلا عند مداري السرطان والجدي وارتفعا وسافرا الى المدارين ، وهكذا خفض ورفع في أماكن معينة وفي كل ذلك تنزل أمطار في مواضع وتتمتع في أخرى ، وانظر كيف نصب الجبال في بعض المواضع ، ونصب البرودة في أخرى ، فالجبال ترفع الهواء فيصل الى الطبقة الباردة فيمطر ، وهكذا البرودة التي عند الدائرتين القطبيتين تقابل الرياح الحارة فتكون لها قامة مقام الطبقة الباردة : « إن ربي لطيف لما يشاء »

يلرباه : جعلت الحرارة سببا للوصول للطبقة الباردة ، وكذلك الجبال ، وهكذا أنزلت البرودة فقابلت الحرارة لانزال المطر ، فالبرودة إما أن يرتفع الهواء اليها بالحرارة عند خط الاستواء ، ولما أن يرتفع بالجبال ، ولما أن تنزل نفس البرودة فتقابل الحرارة فينزل المطر ، وهذا معنى قوله تعالى : « إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » وبهذا يفهم لم ابتدأ السورة وختمها بهذين الاسمين « العزيز الحكيم »

يمثل هذا فلتفهم أيها القاري معنى العزة والحكمة ، ويمثل هذا تفسير آيات الله الحسنى ، وانظر السورة ابتدئت بالعزة والحكمة وختمت بهما ، فهو عزيز ، عز قلبه ، وقهر الهواء والماء ، وتصرف فيهما بالحرارة والبرودة ، وجعل الشمس مهيمنة عليهما ، قرب وتبعد بنظام ، وتأثر فيهما بنظام ، وانظر كيف كانت الرياح ترفع بالحرارة والجبال ، أو تقابل البرودة ، كل ذلك لتنتج معلومة ، وذلك كله بسبب متغير ظاهري حركات الشمس ، ألا ترى الى نسيم البر والبحر والرياح الموسمية صيفا وشتاء ، ليس ذلك كله تابعاً لحركات الشمس ليلا ونهارا في الأول وصيفا وشتاء في الثاني ، فالأول تابع لحركتها حول نفسها ، والثاني تابع لحركتها حول الشمس ، هذا هو معنى الحكمة ، وهذا هو معنى العزيز الحكيم ، وكررها في الأول والآخر ليفهمنا هذه المعاني ، وليقول لنا هذا فلتعرفوا استاني ، كسبني أنزته لتدروا صنعتي ، فإذا قلت إنني عزيز وحكيم

فلتقوموها في صنعتي لا في خيالك .

بهذا وأمثاله فليدرس القرآن ، وبه وبأمثاله فليرق للملحون ، وقد جاء أوانه ، وحل زمانه ، والله أذن به ، والله هو العزيز الحكيم . وإلى هنا تم الكلام على الطليقة الثانية والحمد لله رب العالمين .

الطليقة الثالثة

بهجة العرفان ، في جزائر المرجان

في آية : الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله وإلستم تشكرون ما كتبت أكتب هذا العنوان حتى خسر صاحبي العلامة الفضال الذي اعتاد أن يناقشني في هذا التفسير . قال : إن هذا العنوان يدل أنك تريد ذكر أهم عجائب البحر وهو المرجان ، والمرجان قد تقدم الكلام عليه ، ورسمته في سور كثيرة كسورة النحل وكسور غيرها ؟ قلت : ههنا أمر أعجب ! وعلم أبداع لم يسبق له نظير ، ههنا الجمال والحكمة وسعادة الدنيا والآخرة ، ألم تذكر أيها الذكر يوم أن كنت تناقشني في عجائب الحساب التي وضعت بضه في ﴿ سورة الرحمن ﴾ فيها سيأتي عند آية « الشمس والقمر بحسبان » وبضه الآخر في ﴿ سورة القاريات ﴾ عند آية « وفي الأرض آيات للوقين » وفي أخسكم أفلا تبصرون » قال : أذكر ذلك ولا أنساه . قلت : ألم تذكر أنني وقعت في يدى مجلة انكليزية وعنوانها هكذا : « منظر في ملكة الحيوان ، يسحر الأبواب ، ويحرك الوجدان » وفيها صور المرجان البديع التي أخذت بلي ، أتذكر ماقلت لك إذ ذاك ؟ قال : قلت لي إن هذه الصور للرجانية حديثة العهد لم يطلع الناس عليها إلا اليوم ، ولقد أخذت بلي كما أخذ الحساب التي نحن بسنده بمجامع قلبي . قال : نعم نعم أذكر ذلك . قلت : فاذكر ملخصه لتظهر المناسبة بين بدائع الحساب التي في تقوسنا ، وبدائع المرجان التي خلقت في بحارنا ، فقال : إن ذكر الشمس والقمر وانهما بحساب في ﴿ سورة الرحمن ﴾ وكذلك ذكر أن في أنفسنا آيات ، وإنا مطلوب منا إصهارها ودراستها إسقبان منه أن كل كوكب وكل شجر ونبات لا وجود لها إلا بحساب في حركات الكوكب ذي الأجزاء الثلاثي تركب منها النبات الخ وهناك ذكرت أنواع الحساب من الجذر والتربيع وحساب مثلثات اقوام الزوايا التي ترجع في حسابها إلى (١-٢-٣) وهكذا ، وأن الجذر والتربيع في هذه الأعداد البسيطة ينتج مثلثات قوائم الزوايا لأحصرها ، وهناك بدائع وعجائب مثل النظام لارتفاعات الأوتار والقواعد ، وهكذا عما لأحصره ، وذكرت هناك كيف كان الكسر المائل المركب يشبه سير الكواكب في حسابها ، فهي منظمات لأحصر لأدوارها ، ومن أهم ما تقدم في الموضمين صور الأرقام التي تهيئها من كتاب خواص الأعداد للرحوم علي مبارك باشا الذي ترجمه من اللغة الفرنسية ، وأثبت فيه كيف كان جمال الأرقام وحسابها وكيف كانت هذه الأرقام من عجائب الحساب الكامن في تقوسنا المستمدة من نور الله عز وجل ، وأن أنصاعها لتلك العلوم المدهشة المنظمة فتح باب لقاء الله ، وأن الأمم الإسلامية اللاحقة تبعاً للأمم الوثنية السابقة لما انحلت مداركهم أخذوا يستملكون تلك الأعداد في الأدعية وجلب الزرق بالهزائم والدعوات ومنهجها بآيات القرآن ، والصائبون كانوا يتقدمون بها إلى الكواكب ، هؤلاء وهؤلاء ضلوا السبيل في أواخر قرونهم مع أن هذه العلوم مرقبة للام والعتول ، مرغبة في لقاء الله ، مسفرة لأمر الحياة الغاية الجاهلة . هذا ما أذكره ، ولكن إذا تفضلت بذكر وفق واحد من تلك الأوقاف ليكون جالها وانها بحيث لا يتكرر مع الأوقاف الآتية هناك وبغيد فائدة أتم ، فانه به يستين ما مناسبة جزائر المرجان للحساب ؟ قلت له : المذكور هناك أن الأوقاف إما فردية ولما زوجية وكلاهما تكون فيه المتواليات العددية والمتواليات الهندسية ، وأما لا أذكر هنا إلا وقتاً فردياً فيه المتواليات الهندسية ، وهذه المتواليات وإن كانت موضوعة هناك في وقتها لم يبين

هناك كيف يوضع كل جدول فردي ، ففى عرف الأذكياء وضع هذا الجدول الفردى ومنه بالتوالي الهندسية قاسوا عليه كيف يضعون المتوالي الهندية فى الثلث ، وكيف يضعون للمتوالي الهندسية والهندية فى كل وفق فردى خميس ومسدس ومسبع الى ملاحصر له ، وهاهوذا :

		١		
	٨		٢	
٦٤		١٦		٤
	١٢٨		٣٢	
		٢٥٦		

فهذه متوالي هندسية وضعت ثلاثة أعداد فى الصف الأول الأيمن وتركنا صفا يليه وأنزلنا ٣ عليها فى الصف الثالث وتركنا صفا يليه وأنزلنا الأعداد الثلاثة الباقية من ٦٤ الى ٢٥٦ فى الصف الأخير ، ولاجرم أن الثلث الأصل هو الذى أحيط بضلعي فى داخله ٤ مربعات لارقم بها ، فهذه المربعات يعلو كل منها عما فوقه فى صفه من الأرقام بشرط أن يكون الرقم الأبعد لا الرقم الأقرب ، فرقم ١ يوضع أسفل ورقم ٢٥٦ يوضع أعلى ، ورقم ٦٤ يوضع على اليمين ، ورقم ٤ يوضع على اليسار ، فإذا تم هذا فانك ترى ناتج ضرب أعداد كل صف أفقى أو رأسى أو قطرى يساوى مكعب الرقم الذى فى قلب الوقف وهو ١٦ وهو ٤.١٦.٤ وهناك يظهر رجال الحكمة ورجال قفوسنا ، فان هذا النظام البديع فيه تجلى للنفس وفى النفس أن كل عدد مرتبط ارتباطا وثيقا بما يليه ، وكل صف مساو لصف الآخر وجميع الصفوف مساويات لمكعب الرقم الذى فى القلب .

ومن عجيب أن يكون ذلك العدد هو العدد الخامس من أعداد ٩ فكما كان فى وسط الوقف هو وسط فى الأعداد ، وهذا من أسرار قفوسنا المعولة بمجائب وغرائب . فلما اطلعت على المجلة المذكورة الانجليزية انتهجت نفسى بنظر المربان : وسعره الحلال ، والابداع العجيب ، ونيل لى أن قفوسنا أشبه ببحر متلاطم الأمواج ، وأن عجائب الحساب المنظمة فيها تشبه عجائب المربان فى البحار ، كيف لا وأنا أسر وأفرح بعجائب هذا الحساب كسرورى وفرسى بعجائب المربان المنظورة المصورة من أقصى البلدان ، أفلا ترى رعاك الله أيها القس أن المربان نوع واحد : وتراه متوفا نورا مدهشا فى البحار كما أن الأعداد أصلها الواحد ، وبانضمام ١ آخر اليه كان اثنان والاثنان كان منهما كل زوج فى جميع الأعداد ، ولاشك أنك ان ضربت ٢ فى أى عدد فردى أو زوجى كان الناتج عددا زوجيا ، فلا عدد زوجى إلا وهو ناتج من ضرب عدد ٢ وجميع الأعداد الكاملة والمتعابة الآتى يياها فى ذينك للموضعين تنتج من عدد ٢ والأعداد المتعابة والكاملة من الأعداد النادرة البديعة ، ومع ذلك يمكن استخراج مالا نهاية له منها بقاعدة واحدة ستوضح هناك .

فقال صاحبي : هذا القول حسن جدا وجليل ، وتبيان المربان وصوره البهجة جال ، ولكنى سمعت كثيرا من أهل العلم بمصر وغيرها يقولون : ما فائدة مثل هذه العلوم سواء أكانت فى تفسير القرآن أم فى غيره ، إن هى إلا أشياء تسر بها النفوس ، ولكن لفائدة منها فى الحياة . فقلت : إن هذه كلمة أسمعها فى كل مكان يندلى بها الجهلاء الضاللون الذين هم لاعرفوا علم الشرقيين ولا الغربيين .

إن رقى الحياة وسعادة الملمات بحب العلم ، ولو كان ما يقولون حقا ما أقرم الناس فى أرضنا بالكواكب البعيدة ، ولاتنافست فيها دول الأرض مع أن الكواكب لا أكل فيها ولا شرب ولا درهم ولا دينار وهاهوذا

علم الأعداد وخواصه لما تركه الشرقيون قديما انتقل الى أوروبا وترجم بعضه أستاذنا للرحوم على باشا مبارك مع انى كنت لما قرأت مقدمة ابن خلدون ورأيت فيها عند الكلام على الارتباطى ما يفيد أن هناك في هذا العلم جداول منظمات بينها مناسبات مدهشات ومجانب ولم يذكر شيئا منها ، اشتاقت قصى هذه المجانب . وتعمرت على جهلى بها ، فلذلك وضعتها في التفسير لما كان حينها . فقال : إن هذا الجواب به دحضت حجة هؤلاء الكاسلين ، ولقد آن أوان شرح الصور المرجانية المرسومة في تلك المجلة الانجليزية ، قلت : إن في المجلة لمجانب :

المحبة الأولى

صور السمك العالس حول سلاسل الصخور المرجانية في البحار

وهناك صور الأسماك بألوانها . وهذا شرح المجلة لها ، وهاك تفصيله : « إن كثيرا من السمك القصى يكثر حول سلاسل الصخور المرجانية فوق و تحت الوافين من حيث بدائع ألوانها البراقة المؤثرة بموتة خطوط ملونة مجتمعة وأحزمة مختلف ألوانها طهرا و بظنا ، إن هذه الألوان وإن كانت بهجة لماعة في أنفسها ليست ظاهرة كما ينتظر ، ذلك أنها متناسبات تناسبها بالامع السلاسل المرجانية المجاورة لها من حيث ألوانها ، وهذه المناسبة اللونية الموسيقية البديعة قد ينجو السمك من يعطاه بدون احتياج الى الاسراع في جريه ، لأنه لا يكاد يميز الراى بين لونه ولون الصخور الدنية القش ، ونى أكثر الأوقات ينجو السمك بأن يجرى فى مجارى داخل تلك الصخور ليغيب عن الأبصار » اهـ

أقول : وهذه السلاسل لونها الحمر البديعة والبنفسجية ، ولون الشفق والزرقة والصفرة ، وهكذا ألوان السمك ، فترى فى السمكة خطوطا صفراء ، وأخرى زرقاء ، وأخرى حراء ، وكل هذا واضح فى الرسم .

المحبة الثانية : سمك يسمى النمل المتقوش

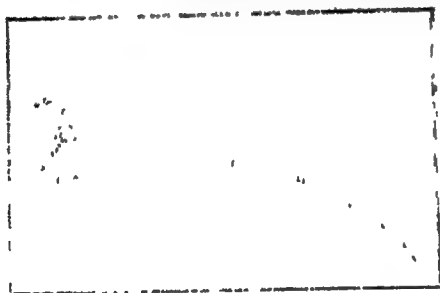


(شكل ٤ - سمك يسمى النمل المتقوش)

إن هذا وإن لم يكن مرجحاً فهو سمك فيه عجائب وحكم ، كما ترى أن كل سمك يستعين بذيله على الموم ولكن هذا السمك ذيله مفقود ، فلا قدرة له على التحرك به ، فهذا إنما يتحرك بهذه الزعفة التي تراها أشبه بالثقل الذي تراه أمامك مرسوماً بالورة الشمسية (القوتوغرافية)

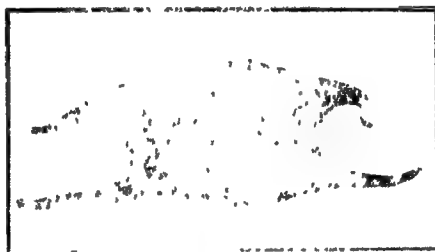
الحجينة الثالثة : بيض سمك النمل للنقوش

اعلم أن هذا السمك (أ. سبي بالعل) لأنه يشبه النمل التي : نه. ابنها في اللقى على التاج ، فأما قش فهو ظاهر واضح أمامنا ، وأما البيض لهذه صورته ، انظر شكل هـ



(شكل هـ - غلاف بيض سمك النمل للنقوش)

« إن غلاف بيض سمك النمل للنقوش خلقت جوانب الأربعة من المادة التي صنعت منها أصابعنا ، (وبعبارة أخرى) هو قرن وهو يخلق في مبيض الأشي يحيط بالبيضة بعد ما يتم تكونها ، وفي داخل هذا الغلاف الأسود القرني الصدفي تكون المادة البيضاء من البيضة (القرني) وفي وسطه الكرة التي يخلق منها الجنين في داخل ذلك البيض « الملح » (انظر شكل ٦)

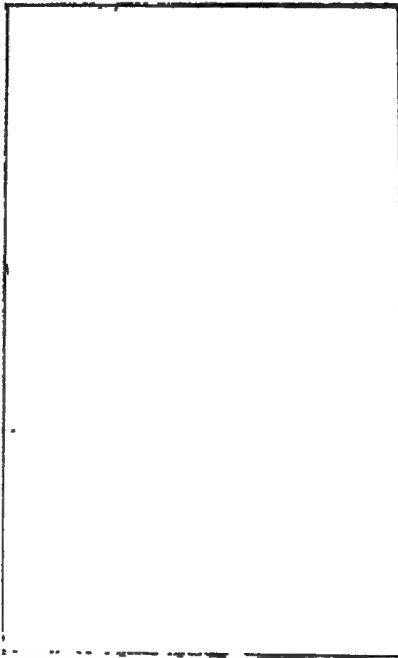


(شكل ٦ - غلاف بيض سمك النمل للنقوش)

« غلاف سمك النمل ينزل الرقاع بعد رجه في : نه. لا أنبلاء وبعد أشهر كثيرة يرى سمك النمل الصغير الثام الحافة جأب فرق قة مع (أ. سبي بالعل) : نه. لا أنبلاء ثم يحصل هناك تغير كبير في

في يياض البيضة فينوب القرن عند طرف من أطرافه ، وهناك تخرج السمكة المنيرة »

الحجبة الرابعة



(شكل ٧ - قطعة من الجزيرة السامة - جزيرة الملك)

« إن الخنازير المرجانية (سواء أكلن وذهبا فوق أكتاف بركان لم يصل في ارتفاعه الى سطح الماء ، أم كانت حول جزيرة ارتفعت في البحر بوسيلة أخرى) إنما تنفي فتصير مستعمرة من سلاسل صخرية في البحار ومن قطع مضمومة لبعضها مهشمة من هايا تلك السلاسل للذكورات ، وحوالي تلك السلاسل الصخرية البحرية يكون رمل جيل ذوا سداد ، وهذا هو الذي تراه في هذا الرسم المصنوع بالتصوير الشمسي أمامك الآن وقد اتخذ السلاسل الحضر الألوان (التي تؤكل) مكانا مناسباً لأن تقع فيه بيضها وهي في هنا موجود »

« إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم »



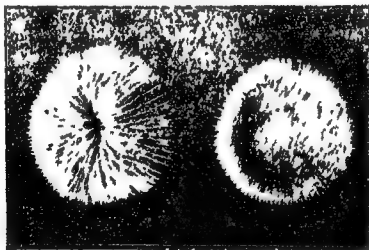
(شكل ٨ — مرجان ورق يشبه ورق الأشجار)

المرجان الورقي يكون في جهات في بحر خط الاستواء ، ونمو عجم كبير والمستعمرة الصغيرة منه تشبه الكبيرة :
الحديقة الغناء ، والمروج البهجات ، وحيوان المرجان المتراكم في تلك المستعمرة تضرب ألوانه للزرقاء الخفيفة .



(شكل ٩ — سلاسل للمحور المرجانية)

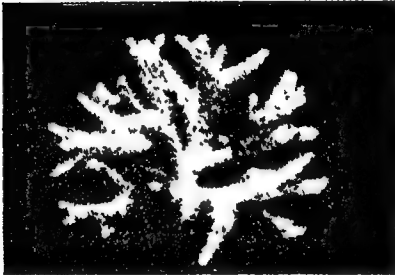
هذه إحدى المستعمرات الكثيرة المكونة من السلاسل الصخرية المرجانية المشتتة على ما لاحظته
من حيوان المرجان الدقيق ، وهو يتصاعف بأحد أمرين : إما بالانقسام ، ولما يحدث براعم في الحيوان .



(شكل ١٠ — الرجل التي يشبه في هيئته بعض النباتات الطرية الصالحات للأكل خبز الغراب)

وهو يظهر فوق سطح الماء وتحت ، وهذه الصورة المشبهة القنجال في شكلها هيكل حيوان مرجاني واحد يشبه من وجوه كثيرة شجرة كبيرة من الشقائق البحرية

الحصية الخامسة



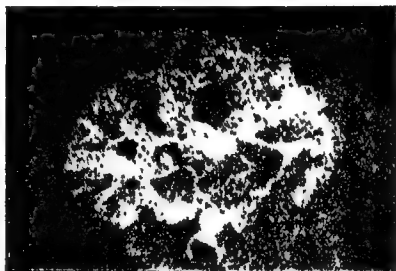
(شكل ١١ - مرجان مشعود بخيوط)

هذه مستعمرة حيوان يعيش على الأعشاب ، وهذه المستعمرة تخالف مستعمرة المرجان من علة وجوه ولكنها تشبهها في أن كلا من أفراد الطائفتين المجتمعة تحيط به مادة كية لظفه « فأنه خير حافظا وهو أرحم الراحمين » .



(شكل ١٢ - مرجان مدريرور)

هذه مستعمرات مرجانية تنوع المرجان الحقيقي المسمى (مدريرور) وهو نموذجية الورق المجدول ، و ترى نوعا منه في المتحف البريطاني يحيطه يبلغ ١٦ قدما



(شكل ١٣ - مرجان يشبه الشبكة)

هذه مستعمرة أخرى للحيوان الجليل التي يعيش على الأعشاب ، وهو أقرب الى السود منه الى حيوان المرجان ، وما هذه النقط السود إلا فتحات في هذه المستعمرة الشبكية

الحيوة السادسة



(شكل ١٤ - مرجان الكوب)

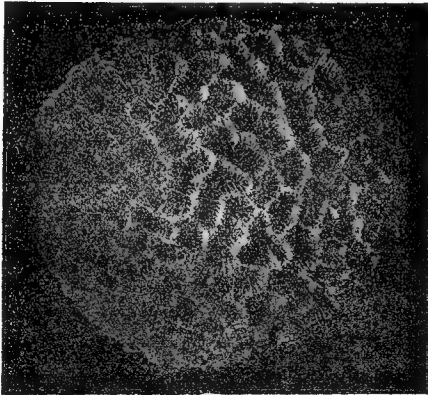
هذا المرجان البسيط البريطاني في حجمه الطيى حيوان مفرد يشبه نبات الشقائق البحرية ، وأسفل هيكله مشدود بمخبر ، أوجبر ، أو صلف .

هذه مستعمرة بهجة
المنظر بما فيها من
كوؤوس للزهر البديع
المحيط بالأغصان
المشبهات أصابع اليدين
وكل كأس من كوؤوس
الزهرات عبارة عن
عمارة أو صدفة تشبه
كوافيه حيوان المرجان
المشبه نبات الشقائق
البحرية ، وهذه
المستعمرة تنمو بطريق
البراعم حتى يكون فيها
آلاف من حيوانات
المرجان المجتمعة بأدق
انتظام .



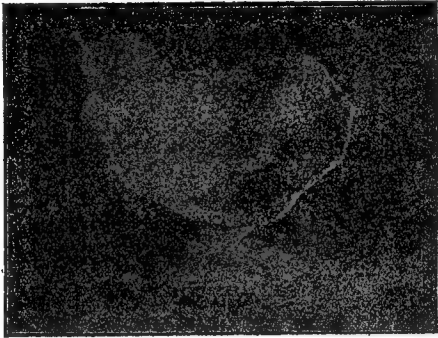
(شكل ١٥ - مرجان المحيط الهندي)

العجينة السابعة : مرجان كوب البحر
نعم المرجان ، و مرجان كوب البحر



(شكل ١٦ - نعم المرجان)

هذا هيكل جيل النظر ، بديع الشكل ، لمرجان نحى فيه انتظمت حيوانات المرجان التي بها انشئت المستعمرة ، إن هذه المستعمرة المرجانية تتكاثر بما يظهر فيها من البراعم التي دائما تبجدد



(شكل ١٧ - هذا كأس بحرى من المرجان)

هذا الرسم وإن كان يشبه الكأس في شكله ليس قريبا من الكأس المرجانية المتقدمة الذكر (كرو فيليا البريطاني) كلا فان هذا مستعمرة لحيوانات مرجانية كثيرة جدا ، وكؤوس أزهارها البديعات بهجات ترى في داخل هذه الكأس المكسورة كسرا جزئيا .

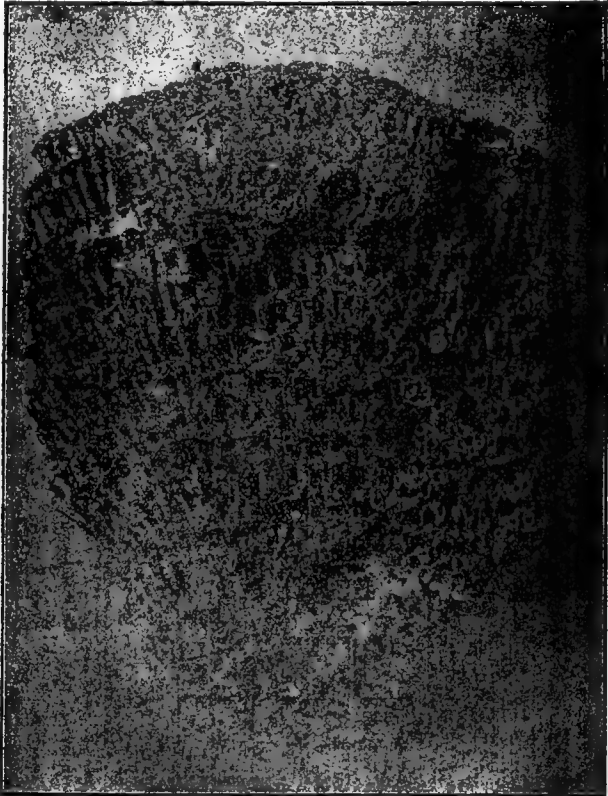
الحبيبة الثامنة

حصى البحر - أنابيب بحرية مصنوعة من المرجان



(شكل ١٨ - حصى البحر)

« إن حدير البحر مستعمرة سمراء تشبه من بعض الوجوه الاعشاب البحرية ، وماهى إلا حيوانات دقيقة تنسب الى فصيلة من فئات المرجان ، إن كثيرا من جماعات هذه الفصيلة مكون من الكلس ولذلك يسمى بالمرجان ، ولكن حدير البحر الذى كلالنا فيه له هيكل قرئى لين مرين لطيف ، إن أول موضوع كتبه (تشارلس داروين) فى العالم الطبيعة كان على حدير البحر ،



(شكل ١٩ : أنابيب بحرية مكونة من المرجان)

هذه صورة بحجمها الطبيعى للأنابيب المكونة من المرجان ، إن كل حيوان مرهق فى هذه المستعمرة

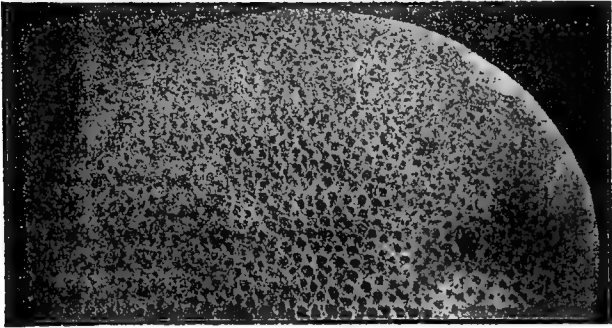
يعيش في أنبوية جراء مكونة من مواد الجير المائية ، وهذه الأنابيب منضم بعضها إلى بعض مكونة ما يشبه قلائد الأطفال ، إن هذه الأنابيب الكثيرة العدد مرتبطات ببعضها ارتباطا وثيقا محكما بواسطة قناطر ، وفي كل أنبوية حيوان مرجاني يخرج من أعلى جسمه ٨ قرون ريشية خضراء ، إن هذه القصبة المرجانية للسماة (تاييسورا) تظهر عادة في الماء القليل (الفرقاق) في أطراف السلاسل المرجانية الصخرية في الدنيا القديمة والجديدة .

المحيطية التاسعة.



(شكل ٢٠ - مرجان الكورنيان الحلي)

هذه مستعمرة جيلة ذات أغصان تشبه الأعشاب وهي من مرجان الكورنيان ، وهذا النوع يشمل أصناف المراوح البحرية والأقلام البحرية وما يسمى أصابع الرجال الميتين ، وههنا ترى مئات من حيوان المرجان المتحدت مع بعضها في الحياة بواسطة قناة ، وكل حيوان منها له ما يشبه قرون الحشرات الريشية ، وله سلاح اتخذته من المواد الخيرية ، ثم إن هذه الحيوانات يجمعهم محور يحفظ الجميع في نظام واحد ويشبهن المستعمرة .



(شكل ٢٩ — مستمرة للرجان في البحر الهندي)
 إن لفظ « مرجان » يدخل تحته مئات من الحيوانات المختلفة الأشكال كما جئتم ، ولكنه يجب أن يعلم
 أن التاريخ الطبي ليس فيه فصيلة اسمها فصيلة المرجان ، وإنما المرجان منسوب إلى فصيلة (الزوفيت)
 تشبه أشجار (الشربين البحري) ، فهناك صنف يقال له : مرجان الديبور ، وهذا ينسب إلى ما يسمى
 و المرجان النقيق ، المنسوب إلى نبات الشقائق البحري المتقدم ذكره مرارا ، وهناك مرجان أسود اللون
 له ما يشبه الساق القبل الشديد ، ومرجان آخر يشبه للروحة البحرية ، وآخر يسمى « هرزبون » ينسب
 إلى « حمبر البحر » المتقدم ، وهناك غير ذلك .



(شكل ٣٢ — شقائق البحر فوق الصخور)

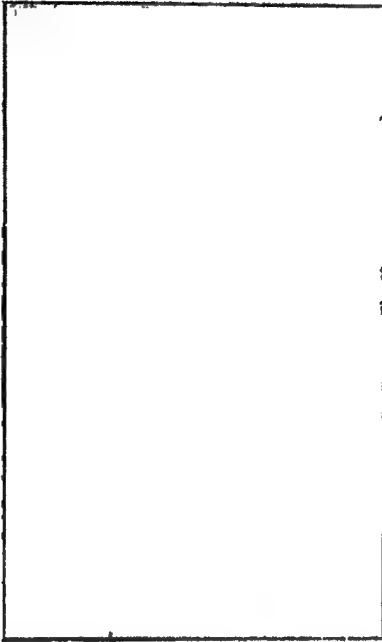
هذه أشبهت باقة الأزهار في شقائق البحر من وجهين : فأولا شعاعها اللامع منتظم في جوانبها ، وثانيا اللون الجليل ، إن جسمها الاسطواني مثبت في قاعدته ، والقم عند قطبها الأعلى محوط بأوراق منتظمة بهيئة دائرة حول الساق ، مسلحة بما يشبه قرون الحشرات اللامعات الوفرة الحياة ، إن الشقائق البارزة في هذه الصور التسمية نوع منها يسمى « بيلاموز » ذو قرص موشح بأهداب ذات أشواك كثيرة صغيرة تشبه قرون الحشرات اللامعات .



(شكل ٣٣ - سلاسل الصخرة المرجانية في جزيرة «داكو»)

هذه السلاسل الصخرية المرجانية تغطي مساحات شاسعة الأكثاف ، تمتد الأطراف ، في شواطئ جزيرة الملك ، فأكتبس ماكتبه العالمان « كانت » و « هارلى » ان هذا اللون المنتظم البراق يخضع للتأثير فيجب اليه أن أمامه على الشاطئ حديقة تمتد على مدى الجوانب ، كثيرة الأزهار ، اذا هورق خلب ، سحر الصين بمرآه ، إن من المرجان ماأراه وردى اللون ، أوقرقله ، أوضيفا يتكسر بأدى لمس ، ويحترق وانها على الأرض ، ومنه ماهوقوى متين شديد صلابة ، لا تؤثر فيه المطرقة ولا تكسره الفؤوس

(شكل ٧٤ - الجزيرة الركائزية)



إن الجزائر على قسمين : جزائر قارية (منسوبة للقارات) أى إما كانت قطعة من القارة فافصلت منها ، وجزائر بحرية ، وهى التى تجرز فى البحر بسبب احتياج بركائى فى البحر ، لأن هذه الصورة الشمسية ترينا الجزيرة البحرية . انتهى ما أردته من المجلة الانكليزية المذكورة

فلما آتمت هذه المقالات الشارحات للمور . قل مدينى : لأن صدق ظنى ليكوننى فى الأمم الاسلامية بعد اليوم حكام لم يسمح بأمثالهم الزمان من قبل ذلك ، إن مباحج الصور ومحاسن الأشكال مفاتيح العلوم وكيف يعقل أن انساها يحتاج للعلم ، ويشتاق للبحث ، وإلحشوات ، وهـ وريجات ، تبارك الله أحسن الخالقين وكيف يمشق شبان المسلمين العلم ، ويحبون الأمة ، ويفرمون بصفاء العالم ، إلا بمشوقات تراها أعمارهم ، ومعشقات تحرك وجدانهم ، وإذا سمعنا ابن سينا يقول فى كتابه : « إن الصوت اللطيف ، والعشق العفيف والعبادة مع الفكر توصل العبد لربه » فإن هذه الصور فيها أرقى الابدات ، وهى أنظم من الخفائى ، إنها لموسيقى بصرية أبعد أثرا من الموسيقى السمعية ، على أن الموسيقى السهمية قد كثرت القصائد المملوءة بالشهوات القاسيات ، والأهواء والضلالات ، أما هذه المناظرانها فغسية إلهية ، صنعتها يد القدرة وزخرفها

بالحكمة فأصبحت هي ونجوم السماء ، وبحجاب الزرقاء والفضراء ، جنة عرضها السموات والأرض خلاصة
المكرين ، ما أكثر هذا النوع الانساني فاهم عن هذا الجبال غافلون . قلت : لقد قطعت بعل وأعدت
بحكمة . قال : هذا هو الذي جال بخطر في أثناء هذه المناظر ، وأنا أقرأ في نفسي : « الذين يذكرون الله
قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً » . فانه ذكر في
الآية أشبه بمقمة ، والفكر في خلق السموات والأرض كنتيجة له ، فالناظر في هذه العجائب على هذا اللفظ
قد وصل الى النتائج ، ولم تكن الصلاة والصيام والإمعات للتفكير ، فعلة التأمل كإصلاح ، والعبادة لا تقرب الى
الله إلا مع الفكر ، فهذا هو التفكير وهنا في هذه الآية التي نحن بعدها يذكر (بعد ذكر البحار وتسخيرها
وتسخير السموات والأرض لنا) الشكر والفكر ، أي ان عجة هذه العوالم هو الشكر والفكر ، وهل للناس شكر
إلا بعد فكر ؟ فربح الأمر كله الى الفكر ، وأجل ما يحصر الفكر يشوق إلى ما هي الصور الجبلية التي لا تهيئنا
لشبهات ، وانما تهيئنا للفهم بمعنى الأرض والسموات . ثم قال : هذا ما جال بخطر في ، فهل تسمح لي أن
أعرف ما أثر في نفسك ، واهتاج به لك ، عند دراسة هذه المناظر . قلت : نعم أنا عند رسم صورة يرض
السك المسمى « النخل المقش » وهي الصورة الثانية ، خطرت وأنا أكتب في شرح تلك الصورة أن أقول
« إن البيضة تنزل الى أسفل البحر شهوراً كثيرة ، فلذا تم خلق الجنين حمل هناك فقرب كيميائي في بيض
البيضة فيؤثر ذلك في القرن وهو (القيص) أي قشر البيضة فتخرج السمكة الصغيرة ، إن الصانع الذي
يبدع هذا الإبداع في صنعه ، وينظر السمكة صغيرة محبوسة داخل حن قوي متين شديد نظرية يحدث
في الغذاء المحيط بها حملاً وهو التقدير الكيميائي في البيض ، فيؤثر في الحامن ، فيدخل على السمكة الصغيرة أن
تخرج من محبسها وتضيء في الماء وتفرح بنعمة ربها

أقول : إن الصانع الذي يفعل هذا ويريه لنا بأعيننا هو نفسه الذي أسعانا بآذانا آية « ولكل قوم هاد »
فلا أمة في هذه الأرض إلا لها هداة يتحقق فيها ، وهؤلاء الهداة يتولون هدايتها بما يناسب أخلاقها ،
فها هي ذه جزيرة العرب جامعهم رسول منهم أمة مثلم فقلوا كلامه ، وهامم الأتية كل « يأتي على
شاة من أرسل اليهم ، وهامم أولاء علماء الاسلام في كل قرن كانوا يتلاحقون ، وهم مصلحون بحسب
أزمانهم ، ولولا هم لذهب هذا الدين في الأرض . وخطرت أن بعض أمة الاسلام اليوم أشبه بهذا الجنين في
هذا القرن سواء بسواء ، لقد أحاطت بتوهم المخارقات ، فغضبهم عن الحرية في دولهم ، وعن الترقى بين أمة
الأرض ولهم علماء ، ونحن انقسمنا في الجهالات ، فهذه الجهالات المتراكات أشبه بذلك الحمن المحيط بالبيضة
المتقدمة ، ثم هؤلاء الهداة في الاسلام الذين ظهروا في الأصقاع الاسمية أشبه بما حدث في البيضة من التقدير
الكيميائي ، ذلك أن العلم الصادر من هذه العقول المتنازعة في بلاد الاسلام يحلل الجهالات المتراكات ، فتصفو
النفوس ، وبهذا التحليل الدلبي تنطوي الأم من الاستعباد الجسمي باحتلال الفرنجة وظلم الحكم الاسلاميين
ومن الاستعباد العقلي : فور النفوس وبعدها عن العلم بما ذرأ الله في الأرض والسموات ، ولا يزال المسلم يجاهد
في مباحته العلمية وهو يشهد الله في كل حجر وشجر ، وبحر وجزيرة وأرض حتى ينقذ أمة من الخطر ويرفعها
الى سماء المجد بأبحاثه ، وهناك ينطلق عند الموت من سحن الأرض الى فسيح عالم الأرواح والدعوات كما
انطلقت السمكة الصغيرة من سجنها الى ماء البحر الفسيح ، ولكنها لم تطلق إلا بتقدمة كيميائية هي أبحاث العناية
الالهية ، هكذا نفس هذه العناية هي التي نهي اليوم نفوساً ونفوساً في الأمم الاسلامية تعال ما تراكم من
انحرافات ، وبسببها تنطوي عقول أفراد من سجن الضلالات وأجسام ونفوس الأمم من الذل والجهالات
« إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » .

إن هذه المناظر والمباحث تمشق الناس في ربهم وفي العالم وفي أنفسهم فيدرسون حبا في ربهم وحبا في
العلم ، ويعملون طبعاً لربهم ، لأن من أحب الله وأحب العوالم والعوالم لا يجرم بحب الأمم . وهذه نهايات

السعادات في الحياة والممات .

وأنا أجد الله الذي خلقنا في زمان النهضة الاسلامية التي يستنسخ الجهالات المتراكمة التي احاطت بهذه الأمة منذ عدة قرون . فقال : وأنا بالتجربة أثناء نشر هذا التفسير وجدت هذه الآراء بخلافها والأخلاق بأفْسَها قد انتشرت بين قراء هذا التفسير . قلت : أنا لاشك عندي أنهم من دعاة هذه النهضة الحديثة ، والله هو المهادي الى الصراط المستقيم . انتهى صلب يوم الأحد ١٩ ابريل سنة ١٩٣١ م

المعاني المحسنة في الخلق

بضواحي القاهرة يوم ٢٠ ابريل سنة ١٩٣١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

لما أتممت كتابة هذا الموضوع للتقديم رأيت أني يجب علي أن أخرج من القاهرة الى ضواحيها لاستنشق النسيمات ، وأروّج النفس ، وأني سبيل قلبك أفضل من أن أذهب الى حقلنا الذي أزوره وقتنا فوقنا .
بت ليلة الثلاثاء ٢١ ابريل سنة ١٩٣١ بتلك القرية وكان معي بعض ورق مطبوع من سورة الزخرف لأضع له الفهرست ، فلما كان يوم الثلاثاء بدرت لي ثلاث معان : في الأكل ، وفي النساء ، وفي السماء ، ذلك أني وأنا أعطى الطعام وقررت الشبع ففسي تحدثني قائلة : « ما هذا الجوع ؟ وما هذا الشبع ؟ إن ههنا قائدين وسائقا ، والقائدان أحدهما باللين ، وتانيهما بالشدّة ، وأولهما أودم من ثانيهما ، فالسائق للطعام هو الجوع ، والسائق دائماً قاهر للسوق ، والقائد المؤدّب باللين هي لذة الطعام ، والقائد المؤدّب بالشدّة هو المرض وتعاطى السواء . فصل الله مع الانسان ما يخلطه مع دابة نافرة ، فهذه لابد لها من سائق ، ولشدة نفورها لابد لها من رجل آخر يكون معه يرسم لتأكله ، والجوع سائق ، وقيلت لما كل قائدات ، وقد يجمع السواء تجريما »

ثم قلت راجعا الى بلدة المرج لأركب القطار ، فلهجت امرأة تحدل جرة على صدرها على لأمع ، فما كادت تظهر من بعد حتى حجبت هذه الزينة تأديا ، وما كاد يصري يقع عليها حتى أخذ الفكركي يحول في هذا المعنى وهو : « أن جبال الانسان والحيوان محبوس من جهات ثلاث : من جهة الزمان ، إذ لا يكون إلا في زمان معلوم ثم ينطفيء ، ومن جهة المكان ، وهو بعض الأعضاء . ومن جهة المقدار ، فقدره محدود له نهاية »

فأما جبال النجوم والشموس والأقمار ، وجبال البحار ، والجبال والمرجان الذي ثمّ كلامنا فيه ، فإن ذلك ليس محبوسا زمانا ، لأننا لانعرف متى ابتدأت هذه العوالم ، ومكانا لأننا لاندرى نهايتها ، ولانقدرا لانا لانعرف عدد النجوم ، ولا عدد حيوان المرجان ولا غيرها

واذا علمنا أن جبال المرأة أو نحوها من نوع الانسان محصور بثلاث اعتبارات ، وجبال العوالم غير محصور أدركنا لامحالة النتائج والفترات والذات التاجات عن كل جبال ، فنتائج جبال المرأة هو الولد ، ولولاه لم تحمل ، لأن الجبال إذ ذاك عبت ، ولتلك تحرم هي والرجل من الجبال في حال الصغر والكبر إذ لا قدرة لهما على القرية .

أما جبال النجوم والشموس والأقمار ، والأزهار والمرجان في البحر ، فأما ذلك لاستخراج القوى الكامنة في هذا الانسان ليرقى الى الصلا ، فكما أن هذا الجبال لاحد له هكذا لاحد لنتائج العملية . إذن العلم لاحد له ، ويقع ذلك اللذة ، فهنا علم لاحد له ، ولذة لاحد لها ، فأما الانسان والحيوان فذلك كله محبوس كما شرحناه

ولما كان هذا الخاطر مناسباً لموضوع المرحبان المتقدم أثبتت هنا ، إذ هذه المنحة موافقة لهذا المقام .
ومن يجب أن الانسان لا يشعر له بعد في حوز المال ، ولا في الشهوات والذات ، ولكن الحد يأتي له قهراً
فيضعف جسمه في طعمه وشرابه ، وتضعف قواه فلا يقدر على الوقاع ، ويحيط به الكوارث فيقل ماله .
سبحانك اللهم وبحمدك ، أنت بلرصاد لمن حاد عن ذلك الصراط ، فالتبين يتمتون حدودك في طعامهم
وشرابهم وواقعهم ، ولا يدركون أنك قدوت الذوات فيها بقدر ، يترهم المرض والضعف والمزال ، وتقصّر
أعمارهم ، ويحل بساحتهم الشقاء ، والقر والبلاء ، ويعوزهم الطيب ، والسواء الكربة ، كل ذلك لأنهم
لم يزوا هذه الحياة وزناً حقيقياً واعتبروا المقدمات نتائج ، وذلك لسوء التفكير ، والجهل بالمصير ، كتب ليلة
الخميس ٢٣ ابريل سنة ١٩٣١ وبهذا تم الكلام على الطليعة الثالثة والحمد لله رب العالمين

الطليعة الرابعة

في قوله تعالى : أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات
سواء عيهم ومعامتهم سواء ما يحكمون * وخلق الله السموات والأرض بالحق وتجزى كل
نفس بما كسبت وهم لا يظلمون

لقد تبين لك في التفسير اللفظي أن قوله تعالى : « وخلق الله السموات والأرض بالحق » جعل برهانا
على الجزاء يوم القيمة ، وأن هذا العالم بنظام ، والنظام ملازم له ، فحال أن يكون عاماً في كل شيء ،
ويختلف ذلك في الانسان ، ولكن الآن أذكر لك شيئاً عجيباً ! أقل لك آراء علماء العصر الحاضر ، أقل
لك آراء (الورد اسبنسر) كيف يقول ؟ يقول : « إن الطبيعة تقسها فيها العقوبة ، العقوبة فيها مقبرة
على مقدار الذنب » ، بل جعل تلك العقوبة من الطبيعة نعمة ، فكأنه نفق بقوله : « وهم لا يظلمون »
وإنما جعلها نعمة لأنها منفرات وعنفات ، فإذن كل ألم نعمة لأنه منفر وعنف ، وأتى بمثل ما ذكرناه من
عقوبات الطبيعة ، ولا فرق بين قولنا وقوله إلا أنه رجل غربي ، فترى تصافر الشرق والغرب على رأى واحد
والرأيان يضران القرآن ، فكأن هذا القرآن أنزل لهذا الزمان ، والافكيث يبين الآن في هذا الوجود
أن لالعوبة ، وأن ما يسمى عقوبات بحسب ظاهره هو من بحسب باطنه ، وهو الذى طالما قلناه في التفسير
ويوضح لإذن معنى قوله تعالى : « إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن » ، فعذابه إذن تحذير لاغير ،
وقدما في هذا التفسير أن مسألة الكفار وعقابهم الدائم لا تفرض لما بل أنت سيقنع عليك ونعرف
الحقيقة ، لاسيما إذا قرأت كتاب الامام الغزالي وهو « فيصل التفرقة » بين الاسلام والزندقة » ، فلا تقل
لك الآن كلام العلامة (اسبنسر) الموافق لما فهمناه من كتاب الله تعلم أن دين الاسلام سيظهر في مستقبل
الزمان ظهوراً أوسع يمل أشمل .

قال : « انظر الى نوع العقاب الذى ييسر في الطبيعة ، فالك اذا تأملت وجدته أجدر أن يسمى ثواباً
لاعقاباً ، وفرق عظيم بين عقاب الانسان المتكف وبين عقاب الطبيعة المنظم الحسن الجليل ، إن عقاب
الطبيعة زجر عما أغفلناه ، وتعليم لما جهلناه ، فهو مقدر بقدر الذنوب ، فلا زيادة ولاقصان » وجزاء سيئة
سيئة مثله لا أقل ولا أكثر ، فليس في الطبيعة حقد ولا حسد ولاغفر ، فإذا عثر الطفل لطيش فاعطى
بشيء أماله لم ينل من الطبيعة ألماً إلا على مقدار هيجته وسرعته ، فان قلت قل- الألم ، وان عظمت عظم
الألم ، ذلك هو الانصاف والعدل ، تعاقب الطبيعة بذلك وهي ساكنة صامتة لا تبدي حراكاً ، ولا تسمع شتياً ،
فهى بلرصاد مصممة مؤكدة ماضية في عزيمتها لانتى ، يشاك الطفل بشوكة فيألم ، وكلما عاد انشك عاد الألم
واذا لم يشك لم يألم . وهذا هو الصدق . فإذا رأى الطفل من الطبيعة ذلك التسليم تأذب أدباً حقاً فتعجب

إن هذه العقوبات ليست خاصة بالأطفال ، فكما أنها لا ترحم صغيرا لا توقركيرا ، فإذا كبر الإنسان وليس له والد يزرعه فعمت له الطبيعة بالمرصاد وأذنته كما تؤذّب الأولاد ، فإذا كان مأجورا ولم يرع حق العمل وفرط فيه ينزع منه العمل ويترك ليتجرع الضرر والعاقبة ، ويشرب الكأس التي ملأها يده .
وترى الرجل الذي يخلف وعده يناله من سوء فصله ما يفقده ثقة الأصحاب بوعده فتتوت عليه القرص ويحلّ به الندم . وترى التاجر الذي يغفل عن اللبائعين بضائمه ينقضون من حوله وهو كئيب حسير .
وترى البائع الذي يحسن الظنّ بالمشتريين منه فيبيعهم نسيئة ، وكذلك المساهم المخاطر ، فهذان ينالهما من ضياع المال ما يؤذي بهما ويضرهما جزاء وفا ، إهما كما لا يرجوان على جهلهما حسابا .
وترى الجائر للضلل يناله الهوان ، والظالم يلحق به القتل والصدور ، فيرجع إلى رشده بعد تأديبه ، فخي تخلص من ورطته ثبت على الهدى ، وتخلص من أسباب الردى ، ولم يخذعه خادع يصدده . ثم طلب بعد ذلك أن يكون عقاب الآباء كعقاب الطبيعة الخ اه

هذا ما يقوله العلامة (سبنسر) أفلسنت ترى أن هذا المعنى بعض قوله تعالى : « وخلق الله السموات والأرض بالحق » . أفلسنت ترى هنا بعض الحق أى العدل ، والعدل فى العقاب . ثم انظر إلى قوله تعالى : « ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون » كأنه يقول :

أيها الناس : ما ظلمتكم ، إنما أنتم أطفال ، وليس فى طبيعة العالم الذى تسكنون فيه أن ترتقوا إلا بما فعلناه ، تشوكم الشوكة فتألمون والمسمك لتضعكم ، فالألم نوع من الاحساس به تكون الطبيعة بحساسة السائل المنسية والحساية والجبرية والفلسكية بصفاء عقولكم ، هكذا تهمون مزار الطبيعة بحساسة السائل المخلوقة فيكم ، فاعلم علما : علم تدركه العقول ، وعلم تدركه الحواس وكلامه له أثر فى نفوسكم والنتيجة أن تكونوا عاقلين . فإذا كان الألم علما طيس ظاهرا . إنما الظلم ألم لا فائدة منه . وفى هذا الألم أكثر فوائد الانسان . انتهى الكلام على الطبيعة الرابعة

الطبيعة الخامسة

فى قوله تعالى : إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون

اعلم أن قول الله : « إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » قد عبر عنه علماء الأرواح الذين سألوها ، فأجابت بحقيقة أحب أن أذكرها لك هنا سواء أحييت عندنا أم لم تصح ، فلا ذكرها وليفكر فيها عقلاء المسلمين ، وليحضرها الأرواح ، ويسألوها كما يسألها أهل أوروبا ، فإذا كن المسلمون لم يتعلموا هذا العلم فليس ذلك بمانع أن نذكر منه ما وفى المقام ، بل انه معجزة للقرآن ، بل هو ضى قوله تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أول يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » سأقول لك ما ذكره علماء الأرواح لعائدين : الأولى أن ما سمعته هوعين قوله تعالى : « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيما » . الثانية : أنك متى وقفت على ما أقوله الآن يتربك خشية وخوف شديد أكثر مما فى الكتب السهلوية لأنك ترى أن كل كلمة ، وكل فكرة ، وكل خطوة تحطرتنا ترسم فى أجسامنا الروحية وهذا أمر عظيم ، فإن الانسان يصبح بهذا خائفا وجلال اذا أدرك أن كل ما يجول بخاطره يرسم على جسمه الروسى ، فإذا مات ظهرت جيج الآثار ، ذلك أمر عظيم ، فلا تكتب بالقتنات ، ولا شرع فيما قالوه . قالوا ما ملخصه : « إن الحيوان فى هذه الأرض إما أن يكون فى الماء ، أو فى الهواء . فإذنى فى الماء لا يستطيع الحياة فى الهواء ، والذى فى الهواء لا يستطيع الحياة فى الماء . ههنا هناك عوالم فوق الانسان والحيوان تعيش فى عالم يسمى (الأثير) وهو عالم لطيف اللطف من التنوير يحيط بأرضنا وبالأراضى والعوالم الأخرى ويقولون

إن أرضنا عالم متأخر خلقت فيه أرواح متأخرة هي أرواحنا ، أخلاقها وحشية ، قريبة من أخلاق البهائم ، لذلك عشنا معها في دار واحدة ، ويحيط بأرضنا مادة أثيرية ألطف ألف درجة من الهواء ، ولكنها بالنسبة للمادة الأثيرية المحيطة بغيرها من العوالم أخشن وأخشن بما لا حد له ، وكلما كان الإنسان ألطف أخلاقا متجردا من الأثانية استحقّ النقل الى عالم يناسبه ، وكلما كان أسخن أخلاقا ، وأغزر حبا ، وأثقل لئى جسده ازداد بقاء ، فارتفع من عالم الى عالم ، وليس هناك مانع من الموانع تصدّ الإنسان عن الرقى الى العوالم العالية إلا ذاته فانها ان لم تستعدّ لذلك العوالم تبقى في مكانها الخاص بها كالأرض التي نحن عليها ، فهي إذن أشبه بالسلك لا يصعد عن الأرض إلا ضعفه عن استنشاق الهواء ، وكلانسان لا يصعد عن الحياة في البحر إلا أن الماء أغلظ من الهواء فيقتله ، فاذن كل عالم من عالم الأرواح المفارقة أجسادها وهي في البرزخ محكوم عليه أن يعيش في عالم خاص ، فلو أنه تجاوز عالمه الخاص لم يتحمل ما هو فوقه بل يكاد يكون فيه معدوما فيرجع أسرع من البرق الى عالمه ، هذا ما يقولونه في الأرواح بعد مفارقة الأبدان

أعمال الأرواح

ثم إن الإنسان في الحياة الدنيا وموتى هذا الجسم المادى يقولون انه يحيط به مادة أثيرية ، وفكره مسلط عليها ، مؤثر فيها ، فكل فكر أو عمل لابد أن يرسم في جسمه الروسى (المطبق على الجسم المادى) الذى سبق بعد الموت معه ، ثم ينتقل العكس من جسمه الروسى الى السائل المحيطة به فيحدث فيه صلاحا أو فسادا كما تنتقل الروائح العطرية والمذكروحة الى الأجسام حولنا بالهواء ، فالمادة الأثيرية موضوع أعمال الأرواح في الحياة وبعد الموت كما أن الهواء عمل أثر الأصوات ، فترى لنفس علاقتى بالأرواح المحيطة بها ، والسائل الأثيرى ينقل آثارها اليهم وآثارهم اليها ، فترى أننا اذا كنا في جمع ملتئم نحسّ بسرور منشؤه ذلك السائل ، واذا تمحادثنا مع من يفيضنا ونفيضه نحسّ بتنافر قلوبنا ، فاذا تخلّصت الروح من الجسم وأصبحت حرة كانت أعمالها في ذلك الأثير بنفس الارادة فتعمل في السائل الأثيرى ما كنا نعمله ونحن أحياء في المادة بأبداننا ، وتؤثر الروح في الأثير آثارا طوعا لأخلاقها وأحوالها ، وكلما وقصها .

واذا كان الفكر الروسى في حال الحياة وبعد الموت يؤثر في السائل الأثيرى صورا على مقدار تصوّره فانه بالأولى يرسم في جسمه الروسى تلك الصور ، وهنا بيت التصيد ، فاذا كنا نرى أن الخجل يظهر أثره على وجوهنا والخوف ، فبالأولى يرسم في جسمنا الروسى تلك الصور للمتعبية ولا يحو أحدنا الآخر وتراكم إذ ذاك الصفات المتعاقبة ، فيكون الجسم الروسى مجمع الأخلاق والأعمال ، فنظهر عواطف الحب والحدس والمقد والاشفاق والحلم والكبرياء والأمانة والغضب والرياء والجلود والوداعة والحب ، وتلك العواطف لها آثار كآثار العقابير الطيبة فتكون مهيجة أو مسكنة أو قابضة أو ملينة أو نافذة أو مقوية أو مخدرة أو منومة أو مسومة أو شافية . وبالجملة تكون السوائل على عهد العواطف والغضائى والردائى البشرية ، ويكون اختلافها كاختلاف خضرة النبات ، أو اختلاف روائحه أو صوره وماشا كل ذلك اه

ذلك ملخص ما تقولوه الأرواح وعلماء الأرواح ، أفليس هذا يشرح قوله تعالى : « اقرأ كتابك الخ » وقوله : « إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » .

فانظر الفرق بين نسخنا ونسخ الله ، نحن ننسخ الحروف ، ولكن الله ينسخ ما هو أجل . من الحروف ينسخ نفس الأعمال ، يرسم صورها ، يجعلها ظاهرة فينا واضحة ، فبدل (ح س د) في معنى الحدس ، وبدل (ح ب) في حب يرسم صورة الحب وضادة مشرقة بهجة ، وصورة الحدس معتمة قايضة ، يراها الناس فيفرحون بالحب ويشتمون من الحدس والبغض ، هذا هو نفس قوله تعالى : « كفى بنفسك اليوم عليك

حسبها ، ففسخه الانسان اذن نفسه فيها صور أعماله وانحة لآحرف مكتوبة ، بل أعمال مرسومة وانحة ظاهرة ، وهذا هو كتاب الله الذى يكتبه فى أرواحنا ، وهذا عينه من قوله تعالى : « وقل الحمد لله - بربكم آياته فتعرفونها » وهذا بينه هو قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » . واتما يظهره لأن الكشف الحديث فسر القرآن ، تلك من أجل مجازات القرآن والحمد لله رب العالمين . انتهى الكلام على اللطيفة الخامسة . كتب يوم ٤ مايو سنة ١٩٢٥ م

اللطيفة السادسة

فى قوله تعالى : فته الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين * وله الكبرياء
فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم

نقطة فى صلاة المصر

يوم الأربعاء ٣٠ رمضان سنة ١٣٤٩ هجرية

فى هذه الآية أربعة أمور

(١) ان الله يربى عوالم السموات ولأرض ، ويربى العوالم التى فيها

(٢) وله الكبرياء فيها

(٣) وهو غالب لها ولما فيها

(٤) وهو مع هذه الترتيب له الكبرياء والقهر ، وهو حكيم فى أعماله

إن الترتيب لامتدوحة لها عن العلم بما تستدعيه حال من وجهات الترتيب لهم ، وقصد المربى تكديلهم ولابد من الحكمة فى الاعطاء والمنح ليتم مقصود الترتيب ، وهذه المعاني فى الاسم (رب) والاسم الحكيم ثم إن الله مع علمه وحكمته وترتيبه لما خلق ليس شرعة لكل وارد ولا يرد عليه إلا الواحد بعد الواحد ، فهو منجى الجناب ، رفيع الدرجات ، مترفع عن كل المخلوقات ، تمت عظمته ، وعظمت منته ، وهذا معنى « وله الكبرياء الخ » وهذا الكبرياء وهذه العظمة بحق ، لأنه عزيز مرهوب الجانب غالب

واعلم أن هذه المعاني وأمثالها تتضمنها الصلاة ، سبحانه الله وبمحمده ، أنت الحكيم العليم ، خلقت الانسان وجعلته فى الأرض ، وأعطته بالنجوم والشموس والأقمار ، وأظهرت حكمته وبدايع صنعك فى خلقه وترتيب جناته وعقله ، وأعميت وضيت على عقله فلا يراها وهو يراها ولا يعلمها وهو يعلمها ، وشغلت بحاجات نفسه ، ومكادحة بنى جنسه ، واسكنك مع ذلك فتحت له الباب فى الصلاة

الانسان يرى العظمة فى الكواكب والشموس ، ويرى الجبال فى الأنوار والصور والحسان التى لا يمكن أن يعرفها إلا بإشراق هذا النور عليها ، فهنا عظمة وهما جبال والانسان يحار بينهما ، نارة يلحظ العظمة كما يرى فى عظمة السموات ، ونارة يلحظ الجبال كما يرى فى الأزواء والزروع والأنهار والأزهار ، وتارة يلحظ العناية والحكمة معا كما فى ابداع خلق الأعضاء والأعين والأذان والأعصاب وقوى البصاغ ، فإذا رضع رأسه وقال : « ربنا لك الحمد ملء السموات ، وملء الأرض ، وملء ما بينهما ، وملء ما شئت من شئ بعد » فهنا يلحظ المصلى العظمة والكبرياء فى السموات والأرض ، وإذا ركع فسبح لربه العظيم وقال : « اللهم لك ركعت ، وبك أمنت ، ولك أسألت ، خشع لك سمعى وبصرى وعيى وعظمى وعصبى وما استقلت به قدمى لله رب العالمين » ، وهكذا إذا سجد وسبح لربه الأعلى وأخذ يقول : « وسجد وجهى للذى خلقه وصوره وشق سمعه وبصره » وختم القول بهذه الجملة : « تبارك الله أحسن الخالقين » فهو فى هذين القائمين

يلحظ الحكمة واحكام الصنعة ودقتها والعناية ، ففي الرفع والاعتدال تظهر للمصلي العظمة وفي الركوع والسجود يلحظ احكام الصنعة وجمال الوضع المؤدى للحب والفرام والقيام ، فهنا تربية تصحبها رجة تؤيدها حكمة ، تحيط بها عناية ، فهذه موجبات الحب ، والحب أعلى درجات السعادة ، وهذه المعاني هي مبادئ سر قوله ﷺ : « وجعل قرّة عيني في الصلاة » ، ففي الصلاة ملاحظة الكبرياء العاتية والعظمة والقرّة والرجة والحكمة . كل ذلك في خلق الأعضاء التي يذكرها المصلي في ركوعه وسجوده ، وهل قرّة عين العقول الكسيرة في هذا الانسان إلا أن يحب وتحقق ، والعشق والحب إنما يكون لمن كملت أوصافه من جمال وعلم وعظمة وحكمة وإبداع في الصنع ورجة لهذا الحب ولضيقه من كل من يتصف بالحياة . كل ذلك بقوله المصلون في صلواتهم والنبي ﷺ يلحظ معانيها ويقدر قوائمه بنار الحب ، وأكثرت الناس بالملحوظون هذه المعاني .

(١) لا ظهور لهيئة الخدائق والبساتين والزرع والأنهار ، ولا لوجوه الجبلية إلا بالأنوار الكوكبية ، أوصافه الانسان من الأنوار مشاكسة لها عند فقدتها كالشمع والبقول ، إذا لم يكن نور فلامع لنا بالجمال ، إذن الشمس سبب في وجود كل جيل ، وسبب في ظهوره ، فطهرارة والضوء معا تعاونا على ظهور هذه المخالقات ، والضوء وحده سبب لظهور الجبال .

(٢) فإذا كانت هذه حال الشمس مع كل مخلوق فلنقل هكذا في قس الكواكب والشموس ، إن هي إلا آثار الآلات القدسية العاتية هنا ، فكما كانت الشمس سببا لخلق النوات الجبلية وغيرها وسببا في ظهورها ، هكذا الآلات العلية القدسية سبب في خلق قس الشموس ، وسبب في ظهورها لنا ولنبرنا على سبيل قياس الخليل .

(٣) وإذا رأينا أن الآلات الجبلية من نوع الانسان مصدرها وجودا وظهورا الشمس ، فهكذا قول : الشمس مصدرها وجودا وظهورا الآلات القدسية .

(٤) وإذا ثبت أن كل جيل في أرضنا مشتق من الشمس وجودا وظهورا والشمس عن الآلات القدسية وجودا وظهورا ، فليكن هذا الجبال الذي يدهشنا في أرضنا أوقفه في الكواكب وأضوائها أثرا من آثار ذلك الجبال القدسي ، إذن قرّة عينه ﷺ في الاستراق في ذلك الجبال ، فإذا تفكر في الرفع والاعتدال في السموات والأرض وفي الركوع والسجود في خلق الأعضاء فهنا ترجع نفسه من الأثر العظيم والأثر الجليل الى مصدرهما وتكون العظمة ويكون الجبال هناك .

وأضرب لك مثلا أيها النكي : نرى الصانع الملتقن لصنعه وقد أبدع وملأ البلاد والعباد بضاعة ونقشها ورقشها ، وأجبت الخالص والعالم ، فمّ جاءت هذه الصناعة ؟ لنها لولم تستقر في أعماق نفسه لم تظهر في الخشب والحديد والنهب ، لأن قائد الشيء لا يسطيه ، ولأنك تجد الناس يتوقون لرؤية هذا الصانع ، ومعنى وجدوه أخذوا يلتفتون حوله ، ويجيبون به ، ويسرهم منظره وكلامه ، ويفسون تلك الصنعة ، وهذا شأن الناس جميعا مع العلماء والحكماء ، فهم بهم مغرمون ، فالصانع أفضل من صناعته ، إن الحكمة والابتداع والعلم المقروسة في قلب الصانع وعقله هي هو لأن العلم هو قس العالم ، والمصنوعات الملتقات له تسوق الناس لحبه وتشوقهم لمناظره ، وإنما أحبوه وأغرموا به لأنهم لما رأوا الصنعة أدركوا أن روحه نفسها فيها الكمال والجبال والحكمة التي تجلت وظهرت في المادة التي أملمهم من بلب أورشاك أركسي وإنما يتروكون الصنعة ويسعون لمشاهدة الصانع وحبه لأنهم يلمحون أن روحه أكل وأعظم من صنعه ، وهذه الروح الكلمة تقدر أن تصنع آلافا وآلافا من هذا مع أن الانسان باعتبار صورته الشخصية ليس فيه شيء من ذلك ولكن ذلك كله راجع لروحه . ان العالم كله عند المصلي من عظمة السموات والأرض في حال الذكر عند الرفع

والاعتدال ، ومن احكام منع الأعضاء والرجة في حال الركوع والسجود ، مامو إلا امرأة مقيلة يلحظها المصلى ويرى فيها (النيات القدسية) رؤية قلبية ، فهناك قرّة عينه بذلك الجبال ويفرش صدره ، وهذه المبادئ هي التي يتجلى آلاف أعضائها للأنبياء عليهم الصلاة والسلام عند المناجاة لاسيما نبينا ﷺ .

هذا بعض معنى : « رجعت قرّة عيني في الصلاة » وهناك يلحظ أن كل حب ورجة في انسان أو حيوان في العوالم كلها مامو إلا آثار من ذلك الحب والرجة ، ولا جرم أن ذلك يستغرق قلب من أفيضت عليه هذه المعاني مرة واحدة ، بل لن يتحمل تولد هذه المعاني على قلبه إلا نادري نوع الانسان . ومن رجة الله على أكثر نوع الانسان أنهم لا يبالون هذه النعمة لأنها تمزق أقتلعتهم بهجومها مرة واحدة ولا يقوى عليها إلا مثل من يقول : « وجعلت قرّة عيني في الصلاة » انتهى الساعة الواحدة بعد نصف ليلة الثلاثاء ٢٤ فبراير سنة ١٩٣١ م

نور النبوة وبهجة العلم

في الحديث للنقّص : « وجعلت قرّة عيني الخ »

حيا الله العلم والحكمة ، اللهم إنا محمدك ونشكرك على ما أنعمت وتجلت بالعلم والحكمة ، سبحانك اللهم وبحمدك ، إنك خلقت جيع ما أحاط به العلم ، وما أحاط به عليك هذه الأرض وما عليها ، وقد اتضح في الكشف الحديث وقدم في هذا التفسير كثيرا أن الأرض اذا صغرت فرضا فأصبحت جوهرًا فردا وصغرت العوالم المعروفة كلها على نعلها أصبحت كل العوالم المعروفة ألف مليون أرض كأرضنا المعروفة لنا الآن ، إذن أرضنا أشبه بالعلم ، فإذا يكون شأننا نحن بني آدم عليها ، وإذا كنا نساكن ما يشبه العلم المحض ، فهل في خلة الانصاف والعدل أن نوازن أنفسنا بمن يسكنون العوالم التي هي أكبر من أرضنا ، وهل من العقل أن يقول هذا الانسان (المساكين الذي يعيش فوق ذرة منبوذة في الهواء الهوى في العير ولا في النفير وإذا قيست بالعوالم لم تكن إلا هباء ودهون الهباء)

اقى في العلم كن يسكنون فوس الشمس (إذا كانت مسكونة بعض أجزائها) وهي أكبر من أرضنا مليوناً ونحو ذلك مليون أو كن يسكنون بعض كواكب الجوزاء ، وهناك كوكب منها أكبر من شمسنا ٢٥ مليون مرة (وضوء شمسنا بالنسبة لفضوته كضوء الحباب بالنسبة لضوء الشمس) إذن لا يوضح حال هذا الانسان إلا قوله تعالى : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »

أما بعد فإن الله الذي هذه نموذج مخلوقاته لقرط جلاله وجلاله ورجته أراد أن يظهر آثار علمه وجلاله ورجته لكل عالم من العوالم على حسب استعداده ، بمن للرجة أن لا يعطى الأدنى علم الأعلى ، كما لا يعطى الجنين غذاء الشاب والكميل والامات ، فلأن بني آدم على الأرض ، أعطوا العلم التام لقابلات مهجهم ولتقطعت أقتلعتهم وهلكوا في اقرب من لمح البصر ، بهذه البراهين يتحقق العقلاء بعض أسرار هذه الدنيا (و بيانها) أن تاريخ هذا الانسان مسحون بالأنعام وعبادتها ، الأوتان والتعرب اليها ، وعبادة الحيوان والأشجار والنار والأنهار والأحجار والصلحين وقبورهم . هذا من ناحية الانسان العادية إذ أخذ يتلصق السبيل لمعرفة خلقه وهو لا يزال غارفا في بحور الأحوال الحيوانية ، فلم يجد سبيلا يخرج منه إلا بتلصق تلك السبيل بمأبوات عقله ويوافق ضغفه كما تمر البقرة الابيض اذا رأت صورة ولها أمامها ، فكما أن البقرة والجاموسة لا تدران العين إلا اذا رأتا صورة ولد هما التي لا تروج فيها . هكذا هذا الانسان في أول تلصقه بالخروج من حال الحيوانية الى حال الانسانية لا تظهر فيه مبادئ الأحوال البشرية من أخلاق وديانة ، ان لا يرى ما يتخلل خلقه ، مثلا نسبة بينه وبين الحقيقة إلا كغسبة بيد ولد لا غلة اثبت الى حقيقة قائمة عنها

هذه حال الانسان من حيث مباحثه العقلية ، فأما حاله من حيث نظره لظواهر الجبال فان الله عز وجل علم ضعفه وأنه لن يرى ربه إلا في حال أخرى ، إذ لانسبة بين المخلوقات والمخلوق ، ففعل معه في الجبال ما فعله في العلم والعبادة ، خجبه عن شهود ذاته ، وخلق له الصور الجبلية في الأرض ، وشغل الفكر كدور بالانات وبالعكس وجعل ذلك سلبا لتكاثر النسل ، وجعل العيون والأبصار سلبا لنظر السموات والجباب ، ومن هناك ترتقي العقول الى جبال خائفتها بالبصار لا بالأبصار

عظم الله في علمه ورجته ، وتزل الناس أيام وحشيتهم الى عبادة الأصنام ، وأليم تهقر حقوقهم في دياناتهم الى التقرّب بالنسور للصالحين ، وعظم وكل في جهله فأشرق نوره على الشمس والأقمار والكواكب ، ثم على الوجوه الحسان ، فكان ذلك خيرا به انتظم أمر للعاش بلوذة والفرية في حال الحيوانية ، إذن نسبة حال الجبلد المنفوخ لابن البقرة والجاموسة الى حال نفس ابن البقرة الحية كنسبة حال الأصنام بالنسبة لصانع العالم ، وكنسبة جبال الوجوه الحسان من نوع الانسان الى مبدع العالم وجهله .

قصة الخليل عليه السلام وقصة سيدنا محمد ﷺ

إذا علمت هذا فاجب من قصة الخليل وقصة النبي ﷺ ، الخليل كسر الأصنام كما في آية الأنعام ، ثم أخذ يدرس النجم والشمس والنفس وانهى الى الله .

الله أكبر : أفلا تهاب مني إذ ترى أن هذه القصة هي قصة الانسانية ، عبادة أصنام وأحجار ثم ارتقاء الى النظر في العالم العلوي ، ثم الوصول لله وهل هذا العالم كله إلا أرض وعوالم علوية ؟ ثم خالقها ، ثم انظر الى أمر الحواس الخمس كالسمع والبصر والشم ، فهذه بها فرق بين الجبل وغير الجبل من الأصوات والألوان والطيب والخبيث من الروائح ، ثم ترتقي نظرت العيون الى العوالم العلوية من شمس وقمر الخ فتعرف الحكمة وتقف على النظام الكامل ثم تصل الى الله ، إذن هنا نهاية واحدة وهي القات القدسية ، وهنا مبدآن : مبدأ من جهة التبعد ، ومبدأ من جهة الشهوات الظاهرة ، وهذان المبدآن يدهما العلوم ثم الوصول .

فإذا كان أكثر نوع الانسان عاكفا على عبادة الأصنام وماتها محورها ، فإن قصة الخليل أبانت السريتين الأخريتين للانسان : درجة العلوم ، ودرجة الوصول ، وإذا كان أكثر هؤلاء الناس غارقين في الشهوات لا يجلسون منها عرجا ، فإني أن هذه اللذات المحسوسة ليس وراءها قبات أخرى ، فها هوذا رسول الله ﷺ يقول : « أيها الناس : هاأناذا أحب الطيب ، وأحب النساء ، وبكا كسر الخليل الأصنام ودرس الكواكب ووصل الى الله ، فهاأناذا كسرت الأصنام بمكة وعبدت الله وحده ، وهكذا انتقلت من قبة النساء

المحسوسة الى قبة القرب للعقولة » وجعل قرة عيني في الصلاة » لأنني فيها وصلت لدرجة الثالثة ، إن العلوم أفيضت على بالوحى فلست في حاجة الى دراسة فلسفية ، فأما أتم فليكن أن تنظروا ما حولكم من العوالم ، وبالعلم تصادون الى الله تعالى كما فعل الخليل في نظام سيره ليبيّن لكم ، وبلجلة فكيف الناس على عبادة المحسوسات وحوز المشبهات أمر عام ، والخليل مثل خروجهم من الحال الأولى ، والنبي ﷺ مثل لهم الحال الثانية ، وكل ذلك بسر : « وله الكبرياء في السموات والأرض » ، فلا تكبره لهم عظمتهم جميع الجهال فلم يعبوا الأصنام ولا القبور ، ولهم بجماله كل شيء في هذه الأرض ، ولم يشق أحد الصنفين الآخر ، ولكنه مع هذا الكبرياء والعزّة سبى ، فاتخذ من هذا الضعف الانساني حكمة ، ذلك أنه جعل غلام أحد الصنفين بالآخر سببا للعبادة والتسائل وإن كان محجوبين عنه الى كاجل فضلات الحيوان سلبا لظهور نبات آخر نافع للحيوان . هذا ما عني في هذه الليلة أثبتته من والجهته رب العالمين . كتب الساعة الثانية بعد نصف

جوهرة النسخة المتقدمة

في آية : فقه الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين * وله الكبرياء في السموات

والأرض وهو العزيز الحكيم

(١) الله مربي العوالم (٢) متكبر عزيز (٣) وهو سيكم ، فهنا تربية ، وكبرياء مع عزة ، وحكمة فلننظر آثار هذه الصفات :

(أولا) في نظام الأغذية في الأرض .

(ثانيا) في نظام الآثار العلوية من خلق الجبال والتلال والبراكين وإحداث الزلازل والخسوف ، وهناك

فهم الكبرياء والعزة المصعوبتين بالحكمة في التربية

(ثالثا) في تعليم الأنبياء والإيحاء اليهم أو تكليمهم الخ .

(رابعا) في تربية النشء ، وكيف كانت تعليم الأمم للنشء كلما كانت أرق كانت أقرب الى النظام

الأمم وكلما كانت أدنى وأخس كانت أهدمته .

(خامسا) في أمر الأمم من حيث سياستها . وانه عز وجل يفعل معها في السياسة المدنية مايفضه مع

الناس في عوالمه الطبيعية سواء بسواء . فإذا كان من الأغذية ما يضرهم فهم المسئولون عن

ذلك الضرر لما حصل لهم لأن لهم عقولا توجب عليهم الاستنتاج والبحث . فإذا أأاموها فهم

للمسئولون . هكذا في السياسة . فإذا حكمهم ملوك عادلون هم قلم أبناء أبنائهم الذين هم غالبا

يكونون فاسقين جهلاء غير مجريين . فالأم هي المسئولة عن أعمال أمورهم وتعليمهم الزمام

فغيرهم فأين الشورى وأين العقول لأذن ؟ « وقومهم انهم مسئولون ما لكم لا تناصرون »

(سادسا) في نظام (داتون) في التربية والتعليم .

فلنشرح هذه القصول الستة تذكرة للمسلمين وهاك بيانها :

الفصل الأول في الكلام على نظام الأغذية

اللهم إني أشكرك وأشكرك ، وأعترف بجزئي وقصوري كأعترف ب نعمتك علي وعلى اخواني قراء هذا التفسير وعلى سائر المسلمين ، لولا فضلك وفضلك وإلهامك وتوفيقك ما كتبت حرفا واحدا .

اللهم انك رحمتك وحكمتك شرحت صدرى لما أكتبه الآن . فأقول أولا لأقدم مقدمة فأقول :

لقد احتجت أتوارك وعلك وجالك وحكمتك وبهاؤك عن عقول خلقك ، فأنت ذوالكبرياء وذوالعزة

والحكمة والجلال ، ولستكنك رحمتك أرتبهم آثار تلك الصفات من وراء حجاب ، فهذه العقول الانسانية

الشريفة ، ومزايهاا العلية اللينة ، وغرائر الحيوان اللطيفة ، وعطف الأمهات على ذريتها ، وسحب الأسافذة

لتلاميذهم ، وغرام أحد الصنفين بالآخر ، كل ذلك آثار تلك الصفات العالية ، ظهرت من وراء حجب السموات

والأرضين وما بينهما ، وأقرب مثل مضروب لتلك الماء المحيط بالكرة الأرضية ، فهو الجزء اللهم في جسم كل

إنسان وحيوان ونبات ، ولا يخفى على من هذه الأحياء من قطرات من الماء ، فان كانت في الحيوان سميت

عرقا تبرز منه ، وإن كانت في النبات سميت ندى (وهذا أقدم شرحه في هذا التفسير) أى ان الندى لم

يؤزل من السماء . كلا . بل هو قطرات بلورات من نفس النبات كالعرق بالنسبة للحيوان ، وتكون صفات

ذلك الندى من حيث الرائحة والطعم تابعة لصفات ذلك النبات كما أن العرق تكون رائحته ومزاجه وطعمه

على مقتضى مزاج الإنسان والحيوان الذى ظهر منه ذلك العرق ، وما نسبة عرق الحيوان وندى النبات الى

الماء المحيط بالأرض وما فوقه من البخار والسحب والتلويح المقررة فوق الجبال إلا نسبة ضئيلة ، فكما أن هذا العرق وذلك الندى أمر ضئيل بالنسبة لبحر المحيط بالأرض ، هكذا علونا وحكمتا والرحلات التي في قلوبنا ، والجبال التي نراه في وجوه القئين والفتيات ، والصور البديعة في كل نبات وحيوان وأحجار كريمة والحب والفرام اللذين بهما عاش الناس وانتظمت الأسرار كلها ضئيلة بالنسبة لعلم الله ورحمته وجهله وحكمته كلها ، وما عندنا منها إلا آثار ضئيلة كضالة الندى والعرق بالنسبة للماء المحيط بالكرة الأرضية وقد تنوعت آثار تلك الصفات فينا كما تنوع الندى فكان متصفا بصفت النبات التي برز منه من رائحة وطعم طيب وريء وكما تنوع العرق بحسب الأخلط التي في الجسم الذي قام به العرق ، الماء واحد اختلفت آثاره باختلاف ما دخل فيه وتخلله من كل نبات وحيوان ، وقد أدهشني والله ما عرفت من نفسي أنا ، ذلك أنني لم أترك اللحم إلا منذ عشرين سنين ، ولكن هذا الترك كان جزئيا لا كاملا ، ذلك أنني كنت أكل الخضراوات المطبوخة بمرقة اللحم ، فهذه فيها شوائب اللحم ، فأما منذ ستين اثنين ، فاني اقتصرمت من الطعام غالبا على الخضراوة نيئة في الأكثر ، أو مطبوخة في النادر ، وبذلت مطبخي باللحم ، واقتصرمت من اللحم على الزيت الطيب ، ومن الخبز على ما كان غير منخول ، وأكثر من الفاكهة الى آخر ما أوصحه في مقام آخر ، أفليس من عجب أني قبل هاتين السنتين كان يكثر عرقى وهو مصحوب برائحة غير مقبولة ، وذلك يقل ويكثر حسب الأخلط ، وكان الاستحمام يزيل تلك الروائح ، فأما الآن فإن العرق أصبح قليلا جدا ، وربما أسير في الحر ساعات ولا أحس بمرق ما إلا قليلا ، وإذا ظهر منه قليل لم تصعب تلك الرائحة ولا جزء منها ، أفليست هذه الخدعة الجزئية تكون نبراسا لهذا الموضوع كله ، فهنا عرق اصف بوصفين متضادين نبع لأحوال الأخلط في جسمي أنا ، وهذا العرق في جسمي قطرات قليلة بالنسبة للماء المحيط بالكرة الأرضية ، فإذا رجنا الى ماسقنا الكلام لأجبه ، وهي راحة الله وحكمته وعلمه اللائق بمن آثارها كانت لنا صفات سيناها باسمها فقلنا فلان رحم أوسكم الخ كما اختلف الندى والعرق من حيث طيب الروائح وخبثها بحسب المزاج طيبا وخبثا ، وهذه الصفات أيضا ضئيلة بالنسبة لصفات الله كضالة قطرات الندى والعرق بالنسبة للماء المحيط بالأرض ، ومن هنا لتعجب من وسوسة الشياطين لبني آدم ، وكيف نهج ونحن نشاهد أن أمزجة النبات والحيوان لها آثار في انصاف الندى والعرق بصفات تلك الأمزجة النباتية والحيوانية ، فتكون طعموه وروائحهم على مقتضى ما اصف به ذلك النبات والحيوان ، فإذا ألقينا الماء المحيط بالكرة الأرضية ينقلب في الخنظل مرآ مثله فليس بهج اذا ألقينا النور الشريف البهيج في عقولنا وعواطفنا والشجاعة ينقلبان في النفوس الخسيسة مكرا وخبثا وحقدًا وحسدًا وعداوة واثقادًا للشيطان الرجيم .

وخلاصة هذه المقدمة أن علونا وصفاتنا الشريفة آثار صفات الله تعالى ، وهي بالنسبة لها كقطرات بالنسبة للبحر وهي تتلون فينا بحسب استعدادنا

انظروا تقدم في ﴿سورة الكهف﴾ في قصة الخضر وموسى عليهما السلام ، وما ورد في الصحيح مامعناه : « ما قص علي وعلمك من علم الله إلا كما قص هذا الطائر بما أخذ بمقاره من البحر » فله الكبرياء في السموات والأرض ، وله العزة ، ولكنه من جهة أخرى مرعب وسكيم ، التريسة يعوزها الحكمة ، والكبرياء والعزة سياج لها . ما من عاقل يشعر بأن له ربا إلا وهو يحس أن يراه ، ولكن لله يقول : كلا . أنت ضعيف ، وإذا رأيته صحت ، هاهو ذا موسى عز صفا ، والجبل صرد كما لما تجليت له ، وكفناكم أني أرى بكم ما علمه عقولكم من آثار صفاتي ، فترون جبالا في الوجوه ، ورجة في القلوب ، وعلمًا وحكمة ولكنها قليلة جدا : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

كبرياء الله جلية محبوبة لأنها رجة لعباده ، انه لم يحجبنا عن رؤية ذاته وصفاته بكبريائه إلا لرجتنا لأتنا

شعفاء ، ومن هنا نفهم معنى قوله تعالى : « وهو العزيز الحكيم » فنجزيها عن مشاهدة ذاته وصفاته حاصل بمقتضى صفى الكبرياء والعزة ، وابتغناؤنا برؤية هذه الآثار الضئيلة لحصل بمقتضى الحكمة والترفية ، وبهذا تم الكلام على المقدمة التى بها عرفنا ضرب مثل لكبرياء الله فى السموات والأرض ، إذن فليبدأ بالكلام على ما أردناه فى الفصل الأول من الكلام على الأغنية .

بث الله فى الأرض النبات ، وبث الحيوان والانسان ، وأعلى الحيوان غريزة ، وغرس فى الانسان كما غرس فى الحيوان شهوات وأحوالا ، فأما الحيوان فغاش بغيرته ، وأما الانسان فله قلب فى صفى الغريزة والاختيار فظهرت أمامه الأغنية فعرفها بحواسه ، ولكنها مملوءة بالأسرار المحجبات عنه ، وإنما حبسها عنه لأمرين كبريائه وحكمته ، ولولا هذه الكبرياء لم يمكن تربية الانسان بالحكمة والعلم ، إذ الحكمة لا تكون إلا بعد الطلب ، ولا طلب إلا بعد الشوق ، ولا شوق إلا عند الحاجة ، ولحاجة الإنسان إلى الجلب منفعة أودفع مضرة ولو أن كل نبات ، وكل حيوان ظهرت قوائدها للناس لاطلوا ولا نص لم يسموا أنفسهم النصف فى معرفة تلك القوائد ، بل ظن الناس خلدن جاهلين أمد الحياة وكانوا أشبه بالثواب فى مراحلها .

فاذا رأينا هذه الأغنية الموزعة على الأرض ، والمنافع التى خبئت فيها والمضار حجب من نوع الانسان فذلك من كبرياء الله وعزته أولا ، ومن حكمته فى تربيت للناس ثانيا ، ولو أن الأشجار وأصناف النبات فصلت مع الناس ما فعلت مع سليمان عليه السلام (كما جاء فى الأساطير القديمة) إذ تحبب الأشجار والنباتات بما فيها من القوائد والمزايا والمنافع لكان هذا الانسان حيوانا جديدا أدرج فى قوائم الحيوان البالغات نحو (٥٠٠) ألف نوع أو أكثر ، إذن صمت هذه الأشجار ، وهذه النباتات ، وهذه الأحجار ، وعدم نطقها لنا بما استكن فيها ، وعدم ظهور منافعها لنا من أصل الحكم فى تربيتها ، وتلك الكبرياء بحسب .

اللهم لك الحمد إذ أفهمتها معنى : « فقه الجذب السموات ورب الأرض رب الطلحين » وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » وبهذا تم الفصل الأول .

الفصل الثانى فى نظام الآثار الملوية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله رب العالمين « أما بعد » فقد عرفت أيها الحكيم ما كلن من كبرياء الله فى أمر النبات ، وكيف كانت الكبرياء والعزة مصحوبتين بالترفة القائمة على الحكمة . ألا توجب على أن يكون ما فصله منا فى الأغنية هو نفسه الذى فصله فى أمر الآثار الملوية ، وأظهر الجلال والاله الكين والجلم واللال والزلال ، ذلك أن هذه الأرض لم تكن إلا كرة نارية كما هو رأى السائد الآن ، وهذه الكرة أخفت بردها من ظاهرها شيئا فشيئا كما ترى الفحة المذمومة فيها ، رديت شيئا فشيئا ، ولكن باطنها لازلا متقدما ، وهذا رأى وان كان طنيا قد أبداه عمال المناجم : أن صفى نحر الأرض نحو أربعة آلاف ميل ، وعمق المسجم قد يصل الى ميل واحد ، والحرارة ترتفع كلما ازداد العمق ، وقد يشند الحر على عمق المسجم فلا يطبقونه ، ولا جرم أن زيادة الحرارة بزيادة العمق تؤهلنا الى أن نرى بطن الأرض طبقات دوحه حولتها تذيب الصخور والمعادن ، وما يصل على ذلك البنابيع الحارة ، درجة حرارة بعضها ١٩٠ درجة ، وتطهرها على سطح الأرض . إذا علمت هذا فانظر فى أمر الجبال والبراكين والزلازل ، إن القوي يزلزلها من تحتها ويغيرها الى الطبقات الحارة من بطن الأرض يشدقولا حالها الى بخار ، وهذا البخار يهرب من الهواء ، فويشعل الحروج الى مقربة فى الجوف ، فإذا يشتد ذلك من النار من باطن الأرض تزداد قوة تدفع فلابد لها من مخرج ، فتهتز سطح الأرض عبرا - الى مائة أرباب الصلابة ، وهذه الزلازل هى بهذا المدن زلزال يسببه

الجبال هنا ، وإذا اشتد هذا الاهتزاز وكانت هناك مواد مضمورة في باطن الأرض كثيرة وحاولت الخروج وطاوعتها قشرة الأرض ، فهناك يكون البركان ، وإذا ثار البركان سمعنا طسقة في الجو وفي باطن الأرض وأصواتا كإرعد ، وهناك تطاير كتل الصخور العظيمة ، وأسنة الذهب ، وتهلج النفوس .

وقد يقب الزلزة خف ، فانه إذا اشتد الضغط في باطن الأرض بينا وشمالا ولم ينفذ السائل والغازات الى الجوف فقد تنهار في الفجوات الواسعة في باطن الأرض طبقة من سطحها فتهدى سريعا ويبتلعها جوف الأرض ، وهذه الفجوة تارة يضرها الماء ، وتارة لا ، وهذا هو الخسف . وبهذا عرفنا البراكين والزلازل والخسف .

ومن تأمل ما حصل في بركان (ديلي) سنة ١٩٠٢ الذي ارتفع الى (٤٤٠٠) قدم واقتدر رأسه ثم تكون له رأس آخر ارتفاه (٥٠٧٠) قدما ، وكان الى آخريونيو سنة ١٩٠٣ لا يزال أخذ في الارتفاع ، ويقال انه ارتفع ٢١ قدما في أربعة أيام ، وهذا الرأس الجبدي كان قما مضورة ذاتية ثم تحاسكت فصارت جسا صلبا .

أقول : من تأمل ما حصل في هذا البركان أدرك كيف تكونت أكثر جبال الأرض ، فأكثر ما تكون منها على هذا الاسلوب . إن الله عز وجل هو الذي خلق الجبال والخسف والزلازل والبراكين ، والخسف والزلزة والبركان كلها مهلكات مدمرات . فانظر كيف :

(١) زلزلت اسبانيا (سنة ١٨٨٤) فتخرب من غرناطة سبعة آلاف منزل ، ومات فيها أكثر من ٢٠٠٠ قس .

(٢) وكيف زلزلت اليابان (سنة ١٨٩١) فتخرب فيها أكثر من ٤٠٠٠ منزل ، ومات أكثر من ٨٠٠٠ قس .

(٣) وفي سنة ١٨٩٥ طغى الماء بسبب الزلزة على بعض البلاد باليابان فأغرق آلاف من أهلها .

(٤) وفي سنة ١٩٠٢ زلزلت كشمير من تركستان فمات نحو ثلاثة آلاف نفس .

(٥) وفي سنة ١٩٠٨ زلزل مصيقي (ميسيا) بإيطاليا فأتلفه ، وتخرب مدينتي مسينا وبسقلية ورجيو بإيطاليا ، ومات بسببها آلاف من الناس كآبى منهم آلاف بلامأوى .

(٦) واقشعر بركان في جزيرة (كركتوا) بالقرب من جاوه بينها وبين سومطرة ، فقطعا إربا ، ولم يبق منها إلا قسم صغير .

(٧) وثار بركان (ويروف) بإيطاليا سنة ٧٩ ق.م فطغى مدينتي (بجي) و(هركولانيوم)

هذه بعض أفعال الزلازل والبراكين ، وقد تقدم أكثر من هذا في ﴿سورة آل عمران﴾ وفي مواضع أخرى من هذا التفسير ، ولكن سقنا هذه الحوادث هنا لتبين كبرياء الله وعظمته الصحو بين بحكمته وتريته ، هذا فعل البراكين وهذا غمرها وندمها وإهلاكها للناس والحيوان والدين . كل ذلك لكبرياء الله عز وجل حو يضل ذلك مع الأحياء ولا يبين لهم سر ما فعل ويقول : « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » ويقول : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ، ويقول أنبياءه : « إن علم الناس أشبه بما أخذته منقار الطائر من ماء البحر » . يضل الله ذلك كما فعل ، الأعني في العلم السابق ، حجب أسرارها وأعطى الناس عقولا وقال ادرسوا ولم يزد في الوحي السابق عن القول الاحكامي ، ودرس الناس منافع النبات والحيوان بقولهم فانتفعوا بقدم ما عرفوا ، هكذا درسوا فإدراك تلك البراكين ، غيرها بقولهم فروا عما رآوا :

﴿ أولئك الذين جاءوا من الآخرة ، الذين أشعروا بركنا في بلاد المكسيك ، الذين من الجنهات ليستخرجوا

(ثانيا) رأوا أن جزيرة (في أرخبيل آسوره) ارتفعت بسبب ثورة البركان سنة ١٨١١ ولم يكن لها قبل ذلك أثر ولا عين

(ثالثا) رأوا أن جزيرة أخرى ارتفعت في بوغاز (ميرغ) بين آسيا وأمريكا بسبب البركان والزلازل أيضا .

(رابعا) رأوا جزيرة ارتفعت في خليج بنقاله طولها ٩٢١ قدما وعرضها ٦٥١ قدما ، وارتفاعها وقت مد البحر ١٩ قدما . وهي والسابقة بركانيتان .

(خامسا) رأوا أنه ارتفع تل بالقرب من نابل سنة ١٥٣٨ يسمى (منت نوفو) .

رأى الناس ذلك ، فإذنا بشر عقلاؤهم ، إن عقلاء الناس وحكامهم يقولون : إن البراكين في الأرض كمنخفض للمرأة ، فالتاس لما اعتدوا أن يروا انخفاض النساء ، وأن المرأة تلتصق الأحوال في الوضع ، وربما ماتت بسبب ذلك الوضع لم يكن ذلك عندهم غريبا ، بل قص المرأة قرح إذا وجدت لها طفلا بجانبها بعد هذا العذاب ، وتحمدها ونشكره ، ولا تنال بهذه الأحوال ، هكذا حكماء أهل الأرض يرون هذه البراكين والزلازل نعمة ، لأنها يقبها ظهور جبال ناضات في حفظ الثلج فوق رموسها ليحد الأنهار والعيون طول السنة وفي حفظ المعادن في باطنها لمنفعة الانسان ، وفي أنها تجتلب السحب المستخرجة بين السماء والأرض ، فتسقط أمطارها لمنفعة الحيوان والانسان ، وفي وقاية ما خلفها من هبوب الرياح الباردة تارة كما في جبال الألب وأقاليم أوروبا الجنوبية ، ومن هبوب الرياح الحارة كما في جبال الأطلس ، وأقاليم مراکش ، وريف البحر من بلاد البربر ، وفي أن سفوحها تغطي بأشجار نافعة ، ومنها ذوات الفواكه النافع ، وفي أن اعتدال هوائها يلامح صحة الانسان ويبيده محته ، فأكثر الناس على الأرض يسمعون بالبراكين والزلازل والحسف فيكونون أحد اثنين : إما أنهم لا يفسحون وهم الأكثرون ، وإما أنهم يكونون ملحدين وهؤلاء هم المتعلمون فعليا ناقصا فقد عرفوا المضار ، ولم يروا التعليم والعرس حتى يقولوا أن الآلاف المؤلفة من المنازل ، والناس الذين هلكوا بالبركان أو الزلازل ما هم إلا عدد يسير جدا بالنسبة لمن سيحيون بذلك الجبل الذي نشأ بسبب البركان أو تلك الجزيرة ، أو تلك التربة الخصبة التي أظهرها البركان والزلازل كما تقدم في أول (سورة سبأ) عند آية : « يعلم ما يلج في الأرض » الخ ، فإني ذكرت لك هناك أن الأرض البركانية أرق أراضي الزراعة ، فهذه الجبال ، وهذه التلال ، وهذه الجزائر ، وهذه الأرض البركانية يعيش بها آلاف من الأمم في مئات آلاف السنين ، فأما الذين هلكوا بتلك البراكين فهم آلاف معدودة ، أو مدن معدودة ، يموت أكثر منها كل سنة بالوباء ، أو الطاعون ، أو الحن ، أو التيفوس ، فهذه أمور يسيرة في جانب سعادات لا حد لها .

فهنا أقسم الناس ثلاثة أقسام : حكماء كمن يهتمون بهذا التفسير ، ومصلحون : وهم الذين يفتقون في الوسط بينين ، لاهم حكماء ولا هم علمة ، وهم أغلب المتعلمين في الشرق والغرب الآن ، وعلمة وهم أكثر من على الأرض ، والحكماء والعامة قلوبهم في راحة ، والطبقة الوسطى يعيشون في ألم ومرح ميين ، وكبرياء الله ومزته حجب الناس ما عدا الحكماء عن معرفة هذه الأسرار والإيقان بها ، وبحكمته ربي الحكماء فرفوها بعد النصب والتعب ، إن ذلك خير أساليب التربية وأفضلها لنوع الانسان ، وبهذا تم الكلام على الفصل الثاني في الآثار العالوية والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثالث في تعليم الأنبياء

والإبراء اليهم وتكليمهم الخ

وذلك قوله تعالى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا » وذلك كما كان يوحى إليه ﷺ في أول

البعثة ، وذلك في المنام ستة أشهر « وأمن وراء حجاب » وذلك لموسى عليه السلام « أو يرسل رسولا فيوسى بأذنه ما يشاء » وذلك كما كان يوسى إليه عليه السلام بعد الأشهر الستة إلى آخر حياته ، وقد تقدم ذلك بأكثر من هذا في (سورة الشورى) ، إنما اللذهش في هذا المقام أن الله عز وجل على صراط مستقيم فهو في هذه الأحوال الثلاثة حكيم ، وفي آيتنا التي نحن بسندها ، الكبرياء والعزة في مقابلة العلو في آية الشورى ، والترية والحكمة في مقابلة الحكمة هناك .

يا الله : هبنا لنظامك في خلقك ، ودهشنا دهشنا أشد من نظامك في كلامك ، فأت هنا نقول : إن الحمد مختص بالله لأنه ربي السموات والأرض وربى العالمين ، وأردفت ذلك بأن هذه الترية مصحوبة بالكبرياء والعزة والحكمة ، فبهشنا ذلك ألقينناك وهبنا عقولا ، وغرست فينا شهوات ، وخلقت لنا أقدمة . وأخذت قلب الأرض أمنا ، فتجعل فيها نورا خارجة من باطنها ، وتصنع لنا جبلا ، وتخسفها تارة ، وتزلزلها أخرى ، فمن درس منا فقد انتفع في الدنيا ، واستقرت نفسه ، وعمرت بالحكمة . ومن لم يدرس حياته حياة حيوان ، فأشرت للدراسة بالترية والحكمة ، والغلظة بكبريائك وعزتك ، لأنك تعرض عن الناقص الغافل ، وهكذا نراك لاتكلم الأنبياء كما يكلم أحمدا الآخر ، بل كلهم تارة بلرويا المنامية ، وتارة بملك بلقي الوحي اليهم ، وتارة من وراء حجاب . فبالكلام بأحد الطرق الثلاث أنصفت بالحكمة ، وبمحصر خطابك لهم في ذلك كنت عليا ، إذن كما أن لك الكبرياء والعزة في السموات والأرض كان لك العلو على الأنبياء ، ولكن التميز بالكبرياء والعلو في السموات والأرض غير التميز بالعلو في مقام الأنبياء لأن الحجاب هنا رقيق جدا بخلاف العوالم ، فلهذا حجبها ذكر في جانبها الكبرياء والعزة ، وهذا المقام في غاية الدقة ومن الأسرار البديعة والعوالم المفضولة التي أراد الله إظهارها اليوم للمسلمين .

الهم إن لك الأسماء الحسنى ، وقد جاء في كتابك : « وفيه الأسماء الحسنى قد عدوه بها » وجاء في سورة طه « لله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى » . فيأيت شرعى : أكان الحسن في الألفاظ وحدها . كلا . فلهذا يقول : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدركوا آياته وليذكروا الألياب » ، إذن هذا الكتاب لتذكرك به لا أننا نقف عند لفظه إذ لتذكر لا يكون إلا في المعنى ، إذن حسن أسماء الله من حيث معانيها ، فإذا سمعنا أنه جبار متكبر قهار قابض خافض مثل على صغير محبت متمم صار ، فأتنا ندرس في هذه العوالم ، فنجد البراكين وجبال النار والمصاريق والتفتار . كل هذه مزهجة تخيفة مهلكة ، ونراء تعالى يمت الأحياء وهم يكون على ميتهم ، ويتلى الناس بأنواع الموم والمصاب ، وهذه تنطبق عليها تلك الأسماء إحدى عشرة فهو بهذه الأعمال جبار متكبر هابئ متمم الخ ، فظاهر هذه الأسماء تنطبق على ظواهر البراكين والزلازل وما أشبهها ، ولكن إذا بحثنا أسرارها بالحكمة والبراهين والعلم ألقينا هذه الظواهر لها بواطن سارة فظاهرها من قبله العذاب وباطنها فيه الرحمة ، فالبراكين تقدم الكلام في أنها رجة مشروعا شرعا كلفيا ، وهكذا الموت ظاهره هلاك وباطنه حياة .

قد شاهدت أمس جنازة متوجهة إلى مقبرة سيدى زين العابدين ، وأمامها موسيقى محزنة ، تضرب ضربا يحدث في النفس اهتباضا ، ماشبهتها إلا برجل يضرب آخر على ظهره فيصرخ من الألم ، والنساء باقيات في الجنازة فهذا إنما كان ليعمل التي غشى على عقول أهل الأرض لأن هذه مرتبتهم ، فهم يجهلون حال الأنفس بعد مفارقة أبدانها ، وعلمهم بها ضئيل قد أخذوه من الميانات ، وما كان من الدين فما هو إلا إيمان ، ولكن العلم واليقين فوق الإيمان ، ولكن لا يكون اليقين إلا بالبعد والتشهير ، ومتى درس المسلم بقية أسماء الله الحسنى مثل : السلام المؤمن المهيمن العزيز الخالق البارئ المصور الغفار الوهاب الرزاق الفتاح العليم الباسط الرافع

المهادى النور، وهكذا وهي نحو ٨٨ اسما، فهذه الاسماء لها معان، وتلك المعاني موزعة فى القرآن ومنبتة فى أكناف الطبيعة، وينضم اليها ما دخل تحت الأسماء الاحدى عشرة المتقدمة التى ظاهرها العذاب، فان البحث كالتى تقدم يظهر لنا أن باطنها الرحمة، فالتقهر التى تراه ظاهرا فى حرارة الشمس إذ تكون محرقة فى سحارة القيط والانتقام المجسم فى الاسود والقهود والغور والضباع والحيت وأنواع الحيوانات الترية للهلكة لنوع الانسان. كل هذه من حيث ظواهرها راجعت لظواهر الأحد عشر اسما المتقدمة أولبعضها، ولكن بواطنها أنها شروط للرحمت متقدمة لها، والمطلع على أكثر هذا التفسير وبالأقل ما ذكرناه هنا يوقن بهذه المعاني إيقانا تاما، وبهذا تم الكلام على الفصل الثالث والحمد لله رب العالمين .

الفصل الرابع فى تربية النشء

وكيف كانت تعاليم الأم كما كانت أرقى كانت أقرب الى النظم المتقدم، وكما كانت أدنى وأخس كانت أبعد منه

أذكرك أيها النكس بما صر فى {سورة الزمر} عند قوله تعالى: «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون»، وكيف ترى الاساذ (كانت) الألمانى قد عول على أن تكون عقول التلاميذ موجهة الى التفكير، وما للمدرس إلا مرشد لهم ومذكر، وبالاختصار يكون التليذ معولا على جدته فسه بارشاد المعلم، ومن عجب ما جاء فى حديث البخارى التى ذكره فى {سورة السجدة} عند آية «التى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الانسان من طين» إذ ذكرت لك هناك جلال ظواهر الأشجار وجمال بواطنها وأبنت تشرح النحلة ومعرفة ما فى داخلها من الأعضاء، وهذه المناسبة ذكرت حديث البخارى إذ سأل رسول الله ﷺ أصحابه عن شجرة كالرجل المسلم لا يتحات ورقها وإذا قطع رأسها ماتت؟ فوقع الصعابة فى أشجار البادية، فقال ﷺ هى النحلة، فهذه هى السنة التى حوج عليها علماء أوروبا الآن بحيث يكون أكثر الفهم راجعا لفلس التليذ، وهذه هى الغلة التى سنها الله للناس فى أغصانهم إذ أنهم كثيرا من أسرارها، وهامهم الآن وغدا كما كانوا أسس يمحون، وكما ازدادوا فى منافع الأغذية بحثا ازدادوا شوقا، ولا آخر لما يدرسون، وهكذا فى أمر الأحوال الطبيعية من البراكين والحسف والزلازل كما قسم، وهكذا هانى التعليم فكما كانت الكبرياء لله فى الفصول المتقدمة هكذا فى فصل التربية يجب على المعلم أن يسأل بالنسبة الإلهية من حيث انه يجعل تلاميذه محبتين بأنفسهم، مفكرين بمقولهم، كما فعل الله مع الناس فى منافع أغصانهم، والآثار العالوية الحاصلة فى أرضهم، فهو اكتنى بأن خلق لهم عقولا، وأراهم هذه الظواهر، وشوقهم الى أسرارها، لمنفضها تارة، وللوقوف على حقائقها، ودفع الحيرة فى النظم العام تارة أخرى، ولاكتف الآن بما جاء فى مجلة الشبان المسلمين تحت العنوان الآتى، وهذا نصه:

التربية الحديثة

طريقة دولتون فى التربية والتعليم

ظهرت طريقة دولتون بعد سنة ١٩١٩ وهى الطريقة التى كانت تستعملها (مس هيلين باركهوست) فى مدرسة بدولتون فى (مساكستز) بالولايات المتحدة فى أمريكا، وأصد ذكرت (مس باركهوست) فى محاضراتها عن طريقها الجديدة أنها ليست محددة تحديدا يضمن جعلها صالحة لكل مدرسة، وكل نوع من الأطفال، بل هى طريقة قابلة للتغيير والتبديل، وتتضمن آراء محددة معينة، فهى فى جوهرها مجموعة مبادئ وقواعد، لا مجموعة أوصاف وأوامر، فقد أعطت المدرس نفس الحرية التى أعطتها للتليذ، وأعطت التليذ

المثل الأعلى التي أعطته للدرس ، وتختلف عن طريقة تعلم الطفل في منزله تحت إرشاد أحد المربين .

ماهذه الطريقة ؟

هي طريقة انتقلوا فيها من تعلم الفصل ، أو تعليم الشكل الى تعليم الفرد ، والفكرة الرئيسية في هذه الطريقة أن نحول حجر الدراسة أو الفصل الى معامل كعامل الطبيعة والكيمياء بحيث توجد فيها الكتب الضرورية ، وكتب المراجعة (من قواميس ودوائر معارف وغيرها) والأدوات العلمية التي يحتاج اليها في البحث عن المادة التي يبدئ عنها التلاميذ والتلميذات بحثا علميا في فصولهم لتساعدهم على الوصول الى ما يرغبونه من الكشف والاطلاع والتثقيب .

وفي هذه الطريقة يلقي مقدار كبير من المسؤولية على التلاميذ في مذاكرة دروس معينة في مدة محدودة مقدارها أسبوع ، أو أسبوعان ، أو شهر مثلا ، وفي هذه المدة تترك التلاميذ للقيام بأنفسهم بأعمالهم المفروضة عليهم بحيث يتجهون من أبحاثها في نهاية المدة المخصصة لهم ، ويكونون على استعداد لاختبار خاص في الدروس التي قاموا بإعدادها وتعلمها بأنفسهم بعد إرشاد أساتذتهم ، وللتلاميذ الحرية في :

- (١) أن يبدئوا معرفة أى مادة يختارونها من المواد المصينة لهم .
- (٢) وأن يكتسبوا أى مدة يريدونها في فهم هذه المادة ماداموا يرغبون في ذلك ، وهذه حسنة من حسنات دولتون ، فكثيرا ما يشعر الانسان بالألم حينما يقطع عليه بدق الناقوس في المدرسة ، وكثيرا ما يخشى أن يترك ولو بعض الوقت حتى ينتهى من العمل الذي في يده ، فهذه الطريقة تشجع على أن يستمر الانسان في عمله متى أراد الاستمرار .

أما المعلمون فيتركون التعليم ويصبرون مرشدين وناصحين وقواد للطلبة ، بحيث يعينون ساعات خاصة في حجر معروفة لإرشاد التلاميذ الذين هم في حاجة الى الإرشاد ، والذين يجنون صعوبة في عملهم ، وتوضيح القواعد والنظريات الجديدة ، وللفروض أن المدرسين لا يتدخلون في عمل التلميذ مالم يكن مخطئا ، ومالم يستلزمهم التلميذ ، وكل تلميذ حر في أن يصل ما يريد بقدر ما يستطيع مادام ينجح في القيام بعمله .

وحينما ظهرت هذه الطريقة الحديثة في أمريكا وانجلترا لم يوافق عليها طبعاً بعض المدرسين ، شأن كل مشروع جديد ، أما الآن فقد اتضح لكل مدرّس حديث أنها هي الطريقة المثلى في تعليم كثير من المواد ولقد قام بتجربتها كثير من المدرسين والنظار في مدارسهم حتى أصبحت مبادئها مستعملة في معظم المدارس بالولايات المتحدة وانجلترا وكندا وإيطاليا ، فالمدارس الحديثة يكلف تلاميذها أعمالاً خاصة يقومون بها بأنفسهم في أوقات معينة تحت إرشاد المدرّس في مواد خاصة كالرياضة والجغرافيا والتاريخ وقواعد اللغة وآدابها .

اليوم المدرسي على طريقة دولتون

في مدرسة دولتون كان التلاميذ أحراراً في عملهم المدرسي من الساعة الثامنة والحقيقة . و الى الساعة الحادية عشرة والحقيقة . أي في الصف الأول من اليوم للدرس ، وفي الصف الثاني من اليوم كان المدرّسون يقومون بتدريس المواد التي يحسن فهمها في الصل بالطريقة المعتادة عندما ، وفي الوقت الحر عند التلاميذ يقومون بتعلم الدروس المصينة لهم بالطريقة التي يحبونها ، أما المدرّسون في هذا الوقت فينصصون أنفسهم لهذه الواجبات الخمسة :

- (١) أن يقوموا بحفظ النظام في الفصل بحيث تكون الحجرة صالحة للذاكرة .

- (٧) أن يشرحوا النقط التي تحتاج الى شرح من القروس المعينة للتلاميذ .
 (٨) أن يبينوا للتلاميذ كيفية استعمال الأدوات والأجهزة الخاصة في العمل .
 (٩) أن يوضحوا بأنهم في كيفية حل المسائل الصعبة .
 (١٠) حينما يظهر للدرسين أن التلاميذ حقيقة في حاجة الى شرح نقطة معينة ، فعليه أن يشرحوها ويبينوا صلتها بالقاعدة العامة في المادة .

وقد أذكره أن طريقة (دولتون) سارت سيرا حسنا ، وأن التلاميذ بعد أن تركوا أنفسهم يعيشون وسمح لهم باتباع الطريقة التي توافقتهم قد نجحوا نجاحا باهرا في عملهم ، نجاحا أكثر من نجاحهم المعتاد ، وفي الوقت نفسه قد حصلوا على الثقة بأنفسهم ، واعتادوا مقاومة القواعد الجديدة والتفكير في حلها من غير اعتماد على أحد : سيوجد في الابتداء شيء من الصعوبة في تنفيذ هذه الطريقة ، ولكن سرعان ما سيكتسبها التلاميذ وسيفضلونها على غيرها ، غير أنهم سيبدون أن بعض المواد يمكن السير فيها على هذه الطريقة أحسن من بعض المواد الأخرى ، فهي تحسن في الجغرافيا والتاريخ والحساب والهندسة والجبر والقواعد والانشاء ، والمطالعة وقانون الصحة وأدب اللغة ، ولتحسن في الموسيقى والألعاب الرياضية واللغة الأجنبية ، فإن اللغة الأجنبية مثلا تحتاج الى مدرس يعرف منه التلاميذ النطق ، ويتعاونون معه ويقادرون معهم ، ويسمعونه يتكلم حتى تفتاد آذانهم الاستماع وألسنتهم التكلم .

الصلة بين طريقة دولتون

وبين طريقة منسوري

إن هناك صلة كبيرة بين طريقة منسوري وبين طريقة دولتون ، ولكن فضل الأسبقية يرجع الى الدكتور منسوري فقد ابتدأت طريقته قبل دولتون ، وإن (مس هيلين باركهورست) مؤسسة طريقة دولتون كانت من تلميذات منسوري ، وكانت مساعدة لها حينما ذهبت منسوري الى كاليفورنيا سنة ١٩١٥ ومن المهم في طريقة دولتون إعطاء حرية كبرى للأطفال في أعمالهم المدرسية ، ويقول الدولتونين « إن التلاميذ يستطيعون أن يدبروا على هذه الطريقة من السنة الثامنة من عمرهم ، فمن الممكن استعمالها في مدارسنا العالية طبعاً والثانوية من غير شك » ، والابتدائية من السنة الثانية . في الوقت الذي يستطيع فيه التلميذ أن يقوم بشيء من العمل بنفسه مع ملاحظة المدرس وإرشاده ، وهذه الطريقة يكون التلميذ أو الطالب مسئولاً عن عمله المدرسي وأكثرولما به ، واشتياقاً اليه ، ورغبة فيه ، والفرص من هذا المشروع أن تعطى الطفل حرية في عمله المدرسي ، وأن يحصل الدرس كهيئة اجتهادية يستطيع فيها التلميذ أن يقوم بعمله الخاص وأن يشترك مع جماعة من التلاميذ في تنفيذ عمل معين اشترا كاً متبادلاً بينهم .

حجر الدراسة على طريقة دولتون

أما حجر الدراسة فتصبح معامل للدراسة تجمع فيها جميع الكتب والأدوات المناسبة للواد الخاصة المراد تعلمها ، والتلاميذ لا يزالون يجتمعون تحت اسم معين لأجل الراحة في العمل كالجماعة الأولى والجماعة الثانية الخ وحجرة الجغرافيا ، وحجرة التاريخ ، وحجرة الرسم ، ومعمل الطبيعة والكيمياء ، وحجرة اللغة العربية ، وحجرة العلوم الرياضية الخ . ولا يزال التلاميذ يستعملون الحجرة كمكان للبحث والتعليم ، بحيث يبحث فيه كل تلميذ على انفراد ، أو مع بعض أقرانه الذين معه في درجة واحدة ، وسنة واحدة . فإذا أراد بحثاً تاريخياً ذهب الى حجرة التاريخ ، وإذا أراد أعداد دروسه في الجغرافيا ذهب الى حجرة الجغرافيا ، وفي كل حجرة يوجد طبعاً مدرس خاص للمادة التي عيقت لها هذه الحجرة يقوم بمساعدة من يحتاج الى المساعدة

وارشاد من يحتاج الى الارشاد . انتهى ما أردته من مجلة « الشبان المسلمين » والحمد لله رب العالمين .

هذا آخر ما جاء في فن الترية ، أليس هذا وأمثاله إنما هو ترديد لحديث النخلة المتقدم ، ولما في هذه العوالم من المنافع الخبوءة المشوقة للإنسان ، ومن الحوادث المهلكة المزعجة له حتى يعقل الأولى لنفسها والثانية لفهمها ، والاحتراش عما يمكن الاحتراش منه ، ولن يتم ذلك إلا بالجد والتشهير ، لا بمجرد الدلتقين والتعلم ، إذن هذه المعاني كلها شملت آية : « فقه الحد رب السموات ورب الأرض رب العالمين الخ » ، فهو يربى العالمين بالكبرياء والعزة المصعوبتين بالحكمة ، وهذا يعني هو ما يريد أن يتبعه أهل الأرض اليوم في مدارسهم ، وبهذا تم الكلام على الفصل الرابع .

الفصل الخامس

في أمر الأمم من حيث سياستها ، وأنه عز وجل يفعل مع الأمم في سياستها ما يفعله مع الناس في عوالمه الطبيعية سواء بسواء

فإذا كان في الأغنية ما يضرهم فهم المسؤولون عن ذلك الضرر الحاصل لهم لأن لهم عقولا توجب عليهم الاستنتاج والبحث ، فإذا اناموها فهم المسؤولون ، وهكذا في السياسة ، فإذا حكمهم ملوك عادلون ، ثم قام بدلم أبناؤهم أو أبناء أبنائهم الذين هم غالبا يكونون غير مجريين وهم مترفون منعمون ، فالأمم هي المسئولة عن ذلك * ويأتيه : أننا نرى المصريين وجميع سكان شمال إفريقيا وأهل الشام والعراق والموصل ونجد والحجاز والعين ، كل هؤلاء كانوا سادة العالم ، وهم الذين نشروا العلم في العالم كله ، ثم خفف من بعضهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فلقوا غيا .

ومن أعجب العجب أن سند العلم متى اقتطع في جيل من أمة اقتطع أجيالا وأجيالا ، فهذه الأمم لما اغترت بظئمة الملك نامت على وساد الراحة الوثير ، ونام الأبناء على الخيرات التي خلفها لهم الآباء ، وشر الأبناء من عاضوا من كد آبائهم ، إذ يكونون عالة على المجتمع ، فإذا فعل الله معهم ؟ جعل ملوكهم يشبهونهم ، ذلك لأنهم تربوا في مدارسهم ، وتعلموا آراءهم ، وهل يحكم الأمير إلا بما درس في مدارس الشعب ، والشعب إن هو إلا عابد للشهوات ، فإن الفئام كثرت ، والأرزاق والخيرات ضمرتهم ، فها هم وللعمل ؟ فلتسكن البطالة والراحة ، ومتى استراح جيسل واحد ذهبت السخوة والمروءة والشرف . قال تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفينا ففسقوا فيها حق » عليها القول فدمرناها تدميرا .

إن ضباب الخزي في الحياة الدنيا بالترف ، وعذاب جهنم في الآخرة بالترف : « وأصحاب الشمال ما أصحاب السمال في سموم وحيم * وظل من يحوم * لا يبرد ولا كريم * إنهم كانوا قبل ذلك مترفين » .

فانظر كيف ذكر الترف قبل أن يذكر الكفر ، فهو كما يكون سبب الكفر يكون سبب الاستعداد ، ولقد اتخذ أبائنا العرب من الفرس أجدادا ومن الترك ، واتخذ الأتليسيون أجدادا ممن جاؤهم من الأمم ، وهكذا ملوك شمال إفريقيا اتخذوا من السود الأفريقيين جنودا ، فما كاد الملك الذي استعان بهم يهلك الحياة حتى يلتحق كل فريق من هؤلاء العبيد بأحد أبناء الملك ليحارب في صفه ضد أخيه ، وهذا درس واحد اتخذت فيه هذه الممالك ، فكان بمصر الطولونيون ، فالأشعديون ، فالفاطميون ، فالأيوبيون ، فالملوك البرية والبحرية ، فالترك ، فالفرسيون ، فأصرة محمد على الحالية ، فالإنجليز .

وكانت الممالك البرية والبحرية بمصر وكذا ولاه الترك بعدهم يتحكمون في رقاب الأمة ، ويهتكون الأعراض ، ويخربون البيلد ، ومن عجب أن هؤلاء كانوا عبيدا يشترون بالمال ثم يملكون البلاد .

إن هذا كله هو آثار كبرياء الله في السموات والأرض وعزته ، فهو كما أعطى الناس عقولا ، وخلق لهم أغذية ، وأغراهم بالبحث عنها ، وهكذا خلق لهم أمورا من جهة من رعد وخسف وبركان ، وشوقهم لمعرفة ما أخرجه من بطون أمتائهم لا يملكون شيئا ، وألم للمرين أن ينسجوا على منوال سنة خالقهم في نظام خلقه من حيث استقلال الخلق بالتفكير ، هكذا فعل معهم في السياسة ؟ أعطاهم عقولا ، وأزل في القرآن آية الشورى ، وألمهم بحر والخلفاء الراشدين أمر الشورى ، ولما لم يفهموا ذلك وأعرضوا ، ولى عليهم ملوكا عظماء ، فإذا ماتوا تولى أبناؤهم الجهاد للترغيب بحجة أن ابن الملك أولى بالملك على أى حاله كان ، وهذه حجة داحضة ، فان قصة آدم وإبليس التي شرحت مقاصدها في (سورة الأعراف) أبانت ذلك إيمانين ان الحجاج في علم المنطق إما برهان ، وإما جدل ، وإما خطابة ، وإما مغالطة ، وإما شعر . وأخص أنواع الحجج حجة المغالطة وهي التي احتج بها إبليس ، فاستنع عن السجود لآدم ، ولعمري أين آدم وأين إبليس ؟ إن القرآن لا يقرأ في زماننا إلا لنا نحن ، لا لآدم ولا لإبليس ، إنه ما نزل إلا عبرة لنا نحن ، فإذا لم نعتبر فلا حيلة لنا ولا علم . احتج إبليس بأنه خير من آدم ، وبرهانه أن أصله من نار وأصل آدم من طين ، والنار في نظره أشرف من الطين ، ومتى كان الأب أشرف كان الابن أشرف ، إذن إبليس أشرف من آدم ، وهل هذه الحجة إلا مغالطة ، وهل هي إلا نفس الحجج التي تلقفها جهة المسلمين في الأمم المتأخرة ، فقالوا : « ابن الملك ملك لا يجزأه ، وعواطفه ، وأخلاقه ، بل بمجرد الانساب »

والله تعالى يقول فيمن استحق الملك : « وزاده بسطة في العلم والجسم » ويقول : « يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق » ولاتقيم الموى الخ ، حجة المغالطة التي ألقها إبليس محتجا بالنسب إلى الأشرف هي هي نفس الحجة التي أقامتها أم الاسلام حجاجا ومعاذير في قبول ابن الملك أو قريبه أو عاقله ، كان طولون ، وكافور الاخشيدى ، والمماليك البرية والبغرية ، ولكن الله لهم جميعا بالرصاد وقد عمل هذه الأمم الاسلامية معاملة الأساندة ثلاثيدهم ، يلقون لهم الحرية في الرئاسة حتى يستيقظوا ، فأنه وهب لهم العقول ، ونصب لهم ملوكا ، وكلما مات ملك ورثه ولده ، أو عبده ، وأصبحت هذه الأمم :

كرة طرحت بمواجهة * فتلقفها رجل رجل

ومن هؤلاء المتفكرين تلك الكرة للماهر في اللاعب والجاهل ، وأصبح التعليم في ديار الاسلام في أبدي أنس طبقات الأمة وأجهلهم ، وترك العقول الراجحة والنفوس الشريفة معطلة ، وبيوت العلم خاوية على عروشها ، اللهم إلا دور العلم المشهورة في بلاد الاسلام التي لولاها لم يبق للدين أثر ، إن خير وسيلة لتعليم السباحة في النهر أن يرى المتعلم في النهر وهو جاهد ويكادح حتى يتعلم السباحة بطريقة هو ، وهذه هي التي فعلها الله مع الأمم الاسلامية المتأخرة ، فهدأت الأمرين من جملة أمرائها ، ولما لم تفيقظ أرسل لها أم الفرجة ، فاحتلت بلادها ، فاستغنت ، وهنا التفسير قد جعله الله سبيلا من سبل نجاتها ، ولن تعود تلك الأضاليل والجهالات من بعد ، بل الأمر سيكون شورى ، ويستقيم التعليم ، وسيكون الملوك والأمراء أكفأ لحكم ، وسيكون وارث الملك مقيدا بالشورى ، وله امتياز خاص ، والأمر بيد الأمة لا يده هو ، وسيكون لبراث الملك في بيوت الاملاء شروط وقيود لا بد منها ، ولن يحصل بعد اليوم ما حصل في الأزمان العارة من الاقتتال على الملك ، واضعاف الأمة بالتفرق والاختلال والاضطراب .

إن لا انحطاط الأمم سبين رئيسين : أحدهما الجهل المسلق ، فانهما اختلال الحكومات ، وقد منبت أكثر البلاد الاسلامية في القرون المتأخرة ذلك ، وأول السدين أهمها ، إذ لا سبل لرقى الحكومات إلا برقى التعليم ، ولقد قسم في هذا النصير أن كتب الامام الغزالي أوصت إبان القرن الخامس في بلاد العرب وبعد ذلك بقرن في ابن رشد ، حسب الأوبر عليه ، ومن ذلك الزمان سقطت النهضة العلمية في بلاد الاسلام

إلا قليلا وتبعها نصف الحكومات ، وحقبة الحكم ، وقد حرم الله على هذه الأمم آمثادا وآثادا لعلمه أن هذا العلم مع العزة والكبرياء أعظمهم اليوم إحتفاظا ، فهاهم أولاء أفلاوا إقبالا على العلم ، وقد قضى الله للأم الإسلامية كتابا ومؤلفين وعمرين يذكرونهم بمجدهم ويزيدونهم علما ، ومن معاتل النهضة المستقبلة في القريب العاجل هذا التفسير ، فإن ما فيه من المعارف لو ألقى بضه إلى تلك القرون الخالية التي كانوا فيها يمتنون بالحكمة لتبنوه ظهريا ، ولوسموا قائده بالخلاد والكفر ، ولكن الله عز وجل يعامل الأمم معاملة الإنسان الواحد ، فهو في صفه لا يعقل العلم والحكمة ، بل يهيم باللهو والعب ، فلذا بلغ سنا معاملة أدرك وفهم وعقل ، فهكذا هذه الأمم نبذت العالم أيام الطفولة ، فهاهي هذه اليوم تتلقاها بشغف وشوق عظيم .

الله أكبر : هذا التفسير يتلقاه المسلمون في أقطار الأرض بشوق عظيم ، وهذا يظهرنا أن أهم السببين للتقنين لاحتياط الأمم أخذ يزول ، وكيف يبقى الجهل والشوق للعلوم في ازدياد ، إن الأمم الإسلامية ستعم التعليم عاجلا ، ولن يبقى إلا السبب الثاني وهو ضعف الحكومات ، وقد قلنا أن ضعفها من لوازم الجهل ، ولقد أثبتنا أن الجهل أخذ في الزوال ، وأن العلم أخذ في الازدياد ، وستصلح الحكومات على أثر ارتقاء التعليم وذلك كله راجع لأمرين : أحدهما الكبرياء والعزة المذكوران في الآية اللذان يترتب عليهما اضطراب الأمم أجيالا حتى تمر كخطأها . ثانيهما : التربية بالحكمة التي ظهرت بوادرها بعد أن ضلت الكبرياء فعلها ، فالكبرياء والعزة في مقابلة السبب الأول ، والتربية بالحكمة في مقابلة السبب الثاني .

إن الأمم الإسلامية في القرون المتأخرة لما أغفلت التعليم ، وتلا ذلك أنها لم تكن حكوماتها منتظمة أصبحت أشبه بالأنعام في مرابضها تمام الخسف ، ولا تجد لها عجيما من القتل ، متى أعرض المرء عن الكمال بالتعليم أصبح عرضة أولا لقوى الأهواء من رجال الدين ، والجاهلين من الصوفية ، وظلمة الحكم ، سواء أ كانوا من أهل الوطن والدين . أم من غيرهم ، ويكون ارتقاؤهم واسعدهم موقوفين على الحاكم ، إن أراد الخير لهم نالوه ، أو الشر أزموه ، ولكن الأمم للمستغربة الحرة تكون أشبه في عزتها بالحيوان في القفر ، عزز الجانب ، مذهب القوة ، يسمى بجده كالأسد ، والفرار في القفر . لا كالكلب والعز في الريف ولندن ، إن الله يقطع مدده عن كل عضو لا عمل له ، والعقول التي لا تعمل لها يسخرها الله ويذلها للعقول العاملة المفكرة ، وهذا هو السبب في أن هذه الأمم الإسلامية المتأخرة أصابها القتل وسلط عليها الظالمون من أمهم ومن أم غيرهم ، ونبتة من ملخص تاريخ الأندلس تركب برها ما على ما تقدم ، فهاك ما جاء في كتاب تاريخ العرب في الأندلس ، وهذا نصه :

« لما شيد عظمة الدولة الأموية الفتوحات الإسلامية لتلك العهد التي جعلت للإسلام علما متراعى الأطراف نشرفه مدينة وعلمها ودينها جديدا ، وتقصير الكلام هنا على ما كان من فتح الأندلس ، وإذا ما راجعنا ما تقدم نجد أن الحوادث مكنت العرب من الاستيلاء على الأندلس . ويرجع فضل ذلك إلى جردة طارق ، وإقدام موسى بن نصير ، ثم لابلث أن ترى عودة هذين القائدين ، ومصير الأندلس إلى الولاة ، وكان خروج موسى عام ٩٦ هجرية ، واستمر حكم الولاة حتى عام ١٣٨ هـ وفي تلك المدة الوجيزة تعددت الحوادث الهائلة ، وما يلفت الأنظار : تعدد الولاة وظهور المصيبات ، وهذه عادة العرب إذا ما استقر بهم الفتح وتعدوا عن الحرب والقتال مما يؤدي حتى إلى تفرق الكلمة وضعف القوة ، ثم ترى ما كان بين العرب وحلفائهم أهل المغرب الذين ساعدوا بكل ما استطاعوا في فتح الأندلس ، وكان جزاؤهم سوء معاملتهم فقدد العرب بذلك أنصارا أصدقاء مخلصين ، وهذا دليل واضح على ضعف الحكمة السياسية من جهة العرب خاصة وكان عهدهم حديثا تلك البلاد البعيدة عن مقر الخلافة الإسلامية .

كان من الطبيعي أن تؤدي تلك الحال إلى الفوضى والثورات الفاخلة ، وليس أدل على ذلك مما كان

من أمر صليل وأقى الخطار، وثورة جند الشام، ومصر الإمارة إلى يوسف بن عبد الرحمن الفهري. ثم كان ما كان من ظهور عامر وحباب وغيرهما من القرشيين، وإقسام الناس على بعضهم، مما جعل المؤرخين يقولون: إن سلطان الدولة الأموية كان ضعيفا على بلاد الأندلس، وأعدى الوجود، وما كان للأمويين في آخر منبرهم بالشرق أن يعمروا الأندلس أي اهتمام لما أحاط بهم بالشرق من ظروف.

وبينا كانت الأندلس تسير في حالتها هذه، دبر الأمويون بها قتل الإمارة إلى أبيهم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، واستعانوا بجند الحين، وبعض البربر، ودخل عبد الرحمن الأندلس، واتصر على يوسف وصارت له الإمارة، فشد ملكا للأمويين، دلم ثلاثمائة من السنين، وقسم بحسب حالته إلى عصر التأسيس، ويشمل حكم الداخل وابنه هشام والحكم بن هشام، وظهور كل منهم بظهر الحزم والقوة فيما أحاط به من ظروف، فزى الداخل يضع الثورات بقوة السيف ويغزو الشمال حيث كان المسيحيون، وتطلبت إليه الظروف أن يبنى ملكا على حكم استبدادي، للمكانة الأولى فيه للسيف، وتبسه على سياسته من خلفه، ولما كان هذا النوع الحكوي لا يتفق مع أهواء العرب نرى أنهم كانوا يخضعون صاغرين مادام السيف مشهورا، وإذا ما أهدأ ثاروا، وعملوا على استرجاع حرياتهم.

تعدت الثورات في عصر الداخل قسه، ونأمر عليه بعض رجاله وأهله، ولكنه اتصر عليهم، وأهم ما تحده في عصر هشام وابنه الحكم ما كان من دخول مذهب مالك بلاد الأندلس وإقتضائه فيها مما أدى إلى قطع التقاء إلى زعامة سياسية تتفق مع منزلتهم الدينية، وزوال أيام الداخل واستبداده ساعدهم على ذلك، فأنفذوا من حكم هشام وطبقة خلقه فرصة، ولما كان عصر الحكم ولم يسمح لهم بشيء مما أرادوا قاضي بن يحيى، وعيسى بن دينار، وغيرهما طلبة العلم، وحرضا القواء على الثورة، فقامت فتنة كادت تسقط إمارة الحكم، ولكنه اتصر بقوة، وعاقب الخارجين شديد العقاب.

وبعث الحكم بن هشام، وانتقال الإمارة إلى ابنه عبد الرحمن الثاني يبدأ عصر ضعف يتناول حكم محمد بن عبد الرحمن، ثم المنذر وعبد الله وبني محمد بن عبد الرحمن، وكاد ذلك العصر ينتهي بسقوط ملك الأمويين بالأندلس، وأسباب ذلك الضعف ترجع إلى:

(١) اشتغال عبد الرحمن عن ملكه بتجهيل قرطبة وتركه سياسة البلاد ليحيى بن يحيى والسلطانة طروب، ونصر الحصى، فقسرت القوضى إلى البلاد، فأدرك ما كان من خطئه، وأسرع إلى إصلاح ما فسد.

(٢) وفي عهد محمد بن عبد الرحمن الذي أصبح أميرا على الأندلس على حسب رغبة الخميان وللوالى بقصر الخلافة كره الناس الإمارة لسوء سياسة الأمير وموقفه هذا من شعبه شجع بعض الأقاليم على الخروج فاستقلت طليطلة نظير مبلغ من المال تدفعه سنويا، وما لبث أن بسط موسى الثاني قنوده على أرجونة والأقاليم الشمالية، وكان ذلك بمساعدة القونسو الثالث، ولا شك في أن تدخل المسيحيين في أمر المسلمين كان له أثر سىء للغاية كما أن استنجد المسلمين بالمسيحيين يدل على عدم ارتباط المسلمين ببعضهم، ثم تمكنت ماردة من إحراز انفصالها عن إمارة رطبة، وهذه الحال بتلك البلاد شجعت ابن حصون بإقليم ربا على مقابلة الإمارة الإسلامية، وقد سببت حروبه ضعفا شديدا لها، وتبع عن ذلك كله أن سقطت هبة الإمارة.

(٣) كانت إمارة المنذر أقصر من أن تدفع شرا، أو تعيد إلى الإمارة عظمتها الأولى، ولما آل الملك إلى عبد الله بن محمد ساءت الحال جدا، قامت العصيان، وبلغ ابن حصون وأمثاله قوة عظيمة وعمل أمراء العرب على الانفصال عن الإمارة، فميت القوضى، وأصبح ملك الأمويين على قاب

قومين أرادنى من السقوط . وفي هذه الحال مات عبدالله بن محمد وعدم بلاده بذلك أجل خدمة
إذ أقسح لجمال خفيده عبد الرحمن الناصر .

بدأ الناصر عصر عظمة الأندلس واستمرّ العصر الذهبي مدة الناصر والحكم الثاني المستنصر ومدة
حكم المنصور بن أبي عامر وولاه عبد الملك المظفر وعبد الرحمن المأمون ، وفي ذلك العصر خلقت
الأندلس خلقا جديدا ، تبدل بعضها إلى قوة ، فأخضعت الثورات ، وأعيدت الولايات المستقلة إلى
الطاعة ، وسارت الجيوش إلى بلاد المسيحيين شمال الأندلس ، وأذلّتها ، ولم ينل منها الفاطميون
مأربا ، وسارت البلاد في طريق الحضارة والعمران خطوات واسعة ، وإذا كان المنصور بن عامر
وصل بالبلاد إلى درجة عظيمة من القوة والمجد ، فإنه أساء إلى الأسرة الأموية بطنها طعنة بجلاءه
في صميم قوايدها ، وذلك بما كان من أمره مع هشام الثاني حفيد الناصر وتجهيد الحكم لولاه
الواحد بعد الآخر ، فلما هجر ثاني الولدين عبد الرحمن المأمون أن يسير بالبلاد سيرة أبيه قتل ،
وانتقلت البلاد إلى مصر يعرف بمصر الفوضى

(٤) وعنوان العصر كلف للدلالة على سبب الحكم الأموي بالأندلس إلى سقوطه الأخير ، وميزات
هذا العصر :

(١) تنافس الأمراء من أئساد الناصر وأعقابهم على الخلافة ، واستعانة بعضهم على بعض
بالمسيحيين ، وكانت تلك الحال خير فرصة لظولاء

(ب) انتقال النفوذ من يد الخليفة إلى الوزراء وقواد الجند الذين سعوا لإدراك أغراض
شخصية ولم يهتموا بأمر الخلافة أقل اهتمام ، فساعدوا بذلك على تهديم ما تبقى من
الخلافة .

(ج) ظهور دولة بني جود بمالقة وانتقال الخلافة إليها ، وسارت لعل بن جود أولا ، ثم لأخيه
القاسم بن جود ثم ليعبي بن علي بن جود ، ثم لقاسم ثانية ، ثم ليعبي ثالثة مرة ،
ولكنهم لم يفلحوا في الاحتفاظ بالخلافة

(د) بداية عودة الإمارات إلى الاتصال عن قرطبة وأعداد الطريق لقيام حكم مالوك الطوائف
ففي عهد المسلمين المرواني اقتضت سلطة الخلافة على قرطبة وثلاث مدن حوها ، ثم
كانت خلافة المرتضى ، ثم المستظهر ، ثم المستكني ، ثم هشام الثالث ، ثم أمية وضعف
أمرهم أدى بالناس إلى التفكير في إسقاط الأسرة الأموية نهائيا ، وقام بذلك زعيم
من قرطبة يدعى ابن جهور .

(هـ) ولا بد أن نضيف إلى ما تقدم من أسباب ما كان من موقف المسلمين العدائي ضد الاسلام وعملهم
المواصل على استئصال البلاد من أيديهم واتخاذ كل فرصة ممكنة لاسقاطهم وطردهم ، ويقول
لينبوس : « إن من شر ما ارتكبه العرب من خطأ إهمال أمر المسلمين من بدء الأمر .

(٦) ونظم جلة الأسباب بما كان من تغير كلى للأخلاق لم يبق مما أدى بهم إلى نسيان شجاعتهم وعدم
التمسك بدينهم والانغماس في الرف والنعيم ، والركن عليه هم ، وفعودهم عن نصر ، بعضهم بعض
لم يكن قيام حكم مالوك الطوائف شيئا ، كثرة صمدهم دل على ضعفهم وصغر ملكهم ، وتاهتهم أدى إلى

سوء منواله يدهم ذهب برعهم ، وكانت دلتهم خير سبب لإيهامهم الذين استولوا على البلاد ، وفرضوا
الجزية على الاسلام ودلوا الناس ، وكان خلاص المسلمين على أيدي المرابطين زمن مخلود ، ثم كانت دولة
الموحدين ولم تعمر لويلا ، وفي سرهد لاسلا ، الأندلس لتصر الأسرى على دولة بني الأحمر ، ومرحلة فشلت

أثرا ببقيا ، وبعدها دونه لها التاريخ ، فقاتلت وصبرت وانتصرت حتى انتابها الدين الداخلي ، وكانت المسيحية وصلت الى عظمة قوتها على يد (فردماند) و(إزابلا) فأسقط العقل الأخير من المعازل الاسلامية وبادت دولة الاسلام بهذه البلاد بعد أن قامت بأجل الخدمات للدين والحضارة والعلم والحرمان ، وكل المؤرخين على اختلاف جنسياتهم يشهدون لها بذلك . انتهى ما أردته من كتاب « تاريخ العرب في الأندلس » تأليف الأستاذ حسن أفندي مراد ، والحمد لله رب العالمين .

بأتمل هذا التقرير ترقى أم الاسلام ، وبه تعرف بعض أسرار آي القرآن لاسيما أسماء الله الحسنى للذكورات في ثنايا آي القرآن « والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم » انتهى الفصل الخامس

الفصل السادس

في أن نظام الدتون في التعليم الذي تقدم في الفصل الرابع هو قسمة الذي صنعه الله في أرضه قبل خلق العالم كما ستره الآن في هذا المقام

بهجة العلم في هذه الآيات

« فله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين الخ »

اعلم أن هذه المعاني التي تقيمت في الفصول السابقة تتضمنها الصلاة ، ألا ترى أن قوله تعالى : « فله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين » تتضمن أول الفاتحة « الحمد لله رب العالمين » ، وقوله : « وله الكبرياء في السموات والأرض الخ » يذكر به تسمية الاحوام وتكبيرات الركوع والسجود والرفع منه والتكبير ٣٣ مرة عقب كل صلاة . هذا ما أردت بيانه في هذا المقام فسيرا لآيات : « فله الحمد رب السموات » الى آخر السورة ، والحمد لله رب العالمين . انتهى في ليلة الجمعة الساعة العاشرة يوم ٢٧ فبراير سنة ١٩٣١ م

فتحة في صلاة الصبح يوم الجمعة ٦ مارس سنة ١٩٣١ م

بيان الكبرياء والمنة أيضا مع الترية في السموات ، والترية في الأرض ، وترية العالمين المصحوبة بالحكمة

أجندك اللهم على نعمة العلم والحكمة والفرقان ، قرأت اليوم في صلاة الصبح أول سورة طه وأخذت أردد الآيات لنعم معناها ، فك الحمد اللهم ولك الشكر على ما أنعمت به علينا من النعم ، ذلك أننا أصبحنا نرى نظام قس الأرض وتاريخ حياتها يضارع في تصاريفه وتاريخ أحواله نظام الدراسة في المدارس على أحدث الطرق ونظام التدرج الكامل في حياته أيام الطفولة وأيام الشباب وأيام إفاضة العلم على غيره وإشراق أنواره على الناس في هذه الأرض . جاء في قصة موسى ، أن الله يقول :

(١) « إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري » ولا جرم أن هذه عبارة عن ظواهر الاسلام وعن بواطنه وهو التفكير ، والتوحيد والعبادة والصلاة للذكورات في هذه الآية هي من ظواهر الاسلام وباطنه ، والمقصود منها هو الذكري كما يقول تعالى في سورة (آل عمران) : الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، فالتفكير بعد الذكر لأن الذكر باللسان يحرك القلب للفكر ، والا فجدواه قليلة ، والذكر هنا في سورة طه

لوروده بعد ظواهر الصلاة يرجع للفكر في السموات والأرض ومجائب الصنع لأن ظواهر الذكر تضمنتها الصلاة اى هى عبارة عن أقوال وأفعال ، ومن الأقوال الذكر اللفظي ، إذن قوله تعالى « تذكرى » هنا يراد به معرفة الحقائق المقابلة للتفكير في سورة ﴿ آل عمران ﴾ كما قدمناه .
(٢) حديث الله مع موسى إذ أمره بإلقاء العصي ، فألقاها فصارلت حية ، تخف موسى ، فقال الله له : « لا تخف » وأعادها لحالها الأولى مرة أخرى .

(٣) تبيان أن هذا ، الحادثة التى جرت بين الله وموسى ، نموذج لثلاث حوادث كلها كان فيها الخوف أولا والسلامة آخرا ﴿ وبعبارة أوضح ﴾ إن حديث موسى مع ربه وخوفه أولا وسلامته آخرا نظير :
(١) لما حصل لأتمة إذ ألقته في التابوت ، وألقته التابوت في اليم ، واليم ألقاه بالساحل ، وأخذته العدو ، والعدو صارحييا له ، وقيل لها : « لا تخفى ولا تحزنى إنا رادوك إليك » فقوله : « لا تخفى » فى مقابلة : « خنها ولا تخف » وقوله « إنا رادوك إليك » فى مقابلة « سنعيد سيرتها الأولى »

(ب) ونموذج لما حصل له فى قتله القبطى : « وقتلت نفسا فنجيناك من اليم » وقتناك فتونا » ويقول شبيب لموسى (لما ورد ماء مدين وسقى لابتنيه) وقص عليه القصص : « لا تخف نجوت من القوم الظالمين » ، وذلك أنه لما جاء له رجل من أقصى المدينة يسمى قال يا موسى إن اللأ يأترون بك ليقتلوك فانجى إلى لك من الناصحين * ففرج منها خاتما يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين ، فهاهوذا وهو خارج من أرض مصر كان خاتما ودعا الله أن ينجيه من القوم الظالمين ، ولما توجه لقلعه مدين وقابل شعيبا قال له : « نجوت من القوم الظالمين » إجابة للدعاء الذى دعا به أولا وهو خارج من أرض مصر .
(ج) ونموذج أيضا لما حصل بينه وبين السحرة إذ أجعوا كيدهم ثم أتوا صفا وألقوا حبالهم وعصيم ، فقبل اليه من سحرهم أنها تسى ، فأوجس فى نفسه خيفة موسى فقال له الله : « لا تخف انا أنت الأعلى * وألقى ما فى يمينك تلقف ما مسحوا إنما صنعوا كيد ساحر »

عجب يارب من هذا الكتاب المقدس وهو القرآن ، خوف من العما إذ صارت حية فأرجعتها له سيرتها الأولى فزه الخوف ، وخوف أم موسى عليه إذ ألقته فى اليم ، فأزلت خوفها وبشرتها بنجائه ، وخوف موسى من أن القوم يقتلونه فنجيه من أثم ، وخوفه من حبال القوم وعصيم إذ خيل له أنها حيات ، فألقى عصاه فلنفت ما يافكرن .

هنا حوادث ثلاث : حادثة أمه ، وحادثاه ، كاهن على نخط واحد ، ويجمعها كلها مثال واحد ، وهو أنه ألقى عصاه فصار حية ، فأمرته بعلم الخوف ، وأرجعتها الى حالتها الأولى . أليس هذا يارب من العجب ! عجب صنعك ! وعجب كتابك !

يارب أنت هذا فلك ، وهذا قوك ، اناك أرىتنا هذه الوقائع فى نظام أرضنا كلها لأنك تربي السموات وتربي الأرضين ، وتربي العالمين .

هاهى ذه أرضنا التى هى أقرب البنا ألقينا تربيتها على نظام هوقسه نظام حياة الفرد الشريف العظيم كموسى عليه السلام وبكمج المصلحين فى الأرض لأنهم من العالمين الذين تريمهم ، أليس نظام الأرض أنها تحدث فيها الحوادث العظيمة كالزلازل والبراكين والصواعق والشمس (وهذا شرحنا قريبا فى نفس هذا المقام) فيكون القدر ، ويكون الخوف ، وتبلغ القلوب الخناجر ، ويظن الناس بالله الظنون ، فإذا يحصل

بعد ذلك ؟ يحصل أن البراكين :

- (١) يبقيا حدوث أراض زراعية جديدة لا نظير لتربتها للزراعة ولا يحتاج الى سداد .
- (٢) ويبقيا منافع معدنية كالكبريت الذي ذكرناه آخا الخارج من أحد البراكين واشترته شركة أمريكية بألف ألف جنيه لمنافع الناس ، وهكذا ترى إيطاليا تستعمل حوارة البراكين لمنافع عظيمة أخرى ، إذ بها تدبر آلات لصالح الحياة العلة كما تقدم في غير هذا المكان .
- (٣) ويبقيا حدوث جزائر وجبال ، وقد تحدث فارتات في مئات الآلاف من السنين ، فلازل والبراكين ونحوها تحدث خوفا لنوع الإنسان وذعرا شديدا ، فيقول الله للناس : يا عبادي لا تخافوا هذه كصا موسى ، ألقاها فصار حية ، خاف ، فرجعت الى حلقها ، فالحوف إنما أبدعت في قوسكم ليكون المران على الصبر ، وبغير الصبر لا علم ولا سعادة ، صبرت أم موسى ، وربطت على قلبها لما ظفرتها ، إذ ألقته في اليم ، وهكذا علمت موسى الصبر لما خاف من العصا وقد صارت حية إذ ألقاها بأمرى ، ليكون ذلك مرانا له على ما يحصل له ، إذ يلقى السحرة فيرى الجبال والصهي حيات ، إن التربة يا عبادي هذا شأنها ، فلتكن المشاق ، وتلك الحوف أولا ، ثم لتكن القوة ، وليكن الصبر في سبيل الحياة .

ودلك مثال لما يفعله من يعلم ابنه الصوم ، إذ يقيه في اليم بلا آلة تساعده على الصوم ، فيجاهد بكل قوته حتى يتخذ له طريقا خاصة له ، فهناك خوف ، وهناك نجاح . بعد الصبر ، هكذا تربية المدارس على أحدث طريقة ، وهي التي تقدم ذكرها من (دالنون) .

بدر الاستاذ تلميذه في ارتباطه وحبه واضطرابه في حل المسائل العلمية ، ويعينه معاونة إيجابية ، ويركز له التصيل ، ويعمله معاملة الله لموسى ، ومما تمت للأرض في نظامها ، فكما أن الأرض تضطرب اضطرابا شديدا حتى يظن الناس أن القيامة قامت بما يشور من براكينها ، وبما يحدث من زلازلها ، فيعقب ذلك حياة جديدة بترية جديدة نافعة جدا ، أو بجيرة ، أو بمتافع أخرى ، وهكذا موسى خاف من عصاه لما صارت حية ، وعلم الصبر على الحوف ، وهذه الانخاف صارت له نعمة لما ألقى السحرة جباههم وعصيم الخ وصار ذلك مرانا له وقدره إذ قال موسى « ما بشم » السحرة أن الله يسطط الخ » ثم غلبهم ، هكذا التلميذ في المدارس يضطرب في حل المسائل ، والله ينره يستجيب ، وفضح له الطرق وينره ، وتكون عاقبة ذلك قوة يكسبها أليم عمله في المستقبل ، إن آخر طريقة للتعليم هي التي وضعها الله في نظام أرض العالم وهي التي وصفتها في ربيته لموسى عليه السلام ، إذ أحاهه لتكون ذلك الخوف مرانا على أعماله المستقلة ، وملخص ما تقدم في هذا الجدول :

الكهلاء والقدرة	تربية السموات . تربية الأرضين . تربية العالمين . وأن الله حكيم في صنعه
(١) الشمس كانت كرة ظلمة والأرض منها ثم برحت (وهذه مرسومة في سورة ضلت)	(١) الأرض بعد أن برد ظهرها صلحت هذه الخلقوت
(٢) للبراكين والزلازل والحوف	(٢) ظهور جبال وتلال وجبال وارتفاعات وسادات
(٣) خوف أم موسى على في اليم ، وموسى إذ ألقى عصاه فصار حية ، وخوفه من أن تقوم الثعالب به ليقتلوه	(٣) كل ذلك مرانا له على ما يلقى من الكاره بصفق إذ ألقى السحرة الجبال والصهي الخ ، فألقى عصاه وبطل سحرهم
(٤) ترك الاستاذ تلميذه يبحث في مسائل العلم بنفسه	(٤) نجاح التلميذ في الاجتهد والاعتماد على نفسه في العمل

إن من مآلقيه الناس في هذه الحياة مهراقهم في نفس الحياة ، أوى حياة أخرى ، ألا ترى أننا مأمورون بالجهاد وللموت في سبيل الله ، إن في ذلك لمنا لنا على ترك ما نأفقه ، وهذه الأرض مألوفة لنا ، والموت اخراج لنا منها ، والخروج من المألوف صعب . والله له عوالم غير هذه الأرض ، ولا بد من أننا نرى عده ، وجمال صنعه فيها ، وهل يقضى لنا ذلك إلا بفركها ، وهل تركها إلا للموت ، فهنا تناقض ، نحب أن نعلم جمال العوالم فوقنا ، ونحب البقاء في أرضنا ، ولكن الله الذى له الكبرياء في السموات والأرض لا في الأرض وحدها التى نحن فيها يقهرنا على ترك المألوفات في نفس الحياة ، وعلى ترك نفس الحياة وإن كرهننا ذلك لأنه سيرينا لإبداع صنعه في عوالمه الجميلة التى هي أرق وأبهج وأبهى من أرضنا المتأخرة في أحوالها ونظماها عن غيرها .

تطبيق على ما تقدم من كبرياء الله وعزته مع تربيته لنا بالحكمة

وذلك في تذكرتين

(التذكرة الأولى) هي ما زلنا أنا في هذه الحياة

(التذكرة الثانية) في حديث سمكتين تتحولان في قعر ماء البحر عليهما ، وكيف أخذ البخار يصعد إلى الجو ليقبض الماء وما هو ناقص ، وكيف صار بخارا ، ثم ماء في سحاب ، ثم مطرا سقط على الجبل وبقي بعضه ثلجا ، فتراكم الثلج ، فأخذ ينزل من الجبل حليلا معه صخورا سائرا إلى البحر كحركة أخرى فسقطا فيه ، فواضعا تلك الحجارة أشبه بالبناء يبقى ذلك السكك من قعر الماء

التذكرة الأولى

لقد ذكرت في هذا التفسير مرارا أنني في زمن السبا عاهدت الله أني إذا نلت من العلم واليقين حظا نشرته بين المسلمين ليزول الشك من قلوب أذكياهم ، ولما نلت من العلم حظا ، وأتممت الدراسة بدارالعلوم وعينت موظفا بالتدريس ، وقلت من القاهرة إلى مدرسة الجزيرة الابتدائية ، هنالك أخذت أفكر فيما عاهدت الله عليه من التأليف ، ولقد كانت الفروس تستغرق النهار كله ، ولم يكن عندي من الليل ما يزيد على تحضير الفروس وإصلاح خطأ التلميذ في كتابهم ، فعزلت على أن أجعل يوم الجمعة مقبعا قسامين ، فمن الصباح إلى قبل صلاة الجمعة يكون عملي في التأليف ، ومن صلاة الجمعة إلى الغروب يكون ذلك خاصا بالرياضة في الحقول والرياض الناضرة والملاهي ، ليكون ذلك الشغل للعكر والجسم ، فعمت على ذلك مدة . ثم إنى يوما قلت في نفسي : لأقول التأليف في هذا الأسبوع ، ولأخرج في الخلاه من الصباح ، فما كنت أخرج إلى شاطئ البحر حتى يابني رجل اعرفه من القاهرة جاء إلى الجزيرة ليشتري سجلا من البقر ليبدعه في عيد الأضحى ، فرافقته إلى سوق البهائم ، وهناك تصاعد الروائح الكريهة من إبلها وأرواتها ، ويسمع الإنسان عبارات السهارة والتبايعين ، والحلف بالتكرار ، ورفع الأصوات ، والجلبة في البيع والشراء ، ولم أخلص من ذلك المأزق إلا وقت صلاة الجمعة ، هالك عرفت أن ذلك صاه ما يأتي : « انك طلبت الرياضة الناضرة ، والحقول الباهرة ، والمناظر السارة ، والحيوانات الجميلة ، فلماذا ما عاهدت الله عليه من التأليف ، فهنا نحن أولاد عاقباتك فأرسلناك إلى سوق البهائم لتسود ، بين بقرة والجوس والجبر ، ولتسمع مآلاته ، ولتشم ما تنكسره ، وذلك ضد ما طلبه على خطه ، فمتم ، هالك عرفت أن ترك التأليف في ذلك الموعد ذنب عوقبت عليه ، فذاك راجع لكبرياء الله وعزته أولا ، ووجهه وكمنه ثانيا . والله عاقبة الأمور .

ويقع هذه التذكرة الأولى - ثمان - مائة من الأول : إنى قبل ذلك أى حين أردت أن أبتدئ

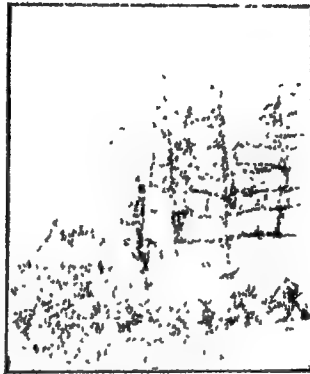
فأكتب ما عاهدت الله عليه وأشره بين المسلمين ، أحاطت في من المرجحات المنزليات والأحوال الداخلية ما آذاني وسادني ، ومن يجب أني إذ ذاك خُطرت لي خواطريحية ، فكنت أقول : أنا في المستقبل سأكتب لرقى الاسلام ، ولا بد لكل عامل من حسنة وأعداء ، فهذه المرجحات اليوم قد أحاطت في ، لأن من خلقي شدة الحياء ، وسرعة التأثر ، وهذه المرجحات تطيني درساً به أقلم الثبات في الأعمال النذفة ، وأقول أيضاً في نفسي : هذا تعريب لنفسي على الثبات ، وهذا التزلزل أمام الحوادث ، وفي تلك النوارل والحوادث والمرجحات أخذت أؤلف كتاب «جواهر العلوم» وكتاب «ميزان الجواهر» قائلاً للحوادث المنزلية كلاماً . والله لا أنسى من مطالبي ما حدثت حياً . وبهذا تم الحديث الأول التابع للتذكرة الأولى .

(الحديث الثاني) : أتى في أوائل طبع هذا التفسير أحاطت في حوادث خارجية وهي مزجحة أشد من الأولى ، فقاتبتها بسلام رجب ، ولم أذكر وسماً في تذييلها ، ومرتت بسلام ، ولم تعني عن السير في التأليف والطبع ، وكنت أبعد للمعوية من الله واتجعة جليلة ظاهرة .

التذكرة الثانية : حديث السمكتين

حدثنا الحارث بن همام . قال : ركبنا في سفينة بخارية في خليج البحر العميقة ، وقد قادها الربان بهماره وإهقان ، ولم أكن لأعتاد ركوب الأخطار ، ولانقلاصة الأسفار ، لما أن مصت ساعات حتى أغمي علي ، وغبت عن حواسي ، وخيل إلي أني في قاع المحيط ، وأمامي آلاف السمك تتفرج علي وتدس لمظري ، وقد أنقتهن الله ، فصرن يعضدن بأحاديث هجية ، وما أذكره أن سمكة منهم تسمى (سانده) وأخرى معها تسمى (مانده) أخذتا تسامران مسامرة أشبه بأقويل الفلاسفة وعلم الحكما . فقالت (سانده) لأختها (مانده) : حدثيني أيتها الأخت ، إن ماء البحر يرفع فوق (٢٠٠٠) أني قامة ، وهذا الانسان لاقل فوقه أكثر من (٧) قامة ، لأن الهواء الجوى المحيط بهم (وان كان عظيم الارتفاع) لا يزيد في ثقله على عشرة أمتار من الماء وهي تساوي ٧٥ ستيومتراً من الزنق ، نحن هنا في كرب شديد ، فكيف نصل هذا كله ، وهذا الانسان في راحة بال لا يزيد الثقل فوقه عن ٧ قامة تقريباً ، فأين السبعة وأين الألفان ؟ إن هذا هو البلاء . فقالت لها (مانده) : قومي ندعوا الله نحن وبقية السمك في قاع المحيط عسى الله أن يخفف الأقال عنا .

هالك غابت السمكتان عني ، ثم رجعتا بعد مدة ، وأخذت (سانده) تقول لأختها : إن الله استجاب دعاءنا ، وهما هوذا أخذ بحفف الحب عنا ، فان المحيط أخذ يبخر وهذا البخار يقلل الماء من فوقنا ، فاستقرت إذ ذاك (مانده) في الضحك وقالت لها : ما الذي يرفع البخار من الماء ؟ إن هو إلا زيرير ، فقالت لها (سانده) : إذن أين إجابة الدعاء ؟ فقالت لها (مانده) : هب لك ! إن الله له (الكبرياء والعزة) فعله لحكمة ، ولا بد من البحر حتى نفهم كيف استجاب الدعاء ، الآن نرى أن السمك ينجح من جسمها خيوطاً فلا يدري العاقل لماذا يخرج ، ويبدحين يظهر أنها شبكة لصيدها ومنزل لكتاها . فقالت لها (سانده) علميني مما علمك الله ؟ فقالت لها (مانده) : إن البخار يذهب إلى الجو ويوصل إلى الطبقة الباردة فيصير ماء ثانياً ولكنه نال من الملح ، ثم يصير سحاباً ، فيسوقه الهواء التي تكون الحرارة والبرودة يسببه ، ذلك أن الحرارة تمتد الأجسام والبرودة تكسها ، والسخور يتوالى الليل والنهار ، وتعاقب الصيف والشتاء تمتد وتكسش ، وينشأ عن ذلك تشققها بشقوق رأسية طويلة وهرضية ، فإذا كانت السخور طبقية أصبحت كالطبوب للرصوص بغير ملاط مستعدة للانتيار (انظر شكل ٢٦ الآتي في الصفحة التالية) فلا تلبث أن تتساقط عليها عوامل الطبيعة من الماء والثلوج فتترق شملها وتجرحها .



(شكل ٢٥ — تطلق الصخور أثر الغزيرات الجيرية)

آثار المطر في التربة



(شكل ٢٦)

واد نالشي عن سقوط سحاب مثيرة جيرة

في شكل (٢٧) واد عميق كان فيما مضى كهفا من الكهوف الجيرية التي وصفنا لك طريقة تكوينها بسبب ذوبان الصخور بفعل ماء المطر ، وقد رقت سقف الكهف وسقط فكشف الوادي كما تراه .

وتأثير ماء المطر بهذه الكيفية في الصخور الجيرية تأثير كيميائي ناشئ عن التأثير الحمضي لهذا الماء بسبب ما يخرج به من غاز حامض الكربونيك و أثناء سقوطه في الهواء .

ويؤثر المطر في الصخور بطريقة أخرى ، وذلك بتكرار لادها ، وتزيقها ، وتشتيت مادتها .

وتتشرب الصخور أحيانا ماء المطر ، ثم تجف ، ويتكرر الاشترب والجفاف فتتراخي وتصبح عرمة لجرف المياه الجارية كما ستريه مفصلا في عمل الأمان .

فقلت سائده لما يده : أما الآن لم أعرف إجابة دعائنا ، فقلت أيتها الأخت لم تذكر لي إلا أن الحرارة والبرودة تؤثران في الصخور فتعزقها ، وأن المطر الذي من محار البصار يؤثر بطريقة أخرى ، ولكن هذا كله فوق وسع الياسة التي خلق فيها هذا الاسنان ، ولكن أين إمانة دعائنا لتخفيف الهط عنا ؟ فقلت لها

(مأخذ) : ألم أقل انك ان فلسطيني مني متباداً ، فاصبري حتى تهتمي ، لأن النيل يحوز الصبر ، ولاخر
لاصبر ، ولا مساعدة لانصب ، وأعلى السطحات سعادة الحكمة والنهم . فقلت : قد بيني إني . فقلت مأخذ :

نشأة الأنهار

انها تنشأ من تضاريس صغيرة في وجه الأرض الحديثة ، هذه التضاريس تعين اتجاه سير المياه ، ومتى
تعين مرة أصبحت مسالكها متبوعة ، وأمعنت المياه في الأرض تحتاً وعميقاً حتى يكمل تنسيق حوض النهر .

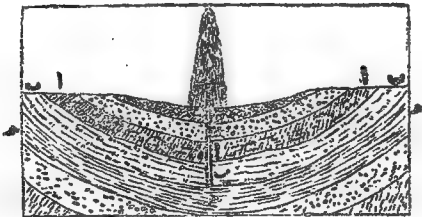
العيون والآبار

بعض الصخور القشرة الأرضية ذات مسام ينفذ فيها الماء وبعضها مصمتة فلا ينفذ فيها ، فالتلة في الطبقة
ترشح فيه لأنها من القشرة ، وهذا له مسام ، ولكن البليق يحفظ الماء ولا يرشعه لأنه مصمت ، فان رشحت
التلة حتى امتلا الطبقة وفاض سال الماء على جانب الطبقة ، فهككنا تتفجر العيون والينابيع على جوانب
الجبال إذ ينفذ بعض ماء المطر من المسام والشقوق حتى تعجزه طبقة مصمتة ، فإذا ملأ تجويف هذه الطبقة
وفاض نشأت العيون والينابيع ، وفي شكل (٢٨) مقطع رأسى في جانب الجبل يسيل منه الماء عند (ع)
والصخور التحتية مصمتة كالصقال ، والقوية ذات مسام كالجير ، وقد تشربت هذه الصخور بالماء الى
الارتفاع المشار اليه بعبارة (منسوب الماء) ، فإذا حفرت بئر عند (ب) وعمقت الى ما تحت منسوب الماء
أمكن استخراج الماء منها باللو أو المضخة . وهذا صورته :



(شكل ٢٧ - مقطع رأسى في جانب الجبل فيه بئر عند ب وعن ماء عند ع)

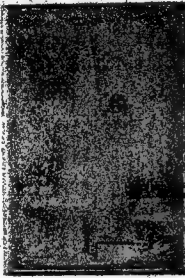
الآبار الارتوازية



(شكل ٢٨ - نظرة الآبار الارتوازية)

في شكل ٢٩ طبقة من الصخور ذات المسام (ب) محصورة بين طبقتين من الصخور المصمتة (أ) و (ج)
والطبقات كلها ملتوية مقعرة ، والطبقة (ب) حافتان على وجه الأرض تقع عليهما الأمطار فتصلاً بمن

هذه الطبقة ، بحيث
لوقت الطبقات التي
فوقها بحضرم في
وسطها ، يخرج الماء
من لقاء نفسه ويلاً
الحوض ، وهذه الآبار
الارتوازية عظيمة
الأهمية فيرى الجهات
البعيدة عن الأنهار
والترزم (انظر شكل ٢٩)



(شكل ٢٩ - منظر بئر لوتوازي)

خفر المجرى وتوسيع الوادي

تخفر الأنهار مجاريها وتنتع الوديان ، فإذا
سرت النهر بجهات عديدة الأمطار ، حيث لا يمكن
أن يتزود بنهيرات تمزق جدران الوادي وتساعد
في توسيعه ، ينحت النهر واديا غاراً يسمى خافقاً
مثل خافق نهر كلورادو ، وتري صورة مثل هذا
الخافق في (شكل ٣٠)



وفي الجهات الأخرى تمزق الأمطار والسيول
والنهيرات جدران الوادي ، وتجرف الصخور الى
مجرى النهر فينقلها الى حيث شاء ، وبذلك
تتكوّن الوديان العريضة ، ولكل نهر واد قد
كوّنه بنحت الصخور المجاورة لمجرىه .

(شكل ٣٠ - واد مبلّج)

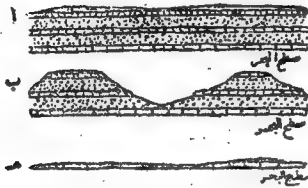
وقد عرفت أن الهضبة الحديثة اذا انسابت فيها الأنهار شققها بالوديان نازكة سلاسل جبلية كالجدران
فصل الأحواض المختلفة ، ويبين شكل (٣١) تكوين الوديان العريضة والجبال المتخلفة . وهذه صورته :



(شكل ٣١ - تحول الهضبة الى وديان وسلاسل جبلية بفعل عوامل التآكل)

رقى عمق خائق كالورادو دليل على مقدار ما يستطيع الماء تحته وأسيا في الصخور، فإن خافة الصخور مفعلة عن سطح الماء هناك بأزيد من ميل، فأضافت إلى ذلك ما يحتمل أن تصبه الأمطار والفيضات على جانبي النهر من توسيع الوادى، وخاصة إذا كانت الصخور رخوة أمكنك أن تصورك كيف ينسى الأنهار الصغيرة أن تنحط لها وديانا عريضة منبسطة.

دورة التحات



(شكل ٣٢)
(أ) هضبة حديثة (ب) الهضبة بعد التآكل،
(ج) السهل المنحوت.

تتشقق الهضبة الحديثة إذا انساب فيها الأنهار، فتتحول إلى وديان تفصلها الجبال المنخفضة، ثم لا تزال الأنهار تنحط في منحور هذه الجبال حتى تأتي على آخرها فتعود الهضبة مسطحا واحدا مستويا كما بدأت، ويسمى هذا النوع من السهل (سهلا منحوتا) وهو يصدر عادة انحدارا خفيفا فجاء الساحل، ويبين شكل ٣٢ دورة التحات في درجاتها الثلاث.

سرعة الجريان وشدة التحات

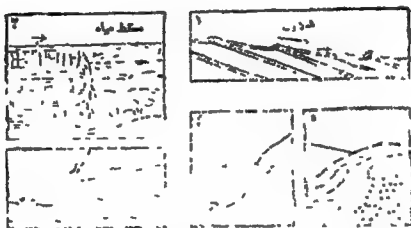
كلما كان التيار شديدا ازداد فعل النهر في التعرية، وازداد تحات الصخور، لذلك نجد منحرا عظيما في الصخور عند المنابع، حيث يكون الانحدار شديدا والجري حديشا، إذ تمزق كتل صخرية فيجرفها الماء، وتلاطم فتفتت وتحتك بعضها ببعض والجري، وقد ترقد بعض الحجارة في حفرة فلا يستطيع الماء أن يخرجها منها ولكنه يقلبها على كل جانب، ويقلل سطحها، فتتكون منها الجلاميد (الزلط) المعروفة لنا، أما الحفر فتتمنى ويكون لها أشكال وعائية غائرة، ويوضح شكل ٣٣ الحفر الوعائية في حوض نهر آر بسويسرا. وهذه صورته:



(شكل ٣٣ - الحفر الوعائية في حوض نهر آر بسويسرا من أرنود الجلاميد)

مساقط المياه والشلالات

(١) بين اسوان والخرطوم ستة شلالات مشهورة ، والسبب في تكوينها وجود طبقات جرانيت صلبة تتخلل الطبقات الرخوة التي يجري عليها النهر ، فتتحات الطبقات الرخوة أكثر من الطبقات الصلبة وتظهر الشلالات على شكل منحور وجزائر فتتعرض مجرى النهر ، والجزء الأول من شكل ٣٤ يوضح ذلك .



(شكل ٣٤ - أسباب وجود الشلالات ومساقط المياه)

(٧) ومن مساقط المياه المشهورة في الدنيا مساقط مياه فكتوريا على نهر زمبيزي حيث يهوى الماء من عاق ٤٠٠ قدم ، ومساقط مياه نياجرا حيث يسقط الماء من ارتفاع ١٧٠ قدماً . والسبب في تكوين مساقط المياه وجود طبقات رخوة تحت الطبقات الصلبة ، فتتحات الطبقات السفلى بفعل الماء ، ثم تتداعى الطبقات التي فوقها بزوال دعائمها ، وهكذا يزداد عائق المسقط ويتراجع من مكانه صاعداً نحو أعلى النهر ، والجزء الثاني من شكل ٣٤ يوضح ذلك .

(٣) وقد تنشأ مساقط المياه عن وجود حيب في الطبقات يترب عليه مسقط طبيعي في المنحور .

(٤) كما تنشأ عند ملتقى سبيل مجراه أعلى من مجرى النهر الأصلي .

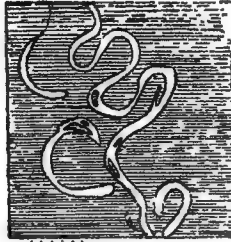
(٥) وكذا عند تغير نوع الصخور القشرة من نارية صلبة إلى رسوبية رخوة .

المنطقات والبحيرات المقطعة

في أدنى المجرى يصف إلى يارو ويدوسير النهر فيغير مجراه إذا اعترضته المنحور ، ولا يخفى أن الماء يمتد في المجرى ، ويحمل العرين ، ويتنط به ما دام اليلار سريعاً ، لكن إذا ضعف التيار تمكس الحال ويغلب الترسيب ، والنهر المستقيم يناره في القلب أعظم منه في الجانبين ، لكن تختلف هذه القاعدة مع المنطقات ، فإن التيار يتركز بالما أدته في المجرى الطاهري ، ويكون في أمف أشكاله في المنحنى الباطني ، فينشأ عن ذلك تحت ورف في الأول (حيث تكون المرتفعات عامة) ورسب ورف في الثاني (حيث تكون الأراضي الواطئة)

ولا يزال المنحسب في ازدياد حتى يستدير ويند النهر سياداً لاجتيازه أخيراً في اتجاهه . يتجم ، فيترك بحيرة

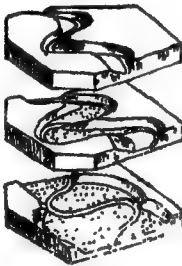
مقتطعة على شكل الحلال . وفي شكل ٣٥ منطقات السبسي الأدنى والبصيرات المقتطعة . وهذه صورته



(شكل ٣٥)

منطقات نهر السبسي في أدنى مجراه

سهل الفيضان



(شكل ٣٦)

تكوين سهل الفيضان

استقرن من القرن الأصغر بلاد الصين ، وقد تملأ هذا النهر الأخير على جموده صهارا فيجر مجراه ، وسبب السكارت . وقد ملأه أنهارا من البحر ، الأصغر الى خليج قبشيل .

ومشأ ميدان النيل من لأطوال الموسعة التي تسقط على الحفشة في الصيف ، ويظهر الفيضان في مصر بوضوح في شهر سبتمبر . يجب أن الأراضي الزراعية في مصر قد ارتفعت في خلال أربعة آلاف سنة الماضية أو بعده استقرت من الطبقات الغرينية التي رست في مواسم الفيضان ، لذلك تعد الآثار مطمومة في طين الى هذا الحلق . أما الأنهار التي تنبع من التلجيات مثل «السين» بفرنسا ، فموسم مصاتها أول السد عند دومان التلوج

تكوين دلتا النهر

السبسي من القرن الأصغر من القرن الأصغر ، فاما كان النهر عظيم المذوالجزر كالبحر

الأطلسي فانه لا يترك هذه الرواس تعترض النهر بل يتقلها جانبا .
ولكن الأنهار التي تصب في البحار القليلة للجزر كالبحر الأبيض المتوسط ، يرسب غرينها بمجرده وقوف التيار عند مقابلة البحر الملح ، فيتكون من ذلك سهل غريني مثل الشكل غالبا تنفذ منه مياه النهر الى البحر من عدة فروع ، وتسمى الأرض القريبة المتكونة بهذه الصفة (دلتا) أو (دالا) تقرب شيها عادة من حرف الدال ، غير أن بعض الدالات أشكالا بجمرة مثل دال المسيسيبي التي تمتد في خليج المكسيك امتدادا عجيب الشكل ، وقد يكون للنهر فروع كثيرة في الدلتا ، فمثلا نهر أوغوبوكو بأمريكا الجنوبية أكثر من خمسين فرعا ، ويجري نهر المسيسيبي كل عام ثلثائه وخمسين مليون طن من الغرين الجديد ليريد بها بناء دلتا ، واستمرار تشييد النهر في الدال يقلل أهمية التفجور الواقعة عند المصب بإبعادها عن البحر ، كما قلت أهمية دمياط ورشيد أخيرا ، وقد كانت (أدريا) مدينة رومانية عند مصب (نهر بو) ومنها اشتق اسم بحر الادرياتيكي ، وهي الآن بعيدة عن الساحل بششرين ميلا من الأراضي الغرينية .

رسم البحيرات التي تحتلها الأنهار

يصب نهر سميكي في بحيرة البريت فرسب الغرين في أولها على شكل دلتا صغيرة ، ويخرج منها بحر الحبل صافيا قليل الغرين لرسوب كثير منه في البحيرة ، وما كل ابصدرات التي تصب فيها الأنهار أن يدمجها الغرين نهائيا ، ولا يبقى عتقا إلا يجري النهر الذي يغترقها ، والبحيرات التي لا تصرف مياهها الى البحر بالأنهار مثل بحيرة (شاد) في أفريقية تكون ملححة لثقله الأملاح في غاياب الياس التي ترد إليها ، أما البحيرات التي تصرف مياهها الى البحر مثل فكتوريا (التي تصرف مياهها في النيل) فاما تكون عذبة .

هناك قالت سائده لمانده : يا أستاذ . قد طال الحديث ، ولم فصل الى إجابة دعائنا ، ولم أستفد منه إلا ان العميون تنفجر على جوانب الجبال بسبب طبقات مصمتات تمتع سرعان الماء الى أسفل فيفيض الماء فيكون عيويا ، وقد يستخرج الماء بالأعمال الصناعية ، وهكذا عرفت أن الهربويع مجراه ويتسع الوادي ، وتحوّل الحصبه الى أودية وسلاسل جبلية جعل عوامل التعرية ، بل ان الحصبات ترجع آثارا مرسهولا بذلك السبب ، وهكذا عرفت أسباب التلال ، ومسقط المياه ، والمسطحات في بعض الأنهار وهكذا سهل القيصان وأنهار الجليد وضلها ، وقالت لها : قريبا سترفين الحواب ، فاسمى نقة الحديث :

الطر والبرد والتلج

يسقط في مصر المطر ماء ، وقد يسقط معه البرد (بفتح الاء والراء) في بعض الأدوات ، فترى قطعا صغيره من الثلج الجامد كاللح الحجري ، ولكن في الأقاليم الباردة يسقط الثلج أيضا في الزحود والطر ، وخاصة في الشتاء حتى اذا ما أتى الصيف ذاب كله أو بضعه بحمد دفة السكان أو برودته .

التلجات وخط الثلج

وفي الجهات القاصية الشمالية مثل (ايسلد) و(جريلند) ، والحوه القاصية مثل (انترك كيا) لاسيل الى ذوبان الثلج في مكانه ، فهو يزيد كل عام ، وتراكم طبقاته ، ودرج بعضها في بعض مشهور منها مسطحات عظيمة من الثلج الحامد الأزرق ، سمكها يسع مائة من الأمصار ، وتسمى بالثلجات ، ولا يقتصر وجودها على الجهات الغربية من القطبين ، فان الارتماع عن سطح البحر من شأنه قص درجته الحرارة ، وان تلك صارت رموس الحبال في كثير من جهات القطب ، مسرعا بارتفاعها ، ويراكمها ،

قازا وقتت تشاهدوها من بعد تراها مكدرة بقلنسوات مفضضة من الثلج الابيض ، ومتى جاء فصل الصيف وازادت الحرارة ذاب الجزء الأسفل من هذا الغطاء الى جذ معين يسمى (خط الثلج) ، وكل ما زاد علوا عن هذا الخط دامت عليه الثلوج صيفا وشتاء .

الأنهار الجليدية

لا يمكن أن يزداد التلاجات باستمرار من غير أن يكون لها مصرف تنفذ منه ، لأن الثلوج الجديدة لا تلتصق تماما عليها من الجوف ، ومتى زادت هناك الثلوج وتراكت الطبقات الجديدة على القديمة ينزلق الثلج في فرتبة بين الجبال وينحدر لثقله ودفع غيره له ، فيصبح لسانا من الثلج ممدودا بحاج سفح الجبل ، ولا يزال هذا اللسان يتد وينطف عند كل منعطف ويزداد بطول آخرى من الجبل والبسار ، وهو ينحدر نازلا على شكل نهر جليدي كما تراه في شكل ٣٧ وهماك صورته :

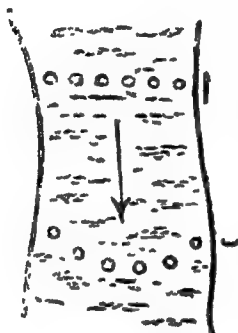


(شكل ٣٧ - صورة للفرع الأدنى من الجرف الثلجي في الورد بجالي تركا منحدر الى رأس واد من الأودية حيث يتدفق منه النهر)

المبارات الثلجية

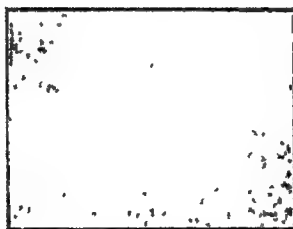
ربما لا ينصرف الثلج للتراكم في التلال المرتفعة في الوقت المناسب ، فيزيد حجمه في إحدى التواقي فينهار منه الهيار إثر الهيار ، وتكون له قطعة مربعة ، إذ يهوى وهو يتقلب ويتدحرج ، فيتلاطم ويحطم ، ويهشم ويدمر ، فلا يبقى ولا يتر ، وأهل القرى العالية يحرصون على العباب ، لتكون بينهم وبين الهيار سداً

فصل الأنهار الجليدية في التعرية



(شكل ٣٨)
زيادة سرعة النهر الجليدي في الثلج
منها في الجانيين

شكل (ركمين جانبيين) وعند ملتقى نهرين جليديين يتعد ركمان جانبيان في (ركام وسطى) ، فإذا تجمعت عدة أنهار جليدية تعدت الركمان الوسطية ، والنهر الجليدي في شكل ٣٩ للتقدم يتحدرت نحو ك بيضاء وعلى وجه الثلج بجانب كل حافة سطر من الصخور هو الركام الجانبي ، وفي الوسط ركام وسطى ناشئ من اجتماع نهرين جليديين .



(شكل ٣٩ - مثل الثلج المنصور)

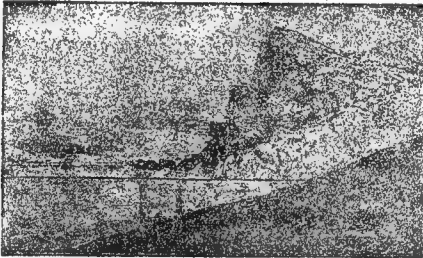
من خواص الأنهار الجليدية أنها كثيراً ما تنقطع مع الوادي من غير أن تنكسر ، وكثيراً ما تنزلق على مجار خشنة مفرسة وهي متناكسة ، وإذا تشقت فقد تلتحم بسهولة ، لكن الجاري قد تكون وعرة جداً في بعض الأحيان ، فتتشقق الأنهار الجليدية بشقوق طوالة وعرضية ، والأنهار الجليدية كالأنهار للمائية أسرع في قلبها منها في الجانبيين ، وذلك طبعاً لأن الصخور الجانبية تقوى سير الثلج ، ولذلك تنقوس الشقوق العرضية أثناء سير النهر الجليدي (انظر شكل ٣٨)

وفي أثناء هذا السير أيضاً تنهار الصخور الآيلة للسقوط من أثر الصقيع والمبارات الثلجية السابقة وتقع على حافتي النهر الجليدي فيحصلها معه على

وقد تقع الصخور في الشقوق فتصل إلى فاع النهر الجليدي فيجرفها الثلج ، ويسير بها على شكل (ركام أرضي) ، وفي أثناء ذلك يصقلها وينعت بها المجري . ويوضح شكل ٣٩ مثل الثلج المنصور . أما المسحوق للماء التي يتحات منها فيسير مع الثلج إلى (خلم النهر الجليدي) حيث ينوب الثلج ويمرر الماء العكر بداية لنهر مائي عظيم ، وعند الخلم يتجمع فتات الصخور المختلفة التي جاءت مع الركمان كلها في ركام نهائي قد نشأ عنه رابية عظيمة .

الأجناد القطبية

لا يسمع البرد القارس في أطراف الصورة من الشمال والجنوب للأجناد الجليدية بأن يؤول أمرها إلى التوبان ، فتستمر السهبا في الانزلاق حتى تصل إلى الساحل ، وهناك تنقسم منها السكتة إلى السكتة فتقع في البحر ، وتقطع على الماء حكاها جبال من الثلج : قد يكون الجزء الظاهر منها فوق الماء صنع مئات من الأمتار ، لكن باقى جرمها وهو نعمة أمثال ذلك ، يكون مخفيا تحت الماء (انظر شكل ٤٠)



(شكل ٤٠ - تتكون الأجناد من الأنهار الجليدية)

وكما ذاب منها ركن تزحج مركب قتل هذا الجند الهائل . وصار يتأيل ويتقلب ، وهو يسير مع التيارات البحرية تحفة به غيوم كثيفة ، وينشأ عنه خطر عظيم على الملاحه ، فقد دهم أحد هذه الأجناد الباخوة (تيتك) في أول سياحه لها في ابريل سنة ١٩١٢ تجده سواحل جرينلند ، وكانت عروس بواخر الدنيا . والأجناد كالأنهار الجليدية التي اشتقت منها تحمل معها ركلمات صخرية ، ومتى ذابت رسبت الصخور في قوار المحيط ، فكونت مسطحات مرتفعة يأوى إليها السمك ليقم فيها ، حيث يكون ضغط الطبقات المائية عليه أخف منه في أعماق المحيط ، وقد اشتهرت سواحل نيوزيلند بأمرىكا الشمالية ، وسواحل (هكبادو) في اليابان بكثرة مصائد السمك لهذا السبب .

فقلت (سانده) هيا بنا نذهب إلى سواحل اليابان . فقلت (مأنده) : إن العلم أحسن شيء في الوجود فأرجو أن تقي درس الصقيع والثلج بحيث تسمعين ما أمهلك للنهابة ، وبعد ذلك نسافر . فقلت حبا وكرامة يا أخنى فقلت مأنده :

عمل الصقيع في الثمرة

قد عرفت في (شكل ٢٥) المهتم كيف أن الصخور تنشق من تغير درجة الحرارة ، فإذا تنشقت الصخور فإن ماء المطر يشغل الفراغ بينها ، وإذا برد الجو يتحول الماء إلى ثلج ، وقد رأيت الثلج يطفو على الماء في القندس ، ورأيت كذلك أن الأجناد تطفو على المحيط بحيث يكون العشر فوق الماء ، وتسعة الأعشار تحته . ومعنى هذا في علم الطبيعة أن الماء عند ما يستحيل إلى ثلج يتقعد ، لأن الثلج أخف من الماء ، فالأء الذى في شقوق الصخور عند ما يتجمد يزيد حجمه فيضغط عليها ويمزقها ، وفي البلاد الباردة مثل كندا يساعد الصقيع على تزيين التربة فيوفر حرث الأرض ، وأنايب الماء في الأقطار الباردة مثل إنجلترا

تعرض أحيانا للاضطراب لشطط الثلج المتكون من الماء في داخلها

الوقت عند الساحل تلتفت نظره الأمواج بارقطامها على الشاطئ ، وتضاع إذا هاج البحر وتلاطمت الأمواج ، فينطح الموج الصخور ، فيوهتها ويقذف منها قطعاً يجرفها معه بعيداً عن الساحل ، ثم يعود بها ، فيناضل الساحل من جديد ، فأما قطع الصخور فتتفتت إلى رمال وجلاميد ، وأما صخور الساحل فتتحتل ، ومنها ما ينهار ، ومنها ما ينحرم بالثقوب والمفارات .

والمأمل في قوة الأمواج وقيلها بدور بخلاف ذكر الأبدية ويسأل هل ظل البحر يناطح الساحل طول الأبد ، ولماذا لم يأت على آخر اليابس فيدفعه عنه ، ويظهر منصرفه عليه ؟ لكن لا يلبث أن يتذكر حركات القشرة الأرضية وأثرها في بروز أراض جديدة من قرار البحر لتعيد التوازن ، والصخور اللينة أسرع تحاماً من الصخور الصلبة . ففي (شكل ٤١) مسلات طبيعية قاومت الأمواج بقيت بعد أن تحت محاطها من الصخور ، وإذا كانت الصخور التحتية رخوة وليت ونحرت فتداعت الصخور التي فوقها من تلقاء نفسها .



(شكل ٤١ - مسلات طبيعية من تحت الأمواج)

ولما إذا ملا مغاور الشاطئ ضغط الهواء فيها ، فإذا جاء دور الجزر انحصر الماء سرىما ، فانسحب الهواء وراه من شقوق المغاور ، فينداعى إلى احتمال الجذب من الصخور ، وبمرور الزمان تنحرم سقوف المغاور بالناور الطبيعية ، ثم يحين الوقت أخيراً لتداعى السقف كله وتكون فرجة في الساحل ، ومن تفاوت مقاومة الصخور للأمواج تنشأ الثمرد والردوس وتتكون تقاطيع الساحل ، وهذه التقاطيع عظيمة الأهمية في الملاحة ، فإن السفن لا يهولها اشتداد العواصف وسط المحيط ، هما غضب البحر عليها ، ولكن تنزعها الأنواء قرب الشواطئ الوعرة . والمرافق الجيدة هي التي تتوافر فيها حاية السفن من الأنواء ، ومتى وجدت المرافق الصالحة أصبح مؤكدا نشوء الثغور وتبادل التجارة . انتهى

ثم قالت (سائده) : الآن قد تم الحديث . فقالت مائده : أما الآن فقد طاب السفر ، فهيا بنا إلى سواحل بلاد اليابان لنعيش هناك تحت الجبارة ، فما قالت ذلك سائده حتى غابت السمكتان عن عيني ولم ترجعا لأهنا سافرتنا .

قال الحرث ابن همام : وما كادت السمكتان تسافران حتى استيقظت إذا طيبب السفينة وأعوام يضون السموط في أنفي والأدهان على جسمي وهم يدلكونه ، ولم تزد المدة على ثوان معدودة . قال : فعلت أنها أضفأت أحلام ، وهل لأضفأت الأحلام من تأويل ؟ فلما سمعت ذلك من الحارث بن همام هجبت من ذلك وأيقنت أنه من فتوح العزيز الرحيم ، وأنه مناسب

لهذه الآية . فوصف (مانده) لأختها (مانده) فعل الأمطار في الجبال والسمخور والأنهار وتكونها تلوجا فوق الجبال ثم رجوعها للبحر ثانيا إجابة لدعاء السلك مشابه للجانب التي أسمعا الله لها في قصة أم موسى والتابوت ووقوعه في يد فرعون وحفظه ، وفي قصة موسى وإلقائه عصاه وخروجه منها لما صارت حية ، ثم ذهاب خوفه وهكذا خوفه من القوم أن يقتلوه ، وخوفه من عصي السحرة إذ صارت حيات ، ثم نصره عليهم ، فهذه المقتنات والحكم التي نسمعا في التذييل نظير ما في هذه العوالم من عجائب البخار والبرودة التي تجعلها ماء ، ثم الهواء المسير للسحاب ، والمطر ، فإقلابه تلجا ، فترامه ، فنزله في البحر فيصير ماوى للسلك .

تباركت يا الله ، تباركت وتعاليت . لك الكبرياء يا ربنا . ولك العزة ، لك العجائب في قصص أم موسى وموسى ، ولك الإبداع في قصص المطر والهر والتنج والحجارة ، حكم أبدعت ، كيف هذا ؟ بخار يثور من البحار فيصير ماء ، فتلجا . ثم يضل هذا البخار فعلا يهجز عنه البنائون والهندسون والعمال ، فيكسر الصخور ويقطعها من الجبال ، ويعملها ، ويحرق بها ، وينزل بها في البحر ، وينبها ، وتصير ماوى للسلك عجب وألف عجب ! دينا يارب عجيبة ، علوة بالجبال ، فأنت بهذه الأعاجيب والمقتنات قبل ظهور النتيجة ذكبرياء وعزة ، وبرحمتك للسلك وأم موسى وموسى مرهب وسكيم ، وهذه الآيات في آخر سورة الجنانية لبيان ما في أولها ، لأنه بدأها بأن الكتاب نزله عز حكيم ، وهل العزة والحكمة يظهران إلا فيما يسدها من الآيات وهو ما ذكرته من السموات والأرض ، وخلق النوايا ، وإنزال المطر ، وتصريف الرياح ، وختم السورة بأنه محمود لأنه برى للسموات والأرض للذكورتين في أولها مع العزة والحكمة ، فأول السورة عزة وسكينة ، وآخرها كذلك ، وهذا المنحصر الفاتحة فإن الحمد والرحمة والهداية كلها حكمة ، وقوله : « مالك يوم الدين » وذكر المقصود عليهم والضايقين راجع للعزة . هذا هو الذي خطر لي في تفسير هذه الآية والحمد لله رب العالمين . كتب نحى يوم ٨ مارس سنة ١٩٣١ م

مذكرة

في قوله تعالى في أول السورة : وما أنزل الله من السماء من رزق إلخ مع آية : وقدر فيها أقواتها إلخ في سورة حم فصلت

لما أتممت هذه السورة جاء صاحب العالم الذي اعتاد محادثتي في هذا التفسير . فقال : لعلك نسيت ما وعدت به في سورة حم فصلت ؟ فقلت : وما الذي وعدت به ؟ فقال : ألم يقل هناك عند إضلاح آية : « ومن أيك أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اعتزت ورببت » مانسه : « وسيأتي تفصيل هذا المقام في أول سورة الجنانية فراجعوا ولتقولوا إلا على التفصيل هناك » . فها ماذا قرأت أول السورة فلم أجد أجالا ولا تفصيلا للكلام على الأغنية الثابتة المناسبة لآية : « وما أنزل الله من السماء من رزق » الآية ومقاديرها التي أشار لها الله فقال : « وقدر فيها أقواتها إلخ » . فقلت : أتذكر أنني بعد أن قلت ذلك فصلت الكلام هناك بعد نحو صفحتين . فقال : نعم ، ولكنك بهذا الوعد تعبر انتهى بقراء التفسير ، فلا يقول على ما أوعظته هناك . قلت : أتى أوعظته هناك في حقيقة ٢٣١ في الجزء التاسع عشر ، وأبنت أن الإنسان إذا كان في فراشه يموزه في اليوم ١٨٠٠ سم ، والسم معروف هناك فلا نسيده ، وإن كان في شغل شاق يموزه ٤٠٠٠ سم في اليوم ، وإن كان في شغل متوسط يموزه ٣٠٠٠ سم في اليوم أيضا . فقال : ولكن أذكياهم القراء يتطلعون الزيادة هنا . فقلت : هاك نص ما جاء في كتاب « الغذاء في الأمراض » تأليف الدكتور حسن عمر ، فقد جاء فيه تحت العنوان الآتي مانسه :

القيمة الغذائية للمأكولات

إن أهمية المأكولات موكولة بقيمتها الغذائية أى باستفيد الجسم منها، وذلك بأن يتحول الغذاء المأكل إلى حرارة في الجسم وحركة (أى إن كل الحركات التى يعملها الشخص تنشأ عن الحرارة التى تتولد من الجسم) فكل جرام من هذا النوع من الغذاء يولد حرارة جديدة بدلا من الحرارة التى استنفدها الجسم وقت حركته، ووحدة هذه الحرارة تسمى (الكالورى أو السعرة).

فالجرام الواحد من المادة الزلالية يعادل ٤ كالورى، والجرام الواحد من المادة الفعنية يعادل ٩ كالورى، والجرام الواحد من المادة النشوية يعادل ٤ كالورى.

نحن محتاجون للغذاء لتوليد الحرارة، وكلما كثرت العمل استنفد الجسم مقداراً من الحرارة يعادل العمل الجسمانى. إذن قد وجب أن تناول من الغذاء مقادير تعادل ما يتطلبه العمل من الحرارة أو أن يزيد قليلاً حتى لا يستنفد العمل كل حرارة الجسم فيظهر الضعف وإتهاك القوى، ولكل عمل جسمانى قيمة معينة من وحدات الحرارة (السعرة) يتمكن بها من القيام به خير قيام. ويجب فوق ذلك ملاحظة وزن الجسم، لأن اختلاف الأوزان يدعو إلى اختلاف الوحدات المطلوبة، مثلاً رجل وزنه ٩٥ كيلوجراماً يحتاج من الغذاء يومياً إلى ما يأتى :

الحالة	السعر اللازم للكيلوجرام فى اليوم	مجموع ما يحتاجه فى اليوم بالسعر
فى الفراش	٢٨	١٨٠٠
جالس	٣٢	٢١٠٠
شغل بسيط	٣٣	٢٣٠٠ — ٢٥٠٠
شغل متوسط	٤٠	٢٩٠٠ — ٣٠٠٠
شغل صعب	٤٨	٣١٠٠ — ٤٠٠٠

أما إذا كان العمل شاقاً فإن قيمة الغذاء تختلف باختلاف ما يتطلبه العمل من مجهود جسمانى، فمثلاً عمل الفلاح ليس كعمل البناء ولا التجار، إذ كل عامل منهم يحتاج إلى قيمة غذائية معينة حتى يتمكن القيام بالعمل على الوجه الأصح، وهالك جنوداً يختلف الحرف وما يحتاجه من سعر يومياً :

أعمال عادية

الصنعة	السعر المحتاج له يومياً
الجزيجى	٢٤٠٠
الغزال	٢٧٠٠
التجار — البناء	٣٧٠٠
القناصل — القلابى	٤٠٠٠
القلاح (أيام العرق والحرق والحصاد)	٤١٠٠
الساحى (راكب البراجية)	٥٠٠٠
السيدة (شغل بسيط)	٢٤٠٠

أعمال فنية

السعر المحتاج له يوميا

٢٦٠٠

الصنعة

الطبيب

٢٧٠٠

قاضي - مهندس ورسام

٢٨٠٠

أستاذ الجامعة - كاتب

٣٢٠٠

معلم - مدرّس - تاجر

٢٥٠٠

تلميذ ابتدائي مصري (داخلية)

٢٩٠٠

تلميذ ثانوي مصري (داخلية)

٣٦٠٠

طالب بمدرسة الفنون والصنائع المصرية (داخلية)

٣٧٠٠

طالب بالزراعة العليا (داخلية)

٣٥٨٠

طالب بالقسم العالي الأمريكي

٦٥٠٠

طالب شت الحبل ولاعب كرة القدم (أمريكي)

٢٢٠٠

المسكرو الانجليزى (في السلم)

٢٧٠٠

» الألماني »

٢٧٠٠

» المصري »

٣٤٠٠

» الاسباني »

٣٧٠٠

» الأمريكي »

٤١٠٠

» الايطالي »

٤٠٠٠

» الفرنسي في الحرب »

وقال في صحيفة ٥١ وما بعدها ما نصه : « ولكل صمم قدرة معينة ويزانية خاصة للاستفادة من خليط الغذاء الذى تأكله ، فما زاد عن حاجة الجسم إما أن يتخزن ، ولما أن يخرج ككافوايات تالفة صديمة النفع للجسم ، وأهم علاج هذه الحالات هو تنظيم مقادير الأكل وأنواعها ، وقد قام رجال عتة بهذه الأبحاث ، وفتروا ما يجب أن يؤكل من المواد الزلالية والشوية والدهنية بمقادير معينة تفيد حالة الجسم ولا تزيد مابه من من دهن ، وأهمها هي :

اسم الاستاذ	زلال	نشا	دهن	السعر
بالتج	بالحرام	بالحرام	بالحرام	بالحرام
١١٨٠	٢٥	٧٥	١٥٦	أورتل
١١١٦	١٢	١٠٠	٢٠٠	كشن
١٣٠٠	٨٥	٤٧	١٠٢	ابنتين
١١٠٠	٥	٨١	١٧٢	١١٠٠
١٠٠٠	٤١	٥٠	١٠٠	١٠٠٠
١٣٦٦	٢٨	١١٢	١٥٥	١٣٦٦

هذه هي المقادير التي يجب اتباعها في علاج السمنة مع ملاحظة القرينات الرياضية ، وعلاج ماسبته السمنة في الجسم كالأسكرى والأمراض الجلدية الأخرى وصب الشرايين وضمف القلب ، وكذلك معالجة العدة الدرقية أو أى غدة أخرى ذات إفراز داخلى يكون لها ينفى هذه السمنة . انتهى ما أردته من الكتاب المذكور فلما سمع صاحبى ذلك - قال : لوعرها تحليل الأغذية لكان ذلك نفعا عظيما . قلت : قدّم في سورة (فصلت) جارج إليه ، فاطلع عليه ففرح وقال الحمد لله رب العالمين . انتهى تفسير سورة الجاثية

تفسير سورة الأحقاف

(هي مكية)

إلا ثلاث آيات ، وهي قوله تعالى : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم » وقوله : « أولئك الذين تقبل عنهم أحسن ما عملوا وتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون » وقوله : « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون » فغنية

آياتها ٣٥ - نزلت بعد الجاثية

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

حَمْ * نَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنَوِّى بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنَا زَعِي مِنْ عِلْمِهِمْ أَنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَمَنْ أَسْأَلُ يَمُنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَنْصِبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِسَادَتِهِمْ كَافِرِينَ * وَإِذَا نُفِثَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَنكِاسَ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنْ أَفْئِئَتِي شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قُلْ مَا كُنتُ بِدَاعٍ مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدرِي بِمَا تُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ قَامَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ * وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ * إِنْ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا

فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ * وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَتَّىٰ تَحْتُمَ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعْتَهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ
وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ
إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ تَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ
فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ * وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفِ لَكُمْ
أَتَعِدَانِي أَنْ أَخْرُجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَمَا يَسْتَفْهِمَانِ أَفَهُ وَبَلَكَ وَامِنْ إِنَّ وَعْدَ
اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّهِمْ قَدْ
خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ * وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ بِمَا عَمِلُوا
وَلِيُوفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَهُمْ
مُلْكًا يَكُونُ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُعْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ
تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِمَنْزِلِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ * وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ
قَوْمَهُ بِالْأَخْفَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَتَّبِعُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ
عَذَابَكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا أَجِئْنَا لِنُؤْفِكَ عَنْ وَالِهِنَا قَاتِنًا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ
مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ عَنِ اللَّهِ وَأُبَاطِلُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا
يَتَجَلَّوْنَ * فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا
اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا
مَسَاجِدُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيمَا إِنْ مَكَنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا
لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ
كَانُوا يَتَحَدَّوْنَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا
كَانَ لَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا
مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ * وَإِذْ صَرَّفْنَا

إِلَيْكَ نَقَرًا مِنْ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْنَا مُصَدَقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ مِنْ عَذَابِ آلِيمٍ * وَمَنْ لَا يُجِبِ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَتَّخِذْ لِنَفْسِهِ أَجْدَادًا عَلَى أَنْ يُخْفِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبُّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * فَأَصْبَحَ كَمَا صَبَرَ أُولَاؤُا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ .

هذه السورة قسمان

(القسم الأول) في تفسير البسملة

(القسم الثاني) في تقسيم السورة

القسم الاول في تفسير البسملة

تجلت الرحمة في هذه السورة بما ابتدئ بها من ضروب الحكمة ، وفنون العلم ، وأزاهير النظام الاجتماعي فبينما تراها مبدوءة بوصف الكتاب بالعزة والحكمة ، ومخومة بالتوصية بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل إذا نحن نرى القوم مغاطيين بانهار الأدلة على تلك الآلهة التي عبدوها ، والأمنام التي أقاموها ، موبخين على ما اقترفوا من إثم التمس بالسحر ، مقامة لهم الأدلة على صدق النبوة التي ليست بدعا بأن بعض بني اسرائيل صدقوها وآمنوا بها وهم أعلم منهم ، وقد تبع ذلك استهجان ما يعرف به من أن الفضل خاص بهم فكيف يتمداهم الى غيرهم ؟ فلو كان القرآن كذلك لكانوا هم أول به ، وتلاه الاشارة بلح الذي حفظ وصية الله في والديه فبرهما وأطاع ربه ، والتهلن عصى الله والديه ، ثم أتى بالقاعدة العتقة التي بها نظام الدول والممالك والأسرات والامارات ، وهي أن الانهماك في المذات والشهوات ، والاسراف في اخلاق الأموال والمخروج عن حد الاعتدال في الطعام والشراب . كل ذلك مورت لملاك الأم ، وضيع للعزل والأفراد ، والوقوع في الأمراض والخزى في الحياة الدنيا ، وضرب لذلك مثلا لعاد الذين أرسل لهم هود ، فانهم كذبوا واستكبروا فهلكوا فأقرل الله بهم العقاب في هذه الدنيا ، وسببته عقاب الآخرة ، وهذه أمة عربية في بلاد حضرموت وهي الأحقاف ، وهم أقرب الى الأمة العربية ، المنزل الكتاب بلسانها ، وهذا كان في الحقيقة ذكرى لأمة الاسلام التي جاءت بعد نزول القرآن ، فبالث شرى : أى رحمة ، وأتى نعمة على مسلمي زماننا هذا من

أن يتذكروا محلّ - بالآمة الأموية والصاعدة للممالك السلجوقية والفاطمية والتركبة والملكة الأندلسية من ذهاب مجدهم ، وأقول شمسهم ، وغروب سدهم ، وبزوغ نجمهم ، وظهور ذلهم وهذابهم في الحياة الدنيا لما استكبروا في الأرض بغير الحق ، وقطنوا في ضروب الملاحى ، واتبعوا الشهوات ، وأسرفوا في كل ضرب من ضروب الحياة فذهبت ربحهم وخسر عليهم السقف من فوقهم ، أليس كل هذا هو المأثر به القرآن وحذر بذكر عاد ، وأنهم أذهبوا طيبتهم في حياتهم الدنيا ، فعذبوا فيها بذاب الخزي ، وسيعب ذلك عذاب الآخرة ، وسيأتى مقدار ما أسرفت أعما السابعة ، حتى علينا القول ، فهذا عذاب من الرحمن ، فأنه عز وجل عذب الأم الإسلامية عذابا شيعته الرحمة ، وهل الرحمة هنا إلا أن نجتنب نحن ماضيه أكبوها من التقاتل في تبذير المال ، واقتناء الجوارى الآلى يلفظ اللثام كاستراء وأنصا في هذه السورة ، وأن نسير على منوال الخلفاء الراشدين في نظام حياتهم فتكون لنا السعادة في الدنيا والآخرة ، لهذا جاء القرآن ، وهذه الذكرى كان هذا التفسير ، ثم إن الإيمان بالكتاب لم يقتصر من غير العرب على اليهود بل تعداهم إلى الجن فلهذا نبذ من جماع علوم هذه السورة ، وهى مما تضمنته الرحمة المذكورة في البسطة . انتهى الكلام على القسم الأول في تفسير البسطة . كتب يوم السبت ١٨ يوليو سنة ١٩٣١ م ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثانى فى تقسيم السورة

هذه السورة ستة مقاصد

﴿ المقصد الأول ﴾ فى التوحيد من أولها الى قوله : « بعبادتهم كافرين »

﴿ المقصد الثانى ﴾ فى المعارضات التى ابتدئها الكفار للنبوّة ، والاجابة عليها ، والبراهين على فسادها ،

من قوله : « واذا تتلى عليهم آياتنا بينات » الى قوله : « وبشرى للحسنين »

﴿ المقصد الثالث ﴾ فى أهل الاستقامة الذين وصلوا وصدقوا بالنبوّة ، وأن جزاءهم الجنة ، وذكر بعض

وصايا تتعلق بالمؤمنين من اكرام الوالدين ، وذكر المحاورات بين الوالدين والمولودين ، وبين ما يرضى الله فى

ذلك ، وذكر من صرفوا الحياة الدنيا فى اللذات والشهوات ، وأذهبوا طيبتهم فى شهواتهم ، من قوله تعالى

« إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » الى قوله : « بما كنتم تكفرون »

﴿ المقصد الرابع ﴾ فى ذكر عاد والاستدلال بمآل بهم بعد العظمة والجلال ، على أن صرف الطيبات

والنعم فى غير عملها يورث الهلاك فى البارين ، نهى كالاستدلال على ما قبلها ، وفى ذكر الأمم التى هلكت

بالقرب من مكة كعمود وقوم لوط ، وأن هؤلاء لم تنفعهم الشركاء التى ابتدعوها ، وذلك من قوله : « واذا كر

أنا عاد » الى قوله : « وما كانوا يخشون » .

﴿ المقصد الخامس ﴾ فى استماع الجن لرسول الله ﷺ وأنهم بلغوا قومهم ، وذكروا فى الاستدلال

ما يناسب أول السورة من أن القرآن مصدق لكتاب موسى وغيره ، وما يتبع ذلك ، من قوله : « واذا صرفنا

إليك نقرا من الجن » الى قوله : « بما كنتم تكفرون » .

﴿ المقصد السادس ﴾ عظة للجنّ ﷺ والمجاهدين من أمته ، وهى ختام السورة ، وذلك بالصبر كما صبر

أولو العزم من قوله : « فاصبر كما صبر أولو العزم » الى آخر السورة .



للقصد الأول

﴿ التفسير اللفظي ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(حم) تقدم الكلام عليها في السور السابقة ، وأيضاً تذكير بالجد المتقنم في آخر السورة السابقة إذ قال الله تعالى : « فته الجد رب السموات ورب الأرض رب العالمين » . ثم أتبعه ببيان أن الكبرياء في السموات والأرض مختص به ، إذ ظهرت آثار كبريائه وعظمته فيهما ، وأردفه بأداة أنه قاهر غالب حكيم فيما قدره وقضاه ، هذا ملخص آخر السورة السابقة ، وجاء في أول هذه السورة ذكر الرحمة في « بسم الله الرحمن الرحيم » كأنه يقول : « إن كبريائي وعزتي وحكمتي مصحوبات بالرحمة ، فكل ما قهرته من هذا الوجود وغلبته وحكمت عليه ، فأما ذلك بحكمة نعمة ، ورحمة عامة وخاصة » ثم قال « حم » أي أن من فضل ذلك يجب أن يحمد فاحسنه ، وهذا كالنتيجة للفتنات السابقة المذكورة بمدقوله « فته الجد » ، فكأنه استدل على اختصاص الجد به بما تقدم ، وختم الاستدلال بالنتيجة ، وهي أنه يجب حده بقوله « حم » وبهذا البيان صارت هذه السورة ومقابلها في نعت واحد ، وسلك منتظم ، ونسق واحد ، لا تغيير فيه ، ولذلك ترى ذكر العزة والحكمة هنا كما ذكرنا في آخر السورة .

يقول الله : الكبرياء لي في السموات والأرض ، وأنا الغالب القاهر ، الحكم لعملي ، المتقن لسنن في السموات والأرض ، وفي تنزيل القرآن ، فإذا أما قهرت المادّة وأحكمتها ، فهكذا فعل في القرآن أقهر من لا يؤمن به فأتقن منه ، وقد أنزلته بحكمة ، ففعل بحكمة وقول بحكمة ، إن (ال حم) أولها وآخرها ملتبان بالجد ، فأول (ال حم) مسبوق بالجد وآخرها كذلك ، فهذه السور فيها لقام المحمود ، والقام المحمود مبناه العلم . ثم قال تعالى (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) « ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى » أي خلقنا ملتباناً بالعدل وهو ما قضيه الحكمة والعدالة ، وبقدير أجل مسمى لكل مخلوق ينتهي إليه أجله ، ومدة بقائه ، فلا نبات ، ولا حيوان ، ولا إنسان ، ولا جبل ، ولا كوكب ، ولا جامداً ، ولا سائلاً إلا لها آجال تنتهي إليها ، وهذا معلوم مشاهد . يقول الله : إن خلق السموات والأرض وخلق ما بينهما مصحوب بالحق ، قائم بالعدل والنظام ، ومن النظام أن تكون الأجل معلومة مقترنة لكل نوع ولكل فرد ولكل كوكب ولكل شمس ولكل روح ، وهذا مشاهد معلوم ، فإن النظام يعلمه الحكماء ، وهكذا الأجل معلومة لله والناس يرون أنه لا موجود في هذا العالم دائم ، وإذا كان الأمر كذلك فليكن ذلك دليلاً اقتناعياً أن هذه العوالم كلها ، حقيرها وجليلها ، يوماً يكون موعداً للجميع ، وهو يوم القيامة ، وهذا يفيد النظام ، إذ النظام يقتضي أن يكون هذا العالم غايةً وحكمة ، وأن لا يستوى الحسن والسيئ (والذين كفروا عما أنذروا) أي عما أنذروهم من هول ذلك اليوم القبيح لا بد لكل مخلوق من الانتهاء إليه (معرضون) لا يؤمنون به ، ولا يستمعون له ، ولا يفكرون فيه ، فلا الكتاب المنزل وإنذاره اعتبروا ، ولا بما يشاهدون في العالم من النظام والحكمة فكروا ، فهم قاصرون سمعاً وبصراً ، فلا هم يسبح الوحي متظنون ، ولا بالنظر في العالم المشاهد يتذكرون (قل أرايتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات) اتسوى بكتاب من قبل هذا أو آثاره من علم إن كنتم صادقين) أي أجبروني عن حال آلهنكم بعد تأمل في خلق السموات والأرض وما بينهما ، والنظام الشامل لهما ، والحكمة الشائرة على نظام واحد فيهما ، وبعد تأمل في حال آلهنكم هل يقل أن يكون لها مدخل في خلق شيء من أجزاء هذا العالم فقتضى به العبادة

ولو كان لها دخل لظهر في هيئة المخلوقات وصار هناك تفاوت بين أجزاء النظم ، ولكن نظام العالم واحد يستمد أدناه من أعلاه ، فكأنه حيوان واحد ، أو إنسان واحد ، حتى إن كل كوكب أو مجموعة كواكب من الثوابت تفيد أهل الأرض علما بغير سفهم ، وسير قواظهم في البحر والبر ، فكل النظام مرتبط ببعضه ببعض ، وكأن كل فرد واحد مخدوم بجميع الأفراد في الأرض ، وكأن كل كوكب يخضعه سائر الكواكب على نحو ما وهيئة ما ، فلو كان هناك شركاء لاختلف النظم ، ولأختل اختلالا مينا ، وهذا هو قوله تعالى : « أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات » ثم طلب منهم أن يؤثروا بدليل على هذا الشرك المذمى بكتاب موسى به من قبل القرآن « أو آثارة من علم » أي بقية من علم بقيت عليهم من علوم الأولين هل فيها ما يدل على استحقاق العبادة لمولاه الأصنام ، ومعلوم أن الدليل إما من الوحي ، وإما من العقل ، فأما الوحي فأين الكتاب قبل القرآن لقدى فيه أنهم شركاء ، وأما العقل فأين بقية علوم العلماء للكهنة في خلق السموات والأرض ، ومعلوم أنهم قد أبقوا برحلة النظام ، فلفاسفة مجمعون على حسن النظام وحدته ، والوحي جاء بالتحديد ، فهذا قوله : « قل أرايتم » إلى قوله : « إن كنتم صادقين » لأن الصدق في الدعوى بالبراهين ، والبرهان هنا جاء على ضد ما زعموا فليسوا بصادقين ، ثم بين ضلالهم . فقال : (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له) يعني الأصنام لا تجيب عابديها إلى شيء يسألونها (إلى يوم القيامة) فهي لا تجيب أبدا مادامت الدنيا (وهم عن دعايتهم غافلون) فهم إما جادات ، وإما عباد مستخرون مشتغلون بأحوالهم (وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء) يضرونهم ولا ينفعونهم (وكانوا بعبادتهم كافرين) مكذبين ، إما بلسان الحال ، وإما بلسان المقال . انتهى تفسير المقصد الأول من السورة .

المقصد الثاني

وهو الذي فيه ذكر معارضة النبوة والجابة عليها

قال تعالى (وإذا تلى عليهم آياتنا بينات) وانجملت ، أو مبینات (قال الذين كفروا للحق) أي لأجله وفي شأنه ، والحق المراد به الآيات المذكورة ، والذين كفروا هم المتلوق عليهم ، وذلك لتسجيل الحق على الآيات والكفر عليهم لشدة انهماكهم في الضلالة (لما جاءهم) أي بآيهم فجاءهم ساعة أتاهم وأول ماسمعوهم من غير نظر ولا فكر (هذا سحريين) ظاهر أمره في البطلان ، ثم أضرب عن ذكر تسميتهم الآيات سحرا إلى ذكر قولهم إن النبي ﷺ افتراء واختلقه وأسندته إلى الله كذبا . فقال : (أم يقولون افتراء) أي بل يقولون (قل) يا محمد (إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا) أي لا تهدرون أن تردوا حتى عذابه إن عذبي على افتراءي فكيف أفتري على الله من أجلكم (هو أعلم بما تفيضون فيه) تندفون فيه من القدر في آياته والتكذيب وقولكم أنه سحر (كفى به شهيدا بيني وبينكم) يشهد لي بالصدق وأن القرآن من عنده ويشهد عليكم بالانكار والكذب ، وهذا وعيد لهم على افتراءهم في القرآن (وهو العفور الرحيم) لمن تلب وآمن منهم ، وهذا فتح لباب الرحمة ليؤمنوا بعد الإنذار السابق بالكفر (قل ما كنت بدعا من الرسل) بدعا منهم أدمعوكم إلى ما لا يدعون إليه ، ولقد سبقني كثير من الأنبياء وأما أدمعوكم عنهم فكيف تنكرون نبوتي ، أما كنت بدعا من الرسل أفتر على ما لم يقدروا عليه وهو أنهم يأتون بكل ما يفترون عليهم . كلا . وإنما ذلك بإذن الله ، فليس لي من الأمر شيء ، ويؤيد هذا المعنى قوله (وما أدرى ما يفعل بي ولا بكم) في الباريين تضيلا ، فما الغيب إلا الله (إن أتبع إلا ما يوحى إلي) لا أتجاوز به (وما أنا إلا نذير) من عقاب الله (سين) بين الإنذار بالشواهد المينة والمجرات الصادقة ، فليست تتجاوز ذلك إلى الأخبار الغيب عما يقرحه

المشركون ، أو أخبر بأمرى وأمر أصحابي ، أترك في مكاني أم أخرج أنا وهم الى أرض ذات نخل كما رأيت في منامي ، فليست أعلم بتفصيل شيء من ذلك كله (قل أرايتم ان كان القرآن (من عند الله وكفرتم به) وقوله (وشهد شاهد من بني اسرائيل) وهو عبد الله بن سلام (على مثله) أي على نحو ذلك وهو كونه من عند الله (فأمن واستكبرتم) هذه الجملة كلها عطف على جملة « كان من عند الله » الخ وجواب الشرط محذوف ، أي أستم ظالمين ، ويدل عليه قوله (إن الله لا يهدي القوم الظالمين) . يقول تعالى : أخبروني ان اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به ، واجتمع شهادة أعلم بني اسرائيل على نزول مثله مع استكباركم عنه وعن الاء ان به ، أستم أضل الناس وأظلمهم ؟ (وقال الذين كفروا الذين آمنوا) لأجلهم (لو كان) الايمان (خيرا ماسبقونا اليه) وهم سقلا فقرأه مثل عمار وصهيب وابن مسعود من العرب ، ومثل عبادة بن سلام من اليهود (ر) ظهر عندهم (إذ لم يهتدوا به) وهذا سبب في افتراءهم إذ يقولون انه إلهك قديم ، وهذا هو قوله (فيقولون هذا إلهك قديم) وكيف يكون إلهك قديما (ومن قبله) أي القرآن (كتاب موسى) وهو التوراة حال كونه (إلهما ورحمة وهذا) القرآن (كتاب مصدق) لكتاب موسى وغيره فكيف يكون إلهك قديما ، إذن هو صدق قديم لإلهك حال كون الكتاب (لسانا عربيا) والتوراة عبري فمصدق الأول للثاني دليل على اتحادهما صدقا واتحادا مع ما قبله أوكد في الصدق ، فبطل كونه إلهك قديما وثبت الصدق القديم ، وقوله (لينذر) أي لينخوف متعلق بقوله « مصدق » (الذين ظلموا) أشركوا (و بشرى للحسين) أي للاذكار واللبشارة . انتهى المقصد الثاني .

المقصد الثالث

في أهل الاستقامة الذين وحدوا وصدقوا بالنبوة ، وأن جزاءهم الجنة ، وذكر بعض وصايا تتعلق بالمؤمنين من أكرام الوالدين ، وذكر المحاورات بين الوالدين والمولودين التي استقرت عندها قال تعالى : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) جمعوا بين فضيلتي العلم والعمل التي هوتيجة العلم التي هو أشرف منه ، فلذلك قدم عليه (فلاخوف عليهم) عما يلحقهم في المستقبل (ولاهم يحزون) على فوات محبوب (أو لك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون) من التحلية بالعلم والعمل ، وجزاء مصدراى جزوا جزاء الخ (وصينا الانسان بوالديه) أي ومبناه بأن يحسن بوالديه (احسانا) أو وصناها بوالديه أصرا ذا حسن أي بأمر ذي حسن ، فهو يدل اشتغال من قوله « بوالديه » وفيه قرآنان كما عرفت ثم ذكر سبب هذه التوصية ، ونص الكلام بالأمر لأنها أضعف وأولى بالرعاية وفضلها أعظم (جلته أنه كرها) أي جلاذا كره (ووضعت كرها) وهو المشقة فيها (وجله وفضله) أي ومدة جلته وفضله أي فضله (كلاون شهرا) وفي أثناء ذلك تكابد أمه الآلام في الترية ، ويؤخذ منه أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لأننا نعتبر مدة الارضاع حولين كاملين قوله تعالى : « حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة » فلم يبق للحمل إلا ستة أشهر ، وبذلك يعرف أقل الحمل وأكثر الرضاع تحقق حكم النسب والرضاع * وروى عن ابن عباس أنه قال : « اذا حلت المرأة تسعة أشهر أرضعت أحدا وعشرين شهرا ، واذا حلت ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهرا » ، (حتى اذا بلغ أشده) جمع شدة عديبيه وهو جع لا واحد له من لفظه عند غيره ، أي حتى اذا اكتمل واستوفى السن التي تستحكم فيها قوته وعقله ، وذلك فيما بين الثلاثين والأربعين ، وقوله (وبلغ أربعين سنة) بيان لهاية تلك المدة (قال رب أوزعني) ألهمني (أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي) من النسيب والاسلام (وأن أعمل صالحا رضاه وأصلح لي في ذريتي) أي واجعل لي الصلاح ساريا في ذريتي راسخا فيهم (إني تبت اليك) عما لا رضاه ، أو عما يشغل عنك (وإني من المسلمين)

الخلصين لك (أولئك الذين تقبل عنهم أحسن ما عملوا) أى أعمالهم الصالحة التى عملوها فى الدنيا فالأحسن بمعنى الحسن فيثيبهم عليها (وتجاوز عن سيئاتهم) فلا تؤاخذهم بها لتوبتهم حال كونهم (فى أصحاب الجنة) أى مع أصحاب الجنة ، ولما كان قوله «تتجوز» . «وتتجوز» وعدا لهم أكدته فقال : (وعد الصدق الذى كانوا يوعدون) فى الدنيا . وهذه الآية تنطبق على سعد بن أبى وقاص وعلى أبى بكر الصديق الذين قيل فى كل منهما أنها زالت فيه وتنطبق على كل مؤمن ، فهو موصوف بالديه وأمه حلت ووضعت كرها ، وأرضعت حولين ، وهو مأموران يشكرنعمة الله عليه ، وعلى والديه ، وأن يعمل صالحا ، وأن يسى فى إصلاح ذريته . كل ذلك بالجنة فيه ودعاء الله أن يورثه له ، فهذا له الجنة ، وأما من اتصف بضد ذلك ، فهو من يأتى وصفه ، وهو : (والذى قال لوالديه) إذ دعوا إلى الإيمان بالله والاقرار بالبعث بعد الموت ، وهو مبتدأ خبره ماسياى : «أولئك الذين حق عليهم القول الخ» وهذا القائل يتم كل كافر عاقى لوالديه مكذب بالبعث ، وليس خلاصا بعد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنه ، إن صح أنها زالت فيه قبل إسلامه ، ومقول القول (أن) وهى كلمة للتضجر كما أن كلمة «حسن» للتوبيخ ، وهذا التأنيف كائن (لكما) خاصة ، ولأجلكما دون غيركما (أعدائى أن أخرج) أبث (وقد خلت القرون من قبلى) فلم يرجع واحد منهم (وهما يستغيثان الله) يقولان الغياث بالله منك ، أو يسألاه أن يغثه بالتوفيق للإيمان حال كونهما يقولان له (وبك) وهو دعاء بالتبوء ، والمراد به الحض على الإيمان لاحقيقة الحلاك (آمن) بالله والبعث (إن وعد الله) بالبعث (حق) فيقول لهما (ما هذا إلا أساطير الأولين) أولئك الذين حق عليهم القول أى «لأملأن جهنم الخ» (فى أم) فى جهة أم (قد خلت) مضت (من قبلهم من الجن والإنس انهم كانوا خاسرين) (ولكل) من الأبرار والفجار المذكورين فى هذا المقام (درجات بما عملوا) أى منازل وممرات من جزاء ما عملوا (وليوفهم أعمالهم) أى جزاءها (وهم لا يظنون) بنقص فى ثواب ، أو زيادة فى عقاب (ويوم يعرض الذين كفروا على النار) أى يعذبون فيها من قولهم : عرض بنوفلان على السيف إذا قتلا به ، ويوم متعلق بضعل محذوف أى يقال لهم (أذهبتم طياتكم) لقد أذكم (فى حياتكم الدنيا) باستيفائها (واستمتم بها) غاببق لكم منها شيء (قال يوم تجزون عذاب الهون) أى الهوان (بما كنتم تستكبرون) فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تهتكون) أى باستكباركم الباطل وفسحكم . انتهى المقصد الثالث .

للمقصد الرابع

قال تعالى : (واذكروا عاد) أى هودا (إذ أضرقومه بالأحقاف) جمع حقف ، وهورمل مستطيل مرتفع فيه انحناء ، من أحقوقف الشيء إذا انحوج ، وهو واد بين عمان ومهرة ، وقيل كانت منازل عاد باليمن فى حضرموت بموضع يقال له مهرة ، وكانوا أهل عمل سيرة فى الربيع فاذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم ، وكانوا من قبيلة إرم ، وسيأتى إيضاح هذا المقام إيضا تاما ، ثم قال تعالى (وقد خلت النفر) الرسل جمع نذير أى المنذر (من بين يديه ومن خلفه) قبل هود وبعده (آلا تعبدوا إلا الله) أى لاتعبدوا ، أو بالآتعبدوا (إلى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) هائل بسبب شرككم (قالوا أجبنا لنأفكنا لتصرفنا عن آلمتنا) عن عبادتها (فأتانا بما تعدنا) من العذاب على الشرك (إن كنت من الصادقين) فى وعدك (قال إنما العلم عند الله) لاهل لى بوقت عذابكم (وأبلغكم ما أرسلت به) إليكم (ولكنى أراكم قوما تجهلون) لاتعلمون أن الرسل بعثوا منذرين ، فلا تترسون ، ولا يسألون غير ما أذن لهم (فلما رأوه عارضا) حال كونه سبحانه عرض فى أفق من السماء (مستقبل أوديتهم) متوجها إليها (قالوا هذا عارض ممطرنا) أى يأتينا بالمطر قال هود : (بل هو ما اتهمكم به) من العذاب ، ثم فسره قائل : (ربح فيها عذاب أليم) بتدركل شيء) نهلك من نفوس عاد وأموالهم الكثيرة (بأمر ربها) رب الربح (فأصبحوا لاترى إلا مساكنهم) أى

جأهم الرج فدمرتهم ، فصاروا بعد الملاك لا يرى إلا آثار مساكنهم ، لأن الرج لم يبق منها إلا الآثار والمساكن معلقة (كذلك تجزى القوم للجورين) وذلك تخويف لأهل مكة (ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه) أى فى الذى ما مكناكم فيه ، فهم كانوا أكثر منكم عددا وأشد قوة (وجعلناهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة) ليعرفوا نعمنا عليهم ويشكروها (فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شئ) من الاغناء وهو القليل ، وقوله : (إذ كانوا يجحدون بآيات الله) الظرف منصوب بما أغنى ، وهو يجزى مجزى التحليل تقول ضربته حيث أساء ، أولد أساء ، تريد تخصيص الوقت بالضرب لوجود الاساءة فيه ، وقد غلب هذا فى إذ وحيث ، ومنه ما يجزى فى أحكام القضاء بمصر إذ يقال حيث حصل كذا ، وحيث حصل كذا حكماً بكذا ، فثبت متعلق بحكمنا فى معنى التحليل (وحاق بهم) زل بهم (ما كانوا يستهزئون) أى جزاء استهزأهم ، هكذا ستكون حالكم يا أهل مكة ، ثم أخذ يذكر أهل مكة فقال (ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى) كجبرئيل وقرى قوم لوط (وصرفنا الآيات) كترنا عليهم الحجج ، وأنواع العبر (لعلهم يرجعون) عن الطغيان الى الإيمان فلم يرجعوا (فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة) أى هلا منعمهم من إهلاك آلهتهم الذين يقتربون بهم الى الله حيث قالوا : هؤلاء شفعائنا عند الله ، وقوله : « اتخذوا » أى اتخذوهم ، وآلهة مفعل ثان ، وقربانا حال (بل ضلوا عنهم) غابوا عن نصرتهم (وذلك إفسكهم وما كانوا يفترون) أى وامتناع نصره آلهتهم وضلالهم عنهم أثر إفسكهم الذى هو اتخذهم إياها آلهة ، وثمرة شركهم وافترائهم على الله الكذب . انتهى المقصد الرابع .

المقصد الخامس

اعلم أن بعض علمائنا يقولون : « إن الجن فرق وملل كآهل الأرض من الإنس ، فبينهم اليهود والنصارى والمجوس ، وعبداء الأوثان ، وفى المسلمين منهم المبتدعة ، ومن يقول بالقدر ، وبخلق القرآن ، وأجمع علمائنا المحققون أنهم مكفون »
وسئل ابن عباس : هل للجن ثواب ؟ قال نعم ، لهم ثواب وعظيم عقاب .

كيف كانوا يسمعون قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم

- (١) يقال إن الجن كانت تسترق السمع ، فلما حرس السماء هجروا ودهشوا ، وأرسلوا سبعة نفر ، أوتسعة من أشرف جن نصيبين أو نينوى ، فضربوا حتى بلغوا تهامة ، ثم اندفعوا الى وادى نخلة فسمعوا قراءة رسول الله ﷺ وهو قائم فى جوف أميل ، أوفى صلاة الفجر .
- (٢) ويقول سعيد بن جبير : ماقرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا آدم ، وإنما كان يتلوا فى صلاته ، فترأ به فوقوا مستمعين وهو لا يشعر فأنبأ الله باستماعهم ، وهذا القول كاذب قبله .
- (٣) وقيل بل أمر رسول الله ﷺ أن يندرج الجن ويقرأ عليهم ، فصرف اليه فقرأ منهم ، فقال انى أمرت أن أقرأ على الجن اليلة ، فن يبتغي ؟ قلنا ثلاثا ، فأطرقوا إلا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، قال : لم يحضره ليلة الجن أحد غيرى ، فاضلقتا حتى اذا كنا بأعلى مكة فى شعب الحجون خطبلى خطبا وقال لا يخرج منه حتى أعود اليك ، ثم افتتح القرآن ، وسمعت لفظا شديدا ، فقال لى رسول الله ﷺ هل رأيت شيئا ؟ قلت نعم ، رجلا سودا ، قتل : أولئك جن نصيبين ، وكانوا اثني عشر ألفا ، والسورة التى قرأها عليهم « اقرأ باسم ربك الذى خلق الخ » .
- وهذا قوله تعالى (و) اذكر (إذ صرفنا اليك فقرأ من الجن يستمعون القرآن) أى أملناهم اليك ،

والنفردون العشرة ، وجمعه أخار (فلما حضروه) أى الرسول (قالوا) قال بعضهم لبعض (أنستوا) استكثروا مستعين (فلما قضى) أتم وفرغ من قراءته (ولوا إلى قومهم منذرين) لإيهام بما سمعوا ، وبين ذلك الإنذار فقال (قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى) وقد كانوا يهوداً ، واليهود يكفرون بعيسى (مصدقاً لما بين يديه) من الكتب (يهدى إلى الحق) إلى الله تعالى (وإلى صراط مستقيم * يا قومنا أجبوا داعى الله) محمداً ﷺ (وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويخرجكم من غلاب اليم) أى يغفر لكم ربكم ذنوبكم فى الجاهلية وينجيكم من عذاب وجيع ، ثم قال تعالى (ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض) أى لا ينجي منه مهرب (وليس له من دونه أولياء) ينعونه منه (أولئك فى ضلال مبين) حيث أعرضوا عن إجابة من هذا شأنه (أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعب ولم يعجز (ب) قادر على أن يحيى للوقت) أى قادر (بلى) جواب لئنى (إنه على كل شئ قدير * ويوم يحضر الذين كفروا على النار) يقال لهم (أليس هذا بالحق) والاشارة إلى العذاب (قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) بكفركم فى الدنيا ، ومعنى الأمر هنا الإهانة والتوبيخ لهم . انتهى للقصد الخامس .

للقصد السادس

قال تعالى (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) أولوا الثبات والجد منهم ، فانك من جنسهم ، ومن التبعض وأولوا العزم المنكسرون فى الأحزاب نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، فهؤلاء هم أصحاب الشرائع الذين أسسوها وصبروا على تحمل المشاق ومعاناة الطاعنين فيها ، وبعضهم جعل منهم يعقوب ويوسف وأيوب ودلود لصبرهم (ولا تستجمل لهم) لكفار قریش بالعذاب فانه نازل بهم فى وقته لاعتلة (كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) فهم يستصرون حينئذ مدة لبثهم فى الدنيا حتى يحسبوا ساعة من نهار ، وهذا (بلاغ) أى هذا الذى وعظمت به لغاية فى الموعظة (فهل يهلك) هلاك عذاب أى فلن يهلك بعذاب الله (إلا القوم الفاسقون) المشركون الخارجون عن الانحياز به ، والعمل بموجبه . انتهى التفسير اللفظى .

لطائف هذه السورة

- (١) فى قوله تعالى : أذهبتم طياتكم فى حياتكم الدنيا .
- (٢) » » : واذا ذكر أتعاد .
- (٣) » » : وإذ صرفنا إليك قرآن من الجن .
- (٤) » » : أولم يروا أن الله الذى خلق الخ .
- (٥) » » : فاصبر كما صبر أولوا العزم الخ ،

الطيفة الأولى

فى قوله تعالى : أذهبتم طياتكم فى حياتكم الدنيا الخ

- (١) لقد مر فى بعض سور الربع الثالث من القرآن حكاية الربع بن زيد وعمر رضى الله عنه ، وقد حضر الأول مع أبى موسى الأشعرى من البحرين بأمر عمر رضى الله عنه ، وكان عاملاً لأبى موسى فلما مثلا بين يدى الخليفة صوب وصعد ، ثم صوب وصعد ، فلم يجبه غير الربع من الولاة الذين ولاهم أبوموسى لأنه تريا بلزى الذى يرضاه بشارة يرفأ خادم الخليفة ، ولما جلسوا على المائدة لم يجد رجلاً منهم قد أكل بشهوة إلا هو ، وكان الطعام ليس مما يسر المترفين ، فظن أن ذلك

طبع فيه ، فأخذ يكلمه ، فرأى الربيع أن ذلك فرصة ، فكلمه في أمر الطعام ، وانه كان الأليق أن يكون أنهم من هذا وأوفق لصحة أمير المؤمنين ، فبرعه ، ثم قال : لو شئت لملأت هذه الألفية من رقيق الطعام ولقيته ، ولكني رأيت الله ذمّ قوما فقال : أذهبت طيباتكم في حياتكم الدنيا الخ انتهى ملخصا بلغني . فانظر كيف كان يفهم الصحابة في القرآن ، ولم يجعلوا الآية موجهة الى الكفار فقط كما يظن أكثر المسلمين اليوم ، فغاب عنهم كتب الله تعالى .

(٢) اعلم أن القدي لا يريد من الحياة إلا الذات بقصد الذات ، فإذا قال الله تعالى : أذهبت طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فالיום تجزون عذابا لم تؤن الخ فاعلم أن هذا القول صدى في هذه الحياة الدنيا ، ولذلك نجد النهم ، وكثير السبق يحرمون من الذات متى انكبوا عليها ، وانظر الى قول سقراط : « إن العفيف يتنجس بالذات ، ويعمر منها من ليس عفيفا . وضرب مثلا ، فقال : ألم تر الى من يصكر شرب الماء كيف يحرم لذة الماء ، فأما من عطش فانه يستلذ ، هكذا جميع الذات . أقول : إن أكثر الناس في الدنيا غافلون ناثمون .

(٣) جاء في البخاري ومسلم والنسائي عن أبي سعيد رضى الله عنه . قال : جلس رسول الله ﷺ على المنبر ، وجلسنا حوله ، فقال : إن مما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا (أي حسنها) وزينتها ، فقال رجل : أوبأى الخبز بالشر ؟ فسكت رسول الله ﷺ ، ورأينا أنه ينزل عليه ، فأفاق بمسح الرحضاء أى العرق الكثير ، وقال : أين هذا السائل ؟ وكأنه حده ، فقال : انه لا يأبى الخبز بالشر ، وإن مما يثبت الربيع ما يقتل حبلا (قنعا ، يقال حبط بطنه اذا انتفخ فيه) أو لم إلا آكلة الخضر (١) فلما أكلت حتى اذا امتلئت خضرتها فاستقبلت عين الشمس فظلت (ظلت) بظلمة (٢) أتى ربيعه سهلا رقيقا) وبات ثم ربهت وإن هذا المال خضر حلو ولم يملكه صاحب المسلم هو لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل ، وإن من يأخذه بغير حقه كمن يأكل ولا يشبع ، ويكون عليه شهيدا يوم القيامة اهـ

وملخص الحديث أن المال وكل ما على الأرض خير ، وهذا أشبه بالعشب النابت في الأرض بالطر ، فمن اليهم ما تستضر بأكله فتنتفخ وتموت ، ومنها ما تأكل كل وتستريح ، وقد واقفها النبات ، فالعيب ليس من نفس النعمة بل العيب من المنعم عليهم ، فإذا كثر المال ، فإن جعل لكز أضرت بصاحبه ، وإن جعل للاحسان والمنافع العامة نفع صاحبه ، فللمال في حد ذاته ليس شرا ، بل الشر والخير يرجعان للاستعمال والاستعمال لنفسه . وفي البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب . قال : دخلت على رسول الله ﷺ فإذا هو متكئ على رمال حبير ، قد أثر في جنبه . فقلت : أستاذن يا رسول الله ؟ قال نعم ، جلست فرفست رأسى في البيت ، فوافته مارأيت فيه شيئا ردى البصر إلا أهبة ثلاثة ، فقلت : ادع الله أن يوسع على أمك ، فقد وسع على فارس والروم ولا يعبدون الله ، فاستوى جالسا ، ثم قال : أتى شكأت يا ابن الخطاب ! أولئك قوم جعلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا ، فقلت : استغفر لى يا رسول الله . وفي البخاري ومسلم أيضا عن عائشة . قالت : ما شبع آل محمد من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله ﷺ . وفي رواية أخرى . قالت : « إنا كنا ننظر الى الهلال ، ثم الهلال ، ثم الهلال ، ثلاثة أهلة في شهرين ، وما أوقد في آيات رسول الله ﷺ نر . قال عروة : يا خلافة فما كان يعيشكم ؟ قالت الأسودان النمر والماء ، إلا انه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار ، وكانت لهم متاع ، فكانوا يرسلون الى رسول الله ﷺ من البئنا فيسقيننا . وعن ابن عباس رضى الله عنهما . قال : « كان رسول الله ﷺ بيت اليتامى للمتابعة طلوا ، وأهله

لا يجدون عشاء ، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير ، أخرجه الترمذي .

وفي البخاري عن أبي هريرة . قال : لقد رأيت سبعين من أصحاب الصفة مائتهم رجل عليه رداء ، إما لزاروا ما كسأه ، قد رطلوا في أعناقهم ، فنها ما يبلغ نصف الساقين ، ومنها ما يبلغ الكعبين ، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته .

وفي البخاري أيضا عن إبراهيم بن عبد الرحمن أن عبد الرحمن بن عوف أتى بطعام وكان صائما . فقال : قتل مصعب بن عمير ، وهو خير مني ، فكفن في بردة ، إن غطي رأسه بدت رجلاه ، وإن غطي رجلاه بدا رأسه . قال وأراه قال : قتل حزة وهو خير مني ، فلم يوجد ما يكفن فيه إلا بردة ، ثم بطلنا من الدنيا ما بطل وقد شئت أن تكون مجلت لنا طيبتا في حياتنا الدنيا ، ثم جعل يبكي حتى ترك الطعام .

وقال جابر بن عبد الله : رأي عمر بن الخطاب لما معلقا في بدى ، فقال ما هذا يا جابر ؟ قلت اشتيت لما فاشترته . فقال عمر : أولها اشتيت يا جابر اشترت ، أما تخاف هذه الآية : « أذهبتم طيبتكم في حياتكم الدنيا » انتهت الطيفة الأولى .

الطيفة الثانية

في قوله تعالى : واذكرنا عاد

قد تقدم الكلام على قوم عاد في سابق التفسير . وسأني بطل الكلام فيها

الطيفة الثالثة

في الكلام على الجن وأنهم آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم

إن من اطلع على ما تقدم في هذا التفسير يرى أن هذا الزمان هو الزمان الذي تظهر فيه أسرار القرآن أن الملائكة والجن وأمثالهم لا يقوم عليها دليل عقلي ، وبما هي إلهاميات ، والسمعية لا يرهان لها إلا السمع ، فأما العقل فهو يهزل عنها ، فليس في العقول أن هنا جنة تحيط بنا ولا ملائكة ، فكل هذا القول يؤمن به مجرد إيمان ونسكت ، هذا هو الذي عليه الرأي في الأمة ، ولكن انظر إلى الأمم المحيطة بالأمة الإسلامية اليوم ، انظر كيف أصبح قوله تعالى ها : « واذ صرفنا إليك قرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه فاولوا أصتوا » إلى آخره معقولا في الأمم الأوروبية كما تقدم مرارا في هذا التفسير ، وإذا كان العلامة الرازي في ﴿ سورة إبراهيم ﴾ يقول ناقلًا عن قدماء الفلاسفة : « إن أرواح الناس بعد الموت تكون إما ملهمة للخير أو موسوسة بالشر للناس على مقتضى طباعها » ، وهكذا الفزالي ، وأخوان الصفاء ، وغيرهم . فانظر اليوم إلى أم أوروبا وتأمل كيف أصبحوا يخطبون الأرواح التي فترقت الأجساد ، وكيف يقولون أنهم بعد الموت على ما كانوا عليه من أخلاق وأداب وديانات وعلوم وأصول ، فلبت يموت ومعهم جميع أخلاقهم لم يقدّموا شيئا ، وانظر إلى قول أكبر عالم طبيعي في بلاد الانجيز ، والورد أوليفر لودج إذ يقول : « إن عالم هذه المراكب أي الأرواح ليس عالما غريبا عن علتنا . فإن الكون واحد ، إن مداركنا ونحن هنا على الأرض محدودة ، فلا نرى كثيرا من الأمور التي تجري ، ولكن نحيط بنا كائنات ، وتعمل معنا ، وتساعدنا ، قد عرفنا قليل من الناس بعض المعرفة من الرؤى التي رأوها . وعنا أي كل ما تقول به الأديان من أن الملائكة والتعديدين معنا ، وأن الله نفسه يساعدنا على وجهه من غير تأويل ، هذه الجملية تنتمي عنها في كتابي المسمى ﴿ الأرواح » .

ثم إن السير أوليفر لودج من أشهر علماء الطبيعة في هذا العصر ، وهو من المعتقدين أن أرواح الناس تخرج من أجسادهم وقتما يموتون ، وتلبس أجسادا روحية ، وتبقى في القضاء بوجوداتها وسماهرها وقواها

العتلية ، وتتمثل بعض الأحياء ، فيرونها بهذه الأجساد ويخطبونها ويخطبهم ، كأنها لم تزل بأجسادها الأرضية ، ويقول إن هذا الاعتقاد يشيع قريبا ، إذ تكثر الأدلة على صحته ويزيد عدد الذين يخطبون الأرواح فيتم الاتصال بين العالم الثاني والعالم الباقي ، أربين الحياة الدنيا والحياة الأخرى . كل هذا مذكور في كتابي (الأرواح) المذكور ، وقد تقدم في (سورة آل عمران) وغيرها .

مولفة بين علماء الاسلام وعلماء أوروبا في هذا المقام

قد قرأت في تفسير السورة العنقلى التى تقدم قريبا ما قاله سعيد بن جببر من أن النبى ﷺ كان يقرأ والجن يسمعون ، ولم يشعر هو بذلك ، وما قاله عبد الله بن مسعود أنه خطه خطأ وزنه ، وقرأ النبى ﷺ والجن يسمعون ، وأن ابن م. عود وآههم . وأيضا يقول بعض علمائنا أنهم أصناف ، فبهم اليهودى والمسلم ، والنصراني ، واليهوسى الخ .

هذا ملخص ما تقدم ، وانظر الى علماء الأرواح كيف يقولون : « إن حولنا عوالم تحيط بنا ، فبهم من هم أرق منا علما وأقبا ، ومنهم من هم مثلنا ، ومنهم أشرار ، ومنهم أخيار ، والأشرار والأخيار غير قاصرين على الأرواح التى خرجت من أجسام أهل الأرض ، ومعلوم أن الملائكة يمتازون عن الجن بأسوارهما أن الأولين كاملون ، والآخرون ناقصون ، ولقد علمت مما تقدم في هذا التفسير أن أرواحا بعد الموت فيها التسام ، فبهم من يلحقون بعالم الملائكة أى أنهم أخيار ، ومنهم من يلحقون بعالم الشياطين أى أنهم أشرار ، ويقول علماء أوروبا : إن الاتصال بين عالم الأجسام وعالم الأرواح حاصل الآن بالاستحضار وسيكثر ذلك ، واطرطه الآبوغريها قال الاتصال قد تم بين النبى ﷺ وبين عالم الملائكة وعالم الجن » فالأولون اتصل بهم فأرسل إليهم على أيديهم ، والآخرون اتصل بهم فعلمهم ، وهل كان هؤلاء الجن من أرواح الناقصين من أهل الأرض كاليهود الذين ماتوا ، أو هم أرواح جاهلة لم تكن فى الأجسام ، وإنما مذاهبها وأخلاقها مقتبسة من أخلاق أهل الأرض وآرائهم .

هذا ملخصه ، وإنما مثل هذا يجب على الأمة الاسلامية بدنا أن نجد في بحثه ، وننظر في أمره ، لأن ذلك أجل العلوم وأشرفها ، وأى علم أشرف من أن نعرف مستقبلنا بعد هذه الحياة ، وأن ندرس العوالم التى هى أرق منا والعوالم الأخرى ، ولقد جاء ذكر قراءة النبى ﷺ على الجن لندرس هذه المسائل ونفكر فيها ، والتفكير فيها باب العلم النافع ، فإذا شك للمسلم واشتباه عليه أمر الجن ، ودعش من أن النبى ﷺ كان يقرأ على الجن ، فهذا مهماز من الله ، وسبب يسوقه الى السراة والعلم ، وقراءة علم الأرواح واستحضارها ، ومعرفة أحوالها ، وبهذا يرتقى العقل الانسانى ويستنير . إن المسلمين يرون على مثل هذه الآيات من الكرام ، ولكن الأجيال القليلة سيدرسونها ، ويعرفون الحقائق بأنفسهم لا بتقليد الفرنجة الذين قلنا عنهم ، ولقد مهد لنا أسلافنا فوجب علينا أن نمد السبيل لمن يمدنا حتى يتقوا على الحقائق . انتهت اللطيفة الثالثة والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الرابعة

في قوله تعالى : أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يبي خلقهم

بقدر على أن يحيى الموتى الخ

اعلم أن الله ابتداء السورة بما يتحقق منه المبدأ ، فهنا ختمت بما ثبت المعاد . انتهت اللطيفة الرابعة

اللطيفة الخامسة

في قوله تعالى : فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل

هم ذوو العزم ، والجدة ، والصبر ، والرأى ، والعقل الكامل ، ويقال إن كل الرسل كانوا أولى عزم ، واستثنى بعضهم يونس ، وخصصهم بينهم بالثمانية عشر المذكورين في الأنعام الذين قال الله فيهم « فبهداهم اقتده » . وقيل هم ستة : نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم الصلاة والسلام . وبهذا سمى الكلام على اللطيفة الخامسة والحمد لله رب العالمين .

بهجة العلم

في قوله تعالى : « ويوم يمرض الذين كفروا على النار أذهبتم طياتكم » الى قوله :
« كذلك نجزي القوم المجرمين »

في هذا المقام ضلان

(الفصل الأول) في قوله تعالى : أذهبتم طياتكم الخ .

(الفصل الثاني) في تحقيق الكلام في أمر عاد ، وأبن مساكنهم ، وفي الأحقاف ، وفي الخريطة الجامعة لبيارهم ، وفي قبر هود وصالح عليهما السلام .

الفصل الأول في قوله تعالى : أذهبتم طياتكم الخ

هذه الآيات وما عاظها فيها :

(أولا) ذهاب الطيات بالاستمتاع بها في الحياة الدنيا .

(ثانيا) المجازاة بالعذاب الهون بسبب الاستكبار في الأرض بغير الحق ، وبسبب الفسق .

(ثالثا) ضرب مثل قتلك بقصة عاد ، وأنهم كفروا ، فأهلكوا ، وأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ، لأنهم مجرمون .

(رابعا) جاء في سورة « حم السجدة » أن عادا استكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة .

(خامسا) جاء في سورة « القصص » أن فرعون اصف بصفتين هما العلو في الأرض والافساد فيها

(سادسا) جاء في قصص السورة نهى فارون عن الافساد في الأرض .

(سابعا) جاء في آخر (سورة القصص) أن الدار الآخرة نجعل للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا .

فلننظر إذن في هذه الآيات التي نحن بصددنا . فنقول : ههنا قاعدة في هذه السورة وهي أن الشهوات البهيمية ، والاستكبار في الأرض ، والفسق فيها عاقبتها العذاب الهون ، ولما كانت عاد قد استكبروا في الأرض بغير الحق كما تقدم ناسب أن يضرب بهم المثل في ذلك كما جعل فارون مثالا لمن علوا في الأرض ، وأفسدوا فهلكوا ، وهكذا فرعون .

هذا إجمال ما ترويه في هذا المقام ، واعلم أيها القارئ أنك أرشدك الله ، وتذك من الله علما أن القضاء الكلية مالم يؤت لها بالأمثال والحوادث الواقعة قليلا ما تؤثر في حقوق الأمم ، وإذا رأينا الله عز وجل يضرب لنا مثلا بعاد المستكبرين في الأرض بغير إثم ، واهم أهلكهم بظلمهم واستكبارهم ، وعذبهم في الدنيا وفي الآخرة

إذ قال : « لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشدّ وأليم » .
ولاجرم أن هذا القول كان مؤثرا أشدّ الأثر في أئمة الأمّ العربية وهم أبكوا لأنهم كانوا أقرب إلى
ذلك الأمّ ، ونحسّ اليوم نسمة في القرآن بتلى علينا ، والله يقول : « ويضرب الله الأمثال للناس » ،
ويقول : « لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون » .

فلتكن قصة عاد وأمثالها ضرب مثل يبعثه أمثال متلاحقة ، ونسبة النول الإسلامية الأموية والعباسية
والتركية والعلوية والاشيدية والأيوية والفاطمية والبويهية والفرزونية الينا نحن الآن كنسبة عاد ونعود
إلى آبائنا أئمة النبوة ، فلئن اكتفوا بذلك الأمّ فلاّتهم أعرف بها منا ، وليس عندهم غيرها ، أما نحن فانا
لا نعرف عن تلك الأمّ مع بعدنا التاسع هنا إلا أبناء مجته لانفي بالقصود ، فوجب أن نتبعها بأمثال من
النول الإسلامية لننظر في عمالة الاسلام السابقة ، هل بقوا في الأرض غير الحق ، وهل أخذوا طبيائهم
في حياتهم الدنيا واستمتعوا فيها ؟ وهل ذاقوا عذاب الخزي في الحياة الدنيا لما استمتعوا بالطيبات فيها ؟
وهل كان في هذه الأمّ قوم مخلصون صادقون يمكننا أن نقلدكم الآن ونتبع خطوتهم .

إذا وجدنا ذلك ، وأثبتناه في هذا التفسير ، واطلع عليه الملحن ، فإن ذلك موجب لسرعة ارتقاء
هذه الأمة لأنهم يرون التطبيق على القاعدة حاضرا عندهم ظاهرا وانحيا ، يقرءونه في تاريخ الأمّ القرية
منهم ، وهناك يتم الأمر ، وتنظم الاحوال ، ويحدد التاريخ حقا فائدته التامة ، فأما قراءة القرآن ،
وفهمه ، ومعرفة القاعدة العامة ، والاختصار في التطبيق على الآثار البعيدة العامة ، وجهل الواقع القرية المعروفة
للأمّ الإسلامية ، فإن ذلك معناه الجهل العام ، وتقلّ القاعدة العملية ، إن القواعد بلا تطبيق عليها كشجر
بلا ثمر ، وكأرض طيبة لم تزرع .

فهاأنذا أيها الذي أصل هذا المقام في (سبعين : المبحث الأول) في أن اتباع الشهوات وعدم المحافظة
على الصحة توجب ضعف الأجسام وعدم الاتقاع بالحياة (المبحث الثاني) في أن التبذير في الأموال
والاسراف سبيل هلاك الأفراد والأمم .

أما المبحث الأول ، وهو أن الاسراف في الطعام والمشارب يوجب الانسان عليها في الحياة الدنيا بالأمراض
وعدم الاتقاع بالحياة فذلك واضح أشدّ وضوح في (سورة ص) ، إذ أثبت هناك كيف ظهر أن الطب
الحديث يحرّض على ترك أنواع من الطعام متلاولة بين الناس ، وبوجبالاقلال من الأغذية ، ويحثم الرياضة
البدنية ، وهناك ترى أن سيرته ^{صلى الله عليه وسلم} في طعامه ، وسيرة أبي بكر وعمر وعلي ومن نحوهم كانت أقرب
إلى الطب الحديث ، وأن ذلك موجب لقوة الأبدان ، والاخلال بذلك يورث الخزي في الحياة الدنيا بالأمراض
والأمراض توجب الحرمان من نعم كثيرة لولاها لارتقى الانسان في الآخرة درجات بأعماله ، وهناك ترى
كيف كان قلنساء الفلاسفة آراء في تربية الجند والملوك والأمراء ، وأن هذه الآراء لم يظهر لها أثرما ، ولكن
في الصدر الأول من أئمة الاسلام ظهرت آثار يطرق الوحي لا بالفلسفة التي لم يعمل بها أحد في الأمم التي
ظهر فيها أولئك الفلاسفة ، فذلك فضلا عن كونه مجتزأ هو تطبيق على الآية هنا في المبحث الأول من بعضها
ولأدلى على ذلك من قول عمر رضي الله عنه لربيع بن زياد فيما مرّ بك : « لو شئت لأت هذه الرحل
صلائق وسبائك وصنابا ، ولكني رأيت الله عز وجل عبر قوما . فقال : وأذهبتم طبيائكم في حياتكم الدنيا
واستمتعتم بها » الآية .

فلاقتصر في المبحث الأول على هذا فيه غنية لتسلي لا سيما إذا أضاف إليها ما جاء في (سورة الشعراء)
وطه والحجر والأعراف والبقرة من المسائل الطبية الواضحة هناك

المبحث الثاني

في أن التبذير في الأموال والاسراف سبيل هلاك الأفراد والأمم

لما وصلت الى هذا المقام . قال لي صاحبي العالم الذي اعتاد أن يحادثني في هذا التفسير : لقد أجبت في المبحث الأول ، أما المبحث الثاني فليس من حقك أن تكتب فيه شيئاً ، بل يجب أن تشير اشارات الى ما كتبت فيها تقدم ، لقد جاء في هذا التفسير العبر ، والمبتدأ والتجرب ، بقلب البحر وضياح الأمم ببطلها وشرها ، وهل بعد ما تقدم في ﴿سورة النمل﴾ من شرح الأمم التي هلكت بظلمها ، وبعد ﴿سورة الاسراء﴾ ، و ﴿سورة سبأ﴾ وغيرها من المباحث التي بها ظهر أن أم الاسلام التي نحن أبناءها قسمل بها الوبال والهلاك بظلمها ، وليس بعد ما قلته في أم الاسلام قول لقائل ، فانك ضربت الأمثال في أكثر السور بنفس التاريخ وشرحت شرحاً وافياً ، فأصبح التحليم بذلك نافعا ناضجاً ، وهل بعد ذلك قول لقائل ؟ إن ما كتبه الآن لا يكون إلا تكراراً وتحصيل حاصل . فقلت :

أيها الذكي : إني خطرت لي أسس أمر هب في هذه الآيات ، فإني ما كنت أقرأ هذه الآيات ، وأعرض معناها على عقلي حتى حضرت في نفسي القرون الأولى وحكمتها وشهواتها .

لقد وافته استحضرت الأمم وحكامها وملوكها ، كأنها كتاب أقرأه ، وكأنها تفسير لكتاب الله تعالى في هذا المقام .

أيها الذكي : إني أعجب قلباً ، وكيف تلوخ له المعاني المختلفة فيراها موافقة . فقال لي : هذا الكلام مجمل فضله ، وموجز فينه ؟ قلت : إن هذا القرآن قد أوضحت عقول الحكماء قبل نزوله ، وفسره الفلاسفة قبل الإصحاح به ، ثم فصلت وقائع الملوك بعد نزوله ، وأظهرته حوادث المسلمين في الأزمان الغابرة . فقال : إن هذا لإجبال فسرت به لإجبالاً ، وأظن أنني لم أصل للحقيقة ، فأنت في مستوى الاجبال ، ولكن عقلي وفهمي في مستوى التفسير . فقلت : الآن أقول : إن الذين إذا نزل من السماء ، ثم جاء أتباعه فوجدوا العقول الكبيرة قد فصلت قبل نزوله بلبرهان ، ثم جاءت الحوادث بعد ذلك وفصلته ، فانه يكون ديناً غلبة في الحب ! مزودج البرهان .

انظر الى هذه الآية : «أذهبتم طياتكم» الخ والى جمهورية افلاطون ، أفليس من العجب أننا نرى افلاطون في كتابه الثالث من جهوريته يقول ماملخصه تحت عنوان «دستور المدينة» :

قال : ولا يجوز تشجيع غواف الموت في قلوبهم بلنبأهم أن الحياة في العالم الآتي مظلمة ، ولا تمثل صفات أكابر الرجال بعصرهم وسعهم بصورة محمرة ، أو مضحكة ، أو دنيئة ، بل يجب أن تكون الشجاعة والحق وضبط النفس لغة ككل القصص المستعملة في تهذيبهم وسداها . ثم قال : ان الصورة التي بها ترف القصص الى عقولهم تؤثر في طبيعة قلوبها أعظم تأثير ، فيجب أن يكون قرض الشعر إما تمثيلاً صرفاً كما في الرواية ، أو قصصاً صرفاً كما في خربة بائس ، أو مركباً من التوحيين كما في الشعر القصصي ، ولا يمكن الشخص الواحد أن يعمل أو يجيد تمثيل أشياء كثيرة ، فمن ثم أن أتبع لهم درس التمثيل فليقتصر على تمثيل رجال الصفات السامية المحترمة ، والنسق الذي يستعمله أساس هذه الطبقة في الاقتداء وفي التأليف بسيط فعال ينذر أن يتلبس بالتمثيل ، فهذا هو النسق الذي يجب أن يؤذن للحكام بأن يستعملوه في إقناعهم ، والذي يقيمه الشعراء القائلون على تهذيبهم ، ويجب أن يسن لهم نظام شديد التدقيق في الأغاني والألحان والآلات الموسيقية ، فلا يسلّم لأمة كلمة آلات موسيقية تنشئ فيها الرخاوة وتبتيب العزائم ، فيحظر عليهم كل الآلات الموسيقية إلا العود والقيثارة والزمير ، ويحظر عليهم أيضاً كل الألحان المركبة ، والبسيط من هذه هو المباح لهم ،

وغرض كل هذه القوانين هو أن يترقى ويرتقى في عقول التلاميذ الشعور بالجمال والاتساق والاتزان ، وهي صفات تؤثر في سجيئهم ، وفي علاقتهم للتبادلة .

وبعد ما بحث سقراط بحثه السابق في الموسيقى الاغريقية فقم للنظر في الجناسيك . قال : يجب أن يكون طعام الحكم بسيطا ومعتدلا وصحيا ، وذلك يفتهم عن الاعتشارة الطيبة إلا في أحوال استثنائية ، وقد نخطئ في هذا الموقف اذا اعتبرنا أن نسبة الجناسيك للجسد هي نفس نسبة الموسيقى للعقل ، ويجب القول أن الجناسيك يراد لترقية النضر الجاسي في طبيعتنا كما تراد الموسيقى لترقية النضر الفلسي ، وأقصى أغراض التهذيب إعداد هذين النضرين ، ومنجهما معا على نسبة عادلة متزنة .

هذا ما يقال في شأن تهذيب الحكم وتدريبهم ، فمن هذه الطبقة العالية يجب انتقاء القضاء ، ويلزم أن يكونوا من أكبر أعضاء الجسم الاجتماعي سنا ، وأوفرهم قلنة ، وأعظمهم جدارة ، وأرقهم وطنية ، وأقلهم أنانية ، هؤلاء هم الحكم الحقيقيون ، والذين دونهم يسمون مساعدين ، ولكي تنفع الأمة بمدالة هذه الأنظمة وسكنتها ينبغي لنا أن نقتصر عليهم القصة التالية ، وهي : أنهم كلهم قد نسجوا أولا في أحشاء الأرض أهم الكبرى ، وقد سرت لللائكة أن تزج بحيلة بعضهم ذهباً ، وفي جيلة بعضهم الآخرفنة ، وفي غيرهم نحاسا وحديدا ، فائمة الأولى هم الحكم ، والثانية للمساعدون ، والثالثة الفلاحون والصناع ، ويجب رعاية هذا القانون وتحليده ، والا حلّ بالقوة للشار .

وأخيرا يجب وقف عجلة في المدينة هؤلاء الحكم ومساعديهم يعيشون فيها عيشة شظف وقشير ، ساكنين الخيام لا البيوت ، معتمدين على تبرعات الأهالي ، وأخيرا يجب أن لا يمتلكوا ملكا خاصا والا اقبلوا ذئابا بدل كونهم كلابا حارسة .

ثم قال سقراط : أفنحصر أنفسنا في مراقبة شعرائنا ، فنوجب عليهم أن يطبعوا منظوماتهم بطابع الخلق الجيد ، والافلاذ نظمون ، أونوسع نطاق مراقبتنا فنشمل أساندة كل فن ، فنحظر عليهم أن يطبعوا أعمالهم بطابع الزهن والفساد والسفالة والسجاجة ، سواء في ذلك رسوم المخالقات الحية ، أو الأبنية ، أو أي نوع آخر من المصنوعات ، ومن لا يستطيع غير ذلك فلتنه عن العمل في مدينتنا ؛ لكي لا ينشأ حكامنا في وسط صور الرذيلة نشوء الماشية في مراعي رديئة ، فنسرب الأضرار إلى نفوسهم فنفسدها بملذتهم يوما فيوما من الأقوات من مختلف المواقع ، فيتجمع في نفوسهم مقدار وافر من الشر وهم لا يشعرون ، وعلى الضد من ذلك أولا يجب علينا أن نستدعي فنيين من طراز آخر فيتمكنون بقوة عبقريتهم من اكتشاف أثر الجودة والجمال ، فينشأ شبابنا بينهم كما في موقع محمي ، ينشرون الصلاح من كل مريع تنبع منه أي الفنون ، فتؤثر في بصرهم وسمعهم كنسبات هابة من مناطق محمية فتحملهم منذ حداثتهم دون أن يشعروا على محبة جمال العقل الحقيقي ، والتمثل به ، ومطالعة أحكامه .

غلاوكون : إن ثقافة كهذه هي أفضل الثقافات .

سقراط : هلينا يا غلاوكون نفوزال تهذيب للموسيقى شأنا خارقا ؟ فإن الايقاع واللحن يستقرآن في أعماق النفس ويتأصلان فيها فيثان فيها ما يحبه من الجمال ، فيجعلان الانسان حلو الشائل اذا حسنت ثقافته ، والا كان الخال بالعكس ، ومن حسنت ثقافته الموسيقية ، فله نظرات في تبيين هفوات الفن وفساد الطبيعة فيفتدها ويمتها مقنا شديدا ، ويهوى الموضوعات الجبيلة ، ويقنح لها أبواب قلبه ، فيفتنى بها ، فينشأ شريفا صالحا ، واذا كان منه ذلك وهو بعد في دون سن الرشاد قبلما يبرز في تلك الامور حكما عقليا ، فانه متى بلغ رشده يزداد ولعا بها عن معرفة إذ تربي عليها وألفها .

غلاوكون : لا أرتاب في أن هذه هي أغراض التهذيب للموسيقى . انتهى

مهاموذا نراه في صفحة ٧٩ في النسخة للترجمة بالعربية يقول :

- (١) يجب على حكام الدولة أن يتجنبوا السكر، لأن الحاكم راع ، وإذا سكر الراعي فن ذا الذي يرعاه
- (٢) إن الحاكم مجاهد مدة حياته ، فكيف يسكر المجاهدون وهم في الميدان ؟
- (٣) طعامهم يجب أن يكون بسيطاً ، والا جلب لهم العاس ، وهذا الصحة .
- (٤) إذا حادوا عن أطعمتهم قيد أمتة اتابتهم الأمراض ، واشتد عليهم الخطر .
- (٥) يجب أن يكون رجال الحرب يظلمون كالكلاب الحارسة .
- (٦) إن « هومروس » الشاعر المشهور وصف الجنود على ضفاف المرديل بأنهم شربوا اللحم فقط ولم يسلقوه .
- (٧) ويقول في صفحة ٨٠ : اتى لأستحسن طعام السيراتوميسيين ، ولا كثرة أنواع الطعام هند السقلين .
- (٨) وقال : أنكر على الرجال الذين يحبون أن يعرضوا على سلامة أجسادهم تسرى الفتيات (السكر يديان) .
- (٩) وأخذ يشنع على أهل أثينا تأقهم في صنوف الحلوى .
- (١٠) ويقول أيضاً في صفحة ٨١ : إن هناك اتفاقاً تاماً بين تنوع الموسيقى ، وتنوع الطعام . فتتويع للموسيقى يجلب الفجور في النفس ، وتنوع الطعام يولد غلا في الجسد ، والبساطة في الفريجات البدنية تولد في الجسد صحة ، والبساطة في الموسيقى تولد في البدن عفة .
- (١١) إذا اشتهرت في المدينة الأمراض ، وصور الفجور ، اضطر الناس لإنشاء المستشفيات ، ولانشاء الحاكم ، وهناك هناك يتبع الطب عجا ، والحقوق تكبرا ، وقف كثير من الشرفاء حياتهم على هذه المن بوافر الرغبة ، وكثرة المستشفيات في الأمة ، ووفرة القضاة فيها دليل على سوء تهذيب المدينة ، وانحطاط سكانها . وأى برهان أقنع على سوء تهذيبها من كثرة المستشفيات والقضاة !
- (١٢) ما أكثر غرور الرجل الذي يبيع حياته بين متع ومدعى عليه ويقف جهلاً وغباوة أنه ماهر في ارتكاب الكبائر ، وأستاذ في الحيل ، والولولة ، والسهام والسكر بقلصة من قبضة العدالة والنجاح من برائن العقاب . وكل ذلك لأجل الحصول على أشياء طفيفة تافهة ، جاهلاً بأفضلية الحياة المنظمة للقسوة وجاهاً ، فهي أفضل وأشرف من مثوله أمام قاض خامل .
- (١٣) وقال سقراط في صفحة ٨١ أيضاً : إن الاحتياج إلى المعالجة الطبية عيب ، اللهم إلا ما كان لجرح ، أو لمرض موسمي واعد . إن عارا علينا الاحتياج الى المعالجة الناشئة من كسلنا ، ونوع مبيثتنا التي بها تلوثنا الرياح والأخلاق كما تملأ المياه القذرة الحماة ، وتظهر أسوأ جديدة للأمراض مثل قولهم : تطبل البطن ، الزكلم الخ .
- (١٤) وأخذ في صفحة ٩١ يقسم الناس الى ثلاثة أقسام : ذهب وفضة وحديد ، وبرهن على أنه يجب أن يوضع كل امرئ في مركزه ويقطع النظر عن مركز والده ، فالذهب حاكم ، والفضة تساعد ، والحديد فلاح . ولا يجوز الخلط ، فلا عبدة إلا بالاستعداد ، والنسب هنا لاقية له . وقال سقراط : يلزم أن تكون الحيام كافة وقائهم من تأثير الاقليم صيفا وشتاء .
- غلوكون : حسناً ، فيظهر أنك تقي بها أن تكون يونان لاخليلنا ، هذا اذا لم أكن غخطاً في ظني سقراط : نعم ، ولكن يونان عسكرية ، لا يونان أغنياء .
- غلوكون : فما الفرق بين هذه وتلك ؟

سقراط : سأريك ، فإن من أظفح أعمال الرعاة ، وأدعها الى الخوى في الرعية أن كلاهم التي ربوها لحراسة القطيع تهجم على الأغنام ، إما لسبب جوعها ، أو نهيمها ، فتمزقها بأنيابها ، فتكون ذنابا لا كلايا حارسة .
غلوكون : حقا انه أمر شائن .

سقراط : أفلا يلزم الاحتياط لئلا يضل مساعدو حكمانا هكنا بالأهلين ، لأنهم أقوى منهم فيصبرون وحوشا ضارية بدل كونهم حلفاء صادقين ؟
غلوكون : يلزم ذلك .

سقراط : أولا يتسلحون بأفضل ضمان اذا تهذبوا تهديبا حسنا ؟
غلوكون : قد سبق أن سلطنا أنهم مهذبون .

سقراط : ليس من الضرورة يا عزيزي غلوكون الوقوف عند هذه النقطة ، ولكن الأمر الأجدد بأعظم أهمية هو الاصرار على ما قلناه ، وهو أنه يجب أن يهذبوا تهديبا صحيحا مهما يكن من أمرهم ، اذا أريد بهم الحصول على أعظم مؤهلاتهم للحنان واللطف نحو رفاقهم ونحو الذين يحكمونهم .
غلوكون : حق .

سقراط : علاوة على ذلك التهذيب ، فإن الرجل الحكيم يقول : « يجب أن نكون يوتهم عما لا يحصل دون كونهم حكماء كاملين ، ولا نمنعهم من الاضرار بالآخرين » .
غلوكون : وبحق يقول .

سقراط : فاعتبر الرأي التالي : « أوافق حياتهم وسكنهم اذا أريد أن يكونوا على ما ذكرت من الأوصاف الامور التالية ؟ :

أولا — أن لا يتك أحدهم عقارا خلا ما دام ذلك في الامكان .

ثانيا — ولا يكون لأحدهم مخزن أو مسكن يحظر دخوله على الراغبين ، فليكونوا في أسى ما يتطلبه الأعضاء الشجعان المدربون تدريبا حريا ، ويجب أن يقبضوا من الأهلين دفعات قانونية أجرة خدمتهم بحيث لا يحتاجون في آخر العام ولا يستفضلون ، ولكن لهم موائد مشتركة كما في ثكنات الجنود ، وأن يخبروا أن الملائكة ذهوت في قوسهم ذهبا وفضة سلاويين ، فلا حاجة فيهم الى الزكزك الترابي ، ويجب عليهم أن يدنسوا بصناعة الملائكة السامية بمزجها بالذهب النقي ، لأن قود العامة فيها دخل كثير ، وهي مجلبة لكثير من الشرور ، ولكن ذهب الحكام السموى عديم الفساد ، فهم وحدهم من بين كل رجال المدينة مستثنون من مس القفنة والذهب ، فلا يدخولونهما تحت سقفهم ، ولا يحملونهما ، ولا يشربون بكمؤوس صيف منهما ، وبذلك يصونون أنفسهم ودولتهم ، لكنهم اذا امتلكوا أراضى ويوننا وملا ملكا خاصا صاروا مالكيين وزرعا عوض كونهم حكماء ، فيصبرون سادة مكروهين ، لاسفاهم محبو بين ويصبحون مبغضين ومبغضين ، يكاد لهم ويكيدون ، فيقتضون الجانب الأكبر من حياتهم في هذا العراك ، وخوفهم العدو الباطلي أكثر جدا من خوفهم العدو الخارجى .

ففي حال كهذه يسرعون بالهولة الى الفمار ، فلا جل كل ما ذكره لم يقررناه في مصر حكمانا بالنظر الى يوتهم وغيرها ، وزبط ذلك بأحكام الدستور أم لا ؟

غلوكون : نبرمه وزبطه . انتهى

(١٥) وهنا منع سقراط معنا بآنا إندال بدعة جديدة في الموسيقى ، وفي التفرينات العنلية (الجناساتك) . وإن ظهور نشيد . أو أغنية جديدة ، فيها فتح الشهوات ، يحدث خلا في سياسة الدولة . وقال : « يجب أن يكون التسلي والتلهي بالأمور للمشروعة ، لأن الملاهي إذا كانت غير مشروعة انفس الأحداث فيها ، واستحال أن يشبوا رجالا غلصين .

(١٦) وفي صفحة ١٠١ أخذ كران الهمين في الطعام والشراب تكون حياتهم كلها محيرة مضطربة يعيشون بين أيدي الأطباء ولا يستفيدون منهم شيئا ، بل يسبرون من ردى الى أردأ ، وهم دائما في حاجة الى من يصف لهم الهواء . قال : ومن المدهش أنهم ينعون من يصرح لهم بالحق ، ويؤكد لهم أنهم مالم يسلوا عن النهم والشراب والقبحور والتراسي ، فان العقاقير لا تقيدهم ولا كي ، ولا يقر ، ولا تعاوذ ، ولا أروطة ، ولا شيء آخر من أمثال هذه . وهنا أخذ يقيس رجال السياسة في الأمة على أحوال الفرد الواحد السكير المعربد ، قال فكأن الشرف في الطعام الموابل على طلب الذات مغرور لا يسمع نصيح الناصحين ، هكذا رجال الدولة الفاسقة سيئة النظام يكرهون من يتعرض لقوانينهم ، ولا يحبون إلا من يخلق لهم بديعته ويعطى سوء فعلهم .

(١٧) ولما كانت هذه الشرائط كلها لا يمكن كالماني الأرض قال في صفحة ١٢١ وما بعدها ماضه : « إن غرض تبيان نظام الدولة الكاملة مضي وراء الغرض المقصود منها هو اكتشاف طبيعة العدالة ، أما إمكان إنشاء دولة كهذه بالفعل فهي مسألة أخرى ، ليس لها أقل أثر في سلامة النظام وصحة نتائجه ، وكل ما يصح أن يطلب منه هو أن يبين كيف يمكن الهيئات النافذة الحاكمة حاليا أن تبلغ أقرب نقطة ممكنة الى مدى السياسة الكاملة التي مررت وصفها ، وهناك انقلاب واحد لابد منه لتحقيق هذا الغرض وهو تسليم مقاليد السياسة الى الفلاسفة ، وللتخلص مما يلابس ذلك من وجوه المقاومة يلزم أن نلوي عنان البحث الى تحديد الفيلسوف الحقيقي .

(أولا) — الفيلسوف الحقيقي هو المغمم كل الغرام بالحكمة في كل فروعها ، وعلينا أن نميز في هذا الموقف أدق تمييز بين الفيلسوف الحقيقي وبين المدعى حب الفلسفة تديبلا ، وتستقر نقطة الفرق بينهما في أن المثالي يكتفي بدرس الموضوعات الجلية مثلا ، أما الفيلسوف الحقيقي فلا يقف عند ذلك الحد ، بل يتجاوز به إدراك الجبال المطلق ، ويمكن وصف حال الأول العقل بأنه « تصور » وحال الثاني أنه « معرفة حقيقية » ، أو « علم » ، فهناك الوجود الحقيقي الذي يتناوله العلم ، والألاوجود ، أو العدم ، الذي نسبته الى الجهل نسبة الوجود الحقيقي الى العلم ويتوسط بين العلم وبين الجهل التصور ، فنتنتج أن التصور يتناول الوجود الظاهري ، فالذين يدرسون الوجود الحقيقي يدرعون « محي الحكمة » ، أو « فلسفة » ، والذين يدرسون الوجود الظاهري يدرعون « محي التصور » لا فلاسفة . انتهى من « جمهورية أفلاطون »

هناك قال صاحبي : إن هذه الحكم المستخرجة من كلام (سقراط) مدعته ، ذلك أنها مطابقة لمعنى الآية ، لأن هؤلاء السكوري ، أو الذين يكتفون ألوان الطعام ، أو الكسالي ، أو الذين يعدنون في الدولة أنواع المغاني كما يحصل في بلادنا المصرية الآن ، أو الصور المرفضة على السوق ، كما يضلح الأوروبيون الآن في بلادنا المصرية بواسطة درساينا (الصور المتحركة) ، فكل هؤلاء أذهبوا طبيعتهم في الحياة الدنيا واستمتعوا بها ، وأخذ الجزء يظهر فهم ، ويقاقبون في نفس الحياة الدنيا قبل الآخرة ، فوالله اني لأراؤك كل الموافقة على ماقلته وهو أن كتاب الله قد فسر بالفلسفة قبل زوله ، وإذا كان (سقراط) قبل النبوة بنحو ألف سنة

فمن الحب الجواب أن يكون ماضيه هو نفس ما جعلته الآية ، بل أنا أقول إنها والله مجرزة . فقلت بإصاح ، إن هذه الآية الإسلامية في عصرنا تجترى بقولها هذه مجرزة ، والمتعلمون تعلما ناقصا يشكون في البيانات كلها ، ولكن ليس هذا جوهر الموضوع ، إن جوهر الموضوع هو بحث أخلاقنا وعقائدنا وعرضها على كتاب الله ، ولما كان كتاب الله مشروحا بالحكمة الى ظهرت في الأمم كل ذلك أسرا مدهشا يجب علينا إذاعته في زماننا حتى يوقن النساك أولا ويقنع أولئك المترفون ، العاجزون ، المتعلمون نصف تعليم في عصرنا أن شكهم في البيانات لا يظلمهم من المسؤولية ، ولا يقوم حجة ، لأنهم يتحون أنهم متعلمون ، فنقول لهم : ويحكم ، أستم تسمعون علماء أوروبا ومنهم « سبنسر » وأمثال « ستلاه التلياني » وغيرهما يقولان بأعلى صوتهما : « أيها الناس : اتنا معاشر الفلاسفة في أوروبا لا نبليغ في العلم والحكمة ، وأصول الفلسفة ، شار (سقراط) ، ولا (أفلاطون) ، بل نسبتنا الى هؤلاء القوم كنسبة البقة الى الفيل ، فنحن إنما برعنا في العلوم الجزيئية ، أما الكليات التي توضح الامور العالية ، كأصل النفس ، ومنشأ العالم ، وماشبه ذلك ، ف نحن منه بعيد » إذن ما نكتبه الآن في هذا التفسير حجة قائمة على كل متعلم في بلاد الشرق ، لأنه اذا ادعى أنه يشك في البيانات ، فلن يسنى له أن يتخلص من أنه رجل جاهل أحمق ، لأن فلاسفة أوروبا الذين يتصى هو أنه متمسك بأرائهم متعلق بهم . متبع سيئهم ، فهو كفر كما أنهم كفروا ، وأسرف كما أنهم أسرفوا وظلم كما أنهم ظلموا (في زعمه) قد أعلنوا أنهم أقل شأنا من سقراط وأفلاطون وهاهوذا سقراط يضرب القرآن قبل نزوله ، ويدين لنا هذه الآية : « أنهبتم طبيباكم في حياتكم الدنيا » وهو لا يعلم بالقرآن ولا النبوة ، ولا بالأمة العربية التي ستأتي بعده بنحو عشرة قرون .

فقال صاحبي : الله الله ، الآن حصص الحق ، واستبان السبيل ، وظهر الابداع الفلسفي الذي هو أكبر مجرزة قرآنية سياسية دولية ، وأن الأمم اليوم كلها عاجزة ، بعيدة عن الكمال ، فحدثني حفظك الله عما أحدثته تلك الاسلام من التسوق في الدولة الأموية والعباسية وغيرهما تطبيقا على ذلك كما وعدت . فقلت : اعلم أيها الذكي أن ما اكتبه اليوم ستري فيه ما لم تره فيما مضى ، ومماثل الآراء والأحوال المختلفة في التعاليم إلا كمثل الأزهار في اختلاف ألوانها ، والثمار في تباين طعومها ، والأقطار في تنوع أهوائها ، ولكل زهر ، ولكل ثمر ، ولكل قطر قوم هم به مغمرون ، وإذا لم يكن التأليف جاريا مجرى النظام الطبيعي الإلهي في اختلاف المناظر ، وتباين المشارب ، ليجد كل امرئ فيه مأربه ، لم يحز القبول في الأمم ، ولم يكن مشار الاتفاق ، ويحتمل الأنظار .

فها ماذا أذكرك أيها الصديق أولا بما جاء في (سورة الشورى) وما كان من أمر حمير رضي الله عنه ومبلغ زعمه وورعه ، وقد ذكرت هناك ١٧ خصلة مشروحة في عدله وأخلاقه الكريمة ، فهل تذكرها ؟ قال نعم ، ولكن هذا القول منك انتهجت به منهجي ، وابتعت سبقي ، وسمعت نصيحتي ، لأنك تشير اليه الآن ، ولا تذكره ، وهذا هو مقولي . فقلت : إنما أشرت إليه لأنني في هذا المقام كما قفتم أبحث في أمرين : أمر للمصلحين الذين يقتدى بهم ، وهذا هو الذي ذكرته الآن ، وأمر للمستدين الذين نحترس من عملهم ، ونخافهم ، وهؤلاء هم الذين سأصل القول فيهم تفصيلا كما وعدتك ، وقبل ذلك التفعيل أقول في السالف الصالح قولنا بجلا غير ما تقدم لتتم القدرة بهم :

إن عصر الخلفاء الراشدين من سنة ١١ — ٤٩ هجرية هو العصر الذهبي ، عصر العدل والتقوى ، كانت الحكومة جارية فيه على سنن العدل والاستقامة ، والغيرة الأخلاقية على الدين ، وبهذا الدنيا ، وهو العصر الذي اتخذه المسلمون نمو لا ينسجون عليه ، وكلما حدث دولة من دولهم عن جادة الحق طلبوا منها الرجوع إليه والسبر على خطوات الخلفاء الراشدين ، لأن الحكومة انحلت بهم الى طور جديد . واختلفت

من الخلافة الدينية الى الملك السياسى ، ونشأت فى الخلفاء والعمال المطامع ، وأخذوا فى حشد الأموال بأية وسيلة كانت .

﴿ بيت المال ﴾ توفى النبي ﷺ والمسلمون هم رجال الحكومة والجند ، ولم يكن عندهم بيت مال للأسباب التى قلتموها ، ولم يكونوا يطلبون المال إلا لقضاء الحاجيات ، وكان أكثر ما يرد عليهم منه ماشية وحظنة وخيلا ونحو ذلك من أموال الصدقة والفتية ، وكانت القود قليلة بين أيديهم ، فلما فتحوا الشام وقرس ومصر وردت عليهم الأموال ذهابا وفرة ، فأدهشهم كثرتها ، وتنبهوا لها . يقال ان أبا هريرة قسم على عمر بن الخطاب من البحرين بمال . فقال له عمر : بم جئت ؟ قال بخصيصة ألف درهم ، فاستكره عمر ، وقال : أئدرى ما تقول ؟ قال نعم مائة ألف خمس مرات ، فصد عمر المنبر ، وقال أيها الناس : قد جاءنا مال كثير ، فان شئتم كلنا لكم كيلا ، وان شئتم عددنا لكم عتدا . وكان ذلك من جملة ما دعاه الى وضع الديوان ، وفرض العطاء لكل واحد من المسلمين ، باعتبار السابقة والقربا من النبي ، ولكنه نهى عن اختزان المال ، فقال له قائل : يا أمير المؤمنين ، لو تركت فى بيوت الأموال شيئا يكون عتدا لحادث اذا حدث ؟ فزجره عمر ، وقال له : تلك كلفة ألقاها الشيطان على فبك ، وقاى الله شرها ، وهى فتنة لمن بعدى ، إني لا أعد للحادث الذى يحدث سوى طاعة الله ورسوله ، وهى عتدنا التى بلغنا بها ما بلغنا .

فلما كثرت الأموال فى أيام عمر ، ووضع الديوان فرض الرواتب للعمال والقضاة ، ومنع اختزان المال ، وحرم على المسلمين اقتناء الضياع ، والزراعة ، وأول الزراعة ، لأن أرزاقهم وأرزاق عيالهم تدفع لهم من بيت المال ، حتى إلى صيدهم ومواليهم ، أراد بذلك أن يبقوا جندا على أهبة الرحيل ، لا يمنهم انتظار الزرع ، ولا يقصدهم الترف ، والقصف . فإذا أسلم أحد من أهل التمة سكان البلاد الأسلميين صار ما كان فى يده من الأرض وداره الى أصحابه من أهل قريته ، فترق فيهم ، وهم يؤذون عنهما ما كان يؤذى من خراجها ويسلمون إليه ماله وريقه وحبواؤه ، ويفرضون له راتبا فى الديوان مثل سائر المسلمين .

والفرض الذى كان يرى إليه عمر من هذه القاعدة أن يبقى أهل التمة وأرضهم مصلرا للمال الذى يحتاج إليه المسلمون فى إتمام الجهاد وفقا لمصالحهم مدى السهور ، أما اذا اشترى المسلمون الضياع فاتهم بدخول بناتها دون سواهم ، ولا يضى بضعة أجيال حتى تصير أملا كاخوة بهم ، وعمر يريد أن يبقيا محبوسة على آخر هذه الأمة من المسلمين المجاهدين قوة على جهاد من لم يظهروا عليه بعد من المشركين لاتباع ولا تورث لما ألزموه أنفسهم من إقامة فريضة الجهاد ، وأيد هذه القاعدة عمر بن عبد العزيز الأموى ، وكان يستعنى ابن الخطاب بكل خطواته . فقال : « أيعاذنى أسلم فان أسلمه يحوزله نفسه وماله ، وما كان من أرض فنها من فء الله على المسلمين ، وأما قوم صالحوا على جزية يطلونها فن أسلم منهم كانت داره وأرضه لبيتهم » فترتب على ذلك ونحوه ترفع المسلمين عن سائر الأعمال من تجارة أو صناعة أو نحوهما .

ثروة الخلفاء ومسلمهم

علت عما تقدم أن الراشدين لم يكونوا يلمسون ثروة ، فلما توفى أبو بكر ، لم يجدوا عنده من مال النبوة إلا دينارا واحدا سقط من غرارة ، لأنه كان يفرق كل ما يجمع عنده على السواء ، لا ينظر الى مصلحة نفسه ، بل هو أوفق كل ما كان عنده من المال قبل اسلامه ، وذلك أربعون ألف درهم . فغير ما اكتسبه من التجارة لأنه كان يتجر ليستعين على النفقة ، ثم فرضوا له مالا معينا من مال المسلمين لينفقه على نفسه وعياله ، فلا يشتغل بالتجارة عن النظر فى مصالحهم ، فلما دنا أجله أوصى أن تباع أرض كانت له ويدفع ثمنها بدلا عما أخذ من مال المسلمين ، وكان عنده ثوبان أوصى أن يكفن بهما .

وأخبار عمر بن الخطاب بالزهد والزهادة أشهر من أن تذكر ، ويقال بالاجال أنه هو مؤسس دولة المسلمين وقد أسسها على أمن دعائم الملك ، أسسها على العدل ، والتقوى ، والزهد ، والاستهلاك في نصرة الحق مما ينسب اجتماعه على رجل واحد ، وقد يوم فتراته أنه من قبيل الباقية ، ويسهل علينا التصديق به إذا تذكرنا النتائج التي تربت على تلك المناقب مما لم يسمع بمثله في التاريخ ، يكنى منها تلك الفتوح التي جعلت الأموال تنصب نحو بيت المال في المدينة كما ينصب الماء من الميازيب ، وعمر مع ذلك لا يلتفت إليه ، ولا يأخذ منه إلا ما فرضه لنفسه كسائر الصحابة الأولين ، وكان إذا احتاج إلى مال فوق راتبه جاء إلى صاحب بيت المال ، فاستقرضه حتى يفي إياه من عطائه فيما بعد ، ولما طعن وأحسن بدق الأجل قال لابنه : « إني استلفت من بيت مال المسلمين ثمانين ألفا فليرد من مال ولدي ، فإن لم يف ما لم فإل آكل الخطاب » . وزهده في الطعام واللباس مشهور .

ويقال نحو ذلك في الامام علي ، فقد كان مغاليا في الزهد والعدل ، ومن أقواله : « تزوجت بفاطمة ومالي فراش إلا جلد كيش تنام عليه بالليل ، وتلف عليه ناضحا بالتيار ، ومالي خدم فبرها » . وجاءه في أيام خلافته مال من أصبهان ، قسمه على سبعة أسهم ، فوجد فيه رغيفا ، قسمه على سبعة أسهم ، ودعا أمراء الأسباع ، فأقرع بينهم ، لينظر أيهم يعطى أولا ، ولم يكن علي آجرة على آجرة ، ولا بنة على بنة ، ولا قسبة على قسبة ، وكان يأتي بحبوه من المدينة في جراب ، وقيل أنه أخرج سيفا له إلى السوق فباعه ، وقال : « لو كان عندي أربعة دراهم ثمن إزار لم أبعه » ومناقبه لا تحصى .

وقد ساعد الخلفاء الراشدين على تأييد العدل والحق ، أن عمالهم كان أكثرهم من أهل التقوى ، وحسن الاعتقاد في الاسلام ، فكان عمر إذا اكتسب أحد عماله مالا من تجارة ، أو سبيل آخر فبر عطائه المفروض له قاسمه عليه ، وهو لا يرى في ذلك غبا ، كذلك فصل بسمد بن أبي وقاص عامله على الكوفة وعمر بن العاص عامله على مصر ، وأنى هريرة عامله على البحرين ، وغيرهم .

ولا غربة في ذلك ، لأن العامل إذا رأى خليفته زاهدا تقيا يمنع نفسه من كل شيء ويستترك في مصلحة الأمة فإنه يقتدى به ولو كان ذلك مخالفا لرأيه ، على أن الخليفة نفسه لا يولئ أعماله إلا من يكون على رأيه وخلقه ، وخصوصا عمر ، فقد كان شديدا على العمال يتقدمهم كل سنة ويعزلم لأقل تهمة ، ذكروا أنه استعمل على حص رجلا اسمه عمر بن سعد ، فلما اقتضت السنة كتب إليه : « أقدم إلينا » فلم يشعر عمر إلا وقد قدم إليه الرجل ماشيا حافيا ، عكازه في يده ، وإدلاوته ومزوده وقسمته على ظهره ، فلما رآه عمر ، قال : يا عمر أجبنا أم البلاد بلاد سوء ، قال : يا أمير المؤمنين ، أمانتك الله أن تجهر بالسوء وعن سوء الظن ، وقد جئت إليك بالدنيا أبرها بقرابها ، فقال : وما معك من الدنيا ؟ قال : عكازه أتوكأ عليها وأدفع بها عدوا إن قتيته ، ومزود أجل به طعامي . فقال : ما صنعت بعملك يا عمر ؟ قال : أخذت الإبل من أهل الأبل ، والجزيرة من أهل القمة ، ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل ، فوافته يا أمير المؤمنين لوربي عندي منها شيء لأنيتك به ، فقال له : عد إلى عملك .

ولأنقصر في هذا المقام على ما سمعته الآن ، وأقف بذكر البندين ، فأقول مستعينا بالله :

شيوخ التبذير في العولة

لم تطل مدة المسلمين الأولين الذين لم يكونوا يستولون الخلافة ملكا سياسيا ، فلما اقتضى عصر النبوة وزالت دهشتها عاد الناس إلى فطرتهم أيام عثمان سنة ٣٣ - ٣٥ هجرية ، لأنه لم يكن شديدا مثل عمر ،

وكان مع ذلك أموالاً ، فاعتزّ الأمويون به ، وأرادوا أن يمسكوا لأتباعهم السلطة التي كانت لهم في الجاهلية ، وكان بنو هاشم قد سلبوهم إياها بعد الاسلام لأن النبي ﷺ منهم ، فأخذ عثمان يولى الأعمال رجالاً من أقربائه ، وفيهم من لم يستقِ الاسلام إلا بأساً من فوزه على المسلمين ، وكثرت في أيامه الفتوح ، وفازت الفتن ، فكان يختص أهله منها بأكثر من سائر الصحابة ، كما فصل بنائهم افرقية سنة ٢٧ هجرية فان المسلمين حاربوها وعليهم عبد الله بن سعد (أخو عثمان من الرضاع) ، فبلغت غنائمهم منها (٢٥٠٠٠٠٠) دينار أعطى خبها الى مروان بن الحكم وزوجه ابنته ، وكان هذا الخمس من حقوق بيت المال ، وأعطى عثمان محاسبة العمال لأنهم من أهله ، فزادوا طمعاً في حشد الأموال لأتباعهم ، وخصوصاً معاوية بن أبي سفيان عامله على الشام ، وهو أكثرهم دهاء ، وأبعدهم مطمعاً ، فكان في مقدمة الذين أبطلوا قاعدة عمر في منع المسلمين من الزرع واتخاذ الضياع ونحوها .

وكيفية ذلك أن المسلمين لما فتحوا الشام ، وأقروا الأرضين في أيدي أصحابها ، كان جانب كبير منها ملكاً للبطارقة فزاد جند الروم ، فلما غلبت الروم ، وفرّ البطارقة ، أو قتلوا ، ظلت ضياعهم سائبة لأملاك لها ، فأوقفها المسلمون على بيت المال ، فكان العمال يقبلونها كما يقبل الرجل ضيعته (أى يضمنها) ويضيفون دخلها الى بيت المال ، فلما استقرّ معاوية على ولاية الشام ، واقتدى بالروم في البسخ واتخاذ الحاشية ، لم يعد راتبه يكفي ، ورأى من عثمان ضغناً وميلاً ، فكتب إليه : ان اتدى أجراه عليه من الزرق في عمله لا يقوم يؤن من يقدم عليه من وفود الأجناد ورسل أمرائهم ، ومن رسل الروم ووفودهم ، ووصف في كتابه هذه المزارع وأن لأملاك لها ، وليست هي من قرى أهل لثمة ، وللاخراج ، وسأله أن يقطعها إياها ، وكان عمر قد جعل لمعاوية على عمله في الشام راتباً مقداره ألف دينار في السنة ، وهو كثير بالقرطبي وراتب العمال في تلك الأيام ، فلما طلب من عثمان أن يقطع تلك الضياع أجابه الى طلبه فوضع يده عليها وجعلها جسيماً على فقراء أهل بيته جراًه ذلك على التمدد في اقتناء الأرضين ويعها في أيام خلافته ، والاذن للمسلمين في ذلك .

واقترى معاوية غيره من العمال وسائر الصحابة ، فآقتنوا الضياع والعقار ، وفيهم جماعة من كبار الصحابة مثل طلحة والزبير وسعد وعلي وغيرهم ، وزادت أموالهم ، وظهر الغنى فيهم ، حتى عثمان نفسه ، فانه اقتنى الضياع الكثيرة ، واحتزن الأموال ، فوجدوا عند خازنه بعد موته (١٥٠٠٠٠) دينار و (١٠٠٠٠٠) درهم ، وقيمة ضياعه بوادي القرى وحطين وغيرهما (١٠٠٠٠٠) دينار ، وخلف خيلاً وإبلًا ، والظاهر أن عثمان أندفع الى تسهيل الثروة على المسلمين بما زاد عنده من الأموال ، وأغراه أهله على ذلك وخصوصاً معاوية ، ثم صار امتلاك العقار مألوفاً شائعاً .

ومن أسباب شيوع الاملاك بين المسلمين أن عثمان أقطع هو وخطاؤه بعض الأرضين بماء يتعين مالكوه على أن يدفعوا شيئاً لبيت المال مقابل الاجارة أو الضمان كما تقدم ، فلما حدثت فتنة الأشعث سنة ٨٢ هـ حرق الديوان وضاعت الحسابات فأخذ كل قوم ما يليهم .

على أن المسلمين لم يكونوا راضين عن أعمال معاوية في هذا الشأن لأنه لم يساو بينهم فيه ، فنقموا عليه وخصوصاً الفقهاء ورجال التقوى ، وفي حكاية أبي ذر الغفاري ما يضي عن اليان ، فقد كلن هذا الرجل مفلحاً في القسك بقاعدة عمر ، وكان يرى : « أن المسلم لا ينبغي له أن يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وولته أو شيء ينفعه في سبيل الله ، أو يعبده لكرام » . وكان يقوم في الشام ويقول : « يا معشر الأغنياء ، واسوا الفقراء ، والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فيشرهم بعذاب أليم . يوم يحصى عليها في نار جهنم فتسكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » ، وما زال يقول ذلك ويكرره حتى ولم الفقراء بقوله وأوجبوه على الأغنياء ، فشكا الأغنياء الى معاوية ما يلقون منهم ، وكان معاوية يشكو أمره

من شكائهم ، لأن أباذر* وبجته غير مرمية لاختراجه المال ، ومما قاله له على أثر بناءه قصر الخضراء في دمشق ، وقد سأله معاوية : كيف ترى هذا ؟ فقال أبوذر* : إن كنت بقيته من مال الله فأنك من الخائنين ، وإن كنت بنيت من مالك فأنك من المفسرين ، فعظم ذلك على معاوية ، فأراد أن يوقه فيها بوجوب ما كتبه فبعث إليه بألف دينار أراد أن يفرقه بها ، ثم تبهمه بأكثر من ذلك ، فلما وصلت الدنانير إلى أبي ذر* فرثها حالا مع أنها وصلتته ليلا ، وجاءه رسول معاوية في الصباح يزعم أنه دفع المال إليه خطأ ، وأن معاوية يطلبه ، فأخبره أنه أتقته في ساعته ، فلم ير معاوية سبيلا إلا اتهامه بالفتنة ، فكتب إلى عثمان : « انك أفسدت الشام على نفسك بأبي ذر* » ، فكتب إليه : « اجلس على قتب بغير وطاء » ، فلما جاء المدينة حاكه عثمان فلم يرهب سلطانه ، وجاهر بما يراه من جشع بني أمية وخروجهم من الحق ، فأخرج عثمان من المدينة إلى الرقة بالنصف ، وظل هناك حتى مات ، فقم المسلمون بموته على عثمان في جهة ما هموه عليه إلى مقتله اه

هذا ما جاء في كتاب « تاريخ التفتن الاسلامي » وربما كان ملجاء فيه من أمر عثمان رضي الله عنه فيه مبالغة ، ومن جهة أخرى أنه رضي الله عنه كان مجتهدا ، والمجتهد مثاب ، أصاب أم أخطأ ، فله حرمة ، فلتفضل السلام في أيام بني أمية :

الاسراف أيام بني أمية

وعصرهم سنة ٤٩ - ١٣٧ هجرية

هذه الدولة كانت عربية بحتة محقرة لسواهم ، ومن أسلم من غير العرب يسمونهم الموالي

اعلم أن بني أمية وإن فتحوا البلاد شرقا وغربا فإن عمالهم أخذوا في الإسراف ، وبعض ملوكهم كذلك ، فدالت دولتهم . خذ ذلك مثلا :

إن محمدا أنا الحاجج بن يوسف لما تولى اليمن أساء السيرة ، وظلم الرعية ، وأخذ أراضى الناس بغير حقها وضرب على أهل اليمن خراجا سهوا « الوليفة » . فلما ولي عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله هناك بالغاء تلك الوليفة والاعتصار على العشر .

وفي كلام القاضي أبي يوسف في عرض وصية الرشيد بشأن عمال الخراج ما يبين الطرق التي كان أولئك الصغار يجمعون الأموال بها . قال : بلغني أنه قد يكون في حاشية العامل أوالوالى جماعة منهم من له به حرمة ومنهم من له إليه وسيلة ليسوا بأبرار ولا صالحين يستعين بهم ويوجههم في أعماله يقتضى بذلك القناعات ، فليس يحفظون ما يؤكلون بحفظه ولا ينصفون من يملكونه إنما مذهبهم أخذ شيء من الخراج كان أو من أموال الرعية ، ثم اهتم يأخذون ذلك كله فيما بلغني بالصف والظلم والتمتدّى ، ويقبضون أهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ، ويعلقون عليهم الجرار ، ويقيدونهم بما يمنعونهم من الصلاة ، وهذا عظيم عند الله ، شنيع في الاسلام .

وكان شأن بني أمية وعمالهم وجباةهم على نحو ما تقدم حين تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ وكان قويا متصفا ، فأراد أن يرد الأمور إلى ما كانت عليه في أيام سببه وبعده لأمر عمر بن الخطاب ، فأصدر أوامره إلى العمال بإبطال تلك النظام ، وعينها بأسمائها مفصلة ، وإبطال لمن على المنابر ، وكان أهله قد اقتنوا الضياع ، وأخذوا كثيرا منها من أهل القمة بغير حق ، ففتح بابها للناس وأعلن أن من كانت له علامة فليات ، فأثامه للظالمين ، وفيهم الصلبي واليهودي والموالي وغيرهم ، ومنهم من يشتكي اختلاس ماله ، وآثر اغتصاب ضيعته ، وكان ينصفهم بالحق والعدل ، ولأن الحكم على ابنه أو أخوته أو أبناء عمه . فقال له بعضهم

وكيف تصنع بذلك ؟ فبكى حزوا وقال : أكلهم إلى الله ، وأخذ أموال أحماسهم وأولادهم وسباها مظام ، فلما رأى أهل ذلك خاموا على سلطانهم وهو إنما قام بليل ، فإذا خرجت الفياح والأموال من أيديهم ذهب ضياعا ، فمشوا إلى عمته فاطمة بنت مروان وشكوه إليها ، فأنته ، فقال لها : إن الله بث محمد ﷺ رجة ولم يبعث عذابا إلى الناس كافة .

ولما رأى المولى عليه وقواه ، اغتموا القرصة ، وشكوا إليه ما يقاسونه من القتل والضبط ، وكان الجراح بن عبد الله الحكمي عامل خراسان قد أرسل إلى عمر بن عبد العزيز في الشام وفدا رجلين من العرب ، ورجلا من المولى ، فسكلم العربيان ، والمولى سأكت ، فقال له عمر : ما أنت من الوفد ؟ قال بلى ، قال فما يمنعك من الكلام ؟ فقال : يا أمير المؤمنين عشرون ألفا من المولى يفترون بلاعطاء ولا رزق وصلهم قد أسلموا من أهل الزمة يؤخذون بالغراج ، وأمرنا بعد سيف من سيوف الحجاج قد عمل بالظلم والعدوان ، فقال عمر : أحرم بذلك أن يوفد ، وكتب إلى الجراح : انظر من صلى من قبلك فضع عنه الجزية ، فوضع الناس في الاسلام ، وتسارعوا إليه ، فقبل الجراح : إن الناس قد سارعوا إلى الاسلام فورا من الجزية ، فاستعهم بلثتان . فكتب الجراح إلى عمر بذلك ، فأجابته : ان الله بث محمد داعيا ، ولم يبعث خاتنا .

وفعل عمر بخوذلك مع علمه على مصرحان بن شريح ، وكان حيان قد كتب إليه : أما بعد فإن الاسلام قد أضرت بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار أتمت بها عطاه أهل البووان ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل . فكتب إليه عمر : أما بعد فقد بلغني كتابك ، وقد وليتك جند مصر ، وأنا عارف بضعك ، وقد أمرت رسولي بضربك على رأسك عشرين سوطا ، فضع الجزية عن أسلم قبح الله رأيك ، فإن الله بث محمد هاديا ، ولم يبعث جابيا ، ولعمري لعمراشقي من أن يدخل الناس كلهم الاسلام على يديه .

وقس على ذلك عمله الآخرين ، فإنه عزل من لم يوافقهم منهم ، فأصبحت الدولة ورجالها كلها ضده لأنه حلول اصلاح الامور بالعتق دفعة واحدة والطفرة عمال ، ومافى بنى أمية وعمالهم إلا من كره ذلك منه فلم يصبروا على خلافته ثلاث سنوات ، فقتلوه بالسم ، ويسته المؤرخون من الخلفاء الراشدين ، وإذا قالوا العمرين أرواده وعمر بن الخطاب .

فترى مما تقدم أن القواعد الأساسية التي قام عليها الاسلام قدسوا إلى الانصاف والرفق ، ولكنها تختلف مظاهرها باختلاف الذين يتولون شئونها ، ولوائيح لعمر بن عبد العزيز أن يبيدها إلى ما كانت عليه في عهد ابن الخطاب لأتمت مظام بنى أمية ، ولكنه جاء في غير أوانه ، فذهب سعيه ههنا ، ولما مات عادت الامور إلى مجاريها ، ووافتها ردة الفعل ، فصارت إلى أشد مما كانت عليه قبله ، وبالغ العمال في الاستبداد والفساد وشدتوا في استخراج الخراج وزادوه حتى اضطر بعض أصحاب الأرضين إلى الاجابة أي أن يلجئوا أراضيهم إلى بعض أقرب الخليفة ، أو العامل فعززا به من جباة الخراج كما سيأتي .

أما الخلفاء فاهم ازدادوا انغماسا في الترف ، وأولهم يزيد بن عبد الملك فإنه اقطع إلى اللهو والتجرواشتغل عن مصالح الدولة بمجاريه : سلامة وحباية ، وحديثهم مشهور ، وخلفه أشوه هشام ، وكان بخيلا ، وفي أيامه زبدت الضرائب في مصر على يد ابن الحبيب كما تقدم ، وجاء بعده الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وكان مثل أبيه في اللهو والتجرو فقتله أهله ، وولوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ١٢٦ هجرية ، وكان عازما على اصلاح الامور اقتداء بعمر بن عبد العزيز كما يؤخذ من خطاب ألقاه عند مبايعته ، فأصابه من الفشل نحو ما أصاب عمر ، لأن الأحوال غير ملائمة ، وفي أيام خلفه مروان بن محمد قلب بنو العباس وصارت الخلافة إليهم .

وكان بنو أمية قد انغمسوا في الترف واللهو والتجرو ، وأصبحوا لا ينظرون إلى ما يريد سلطانهم ولا يبالون

في انتقاء عمالهم ، وربما ولوا العامل عملا بإشارة جارية ، أو مكافأة على هدية كما فعل هشام بن عبد الملك بالجند بن عبد الرحمن ، وكان الجند قد أهدى امرأة هشام قلادة من جوهر ، فأعجبت هشاما ، فأهدى هشاما قلادة أخرى ، فولاه هشام على خراسان سنة ١١١ هجرية ، وبلغ عن الجارية في أيام بني أمية (٥٠٠.٠٠٠ درهم ، وهي الثلثة ، وأصبح العمال لا هم لهم إلا حشد الأموال ، والاستكثار من الصانع والمولى ، ولم يد أهل العدالة يرضون بولاية الأعمال مخافة أن يقتصروا للمال القليل يطلبه الخلفاء ، كما حدث يزيد بن المهلب لما ولاه سليمان بن عبد الملك العراق ، فقال يزيد في نفسه : إن العراق قد أخرجها الحجاج ، وأنا اليوم رجاء أهل العراق ، ومتى قسمتها وأخلت الناس بالخراج وعذبته عليه صرت كالخجاج ، أدخل على الناس الحرب^(١) وأعيد عليهم تلك السجون التي قد عاقبهم الله منها ، ومتى لم أت سليمان بثقل ما جاء به الحجاج لم يقبل مني ، وقس على ذلك رأى غيره عن يؤثرون الرضى ، فلم يرغب في الولايات إلا أهل الطامع ، وجعل الخلفاء من الجهة الأخرى يطمعونهم بالرواتب القليلة ، فبلغ رزق يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق في أواخر أيام بني أمية ٦٠.٠٠٠ درهم ، وكان العمال يذلون جهدهم في اختزان الأموال لأضيقهم لملهم أن الولاية غير ثابتة لهم ، فكثرت أموالهم واتسعت ثروتهم ، فبلغت خالة القسري أمير العراق في أيام هشام ١٣.٠٠٠.٠٠٠ درهم أي نحو مليون دينار ، فأصبح الخلفاء لا يعملون عملا عن عمله إلا حاسبوه على ما عنده من المال ، وكانوا في أيام معاوية يشاطرون المال اقتداء بعمر بن الخطاب ، ثم صاروا يحاكونهم ويستخرجون كل ما وصل إليه معرفتهم كما فعلوا بخالة القسري ، إذ وشى به كاتبه حيان البجلي أنه فوق ٣٦.٠٠٠.٠٠٠ درهم ، فبث هشام إليه من أخرج معظم هذا المال منه ومن عماله ، ويسمون هذا العمل استخراجا ، وكانوا يستخدمون الثقة فيه ، فوقم بين العمال والخلفاء تنافر زاد الخطر على دولة بني أمية .

وقد كان متوسط جباية العراق في أيامهم نحو ١٣.٠٠٠.٠٠٠ درهم ، وجباية مصر ٣.٠٠٠.٠٠٠ دينار ، أو ٣٦.٠٠٠.٠٠٠ درهم ، وجباية الشام ١٧.٠٠٠.٠٠٠ دينار ، أو ٢.٠٠٠.٠٠٠ درهم . فيكون ارتفاع هذه البلاد نحو ١٨.٦.٠٠٠.٠٠٠ درهم يضاف إليه أموال البلاد الأخرى مما لا نعرف مقداره . انتهى

هذا بعض أفعال هذه الدولة ، فسقطت وزهبت كأس العار ، وهذا عذاب الخزي في الحياة الدنيا المذكور في هذه الآية .

دولة بني العباس والاسراف فيها

هذه الدولة لها عصران : عصر ذهبي يمتد من أول نشأتها سنة ١٣٣ هجرية الى آخر أيام المأمون سنة ٢١٨ هجرية ، والعصر الثاني وهو عصر التدهور والاضطراب ، ويتبدى بخلافة المصمم سنة ٢١٨ وينتهي باقتضاء الدولة العباسية .

فانظر أيها النكبي إسراف الخلفاء ونسائهم ، قد جاء في كتاب « تلخيص القند الاسلامي » أنهم انهمكوا في البنخ والاسراف والتبذير والترف ، فاقترضوا الجوازي ، وانحفوا القرش ، من الخبز والديباج والحرير والمسلمير الفضة ، واقتنوا المنزهات ، والقصور ، والمدن ، واقتنوا الثمناء ، وأنشروا مجالس الفناء ، ولربكوا سائر ضروب الترف والتألق بالطعام واللباس والرياش ، وقد سهل عليهم ذلك قرب عهد العراق وخراسان من بنخ الفرس قبيل الفتح الاسلامي ، وأطلقوا أيدي نسائهم ، وأمهاتهم ، وخاصتهم ، في الأموال .

ثروة نساء الخلفاء

لم يتزوج السفاح إلا امرأة واحدة ، وقبل أن يتوفى للنصور أوصى ابنه للهدى أن لا يشرك النساء في أمره ، ومع ذلك فإن الخيزران أم الرشيد كانت هي صاحبة الأمر والتيه في أيام الهادي وأبيه ، وكان وزيره تحت أمرها ، فأفضى خوفها إلى حشد الأموال لنفسها ، حتى بلغت غلتها في العام (١٦٠٠.٠٠٠.٠٠٠) درهم ، وذلك نحو نصف خراج المملكة العباسية لتلك العهد ، وغلة أعظم متمول العالم اليوم لا تزيد على ثلثي هذا المال ، قد ذكروا أن البراد « روكفرا » الفتي الأمريكي الشهير نحو (١٠٠.٠٠٠.٠٠٠) جنيه في السنة ، وغلة الخيزران أكثر من ١٠.٥٠٠.٠٠٠.٠٠٠ دينار وقيمة النقود كانت تساوي ثلاثة أضعافها اليوم ، والدينار نصف جنيه ، فتكون غلة « روكفرا » نحو ثلثي غلة الخيزران ، وكانت الخيزران مع ذلك شديدة الوطأة ، ورغبة في الاستتار ، فلما آتت في ابنها الهادي معارضة لارادتها ، دست إليه من قتلها ، ولمسات توسع الرشيد بأموالها ، وأقطع الناس ضياعها .

على أن الخيزران كانت من أهل العلم والرأي ، فلا غربة في اقتنائها الأموال في إبان الثروة العباسية ، إنما الغربة في لقتها أمهات الخلفاء الأموال الكثيرة في عصر الاضطراب وبيت المال فارغ ، فإن قبيصة أم المعتز وجعلوا لها من مخبات في البهايز ونحوها نحو (٢.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠) دينار هذا ، وما لا تحترق من التحف والجواهر مما نأى بذكره على سبيل المثال ، من ذلك مقدار مكوك من الزمرد الخشن ونصف مكوك لؤلؤ كبير ونحو كيلجة ياقوت أحمر مما قدروا قيمته (٢.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠) دينار ، وكانت مع ذلك قد عرضت ابنها لقتل من أجل (٥.٠٠٠.٠٠٠) دينار .

وأغرب من ذلك شأن أم محمد بن الوائلي ، قد كانت غلتها (١٠.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠) دينار في العام ، تنفقا في جواربها وهي نحو غلة الخيزران ، وأخرجوا من تربة والده المقتدر ٦٠.٠٠٠.٠٠٠ دينار ، كانت عناية هناك ولم يعلم بها أحد مع ضيق الخليفة ، وفراغ بيت ماله . وقس على ذلك أمهات الخلفاء الآخرين في العراق وغيره من بلاد الاسلام ، قد كنّ يتمتعن بالنفوذ ويستولين على الأموال بالتواطؤ مع القواد ورجال الجند بما يتاح لهم من إطلاق الأيدي في أمور الدولة كما فصل المستعين العباسي (٢٤٩ هـ) فانه أطلق يد والده ويد اتامش وشاهك الخادم في بيوت الأموال وأباحهم فعل ما أرادوا ، فكانت الأموال التي ترد من الآفاق يسير معظمها إلى هؤلاء الثلاثة .

فلا عجب والحالة هذه اذا تحولت الفتي الى النساء والخدم والقواد (وهل تستغرب بعد ذلك اذا علقت أنه كان بين ريش أم المستعين بساطاً أثقت على صنعه (١٣٠٠.٠٠٠.٠٠٠) دينار (ربما دوهم) فيه قشوش على أشكال الحيوانات والطيور ، وأجسامها من الذهب ، وعيونها من الجواهر) . وأذا قيل لك : إن فلانة حشت فم الشاعر الفلاني ذراً فباعه بعشرين ألف دينار . أو اذا سمعت بهدياً قطراندي وغيرهما من نساء الخلفاء . ناهيك عما كان في بلاط الخلفاء العباسيين وغيرهم من التهرمانات الواقي كثر يتولين شؤون دور الخلفاء والتفتة عليها بالاتفاق مع الوزير أو من ينوب عنه ، فكان هؤلاء النساء هؤلاء عظيم في قصور الخلفاء وفي أعمال الدولة ، كما كانت تفعل أم موسى القهرمانة في أيام المقتدر في أوائل القرن الرابع للهجرة ، ولم يكن لأولئك القهرمانات سبيل للافتقار لولا ما في قصور الخلفاء من الجوارى والخدم وغيرهم (١) .

(١) إن هذا القول مقول من كتاب « تاريخ المدن الاسلامي » ، وقد عزاه إلى المؤلفين المشهورين وكتبهم مثل : (١) الفريزي (٢) الجزء الأول من كتاب المدن الاسلامي (٣) ابن الأثير (٤) المغري (٥) ابن سائر نسخة كراير (٦) كتاب المراج لأبي يوسف (٧) البيهقي (٨) للمسرف (٩) المسعودي (١٠) للماوردي (١١) ابن الفقيه (١٢) الطبري (١٣) الفرماني .

الجواري والفلان

وفي مناقب المنصور (صفحة ١٠٤) : انه لما علم بوجود الطنبوري في داره كسره على حامله ، ولكن لم يمس على موته أربعون سنة حتى أصبحت دور الخلفاء مسرعا للفناء والهوان ، فلما كان في قصر الرشيد نشأة جارية مابين جنسية إلى عودية ، إلى ذفية ، إلى قانونية ، إلى زامية ، إلى مغنية ، إلى راقصة ، إلى سنطورية ، فضلا عن كان في قصره من النساء والمضاحكين كالشيخ أبي الحسن الخليلي المشقي (١) وابن أبي مريم المدني (٢) وغيرهما ، وامر جارية إلا ونمها ألف دينار ، أو عشرة آلاف دينار (٣) إلى مائة ألف دينار غير ما يقتضيه اقتناؤهن من الثقات الأخرى كالألبسة والخلى وهي شئ كثير ، قد اشترى الرشيد ثمانية مائة ألف دينار (٤) وقس على ذلك .

ناهيك بما كانوا يقتنونه من الممالك والفلان عما يتقنون بالثلاث والالوف ، قد بلغ عدد خدم المقتدر (١١٠٠٠) خصي من الروم والسودان (٥) غير ما يقتضيه ذلك من الأبنية والقصور والباش ، قد تبنى الموز دارا في بغداد أقيم عليها ١٣٠٠٠٠ درهم (٦) وبني الأمين قصورا في الخيزرانية أقيم عليها ٢٠٠٠٠٠ درهم (٧) واصطنع في دجلة خمس حرافات (سفن) لإحداها على صورة الأسد ، والثانية بصورة الفيل ، والثالثة بصورة العقاب ، والرابعة بصورة الحية ، والخامسة بصورة الفرس أقيم عليها مالا عظيما ، وفيها يقول أبو نواس :

سخر الله للأمين مطايا * لم تسخر لصاحب الخراب
فاذا ماركا به سرن برّا * سار في الماء راكبا ليشغاب
ههب الناس إذ رأوك على صو * رة ليشتموه من السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه * كيف لو أبصروك فوق العقاب
ذات زور ومفسر وجناح * ن تشق العباب بعد العباب
نسب الطير في السماء إذا ما * تهاووا بجيئة وذهاب

وعما يحسن إيراد مثلا على بذخهم أن الأمين المذكور أمر يوما أن يفرش له على دكان في الخلد ، وفرش عليها بساط ذهبي وغمارق وفرش مثله وهي من آنية الذهب والفضة والجواهر أمر عظيم ، وأمر قيمة جواريه أن تنهى له مائة جارية صائفة ، فتصعد إليه عشرا عشرا بأيديهن العيدان ينفين بصوت واحد فضلت (٨) انتهى من كتاب « تاريخ الممدين الاسلامي »

فلما سمع صاحب ذلك ، ضرب كفا على كفه ، وقال : أنا قرأت التاريخ في المدارس وفي الكتب ، ولكنني والله لم أعلم ما علمت اليوم ، إن التفصيل يفعل مالا يفعله الاجال ، وكيف يقتنى المقتدر ١١٠٠٠ من خصي الروم والسودان ، وكيف تكون الحياة كلها حياة اسراف ، وما هذا الاسراف في الطعام والشراب ، هذا والله هو التفسير الحقيقي للقرآن ، حكمة الفلاسفة قبل ظهور القرآن وظهور الآثار في أم الاسلام بعد ذلك

لعيفة

إن ما كان ينقته الخلفاء إنما كان من بيت المال ، ألا ترى أن يحيى بن خالد البرمكي أمره الرشيد أن

(١) إعلام الناس ٩٧ - (٢) الطبري ٧٤٣ ج ٣ - (٣) ترتيب النول ١٢٦ - (٤) ابن الأثير ٤٤ ج ٦ - (٥) الفخري ٢٣٤ - (٦) ابن الأثير ٢١١ ج ٨ - (٧) ابن الأثير ١١٢ ج ٦ - (٨) ابن الأثير ١٢٠ ج ٦

يدفع ثمن الجارية ١٠٠٠٠٠ دينار ، فاستكثره واعتلوه عن دفعه فغضب الرشيد ، فأراد يحيى أن يبين له مقدار ما يتحمل بيت المال من هذا الاسراف فيألا مصلحة للدولة فيه ، فجعل ذلك المال دراهم ، فبلغت نحو ١٠٠٠٠٠٠ درهم ، فوضعها في الرواق الذي يمر به الرشيد إذا أراد الوضوء ، فلما رأى الرشيد ذلك المال استكثره ، ولما أخبروه أنه ثمن الجارية أدرك إسرافه ، ولكنه شرع بما في ذلك من الجارة عليه ومحاولة غلّ يديه ، فحفظ ذلك في نفسه ، ويقال أنه كان من جهة ما حله على نكبة البرامكة (١) .
واتحق نحو ذلك للوائق بلفه مع وزيره ابن الزيت في ثمن جارية ، فلما مثل الوزير بالبلغ أمره أن يدفع ضعتين ، ففعل (٢) .

وفي كتاب أبي سفيان الثوري إلى الرشيد جوابا على كتاب استدعاه به إلى بغداد ما يشبه كلام أبي ذرّ التفاري لمالوية ، وبدل على أن الرشيد كان بهب ويميز من بيت مال المسلمين ، وذلك أن الرشيد دعاه بكتب بث إليه في الكوفة ، وأخبره أن الناس قدموا إليه ، وأنه فتح بيوت الأموال ، وأعطاهم من الموابب السنية الخ . فأجابه أبوسفيان بكتب شديد الهمجة ، وفي جلة ذلك قوله : « أما بعد فاني كتبت إليك أعلمك اني صرمت حبلك ، وقطعت ودك ، وانك قد جعلتني شاهدا عليك باقرارك على نفسك في كتابك ، انك هجمت على بيت مال المسلمين ، فأفقت في غير حق ، وأفقدته بغير حكمة ، ولم ترض بما فعلته وأنت تاه عنى حتى كتبت الى تنهدني على نفسك ، فأما أنا فاني قد شهدت عليك أنا واخواني الذين حضروا كتابك وسؤدّي الشهادة غدا بين يدي الله الحكيم العدل ، يهرون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم ، هل رضى بفضك للوثة قلوبهم ، والعاملون عليها في أرض الله ، والمجاهدون في سبيل الله ، وابن السبيل ؟ أم رضى بذلك حجة القرآن وأهل العلم (يعني العاملين) ؟ أم رضى بفضك الأيتام والأرامل ؟ أم رضى بذلك خلق من رعيته ؟ (٣) . فهذا وأمثاله يدل على أن الخلفاء كانوا يهجون ويميزون ويذخون ويسرفون من بيت المال .

ومن هذا القليل استكثر رجال الدولة بالأموال لأنفسهم ، فإن الدولة إذا بلغت إلى قمة مروتها ، وانفوس الملك في الترف والقصف وتعاقد من مباشرة الأحكام بنفسه تحول النفوذ إلى المحيطين به ، أو اثنين ينوبون عنه ، أو يتوسطون بينه وبين الناس كالوزير والعامل والكاظم والحاجب والقائد ، وأصبح الأمر والنهي في أيديهم ، فيستأفرون بالأموال لأنفسهم يجمعون منها ما استطاعوا ويسرفون ويذخون على ما تشتهي أحوالهم وأطوارهم ، ولا يكون ذلك إلا في الدولة نطلقة انني ليس على أعمالها مراقب ولا محاسب ، فمن ينوب عن الملك من الوزراء أو الكتاب أو الحاجب في عصر الترف والتعاقد يكون له نحو ذلك النفوذ ، وخصوصا في مثل الدولة العباسية ، لأن وزراءها وكتبتها من أمة لم تهم دولتهم إلا بها ، ولم يزه تمتهم إلا بملأها ، ولذلك كان للوزراء في هذه الدولة للكامة النافذة ، والسيف الطامع ، حتى في إبان تمتها ، اعتبروا كان من نفوذ البرامكة في أيام الرشيد ، وما كان من إحرازهم الأموال لأنفسهم ، حتى كان يحتاج الرشيد إلى البسير من المال فلا يقدر عليه (٤) فلما غلوا يديه عما كانت تتطلبه نفسه من الترف والاستبداد (٥) نكبه على ما هو مشهور كان نكب المهدي قبله وزيره يعقوب بن داود ، وكان قساستوره ، وسلم إليه الامور ، وقوض اليه النواوين ، وانشغل المهدي عنه بالهو ، وسماح الأغاني ، فغظم ذلك على الناس ، وخصوصا العرب ، فهجوا يعقوب ، ومن ذلك قول بشر بن برد :

بني أمية هوا طال نومكم * إن الخليفة يعقوب بن داود

(١) الطبري ١٣٣٢ ج ٣ - (٢) ابن الأثير ١٣ ج ٧ - (٣) السمعاني ١٨٨ ج ٢

(٤) المسعودي ٢٠١ ج ٢ - (٥) الطبري ١٣٣٢ ج ٣

ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا * خلافة الله بين الناي والعود (١)

وروى بعض الناس إلى المهدي بذلك ، فاستدعاه ، وقبض عليه ، وسجنه ، وظل في سجنه أعزما طويلا وكما اتفق للأمن مع يحيى بن أكرم القاضي إذ عهد إليه بتدبير مملكته وأكرمه نحووا كرام الرشيد للبرامكة (٢) ، ثم لم يكن راضيا عنه ، ولذلك لما دنت وفاة للأمن ، أوصى أخاه المعتصم قائلا : « لا تفضلن وزيرا تلقى إليه شيئا ، فقد علمت ما نكبتني به يحيى بن أكرم في معاملة الناس وشبه سيرته » (٣) . وكان العرب يكرهون الوزراء ، خصوصا لأنهم في الغالب من القرس ، وكانوا يصفونهم بالجبن والبخل وقبول الرشوة قال اعرابي يصف وزيرا :

ومظهر نسك ماعليه ضميره * يحب الهدايا بالرجال مكور

انزال به جبا وبغلا وشيمة * تخبر عنه انه لوزير (٤)

على أن الوزراء كثيرا ما كانوا يمنون المال عن الخلفاء ضنا ببيت مال المسلمين أن يذهب في الاسراف لاطمئناهم لأنفسهم ، كما اتفق للواق مع وزيره ابن الزيت إذ أعجبه صوت غنته جارية اسمها « علم » فأمر لصاحبها بخمسة آلاف دينار ، فطل ابن الزيت في دفعها ، فغضب الواق ، وأمره أن يدفع ضعي ذلك المال ، فدفع إليه ١٠٠.٠٠٠ دينار (٥) وكان الوزراء يزدادون نفوذا واستشارا بالمال زيادة ضعف الخلفاء ، حتى صارت معظم الأموال إليهم .

الوزراء

بلغ من ثروة الوزراء ما يشبه ثروة الخلفاء ، أو بيت المال في أيام الزهركان الأموال تحوّل من بيت المال إلى بيوت هؤلاء الناس ، وصارت الوزارة مطمع أنظار أهل الطامع يذنون الرشا ، ويقتنون الهدايا رغبة فيها ، على أنها كثيرا ما كانت تعرض عرضا على من يقوم بنقبات الجند (٦) ولكن الغالب أن تبذل الأموال في سبيل الحصول عليها لما رأسا إلى الخليفة كما فعل ابن مقلة إذ بذل ٥٠٠.٠٠٠ دينار حتى استوزره الراضى في أوائل القرن الرابع للهجرة ، وكما فعل ابن جبير إذ ابتاع الوزارة من القائم بأمر الله بمبلغ ٣٠٠.٠٠٠ دينار (٧) أو بواسطة واحد من خاصة الخلفاء يستخدمونه بالمال ، وهم لم يكونوا يفعلون ذلك إلا لاعتقادهم أنهم يسترجعون في أثناء وزارتهم أضعاف ما بذلوه بما تصل إليه أيديهم من الرشوة من تولية العمال والنظار والكتاب وغيرهم .

ومن غريب ما عكس عن ارتقاء الوزراء أن الخلفاء وزير المقتدر بلغ من سوء سيرته في قبول الرشوة انه ولى في يوم واحد تسعة عشر ناظرا للكوفة ، وأخذ من كل واحد رشوة ، فاحتمروا واحدا واحدا حتى اجتمعوا جميعا في بعض الطريق ، فقالوا كيف نصنع ؟ فقال أحدهم : ينبغي أن أردتم النصفة أن نضع إلى الكوفة آخرنا عهدا بالوزير ، فهو الذي ولايته محيطة لأنه لم يأت بعده أحد ، فاتفقوا على ذلك ، فتوجه الرجل الذي جاء في الأخير نحو الكوفة ، وعاد بالاقون إلى الوزير ، فقرّتهم في عدة أعمال ، وهجاء بعض الشعراء بقوله :

وزير لا يمل من الرقعة * يولى ثم يعزل بعد ساعة
ويذنى من نجل منه مال * وبعد من توسل بالشفاعه

(١) الفخرى ١٦٦ - (٢) ابن خلكان ٢١٧ ج ٢ - (٣) الطبرى ١١٣٩ ج ٣

(٤) الطبرى ١٠٨٨ ج ٣ - (٥) ابن الأثير ١٣ ج ٧ - (٦) ابن الأثير ٨٣ ٨٦٩ ج ٨

وصلة تاريخ الطبرى ٧٩ - (٧) الفخرى ٢٥٣ و ٢٦٦

إذا أهل الرشا صاروا إليه ، فأحطى القوم أوفرهم بضاعة (١)

وكانت الأموال ترد على الوزراء من العمال وغيرهم من موظفي الدولة ضريبة في كل عام بصفة هدية استبقاء لرضاهم . على أن بعضهم ، وهونادر ، لم يكن يقبل الرشوة ، ولا يصل إلا بالحق مثل عبيد الله بن يحيى بن خافان وزير المتوكل على الله قاله كان عفيفا ، ذكر الفخري أن صاحب مصر حل إليه ٢٠٠.٠٠٠ دينار وثلاثين سقفا من الثياب المصرية على عادته مع غيره من الوزراء ، فلما أحضرت بين يديه ، قال لوكيل صاحب مصر : « لا والله لا أقبلها ، ولا أنقل عليه بذلك » ، ثم فتح الأسفاط ، وأخذ منها منديلا وضعه تحت عنقه وأمر بالمال خمل إلى خزانة الديوان وجمع بها وأخذ به دورا لصاحب مصر (٢)

ومن الوزراء الذين اشتهروا بالغة وصدق الخدمة على بن حيسى وزير للتندر ، ولا يخفى أن يكون غيرهم قد أخلص الخدمة ، ولكن يقال بالإجمال أن الوزراء في عصر التتبع العباسي قلما كانوا يتولون الوزارة إلا طمعا باختزان الأموال ، قال أبو الحسن بن الفرات وزير للتندر ثلاث دفعات : الأولى سنة ٢٩٦ هجرية بقي فيها ثلاث سنين ، فكان مقدرا ما اجتمع عنده من المال يساوي ٧.٠٠٠.٠٠٠ دينار أخذت كلها مصادرة ، ثم عاد إلى الوزارة سنة ٣٠٤ وخلف سنة ٣٠٦ ثم عاد ثالثة سنة ٣١١ وخلف سنة ٣١٢ هـ فجمع المدة التي مكث بها في الوزارة في الـفيتين الأخيرتين نحو ثلاث سنوات ، فكان عنده لما خلف أخيرا ما يزيد على ١٠.٠٠٠.٠٠٠ دينار ، وضياح يستغل منها كل سنة ٢.٠٠٠.٠٠٠ دينار (٣) ومع ذلك لم يذكره المؤرخون بسوء لفرط كرمه وأحسنه ، وكان إذا ولي الوزارة يفاول التلج والشمع والكافد لكثرة استعماله له لأنه ما كان يشرب أحد كتنا من كان في داره في الفصول الثلاثة إلا الماء للتلوج ، ولا كان أحد يخرج من عنده بعد الغروب إلا وبين يديه شمع كبرية هبة ، وكان في داره حجرة معروقة بحجرة الكافد ، كل من دخلها واحتاج إلى شيء منه أخذه (٤) وكان يطلق لأصحاب الحديث عشرين ألف درهم ، وللشراء عشرين ألف درهم ، ولأصحاب الأدب عشرين ألف درهم ، وللشعراء عشرين ألف درهم ، وللصوفية عشرين ألف (٥) وكان يجري الزرق على خصة آلاف من أهل العلم والدين والبيوت والفقراء وأكثرهم ١٠٠ دينار في الشهر ، وأقلهم خصة دراهم وما بين ذلك (٦) ، فضلى الكرم طمعه كما غطى طمع البرامكة قبله ، وقطع أسنة الشعراء ، وكسر أقلام المؤرخين .

وهناك كثيرون من الوزراء جمعوا أموالا طائلة ، وانغمسوا في أنواع الترف والبلخ ، وذلك طبعي في الدول المنتظمة على الطرق القديمة ، لأن الوزراء كانوا يجمعون الأموال الكثيرة حينما كانوا في العراق ، أو في مصر ، أو في الأندلس ، فقد خلف المارداني وزير بني طولون بمصر من الضياح الكبار ما قلما مله أحد قبله وارتفاعها ٤٠.٠٠٠ دينار كل سنة سوى الخراج ، وقد ذهب وأعطى وأفضل ، وحج ٢٧ حجة أحقق في كل منها ١٥.٠٠٠ دينار (٧) . ويعقوب بن كلس أول وزراء الفاطميين كان في جلة أملاكا أقطاع في الشام دخله ٣٠.٠٠٠ دينار في السنة ، وخلف أملاكا وضياحا وقياسا وروبا وخيلا وفضلا ونوقا ، وغير ذلك ما قيمته ٤٠.٠٠٠ دينار غير ما أفتقه في تجهيز ابنته وهو ٢٠.٠٠٠.٠٠٠ دينار ، وخلف ٨٠٠ حنية سوى جواري الخدمة ، وأربعة آلاف غلام عرفوا بالطاعة الوزيرية (٨) وخلف الأفضل أمير الجيوش وزير المستنصر الفاطمي مالم يسمح بمثل ذلك ٦٠.٠٠٠.٠٠٠ دينار عينا (٩) و٢٥٠ ألف درهم

(١) الفخري ٢٤١ - (٢) الفخري ٢١٦ - (٣) ابن خلكان ٣٧٢ ج ١

(٤) الفخري ٢٤٠ - (٥) ابن الأثير ٥٧ ج ٨ - (٦) ابن خلكان ٣٧٢ ج ١

(٧) المقرئ ١٥٥ ج ٢ - (٨) المقرئ ٦ ج ٢

(٩) وهو في الأصل ستائة ألف ألف دينار ، ولا بد من خطأ طرأ إلى نصه ، إذ لا يميل أن يجمع هذا

قد مصر، و٧٥٠٠٠ ثوب ديباج أجلس و٣٠ رحلة احتاق ذهب عراقى، ودواة ذهب فيها جوهر قيمته ١٢٠٠٠ دينار، ومائة سمار من ذهب وزن كل سمار مائة مثقال فى عشرة مجالس فى كل مجلس عشرة مسامير على كل سمار منديل مشدود منذهب بلون من الألوان أيا أحب لبسه، و٥٠ صندوق كسوة ماعدا الخليل والبغال والمناشية والجوارى والعبيد مالا يحصى عده (١)

وقس على ذلك أحوال الوزراء فى الأندلس فإن هدية الوزير ابن شهيد لعبد الرحمن الناصر سنة ٣٢٧ هجرية تدل على مقدار تلك الثروة، فقد أوردتها ابن خلدون والمقرئ، وفصلها هذا الأخير تفصيلا حسنا فى ثلاث صفحات كبيرة (٢).

وحدث نحو ذلك فى الدولة العثمانية فى إبان ثروتها، فكان الوزراء يقتنون الضياع الواسعة، ويحتالون فى استغلالها بأن يقفوها على بعض المساجد، بشرط أن يستولى ورتبهم على مقام رئيسها، ليخلصوا أنفسهم من خراجها، أو عشورها (٣).

أما الأبواب التى كان وزراء الدولة العباسية يكتسبون تلك الأموال بها فكثيرة، من جعلها قبول الرشوة فى التوظيف كما تقدم وما يرد عليهم من هدايا العمال للسبب نفسه، ومنها اغتصاب الضياع بما لهم من النفوذ فيستولون على ماشاؤها بغير حساب، ناهيك بما كانوا يمتدنون إليه أعيانهم من أموال الخراج الواردة إلى الديوان، وقد تقدم أن طرق دفاتر تلك الأيام لم تكن تمنع الاختلاس أو تظهره.

ومن أبواب الكسب أيضا أن بعض الموظفين كانوا يحتاجون إلى رواتبهم وهم مشغولون بما هم فيه من الخدمة ولا سبيل لهم إلى المال فكان بعض الوزراء يقيم من قبله أناسا يشترون توقيعات أرزاق أولئك الموظفين بنصف قيمتها ثم يقضها هو كاملة (٤) وكانوا يفعلون نحو ذلك أيضا فى رواتب الفقهاء وأرباب البيوت فكانهم كانوا يقاسمون الناس على أوصاف رواتبهم، وهو تجار يرواتب للموظفين فضلا عن تجارهم بالأرزاق وعما كانوا يكتسبونه بمن ضمن بلد أو خراجا على سبيل الرشوة أو الاقتسام، وما كانوا ينتسبونه من التجار بنفوذهم وإغضاء الخلفاء عنهم (٥). وكانوا يسمون ما يكتسبه الوزراء على هذه الصورة «مراقت الوزراء» وكانت مشهورة بين الناس، ومن مراقبتهم أيضا تنقبض غير القود، فكانوا يضربون الدنانير ناقصة، فيربحون من ذلك مالا طائلا (٦).

تلك كانت حال الوزراء، وفى أيديهم الحل والعقد، ومع ذلك فالحلفاء هم المطلوبون بأرزاق الجند، وقد علمت ما كان من أمر الأتراك واستبدادهم فى الخلفاء ومطالبتهم بالأموال لأرزاقهم وثقتهم فلم يكن يرى الخلفاء سبيلا إلى ذلك إلا بمطالبة الوزراء، فإذا لم يدفعوا أخذوا المال منهم بالقوة، وهو ما يصبرون عنهم بالمصادرة، وكانت المصادرة راحة فى عصر التفهر إذ لم يكن من سبيل إلى سد نفقات الدولة إلا بها، ولا يكاد يتولى وزير إلا انتهت وزارته بالمصادرة أو بالقتل أو بهما جميعا (٧).

هناك أعجب صدق فى هذه الأخبار إعجابا شديدا، وانشرح صدره، ولكنه قال: إن مصادر هذه الأخبار كتب مختلفة، وبعضها كتب محاضرات وحكايات. قلت نعم، ولكنه على كل حال يدل على حال القوم إذ ذاك بجملة لا ينصيه. قل: فأرجو أن تبين لى حال ثروة أهل المملكة فى ذلك الزمان. قلت: جاء

المال عند واحد، وهو ينفق مجموع خراج مصر لثلاثة سنة، فالأرجح أن يكون المراد ستين ألف ألف دينار كما قلنا، ويتبع أن يكون المراد دراهم بدل دنانير، لأن أموال مصر قلما فترت بالدرهم.

(١) ابن خلكان ٢٢٢ ج ١ - (٢) فتح الطيب ١٦٨ ج ١ - (٣) ابن الأثير ٨٤ ج ٨

(٤) الطبرى ٧٠٣ ج ٣ - (٥) ابن الأثير ١٤٩ ج ٨

في كتاب « تلويح القند الاسلامي » ماضه :

« كانت المدينة محصورة في المدن دون القرى عملا بقاعدة القند في تلك الأيام وهي أن تكون القوة والأبهة حيثما يكون ولاية الأمر أو من يلازمهم من الخليفة إلى أهلها ، فأهل بلاطه فضله ووزرائه ، وهؤلاء كانوا يقيمون في المدن ، وخصوصا المواسم ، وكذلك عمرت بغداد والبصرة ودمشق والفسطاط والقاهرة والقليوبان وقرطبة وغرناطة ونحوها ، وظلت القرى والضياع مفارسة لعمارة فيها . ولا تكاد تجد أثرا من آثار ذلك القند في غير المدن .

ففي هذه المدن فاضت ينابيع القوة الاسلامية وعاش الناس في الرخاء والرغد بجوار الخليفة ، ورجال دولته ينالون جوائزهم وهداياهم وخدمهم ويبيعونهم السلع والمجوهرات والأقنعة ، وفي هذه المدن كان يجتمع العلماء والشعراء والمفنون والثناء يتعجبون بما يجدونه الخليفة ، أو أمراءه ، أو رجال دولته .

فلما كان بلاط الرشيد غاصا بالرفود ، وبيت ماله حافلا بالنقود ، والبرامكة ينزلون المئات والآلاف ، كان تجار بغداد في قمة وثروة ، وخصوصا باعة المجوهرات والرياش لأنهما مما تتطلبه المدينة في عهد الترف والبلوغ فقد رأيت في بعض ما تقدم أن جوهريا بالكرخ في بغداد سلومه يحيى البرمكي على سفط من الجوهر يبلغ ٧٠٠٠ درهم فخر يبعه ^(١) وهو جزء مما في خانوته فما قواك بسائر مافي ، وهناك جوهرى آخر يقال له ابن الجصاص صانده الخليفة للقند سنة ٣٠٢ هـ فكان ما أخضره من بيته من صنوف الأموال تزيد قيمته على ٢٠٠٠٠٠ دينار ^(٢) وكان في بغداد شريف يسمى محمد بن عمر بلغ خواجه أملاكه ٢٥٠٠٠٠ درهم في السنة ^(٣)

وقس على ذلك سائر التجارات في بغداد وغيرها ، فقد كان في اصطخر بيت ينسب إلى آل حفظة أحدهم عمرو بن هينة ، بلغ من يساره أنه ابتاع بليون درهم ، صاحب فرقها في مدن الاسلام ، وكان مبلغ خواجه هذا البيت من ضياعهم نحو ١٠٠٠٠٠٠٠ درهم ، ومنهم مرداس بن عمر كان خواجه ماله ٣٠٠٠٠٠٠ درهم وابن عمه محمد بن واصل ملكه مثل ملكه ^(٤) . وكان في سيراف تجار واسعو القوة يجوز مال أحدهم ٦٠٠٠٠٠٠ درهم اكتسبها من تجارة البحر من العود والكافور والصنبر والجواهر والخيزران والعاج والأبنوس والقليل وغيرها ^(٥) ، ومنهم من يبنى دارا فينتقى على بنائها ٣٠٠٠٠ دينار ^(٦) وأوصى أحدهم بثلاث ماله لعمل فبلغ ١٠٠٠٠٠٠ دينار بين مركب قائم بنفسه وآلته ^(٧) ، وأمثال ذلك كثير في معظم مدن المشرق .

وقس عليه ثروة كل من خالف الخلفاء ونال جوائزهم ، أو خدمهم في بلاطهم في إبان ثروتهم غير الوزراء والكتاب والمعال فنهم جمعوا أموالا طائلة حتى للمفنين والشعراء ، فقد توفي إبراهيم الموسلى مفتي الرشيد عن ثروة مقدارها ٢٤٠٠٠٠٠ درهم ^(٨) ، وتوفي جبريل بن تخبشوع طبيب الرشيد وخلف مايسوى ٩٠٠٠٠٠ درهم من ضياع وجواهر وقود .

واعتبر ذلك في سائر البلاد والأحوال ، فتجد القوة كانت في الغالب عند الخلفاء ، أو من ينسب إليهم ، حتى التجار فانهم إنما كانوا يأمنون على ثروتهم بالانتماء إلى أولى الأمر إلا نادرا .

(١) الطبرى ٧٠٢ ج ٣ - (٢) ابن الأثير ٣٣ ج ٨ - (٣) ابن الأثير ٢٠ ج ٩

(٤) الاصطخرى ١٤٢ - (٥) الاصطخرى ١٥٤ - (٦) ابن حوقل ١٩٨

(٧) ابن حوقل ٢٠٧ - (٨) سير الملوك ١١٣

القرى

أما القرى فقد كان سكانها الفلاحين من أهل البلاد الأصليين ، ويسمونهم « أهل الخراج » ، فهؤلاء يمسكون بالأجرة ، أو شركاء لأصحاب الأملاك من الخلفاء ، أو الأمراء ، أو من يتنقش إليهم من الأعيان ، وخصوصا النصارى في العراق وفارس وهم أصحاب الاقطاعات الكبرى قبل الاسلام . فلما كان الاسلام تهرّبوا من الحكومة بأموالهم (١) ونفوذهم في أهل بلادهم ، وبندران يكون للفلاحين ملك خاص بهم لأسباب قديمة ، فكان القرى هم الفلاحون ، ومن يجري مجراهم ، وكانوا يقتنعون بالحصول على ما يقوم بأود حياتهم ، ويطلب فيهم القدر المدفوع ، وربما كان بينهم من لم ير الدينار طول عمره ، فكان أهل الدولة في المدن يبنون الدنانير جزافا ، ويهبونها مئات وآلاف ، وأهل القرى في قفر مدقع ، لو رأى أحدهم الدينار لسجد له وقبلة مشى ثلاث ، ولودفعت إليه عشرة دنانير أو عشرين لأسبابه خبل ، أو مات من ساعته كما اتفق لصياد بين بدى ابن طولون أمير مصر في أواسط القرن الثالث للهجرة ، وهو مشهور بكرمه وبذخه بما أنشأه من القصور والقباض والاسطبلات ، وكان ينفق كل شهر ألف دينار على الفقراء ، وهو الذي جاء وكيله يوما ، فقال : « اني تأتيني المرأة وعليها الازار ، وفي يدها خاتم الذهب ، فطلب مني فأعطيتها » . فقال له : « من مديده إليك فأعطته » (٢)

ومع ذلك فإن هذا الأمير نفسه ركب في غداة باردة إلى جهات المقدس بحوار الضفطاط ، فأصاب بشاطئ النيل صيادا عليه خلق لابوابه منه شيء ومعه صبي في مثل حاله ، وقد ألقى الشبكة في البحر ، فلما رآه ابن طولون رقى حاله ، وقال : يا نسيم ادفع إلى هذا عشرين دينارا ، فدفعها إليه ، ولحق ابن طولون ، فسار ولم يبعد ، ورجع فوجد الصياد ميتا ، والصبي يبكي ويصيح ، فظن ابن طولون أن بعض سوداته قتلته وأخذ الدنانير منه ، فوقف بنفسه عليه وسأل الصبي عن أبيه . فقال له الغلام : « هذا (وأشار إلى نسيم الخادم) دفع إلى أبي شيئا فلم يزل يقلبه حتى وقع ميتا » . فقال : قتله يا نسيم ، فنزل وقبضه فوجد الدنانير معه بهاها فخرّض الصبي أن يأخذها فأبى ، وقال : هذه قتلت أبي وإن أخذتها قتلتي ، فأحضر ابن طولون قاضي المقدس وشيوخه ، وأمرهم أن يشتروا الصبي دارا بخمسة مائة دينار تكون لها غلة ، وأن نجس عليه ، وكتب اسمه من أصحاب الجرايات ، وقال : أنا قتلت أبيه لأن الغنى يحتاج إلى تدرج . والا قتل صاحبه ، هذا كان يجب أن يدفع إليه دينار بعد دينار حتى تأتبه هذه الجلة على تفرقة فلا تنكسر في عينه (٣)

فإذا كان هذا حال رجل من أهل ضواحي العاصمة ، فكيف بأهل القرى البعيدين عن ترف الدولة وبذخها وجرائتها ووثاقها ؟ . اهـ

فلما سمع صاحبى ما تقدم . قال : إن من أعظم نعم الله عز وجل على أمنا الاسلامية اليوم امتزاج التاريخ والفلسفة باقرآن ، والله ان المسلمين بعد أن اختلطوا بالألم ، وذاقوا حلا الزمان ومره ، لن يخرجهم من مأزقهم إلا الاطلاع على السير والأخبار والفلسفة بشرط أن يكون منهم من يمتحنون تلك السير ، ويفهمون المتأخرين أخلاق المتقدمين ، ويذكرونهم بما كان منهم من الخطأ والغلط ، هنالك يرجع للأمر الاسلامية مجدهم ، ويملأ شأنهم ، ويذهب عنهم الخزي في الحياة الدنيا .

هذا وإنى أرجو أن أشرع بقول جامع في هذه المسألة ، وهى أن (سقراط) كان يحرم على الأمراء والجنود أن يقتلوا يوتا ، أو يكون لهم مال ، فإذا أخضت في ذلك وشرحت أوامر عمر رضى الله عنه كان ذلك

خير معوان على تذكيرنا الاسلامية بعدنا . قلت : جاء في الكتاب المذكور تحت عنوان « انتشار العرب في الأرض » ما نصه :

« قد رأيت رغبة عمر بن الخطاب رجل الاسلام في جمع كلمة العرب وتوثيق عرى الاتحاد بين قبائلهم ، وتأكيد العلائق بين منازلهم ، فغرضهم على فتح العراق والشام ، لملء بما هناك من قبائل العرب ، فاذا انضموا إلى عرب الحجاز واليمن زادوا الاسلام قوة ، ولكنه منهم عما وراء ذلك ، وأمرهم اذا بنوا بلدا في دارالفتح أن لا يبنوه في مكان يحول بينه وبين المدينة ماء خوفا على الجامعة العربية أن يزداد تباعدا طرأها فتتمزق ، ورغبة منه في استبقاء مركز الخلافة عند قبر النبي ﷺ على أن يسبق البلاد المفتوحة لاستدرا ما فيها من غلة أو مال لأهل الحجاز ، ولهذا السبب أيضا نهى المسلمين عن الزرع وشدد في منعهم اعتمادا على الحديث القتال : « السكة (الخران) مداخل دار قوم إلا دخله القتل » (١) ولأن الاشتغال بالزرع يشغلهم عن الحرب ، وهو يريد أن يقيمهم حامية لجمع الخراج والجزية واستبقاء السلطة ، ولم تكن المدن التي بنوها في صدر الاسلام كالبصرة والكوفة والفسطاط إلا حصونا أو معسكرات يزل فيها جند العرب نزل الحامية أو جيش الاحتلال (٢) ولهذا السبب أيضا أخرج غير المسلمين من جزيرة العرب عملا بوصية النبي ﷺ أن لا يترك في جزيرة العرب دينان (٣) وأن لا يأتي الحج أحد من المشركين (٤) فأخرجهم وتخلص من خطرهم إذ لو بقوا هناك على غير دين الاسلام لأتقوا الراحة ، وربما كانوا عونا لغير المسلمين ، كما كان نصارى الشام والعراق يصنعون الروم بعد ذلك كما سئى .

فكانت السياسة في صدر الاسلام أن يبقى المسلمون في بلاد العرب وضواحيها ، وكان القواد الذين قصوا الشام والعراق قد ذاقوا أنة الفتح مع سهولته عليهم فلم يكتفوا عن عمر حتى أذن لهم لمس بفتح ما وراء ذلك كما قدم ، فكان عمر وهو في المدينة قابضا على أطراف الدولة يشدها نحوه ورجاله يحاولون التهاب بها شرقا وغربا حتى اضطر أخيرا إلى مجاراتهم ، وأذن بأنسياحهم في الأرض ، فتمزق العرب ، وفتحوا مصر وقرس وأفرقيتا وغيرها ، ولما تولى عثمان أطاق العنان لقريش أن يخرجوا من المدينة ، فخرجوا وتمزق العرب في الأرض ، واقتسروا في مصر والشام والعراق وقرس ، وماوراءها ، وهدمهم برمذ لا يزيد على ٢٠٠.٠٠٠ نفس (٥) وهم جند المسلمين وعليهم حامية ملكهم الجديدة واستغلاها ، وسكانها يزيدون على مئة مليون ، ودولة الروم واقعة لهم بالمرصاد انتهى

فها أنت ذا ترى من هذا القتال ومن غيره أن عمر رضى الله عنه منع من الزرع وشدد فيه ، واذا قرأت ما تقدم في (سورة الشورى) عند الكلام على عدل عمر رضى الله عنه عرفت بما هناك أيضا كيف كان يمنع المسلمين من اقتناء الأرض ، وهو قس كان لا يملك شيئا .

فقال صاحب : يسبحان الله ، نحن جشأ في زمان مختلط مزيج جاهلي ، نحن من أبناء العرب ، ونحن اليوم فلاحون ، إذن كان أمرنا قديما غير ذلك ، وكان أكثرا مأمورين أن يكفوا عن الزرع ، وأن يكونوا مادة وسادة للام ، فلما طمعوا في المال ذلوا . قلت نعم ذلوا ، وهل ترى أعجب من أن يتحد العلم والدين على هذه القضية ، فترى (سقراط) يحرم على الأمراء والجند النهب والذخ ، ويقول : خنوا ما يكميكم من مال الأمة ، ولا تشركوها في أموالها ، ثم ترى هذه الفكرة حينها هي التي جاءت في الاسلام ، ولكن الروح الاسلامي كانت له نتيجة فلا ، ودولة قامت ، وإن لم تدم ، أما الفلسفة السقراطية فلما لم تدم بها دولة على قياسها ، بل هي آراء وقوانين لم يتحقق منها شيء في الأرض ، اللهم إلا ما يتبسه الناس اليوم في أوروبا

(١) ابن خلدون ١١٩ ج ١ - (٢) الجزء الأول من كتاب تاريخ التمدن الاسلامي

(٣) ابن هشام ١٩٥ ج ٢ - (٤) ابن هشام ٥٠ ج ٣ - (٥) ابن خلدون ١٣٦ ج ١

من تربية الجند وحفظ الأجسام والعقول بالتمرينات العضلية ونحوها ، ولقد أخذ المسلمون بما يقرب من نظام عمر زمانا ، فكان الرجل اذا أسلم من الأمم التي فتحوها بلادها سموه مولى ، وجرد من ملكه ، وألقوه بالحامية الاسلامية ، وصار له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، وأخذ عطاء مثلهم ، ولكن لما فسدت الأخلاق ، وتطورت الأحوال ، وسادت التقى ، خلصوا السدار ، ونسوا اليهود ، وبغوا في الأرض قسدا ، فانظر لهذا مما جاء في كتاب « تاريخ المحدثين الاسلامي » وهو خلاصة الجزء الخامس ، وهاك بيانها :

﴿أولا﴾ - أتباع الخاصة

كل للخاصة أتباع أخرجهم من طبقات العامة بما خصوصهم به من أسباب القربى أو الخدمة ، وهم أربع طبقات : الأولى الجند ، الثانية الأموان ، الثالثة الموالى ، الرابعة الخدم . انتهى

﴿ثانيا﴾ - كثرة الأسرى أو الأرقاء

وتكاثر الأسرى في أثناء الفتوح حتى كانوا يعتنون بالآلاف ، وياعون بالمشرات ، اعتبر ما كان من ذلك في الصدر الأول ، وماتبعه من الفتوح البعيدة في أيام بني أمية ، فقد بلغت غنائم موسى بن نصير سنة ٩١ هجرية في افرقية ٣٠٠.٠٠٠ رأس من السبي ، فبث خدما إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك ٦٠.٠٠٠ رأس ، ولم يسمع بسبي أعظم من هذا ^(١) ، وذكروا أن موسى هذا لما عاد من الأندلس كان معه ٣٠.٠٠٠ بكر من بنات شرقاء القوط وأصانهم ^(٢) ، وقس على ذلك غنائم قتيبة في بلاد الترك وغيرها وبلغت غنائم إبراهيم صاحب قزقة سنة ٤٧٢ هجرية من قلعة في الهند ١٠٠.٠٠٠ نفس ^(٣) ، وفي وقعة بلاد الروم سنة ٤٤٠ هـ بقيادة إبراهيم بن يثال سبي للمسلمون ١٠٠.٠٠٠ رأس غير الخواب ^(٤) وفي جلة غنائم الحرب فضلا عن الأسرى من الرجال جماعات من النساء والعلماء مما يشغل قلبه ، فكثيرا ما كانوا يبيعونهم بالمشرات رغبة في السرعة كما فعلوا في واقعة حمورية سنة ٢٣٣ هـ إذ نادوا على الرقيق خسة خسة ، أو عشرة عشرة ، وربما بلغ ثمن الانسان بضعة دراهم ، ذكروا أن غنائم المسلمين في واقعة الارك بالأندلس سنة ٥٩١ هـ بيع الأسير فيها بدرهم ، والسيف بنصف درهم ^(٥) ، والبصير بخمسة دراهم وقد يقضون مدة أشهر وهم يبيعون الأسرى والغنائم .
تلك أمثلة من أسباب تكاثر الرقيق عند المسلمين غير ما كان يرسله بعض الصالح إلى بلاد الخلفاء من الرق في وظيفة كل سنة من تركستان ^(٦) وبلاد البربر وغيرها .

معاملة الأسرى

كانوا في صدر الاسلام اذا غفروا بغيره تولى الأمير قسمتها على القواد بعد إرسال الخمس إلى بيت المال ثم اختلف ذلك مع الزمان باختلاف الدول ، ففي الدولة العاطمية بمصر كانوا اذا عاد الجند من حرب ومعهم الأسرى يصل الاسطول بالنبل إلى شاطئ القاهرة ، فينزلون الأسرى ويطوفون بهم القاهرة ثم ينزلونهم في مكان كانوا يسمونه المناخ (في جهة الاسماعيلية اليوم) كان مستودعا للأسرى الفسكور ، فينتظرون فيه ، فاذا استأجروا في أحد قتلاه ، ومن كان شيخا لا ينفع ضربا عنقه ، وألقوا جثته في بحر كانت في خزائب مصر تعرف بيئر النمامة ، ومن بقي يضاف الرجال منهم إلى من في المناخ ويعفى بالنساء والأطفال إلى قصر الخليفة

- (١) فتح الطيب ١١٣ ج ١ وابن الأثير ٢٥٩ ج ٤ - (٢) ابن الأثير ٢٧٢ ج ٤
(٣) ابن الأثير ٤٦ ج ١٠ - (٤) ابن الأثير ٢٢٧ ج ٩ - (٥) فتح الطيب ٢٠٩ ج ١
(٦) القرطبي ٣١٣ ج ١

بعد ما يعطى الوزير منهم طائفة ويفرق الباقي لخدسة المنزل ، ويدفع الصغار من الأسرى إلى الاستاذين فبربونهم ويعلمونهم الكتابة والرماية ، ويسمونهم إذ ذاك « الترابى » وقد يرتقى أولئك السبيان إلى رتب الأسراء (١)

ولم يكن استخدام الأسرى على هذه الصدارة تاما بالمسلمين ، بل هي عادة كانت مرعية في تلك الأعصر فن يقع من المسلمين في يد أعدائهم كل عظيم الاسترقاق حتى يقتديهم المسلمون ، وكان للخلفاء عناية في فكك الأسرى ينزلون في سبيله المال ، أو يعطون أسرى عندهم على سبيل للمبادلة ، وأشهر ما وقع من القداء بين المسلمين والروم ، لأن الحرب كانت سجالا بينهما في البر والبحر يأسر بعضهم بعضا فاحتاج الخلفاء إلى القداء ، وكان الأمويون يقتنون أسراهم أحيانا وعلى قلة النفر بعد النفر في سواحل الشام والاسكندرية ومطية وسائر الثغور على الحدود ، وأول فداء منظم وقع في أيام جى العباسى على يد الرشيد سنة ١٨٩ هـ وتوالى القداء بعده بضع عشرة مرة في أثناء ١٥٠ سنة ، وتزايدت عناية المسلمين في فكك أسراهم حتى أصبح أهل الروع من الأغنياء يقنون للمال على فككهم (٢)

أما الروم فقلما كانوا يقتنون أسراهم بالمال ، ولعل السبب في ذلك أن أولئك الأسرى يكونون في الغالب لفيما من رعايلهم ، أو أجنادا من الفراء الأجوريين وليس من الروم أنفسهم ، أما للمسلمون فهم غالبا المهاجرون ، فإذا غفروا كانت غنائمهم من ذلك اللقيف ، وإذا غلبوا فن وقع في الأسر منهم كان من المحاربين الذين يستحقون القداء ، والرابطة القومية بين المسلمين يومئذ أشد وثوقا منها بين الروم ورعايلهم . وأجنادهم . على أن المسلمين كثيرا ما كانوا يأبسون المال بدل الأسرى ، ولا سيما في الدولة الفاطمية ، ولا يعرف عن هذه الدولة أنها قامت أسيرا من الأفرنج بمال ، ولا بأسير مثله ، فكان ذلك من جهة البواش على زيادة الأرقاء عند المسلمين .

فهل يستقرب بعد ذلك إذا استكثر المسلمون من العبيد والماليك ، فيبلغ عددهم عند بعضهم عشرة أرمات أو ألفا ، حتى الفقراء من عامة الجند كان أحدهم لا يغلو من عبد أو بضعة عبيد يخدمونه (٣) ، وكان للفارس في عصر الأيوبيين عشرة أتباع يخدمونه ، أو بضع عشرات إلى مائة (٤) فكيف بالأسراء والقوادس في صدر الاسلام ، فإن الخليفة عثمان كان له ألف مملوك مع علك يزيد الراشدين قبله (٥) ، فاعتبركم يكون عددهم في أيام البروة والترف ؟ فقد كان الأمير في الدولة الأموية إذا سار مثنى في ركابه مائة عبد ، أو بضع مئات ، أو ألف عبد (٦) ، وبلغ عدد غلمان رافع بن هرثمة والى خراسان سنة ٢٧٩ هجرية ٤٠٠٠ عبد ولم يملك أحد من ولادة خراسان قبله منه .

أصناف الأرقاء

وكانوا إذا تكاثروا الأرقاء عند أحدهم وأراد استخدامهم في منزله جعل عليهم قيبا يتولى النظر في شؤونهم يسمونه (الاستاذ) . على أن الغالب في العلمان إذا كثروا عند أمير أن يتخذهم جندا يحرسونه فيملهم الحرب والقتال ، فقد كان عند الاخشيذ صاحب مصر ٨٠٠٠ مملوك ، يحرسه في كل ليلة ألفان ، وأكثر فرق الجند عند الأسراء من غلثتهم ، وأسلمهم من السبي والأسرى ، أو يبتاعونهم بالمال لهذه الغاية كما تقدم في كلامنا عن فرق الجند ، وربما بلغ ثمن للمملوك ألف دينار .

(١) المقرئى ١٩٣ ج ٢ ٤٨٩ ج ١ - (٢) المقرئى ٧٩ ١٩١ ج ٢ - (٣) السعودى ٢٢ ج ٢

(٤) المقرئى ٩٥ ج ١ - (٥) المسيرى ٤٩ ج ١ - (٦) ابن الأثير ١٤٧ ج ٤ والأغنى

أما الباقون من الأرقاء للخدمة في البيوت ، فيملكونهم الصنائع اللازمة لتدبير المنزل ، فبهم الفرائش والطباخ والخازن والوكيل أو النقيب والبواب والملاح والركابي وغيرهم (١) ، ومنهم الوصف والملاوك ، وفيهم الرومي والتركي والقارسي والبربري والزنجي والصقلي بن مجلوب ومولد من الذكور والإناث مما يصحى . وإذا زادوا عما يحتاجون إليه في الخدمة أو الحراسة أو الحماية اتخذوا الفلمان منهم زينة مجالسهم ، وكان يفضل ذلك أهل السعة واليسار ، ولاسيما الخلفاء فبهم تأقوا في تزيينهم بأنواع الألبسة المزخرفة مما لم يسبق له مثيل ، وأول من أقدم على ذلك الأمين بن الرشيد ، فانه بالغ في طلب الفلمان ولاسيما الحمصيان وابتاعهم ، وغال فيهم ، وصيرهم خلوة ، وزينهم مثل زينة الجولاري ، ثم صار الاستسكار من الفلمان سنة عند الخلفاء ، فكان عند المقتدر باقة ١١٠٠ غلام أو علك ، وفيهم البيض والسود ، فاليبيض من القرس والديلم والتركي والطريرة وغيرهم : السود من التوبة والزغوة يجلبونهم من مصر ومكة وأفريقية ، والزنج أصلهم من رجال صاحب الزنج الذي ثار بالبصرة ، وهم غنم قح يأكلون لحوم الناس والبهائم الميتة وقد عوقبوا على ذلك فلم يرجعوا وكانوا منفردين لا يختلطون بالبيض ، ولكل طائفة نوبة في خدمة الخليفة بين حراسة وغيرها (٢)

الحمصيان

الحمصاء عادة شرقية كانت شائعة قديما بين الاشوريين والبابليين والمصريين القدماء ، وأخذها عنهم اليونانيون ، ثم انتقلت إلى الرومان فالافرنج ، ويقال أن أول من استنبطها (سبيراميس) ملكة آشور نحو سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، وكان المظنون أن الحمصاء بذهب بقوة الرجولية ، وفي التاريخ جماعة من الحمصيان اشتهروا بالشجاعة والسياسة ، وتولوا مناصب مهمة في أزمنة مختلفة ، منهم نارسس القائد الروماني الشهير في عهد بوسنيان في القرن السادس ليلاد ، وهرميلس حاكم اثارنية في ميسيا الشهير الذي قتم الفيلسوف أرسطو ذيصة عن روحه غير ما ذكره فيه من التصائد ، وعن اشتهر من الحمصيان في الاسلام ككفور الاخشيدي صاحب مصر ، واشتهر منهم في الهند وقارس والصين جماعات كبيرة ، واستبد الحمصيان في أواسط الدولة الرومانية استبدادا كبيرا .

والحمصاء أغراض أشهرها استخدام الحمصيان في دور النساء خيرة عليهم ، فلما ظهر الاسلام وغلب الحجاب على أهلها استخدموا الحمصيان في دورهم ، وأول من فعل ذلك يزيد بن معاوية ، فآخذ منهم حلجا للبراه اسم «فتح» واقتدى به غيره ، فشاع استخدامهم عند المسلمين مع أن الشريعة الاسلامية أميل إلى تحريره على ما يؤخذ من حديث رواه ابن مفلون .

وكانت تجارة الرقيق شائعة في أوروبا قبل الاسلام ، ومن أسباب رواجها أن قبائل السلاف (الروسين) زلوا في أوائل أدوارهم شمل البحر الاسود ونهر الطوبة ، ثم أخذوا يترجون غربا جنويا نحو أواسط أوروبا وهم قبائل عديدة عرفت بعدئذ بقبائل السلاف أو (السكلاف) والسرب والبوهيم والسلات وغيرهم ، فاضطروا وهم نازحون أن يحاربوا الشعوب الذين في طريقهم كالسكسون واليون وغيرهم ، وكان من عادات أهل تلك العصور أن يبيعوا أسراهم بيع الرقيق كما تقدم ، فتألف تلك جماعات كبيرة من التجار يحملون الأسرى عن طريق فرنسا فاسبانيا إلى أفريقية ومنها إلى الشام ومصر ، فلما وقعت هذه البلاد في أيدي المسلمين راجت تلك التجارة .

فكان التجار من الافرنج وغيرهم يتعاونون الأسرى من السلاف والجرمان من جهات ألمانيا عند ضفاف الرين والألب وغيرها إلى ضفاف البانوب وشواطئ البحر الاسود ، ولا يزال أهل جورجيا والجررس

إلى اليوم يبيعون أولادهم بيع السلع ، فإذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الآرقاء أمامهم سوق الأغنام ، وكلهم يبيض البشرة على جانب عظيم من الجبال ، وفيهم القسكور والانات ، حتى يحطوا رحالهم في فرنسا ، ومنها ينقلوهم إلى اسبانيا (الأندلس) ، فكان للمسلمون يتاعون الذكور للخدمة أو الحرب والانات للقسري وغلب على أولئك الآرقاء انسابهم إلى قبيلة السلاف ، وكانت تلفظ عندهم (سكلاف) فتربها العرب صلبى وأصبح هذا اللفظ عندهم يدل على الرقيق الأبيض بالاجال ، وكثيرا ما يرد لفظ الصقالبة في تاريخ الاسلام ، ويراد به الأرقاء من قبائل السلاف والجرمان ، وقيل الافرنج نحو ذلك أيضا فاستخدموا هذه اللفظة لنفس هذا المعنى ، ومنها (Esclave) في الفرنسية و (Sklave) في الجرمانية و (Slave) في الانكليزية .

﴿ثالثا﴾ — خصاء بعض الآرقاء

ولما شاع الحجاب بين المسلمين في إبان سلطتهم ، واستخدموا النخيان في دورهم ، عمد تجار الرقيق ، وأكثروهم من اليهود إلى خصاء بعض الآرقاء ، وبيعهم بأثمان غالية ، فراجت تلك البضاعة ، وكثرت المشتغلون بها ، وأنشأوا لاسطناخ النخيان معامل عديدة ، أشهرها معمل النخيان في فردون بمقاطعة اللورين في فرنسا ، كانوا يخصون أولئك المساكين وهم أطفال ، فيموت كثيرون منهم على أثر العملية ، فمن بقي حيا أرسلوه إلى اسبانيا ، فيشتريه الكبراء بجن كبير ، وأصبحوا يتوالى الأزمان يتهادون النخيان كما يتهادون الخيل ، أو الأثاث ، أو الآنية ، فكان مارك الافرنج اذا أرادوا التقرب من خليفة المسلمين في الأندلس أو غيرها أهدوه التحف ، ومن جعلها النخيان ، كأفضل ملكا برشاونه وطركونه ، لما طلبا تجديد الصلح من المستنصر خليفة الأندلس ، فأنهما أهدياه ٢٠ نخيا من السبيان الصقالبة و٢٠ قطارا من صوف السمورائح ، فشكّر النخيان في بلاط الخلفاء حتى تألفت منهم فرق لحراسة الخاصة ، كما تألفت الفرق من سائر الممالك والعبيد ، فإذا احتفل الخليفة ببيعة أو نحوها كان للممالك والنخيان زينة ذلك الاحتفال . ووراثت تجارة الصقالبة في إبان التمدن الاسلامي ، وكل ما كان يند على المملكة الاسلامية منهم يستجلب من الأندلس لأنهم كانوا يخصون بالقرب منها ، غير ما يحملونه من الصقالبة من جهات خراسان عما يسييه الخراسانيون ويحملونه للبحر ، لأن بلد الصقالبة طويل يسييه الافرنج من الغرب والخراسانيون من الشرق (١)

﴿رابعا﴾ — الجوارى

لجوارى شأن كبير في تاريخ التمدن الاسلامي ، لا يقل عن شأن العبيد والموالي ، وأصل الجوارى ما يسييه الفاتحون في الحرب من النساء والبنات ، فهن ملك الفاتحين ، ولو كن من بنات الملوك ، أو الدهاقين ، يستخدمونهن ، أو يستولونهن ، أو يتصرفون في بيعهن تصرف المالك بملكه (٢) ولما أفضت أحوال المسلمين إلى الترف والقص ، وتدفقت الأموال من خزائن الخلفاء والأمراء جعلوا يتهادونهن كما يتهادون الخيل والجواهر ، فمن أحب التقرب من كبير أهدى إليه جارية أئنت صناعة يعلم أنه ولغب فيها ، فإذا علم مثلا أنه يجب الجبال أهداه وصيفة جيدة ، أو علم منه ميلا إلى الفتاة أهدى إليه قينة رخيصة الصوت ، وقد يهديه عدة جوارى أئنت عدة صنائع ، وربما صارت إحداهن بعد حين أم ذلك المنزل وصاحبة الأمر فيه ، اذا استولمها سيدها ، وإذا كانت في دار خليفة لا يبعد أن تصير من أمتهات الخلفاء ، كما اتفق لأكثر خلفاء بني العباس .

ذكروا أن جارية اسمها « دنائير » صفراء صادقة الملاحه ، كانت أروى للناس الفناء القديم ، وقد خرجها رجل من أهل المدينة ، فاشترها جعفر البرمكي ، وسمع الرشيد موتها فألقها ، وصار يدبر إلى جعفر لسباع غنائها ، ووهب لها هبات سنية . وعلت امرأته زينة بجبرها ، فشكته إلى عمومتها ، فلم ينجحوا في إرجاعه ، فرأت أن تشغله عنها بالجوارى ، فأهدت إليه عشر جوار ، منهم مارية أم العتصم ، ودراجل أم اللأمون ، وفاردة أم صالح (١)

وكثيرا ما كان الصمالي والأمرء يتقربون إلى الخلفاء بأمثال هذه الهدايا ، فأهدى ابن طاهر إلى الخليفة المتوكل هدية فيها ٢٠٠ وصيفة ووصيف (٢)

فلاغروا إذا تكثر في قصور الخلفاء ، والأمراء ، وأهل الوجاهة ، وليس الاستكثار منهم حادثا في الاسلام ، وإنما هومن بقايا القطن القديم ، فقد كان ملوك القرس والروم يتباهونهم ، وبلغت عدتهم عند بعض الأكاسرة ٦٠٠٠ جارية (٣) ، وكان لجامعة من بني العباس ألف جارية ، وسيأتي بسط ذلك في مكان آخر له

﴿ خامسا ﴾ — تزيينهن

فعتقد الجوارى في دور الكبراء ، وتساين أهل الترف إلى التفتان في تزيينهن ، وأشهرهن فعل ذلك أم جعفر المذكورة ، فلما لمارات ابنها يخال في تحفيث المعلمين والباسهم ملابس النساء اتخذت طائفة من الجوارى ستمهن القمودات ، صممت رءوسهن ، وجعلت لهن الطرر والأصداع والأقنية ، والبستهن الأقنية ، والقراطق والمناطق ، كانهن من الفلمان ، واقتدى بها وبيهات قومها ، فاتخذن الجوارى التلاميذ ، أو المظلمات ، والبسوهن الأقنية والمناطق الذهب (٤) له

﴿ سادسا ﴾ — مقاومة الخلفاء للفناء

على أن أهل التحلل من الخلفاء ، أو الأمراء كانوا لا ينفكون عن منعه جهد طاقتهم ، وكان العقلاء غير الحكم يحرّضون الولاة على منعه حتى في المدينة معدن الفناء في ذلك العصر (٥) وكثيرا ما كان أمير مكة يخرج المغنين من الحرم خوفا من افتتان الناس بفنائهم (٦) وصرفهم عن أمور دينهم ، ولم يكن أهل الفيرة على العرس يصبرون على سماعه ، ومن أقوالهم : « المغنون رسل الترام » .

ذكروا أن سليمان بن عبد الملك ، وكان يكره الفناء سمع مضيا في عسكره ، فطلبه ، فجاموه به ، فقال : أعد ماغنيت ، فتغنى واحتفل ، فقال سليمان : والله لكأنها جرجرة الفحل في الشول ، وما أحسب أحيى تسمع هذا إلا صبت إليه ، ثم أمر به نغص (٧)

وسليمان هو الذي أمر بنحصى الخنتين في المدينة لمثل هذا السبب ، قيل انه كان في بلادته له يسريلة على ظهر سطح وقد تفرق عنه جلساؤه ، فدعا بوضوء ، فقامت به جارية ، فبينما هي تصب عليه لحظ أن ذهنا مشغلت عنه بقاء تسمعه ، فتجامل ، وفي الصباح ذكر الفناء ولين فيه حتى طلق القوم انه يشتبه ، فأفاضوا فيه ، وذكروا من كان يسمعه ، ومن يغنيه ، حتى توصل إلى الرجل الذي شغل الجارية بفنائها في الأمس ، فلما تحقق ذلك أقبل على القوم ، وقال : هدا لجل فضيت الناقة ونبت التيس فشكرت الشاة وهدر الجلام فزافت الحمامة وغنى الرجل فطربت المرأة ، ثم أمر به نغص ، وسأل عن الفناء : أبين أمه ؟ فقيل في المدينة

(١) الأغاني ١٣٧ ج ١٦ — (٢) للسعودي ٢٨٠ ج ٢ — (٣) للسعودي ١١٥ ج ١ وترتيب الدول ١١١ — (٤) للسعودي ٣٦٦ ج ٢ — (٥) الفهرست ١٩٦ ج ٣ — (٦) الأغاني ١٣٠ ج ٢ — (٧) الكامل لرد ٣٧٧

بجماعة المختارين وهم آئمة والحدائق فيه ، فكتب إلى عامله هناك : اخبرني من قبلك من المختارين المختارين ،
نفسهم (١)

على أن المنتهكين من الخلفاء والأسماء لم ينكروا ما يجر إليه الفناء من أسباب اللهو . قال الوليد بن يزيد الذي ذكرنا أنه أول من استقدم المختارين إليه : « إياكم والفناء ، فانه ينقص الحياء ، ويزيد في الشهوة ويهدم اللزومة ، ويشور على الخمر ، ويفعل ما يضر للمسكر ، فان كنتم قاعلين فجنبوه النساء ، فان النساء رقية الزنا ، واتى لأقول ذلك فيه على أنه أحب إليّ من كل لغة ، وأسهي إليّ من الماء البارد إلى ذى الفسلة ، ولكن الحق أحق أن يقال (٢) » اهـ

﴿ سادساً ﴾ - الفيرة

كانت أيلم بنى أمية من حيث اللعة والفيرة عصر انتقل من البداوة إلى الحضارة ، فلما انقضى عصر الأمويين ذهب ما بقي من سداجة البداوة في طبائع العرب ، واستسلم الناس للترف والرخاء ، وضعت الفيرة وأبيع التمشب ، وشاع على ألسنة الثغراء حتى صاروا يصترون به قصائد للمح والفخر ، وكان الخلفاء الأوّلون من بني العباس لا يزالون على مقربة من البداوة ، فأنكروا ذلك ونهوا عنه ، ومن أشدهم غيرة المهدي بن المنصور فان بشرا أنشد مدحاً فيه تشبيب ، فنهاه عن التشبيب أبته ، فصار إذا مدحه بدأ بالمدح (٣) فظل التشبيب مستتبها حتى ألجأه الرشيد وألج في نظمه (٤) قال ذلك طبعاً إلى ضعف الفيرة اهـ

﴿ ثامناً ﴾ - اللباس

ولما أترف بنو أمية لبسوا الحرير على أنواعه وقتنوا بأنواع الأنسجة ، وأحبوا الوشي ، وأكثروا من لبسه فقلدهم الناس في ذلك ، فراجت المنسوجات الموشاة في أيامهم اهـ

﴿ تاسعاً ﴾ - لباس رجال الدولة

على أن رجال الدولة ومن جرى مجراهم من الخامة كانت لهم ألبسة لمجالس الأئس والشرب يسمونها « ثياب للمنادمة » وهي أبواب مصبغة بالألوان الزاهية ، الأجرأ والأصفر والأخضر ، يسقلونها حتى تلمع وتشرق اهـ

﴿ عاشراً ﴾ : مبانى الباسيين

أول من شاد الأبنية منهم المنصور ، فبنى القبة الخضراء ، ليحول أذهان الناس عن الكعبة إليها ، وبني الجامع ، والحصون والقصور في بغداد ، كقصر الخلد ، وقصر باب الذهب وغيرها ، وأخذ الخلفاء بعده في تشييد المصانع ، واقتدى بهم وزراءهم وأمرأؤهم ، فأقاموا قصوراً عظيمة ، تعرف غالباً بأسماء بانيتها كقصور البرامكة في النجاشية ، وقصر ابن الحبيب ، وقصر أم حبيب بالجانب الشرقي من بغداد ، وقصر بني خلف بالبصرة ، وقصر عيسى بن علي ، وهو أول قصر بناه الهاشميون في أيام المنصور ، وقصر وضاح بن رجل اسمه وضاح (بقشيد الضاد) للمهدي العباسي ، وقصر الرشيد ، وقصر الأمين ، وقصر ابن الفرات ، وقصر ابن مقله ، غير ما أطلقوا عليه لفظ الباركدلر الشجرة الآتي ذكرها ، ودوا القلار ، وهي قصر زينة زوج الرشيد وغير ذلك ، وأخذت رغبتهم في بناء القصور تتزايد كلما تقدموا في المدينة وأغرقوا في الترف والرخاء .

(١) الأغاني ٦١ ج ٤ - (٢) الأغاني ١٣٤ ج ٦ - (٣) الأغاني ٤٩ ج ٥٨٠ ج ٣

(٤) الأغاني ١٦٠ ج ٣

على أن بعض خلفائهم كانوا يحبون العمارة وينشطونها ، وأولهم المعتصم بالله ، فقد كان كافا بالبناء ، فبنى سامرا الأثرى كه وأقطعهم فيها القطائع ، والمتوكل على الله كان مغرما بالعمارة ، يبدل فيها الأموال الطائلة ، فأحدث أساليب من الأبنية ، لم تكن معروفة قبله ، منها الخط الجبىرى ، واللكمين ذات الأروقة ، وبنى ثلاثة أبنية تعرف بالهرلوفى والجوسق والجعفرى بطل فى بنائها جميعا أكثر من ١٠٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم (١) أوقف منها على القصر الجعفرى أكثر من ٢.٠٠٠.٠٠٠ دينار (٢) وأنحو ٤.٠٠٠.٠٠٠ درهم ، ثم صار تشييد البناى عادة جرى عليها الخلفاء ، فضلا عن المنزهات ، فبنى إسماعيل بن على مشنزا أوقف فيه ٥.٠٠٠.٠٠٠ درهم (٣) اه

(١١) - دار الشجرة

وبنى المعتصم بالله فى أول القرن الرابع دارا فسيحة ذات بساين موقفة عرفت بدار الشجرة ، لشجرة كانت فيها مصنوعة من الذهب والفضة فى وسط بركة كبيرة أمام لإوانها ، وبين شجر بساينها ، لها ثمانية عشر فصنا من الذهب والفضة ، لكل غصن منها فروع كثيرة مكللة بأنواع الجواهر على شكل الغار ، وعلى أقصائها أنواع الطيور من الذهب والفضة ، لذا مرّ الهواء عليها أبانت عن عجائب من ضروب الصغير والهدير ، وفى جانب الدار من بين البركة تماثيل خمسة عشر فارسا على خسة عشر فرسا ، ومثله عن يسار البركة ، قد ألبسوا أنواع الحرير المديج ، مقلدين بالسيوف ، وفى أيديهم المطارد ، يتحرّكون على خط واحد ، فيظن الناظر اليهم أن كل واحد منهم يقصد صاحبه (٤) .

وفى دولة آل بويه بنى ممرّ السولة قصره المعروف « بالهرل المغزية » ، أوقف فى بنائه ١.٠٠٠.٠٠٠ دينار ، وموّه سقفه بالذهب ، ذكروا أنهم لما أرادوا هدمه بذلوا فى حكه الذهب من سقفه ٨.٠٠٠ دينار (٥) ولم يبق لهذه القصور أو القصور أثر الآن .

أما الأندلس فقد بنى بها آل مراد قصورا سارت بذكرها الركبان ، ولا يزال بعض آثارها باقيا إلى اليوم ، وأكثرها فى قرطبة وغرناطة ، فيها فى قرطبة القصر الكبير ، وهو آفة من آيات الزمان ، شرع ببنائه عبد الرحمن الداخل فى أواسط القرن الثانى للهجرة ، وأتمه من جاء بعده ، وبنى القصور فى داخله ، وقد رأيت عند ذكر أبنية قرطبة أن القصر المذكور مؤلف من ٤٣٠ دارا ، بينها قصور نفمة ، لكل منها اسم خاص ، كالكمال والجند ، والحائر والروضة ، والمعشوق والمبارك ، والرسق وقصر السرور والبديع ، وقدر علوان زخرفها وأقلامها ، وأنشأوا فيها البرك والبحيرات والسهارج والأحواض ، وجلبوا إليها الماء فى قنوات الرصاص على المسافات البعيدة من الجبال حتى أوصلوه إليها ، ووزعوه فيها ، وفى ساحاتها ونواحيها فى تلك القنوات تؤذنها إلى الصانع صورا مختلفة الأشكال من الذهب الإبريز ، والفضة الخالصة ، والنحاس المصنوع إلى البعيرت المماثلة والبرك البديعة والسهارج الفرية فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة ، نصب فيها الماء من أنابيب من الذهب أو الفضة بصور الحيوانات الكاسرة ، أو الطيور الجلية على أشكال بديعة (٦) اه

(١٢) : قصر الزهراء

ومن قصورهم فى قرطبة « الزهراء » بدأ بإنشائها الخليفة الناصر سنة ٣٣٥ هجرية على أربعة أميال من المدينة ، وأتمها ابنه الحكم ، فاستغرق البناء أربعين سنة ، وهى عبارة عن بلد كبير ، طوله من الشرق

- (١) السعوى ٣٧٩ ج ٢ - (٢) ابن الأثير ٣٣ ج ٧ - (٣) ابن الأثير ٢٨ ج ٦
(٤) معجم ياقوت ٥٢٠ ج ٣ - (٥) ابن الأثير ١٥١ ج ٩ - (٦) فتح الطيب ٢١٩ ج ١

إلى القرب ٢٩٧٠٠ ذراع ، وعرضه ١٥٠٠ وعدد أعمدته ، أوسولويه ٣٠٠ سارية بعضها جل إلى قرطبة من رومية وإفريقية وتونس ، وبعضها أهداه صاحب القسطنطينية ، وفيها الزخام الأبيض والأخضر والوردى والمجزع ، وكان في الزهراء مسجد غم ، وعدة قصور ، وحدائق على نحو ما تقدم في وصف القصر الكبير ، وفيها البحيرات تسع فيها الأسماك بألوانها وأنواعها ، وأحواض الزخام المنقوش على أشكال شتى بين مذهب وغير مذهب ، في جلتها حوض منقوش بتمثيل الإنسان جى به من القسطنطينية ، ونصبه الناصر في بيت المتام بالمجلس الشرقي المعروف بالمؤنس ، وجعل عليه ١٢ تمثالا من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر النفيس الغالي ، مما صنع بدار الصناعة في قرطبة بصورة أسد ، بجانبه غزال إلى جانبه تمساح يقابله ثعبان وهقاب وقيل ، وفي المجنبتين حلماة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر ، وكلها من ذهب مرصع بالجوهر ، يجري الماء من أفواها (١) ، وكل الناصر للنظر في بناء هذه القصور إلى ابنه الحكم بعده ، وذكروا أن الناصر كان ينفق عليها ثلث جباية الفولة وكانت ٦٠٠٠٠٠٠٠ دينار فينفق منها ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار كل سنة على ذلك البناء ، وقد تقدم أنهم واصلوا العمل فيه ٤٠ سنة ، فلو فرضنا أنهم كانوا ينفقون هذا القدر في نصف هذه المدة قط لم يبلغ مجموع ما أنفق على الزهراء أكثر من ٥٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار ، ولكن يظهر أن الاتفاق السنوي لم يكن يبلغ ثلث جباية للملكة إلا في بضع سنين ، وأما في سائر مدة البناء فكانت النفقة أقل من ذلك كثيرا .

وقد ورد في مكان آخر أن الناصر كان ينفق على بنائها في أيلمه ٣٠٠٠٠٠٠ دينار في السنة ، فإذا حسبنا ما أنفقه ابنه الحكم فيما بقي من الأربعين سنة على هذه القسبة مع ما أنفقه هو غير المقدار السنوي المذكور كان مجموع ما دخل في بناء هذا القصر الفخم نحو ٢٠٠٠٠٠٠٠٠ دينار على الأقل ، ولا غرابة في ذلك ، لأننا إذا أعدنا النظر في تفاصيله رأينا فيه ما يفوق الحصص من المصحات والمذهبات ، وقد أدخلوا فيه كثيرا من الذهب حتى جعلوا بعض قريده منه ، وقد كان يتصرف في بنائه من الخدم والفضة عشرة آلاف رجل و ١٥٠٠ دابة ، وأغرب من كل ذلك أن الناصر إنما عمد إلى بناء الزهراء مرضة لحطية له كان اسمها زهراء طلبت إليه أن يبنى مدينة باسمها وتكون خاصة بها (٢) اهـ

(١٣) : الزاهرة

واقترنت بالخليفة الناصر المنصور بن أبي عامر ، فبنتي سنة ٣٧٨ هجرية قصرا لإقامته سماه الزاهرة ليكون مقالا له بحميمه من أعدائه ، فأقامه في طرف البلد على نهر قرطبة الأعظم ، وحشد له الصناع والفضة والبالغ في رفع أسواره ، وجعل فيه أبنية كثيرة من جلتها أبراء ودولاب ، وأقطع ماحولها لوزرائه وكتابه وقواده ، فأبنتوا البور والقصور ، وغرسوا الحدائق ، فقامت الأسواق ، وتنافس الناس بالتزول في أكنافها ، قريبا من صاحب الفولة حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة ، واتصلت بهما الزهراء من الجهة الأخرى ، فأصبح الناس يمشون بين هذه المدن عشرة أميال على ضوء السراج .

ويجدر بنا في هذا المقام الإشارة إلى القنطرة الفخمة التي أقمها المسلمون على نهر قرطبة ، وكانت مبنية قبل الإسلام ، ثم سقطت ، فأعاد المسلمون بناءها على يد عبد الرحمن الطائفي وطولها ٨٠٠ ذراع وعرضها عشرون ذراعا وارتفاعها ٦٠ ذراعا ، وعدد حناياها ١٨ حنية ، وأبراجها ١٩ برجاً (٣)

(١) فتح الطيب ٢٤٨ و ٢٦٧ ج ١ وابن خلكان ٢٩ ج ٢ - (٢) فتح الطيب ٢٤٨ ج ١

(٣) فتح الطيب ٢٦٦ ج ١

قصر الحمراء وأمثاله

الجزء قصر شهير في غرناطة لا يزال شكله محفوظا إلى الآن ، يتوسطه السيلح من كل مكان ، بناء ابن الأحرى في أواسط القرن الثامن للهجرة كما حتم في أرض مساحتها ٣٥ فداناً على مرتفع فسيح ، ويقال إنها سميت « الحمراء » نسبة إلى لون قريبتها ، وفي هذا القصر كانت بركة السباع ، وفي وسطها تماثيل أسود تقذف المياه من أفواهها على شكل جبل .

ويبنى المنصورين الأعلى قصرا غنيا في بجاية أنشأ فيه بركة على حافتها أسود يجري الماء من أفواهها ، وعلى البركة أشجار من ذهب وفضة ، ترمى فروعها في الماء ، وعلى أخصانها أطيار من أشكال شتى بألوان بديعة ، وضع عجيب ، على مثال الشجرة التي ذكرنا أنها نصبت في قصر المقتدر العباسي عند كلامنا عن أبيه العباسيين ، وقد نظم ابن حديس الشاعر الأندلسي قصيدة يصف بها بركة هذا القصر وخروج الماء من أفواه الأسود . قال منها :

وضراهم سكنت عرين رياسة * تركت خرير الماء فيه زهرا
فكأنما غشى التضار جسيمها * وأذاب في أفواهها البلورا
أسد كأن سكوتها متحرك * في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وقد كرت فككتها فككاً * اقتت على إدبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجالونها * نارا وألسنها القواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول * ذابت بآثار فسدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لماته * درعا فقتل سردا تقديرا (١)

وقس على ذلك قصر المأمون بن ذي النون الأندلسي ، فانه أنفق في بنائه بيوت الأموال ، وكان من عجائبه انه صنع فيه بركة ماء كأنها بحيرة ، ويبنى في وسطها قبة ، وساق الماء تحت الأرض حتى علا فوق رأس القبة بتدبير حكمه المهندسون ، فكان للماء ينزل من أعلى القبة وسواها يحيط بها متصلا بعضها ببعض ، فكانت القبة في غلالة من ماء سكب لا يفر والمأمون قاعد فيها (٢)

مباني آل طولون بمصر

أنشأ بنو طولون في مصر أبيّة نفخة ، أشهرها الجامع الذي بناه أحمد بن طولون ، لا يزال آثاره إلى الآن بالقاهرة ، والقصر الذي بناه في القطائع ، وجعل له ميدانا كبيرا ، ولما توفي أحمد زاد فيه ابنه « خواريه » وجعل الميدان كله بستانا ، زرع فيه أنواع الرليحين ، وأصناف الشجر ، وقيل إليه الودى اللطيف الذي ينال ثمره القاصم ، ومنه ما يقاوله الجالس من أصناف خيل النخل ، وجعل إليه كل صنف من الشجر المظم العجيب ، وأنواع الورد ، وزرع فيه الزعفران ، وكسا أجسام النخل نحاسا مذهباً حسن الصنعة ، وجعل بين النحاس وأجسام النخل مزارب الرصاص ، ولجري فيها الماء المدبر ، فكان يخرج من تصايف قاصم النخل حيون الماء فتتحد إلى فساق معمولة ، ويفيض منها الماء إلى مجاري تسمى سائر البستان ، وغرس فيه من الرمان المزروع على قشور معمولة ، وكتابت مكتوبة يتعهد بها البستاني بالقرض حتى لا تزيد ورقة على ورقة ، وزرع فيه التياور الأحمر والأزرق والأصفر والجنوى العجيب ، وأهدى إليه من خراسان وغيرها كل أصل

(١) فتح الطيب ٢٢٣ ج ١ - (٢) سراج الملوك ٥٠

عجيب ، وطعموا له شجر الشمس باللوز ، وأشياء ذلك من كل ما يستظرف ويستحسن ، وبني فيه برجاً من خشب الساج المنقوش بالقرن النافذ ليقوم مقام الأقفاص ، وزوّقه بأصناف الأصباغ ، وبلط أرضه ، وجعل في تصانيفه أنهاراً لطافاً ، جدواً يطير فيها الماء ، مدبراً في السواقي التي تدور على الآبار العذبة ، ويسقي منها الأشجار وغيرها ، وسرح في هذا البرج من أصناف القمارى والبسبى والنونيات ، وكل طائر جيل الشكل حسن الصوت ، فكانت الطير تشرب وتصل من تلك الأنهار الجارية في البرج ، وجعل فيه أوكراً في قواديس لطيفة ممكنة في جوف المحيطان لتفرخ الطيور فيها ، وعارض لها فيه عياداً ممكنة في جوانبه لتقف عليها إذا تطايرت حتى يجابج بعضها بعضاً بالصياح ، وسرح في البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحيش ونحوها شيئاً كثيراً . وجعل في داره مجلساً يروقه بهاء بيت الذهب ، طلى حيطانه كلها بالذهب الجاود باللازورد للعبول في أحسن نقش وأظرف تفصيل ، وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صورا في حيطانه بأروسة من خشب معمول على صورة ، وصور حطايه ، والمغنيات اللاتي تفتينه بأحسن قصور ، وأبهج تزويج ، وجعل على رؤسهن الأكاليل من الذهب الخالص الابريز الزين ، والكودان للرمعة بأصناف الجواهر وفي آذانها الأجراس لتثقل الوزن ، الحكمة المستعنة ، وهي مسمرة في المحيطان ، ولوّث أجسامها أشباه الثياب من الأصباغ العجيبة ، فكان هذا البيت من أعجب مباني الدنيا ، وجعل بين يدي هذا البناء فنية ملاءمة لبقا ، وذلك انه شكاً إلى طيبة كثرة السهر فأشار عليه بالتعريض ، فأخف من ذلك ، وقال : لا أقدر على وضع يد أحد عليّ ، فقال له تأمر بعمل بركة من زئبق ، فعمل بركة يقال انها خسون ذراعاً طولاً في خمسين ذراعاً عرضاً وملاها من الزئبق ، فأفقق في ذلك أموالاً عظيمة ، وجعل في أركان البركة سككاً من الفضة الخالصة ، وجعل في السكك زناجير من حديد تحمكة الصنعة في حلق من الفضة ، وعمل فرشاً من آدم يجثى بالرجح حتى يتفنج فيحكم حينئذ شدّه ، ويلقى على تلك البركة ، وتشد زناجير الحواري التي في حلقة الفضة بسكك الفضة وينام على هذا القرش ، فلا يزال القرش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق مالم يمد عليه ، وكانت هذه البركة من أعظم ما سمع به من الحزم الملوكة ، يرى لها في الليالي القمرية منظر بهيج إذا تألف نور القمر بنور الزئبق (١)

مباني الفاطميين

ولما أفضى الأمر إلى الفاطميين بنوا في القاهرة الجامع الأزهر ، وهو عامر إلى اليوم ، وقصوراً أشهرها القصران الشرقي والغربي ، وأفقوا على الأخير منها ٢٠٠٠٠٠ دينار (٢) ، فقس على ذلك ما أوقفوه في مائر القصور والصور كدار القنطرة ، ودار الديباج وغيرها ، ولما استبحر عمرانهم تقننوا في بناء المقاصير والمناظر على صفة الخليج وشاطئ النيل كنظرة الجامع الأزهر ، ومنظرة اللؤلؤة على الخليج ، ومنظرة الفزالة بجانبها ، ومنظرة السكرية ، ومنظرة الدكة ، ومنظرة القس ، ومنظرة التاج ، ومنظرة باب الفتوح ، ومنظرة البعل ، ومنظرة دار الملك ، غير المنزهات العظيمة ، والقصور الفخمة ، في الجزيرة والروضة كالتصميم الذي بناه الأمر بأحكام الله لحبوبة البدوية ، وسماه المودج .

وكانوا يتأهون في زخرفة تلك المناظر والتصوير تأخاً عظيماً يدل على مبلغ حضارتهم وتقننهم ، فنظرة بركة الحيش كانت مصنوعة من خشب مدهون صور فيها الشعراء كل شاعر وبلده ، وعند رأس الشاعر آيات نظمها في ذكر النظرة ، وبجانب كل صورة رفّ لطيف منسوب ، فلذا دخل الخليفة وقرأ الأشعار وأمر أن يصنع على كل رفّ صرّة مخنومة فيها خسون ديناراً ، فيدخل الشاعر ويأخذ صرّته (٣)

(١) للقرنيزي ٣١٦ ج ١ - (٢) للقرنيزي ٤٥٧ ج ١ - (٣) للقرنيزي ٤٨٦ ج ١

مباني الأيوبيين والمماليك

ولما انتقلت السولة إلى الأكراذ كان أعظم آثارهم البنائية قلعة القاهرة ، بناها السلطان صلاح الدين ليتمتع بها من النسيعة ، ولا تزال قائمة إلى اليوم .
ومعظم ما في مصر الآن من الآثار البنائية إنما هو من أعمال السلاطين للمماليك ، ولاسيما للمساجد كجامع السلطان حسن ، وجامع المؤيد ، وقايتباي ، وقلاوون ، وغيرهم . ومن آثارهم قبور الخلفاء خارج القاهرة فانها لهم وإن نسبت إلى الخلفاء بالاسم ، غير ما اندثر من قصورهم ، وكانوا يقدسون الفاطميين في زخرفها كالرفرف التي بناه الأشرف خليل بن قلاوون عاليا يشرف على الحيزة كلها ومصر فيه أسراء السولة وخواصها وعقد عليه قبة على عمد وزخرفها ، وكان السلطان يجلس فيه . وقصر يلبغا بناء للملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٨ هجرية سكنى الأمير يلبغا حيث مدرسة السلطان حسن تجاه القلعة وغيرها .

الثروة والرخاء

واشتغال الخلفاء والأمراء بانشاء المدن وبناء القصور والمنزهات إنما هو من ثمار الثروة وتكاثر النقود في بيوت الأموال ، فتنتقل إلى رجال السولة وغيرهم على ما يناله في نظام الاجتاع ، ولذلك كان الخليفة أكثر الناس مالا لأنه قابض على بيت المال يليه الوزراء والكتاب والصالح فنوهابهم فالأتباع والتجار وغيرهم ، واليك أمثلة من ذلك :

ثروة الخلفاء وأهلهم

لما كان الخلفاء يتولون شؤون السولة بأيديهم كانوا أكثر الناس ثروة ، فلما عهدوا بها إلى الوزراء تحولت الثروة إليهم ، وأصبح الخلفاء أحيانا مثل سائر الفقراء (١) والأصل في ثروة بيت المال أن تكون للدولة تنفق في مصالحها ، والخليفة بيت مال خاص به ، ولكن الخلفاء تصرفوا بأموال السولة أولا لاعتبارهم اتفاقها مساعد على تأييدهم أنفقوها في الجوائز والهدايا مثل هذه الغاية ، وقد رجوا إلى بذلها في ملذاتهم وسائر أسباب تنعيمهم ، وكان يبقى مع ذلك في بيوت الأموال شيء كبير ، وقد بينا في الجزء الثاني من هذا الكتاب « تاريخ القنن الاسلامي » مقدار ما بقي منها في خزائن الخلفاء الأولين من بني العباس للمنصور والمهدي والمعتصم والمستعين والمكتفي وغيرهم (صفحة ١٢١) وما صار إليهم من الضياع الكثيرة (صفحة ١٣٣) وذكرنا ما بلغت إليه ثروة أمهات الخلفاء ، ولاسيما الخيزران أم الرشيد وقيسحة أم العزيز وغيرهما (صفحة ١٣٤) فلا حاجة إلى التكرار ، وإنما نأتي ببعض التحصيل على سبيل المثال : ذكروا أن للمكتفي خلف ١٠٠.٠٠٠.٠٠٠ دينار هذا تفصيلها : (٢)

دينار

- ٢٠٠.٠٠٠.٠٠٠ من العين والورق والأواني المعمولة .
- ٢٠.٠٠٠.٠٠٠ من الفرش .
- ٢٠.٠٠٠.٠٠٠ من الكراع والصلاح والعدان .
- ٢٠.٠٠٠.٠٠٠ من الضياع والعقار والأماك .
- ٢٠.٠٠٠.٠٠٠ من الجوهر والطيب وما يجري معهما . انتهى

(١٤) : البذخ في الألبسة

كان المسلمون في صدر الاسلام يتوخون المشورة في البش والتعفف بالمعظم والملبس ، فكان الخليفة من الراشدين يمشي في الأسواق وعليه القميص الخلق للرقيق إلى نصف ساقه ، أو ثوب من كرايس غليظ ، وفي رجليه نعلان من ليف ، وجائل سيفه من ليف ، وفي يده درة يستوفى الخد بها (١) وكان عماله في مثل حاله ، اذا وفد أحدهم على الخليفة لبس جبة صوف ، وتعم بعمامة دكناء ، واحتذى خفين مطارقين ودخل عليه (٢) ، وأول من اتخذ زى الملوك من أمراء المسلمين معاوية منذ كان أميراً في الشام ، وقدم عليه عمر بن الخطاب في أثناء ذلك ، فلما رآه في أبهة الملك أنكرها عليه ، وقاله : أكرهية بالمعاوية (٣) ثم تحضروا ، وكثرت الأموال بين أيديهم ، وخالطوا أهل الترف من الأعاجم ، فاضطروا بمايعة للمدينة إلى التبسط في البش ، والتعم بالباس ، وأحب الأمويون الوش كما تقدم ، وأكثرهم رغبة في لبس هشام بن عبد الملك ، فاجتمع عنده ١٢٠٠٠ قميص وشي و ١٠٠٠٠ ر. نكة حرير ، وكانت كسوته اذا حج تحمل على ٧٠٠ جل (٤) ، وفي أيامهم تسابق الصناع إلى إجادة الوش ، وزاد المسلمون بذناً في أيام بني العباس ورغب أهل التجارة في حل أصناف للمسوجات الحريرية والصوفية بين موشى ومطرز ومحوك بالنهب أو الفضة ، والمرصع بالمحارة الكريمة على اختلاف البلاد التي يصنع فيها .

ومن أهم للمسوجات الثمينة الخز وهو نسيج ناعم يصنع من الحرير ، ومن وبر الحرز وهو ذكر الأراب (٥) والبريس حرير خالص ، والديباج نسيج حريري موشى بالنصب بأشكال الحيوانات ونحوها ، والبر نسيج قطري نعين وغير ذلك من أصناف الحرير والكتان والاداري والملمع والملم والمنير ، ومنسوجات الشعر أو الورب أو الصوف ، وما يلحق ذلك من أنواع السمور والقمائم وغيره ، يصنعون منها الأقبية والبراريح والعلباس والجلبب والعمائم والأبراد والفلائل والملاصف والأزور والسراريات والشاشيات والنكك وغيرها .

وكان الصناع يقيرون في اتقان هذه الصنائع ، ويغالون في ترفيعها ، لما يلاقوه من البذل في اتياعها لتوفر القوة بين أيدي الناس ، ولاسيما الخليفة وأهل دولته ، فكان هؤلاء يهاقنون على اقتناء الألبسة ، لا يبالون كم يكون ثمنها حتى بلغت قيمة العمامة من الديباج خمسمائة دينار ، وهم مع ذلك يكتفون من اقتنائها وربما لبس الواحد ٩ أقبية كل قباء بلون خاص للفاخرة في البذخ ، وقد تريد على أضعاف حاجتهم إليها ، فيجتمع عند أحدهم عشرات أومئات أو آلاف من القطعة الواحدة ولاسيما الخلفاء ، مثله ما خلفه المكتني بالله من الألبسة وهو :

عدد

٤٠٠٠٠ ر.	من الثياب المقصورة سوى الخلمات .
٦٣٠٠٠ ر.	من الأثواب الخراسانية المروية .
٨٠٠٠ ر.	من للملزمات .
١٣٠٠٠ ر.	من العمائم المروية .
١٨٠٠ ر.	من الخلل الموشاة بالجمانة وغيرها منسوجة بالذهب .
١٨٠٠٠ ر.	من البطائن التي تحمل من كرايس في أتابيب النصب .
١٨٠٠٠ ر.	من الألبسة الأرمنية .

- (١) الفخرى ٢٥ و ٦٦ - (٢) العقد الفريد ٦ ج ١ - (٣) ابن خلدون ١٦٩ ج ١
(٤) المستطرف ٤٠ ج ٢ والعقد الفريد ٢٦٦ ج ٢ - (٥) ألف باء ١٨٧ ج ٢

وتوفى ذواليمين وفي خواتمه ١٣٠٠٠ سروال لم يستعملها ، ووجدوا في كسوة بختيشوع الطيب ٤٠٠ سروال ديتي ، ولما قتل يرجوان خادم الوزير بمصر وجدوا في تركته ألف سروال ديتي بألف تسعة سرور . انتهى

(١٥) الأثاث والرياش عند العباسيين

لما انتقلت الخلافة إلى العباسيين اشتغل السفاح والمنصور بتأسيس الدولة وتأييدها ، فلما تأيد سلطانهم مالوا إلى الترفه ، فأخذوا بتقليد الدول السابقة لهم عملا بناموس العمران ، فاقبوا الأسرة الذهب المروحة بالجواهر أو الأبنوس المنزل بالمعاج ، وأخذوا المقاعد ، والفارق ، والكراشي ، وضربوا منائر الذهب ، وأوقدوا فيها الشموع من العنبر ، وعلقوا الستور المطرزة ، والملوثة ، واقرشوا البسط ، والطنافس المزركشة ، والحصر المنسوجة بالذهب ، المكلاة بالدر والياقوت ^(١) وغالوا في اقتناء آنية الذهب والفضة ، يأتون من كل بلد بأحسن مصنوعاته وأجملها ، لحملوا الستور المعلقة من فسا ، والبسط ، والصليات من تسر وبخارا ، والحصر من صيادان ، والمقاعد من دشت .

على أن أحسن أصناف القرش للذهبة بطراز الذهب ، كانت تأتيهم من أرمينية ، والطائف الأرميني وهو عشرة مصليات بمخادها وسائدها ومطارحها وبساطها يساوي خمسة آلاف دينار ^(٢) ، وكانت أطباق الخشب لآنية الطعام تأتيهم من طبرستان ، والزجاج والخزف من البصرة ، وأكثره وارد في الأصل من بلاد الصين على ما فصلناه في كلامنا عن التجارة فيها تقدم ، ولكن الزجاج الرقيق كان يحصل إليهم من الشام ، وكان يضرب به المثل بالرقه والصفاء ، فيقال : « أرق من زجاج الشام ، وأصنى من زجاج الشام » ^(٣)

اتخذوا ما هتتم من الآنية والمقروشات تقليدا للفرس والروم على ما كانت عليه عندهم ، ثم عروبوها فجعلوا ما ينقش عليها من الكتابة باللغة العربية بين أمثال وأشعار وحكم ينقشونها على الستور ، ويطلقونها بمسامير الذهب والفضة ^(٤) ويزركشون البسط والطنافس ، فيرسمون في أواسطها أشكالا وصورا مما في البر والبحر ، ويعطرون حواشيها بالذهب أو الذهب أبيضاً من الشعر ، ويزركشونها دور البساط بقصيدة ^(٥) وغالوا في الزخرفة حتى تشرقوا الأشعار على آنية البلور ، وأطباق الطعام ، وعلى جدران القاعات ، وفوق أبوابها . يتفاوت ذلك شكلا ومقدارا بتفاوت طبقات الناس من المطرزة بالحرير إلى المزركش بالذهب ، فظهر بالذهب ، فالرسم بالجواهر كالבسط الذي كان لأم المستعين وعليه صورة كل حيوان من جيع الأجناس ، وصورة كل طائر من ذهب وأعينها بواقيت وجواهر ، أغفت في صنعه ١٣٠٠٠ ر. درهم ^(٦) اه

— ١٦ —

وعما خلفته رشيدة بنت المعز وحفظها كالمقيمة ١٧٠٠ ر. دينار من جلبها ١٢ ر. من الثياب المصمت ألوانا ١٠٠٠ قاطرميز مملوءة كاقورا قيصوريا ، ومصممت بجواهر من أيام المعز ، وبيت هرون الرشيد انخر الأسود التي مات فيه بطوس ، ومثل ذلك مما تركته عبدة بنت المعز أيضا ، ويطول شرحه ، وخزائن مملوءة بألوان الصيني تساري القطعة منها ألف دينار ، وحصير من الذهب وزه عشرة أرطال يطلق له الحصير التي حملت عليه بوران بنت الحسن بن سهل لما زفت إلى المأمون كما تقدم ، وموان من الذهب كان ملك الروم أعدها إلى العزيز بالله .

ووجدوا أنواعا من الشطرنج والنرد مصنوعة من الحوهر والذهب والفضة ، أو المعاج ، أو الأبنوس ، وعدد

(١) ابن خلدون ١٤٥ ج ١ (٢) المرجع بعد السنة ١٠٣ ج ١ (٣) لطائف المعارف ٩٥

(٤) الأبيدي ٩٨ (٥) الأغاني ٤١ ج ١٥ (٦) المستطرف ١٣٤ ج ١

كثير من الزهريات ونحوها ، ومن تماثيل الصنبر . . . ٢٢ رطل قطعة أقل تماثل منها وزنه ١٢ منا ، ومن تماثيل الخليفة مالا يحد ، والكلوة للرصة بالجواهر قيمتها . . . ١٣ رطل دينار فيها من الجواهر ١٧ رطلا وطاوس من ذهب مرصع بنفيس الجواهر ، عيناه من ياقوت أحمر ، وريشه من الزجاج المينا الخمرى بالذهب على ألوان ريش الطاوس ، وغزال مرصع بنفيس الدر والجواهر ، بطنه أبيض ، قد نظم من در رائق ، ومائدة من الخبز يتعد عليها جماعة ، قوائمها مخروطة ، ونخلة ذهب مكللة بالجواهر وبديع الدر في إيجانه من ذهب تجمع الطلع والبلح والرطب بشكله ولونه وعلى صفته وهيأته من الجواهر لاقية لها ، وكوز زبر بلور مرصع بحمل عشرة أرطال ، ومزينة مكللة بحبة لؤلؤ نفيس ، وقس على ذلك عشرات من أمثاله .

(١٧) الفرش والأثاث عند الفاطميين

ووجدوا في خزائن الفرش من أصناف الأثاث والرياش ما يبعد بالوقوف ، من ذلك . . . ١٠٠٠ قطعة خسرواني أكثرها منذهب ومراتب خسرواني وقلونى ثمن الواحدة ٣٥٠ دينار ، واجهة معمولة للقبلة من الخسرواني الأحمر للذهب ، و . . . ٣ رطل قطعة خسرواني أحمر مطرز بأبيض من ذهبها لم يفصل من كساء البيوت كلمة بجميع آلاتها ومقاطعها ، وكل بيت يشتمل على مساند ومخادد ومساوره ومراتبه وبساطه ومقاطعها وستوره وكل ما يحتاج إليه .

ومن أدلة الترف والاسراف في هذه المولة أن السيدة الشريفة ست الملك أخت الحاكم بأمر الله أهدت أنحاه هذا هدايا من جعلها ثلاثون فرسا بما فيها منها مركب واحد مرصع ومركب من حجر البخور وتاج مرصع بنفيس الجواهر ، وبستان من القنطرة مزروع من أنواع الشجر اه

(١٨) أثمان الجولرى

والاستكثار من الجولرى في أوائل الاسلام لم يكن يحتاج إلى نفقة كبيرة لكثرة السبائك ، فلما فزع المقتن صلوا ويتاعونهم ، ويغالون في رفع أثمانهم ، وكانت أسعارهم تتضاعف اذا جعن بين الجبال ورخامة الصوت وصناعة الفناء ، ويختلف ثمن الجارية من بضع مئات إلى بضعة آلاف ، أو مائة ألف دينار ، وأول من بذل في هذا السبيل إلى هذا المقدار سعيد أخو سليمان بن عبد الملك ، فابتاع الزنقاء الجارية الشهيرة بمليون درهم (١) (٢٠٠٠٠٠ دينار) ، وابتاع الرشيد جارية بمائة ألف دينار (٢) ، وجارية أخرى اشتراها من ابراهيم الموصلى بمبلغ ٣٩٠٠٠ دينار فباعت عنده ليلة ثم أرسلها إلى الفضل ، وطلب محمد الأمين إلى جعفر بن الهادي أن يبيعه جارية له اسمها «بذل» ، فأبى ، فأمر فأوفروا قايه ذهباً ، فبلغت قيمة ذلك ٢٠٠٠٠٠ درهم (٣) أى أكثر من مليون دينار ، وهذا اذا صح كان أعظم ما بلغ إليه بذلهم في أثمان الجولرى . وأما ما خلا ذلك فقد اشترى يزيد بن عبد الملك الأموى سلامة الغنية بعشرين ألف دينار ، وبيعت الجارية «ضياء» بخمسين ألف دينار ، واشترى جعفر البرمكي جارية بأربعين ألف دينار ، وابتاع الواثق بائة جارية مولاة للفناء اسمها «الصاحبة» بعشرة آلاف دينار ، وقس عليه ما دون ذلك وما فوقه واعتبر مقدار ما كانوا ينفقوه من الأموال في اقتنائهم اه

(١٩) مبلغ السخاء على المعموم

تدرج المسلمون فيه بتعرجهم في الحضارة والمدنية ، وزادت جوائزهم بزيادة الثروة واتساع الأرزاق ،

(١) العقد الفريد ٢٠٣ ج ٣ والمستطرف ١٣٢ ج ٢ (٢) الطبرى ١٣٣٢ ج ٢

(٣) العقد الفريد ٤٣ ج ٣ والأغاني ١٤٥ ج ١٥

فكان الأمويون يطون بالأثف درهم ، أو بضعة آلاف يلحقونها ببعض الماشية ، أو الكسوة ، أو الخيل ، وإذا توسعوا في العطاء مصلحة جعلوا الصلة عشرة آلاف ، أو عشرات الآلاف ، أو مائة ألف ، أو مئات الآلاف كما فعل معاوية في استرضاء الناس واكتساب بني هاشم إلى حزبه ، فانه جعل صلات أبناء الصحابة ملايين يندحها رواتب كل عام ، وهو أول من فعل ذلك من المسلمين ، غير ما كان يسلمهم به من الهدايا ، لسبب أو لتيسر سبب كما فصل لما ولد لعبد الله بن جعفر غلام فبذل له ١٠٠.٠٠٠ درهم على أن يسميه معاوية ، فرضى ولكنه أعطى تلك الصلة للذي بشره بالغلام (١)

واقتردى معاوية من خلفه من الأمويين وأمرائهم ، واشتهر من هؤلاء آل المهلب بالسخاء في الدولة الأموية كما اشتهر البراءة في الدولة العباسية (٢) . ومن أسخياء عظامهم خالد القسري ، والحجاج بن يوسف ، إذا مست الحاجة إلى السخاء ، فالحجاج أعطى للذي توسط في زواجه بهند بنت أسباط ثلاثين غلاما مع كل غلام عشرة آلاف درهم وثلاثين جارية مع كل جارية تحت من ثياب وغير ذلك (٣) وكان سعيد بن العاص لا يرسل إلى أحد هدية مع عبد إلا كان البعد في جلته (٤) .

أما العباسيون فكانت القروة في أيامهم أوفر ، فبلفت أعطيتهم عشرات الملايين من الدراهم ، وأول من أعطى هذا القدر منهم المنصور (٥) ، ثم صاروا يهبون الضياع وخراج البلاد ، أو يورقون الزوارق ذهباً أو فضة ، أو يهبون الغلمان يصالحون بغير المال ، أو يرسلون الجائزة على مئات من الدواب ، أو يولون الولايات والأعمال وتزداد جوائزهم إذا استخفهم الطرب ، أو استغفروهم الإطراء ، فقد ولي السخاخ رجلا الأهوازي بصيدة (٦) والغالب أن يكون سخاؤهم لفرض سياسي يعود قومه على الدولة كما فعل المنصور إذ أعطى في يوم واحد عشرة ملايين درهم ، فرققها في أعيانه ، ووجوه قواده ، لقطع ألسنتهم عن مقاومته . ولم يقل ابنه المهدي استكتب أسباه أولاد المهاجرين والأفصر ، ويطس مجلسا على فرق فيه ٣٠٠.٠٠٠ درهم ، وقرقر لكل واحد من أهل بيته ٦٠.٠٠٠ درهم كل سنة (٧) ، وأعطى المنيرة بن حبيب ألف فرضة بضعها حيث شاء (٨)

وفرَّق الرشيد في يوم واحد ١٠٠.٠٠٠ دينار (٩) ، وطرب يوما ففتر على الناس ٦٠.٠٠٠ درهم (١٠) ، وأعطى المهدي لعبد الملك بن مالك صاحب شرطة أبيه مالا أوسع إليه على ٤٠٠ بثل موقرة دراهم (١١) ، وأعطى الأمين إلى سليمان بن أبي جعفر مليون درهم (١٢) ، واختص الأمين من أساليب السخاء بأنه كان يأمر بإيقار زورق الطالب ذهباً أو فضة ، وكان قصره على شاطئ دجلة ، فأناباه شاعر ، أو طالب في زورق وأخذته الأربحية ، أو استخفه الطرب ، قال : أوقروا زورق هذا ذهباً أو فضة ، وقلما كانوا يفعلون ذلك ، والغالب أن يتوضوا عنه ببلع من المال كما فعلوا بأبي محمد التيمي ، فانه مدح الأمين بقصيدة أطربته ، فأمر الفضل بن الربيع أن يورق زورقه مالا ، فقال نعم ليسيدي ، فلما طالبه التيمي بذلك . قال له الفصل : أنت مجنون من أين لنا ما يملأ زورقك ؟ ، ثم صالحه على ١٠.٠٠٠ درهم (١٣) ، وأجاز للمأمون طيبه بمليون درهم وألف كرهقة (١٤) (كذا) ، وفرَّق المأمون في ساعة ٢٦.٠٠٠ درهم ، ومدحه اعرابي فأجازته بثلاثين ألف دينار (١٥) ، وكان المتوكل يهب القطائع جوائز على اللدح (١٦) ، وقس على ذلك هدايا سائر الخلفاء اه

- (١) الأغاني ٧١ ج ١١ (٢) ابن خلكان ٢٦٦ ج ٢ (٣) الأغاني ١٣٠ ج ١ (٤) الفرج بعد الشدة ٣٣ ج ٢ (٥) لطائف المعارف ١٦ (٦) فوات الوفيات ٢٠ ج ١ (٧) سير الملوك ٦٥ و ٦٦ (٨) الأغاني ٩٨ ج ١٨ (٩) المستطرف ١٣٥ ج ١ (١٠) الأغاني ٨٨ ج ٩ و ١٢٤ ج ١٧ (١١) ابن الأثير ٤٢ ج ٦ (١٢) المستطرف ١٣٣ ج ١ (١٣) الأغاني ١١٨ ج ١٨ (١٤) طبقات الأطباء ١٢٨ ج ١ (١٥) فوات الوفيات ٢٤٠ ج ١ (١٦) الأغاني ٣ ج ١١

(٢٠) سخاء البرامكة

سمع المأمون بشيخ يأتي خرابات البرامكة ، ويبيكي ويقتحب طويلا ، ثم ينشد شعرا يرثيهم به وينصرف
فبعث في طلبه ، فلما حضره اتهمه الخليفة وسأله من هو ، وبم استحق البرامكة منعنا صنع ؟ فقال الرجل وهو غير
هابط : البرامكة عندي بأدخضرة ، فان أمر أمير المؤمنين حديثه ببعضها ، فقال نهلت ، فقال أنا المنزلة من الميرة
المشقي ، نشأت في نعمة فزالت حتى وصلت إلى بيع داري ، وأملقت إلى غاية ، فأشير علي بقصد البرامكة ،
فخرجت إلى بغداد ، ومعي ثياب وعشرون امرأة وصييا ، فدخلت بهم إلى مسجد ببغداد ، ثم خرجت وتركهم
جياحا لانفقة لهم ، فمرت بمسجد فيه جماعة عليهم أحسن زي ، وجلست معهم أردد في صلوي ما أخطبهم
به ، فتعجب نفسي عن ذلك المسألة ، وإذا خادم قد أزعج القوم ، فقاموا ، فقامت معهم ، ودخلوا دارا كبيرة
فدخلت ، فإذا يحيى بن خالد على دكة وسط بستان ، جلسوا وجلست ، وكنا مائة رجل ورجل ، نفرج مائة
خادم في يد كل خادم منهم بحجرة ذهب ، فيها قطعة عنبر ، فقبضوا ، وأقبل يحيى على القاضي ، وقال : زوج
ابن عمي هذا بإثني عاتشة ، فخطب وعقد النكاح ، وأخذنا التلثم فقات للسك ، وبنادق الصبر ، ونماثيل
النذر ، فالتقط الناس ، والتقطت ، ثم جاءنا الخدم في يد كل واحد منهم صينية فضة ، فيها ألف دينار مخلوطة
بالمسك ، فوضع بين يدي كل واحد واحدة ، فأقبل كل واحد يأخذ الدنانير في كفه ، والصنية تحت إبطه ،
ويخرج ، فبقيت وحدي ، لأجسر أفضل ذلك ، ففترزقي بعض الخدم ، وقال خذها وقم ، فأخذتها وقت
ويجعل أمشي وألقت خوفا من أن تؤخذ مني ، ويحيى يلاحظني من حيث لا أظن ، فلما قربت السترددت
فيلست من الصنية ، فجثته فأمرني بالجلوس ، فجلست ، فسألني عن حالي ، فحدثته عن قصتي ، فبكي ، ثم قال
علي بموسى ، فجاءه ، فقال : يا بني هذا رجل من أولادنا ، قد رمت الأيام بصرفها ، فخذ إليك فأخطله
بنفسك ، فأخذني وخلع علي ، وأمرني بحفظ الصنية لي ، فكنيت في ألة عيش يومي وليتي ، ثم استدعى
أخاه العباس ، وقال : إن الوزير قد سلم إلي هذا ، وأريد الركوب إلى دار أمير المؤمنين ، فليكن عندك
اليوم ، فلكان يومي مثل أمس ، فأقبلوا يتداولوني وأنا خلق بأمر عيالي ولا أتجاسر أن أذكرهم ، فلما
كان في اليوم العاشر أدخلت على الفضل بن يحيى ، فأقمت عنده يومي وليتي ، فلما أصبحت جاءني خادم ،
فقال : قم إلى عيالك وصبيانك ، فقلت : إنا لله ذهبت الصنية وما فيها ، فليت هذا كان من أول يوم ، وقت
والخادم يعني بين يدي ، فأخرجني من الدار ، فزدد ما بي ، ثم أدخلني إلى دار كان الشمس تطلع في جوانبها
وفيها من صنوف الآلات والفرش ، فلما توسطتها رأيت عيالي يرتعون في الديباج والستور ، وقد حل إليهم
مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار ، وسلم إلي الخادم صكا باسم « ضيعتين جيليتين » ، وقال : هذه الدار
وما فيها والضيعة لك ، فأقمت مع البرامكة في أخفض عيش إلى الآن ، ثم قصدني عمرو بن مسعدة في
الضيعة والزمني من خراجها ما لا يني به دخلهما ، فكلما لحقني نأبة قصدت دورهم فبكي ، فاستدعى
للمأمون عمرو بن مسعدة وأمره أن يرده على الرجل ما استخرج منه ويقرضه خراجها على ما كان في أيام
البرامكة ، فبكي الشيخ بكاء شديدا ، فقال له المأمون : ألم أستاذ بك جلا . فقال : بلى ولكن هذا من
بركة البرامكة ، فقال امض مصاحبا فان الوقت مبارك ، وحسن العهد من الإيمان (١) اه

(٢١) السخاء على الشعراء

لما الرشيد فأعطى مروان كما كان يعطيه للمهدي أي مائة ألف درهم (٢) ، وأعطاه مرة ١٠٠٠ درهم
(١) الفرج بعد الشدة ٢٢ ج ٢ وسير الملوك ١١١ والالتبدي ١٣٢ - (٢) الأغاني ١٩ ج ١٢

درهم وعشرة من الرقيق ، وكان يعطى أبا العتاهية راتباً سنوياً مقداره ٥٠٠٠٠ درهم غير الجوائز والمعاون (١) ، وقاتهم المتوكل في ذلك ، لأنه أعطى حسين بن الضحاك ألف دينار عن كل بيت من قصيدة قاطاها هو أول من أعطى ذلك (٢) ، وكان المتنعم إذا أعجبه قول الشاعر ملاً به جوهراً ، وقد سبقه إلى ذلك يزيد بن عبد الملك (٣) .

وتشبه الوزراء والأمراء بالخلقاء ، فكان خالد القسرى يجلس للشعراء في يوم معين ويميزهم ، وكذلك آل المهلب فقامهم فرضوا لهم الأعطية والجوائز (٤) ، أما في الدولة العباسية فالبركة لم يذخروا وسعاً في إجازة الشعراء ، وخصوصاً الفضل بن يحيى ، وقد قال فيه بعضهم :

ما لقينا من جود فضل بن يحيى * ترك الناس كلهم شعراء (٥)

وكان أبوه يحيى إذا لقيه شاعر ولم يكن معه مال أعطاه دابته (٦) ، وقد فاق البركة الخلفاء في إجازة الشعراء ، فقل شاعرهم إبان اللاحق على قصيدة واحدة مثل ماله مروان بن أبى خضعة من الرشيد كل عمره (٧) ، وقس على ذلك سخاء سائر الوزراء والأمراء فان يزيد بن مزيد أعطى نصف ماله لشاعر (٨)

ويقال نحو ذلك في سخائهم على المغنين ، فقد أعطى المهدي دحان المغنى في ليلة واحدة ٥٠٠٠٠ درهم ، لأنه أغناه شعراً في مدحه ، دينار ، لأنه أطربه ، وأعطى الأمين اسحق الموصلى ١٠٠٠٠٠ درهم ، لأنه غناه شعراً في مدحه ، فخلها إلى داره مائة قرأش (٩) ، وكان الهادي يجري على إبراهيم الموصلى عشرة آلاف درهم في الشهر سوى صلاته ، أما الرشيد فكان إذا طرب وهب وباد حتى ولّى اسماعيل بن صالح مصر لأنه أطربه فبناته (١٠) وأخبار الشعراء والمغنين كثيرة فلا نطيل بها له

(٢٢) التهنك

وطبيعى فيما قمتناه من الحضارة ولتurf أن يتورها شيء من التهنك والفتشاء ، وإن كان ذلك لا يخلو منه قوم مهما بلغ من بعدهم عن الحضارة ولكنه يكثر غالباً في المتحضرين ، لسكون خواطرهم وتوفر أسباب الرغد والتمتع عندهم ، كان في جاهلية العرب جماعة من البغايا طعن رأيت ينتحيا القتيان ، وكان بعض الناس يكرهون إمامهم على البغاء يتغنون عرس الدنيا (١١) ، ولكن ذلك شأن الحضرة ، لأن البغايا أقرب إلى صحة الآداب ، فاعتبركم تكون أسباب التهنك أوفر في المدن الكبرى حيث تترامس الأقدام ، وتتوفر القوة ، وتكثر الجوارى ، ويتفشى الفناء والمسكر كما كان شأن بغداد وقربطبة والقاهرة والفسطاط في إبان ذلك لمتن ، فلا غرو إذا فشت الفتشاء فيها ، ولا سيما في العصور الوسطى ، حتى صار البغاء صناعة عليها رئيس يحكم إليه البغايا عند الحاجة (١٢) ، وقد وافي في ترويح تلك البضاعة بصورة النساء على جدران الحمامات (١٣) ، وأصبح أهل القصف من الأغنياء يصورون خطاياهم على جدران منازلهم كما فعل ابن طولون ، وكان الحكام العقلاء يبذلون جهدهم في منع الفتشاء ، ويقاومون تيارها بما في إمكانهم (١٤) ، ولما هجزوا عن كفة أذاها القوة ضربوا عليها ضرائب يدفعها أصحابها مثل سائر التجارات (١٥) .

- (١) الأغاني ١٥٧ ج ٣ (٢) الأغاني ١٨٤ ج ٦ (٣) الأغاني ١٧٤ ج ٦ و ١٤٧ ج ١
(٤) الأغاني ١٦٤ ج ١١ (٥) ابن خلكان ٤١١ ج ١ (٦) الأغاني ٨ ج ٥ (٧) الأغاني ٣٣ ج ٢٠
(٨) ابن خلكان ٢٨٥ ج ٢ (٩) الأغاني ٩٩ ج ١٤٢ و ١٠ (١٠) حلبة الكميت ٦٣ و ٦٤
(١١) العقد الفريد ٢ ج ٣ (١٢) الفرج بعد الشدة ١٤٣ ج ٢ (١٣) ابن خلكان ١٢٧ ج ٢
وتفتح الطبيب ٨٦٠ ج ٢ (١٤) ابن الأثير ٩٥ ج ١٠ و ٢١٥ ج ١١ والمقريزى ٣١٦ ج ١
(١٥) المقريزى ٨٩ ج ١

وأقبح ماظهر من التهنك في أثناء هذا المفازة الفلماني وتسريهم ، وظهر ذلك على الخصوص في أيام الأمين ، وتكاثر بشكائر غلمان الترك والروم من أيام للمعصم ، وفيهم الأرقاء بالأسر أو بالشراء ، وتسابق الناس إلى اقتنائهم كما تسابقوا إلى اقتناء الجوارى وغالوا في تزيينهم وتطعيمهم ، وكانوا يخصونهم ليأمنوا تعذيبهم على نساءهم وجواريرهم ، وفشا حب الفلماني في أهل الدولة بمصر وتفرغل بهم الشعراء^(١) حتى غارت النساء من ذلك ، فصعدن إلى التشبه بالفلماني في اللباس والقيافة ليستملن قلوب الرجال^(٢) وكثرة الجوارى في بعض القصور جرحن إلى الفلماني بأساليب القمعاء ، وربما اتخذت كل جارية خصيا لنفسها كزوجة ، كما فعلت جوارى خناروية صاحب مصر^(٣) ، حتى النساء الشريفات قد تعودن عن الزواج لعدم وجود الأكفاء ، ولأسباب أخرى كن يجرهن إلى مثل ذلك ، فتكاثر الفساد فهن قلعة الزورج^(٤) ذكروا أن ابنة الاخشيذ صاحب مصر اشترت جارية لتتمتع بها ، وبلغ المهر لهن الله الفلماني ذلك ، وكان لا يزال في الغرب يحتفظ للوثوب على مصر ويخاف الفشل ، فلما بلغه ما فعلته ابنة الاخشيذ استبشر ، وقال : هذا دليل السقوط ، ويحسد على مصر وقتعها ، والعفاف سياج العمران .

(٢٣) — شكل المجلس وفرشه

وقس على ذلك سائر ما أدخلوه من مظاهر الأبهة من الطراز ، وهن الأشعار في صدور المجالس ، وفرش الديباج والخرام

(٢٤) احتفالات الأعراس ونحوها

فاحتفال بالأعراس قلب على أحوال شتى ترجع إلى نحو المشهور من الاحتفال بأعراس المسلمين في مصر الآن مع اعتبار عوائد البلاد وتقوات القوة ، وتأتي بمثل من أبلغ ما يعرف من التناهي بالبذخ في مثل هذه الحال ، فتذكر احتفالاتي اشتها في تاريخ الاسلام : الأول زفاف خديجة بنت الحسن بن سهل السبابة بوران إلى الخليفة المأمون ، احتفلوا به في قم الصلح احتفالا لم يسبق له مثيل ، ثم لحسن فيه على الهاشميين والقواد والكتاب والجوهر بنادق المسك ، فيها رقاع بأسواء ضياع وأسواء جوار وصفات دواب وغير ذلك ، فكانت البندقة اذلوقت في يد الرجل فتحها ، فيقرأ ما في الرقعة ، فاذا علم ما فيها مضى إلى الوكيل المرصد لتلك فيدفعها إليه ويسلم ما فيها سواء كان ضيعة ، أو ملكا آخر ، أو فرسا ، أو جارية ، أو عولكا ، ثم ترحل على سائر طبقات الناس الثناوير والبراهم ونوافج المسك ويض الصبر غير ما أتفق على المأمون وقواده وأصحابه وسائر من كان معه من أجناده وأتباعه ، وكانوا خلقا لا يحصى ، حتى على الجمالين والمكارية والملاحين ، وكل من ضمه عسكريه ، ذكروا أنه خدم في ذلك الاحتفال ٣٠٠٠٠ ملاح ، وقد الحطب يوما فأوقدوا تحت القصور الخيش مغموسا في الزيت ، ولما كانت ليلة البناء وجليت بوران على المأمون فرش لها حصير من الذهب ، وجاء بمكمل مرمع بالجواهر فيه درر كبار ثرت على النساء وفيهن زينة وجدونة بنت الرشيد ، فما مست إحداهن من الدرر شيئا ، فقال المأمون شرعن أبأ محمد وأكرمته ، فقت كل واحدة منهن يدها فأخذت درة ، فبقي سائر الدرر يروح على ذلك الحصير الذهب ويتلا ، فقال للمأمون : قاتل الله الحسن بن هاني^(٥) كأنه قد رأى هذا حيث يقول :

كأن صغرى وكبرى من فواقها * حصباء در على أرض من الذهب

(١) تزيين الأسواق ١٦٣ (٢) القرظي ١٠٤ ح ٢ (٣) ابن الأثير ١٨٨ ج ٢

(٤) الفرج بعد الشدة ٦٦ ج ٢

وكانت في المجلس شجرة عتبر فيها مائة رطل ، فضج المأمون من دنائها ، فسلت له مثل من الشمع ، فكان الليل مدة مقامه فيه كالنهار ، وبلغت ثقة هذا الاحتفال ٥٠٠٠٠٠ درهم ، وأمر المأمون للحسن بن سهل عند منصرفه ببلغ ١٠٠٠٠٠٠ درهم وأقطع فم الصلح ، جلس الحسن وفرق للمال على قواده وأصحابه وحشمه ، وأطلق له خراج فارس وكورالاهواز مدة سنة ، وجاء المأمون إلى عروسه في الليلة التالية ، فثرت عليه جنتها ألف درة كانت في صنية ذهب (١) وغير ذلك مما يفوق طور التصديق . والاحتفال الثاني احتفاله المتوكل على الله حين ظهر ابنه المعتز بالوضع المعروف بركوازا ، وعما جرى فيه أنه جلس بعد فراغ القواد والأكابر من الأكل ومثت بين يديه مرافيع ذهب مرصعة بالجواهر ، وعليها أمثلة من العنبر والند والمسك المخبون على جميع الصور ، وجعلت بساطا ممدودا ، وأحضر القواد والجلساء وأصحاب المراتب ، فوضعت بين أيديهم صواني الذهب مرصعة بأصناف الجواهر من الجانبين ، وبين الساطين فرجة ، وجاء القراشون بزنايل قد غشيت بالادم عمولة دراهم ودنانير نصفين ، ضمت في الفرجة حتى ارتفعت على الصواني ، وأمر الحاضرون أن يشربوا ، وأن ينقل كل من شرب من تلك الدنانير ثلاث حفنات ماجلت يده وكما خف موضع صب عليه من الزنايل حتى ردة إلى حالته ، ووقف غلمان في آخر المجلس ، فصاحوا : ان أمير المؤمنين يقول لكم ليأخذ من شاء ماشاء ، فخذ الناس أيديهم إلى المال فأخذوه ، وكان الرجل يثق به مامعه فيخرج به ، فيسلمه إلى غلمانه ويرجع إلى مكانه ، ولما تقوض المجلس خلع على الناس ألف خلة ، وجاؤا على ألف مركب بالذهب والفضة ، وأعطى ألف نسمة (٢) .

وقس على ذلك احتفال الخليفة المقتدى بالله سنة ٤٨٠ هجرية لما زفت إليه بنت السلطان ملكشاه وحل جهازها إلى دار الخلافة (٣) ، وأما الاحتفال بتتويج السلاطين والبيعة فقد ذكرنا أمثلة منه في الجزء الأول من هذا الكتاب (تاريخ الفتنة الاسلامي) صفحة ٩١ و١١٧ و ١٢٤

(٢٥) استقبال الوفود

أما استقبال الوفود فقد كان غفيا يظهرون به عز الاسلام ، ولاسيما اذا كان القادمون من وفود الدول غير الاسلامية من الروم ، أو المند ، أو الافرنج ، والاحتفال بذلك يختلف باختلاف الأحوال ، نذكر من أمثلة احتفال المقتدر العباسي برسل جاموه من ملك الروم سنة ٣٠٥ هجرية ، فله استقبالهم في دار الشجرة التي تقيم ذكرها ، وعبي لهم الجيوش ، وصفت الدار بالأسلحة ، وأنواع الزينة ، وكانت جهة المساكن المصفوفة حينئذ ١٦٠٠٠ رجل بين راكب وواقف ، ووقف الغلمان الحزبية بالزينة والمناطق الحلاة ، وكانوا اثنين وعشرين ألفا ، ووقف الخدم والخصيان كذلك وعددهم سبعة آلاف منهم ٤٠٠٠ خادم أبيض و ٣٠٠٠ خادم أسود ، ووقف الحجاب وكانوا سبعماية حاجب ، وزينت المراكب والزوارق في دجلة أعظم زينة ، وزينت دار الخلافة ، وكانت جهة السور المعلقة عليها ٣٨٠٠٠ ستر منها ديباج منسج ١٢٥٠٠ ستر ، وكانت جهة البساط ٢٢٠٠٠ بساط ، واستعرضوا مائة سبع مع مائة سبع ، وكان في جهة الزينة الشجرة الذهب والفضة التي تشتمل على ثمانية عشر فصنا من الذهب والفضة ، فكانت أعصانها تتمايل بحركات موضوعة ، وعلى الأغصان طيور وعصافير مختلفة من الذهب والفضة تصغر بحركات مرتبة كما ومغناها في عملها ، فشاهد الرسل من العظمة ما يطول شرحه (٤) انتهى ما أردته من كتاب « تاريخ الفتنة الاسلامي » والحمد لله رب العالمين .

(١) لطائف المعارف ٧٣ وابن خلكان ٩٣ ج ١ (٢) لطائف المعارف ٧٤ (٣) ابن الأثير ٦٥ ج ١٠

(٤) أبو القلاء ٧٣ ج ٢ وابن السامى ٧٥

فلما سمع صاحبي ذلك - قال : أما الآن فقد أوفيت القول حق ، وأصبح ما كان مجرد خيال واضح الحقيقة ظاهراً للعيان ، إذن على المسلمين بعدنا أن يذروا الخطأ الذي وقع فيه آبائنا الأولون ، ويقوموا بدورهم على حفظ صحة الأبدان والعقول ، وترك الفضول ، والاهلكوا كما هلك الأولون ، وذلوا كما ذل الأقدمون ، وإذا اتبعت هذا المقام بما يلقي عليه شعاعاً من نور العلم ، فتبين ما حصل لبعض الملوك الذين تربوا تربية الترف والتعميم ، وهل جنودهم وأعدائهم حفظوا عهدهم ؟ أم كانوا أول الفاتكين بهم ؟ ومات أكثرهم في ريمان شبابهم ، قلت سأفصل إن شاء الله ، انظر :

عقاب الأمراء المسلمين يجلبهم في نفس الحياة الدنيا قبل عقاب الآخرة

ذلك أن صديقي العالم الذي يذكر في هذا التفسير سمع باسمته أنت أيها الأخ فهاله الأمر جدّاً ، وقال : ألهذا الحد وصل ملوك الإسلام ، أين القرآن ؟ أين الحكمة والفلسفة ؟ أين العقول ؟ فكيف تكون أسرهم ذبها مرصعة بالجواهر ، وكيف يملكون الترف والتعميم ، اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . ثم قال كما قلت أنت : أيها الصديق : ليكن في هذا المقام مقال فيه ما حل بهؤلاء السرفين من التل في الحياة الدنيا ولست أكتفي بأن نذكر أن دولهم ذهبت ، وعزهم اختفى ، بل أنا أرجو أن تبين ما حاق بنفس هؤلاء الترفين ، فإن هذا بين للناس أن الفعلة المستحكمة في الأمم لها عقاب في نفس الحياة ، ولعمري إن ذلك متى انضج تماماً كان أقوى رادع ، وأعظم زاجر ، ومؤثر في الأمم بعدنا .

كيف يجهلون علم الصحة ، وكيف يسكرون ، وكيف يكثر من ألوان الطعام ، وكيف يفتنون في الملاهي ؟ أجهلوا أن هذا نفسه يمنع السعادة في نفس الحياة ؟ ألم يدرسوا ، ألم يتعلموا ؟ هذا هو الجهل ، ثم إن الانغماس في الذات هو نفسه مزيل للذكاء ، سلب للجد على الأمراء ، فهل كان هؤلاء لا يفتلون ؟ قلت : حياك الله أرجح فؤادك قليلاً ، إن المطلع على ما تقدم في ﴿سورة ص﴾ من الكلام على تربية الأمراء والجد عند آية : « يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض الخ » وعلى حفظ الصحة في الكلام على قصة آدم هناك يعرف علم الصحة عند أطباء زماننا في أوروبا ، ويراهم مواثقة أشد المواثقة لسيرة النبي ﷺ والخلفاء الراشدين في بساطة طعامهم ، وأن الذين يتجاوزون هذه السيرة أدلاء في نفس حياتنا الدنيا ، وهذا ما طلبت من الأمثلة على ذلك :

﴿أولاً﴾ جاء في كتاب « مروج الذهب » للسعودي ما فيه : « حدث البصري » قال : اجتمعنا ذات يوم مع السدماي في مجلس المتوكل فتذاكروا أمر السيوف فقاتل بعض من حضر : بلقي بالأمير المؤمنين أنه وقع عند رجل من أهل البصرة سيف من الهند ليس له نظير ولم ير مثله ، فأمر للمتوكل بكتاب إلى عامل البصرة يطلبه بشرائه بما بلغ ففنت الكتب على البريد ، وورد جواب عامل البصرة بأن السيف اشتراه رجل من أهل اليمن ، فأمر المتوكل بالبعث إلى اليمن يطلب السيف وابتاعه ففنت الكتب بذلك ، قال البصري : فبينما نحن عند المتوكل إذ دخل عليه عبيد الله والسيف معه ، وعرفه أنه ابتاع من صاحبه بأربعين بشرة آلاف درهم ، فسرّ بوجوده ، وجد الله على ما سهل من أمره ، وانتفضه فاستحسنه ، وتكلم كل واحد منا بما يجب ، وجسده تحت ثي فراشه ، فلما كان من الغداة قال للفتح المطلب لي غلاما تنق بنبجته وشجاعته أدفع له هذا السيف ليكون واقفا به على رأسي لا يفلتني في كل يوم مادمت جالسا قال فلم يستقم الكلام حتى أقبل باغرا التركي فقال للفتح يا أمير المؤمنين هذا باغرا التركي قد وصف لي بالشجاعة والبسالة وهو يصلح لما أرادته أمير المؤمنين ، فدعا به للمتوكل ، فدفع إليه السيف وأمره بما أراد وقدم أن يزداد في مرتبته وأن يضعف له الرزق ، قال البصري : فوالله ما اتضى ذلك السيف ولا خرج من غمده من الوقت الذي دفع

إليه إلا في الليلة التي ضربه فيها بأمر بذلك السيف . قال البصري : لقد رأيت من المتوكل في الليلة التي قتل فيها عبدا ، وذلك أننا إذا كنا أمر الكبر وما كانت تستعمله الملوك من الجبرية ، فجعلنا نحوض في ذلك وهو يبرأ منه ، ثم حوّل وجهه إلى القبلة فسجد ، وغفر وجهه بالتراب خضوعا لله عز وجل ، ثم أخذ من ذلك التراب ، فثبته في خيته ورأسه ، وقال : إنما أنا عبد الله ، وأن من صار إلى التراب لحقيق أن يتواضع ولا يشكّر ، قال البصري : فتغيرت له من ذلك ، وأنكرت ما فعله من ثبته التراب على رأسه وخطيته ، ثم قد للشراب ، فلما عمل فيه غنى من حضر من المؤمنين صوتا استحسنه ، ثم التفت إلى الفتح فقال يا فتى ما بقي أحد سمع هذا الصوت من مخارق غيرة وغيرك ، ثم أقبل على الكباء ، قال البصري : فتغيرت من مكانه ، وقالت هذه ثمانية ، فأنا في ذلك إذ أقبل خديم من خدم فتبعة ومعه منديل وفيه خلعة وجهت بها إليه فتبعة فقال له الرسول يا أمير المؤمنين قول لك فتبعة أتى استعملت هذه الخلعة لأمر المؤمنين واستحسنتها ووجهت بها لتلبسها ، قال فلما فيه دراعة حراء لم أر مثلها قط ومطرف خزانجر كاهه دبق من رقبته ، قال فلبس الخلعة والتحف المظفر ، قال فأتى على ذلك إذ تحرك للمتوكل فيه وقد كان التفت عليه الطرف لجذبه جذبة نظره من طرفه إلى طرفه ، قال فأخذه ولقه ، ودفعه إلى خادم فتبعة الذي جاء بالخلعة ، وقال : قل لها احتفظي بهذا المظفر عندك ليكون كفنا لي عند وفاتي ، فقلت في نفسي : إنا لله وأنا إليه راجعون ، انقضت والله للذة وسكر للمتوكل سكرة شديدا ، قال : ولكن من عادته أنه إذا تمأيل عند سكره أن يقيم الخدم الذين عند رأسه قال فبينما نحن كذلك ومضى نحو ثلاث ساعات من الليل إذ أقبل بأمر ومعه عشرة نفر من الأتراك وهم متثمون والسيوف في أيديهم يهز في ضوء ذلك الشمع ، فجمعوا علينا وأقبلوا نحو المتوكل حتى مهد بأمر وأخبر معه من الأتراك على السرير فصاح بهم الفتح ويلكم مولاكم ، فلما رأهم الغلمان ومن كان حاضرا من الجلاء والندماء تطايروا على وجوههم فلم يبق أحد في المجلس غير الفتح وهو يحاربهم ويغاضهم . قال البصري : فسمعت صيحة للمتوكل وقد ضربه بأمر بالسيف الذي كان للمتوكل دفعه إليه على جانبه الأيمن فقذفه إلى خصره ، ثم ناله على جانبه الأيسر ففعل مثل ذلك ، وأقبل الفتح يمانعهم عنه ، فقبضه واحد منهم بالسيف الذي كان معه في يده فأخرجته من مته وهو صابر لا يتنحي ولا يزول ، قال البصري : فما رأيت أحدا كان أقوى نفسا ولا أكرم منه ، ثم طرح بنفسه على المتوكل فانا جميعا ، فلما في البساط الذي قتل فيه وطرحا ناحية ، فلم يزالا على حالتهما في ليلتهما وعامة نهارهما حتى استقرت الخلافة للمتصّر ، فأمر بهما فدفنا جميعا وقبل ان فتبعة كفتته بذلك الطرف المحرق بعينه ، وكانت سنة ٤١ سنة ١١

ثانيا - الكلام على المتصّر بالله بعد المتوكل

الذي تولى الملك سنة ٢٤٧ وسنة ٢٥ سنة ، تولى الخلافة نصف سنة لا غير

قال المسعودي في « مروج الذهب » : إن الخليفة للمتصّر كان يلعب الصولجان في الميدان ، فأصرفت وهو عرق فدخل الحمام وتام في الباذنجن ، فضر به الهواء ، وركبت حتى هاتكة ، فدخل عليه أحد بن الخصب فقال يا سيدي أنت متغلب وحكيم الزمان ، نزل من الركوب فبدا يتدخل الحمام ، ثم تخرج عرقا فقام في الباذنجن ، فقال له للمتصّر : أعترف أن أموت ؟ رأيت في المنام البارحة آتيا أتاني فقال لي : تعيش خسا وعشرين سنة ، فقلت أن ذلك بشارة في المستقبل من عمري ، وأتى أبقي في الخلافة هذه المدة ، قال فأت في اليوم الثالث ، فنظروا فإذا هو قد استوفى خسا وعشرين سنة .

وقد قيل إن الصفوري الطيب سمع في مشراط حبيبه به ، وقد كان عزم على تهريق جمع الأتراك ،

فأخرج وصيفا في جمع كثير إلى غزاة الصائفة بطرسوس ، ونظروا إلى بنا الصغير وقد أقبل في القصر ، وحوله جماعة من الأتراك ، فأقبل على الفضل بن المأمون ، قال : قتلى الله أن لم أقتلهم ، وأفترق جمعهم بقتلهم للتوكل على الله ، فلما نظر الأتراك إلى ما فعل بهم وما قد عزم عليه وجدوا منه الفرصة ، وقد شكوا ذات يوم حوارة ، فأراد الحجابة ، فخرج له من المم ثلثائة درهم لما كان في الموضع ، وشرب شرية بعد ذلك خلقت قواء ، ويقال إن السم كان في موضع الطبيب حين فصدته ، وقد ذكر ابن أبي الدنيا عن عبد الملك ابن سليمان بن أبي جعفر ، قال : رأيت في نومي للتوكل والفتح بن خلفان ، وقد أحاطت بهما مار ، وقد جاء محمد المنتصر ، فاستأذن عليهما ، فخرج الوصول ، ثم أقبل التوكل على ، فقتل : وأعيد الملك قل محمد بالكأس القى سقيتنا تشرب ، قال : فلما أصبحت غدوت على المنتصر ، فوجدته محجوما ، فواظبت على عيادته فسمعت في آخر علة يقول : « عجبتا فموجنا » فمات من ذلك المرض اه

فلما سمع صاحب ذلك ، قال : إن هنا وأمثاله هوالقى يفهما قوله تعالى : « فلا تحبكم أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليذهب بها في الحياة الدنيا ويذهب أنفسهم » . فقلت :

ثالثا — الكلام على المستعين بالله

لما كان في شهر رمضان من هذه السنة ، وهي سنة اثنتين وخمسين ومائتين ، بعث المعتز بالله سعيد بن صالح الحاجب ليلقي للمستعين ، وقد كان في جهة من جهة من واسط ، فقيه سعيد ، وقد قرب من سامرا فقتله واحتز رأسه ، وحمله إلى المعتز بالله ، وترك جثته لمقاة على الطريق ، حتى نوى دفنها جماعة من العتبة ، وكانت وفاة المستعين بالله يوم الأربعاء لست خلون من شوال سنة اثنتين وخمسين ومائتين ، وهو ابن خمس وثلاثين سنة ، وذكر شاهك الخادم ، قال : كنت عديلا لستعين عند أشخاص المعتزلة إلى سامرا ونحن في عمادية ، فلما وصل إلى القاطول تلقاه جيش كثير ، فقال بإشاهك انظر من رئيس القوم فإن كان سعيدا الحاجب فقد هلك ، فلما عاينته قلت هو والله سعيد ، فقال إنا لله وإنا إليه راجعون ، ذهبت والله نفسي وجعل يبكي ، فلما قرب سعيد منه جعل يخنقه بالسوط ، ثم أضجعه وقعد على صدره ، واحتز رأسه وحمله على ماذكرنا ، واستقامت الأمور للمعتز ، واجتمعت الكلمة عليه اه

رابعا : الكلام على المعتز وكتله

قال السعدي : انه لما رأى الأتراك من إقدام المعتز على قتل رؤسائهم ، وإعماله الحيلة في فناءهم ، وانه قد اصطنع الخارية والفراعة دونهم صاروا إليه بأجمعهم ، وذلك لأربع بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين ، وبعثوا يقرعون بذنوبه وبوجوهه على أفعاله وطالبوه بالأموال ، وكان المدبر قتلك صالح بن وصف مع قواد الأتراك فلج وأنكر أن يكون قبله شيء من المال ، فلما حصل للمعتز في أيديهم بعث إلى مدينة السلام في محمد بن الوائلي اللقب بالهتدي ، وقد كان المعتز فاه إليها واعتقله فيها ، فأتى به في يوم وليلة إلى سامرا ، فقتله الأولياء في الطريق ، ودخل إلى الجوسق ، وأجلب المعتز إلى الخلع على أن يظهروه الأمان أن لا يقتل وأن يؤمنوه على نفسه وماله وولده ، وأبى محمد بن الوائلي أن يقعد على سرير الملك أو يقبل البيعة حتى يرى المعتز ويسمع كلامه ، فأبى بالمعتز وعليه قيصر مدنس وعلى رأسه منديل ، فلما رآه محمد بن الوائلي وثب إليه فضاقه ، وجلسا جميعا على السرير ، فقتل له محمد بن الوائلي : يا أخي ما هذا الأمر ؟ قال للمعتز أمر

لا أطيقه ، ولا أقوم به ، ولا أصليح له ، فأراد للمهتدي أن يتوسط أمره ، ويصلح الحال بينه وبين الأتراك ، فقال المعتز : لا حاجة لي فيها ، ولا يرضوني لها ، قال للمهتدي : فأنا في حل من يعتك ، قال : أنت في حل وسعة ، فلما جعله في حل من يعته حول وجهه عنه ، فأقيم عن حضرة ، ورد إلى محبته ، فقتل في محبته بعد أن خلع بستانه أيام اه

خامساً : للمتعمد على الله العباسي

قال المسعودي : قد كان المتعمد على الله قعد للعداء واصطبح يوم الاثنين لاهدي عشرة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين وثمانين ، فلما كان عند العصر قتم الطعام فقال ياموشكيره للوكل به ما فعلت الرءوس بأرقابها ، وقد كان قدم من الليل أن يقتل له رأسا جلين ، وقد فصل فيهما أرقابهما فقتلتهما ، وكان معه على المائة رجل من نعباته يعرف بقف الملقم ، ورجل آخر يعرف بخطف المضحك ، فأول من ضرب يده إلى الرءوس للملقم ، فأنزع أذن واحد منهما ، وأما المضحك فانه يتلعق اللهازم والأعين ، فأكلوا وأكل المتعمد ، وأتوا يومهم ، فأما الملقم صاحب القمة الأولى فانه تهرى في الليل ، وأما المضحك فانه مات قبل الصباح ، وأما المتعمد فأصبح ميتا ، قد خلى بالقوم ، ودخل اسماعيل بن حماد القاضي إلى المعتضد وعليه السواد فسلم عليه بالخلقة ، وكان أول من سلم عليه بها ، وحضر الشهود منهم أبو عوف والحسين بن سالم وغيرهم من العدول حتى أشرفوا على المعتضد ، ومهمهم بمر غلام المعتضد يقول : هل زون به من بأس أو أثومات فجأة وقتلته مداومته لشرب النبيذ ، فظفروا إليه ، فإذا ليس به من أثر ففضل وكفن ، وحل في تابوت قد أعد له إلى سامرا فدفن بها . وذكروا واقعة أعلم أن سبب وفاته أنه سقى نوعا من السم في شرابهم الذي كانوا يشربونه ، وهو نوع يقال له الينس يحمل من بلاد الهند وجبال الترك والتبت ، وربما وجدوه في سنبط الطيب وهو ألوان ثلاثة وفيه خواص عجيبة اه

سادساً : للمعتضد بالله بعد المتعمد

قال المسعودي : كانت وفاة المعتضد لأربع ساعات خلت من ليلة الاثنين لثمان بقين من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين وثمانين في قصره المعروف بالحسن بمدينة السلام ، وقيل إن وفاته كانت بسم اسماعيل بن ببل قبل قتله إياه ، فكان يسرى في جسده ، ومنهم من ذكر أن جسمه تحلل في مسيره في طلب وصيف الخادم على ما ذكرنا ، ومنهم من رأى أن بعض جواريه سمته في منديل أعطته إياه يتششف به ، وقيل غير ذلك مما عنه أهرضا اه

سابعاً — المقتدر بالله

قتل وسنه ٣٨ سنة في سنة ٣٣٠ هجرية

وكان قتله وقت صلاة العصر في الواقعة التي كانت بينه وبين مؤنس الخادم بباب الشامية من الجانب الشرق ، وتولى دفن المقتدر العاتق اه

ثامناً : القاهر بالله ابن المعتضد

بوع يوم الخميس لليلتين بقيتا من شوال سنة ٣٣٠ هجرية ، ثم خلع يوم الأربعاء خمس خلون من جمادى الأولى سنة ٣٣٣ هجرية ، وسمعت حينه ، وكانت خلافته سنة وستة أشهر وستة أيام اه

تاسعا : المتى لله

إذ يوج له بالخلافة سنة ٣٢٩ هـ وسلمت حينه سنة ٣٣٣ هـ ، وكانت خلافته نيفا وثلاث سنين ، ولقد كان بينه وبين (تورون) التركي وقائع ، فأشهد تورون من حضره من الفقهاء والشهود ، وأعطى اليهود والموائيق بالسبع والطاعة للمتى ، والتصرف له بين أمره ونهيه وترك الخلاف عليه ، وأخذ إليه كتب القضاة والشهود بما بذل من الإيمان وأعطى من اليهود ، وأشار بنوجدان على المتى أن لا يتحدر ، وخوفوه من تورون وحذروه أمره قاله لا يأمنه على نفسه ، فأبى إلا مخالفتهم والثقة بما ورد عليه من تورون ، وقد كان بنوجدان أفتقوا على المتى نفقة واسعة عظيمة طول مقامه عندهم واجتياز بهم يكثر وصفها وبصر علينا في التحصيل لإرادها بأكثر الخبرين لنا بتحديثها ، وانصرف الاخشيذ عن الفرات متوجها نحو مصر والبحر المتى في الفرات ، فلتقاء أبو جعفر بن سيار كاتب تورون بأحسن لقاء وأقام الأتراك ، ورضى في انحصاره حتى دخل النهر المعروف بنهر عيسى ، وسار إلى الفيصة المعروفة بالسندرية على شاطئ هذا النهر ، فلتقاء تورون هناك ، ورجل له ، ومشي بين يديه ، فأقم عليه أن يركب ، فقل حتى وافى به إلى المضرب الذي كان ضربه له على الشط من نهر عيسى ، وذلك على شوط من مدينة السلام ، فأقام هناك وأخذ رسلا إلى دار طاهر ليضرب المستكني ، فلما حصل المستكني في المضرب قبض على المتى ، ونهب جميع ما كان معه وقبض على وزيره أبي الحسن علي بن محمد بن مقله وعلى قاضيه أحمد بن عبد الله بن اسحق ، ونهب جميع العسكر ، وانصرف القائد الذي كان الاخشيذ ضمه إلى المتى ومن معه إلى صاحبهم ، وأحضر المستكني فبيع له ، وبكى المتى ، وصاح النساء والحكم لصياحه ، فأمر تورون بضرب الباب حول المضرب نفق صراخ الخدم وأدخل إلى الحضرة مسمول العينين ، وأخذ منه البردة والقضيب والظلم وسلم إلى المستكني باقة اه

عاشرا . المستكني بالله

وقد يوج بالخلافة سنة ٣٣٣ هـ وخلع سنة ٣٣٤ هـ والذي خلعه أحمد بن بويه الديلمي ، وسلم عينيه لأنه اتهمه بمخاطبة الأعداء اه

نظام الأمم ونظام الأفراد على سنن واحد

م قلت لصاحبي : هؤلاء هم الذين أردت أن أضرب لك المثل بهم ، وهم عشرة كاملة يعلم المسلمون في أقطار الأرض أن نظام الدول ونظام الأفراد يسيران على وتيرة واحدة « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » .

ما الأمم إلا أفراد كثر ، إن الفرد الواحد يأكل ويشرب ويسكر ويبالغ في الشهوات ، وهو يجهل أنه يقتل نفسه يده ، ويجهل أن مطالبة نفسه له بالشهوات والنظم وبالبقي فتح باب هلاكه ، وقصر عمره وانحراف صحته .

الهم اني لا أرى فرقا ما بين من يتعاطون السم ومن يسرفون في الشهوات . بإسبحان الله : انظر أيها التركي في الذي كتبته في (سورة البقرة) في آية الخمر هناك ، وانظر ما يقوله أطباء أمريكا وفرنسا وانسكترا ، انظر كيف يقولون ، يقولون : « إن الخمر عقار من عقاقير جنة كلهن سامات ، والانسان متى تعاطى أى سم أحسن في نفسه بلذة ، إذن لنة الخمر ليست خاصة به بل هي حاصلة في جميع السموم » اه هذا كلام أطباء الأمم في عصرنا ، إذن جميع القنات المباحات على الناس قاتلات لهم مهلكات ، فقس

على ذلك كل ما استلذه به الناس من حطام الدنيا ، إن في النفوس لسعادة يجعلها الغافلون ، ولا يحصى بها المترفون .

قتل ساحي : أم يكن في هؤلاء الملوك من يقتدى بالخلفاء الراشدين وبأئمة عليهم السلام ؟ قلت : وهل تنفع تلك القدوة إذا فسد الزمان ؟ « رأس جل على جسم عز وخزير » . فقال : أوضع فاني لم أعرف ماذا تريد ؟ قلت : إذا أردت إسماعك فليس عليك أن تميم العلم والحكمة في الأمة ، ولتقرأ ما قصه الله من موسى : « إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعل آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى » ، فانه لما رأى النار أحب أن يساعد أهله كما يساعد نفسه ، وهذه في القرآن وأمثالها مضرب أمثال لنا ، فليست هدايتي وحدي سواء أكنت ملكا أم فردا عليا بخنية عن هداية الأمة ، إن كل امرئ في الأرض عمو في جسم أمته ، وهذا الضو فصل آثار أمته إليه شرقا وضحة ، وغربا ودلا ، وسعادة وشقاء ، شاء أم أبى ، فأما أنى أقف وأقول سأكون على منوال أبى بكر وعمر ، وفي الوقت نفسه لم تكن التعاليم في المدارس والمعاهد على هذا الخط فان الناس لا يعبثون بما أقول . فقال : هذا كلام علم فأرجو أن تأتى فيه بيت القصيد . قلت : هذا المهتدى بالله العباسي قد بوع له بالخلافة سنة ٢٥٥ هجرية وقتل ولم يستكمل الأربعين . هذا الخليفة قارب منه العلماء : ورفض من منازل الفقهاء ، وعظم يريه ، وكان يقول : يا بني هاشم دعوى حتى أسلك مسلك عمر بن عبد العزيز ، فأكون فيكم مثل عمر بن عبد العزيز في بني أمية ، وقلل من اللباس والفرش وللمعلم والشرب ، وأمر بأخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكسرت ، وضربت دنانير ودرهم ، وعمد إلى الصور التي كانت في المجالس فحجبت ، وذبح الكباش التي كان ينطح بها بين يدي الخلفاء والديوك ، وقتل السباع الممبوسة ، ورفع بسط الهدبياج ، وكل فرش لم ترد الشريعة بإباحته ، وكانت الخلفاء قبله تنفق على موافدها في كل يوم عشرة آلاف درهم ، فأزال ذلك وجعل لما لديه وسائر مؤنه في كل يوم نحو مائة درهم ، وكان يواصل الصيام ، وقيل انه لما قتل أخرج رجل من للوضع الذي كان يادى إليه فأصيب له سقط مغفل فتوهوا أن فيه مالا أو جوهرا ، فلما فتح وجد فيه جبة صوف وغل ، وقيل جبة شعر ، فسألوا من كان بخدمة ، فقال كان اذا جئ الليل لبسها وغل نفسه ، وكان يركع ويسجد إلى أن يتحرك الصباح ، وانه كان ينام من الليل ساعة من بعد الشاء الآخرة ، ثم يقوم وانه سمعه بعض من كان يأنس إليه قبل أن يقتل وقد سلى المغرب ، وقد دنا من اضطاره وهو يقول : « اللهم انه قد مسح عن نبيك محمد عليه السلام » أنه قال : ثلاثة لا تحجب لهم دعوة عن الله ، دعوة الامام العادل ، وقد أجهت قضى في العدل على رعيته ، ودعوة الطالوم ، وأنا مظلوم ، ودعوة الصام حتى يظفر ، وأنا صام ، وجعل يدعو عليهم وأن يكفى شرهم وكانت بين المهتدى وبين بايكيال حرب عظيم قتل فيها خلق كثير من الناس وانكشف بايكيال واستظهر المهتدى عليه ، فخرج كبن بايكيال على للهتدى وفيه مارجوج التركي ، فولى المهتدى وأصحابه ، ودخل سامرا مستغيثا بالهاتمة ، مستنصرا بالناس ، يصيح في الأسواق فلانغيث ، وأملعه أماس من الأنصار ، فغضى مؤسا من النصر إلى دار ابن خيبره سامرا محتفيا ، فجمعوا عليه وعزلوه ، وحلوه منها إلى دار مارجوج ، وقيل له : أريد أن تحمل اللبس على سيرة عظيمة لم يعرفوها ، فقال : أريد أن أحلهم على سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل بيته والخلفاء الراشدين ، فقيل له الرسول صلى الله عليه وسلم كان مع قوم قد زهدوا في الدنيا ورغبوا في الآخرة كائى بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم ، وأنت إماما رجالك تركى وجزرى ومقرى ، وغير ذلك من أنواع الأعاجم لا يعلون ما يجب عليهم من أمر آخرتهم ، وإنما غرضهما استجلاؤه من هذه الدنيا ، فكيف تحلهم على ما ذكرت من الرواحنة فكثرت منهم ومنه الكلام والمرابطة في هذا المعنى وأشباهه ثم اتفادوا إليه على حسب مظهر الناس من ذلك ، فلما كاد الأمر أن يتم قام فيهم سليمان بن وهب الكاتب ، وقيل غيره ، وقال

هذا سوء رأى منك ، وخطأ فى تدبيرك ، ان أعطاك بسأله فثبت فىك غير هذا . قال وسألتى عليكم جميعا ويفرقى جمعك ، فلما سمعوا هذا التول استرجعوا وجامروا بالخناجر ، فكان أول من جرحه ابن عم لبايكىال جرحه بخنجر فى أوداجه ، وانكب عليه فالتقم الجرح والدم يفور منه ، وأقبل يمسّ الدم حتى روى منه والتركى سكران ، فلما روى من دم المهتدى قام قائما وقد مات للمهتدى ، فقال يا إهابنا قد رويت من دم المهتدى كاريوت فى هذا اليوم من الخمر ، وقد توزع فيها ذكرنا من قتل المهتدى ، والأشهر ماذ كرتاه من قتله بالخناجر ، ومنهم من رأى أنه عصرت مذا كبره حتى مات ، ومنهم من رأى أنه جعل بين لوحين عظيمين وشدة بلهبال إلى أن مات ، وقيل خنقا ، وقيل كبس عليه بالبسط والوسائد حتى مات ، فلما مات داروا به ينحون ويكون عليه ونعموا على ما كان منهم من قتلهما تينوا من نسك وزهد . وبهذا تم الكلام على الفصل الأول فى آية : « أذهبم طبائكم فى حياتكم الدنيا الخ » ، وللهدفة رب العالمين

فقال صاحي : أريد قبل أن نفتقل إلى الفصل الثانى أن أرجو منك أن تشرح لى هذه الدنيا وأحوالها بقول موجز ، وكيف نراها إلى الهوان والبؤس أقرب منها إلى العزّ والسعادة ، وكيف وجدنا الفلاسة قبل النبوة الاسلامية بشرقون يقولون لنا : « إن سعادة الدنيا نفسها بترك الشهوات ، وأن الأمراء عليهم أن يكونوا زاهدين لصلحتهم هم أنفسهم واسعادهم ، وأن أرباب الدولة يجب عليهم أن لا يكون لهم متاع ولا ملك ولا يسكرون ولا يفتنون ، فلذا ألقى دعا هذا الانسان ؟

قلت : أيها الصديق ، يخيل لى أن هذه الأرواح الأرضية كأنها كانت فى عوالم أخرى من عوالم الأرواح قبل حلولها فى هذه الأجسام ، وأن أهل هذه الأرض كأنهم لم يصلحوا للحياة هناك فأخرجوا من السعادة وقيل لهم : « أتم لتصلحوا لإلا للحياة فى أجسام غليظة » ، فحى بهم إلى هذه الأرض ، ومن رجة الله أنه أنزل لهم فلاسفة وحكام يصلونهم ، وأرسل لهم رسلا ، فهؤلاء بالقل ، وهؤلاء بالوى ، فيقولون لهم : يا أهل الأرض : إياكم والبطنة ، وإياكم والظلم ، وإياكم والفساد . وهم لم يقولوا ذلك لاسعادهم فى الآخرة فقط ، بل أرادوا لاسعادهم فى الدنيا أيضا ، فأخذ الناس يسمعون كلام هؤلاء الأنبياء كالخلفاء الراشدين رضى الله تعالى عنهم ، ثم غلب على الناس طبعهم ، فرجعوا إلى عادتهم ، ولقد مرّ بك مقال سقراط فى الجمهورية فان أهمّ علمها موافق للإسلام فى الفضيلة وقليل منه يخالف الإسلام ، لأنهم لا وصى ولا نبوة عندهم ، فهذا العلم منبث من العقل ، وقد وافق الوصى والنبوة ، ولكن الناس يرجعون إلى دينهم ، ونرى رجح جليل واحد أتبعته الأجيال كلها .

هذا رأى فى هذا الانسان ، فخل بشئ آدم كمثل القى استوقد ناراً فى صحراء فلما أضأت ماحوله ذهب التنوير وبقي الناس فى الظلمات وهم لا يبصرون ، فالحكمة والنبوة هما كالنار أضأت ماحولها ، ولكن ما يكاد الأنبياء ينفرون الناس حتى يرجعوا إلى أخلاقهم وأحوالهم .

هذه الأم الاسلامية ورثت دول الروم والفرس ، واتبعت خطواتهم فى غشواتهم وروحانهم ، فما تركوا خرا ولا مواد ولا قتات ولا أوزارا وقع فيها القوم إلا اتبعوهم فيها ، سواء فى ذلك الأمويون والعباسيون والأندلسيون ، وكلما خلت أمة أتبعها أخرى حنو القذة بالقذة ، تشابهت قلوبهم ، فهم جميعا فى غمرات الجهالات غارقون ، حتى أنك ترى أمنا المصرية فى زماننا تسير على منوال النصارى العباسى . ذلك أن الفرنجة ملأوا بلادنا بالبحر والحشيش والخمرات ، وأعظم ما يحزننى أن أكثر اللطعين الذين يعيشون من خزائن حكومتنا لانها لهم طعام ولا شراب ولاسكر ولا هو إلا فى تلك الأماكن للعبة القسوق ، وفيها الصور الباعية للشهوات وفيها الملاهى والخنازى ودور الصور المتحركة (السينما) التى لا تشرابا إلا حركت فيه الشهوات ، وأهدت للفسوق

فإن كان ما كما أصبح في الغالب لصا ، وإن كان غنيا أضاع ثروته وهكذا . إن كثيرا من الناس في ديارنا أصبحوا في حال اختلال واختياط ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . قال : وما رأيك الآن ؟ قلت :

(أولا) أن تتحس أشعر القرون الأولى ، وفيد منها كل ما كان فيه رقعة وحت على الشهوات ، ويطلع جيع الفول للمهيج الذي كان أيام الدولة العباسية ، وذلك بلجنة من علماء الترية الممارسين لهم النفس حتى يميزوا بين الفث والسين ، ويحرم على الشعب أن يقرأ شيئا من ذلك ، وهكذا تبحت الكتب العربية التي ورثناها عن آبائنا وبقي منها كل بيت فيه ما يلدو إلى الشهوة ، ولو كان شاهدا على قاعدة ، فسكني جهلا وغرورا ، وكأ رأينا سقراط يمرض أشعار (هوميروس) ويتقدمها فلنعرض نحن أشعار المتنبي وأبي تمام والبصري والمصري وتقدمها قندا محبضا ، ونخفف منها كل ما يخالف تهذيب شباتنا . فإذا سمعنا للمصري يقول :

قالوا إله بلزمان ولا مكان ألا تقولوا * هذا كلام له خبيء

معناه ليست لنا عقول ، وإذا سمعناه يقول :

هذا جناء أبي علي * وما جنيت على أحد

يريد بذلك اجسام الناس عن التناسل بلثاني وجود الإله في الأول ، فإنا نفبذه ونحذفه ، ونحرم على الشبان قراءته . وإذا سمعنا عبد الله بن المعتز يقول :

يقول العاذنون تمز عنها * واطف طيب قلبك بالساق

وكيف وقبة منها اختلاسا * أله من الشهافة بالصدو

أوصمناه يقول :

إذا اجتنى وردة من خدته فـه * تكوّن تحتها أخرى من الخبل

قلنا له يا ابن المعتز احفظ هذا لنفسك أنت وأشباهك ، فإن حفظ هذه الأبيات يدعو إلى الذكرى والذكرى تبيح النفس لأشغال ماسمت ، وعلى الأم الإسلامية أن تستقبل بذلك الجبال الطيبي في الكواكب والنبات والحيوان ، مما ملأنا به هذا التفسير وكتبنا الأخرى لنفتح للشبان باب الجبال الذي لا تشوبه الشهوات ، فأما الأم العربية آبلوا في الشرق والأندلس فقد قتلهم الفول ، وظنوا جهلا أن هذا يرقى النفوس ويعلم البلاغة ، وهذا حق أريد به باطل . الجبال المطلوب هو جبال السموات والأرض والنبات والحيوان ومجائب هذه الدنيا . أما الوقوف عند هذا الجبال الشهواني فهو الذي أضاع أمة العرب وأهلكها وأطمع أهل أوربا في الأندلسيين الذين المحصرت عقولهم في تلك الشهوات ، ويجبراتهم يستعقون لهم سرا ، ففتكوا بهم فتكا ذريعا ، فلى الأم الإسلامية أن يرجعوا لأشعار آبائهم فإن أشعارهم هي التي قتلت دولتهم ، فهي إما مدح ملك ، وهذا قص ، وإما غزل في امرأة ، وهذا قص آخر ، ولنجصوها ، وليطوا الأبناء منها ما يوافق الرقي كقول بشر بن برد :

إذا ما غطينا غصبة مضرية * هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما

إذا ما أعزنا سيدا من قبيلة * ذرى منبر صلى علينا وسلمنا

أيها المسلمون : أنا أنذركم أن لم تضلوا ذلك ، ها أنا ذا والحمد لله قد فتحت الباب فليجوه ، وادرسوا الأشعار ، ولا تقفوا ما ليس لكم به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا .

(ثانيا) أن لا ندع صورة من الصور (شريط السينما) تدخل بلادنا إلا إذا كانت لهم ، أو لصناعة ،

أولزراعة ، فأما العشق ، وأما الغرام فلا .

(ثالثا) أن لا يجلس في الطاعم القرنجية ، ولا يجلس إلا في مطاعم أبناء بلادنا ، فإن كان ولا بد فلنظم نحن طبقه منا ، ولنقم مقام القرنجية في ذلك .

(رابعا) أن نحرم على الملوك والأمراء والديرن أن يشتلوا بغير الملكية ، ونعطيم من مال الدولة ما يحسنهم ، فأما الاشتغال بالمال الخاص ، فهذا خطر عظيم . فقال : هذا أمر لا يقبله أحد . فقلت : ليس للمقام في القبول ولا عسره ، وإنما أنا الآن في مقام النظام الكامل والناس ينظرون في أحوالهم بحسب زملائهم فيقتربون من الكمال بقدر الامكان . إن الأمة الكلمة هي التي يكون حكمها متفرغين لأعمالها فرحين بريقها فتكون لذتهم في أسعائها أعظم من السعادة بالمال آلاف الآلاف .

(خامسا) أن نضع التعليم للرجال والنساء .

(سادسا) أن نضع كل منعم فيها يستحقه بحسب استعداده .

(سابعا) لارشوة ، لاعحابة .

(ثامنا) أن نحرم السؤال في الدولة ، فنجمع الشكاكين ، ونفرضهم على الأطباء ، فنصلح للعسل أئتنا لا بعمل تحت إشرافنا ، ومن لم يصلح له أعطينا طعنا من بيت المال اه
هذا مجمل ما أريده في أم الاسلام اليوم ، والحمد لله رب العالمين .

فلما سمع ذلك ملحي . قال : لقد أوضح التاريخ العبر والبتدا والتبر في آية : « أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا » وعرفنا كيف ملك الملوك وذلوا بأيدي جنودهم فأرجو أن تبين لي ثلاثة أمور : ما الذي جرى لأمر الاسلام في الشرق ؟ وهل ملوك الأندلس جرى لهم ما جرى لملوك الاسلام في الشرق ؟ وهل هلكت دولة الآخرين ودولة للتقدمين ؟ فقلت : أولا إن الذي جرى لأمر الاسلام في الشرق إنما هو زوال الملك وضياع الأمة ، وذهاب ملك العرب بتاتا ، وهذا قدم في (سورة الكهف) في آية : « إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض » ، فقد جاء التار من الشرق وعلى رأسهم جنكيزخان وخلفه ملوك منهم (هولاكو) وأذل الأمة ودمرها تدميرا لا رجعة له ، وقتل الخليفة ، وقد أحضر أمامه جيع الخواهر والماس والياقوت والتعب عما لا يحصره العذ وأراه أن هذا جاء من غنزه وهو غافل عنه وقتله في زكية مكظوم النفس فان أردت بإصلاح معرفة هذا الموضوع فقرأ هناك تحت عنوان « يأجوج ومأجوج » — (ثانيا) إن الذي جرى لأمر الأندلس هو الذي جرى لملوك البلبسين في الشرق ، فانظر ما جاء في كتب (غادة الأندلس) المؤلف حديثا في عصرنا ، وهذا ملخص مما فيه :

ذلك أن القائد (براقا) قاتل الأذقونش في رومه في القاتيكين ، وجاء أيضا معهما دوق فينيزيا فقال له ابن اذقونش : « اعمل أيها البطل أن البلبا قد استعدي بلرونات أوروبا وشاورهم في استرجاع مملكة اسبانيا من العرب ، فلتكن مساعدتنا » . فقال براق : « إن الأسد لا يصاد إلا بالكر والنديمة ، وقد يستين الصيادون بالكر ، ولا يضل الحديد إلا الحديد » . فقال دوق فينيزيا : إن جيوش البلرونات تسحقهم سحقا في أقل من لمح البصر . فقال البراق : إن العرب يحافظون على دينهم وعلى حريمهم ، ولقد تفتى القليلة كلها محافظة على الشرف ، ولكن هم قوم كرام صادقون يأبون الكذب ، فهم يصدقون بسهولة الطواهر للموثة ، فاجلوا ينسك وبينهم معاهدة على حوية الدين والتعليم والتجارة ، فهذه تفتح لربانكم طريقا بها يشون التعاليم بين أطفالهم ، فإن لم يتبعوا دينكم فهم على الأقل يهملون دينهم ، فيفقدون تلك الحية الدينية

التي تحميم في الحرب ، فأما حرية التعليم فانها تولد لهم غلمان شؤم عليهم لأنهم يكونون مشغولين بحب معلمهم ، ويتعلمون عن محبة وطنهم ، فأما حرية التجارة فهي التي تضع شعبنا شيئا فشيئا تمسكهم بأزيائهم فضلا عن تجارة البحر ، فهي الآن محرمة ، فهي شاعت بينهم أقدموا على المنكرات بلا مبالاة ، وقتلوا النخوة والشرف ، وضعت منهم القتل والجسوم ، وفشا بينهم الشر ، وساعت حاطم ، ولربكت شؤونهم ، فيساقون كالأغنام ، ولا تنس يلحصره السرق أن التأتق في النعمة ، والبسخ ، والاسراف في الشهوات ، واهمال سير الآباء والجدود من أقوى أسباب انحطاط للممالك القوية .

فلما تمت أسرة وجه ابن أذفونس بعد أن كان يلوح عليه اليأس : وشكر براتاقا على إخلاصه . وفي الصباح اجتمع البابا ودوق فينيزيا وبارونات أوروبا يراتاق وتحدثوا مليا وكتبوا صورة هذه الشروط وأرسلوها مع معتمد بن أبي أمراء الاسلام بالأنلس ، فوصلت شروط طلب الهدنة إلى مالك بن عباد قرطبة وقد فرغ من تحصين مدائنه وقلاعها فدعا قواده وعمال مدائنه وأمرأ أشيلية وطليطلة وبلنسية وماتقة والجزيرة الخضراء وغرناطة ، وخضروا بعد أيام إلى قرطبة وهم يختلون على خيوطهم ، وكان من بينهم عدى بن أبي عامر صاحب بلنسية يتبعه مائتا فارس لعل أفراسهم ذهب إبريز ، قتلوا جميعا برصانة قرطبة ، وكان مالك قد نبى بها قصرا غنيا يحيط به الحدائق والجنات ، فجعل فيه تماثيل من فضة بأشكال الطيور والحوانات ، فخرج من أفواها المياه ، وفيها قال ابن زيدون من قصيدة :

قصيرقر العين منه ناظر * بهج الجوانب لومشى لاختالا

فقبلا شروط الصلح فصارهم قيس بن معصب ، وبقي الأمراء في ضيافة مالك بن عباد شهرا :

ومن رمى غنا في أرض مسبة * ولم عنها تولى رعيها الأسد

فلما اقتضت أيام الولايم رجع الأمراء إلى بلادهم إلا عدى بن أبي عامر صاحب بلنسية فانه بقي مع الأمير بضيان الزمن في اللهو والصيد والثر وهكذا بقية الأمراء وشعوبهم يتبعونهم ، فالتحلت السولة بذلك ، وزاد في افسادها تلك المعاهدة ، فانتشر الرهبان في أنحاء الأنلس وأخذوا يثبون تعاليمهم ، وكانوا يجتمعون في أوقات خاصة للتشاور ، وقد شيدوا ضيعة على ضفة نهر قرطبة وسط البساتين ، وكانت مبنيا جبالا يؤته العظماء والأمراء لاسيا أيام الأحاد .

وقال صاحب التاريخ المسمى بالمعجب : « لقد جتدوا في عام هذه المعاهدة أربع مدارس كبرى على نفقة (دوق فينيزيا) أحد كبارهم وجعلوا التعليم فيها علما لمن شاء (بينما كانت مدارس المسلمين قرطبة وغيرها تكاد تمحي إذ أخذت تعاليمها تملأ إلا ما يختص بالشرعة) ، فأقبل العرب على تلك المدارس ، واختلطوا بالقسيسين والرهبان ، وطلعوا لعالمهم ، وجاروهم في هواهم وأخلاقهم ، وزاد الأمر في بلنسية فان المبشرين والمعلمين تسخروا في كل شيء لأن نائب عدى عليها المسمى (ابن ذى النون النافري) أطلق لهم الحرية التامة حتى اتهمه بعض الوزراء بأن البابا استأله بالرشوة » .

وقد لعب يراتاق بن عمار دورا مهما هنا ، ذلك أن أمير أشيلية المسمى (جندل بن جود) لم يكت قرطبة إلا ريثما وقع على شروط الهدنة ، وأتى البقاء وعاد إلى عاصمته ، وذلك لسر خفي في نفسه ، ذلك أن أحد معتمدى البابا الذين حضروا إلى قرطبة أعطاه خطبا من البابا وعده فيه بأنه يؤمل أن يجعله ملكا مستقلا بولايات الأنلس طليطبة ، وأن البلرولت متفقون على نصرته في أى وقت شاء . ثم ان يراتاقا وفى بهذه لأنه عاهد البابا أن يدخل بعض البطارقة في قيادة الجيش ، وقد أخذ البطريق المسمى (شيل) يرافقه في أيام السيد ، وأخذ يراتاق يمدحه عندئذ عباد بالشجاعة ثم أحضره إلى الديوان فقال مالك بن عباد وما بلغ من شجاعته يراتاق ؟ فقال أخبره إن سئت . فقال مالك لتبليزا فان غلبته فكفاه خويا وان غلبك جعلته

من قواد جيشنا ، فبارزا وتظاهروا اقبأه مغلوب ، فتكثرت ملك بن عباد لما يعلم من مهارة برآق وشجاعته وجعل الطريق قائدا وقوته منه ، فانتخب من أبناء بلاده من أراد لتدريب عسكر المسلمين على استعمال السلاح ، وصارت عواصم الأندلس عظم الغزاه ، وراجت التجارة في البلاد ، ولاسيما البحر .

قسيس يخص شباب المسلمين للتعليم بخمر عنب قرطبة

وهل أناك نبأ ذلك القسيس الذي لم يكتف بالبحر الوارد من أنحاء أوروبا حتى اشترى عنب قرطبة كله وعصره خرا ، وحلف أن لا يبيعه إلا لأكرم الناس عليه ، وهم المتعلمون من أبناء المسلمين في مدارس هؤلاء القسيسين ، وفرح الشبان بهذه الهدية :

(١) فشرىوا البحر نهرا جهارا .

(٢) وغلوا رداء الحياء والحشمة .

(٣) وحرقوا عوائد آبائهم .

(٤) ولبسوا الحرير ، ونبذوا الصوف والشعر .

(٥) وأهملت معالم البلاد .

(٦) وأخذوا يهتفون إلى نسوة في حاتم الزلاء ، فيصرفون الليل هناك مهتكين مصابين في عشق هؤلاء العاهرات .

وزاد الأمر حتى بلغ الأمراء فان المعتصم بن صلاح صاحب للمرة عشق فتاة رومية واعتصبها من أيها فاستجار أبوها بجندل بن جود ، فأرسل إليه يصفه على ارتكاب ما لا يليق بأدنى الناس ، فكان ذلك سببا في الحرب بينهما ، فطلب ابن جود من دوق فينيزيا والبابا وباروناته بمجدة على خصمه ، ففرحوا للخبر وأرسلوا إليه سفنا تحمل جندا تحت قيادة دوق فينيزيا ، فقهروا ابن صلاح ، وخرّبوا قصوره واحتلها جند الروم ، وأقام لهم ابن جود الولائم ، وملك الاسلام هناك ما كتون لا يبدون حرا كما حتى الأمير مالك بن عباد وهو صاحب البلاد لم يرعه ذلك ، وقد قتل علمه ، وسقطت للرؤية ، وهذه أول نتيجة لإمهامة .

ولما رجع دوق فينيزيا إلى رومه قصص القصص على البابا والبارونات فأيقنوا بتفرق كلمة العرب ، وأن الوقت آن لتخريب ممالكهم ، ودهرى شملهم .

ولقد كان عدد البشرين بالأندلس ألفا ، وعدد المعلمين بالمدارس التي أفتق عليها البابا ٤٨٥ وأفتق البابا من خزينته لترويج البحر خمسمائة ألف (فلارين) .

وفي اليوم الرابع من جادى الثانية سنة ٤٨٦ هـ بلغ الحسين بن جعفر (وهو أحد القواد المعروفين بالأمانة على جيوش بلنسية) أن ابن ذى النون وزير عدى بن عبد العزيز راسل القرنجة ، وأنه تواطأ معهم على تسليم حصونها لهم ، فقابل الحسين الوزير وكله في ذلك ، وظهرت له دلائل تدل على صدق ما سمعه عنه ومنها أنه دخل عليه وهو يحادثه بطريقى من البطارقة ، فأخذ يساره واسمه (بردويل) فلما علم ابن ذى النون أن الانكار لا يفيده أخبره بالحقيقة محتجا بأن ملك الاسلام قوم ظللون ، لا يبايئون بالشكوى من الظلم ، وأن ملك الأندلس لبقائه له ، والملك يقاتلون الناس ظلما ، وعند القرنجة ٧٥ ألف فارس فبم قاتلهم نحن ؟ فغضب الحسين وقال له : أنت تريد هدم مجد الآباء ، وأن تكون للثل السوء في الحياة والجبن ، وإذا ظننت أن ابن (الدفونش) يطبق نوالا فأنت عديم ، فجزاؤك كجزاء سابورذى الأكتاف للضرة بنت الضيرن ابن معاوية ، أنت كفرت النعمة ، وأنت حينئذ القتل من العدو . وتعدى ابن ذى النون في ذلك وحضرت الجيوش النصرانية فاحتلت بلنسية ، وأخذ القرنجة في نهب المدينة ، وفضعوا البكر محضرة أيها ، والسيدة

الجليلة بحضرة زوجها ، فترك الرجل المدينة تاركا زوجته وأولاده وأملاكه .

وقد قال ابن زيدة : ان الذين قتلوا في (بلنسية) ظلما بسبب النهض عن العرض (١٣) ألفا ، والذين قتلوا لآبائهم النحول في دين القبر (٣٠) ألفا ، وأسوت المدرسة الكبرى والجامع الكبير .
وقد احتل هذه المدينة العدو قبل أن يبلغ عددا خبر تلك الخيانة ، فلما وصلته الأنباء جهز جيشا لاسترجاعها ففاجأته الأخبار بأن الفرنجة احتلوا (ميورقه) و (مينورقه) فاضطر أن يتي الجند في قرطبة للدفع عنها .
ثم استولى الفرنجة على طليطلة ، ثم ان ابن اذفونش بعد أن احتل بلنسية أمر بإحراق ابن ذى النون ، ويقول المؤرخون انه انما أحرقه لأنه لما خان دينه وملكه جدير أن يحرق عدوه .

مصير برئاق بن عمر

ذلك لما ذكر الخليفة الذي مكث زمانا عظيما في قرطبة عند مالك بن عباد حتى سقطت بلنسية ، وحضر قواد الروم يجيوشهم ، وأرسلوا لملك ، فطلب برئاق أن يكون قائد الطلائع ، فرضى بذلك ، فأرسله إلى الأمراء ليجتمعوا للقائمة العدو ، فتوجه لغير ذلك ، وذلك أنه أخذ رسالة من ابن اذفونش إلى جندل بن جود ووعده بالصر على بقية ملوك الطوائف ، وأنه يصير ملك الأندلس كلها كما وعدوه من قبل ، وفي شهر شعبان سنة ٤٩٨ هجرية رسل لك أسطولا تزحف بجندك على قرطبة من جهة الغرب ، فخرج جندل بهذا الطلب ، ثم توجه برئاق إلى جهة المربة وبها جيش الروم من أليم أن قتل ابن صامح ، فسلم كتابا معه من ابن اذفونش إلى القنطور رأى القائد ، وفيه : « انا سنرسل لك ٢٠ مركبا فيها جند ، ويحضر ابن مرديتش معاهدنا أمير إقليمه قاضي كادبة معاهدنا ، فيكون تحت رأيك ٢٥٠٠٠ مقاتل ، فتفتح أشبيلية في شعبان وأميرها جندل إذ ذاك يكون مغيرا على قرطبة ، وقد تم ذلك كله ، فجندل يغير على قرطبة في الوقت الذي تغير فيه جيوش الروم على علكة أشبيلية ، وبينما جندل يغزو قرطبة كانت جيوش الروم تحت إمرة القائد (كولي) تبيع أشبيلية حلا جنوده ، وقد ذل مالك بن عباد وهو محافظ على شرفه ، ولكن جندل ابن جود الذي ظن انه سيكون سيد الأندلس كلها خاب فأله ، فقد قتله الفرنجة ، فأما عسكره فلما لم يرجع إليهم رجعوا إلى أشبيلية ، فلاقاهم جند الروم ، فقتلواهم قتيلا ، فنادوا الأمان .

أما مالك بن عباد فبقي في سرقطة ذليلا لا ناصر له مدة حياته . وأما ابن اذفونش فانه جلس في قصر الامارة ، واستحضر حسين بكرا من الأشراف وقسمها وقسم المر على رجاله ، وأمر بإحراق المكتبة وفيها نيف و ٨٠٠ ألف مجلد وقتل أربعة آلاف نفس ، وهدم الجامع الأموي بالمجانيق وجعل مكانه فسقية . وأما برئاق الخائن فقد قتل أيضا بأمر اللوق ، وإلى هنا أقف الكلام على أمراء الأندلس اه
فلما سمع صاحب ذلك . قال : هذا والله نعمة عظي على المسلمين بعنا ، فان التاريخ أصبح شرما لآيات القرآن ، ولكني أعترض على ذلك اعتراضا يوافيني عليه جمع أذكياه المسلمين :

اعتراض على المؤلف

انك وان جئت المتفرقات في الكتب ، وظهر ما كان خافيا على أكثر الناس من أفعال الملوك العباسيين والأمويين وأمراء الأندلس وغيرهم ، فقد فأنك أن التاريخ أكثره كاذب ، ألم تذكر ما كنا نقرؤه في زمن الصباء واعلم رعاك الله أن البراء * تجمع ماصح وماقد أنكروا
التاريخ مشحون بالتناقضات ، وقد أثبت ابن خلدون أن أكثر للمدحيين فيه مدحوا دعاء وثقا ، وظواهر هذه الدنيا كلها خادعة ، ويمكن ذلك من فهم التاريخ ، وإذا كانت هذه دجة التاريخ فكيف أطلت به

في آية : أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا ، وكيف تذكر ما لصدق فيه ويحمله تفسير الماهر محقق الصدق ، ومن ذا الذي يقول إن الوهم مفسر للحقائق ! أوتصر كتاب الله الحق بالتاريخ للوهم ؟ ولقد كرت أمثال هارون الرشيد ، وذكرت معصا لا يليق به من مال كثير لشراء جارية ، ومن أنواع الطرب ، فهل هذا يتفق مع قوله ومع ما روى عنه أنه حجّ مشيا ؟ لأنه نذر ذلك ، وأنه أيضا كان يصل بالليل ركعات كثيرة ، إن التاريخ معناه بالتناقضات ، فهذا لا يليق بكتاب الله تعالى ! فلما أتمّ مقاله قلت بإصباح : أهذا رأيك فيها كتبناه وأسمعنا كه ؟ فقال بلى قلت : أنا أجيئك على هذا الاعتراض بحمد الله ، فأقول :

حدثني حفظك الله : إذا جاء رجل فلاح وقال أنا لا أزرع أرضي ، فيقال له لماذا ؟ فيقول : لأني لست على يقين من أن عصولها يوازي ما أسرفه عليها ، ويحتجّ ذلك الفلاح بقوله : « إن العاقل لا يعمل إلا بدليل يقيني ، وأنا لست على يقين من أن الجوائح والآفات السبابة ترك حقل ، وأيضاً إذا قامت دولة تطلب أمة من الأمم قطعة من أرضها ، فيقول أميرها : لنترك هذه القطعة لما محتجاً بأنه ليس على يقين من أنه يثمر الأمة الحاجة إليه ، وهكذا لو قال مثل ذلك التاجر في تجارته التي يريد بيعها في الأقطار البعيدة فيقول : إني لا أتاجر لأني سمعت أن سفناً كثيرة غرقت في البحر فرمى غرق تجارتي ، وهكذا إذا قال رجل أنا لا أعلم ابني ، فيقال له لماذا ؟ فيقول : لأني رأيت كثيراً من المتعلمين قد فسدت أخلاقهم .

فهذه أبها الأخ أربعة أسئلة ، فاجوابك على هذا ؟ أقول إن الفلاح ، والأمير ، والتاجر ، وأبناؤهم معييون فيها فعلاً ؟ فقال . كلا . هم غير مصيبين . فقلت لماذا ؟ فقال لأن المدافري هذه الأمور العملية من الفلاحة والامارة والتجارة والتعليم على غلبة الظن ، فهي كانت للنافع مظنونة بسبب مقدماتها فإن الشروع في العمل واجب ، فأما اليقين هنا فإنه لا وجود له ، ومن ترك أعمال الفلاحة والتجارة ومحاربة الأعداء الحاجين وترك تعليم ابنه محتجاً بأنه لا يقين في ذلك كله ، فهو جاهل غيبي مخدوم . فقلت : وهذا جوابي لك أبها الأخ . فقال : وأنت مناسبة بين الأمثلة الأربعة وبين التاريخ الذي اعترض عليك في جعله تفسيراً للقرآن . فقلت : إن القرآن يقيني . قال نعم . قلت : والتاريخ ليس يقينياً . فقال نعم . قلت : وإذا لم تفسر اليقين وهو القرآن إلا يقين أصبحنا مغرورين كذلك الفلاح والأمير والتاجر وأبناؤهم .

إن أكثر الفقهاء في الدنيا حسبنهم في فقرهم (وإن لم يطلوا) أنهم يطلبون اليقين ولا يقين له بل الظن هو المحقول عليه في الأعمال ، والدين الإسلامي قسبان : قسم هو الأصول ، وقسم هو الفروع ، فالأصول لا بد فيها من اليقين ، والأصول هنا هي العقائد كمعرفة الله وملائكته وكتبه ورسوله الخ .

أما الفروع الرابسة للأعمال فيكفي فيها الظن ، فإذا سمعت الله يقول : « إن الظن لا يغني من الحق شيئا » فذلك في الاعتقاد ، ولو أن علماء الإسلام أخذوا بما قلته أنت الآن ولم يؤمنوا إلا على اليقين لانهلثت الأمم الإسلامية ولطاحت ومرت كل عروق ، فإن علم الفقه كله مظنون ، ولولا هذه الأحكام المظنونة ، ولولا أن لظن في الأحكام الشرعية أمام القضية منزلة لبطل القضاء في الإسلام ، وزالت جميع ممالكه ، فالأدلة الشرعية في الفقه ظنية وشهادة الشهود ظنية ، والله يكفينا بالعمل بهذين الظنين ، فهكذا هنا في تفسير القرآن إذا جرينا على هذه النظرية وقلنا هذا كلام الله وكلام الله يقين والتاريخ فيه الصدق والكذب ولا يفسر الصادق بما هو عتمل الصدق والكذب . أقول : إذا جرينا على هذه النظرية أصبحنا أمة عاطلة جاهلة غيبة لا تفرق بين الخبر والشر .

إن الله عز وجل قد ملأ القرآن بالقصص والتاريخ ، وأمرنا بالاعتبار والاحتباس مما وقع فيه غيرنا ولم يمنع ذلك مافي التاريخ من التناقض ، بل يجاوز القرآن ذلك ونظر إلى ملخص التاريخ لا إلى حوادث خاصة ألم تر إلى ما قصه الله في ﴿ سورة الكهف ﴾ . ألم يقل في عدد أهل الكهف أنهم ثلاثة ورابعهم كلبهم وخمسة

وسادسهم كلهم وسبعة وثلاثون كلهم ، وأمر فيه عليه السلام أن يتجاوز عن ذلك ، وأن لا يعارى في مثل هذه المسائل إذ لا أهمية لها ، وإنما جل الاعتبار بضمون القصة لا بكل حادثة على حدة .

إن الله تعالى أبان لنا في قص القرآن أن هذه للتناقضات لا تقصر في قص القرآن لأن العبرة بملخص

القصة ، وإذا صح هذا في قص القرآن ، أفلا يصح في تفسيره ١

ذكرنا هنا أم الإسلام والقول منقول عن كتب التاريخ ، وكتب التاريخ ملأى بالكاذب ، عسوة بالأبطل ، ولكننا لو أطلنا علم التاريخ لما فيه من الأبطل لأصبحنا أمة جاهلة ، غيبة غافة ، لا تقبل ولا تفهم ومماثل علم التاريخ فيما نحن بصدده من العبرة به من حيث إجماله لا تفصيله إلا كتل مناظر هذا الكون كله ، ولوث والحياة فيه ، والفقر والغنى ، والحر والبر ، والسلم والحرب ، والمرض والصحة . فهذه العوالم من نظرها من حيث الجزئيات اعتقد أن هذا العالم كله ظلم وخسار وفعل ، فما هذه الزلازل والبراكين والحروب والأمراض والموت ؟ فأما إذا نظر إليه نظرا فلسفيا علميا فانه يوقن بأنه عالم منظم ، ويصير حكما

فهذه نظرات الجاهل والحكماء في هذه الكائنات ، وعلى مناهجها نظرات الناس في التواريخ التي تذكر في تفسير القرآن .

إن الأمم التي تقرأ التاريخ تثل هذه الشبهة تصبح خاوية على عروشها . فيا سبحان الله ، ألم أذكر في هذا التفسير أن أمة الانجليز لما دخلت بلادا المصرية أعطت العرب الذين في جهة الشرقية جنبيات ذهبية وضعتها في أكياس ، وجعلت ثلواها من جنبيات من الذهب الخالص وما تحت الظاهر كله بهرج زائف ، وقد نجحوا ، لماذا ؟ لأنهم أخذوا هذه من قصة جعفر بن فلاح وزير للمعز لدين الله الفاطمي ، فان القرامطة لما هجموا على مصر اتفق المعز مع العرب الذين في جهة الشرقية وأعطاهم أكياسا مملوءة ذهبا ، أعلاه ذهب خالص ، وأدناه زائف ، فما كاد عمود الصباح يظهر حتى اتقى الجمعان : العرب المصريون مع القرامطة ظاهرا ، ولكن بعد ساعة أخذوا يتهمقرون على غير انتظام ، فهلك القرامطة إذ كان جيش المصريين أقوى منهم ، فهذه بيننا هي التي فعلها الانجليز مع العرب في بلادنا أيام دخولهم ، فم أخذوها ؟ أخذوها من حادثة المعز لدين الله فنجحوا . وأيضا إن الشركة الانجليزية في الهند فعلت مع بعض أمراء الهند مافضه حسن بن الصباح في القرن الخامس الهجري في قلعة الموت إذ وصف لصاحب قلعة الموت وصفة طيبة ، وجعل صاحب القلعة له جعلا في مقابلة المداواة ، وهو مقدار ما يصح جلد الثور من أرض ذلك الأمير . فلما شفى الأمير وطالب حسن بن الصباح بالجعل أعطاه الأمير مقدار ما يصح جلد الثور ، وجاء ابن الصباح وجعل ذلك الجلد سيورا ومثما فاحتوت أرضا واسعة جدا ، فلم يرض الأمير ، فحصل القتال ، فغلب ابن الصباح واستولى على قلعة الموت ، وهذا بعينه هو الذي فعلته الشركة الانجليزية ، فوفسوا الدواة للأمير الهندي وشفى وحصل النزاع على مقدار جلد الثور وانتهى ذلك باحتلال الانجليز .

فيا أيها الأخ أنما لم أذكر مسألة الانجليز للاقتداء بهم . كلا . بل أقول ان العلم علمنا والتاريخ تاريخنا ، وكان علينا أن نعتبر نحن به ، فهلم أولاد أخذوا علومنا وأذلونا بها ، كل ذلك لجل القائمين بالتعليم في ديار الاسلام ، فتراهم يتفاعدون عن العلم الشبهة كهذه الشبهة . فقال : وكيف يتفهم المسلمون بهذا التاريخ . فقلت : هذه الدولة الأموية والعباسية ودولة أمراء الأندلس وبقية المسلمين كانوا كلهم على وتيرة واحدة ، يظهر نابغون مصلحون ، ويتبعهم فاسقون مسرفون ، فتسقط الدولة ، فيذل الأمراء ، ويتحكم الجند .

من ذا ينكر - طوة الجند وقتلهم للأمراء العباسيين وهكذا الانكشارية للوكة العنانيين ، من ذا ينكر ذلك ، من ذا ينكر الاسراف والتبذير في مال الدولة بعد العصر الأول ، فانا نحن نحاشينا أن نصتق المغالاة في أمثال سيرة الرشيد ومن نحاشيه فنحن معطرون أن نصتق بالاسراف العام في الدول الاسلامية ونصتق

بتأنيحه ، وهل ينكر عاقل ما بلغت به الثورة الاسلامية أيام قطب أرسلان إذ هوجم التتار على بلاد الاسلام وقتلوا
الشيوخ والأطفال ، والنساء والرجال ، والبهائم . ألم يكن مبدأ ذلك جهل هذه الأمة بجبراتها القبيحة اجتاحتها
وأزالوها ، أليس ذلك من الجهالة العميقة ، والتفاني في الشهوات ، الموجبات الكسل والبطالة ، حتى وقعت
الواقعة ، وانشقت سماء المجد بالثورة العباسية ، وهلك من هلك عن بينة ، وأزال الملك ، وقتل الخليفة العباسي
هولا كوا التتار .

ومن عجب أن أمراء الأندلس مثلهم كمثل أمراء الشرق كلهم لا يعقلون التراجع ولا يعتبرون به ، انهماك
في الشهوات ، وجهل مطبق بالتاريخ ، وغفلة عن الاعتبار .

وكما اكتسح التتار ملك العباسيين في الشرق في أوائل القرن السابع اكتسح الملك فرديناند وملكته
لريزابه ملكة الأندلس في أوائل القرن التاسع الهجري ، ورمى القوم في الشرق والغرب صرعى كأنهم أهاز
نخل خلوية . فلا الأندلسيون اعتبروا بأيامهم الأولين أيام ملك بن عباد والأمراء الأندلسيين معه إذ فترقوا
شذمر من القرن الخامس ، وتحك الاسبانيون على عقول المسلمين ، وسقوهم الحجر ، وأذقوهم سوء العذاب
وجعلوهم مترفين منعبين كالفرقاني ، وزرعوا عقائدهم ، فزلزلت بلادهم زلزالا شديدا ، واحتلها الاسبانيون
بمساعدة البابا في رومه القوي لعب دورا مهما في الضحك على أذنان هؤلاء الأمراء الجاهلين الأغبياء .

فقال صاحبي : ألم يستند أحد بذلك التاريخ ؟ فقلت : كلا والله . هذه أمنا المصرية كانت غافلة نائمة
قيل أيام محمد علي باشا ، ولما علموا أن فرنسا تريد الاغارة على البلاد قالوا لو أن أوروبا كلها اجتمعت على
سربنا لأذقتها سوء العذاب ولزقنا أجسام جيوشها بسنابك خيولنا ، فلم تمر ٥٥ دقيقة على التقاء جيش
المصريين بجيش الفرنسيين عند بولاق حتى انهزم المصريون ، ذلك أنهم كانوا لا يعملون من الأمم شيئا ،
هم انظر وانظر بعد ذلك أي بعد أن قتل للمصريين أيام محمد علي باشا ، ودلرت الأيام دورتها ، ومات محمد علي
باشا وابراهيم ابنه في القرن الثامن عشر ، وأراد اسماعيل باشا أن يحارب الحبشة ، فإذا حصل ؟ اتجهن
المصريون قوادا من الأمم الأوروبية على جيوش المصريين ، فالتحقوا مع الحبشة سرّا ، لأنهم أبناء دين
واحد وأهلكوا المصريين .

أليس هذه جهالة ، أليس درس الأندلس قد نسي بتاتا وجهله القوم هنا ، نسي المسلمون ما حصل من
القائد الاسلامي المسمى برأفا من الاتفاق مع البابا سرّا ، وهذه الوسائل السرية والتفاني والمكر والحيل التي
استعملها برأفا عند الاسلام للتظاهر بحب الثورة الاسلامية القائم بالقيادة العامة في الجيش دقرا لثورة وحزبها
شرّ عزّقى كما قلتمنا في هذا اللقّام . فانظر ماجاء في كتاب « كشف الستار » عن سرّ الأسرار » في النهضة
المصرية المشهورة بالثورة العرابية سنة ١٢٩٨ هجرية وسنة ١٨٨١ ميلادية بقلم المغفور له السيد أحمد
حرفي الحسيني المصري . قال في الفصل الثاني صفحة ٣٣ وما بعدها ما ملخصه :

« إن الخديوي اسماعيل باشا لما أرسل الجيش المصري لمحاربة الأقباش ومكث الجيش هناك مدة طويلة
أرسل أمرا وشدّد على القائد العام راتب باشا ورئيس أركان حربه بوجوب السرعة في الزحف على الحبشة
بسبب ما صنعوا من الخيل بالمصريين ، فاسارت الفرقة في شهر أغسطس سنة ١٨٧٩ للقتال ، ولقد قابلهم أحد
القبطيين الفرنسيين المبشرين في بلاد الأقباش ، وصار يتردّد على رئيس أركان الحرب الجنرال (لورنج
الأمريكي) مستظلا أحوال الجيش المصري حتى علم مقداره واتفق معه على الحركة الحربية التي تكون
سببا لهلاك الفرقة المصرية عند الصدمة الأولى ، وكان يبلغ المعالومات في كل يوم إلى ملك الحبشة
فخذ هذا الملك جيشه ، وكان عدده أكثر من ثلثائة ألف من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال على حسب
عادتهم في الدفاع عن بلادهم ، وكان القسيس المذكور الفرنسي المبشرين يتردّد كل يوم على الجنرال (لورنج)

رئيس أركان الحرب القوي وضع فيه الخديوي اسماعيل باشا قوته ، وينقل القسيس ملابسه وبين الجبال إلى يوحنا ملك الحبشة ، ولما التقى الجيشان ، واستعد جح أركان الحرب الأوروبيين والأمريكيين للحملة ، ألقوا جانباً طرايشهم الرسمية ، ولبسوا قبعاتهم ، ثم ربطوا في أعناقهم مناديل بيضاء إشارة إلى أنهم مسيحيون ليأمنوا على أنفسهم الخطر عند اختلاط الجيشين على حسب الاتفاق مع القسيس للذكور .
وهنا أطل المؤلف في خسارة المصريين وقتلهم ، ونجاة هؤلاء الأوروبيين . قال : وقد علم بذلك كله الخديوي اسماعيل باشا ، وكان يريد محاسنهم ، ولكنه خاف من غدرهم كما غدر حسن شرعس عاوك السلطان عبد العزيز في الاسناتة ، فأطلق الرصاص على أحمد باشا القيصري وغيره ثم قتل هونغلف اسماعيل باشا أن يناله مثل ذلك ، فبشّ في وجوههم وانهى الأمر .

هذا ما كان من الخطر والخطر والخطأ القوي وقع فيه المسلمون في هذه الأيام الأخيرة غير معتبرين بالتاريخ المتقدم ، فلم يتعلموا بما فعله الأجانب عن البلاد في الأندلس وغيرها ، فوقعوا في الأهوال والشرور وهم يجهلون التاريخ ، ويجهلون قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض » وغيرها من الآيات ، أليس هذه الآية ظهر أثرها في أم الإسلام في كل حين كما ظهر أثر الآية التي نحن بصدها وهي : « أذهبتم طياتكم الخ » .

الأم الإسلامية جميعها متشابهة

ومن الهب أن الأمة المصرية بعد أيام محمد علي باشا حذت حذو الدول الإسلامية القديمة ، فكان فيها الاسراف والتبذير ، والفناء والخر والفرول ، فهي مختصرة من الدول الأندلسية والنبوة العباسية ، وقد كان من أسباب دخول الانجليز مصر تلك الديون التي ارتكبتها الحكومة المصرية بعد مؤسس الدولة المرحوم محمد علي باشا ، وقد أخذت انكلترا وفرنسا تتنافس في استغلال مصر ووضع اليد عليها ، وقد شجعهما على ذلك ظهور اسماعيل باشا بظهور من لا يحسب حسابا للعواقب ، فقد كان في اصلاحاته كما يقول البارون دي مولرسي « كالباني الذي أراد أن يبنى بيتا يكفه مالا طاق له به ، فزعم الأرض وتقتمت له الشركات الأوروبية للمال علما منها بأنها ستضع يدها على الملك يوم يهزم المدين عن سداد دينه » .

ولارب أنهم كانوا يعبرون اسماعيل باشا المال بأغش أنواع الربا ، وقد وضع كاتب انكليزي (سيموركي) في سنة ١٨٨٢ ان مصر كانت دفعت لغاية هذا العالم جميع دينها الحقيقي (أي المبلغ المستعارة حقيقة) بقيمة ٦ في المئة ، ومع ذلك فقد ظلت مثقلة بدين رسمي لا يقل عن القسعين مليون جنيه . كان أصحاب الأموال يعلون انهم يخاطرون بأموالهم ، وكان اسراف اسماعيل باشا نذرا لهم ، فكان عليهم أن يحملوا تبعه علمهم ، ولكن (رونشلد وأوبنهايم) وغيرها من أصحاب رموس الأموال كانوا على اتصال برجال السياسة في انكلترا وفرنسا فوجدت الحكومتان في عجز الحكومة المصرية عن سداد ديونها وسيلة (لم تعرف من قبل) لتدخلهما تدخلًا فعليًا منذ سنة ١٨٧٦ بحجة اصلاح المالية والادارة وما إلى ذلك من إنشاء صندوق الدين وقصين مراقبين ماليين وموظفين أجانب كانوا يعملون في الحقيقة على تحويل الدين المالي إلى دين سياسي ، وكانت انكلترا تحول دون حل المسألة حلاميا ، وتطالب بوضع يدها على الادارة المصرية ضمانا للدائنين ، فأرسلت إلى مصر بعثات مختلفة تتدخل منها بسوء ادارة اسماعيل باشا وتطلب كلها منحت القرضة لإرسال أخصائين سياسيين في زى ماليين لاصلاح الامور من جديد وإيقاف الحاكم المستبد عند حذّه .

وقد كان المصريون يشكون حقا من حكومة اسماعيل باشا المعلقة التي كانت ترهقهم بضرائبها وأحكامها الجائرة ، فلما تدخل الأجانب في شئون البلاد الداخلية واختلت الادارة أكثر من ذي قبل ، ووشعت نية القوم

قلق المصريون على مستقبلهم . انتهى — وجاء في صفحة ٥٥ وما بعدها من الكتاب المذكور ما يأتي :

سرّ مكشوف

وفي ١١ رجب سنة ١٢٩٦ هجرية سافر الخديوي السابق اسماعيل باشا من القاهرة إلى الاسكندرية حيث ألقته بالبحر « المحروسة » إلى نابولي (فرمن ثوراياليا) وكانت معه أوراق مالية « بون » بمبلغ ثلاثة عشر مليوناً من الجنيهات كما صرح بذلك ابنه الخديوي توفيق باشا بحضور وخيرى باشا رئيس الديوان الخديوي والشيخ عبد الرحمن الابري امام اللعبة في أثناء تناول طعام الاضطرار على المائدة الخديوية في شهر رمضان سنة ١٢٩٦ هجرية إذ قال : « ياليت ترك الحكومة ولو ستة ملايين لاصلاح شأنها » . ولما وصل الخديوي اسماعيل باشا المنزول إلى محطة مصر وقف الخديوي توفيق باشا مودعاً والده وعيناه مغرورتان بالدموع ، فضمه والده ، ثم قال له : « لقد اقتضت إرادة سلطاننا العظم أن تكون بأعز البنين خديوي مصر ، فأوصيك بأخوتك وسائر الآل برّاً . واعلم أي مسافر ، وبودى لو استطعت قبل ذلك أن أزيل بعض المصائب التي أنفأ أن توجب لك الارتباك ، على أتي وأتي بعزمك وعزمك ، فاتبع رأي ذوى شورك ، وكن أسعد حالا من أبيك » . وكان من أشد المناظر تأثيراً في النفوس منظر العبدان والجواري وهم يودعون سيدهم وسيداتهم بأدمع حزبت بدماء القلوب ، ويرفعون أصواتهم بالبكاء حتى كادت تزهق أرواحهم حزناً وغماً ، ثم سار القطار نحو صهي حتى وصل إلى الاسكندرية . انتهى ما أردته من الكتاب المذكور هذا وقد سمعت أن علماً للنايا ألف كتاباً وترجم إلى العربية بعنوان « تدهور مصر بسبب الدين » ولكن لم أطلع عليه . هذه نسخة من حياة أم الاسلام قديماً وحديثاً . فقال صاحبي : وماذا تريد من أم الاسلام المستقلة ؟ قلت : أم الاسلام للمستقبل ستكون غير الأمم الاسلامية الماضية . هذه الأم التي بعدنا سيدرس رؤسائهم ما كتبناه في كتابنا وفي هذا التفسير ، وما كتبه الكاتبون في زماننا هذا وهو زمن النهضة الحقيقية الاسلامية ، وسيكون ما كتبناه هنا من أقوى الأسباب لاستكناه علم التاريخ تختص به جامعة في كل دولة اسلامية ، ويتباحثون ويستخرجون نتائج وعلى مقتضاها يعملون في السياسة فلا يفرطون مثقال ذرة في التاريخ ، وتكون هناك جامعات جماعات في سائر العلوم والصناعات . هذا كله سيتم ولن يكون غيبه ، وسيكون للمسلمين خليفة ينتخبه الأمراء من بينهم لثة معينة تكمن سنين أو عشرين سنين أو نحو ذلك ولا يراهي في ذلك إلا قوله تعالى : « وزاده بسطة في العلم والجسم » فمن كان من أمراء الاسلام أقوى جيناً وهو وأمنه أغزر علماً من الأمراء الآخرين فهو حقاً الذي يجب أن يكون خليفة . أنا أكتب هذا وأما موقن بما سيكون في المسلمين من آثار ما كتبناه وكتبه الكرام الكاتبون في الاسلام .

فلما سمع ذلك صاحبي . قال : بالله زدني إيضاحاً في بعض ما تقدم ، فياليت شعري ان المناسبة بين علم التاريخ من حيث الاجال والتفصيل ، وبين نظم هذا العالم كله من حيث الاجال والتفصيل أيضاً لاتزال غير مفهومة عندي . قلت : الأمر سهل ، إن أم الاسلام قد اعتراهم الوهن والضعف والجهل في القرون الماضية ، فأحطت بهم الأم من كل جانب ، وذاقوا طعم القلة والموهن والتفريق والشر المقيم . فقال نعم . قلت : وأنت تعلم أن سبب ذلك إنما هو الازعاج والافتقار في الشهوات . قال نعم . قلت : اذا نظرنا في تاريخهم من هذه الوجهة وحدها فإنا نفرق في بحر من الشبهات والخلط لا نخرج لنا منه ، فنصبح غرقى فيه صرعى الأوهام ، لأننا نضيع زماننا في الجزئيات ونفقد الكليات ، ونتمسح تاريخ زبد وعرو من مراكب الاسلام ويقف نظرنا عند هذه الجزئيات ونقول : لقد ضلّ فلان وسهل فلان ، فبدّ آخر علينا ويقول : إن التاريخ

فيه الفتن والسيئ ، ويحتج بذلك ، ويضع زمانا في أمور جزئية لا تعيدنا ، ونعيش في جدال أبد الأبد بين ودهر الماهرين . فأما إذا نظرنا نظرا كلياً ، وبحسنا في الماء العلم الذي عم الأمة كلها وتوارثوه جيلا بعد جيل من غير وقوف عند الجزئيات فأما بذلك نتقدم من بعدنا من الضلال كما فعلنا في هذا التفسير ، وهذا نظير العقائد فإن كل امرئ في الأرض على أي دين متى فكر بعقله وأخذ يوجه فكره إلى شقاء زيد وسعادة عمرو ، وأن ثوب التماسك أسرق ، وأن بيت هذه الجوزة سقته عليها ، وأن هذا الطفل مات أبواه ولا عائل له ، وأن هذا الرجل له ابن واحد مات ، أما غيره فهذه أبناء كثيرين فله عتونا ، فهذه الجزئيات يضل المفكر فيها لأنه نظر نظرا جزئياً ، فأما الحكماء والمفسرون من جيع الأمم وهم ساداتها ، فهؤلاء هم العارفون الذين أدركوا حقائق الوجود ، وأيقنوا بالعدل والصدق والنظام ، فهؤلاء الحكماء في العقائد نظير أولئك المؤمنين الذين نظروا نظرا كلياً في علم التاريخ كما قلناه .

هناك قال صاحب العلامة وهو محاربي : هل لملك نظير فينا نشاهده ؟ قلت : نعم نحن نمر عليه صباحا ومساء ونحن غافلون كما قال تعالى : « وأنكم لتقرّون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون » والحقيقة التي لا مناص منها أن العوالم التي نراها أممنا وخلقنا وفوقنا وحتتنا مشحونة بالعلم ونحن عنها غافلون . انظر إلى شجرة السنت . قتال يا هب ! أشجرة السنت تفهمنا أن في التاريخ قصة قوم مفكرين ، وسبلا قوم غافلين ، قلت إني وربي أه خلق . قلت :

أتم ردّ جواب ما أنا سائل * عنه فإلهم ذات تشعشع

قلت : ألم أقدم في هذا التفسير أن ورق شجر السنت لضفئه التناهي حبه العناية الإلهية بشوك يحافظ عليه ، فهذا الشوك منفعة هي المحافظة على الورق الضعيف ، ومعلوم أن الورقة هي الزهرة التي بها يتفلس النبات ، فإذا لم تسعف العناية الإلهية ذلك الورق الضعيف بالشوك لمحافظة عليه مات شجر السنت إذ لارته له والزهر بها يدخل مافي الهواء الجوّي من المودة النافعة لجميع الشجر ، فإذا نظرنا في تاريخ المسلمين إلى قصة النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، ومن نحاهمهم من كل من كان عدلا من المسلمين رأينا ذلك قليلا جدا في جانب الملوك المستبدين الظالمين الذين تقدم تاريخهم وتبذيرهم وإسرافهم وطوهم وغرهم وجوارهمهم وغلمانهم ومبائهم وما أشبه ذلك ، فهؤلاء الآخرون أشبه بالشوك في شجرة السنت ، والأولون لقتلهم أشبه بورقة السنت ، فإذا رأينا أمة الاسلام مضى لهم نحو ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن ، وفي أكثر هذه المئة أنظم ملوك وأمراء ووزراء وظلمهم ، قلنا إن هؤلاء أشبه بالشوك التي تشوك المسلمين كما أرادوا قطع تلك الأوراق الاسلامية التي بها تحيا أمتنا ، وما هي أوراقها تلك إلا سيرة الخلفاء الراشدين ونور النبوة .

إن ما تقدم من سيرة الملوك الاسلاميين الذين أسرفوا أحدث في الأمة ذاك كما يحدث شوك السنت لمن أقدم على قطع ورقه فلما ، فإذا رأينا الأمم الاسلامية اليوم قد أصبحت على إحياء السنة النبوية وعلى الأشادة بذكر عمر وعلي وعثمان وأبي بكر ومن نحاهمهم ، فإذا ذلك إلا لما أحسّت بالآلام الشوك التي نبت في جسم الأمة فأذهبا وآلمها وسرّكها إلى المحافظة على مابها حياتها وهوان ينهجون نهج أبي بكر وعمر مثلاً ويرضوا عن بعدهم وإذا كنا نرى شجر السنت ينجو عطا ويكون قويا متينا بما أعطى من الورق ومن الشوك المحافظة عليه ، فهكذا هذه الأمة بما أصابها من القتل والهوان من أمة الفرنجة ، وكان ذلك بسبب الملوك السرفين ، سحبي ذكرى رسول الله ﷺ وذكرى العادلين من أمته وقطع الصلة التي فصلها بينهم ، وستوى قوة متينة كما قوى شجر السنت ، والفضل في قوته راجع لثلاثة الشوك المحافظة لورقه الذي هو السبب في نمائه وقوته ، فهذه الأمم الاسلامية ربما تعيش عشرات الآلاف من السنين أو مئات الآلاف منها ، ويكون الفضل في طول بقائها وسعادتها

راجعا إلى الخطأ الذي وقع فيه الأمويون والعباسيون والأندلسيون والمصريون وغيرهم ، فإن ذلك الجرح العامي الذي أصاب أمتنا أخذ ينسل اليوم باجتماع المسلمين واتحادهم ، وستبقى ذكراه إلى آخر الدهر ، فكما قويت وارتفعت شجرة السنط بقوة ومثانة شوكتها هكذا ستقوى وترتفع أُم الإسلام بقوة ومثانة التبصرة والتكرى الناجمة من سوء سلوك ملوك الاسلام وأمرائهم السابقين إلا للمسلمين منهم النافعين .

فلما سمع صاحب ذلك . قال : جلّ الله وجلّ العلم ، أليكون شجر السنط أمانا صابحا ومساء ونحن عنه غافلون ، إن في نفس السنط للمثل به لحكما عالية عجيبة ، وأهبط منها أن تكون مثالا لصلح تاريخ المسلمين الله أكبر ، الله أكبر ، والله إن الأمم الإسلامية للمسكينة قد أذن الله لها بالرفعة والسعادة ، ولعمري كيف يطلع على هذا المسلمون ولا يرتقون ، والله لو أن أُم الاسلام أتت إليهم هذا العلم قبل الآن لكانوا على غير ما هم عليه الآن ، ولكن الله أراد أن يخلق في أُم الاسلام خلقا جديدا وهذا أواه والله خير الناصرين ، فقلت : أما موقن بما أقول ، وأنه سيظهر في هذا الزمان الذي يفسر فيه التفسير في الزمان الذي بعده رجال لم يعلم بهم التاريخ ، ويكونون قدوة الأمم الإسلامية ، وستبقى هذه الآراء وما هو خير منها عشرات القرون ومئاتها ، وأنا أطلب مطمئن وبه موقن ، والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

فقال صاحب : فهل تضرب لي مثلا آخر للفظة المستحكمة في النفوس غير مثل شجرة السنط . فقلت : كل من أراه أشبه بثل السنط للذكور مثلا .

اتني في بعض ليالي هذا الشهر وهو شهر أغسطس سنة ١٩٣١ وهو الذي أكتب فيه هذا المقال كنت أستيقظ قبل الفجر ، لتعاطي طعام السحور ، والنظر في السماء فوقنا ، وأنا فوق سقف المنزل الذي جرت عادتي في الصيف أن يكون نومي ليلا فيه ، فإذا كنت أرى ، وكنت أرى ثلاث طبقات فوق : طبقة السحاب التي طبق الأفق ، وطبقة الهواء الذي يحوم فيه السحاب ، وطبقة النجوم التي لا يعرف عندها ، ومنها مجرد تناثري شمسا فيها ، وشموسها لا تنقص عن عشرة آلاف مليون شمس . فهذه الطبقات أخذت أنظر إليها وأقول : يرباه ، هب لأهل الأرض ! يتقاتلون ويختصمون ، ويحقدون على منافع قليل وهم لا يعلمون هذه النعم التي تحيط بهم من مال وبنين وعمالك إن هي إلا ثمرات لهذا السحاب ولهذا الهواء ولهذا الشمس « وفي السماء رزقكم وما تعدون » .

فهذه الفظة الشاملة لنوع الانسان تشبه الفظة الشاملة لأُم الاسلام المتأخرة قبلنا عن تاريخ أسلافهم ، فلم يكن ملوك العنانيين ليفكروا فياحلّ بأهل الأندلس قباهم والعباسيين من أن الجند كانوا يقتلون بالملوك ولم يفكروا أن الفرنجة هم الذين أدخلوا الترف والتعمير في بلاد الأندلس فكان سببا لخربائها وهكذا أهل الأندلس المتأخرون لم يعتبروا بضيق للتقنين منهم ، وهكذا المصريون أيام الثورة العربية لم يفتنوا للتاريخ ودخل البشرون ديارهم ، وضلوا في الأبناء من تحقير الاسلام في قلوبهم مثل مافصل البلبا ودوقات أوروبا في بلاد الأندلس أيام مالك بن عباد كما قدمناه ، إذن لا فرق بين جهل الأمم الانسانية بالنعم التي تحيط بهم كما قلنا من نعم الهواء والنجوم والسحاب وبين جهل متأخرى المسلمين بالفظة المستحكمة في أمراء الاسلام جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن ، وهم غافلون .

ولاجرم أن هذه النعم المذكورة النصبة على أمتنا السابقة ستصبح اليوم نعمة لنا بالاعتبار .

خطاب المؤلف ربه

في ليالي شهر أغسطس سنة ١٩٣١

يا الله : ما أجل حكمتك ، وأعظم نعمتك ، أنت الذي جعلت الشقاء نعيما ، والعدل عزا ، والبلاء رخاء ،

سبحانك اللهم وبحمدك ، لولا نعمة الغلبة المستحكمة في النوع الانساني لهلك العالمون ، أنت أنعمت بنم
لاحصرها ، وهذه النعم الباهرة ، والآيات الظاهرة ، لم تختص بها السموات والأقمار والأرضين ، فإن العظيم
في رحمتك كالقمر ، تدور الشمس ، وتدور القمر ، وتدور الأرض ، فتراك أيضا تجعل في الجوهر الفرد ، وفي
الفرقة التي لا تراها العيون خطا كبرياوية سائلة تدور حول أخرى موجبة نحو ستة آلاف مليون مليون مرة
في الثانية ، وهي نور كما أن الشمس نور .

نرى فعلك في الفلحة ، وفي النجابة ، وفي النحلة ، كما تراها في القمر ، وفي الأرض ، وفي الشمس ، بل
اتنا نقل من الرجحات في هذه الحشرات ما لا يستقصى من الرجحات ، ولا تقدر على عدده ، فإله هذه العيون
اللائي تعدد بالثلاث في الفل ، والتي تعدد بالآلاف في القلب ، وما هذه الحكم البديعة التي تجل في صنائع
العنكبوت ؟ إذن حارفكنا في العظيم كما حارف الحقير ، إذن لاحقير في هذا الوجود ، وإذا غاب عن أكثر
الناس هذا الجلال ، وجهلوا الحكم المحيطة بهم ، فهكذا غلب عن أم الاسلام السابقة الاعتبار بما أحاط بأبائهم
في التاريخ ، وقد آن أولان الاستبصار والاعتبار والازدجار والازدهار والاستبشار .

عمت النعم نوع الانسان ، وغمرهم الجهل والفسيان ، الرحلت نعمة ، والغلبة عنها تقمة ، لو عرف الناس
هذه النعم ولم يذللهم عنها ما أحاط بهم من المرض والفتنة والحروب لما توارى طربا ، لأنهم يرون رحما لاحد لرحمته
وجلاله ورحبه وإكرامه ، فهذه الغلبة التي سببتها المصائب كانت سببا في بقاء نوع الانسان ، هكذا غلظة الأم
الاسلامية السابقة عن الاعتبار بالتاريخ أصبحت اليوم نعمة علينا لتبقى بذكرها أم وأم بعدنا ، أليس
هذا هو ما يقوله الأطباء : « إن الحى تشفى من داء القولنج » وهو معنى قول الشاعر :

من يمتصم بإله العرش يحفظه * فهو الحكيم يداوى الداء بالهاء

فداء انحطاط المسلمين داوينا بالاعتبار بداء التخاذل للآلأم البائدة والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

ذكر المؤلف نعم الله عليه

وهو مخاطب ربه وهو ناظر إلى السماء قبل الفجر

يا الله عرفت الآن ما كان يحفل لي زمن الشباب ، اللهم إني أجدك جدا كثيرا ، وأشكرك كثيرا
جزىلا ، لقد كنت إذا فقلت من القاهرة إلى قريقتنا كفرعوض الله جعازى أبجد في قضى ميلا قويا إلى
الخلوة والتباعد عن القرية كل ليلة ، فأجلس وحدى في أحد الحقول المجاورة لقريقتنا ، وأرى أتى خيل إلى :
(١) الدول والممالك دولة دولة وهم في مواكبهم البهجة ، وعلى خيولهم المظلمة ، وفي أعيادهم العظيمة
وهم يختالون اختيالا .

(٢) وكأني أشاهد جميع من عاشوا من تلك الأمم إجمالا ، وكأنهم شاهدين لي ثم يتوارون ويقوم
غيرهم مقامهم ، وهكذا جيلا بعد جيل ، ودولة بعد دولة .

(٣) وهذا كان ديدنى في كل ليلة والناس نيام .

(٤) لقد فهمت خيال الشباب اليوم في زمن الشباب .

تبين لي اليوم أن هذه النفس مستعدة من زمن الشباب أن تستعرض الأم الفائرة أمة أمة وتلقى فطرة
عليها وتقول : أيها المسلمون : ليس علم التاريخ علم استظهار ، بل هو علم اعتبار ، فليمتحن المسلمون بعدنا
التاريخ على نحو ما امتحنه ، وهذا مبدأ أسنائه ، وعلى من بعدنا البناء والقيام والكمال ، والحمد لله

رب العالمين . كتب عصر الأربعاء ١٢ أغسطس سنة ١٩٣١

حمد المؤلف له

اللهم لك الحمد على العلم وعلى الحكمة ، لك الحمد على انك اوتيت بصائرنا ، واصبح ما كان مجلداً من العلم في كتبنا السابقة مفصلاً في هذا الكتاب ، فقد جاء في كتابي « التاج المروحي » ما منه :

« فن هذا ترى أن الرؤساء والمرموسين مسئولون عن أفعالهم ، وهذا معنى مسألة الانتخاب والشورى ومجلس التواب وهكذا ، وفي آية أخرى : « ولوترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين » الإيمان هو المعرفة والعلم بالله وبغيره من المخلوقات دني أو دنيوي فإن هذا معناه في اللغة « قال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر اليلس والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بآلهة ونجمل له أعداء وأسروا التهمة لما رأوا المذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجوزون إلا ما كانوا يعملون » فكأنه يقول ما جعلت الأغلال في أعناقهم في الآخرة إلا وقد وضعتها في أعناقهم في الدنيا فقلت أيديهم وعقولهم بالجهل ودلوا لاستبداد الرؤساء وقتلهم وابتكروا على مالهم من السطوة وظنوها مناط العلم فخزاهم الله في الآخرة وجعلهم جهلاء معذنين محقرين لجهلهم في الدنيا وتبرأ الرءوساء من المرموسين كما يحصل في الدنيا عند استبداد الحاكمين على المحكومين ووقوع المذاب عليهم ، ففهم يتبرمون ويقول انفضاه جهلنا بكم علينا وتديبركم الخيل في الليل والنهار تتبع لكم الرئاسة وحكمكم وتدعوننا في جهلنا نرسل في قيود الليل والليل ، وترسلوا علينا غاشية من سحب الجبل للزجاة بمواصف المكر المدبرة بأيدي استبدادكم وظلمكم » وما كان ربك ليهلك القرى يظلم وأهلها مصلحون » « أول ما يهبطكم ثم أهلكتنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون » . أسرها أن ننظر آثار الأمم ، ونحفر الآثار ، ونقرأ الأحجار ، ولم يكف ذلك حتى قال إن في ذلك آيات أي علوما وآداب وأخلاقيات قال « أفلا يسمعون » ما خطه الأولون ، وذر به الأقدمون ، في مطمورات الأرض « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون » وعد ببقاء الأمم النافعة للسلطة في الأرض كما وعد باهلاك الأمم التي لا تنفع لعمارتها « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله » ولقد قلنا في هذه الآية أنه ﷺ أرسل كتابه إلى الملوك بهذا الوضع كما في البخاري ، وفسر البربرية بسن السن وتشريع الشرائع ، غلب النبي ﷺ الملوك بالصيغة النبوية ، وتبذ الاستبدادية ، وإليك نرى العلماء يمتنون عندنا الاجماع من الأدلة الشرعية فكان القرآن إذ ظهر في الشرق ظهرت ثمرته في الغرب ، فكان الشرق إلى الآن لم يستغنى من غفلته ، فسيحان مقسم العقول والحلوظ ، أكثر قصص القرآن وردت للعرمان ، وسيرد عليك عند التفصيل قصة فرعون وموسى وما كان من إهلاك بني إسرائيل واستكبار فرعون وقومه وتكوين دولة جديدة من الأمة الصخرة في الشرق من سوريا وهم بنو إسرائيل « ونريد أن نمنع على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين ونعطيهم لأم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » يشير إلى أن الضعيف متى مبرأ من أي شوكه الخ وتري يوسف وقصة عاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وقوم نوح وقصة آدم وخلافته في الأرض ، وكل منها له قسطن العرمان ، فماد أهلكتوا بطغيانهم ، وثموديا قتلهم ، وقوم شيب بطفيف الكيل ، وقوم لوط بالواط ، فقل النسل ، وقوم نوح هلكوا لأنهم لا يسلحون لعمارة الأرض وقصة آدم تشير إلى أنه وبنه خلفاء الله في أرضه ، متساوون في الحقوق ، ولتقتصر على هذا التقدير من الكتاب وهاك ما ورد في السنة من جل تزيك علامات دنو أجل الأمة وسقوط العزلة ، فأخبر ﷺ أن أسافل الناس إذا علوا على الحكومة سقطت الأمة وتعلس ظلها ، وعبر عنه بتلاول رعاة الابل في البنيان ، وقال أيضا :

إن الرجال إذا كثروا من الاسراف واقتناء الجوارى كان علامة على دق زوال الأمة من الوجود ، وعرفه بأن نلد الأمة ربها أى سيدها ، وفى هذا القول معنيان مصطحبان : كفرة النساء ، والاسراف بينهما ، واختلاط الأجناس ، فإذا اتخذ الرجال الاماء وهن من أمة أخرى جرى للامان واختلاط الجنسان وضاع كيان الأمة ، وسقطت من شمع مجدها ، ورفيع قدرها ، وزالت وحدتها ، كذا ذكره العلامة (سبنسر) الفيلسوف الانجليزى الفيلسوف اليابانى ، إذ سأله عن اليابانيين أتزوجون من الاوروبيين ؟ قال كلا ، لئلا يختلط الجنسان ولا يحفظ الكيان ، ولا يلتصم الزوجان ، وطله بسة محبة ، ونحن نعمل بالصحة والاجتماع معا ، والحديث فى البخارى : « كان رسول الله ﷺ يورث الناس فأتاه رجل فقال ما الإيمان ؟ فقال الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالبعث . قال : ما الاسلام ؟ قال : الاسلام أن تعبد الله ولا تشرك به ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان وتحج البيت . قال : ما الاحسان ؟ قال : الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فاعلمه برك . قال : ما الساعة ؟ قال : ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، وسأجرك من أشراتها اذولفت الأمة ربها ، وإذا ظلول وعاد الابل اليهم فى البنيان فى خمس لا يعلمها إلا الله ، ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم (إن الله يندم على الساعية فى الفيت ويعلم ما فى الأرحام . الآية) ثم أدير فقال عدوه فلهروا شيئا فقال هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم » وعبر عن المعنى السابق بما هو أوضح فى حديث آخر . قال : « إذا أضيئت الأمانة فانتظر الساعة » ، وفى حديث : « إن من أشرار الساعة أن يقل العلم ، ويكثر الجهل ، ويظهر الزنا ، وتكثر النساء ، ويقل الرجال حتى يكون للخصمين امرأة القيم الواحد » ، وفى حديث : « إن الله لا يقبض العلم اقتضايا يقبضه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق علما اتخذ الناس رؤساء جهلاء ، فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا » اهـ

وأشراط الساعة هنا المراد بها الصغرى وهى الدلالة على خراب أمة من الأمم ، أو قرية ، أو قرية ، ولا ريب أن الزنا يقل النسل ، وظهور الجهل من أشد العوامل فى التخريب ، وارتفاع الأسفل بارتفاع البارقاء المناسب ، بلا استحقاق يورث ضياع الأمة ، وقلة الرجال بالحروب وكثرة النساء داعيان لتغير الأمة وزوالها كالحصل فى زماننا فقد قتل التعاضى الرجال حتى لم يبق إلا البعائر والنساء فى كثير من القبائل ، ولم تكن تجد لنحو خمسين امرأة إلا شيخا أو صبيا واحدا ، وهكذا اختلاط العشائر ، فهذا كله من أمارات زوال الأمة من الوجود كما عليه علماء العمران فى زماننا . انتهى من كتابى التاج المرصع .

يألت شرعى كيف يعرف أذكياء المسلمين بصدنا تفصيل ما أجلناه فى « التاج المرصع » حتى يصبر قينا عندهم إلا بما قلناه هنا ، ألت ترى فيها قد تم كيف اضطربت دولة الاسلام لما ولت الأمة ربها فأصبنا نرى الخيزران وهى جارية أما الرشيد والمهادى ، وكما من جوارى اشترت بلبل ، وأدبهن أمهات للخلفاء . يا حيا ! أليس هذا الحديث الوارد فى البخارى إنذارا لأمة الاسلام أن يفقوا استيلاء الإمام ، غفل المسلمون عن هذا وجهوا مقاصد النبوة ، لافرق فيهم بين العباسى والأموى والشىبى والتركى والأندلسى ، كل هؤلاء تراهم فيما مر بك من هذا الكتاب سواسية فى جهل مقام النبوة ، وهاهو ذا جاء الفيلسوف (سبنسر) يقول بمنع ذلك خيفة القصاد .

للك الحمد اللهم على نعمة العلم ، وعلى نعمة الفهم ، وعلى فضل التوفيق والانعام بالإلهام . هذه صحيفة الأمم الاسلامية منشورة بيننا وأهجة جليلة ظاهرة . صحائف منشورة ، وكتب مسطورة ، وضع فيها اتباع الخلف لسلف ، والأول للآخر .

اللهم أنت مالك الملك حكمت على هذا الانسان أن يكون موقفا فى أغلال التقليد ، مقيدا فى أصفاد

من حديد ، شابت قلوب أوثان قلوب أواخوه ، واستأن للتأخرون سنن المتقنين ، وسار الأبناء على سنن الآباء فأحلت بهم التندر ، وأهلكتهم الأم ، فهم في ديارهم صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خالوة ، فهل قرى لهم من باقية ، طم الجهل وعم ، واستحوذ على العقول فأصباها ، وعلى الأم فأرداها ، قنبا للجهالة ، وقسا للصغار والهامة ، ألم يكن فيهم منزيرون ؟ ألم يكن يكونوا يقتلون ؟

غشيتهم الفواشي ، وأخذوا بالأفئدة والنواصي ، فطاحوا طحين الرعي وهم غافلون . سمعوا أحاديث الاماء ، وانتهق بلدن سادتهن ، وأن ذلك من علامات الانحطاط والتدهور والهلاك ، فجعلوا أصابعهم في آذانهم واستكبروا استكبارا ، وسمعوا أن رعاة الشياه اذا تناولوا في البنيان مزقوا شر عزق وأصبوا صرعى هالكين ، سمعوا ذلك فغأغنى عنهم ما كانوا يسمعون ، ولا أفطهم ما كانوا يقرءون ، فها أنت ذا ترى مبانيهم الشائعة ، وقصورهم العالية ، وبذخهم واسرافهم ، فما أغنى عنهم ما كانوا يننون ، ولا حفظ مدنيهم ما كانوا يصنعون .

يا الله أنت الوكيل ، أنت الحفيظ ، أنت العليم ، أنت المنتقم . دبر الخلفاء الراشدين الامور بالشورى والعدل وزهدوا في الخطم واللبس ، وجعلوا أنفسهم خلفاء الله والناس أبنائهم « غلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات » فقلوا غيا ، طاح مجدهم في الجوارى الحسن ، واقامة البنيان ، والتغالى في الزخرف والزينة ، فحق بهم ما كانوا به يستهزئون .

قتلوا الصابرين والأندلسيون والعثمانيون والمصريون التأخرون بعد محمد على بلشا في القرن الماضي ، قتلى هؤلاء في البنخ والاسراف ، واقامة المباني ، والتفاخر أطم دول أوروبا رياء وسمعة ، فأضاعوا الأموال فهل ماتتهم حصونهم من الله ، وهل ماتهم اسرافهم ورياءهم وأخذانهم وأخوانهم والمتلقون لهم . كلا . بل أكلهم الله من حيث لم يعبسوا ، وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي أعدائهم ، كل ذلك حصل في مصر في زماننا كما حصل في الأندلس والبول العباسية وغيرهم .

اللهم انا نعلم أن خلفاء الدولة العباسية وإن كانوا هم الذين رفعوا شأن الأم الإسلامية حينما تآ فان توارثهم الخلافة كما يورث للتعن أودى بتلك الأم وأضاعها ، وفرق شملها ، وأذاقها لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

ارتفاع الدولة

فأما ارتفاع شأن الأم الإسلامية بالدولة العباسية ، فذلك ما يقوله العلامة (سديد القرنسى) في تاريخه المسمى « خلاصة تاريخ العرب » فقد جاء فيه في صفحة ١١١ وما بعدها ما نصه :

« كان للعباسية ديوانان : ديوان وارد وصنادير أموال المملكة ، وديوان النظر في مصالح الرعية وأحكام الدولة ، يصدق على الأحكام الصادرة من الخلفاء ، ثم استبدلوا الأول بأربعة دواوين لمرتبات العسكر والخراج وتولية أرباب الوظائف الصغار ومقابلة الحساب وتعيينه ، ثم اتخذوا حاجبا يدخل سفراء الملوك إلى الخليفة ويحكم في القضايا المهمة عند رفعها إلى الخلفاء ليرجعهم من النظر فيها ، واتخذوا وزيرا ينظر في القضايا قبل تبهم الحكم فيها ، ثم جددوا خراجا على أراضي المسلمين وكذا اليهود والصارى مع جزية مقدارها من الفنى ثمانية وأربعمائة درهم ، والمنوسط أربعة وعشرون ، والفقير اثنا عشر سوى ما يرد عن هوائى الجبارك واستخراج المعادن واجارة أراضي وارث من لاوارث له وغير ذلك .

بلغ وارد المملكة سنة في زمن الرشيد أربع مائة مليون وأربعمائة وعشرين ألف دينار ومائتين وأربعين وسبعين مليوناً وثلاثمائة وخمسة آلاف وثمانمائة درهم ، والدينار إذاً كان يساوى مقالا أوائى عشر فرسكا إلى ثلاثة عشر

والسهم يسوى ستة دواقي ، وكل ستة دراهم تساوى سبعة مثاقيل .

الأعمال العامة والادولة زمن العباسية

لما كانت عليه مالية العباسية من حسن الانتظام شرعوا في أعمال مهمة ، فرتبوا ببغداد ديوان ضبط يمنع عدوان بعض الناس على بعض ، ويحفظ الأملاك لأربابها ، ووظفوا عساكين يطوفون لبلائع الشمر ، ورأوا عرب البادية عدوا بعد اختطاع الحروب إلى العيشة في البيداء مع الثوب والسلب ، فرتبوا قافلة الحج أميراً يحفظها ، ورتبوا أوقافاً لأحياء المساجد والمدارس ، وبنى الهادي في الحروب للتمدن بغداد إلى مكة خانات وصهاريج تلجأ إليها الحجاج والقوافل من الحر والعتس ، ورتب بين الحجاز والعين من النيل والجلال بريدا يوصل الأخبار إليها كما رتب معاوية بن أبي سفيان بين باندل المملكة العربية سعاة لملكه .

واستكمل الهادي تولية محاسب يؤتمن على الضبط والربط البلدي يطوف بالأسواق حيناً بعد حين بجشود ينفذ بهم أوامر ديوان الضبطية ، ويحقق أوزان ومكاييل البايعة ، فان وجد مخالفاً أدبه فوراً أمام حاكمه ، وقد جمعت العباسية ما يقدد من الفنون للشمسة على أراضى أسلافهم ليرجعوا إليها ، وبالجملة قد أبدوا أولاً الحمية في الحروب ثم عدلوا عنها إلى تحقيق العز والرفاهية لمملكتهم حيث أخذوا يحرضون الناس على استعمال أذهانتهم في الأمور النافعة حتى وصلوا سريراً إلى درجة عالية في التمدن ، واهتموا على اليونان في التجارة والصنائع والفنون الأدبية وغيرها التي ظن اليونان أن لا سابق لهم فيها .

الفلاحة والصنائع زمن العباسية

استخرجت العباسية معادن الحديد في خراسان ، والرماس في كerman ، ونسجوا الأقمشة في مدائن العراق والشام لاسيما الموصل وحلب ومشق ، واستخرجوا القار والنفط ، وطينة الأواني الصينية ، ورنام طوريس ، والملح الأنطراكي ، والكبريت . وأظهر قوا الفنون الميكانيكية فتمتعت يشهد بها ما بعثه الرشيد إلى شرمانيه ملك القزنيس من الساعة الكبيرة الدقيقة التي نجح منها أهل ديوانه ولم يتمكنهم معرفة كيفية تركيب عذتها ومع ذلك لم يكن في عصر العباسية أهم من صناعة الملاحة التي بهارتهم فيها أظهروا حزمياً فواكه الفرس وأزهاراً قليم ماؤندران .

الفنون الأدبية والصناعية زمن العباسية

كان فنا النقش والحفر متقنين لدى العرب الجاهلية الصائمين التصاور الانسانية والتمائيل الالهية حتى جاء القرآن الكريم بمنهما ، فوفا عن التعمد حتى اشتغل بهما العباسية في غير تلك التصاور فتمتعوا بهما كفنّي الموسيقى والعصارة ، قد بنوا مباني فاخرة ببغداد والبصرة والموصل والرقه وسمرقند ، وشغفوا مع ذلك بالعلوم الأدبية ، فأحضروا من القسطنطينية أحسن الكتب اليونانية ، ورجعوا إلى العربية ، وقصوا ببغداد مدرسة « السن » لتربية المترجمين تحت نظارة طبيب فسطوري ، ورتبوا خمسة عشر ألقب ديناراً للمدرسة يتعلم بها عجمنا ستة آلاف تلميذ من الفقراء والأغنياء ، وأنشأوا كتباً خانات رخصوا الدخول فيها لمن أراد ، فانتشرت اللغة العربية في سائر جهات آسيا حتى تكلموا بها بدلاً عن لغتهم ، واعتاد المأمون ومن اقتدى به بعده حضور الروس العامة التي يلقاها للدرسون ، وأطلعوا شمس العلوم الرياضية ، وبنوا أرماداها آلات عجيبة لاستكشاف الفلكي ، ومستشفيات يمتحن فيها من أراد أن يوظف علة امتحانات ومعامل كجارية لاستكشاف النباتات ، إلا أنهم وقصوا في ملالات تصديقهم بمظنوناتهم التعجب ، وبالمسائل النظرية المتعلقة بعلم كيمياء الفضة

والذهب المسماة بالنسعة الالهية وعلم جابر ، لكنها ساعدتهم على التثقف في علوم مكتسبة بالمشاهدة .
ومكنت للدراسة البغدادية على روقها الباهر نحو مائتي سنة قريبا ، فكان الباصيون في ذلك أسعد حظا
من شرفانيه القى أراد أن يتخذ ملكته من الخشونة والجهالة بتتوير عقولهم بأعلم من في عصره من التفرغ
فإن ذلك عدم بعد هلاكه .

فخامة العباسية

لاستواذ العباسيين على أموال كثيرة مع عدم جيوش دائمة ينفقون عليها أبدا من الزينة والزخوة
أحب المناظر ، ومنعوا منعا وافرة ، وعملوا أعمالا ماهرة ، فمروا الذهب في قصورهم وبساتينهم ومساجدهم
وأفق المهدى في سبعة ملايين من الدراهم ، وصرفت زينة زوجة الرشيد مليوناً وسبعمائة ألف دينار
على خمر جمرى يوصل إلى مكة المياه من الجبال المجاورة لها ، وكان لباسها من الديباج المبطن بالسمر ، أو
الأقنعة المنسوجة بغيطان الفضة ، وفعلها منركشة بالآلئ الثمينة ، وفرق للأمن في يوم أربع مائة ألف
دينار ، ونصب في مجلسه عند قدمي صغير اليونان شجرة ذهب حاملة لؤلؤا على هيئة الثمار ورتب مقتريا به
سهم أكثر من مائتي شخص يأخذ كل منهم سهمه فيجد به أرضا جسيمة مع ما يلزم لزراعتها من العبيد ،
ويقال : كان قصره ثمانية وثلاثون ألف بساط ، منها اثنا عشر ألفا وخمسمائة منركشة بالذهب ، وبه أيضا
سبعة آلاف خصى ، منها ثلاثة آلاف من الزنج ، وسبعمائة خنجر ، وصاكر تحشى الحواشي الخارجية عنه ،
ورضع المعتصم أساس سائر القرب بغداد على أرض أعلاها بمصريف هائلة ، وبني بها اصطبلات تجمع على
ما قيل مائة ألف جواد ، ولما بلغه العباسية من الفخامة وقوة الشوك بث شرفانيه إلى هرون هدايا يصي
النصارى القادمين إلى بيت المقدس ، فأجابه إلى ما طلب ، وبث له أقنعة نفيسة ، وعطرا ، وخشباً ذكياً ،
وفيلاً ، وخيمة عظيمة على هيئة خيام العرب ، ثم بث الساعة الدقاقة السالفة . انتهى

انحطاط الدولة العباسية

فأما انحطاط الدولة العباسية فما ذلك إلا بسبب توارث الملك والتنازع عليه ، ولو كانت الخلافة بالشورى لم
يحصل شيء من ذلك ، ولقد قلنا كيف قتل عشرة من الخلفاء ، وزيد الآن ما يقوله الأستاذ سديو المتقّم
في كتابه وهذا نصه :

« لقد أحبطت بغداد بالولايات المستقلة من ابتداء هذا الزمن القوي استمر فيه القتل في القواد والوزراء
والملوك المستقلين بالحكم ، وكذا الخلفاء ، فقد قتل من التسعة والخمسين خليفة ثمانية وثلاثون ، وعدّوا
بالجوع ، وأوامر السجون ، أو الرمي في وعاء كبير مملوء تلجا ، ولذا خرج القاهرة من السجن مفقود العينين عليه
باب بآلة يسأل الناس على أبواب المساجد ، وتقلب على الراضي ضابط العساكر التركمانية ، وتصرّفوا كما
شاموا في سائر فروع المملكة ، فاخرج منصب إمارة الأمراء ، وأعطاه ابن رائق ، فتولى قيادة الجيوش ،
وخزينة المملكة ، وسائر أمور الرعية ، وقرن اسمه باسم الخليفة في الخطبة ، وما زال متصرفاً بالمملكة حتى حقق
منه جندي يسمى « ياقم » فحاصر بغداد وقبض على الراضي سنة أربعين وتسعمائة ميلادية ، وألزمه أن
يرليه إمارة الأمراء ، فويله وحكم حتى مات في حلالة المتى سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة ميلادية . اهـ

اللهم لك المشتكى . اللهم أنت ربّ العباد ، أنت الحكيم ، أنت القوي علمتنا تاريخ أسلافنا ، لنجعلها

نوحبنا لنا : لأنك تريد رقي أم الاسلام ، وأم الأرض ، ولن يقوم المجد إلا على أساس ، وهل الأساس إلا ما قام به محمد رضى الله عنه ومن معه من الخلفاء الراشدين ؟ وهل يتبع الناس بعدنا الخلفاء الراشدين اتباعا تاما إلا إذا علموا أن الأم التي هجرت طريقهم ، وخالت ستمهم هالكون ، فبهنا نجدان وطريقان عهدان طريقان لتغير سنة الخلفاء الراشدين ، وطريقان لثبوت سنة الخلفاء الذين ليسوا براشدين ، بل هم قوم لبقاتهم متعصبون .

ياربنا هاتحن أولاء الآن قدرنا أن نفهم بعض الفهم كلامك في كتابك الكريم ، رياه عرفنا ومعرفتنا قد أثبتنا التاريخ ، أثبت التاريخ أن التمس في الدنيا ذلك ، وأن القناطير للفتنة من التمس والفتنة ذلك ، هاهنا أثبت التاريخ بالأظم والأعمد والناس شرقا وغربا غافلون ، هاهم أولاء الخلفاء قتلا وقتيلا وصلت أصيهم ، وأخذ بعضهم يسأل الناس على أبواب المساجد ، وكان أحدهم يملك القناطير للفتنة ، بل المرأة من نساء الخلفاء ربما تملك الملايين من الدراهم ، وإذا كنا نرى للأمن في ولجة عرسه لبوران إذ تزف إليه يأمر بالفتوة فتصب بين السلاطين وترفع حتى تكون فوق الموائد ، ويؤمر القوم أن يأخذوه لأنفسهم وهو عشرات آلاف آلاف ، أفليس ذلك يشبه مال قرون المذكور في القرآن ، ذلك الكتاب الذي ذكر لك القصة ليشرح إلى ما يصل في البلاد الاسلامية ، وقد حصل فضلا ، قود وجواهر تسكار وتجمع اجتماع ملك قرون ، والكارزون هم أنفسهم يقتلون وقتيلا ، وتسلم أصيهم ، ويسأل بعضهم الناس على أبواب المساجد ، أليس هذا يشابه ما حصل لقرون ، إذ قال له العلماء لا تفرح بل بال والزينة ، ففرح نصف به وبما له الأرض ، فأصبح الذين تمنوا مكانه وهوى زينة يمدحون ربه على أنه نجاهم من الزينة والزخرف وكثرة المال ، هذا هو بعض أسرار القرآن ، هاهنا قصص القرآن فسرنا التاريخ ، ولذا أزل القرآن ، أزل أقوالا مظهر أفضلا ، أليس هذا هو قوله تعالى : « فأما الانسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمى ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهاننى ، كلا بل لا تكلمون بالقيم الخ »

سبحانك اللهم وبحمدك ، سمعنا كلامك بنم التمس ، وأرنا التاريخ فأنبت هذا التمس أن المسلمين إذا نبذوا التاريخ ظهريا كما هو حاصل الآن فليسوا خيرأمة أخرجت للناس ، لأنهم لا يهتمون بحقائق القرآن إلا بالتاريخ ، إن جيل المسلمين بعدنا خير من جيلنا ، لأن التاريخ والفلسفة والقرآن متعدي في عقولهم ويخرج جيل جديد لم يعلم به أهل الأرض ، ويكون خلفهم بالشورى ، وحكامهم جيما بالشورى ، والمال موزع على مستحقه ، فلا اسراف ولا غل ، ويكون المسلمون كالجسد الواحد .

سينظر بعدنا المسلمون ما كتبناه وكتبه غيرنا ، ويقولون : نحن رأينا الطريقين ، وقرأنا الترسين ، وهدينا النجدين ، فنتهج سلك الخلفاء الراشدين ، ولنجعل الخلافة بالشورى ، ولا نخصص بأمة ما ، ولا نخصص ما ، ولا بقبيلة ما ، وسنجعل الخليفة فينا أقرب في أخلاقه إلى أخلاق عمر ، وأخلاق الخلفاء الراشدين الآخرين ، وإذا مات الخليفة أمّا آخر بالشورى ، ورأينا قوته العقلية والعلمية ، وقوة جيشه ، فأما مراعاة الأنساب ، فهذه تصيب وتخطئ ، وهى ضلال ميين ، اللهم إلا إذا توافرت الشروط وقامت الحجج فإن ذلك لا مانع منه ، والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .

ثم يقولون : إن من قبلنا ظلمهم للملك ، فغشوا بأسهم ، وخافوا بطشهم ، فلم يؤذوهم ، ولم يهذبهم ، فهلك الملك منهم والسوقة أجعون . إن الأمة كلها أشبه بجسم واحد فإذا فسد عضو تداعت له سائر الأعضاء إن الله استحسن أسلافنا بظلم ملوكهم فلما لم يقومهم سلطان عليهم أمّا آخرون ، وقد جعل ذلك درسا لنا فنحن عن أمرائنا مسئولون ، لا نخرط كما فرط آبائنا ، لا ظلم اليوم في بلاد الاسلام ، نحن أصبحنا نفهم آية : « وإذا تصاحفون في النار فيقول الضعفاء الذين استكبروا الخ » وتبين لنا بها أن المحكوم مسئول عن حاكمه

وأن الشورى هي القانون العلم في بلاد الاسلام ، فنحن مسئولون عن سير مملكتنا .

كيف تكون النبوة الحميدة المبينة على الأساس القوى قد ظلت من قبلها عقول راجحة ، وتقوى قوية ، برهنت على أن تلك المقارضاة بالملايك وبالرعية ، فهذا سقراط يقول : « إن الملوك والأمراء والجند اذا ملكوا عقارا أصبحوا ذللا جالعين أكليين ، بدل أن يكونوا كلابا حرسين » ، وكيف جهل القائمون بالامر هذه الحكم النبوية ، فها هو ذا اليوم ظهران العقل وافق الوحي ، فليكن أبناؤنا خيرا من آبائنا ، لأنهم يجمعون بين النقل والعقل فيكون ذلك يقينا عندهم لا مجرد إعلان .

ها هم أولاد خلفاء الاسلام وملايكتهم المتأخرون قد بنوا القصور ، وزخرفوا السور ، ألم ترفعا مرة بك أن هؤلاء الذين بنوا وشيدوا وأسرفوا هم الذين سفلوا وذهب ملكهم ، أنا لست أقول أنا لا نبي . كلا . ولكني أقول زاحي العقل والأحوال ، ولا تكون مسرفين .

فها هي هذه بلاد الحجاز في زماننا ، وبلاد اليمن ، وبلاد نجد ، ليست عندهم حصون كحصوننا في مصر ، ولا زخرف كزخرف بلادنا ، ولا قلاع كقلاعنا ، ولا ثغور كثغور بلادنا ، ولكنهم مستحلون ، ونحن في مصر من الاستقلال محرومون ، ألا ترى أن ذلك مصداق للنبوة ، وأن الاسراف في البنين ، وفي الجوارى والقصور والدور ، والزخرف هو المضاف للأثم ، والمقرب للمعان ، صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم انظر إلى البصرة والكوفة ، هما من المدن الاسلامية التي اختطها العرب لأنفسهم ، وكانوا قبل الاسلام أهل ماشية ونيام وخيل ، يكرهون الأقامة ضمن الأسوار ، وينفرون من الانحصار في المدن ، فلما تأيد الاسلام واجتمع العرب على فتح الأمصار في العراق والشام ومصر ، كانوا في بادئ الرأي اذا ساروا إلى غزو أو فتح اصطحبوا نساءهم وعيالهم ، فإذا فتحوا بلدا أقاموا في ضواحيه بضيائهم وأخيبتهم وهو مسكرهم ، وكان عمرو بن الخطاب يشترط على جنده المقيمين في الأمصار أن لا يقيموا في مكان يحول الماء فيه بينهم وبينه حتى اذا أراد أن يركب راحلته إليهم ركب ، كذلك فعل عمرو بن العاص في القسطنطينية وسعد بن أبي وقاص في الكوفة والبصرة وكانت كلهما مشارب لجند العرب العاتين يهرون عنها إلى إربطة أو إلى السكر ، فإذا طال بهم المقام اختلطوا الأسواق وبنوا المنازل والقصور ، ذلك كان شأنهم في صدر الاسلام فبنوا البصرة والكوفة على هذه الصورة على أنهم ظالما نازعين إلى البسادة بعد تخطيط البصرة لأول عهدنا ، فبنوا مسجدها ودار إمارتها بالقصب ، فكانوا اذا غزوا نزعوا ذلك القصب حزموه وحفظوه حتى يعودوا من الغزو فيعيدوا ببناءها كما كان ، واعتبر ذلك بالكوفة أيضا .

فأقول من عمر البصرة والكوفة القاصون وأهلهم ، ثم اتسعت الفتوح الاسلامية شرقا وغربا ورسخت دولة المسلمين حتى تزح العرب بأهلهم وخينهم إلى قسطنطينية العيش في البلاد العامرة من مملكتهم الجديدة وهم يختارون أقربها إلى البادية بلدهم لتقديم ، فالبصرة والكوفة أوفق البلاد لهم لأنهما على الحدود بين جزيرتهم والشام والعراق . انتهى

اللهم إنك أنت الملمم ، أنت الملمم ، أنت الملمم ، أنت على التوفيق ، وأيدتني ، وشرحت صدرى ، وقد أوعجت للأثم الاسلامية بعدنا هذا المقام أشد إضاح ، فك الحمد والصمة والملك ، وتبارك اسمك ، وتعالى جندك ، وإلا لا غيرك ، وأنت رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، انتهى الكلام على الفصل الأول الخاص بآية « أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها الخ » فلنشرع في الفصل الثاني في الكلام على قوله تعالى « وإذا ذكرنا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف » فأقول مستعينا بالله :

الفصل الثاني في قوله تعالى : واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحطاف

وبيان مساكنهم ، وخريطة بلادهم ، وما أشبه ذلك

لعل الكلام في عاد يحملنا على الرجوع إلى مجموع الأمم العربية في أقدم الأزمنة فنقول : يقال إن سكان وادي النيل القدماء كانوا من الشعوب الحامية نسبة لحلم ، وسكان ما بين النهرين دجلة والفرات كانوا من الشعوب الطورانية . أما الساميون فهم كانوا بين وادي مصر ووادي العراق . ويقال إن الساميين دخلوا مصر في عصور قديمة جدا قبل التاريخ أيام العصر الحديدي ، وهؤلاء الساميون أدخلوا صناعة الحديد بمصر . ثم إن الساميين في الأزمان المتأخرة هجم جماعة منهم على بابل وآخرون على مصر ، فالتين هجموا على بابل ابتداء حكمهم من سنة ٢٤٩٠ ق.م وانتهى سنة ٢٠٨١ ق.م وأول هؤلاء سامواي وسادسهم جوراي المشهور . أما التين هجموا على مصر دولة (الناسو) الهيكسوس من سنة ٢٢٩٤ ق.م إلى سنة ١٧٠٣ ق.م فهؤلاء الناسو أي الرعاة وأخوانهم القبن هجموا على العراق كانت لهم نهضة تشبه النهضة العربية الإسلامية من بعض الوجوه ، وهذه النهضة كما ترى قبل يومنا هذا بنحو أربعة آلاف سنة والتي هيمننا من هاتين العولتين العربيتين للمصرية والبالية أن تنتقل من الكلام عليهما إلى الكلام على عاد التي نحن بسدد الكلام عليهما .

يسبحان لغة : أنا يوما توجهت إلى دار الآثار المصرية التي فيها أسلحة وملابس وحلى قدماء المصريين فكنت أجد الجذب بما أرى ! قلن السيوف والرماح والحلى هي هي بعينها ما نراه اليوم في جزيرة العرب ، ثم اتنا نسمع في القرآن أن هذه الأمم لم أبقية ومصانع ، وأن نمود نحتت من الجبال بيوتا ، وهذه الأعمال بعينها هي التي يعملها قدماء المصريين .

فهل لك أن أقص عليك ما خلطن به المرحوم أحد بك كمال وهو أكبر عالم أشرى في بلادنا المصرية ، بل في بلاد الاسلام . فقال صاحبي : إن حديثه حتم في هذا التفسير ، فأشر إليه اشارة فقط . فقلت : حقا انه قال : انه وجد مكتوبا على حائط البحر البحري في أيام الأسرة الثامنة عشرة مائته : « إن المصريين لما كثروا خرج منهم جاعتان : جاعة إلى بلاد شمال افريقيا ، وجاعة إلى بلاد العرب . وقال لنا معاشر مدرسي اللغة العربية : أنا أرى أن عادا ونمود هم القبن نزحوا إلى بلاد العرب . فقلت أنا والمرحوم حفي بك نامف نحن لانا مع تمنعنا من القول بهذا ، ولقد دهشنا لما أثبت لنا بكتابه أن اللغة المبروغليزية وهي المصرية القديمة عربية دخلها التحريف ، بل هي أوسع من العربية ، وألف كتابا في ذلك ضخما ، وقرأ كثيرا منه لنا .

فهذا كله يؤيد ما قلنا أن الساميين هم القبن نزحوا إلى مصر من قبل التاريخ ، فلنرجع إلى ما نحن بسدده من أمعاد فنقول : إن عمالة العراق لما خرجوا منها ، وعمالة مصر أيضا لما خرجوا منها فتركوا في جزيرة العرب ، وهؤلاء منهم العرب البائدة مثل عاد ونمود وطسم وجديس ، فأما عاد فانها تعرف بأنها (عاد إرم) فإرم اسم لقبيلة ، فيقولون عاد إرم ونمود إرم ، والقبائل البائدة كلها من نسل (إرم) ويعرفون بالأرمان ، ويؤيد ذلك أن اليونانيين ذكروا في جهة قبائل العبن حوالي تاريخ الميلاد قبيلة يكتبونها بلسانهم ADRAMITAI وقد يقادروا إلى القعن أن للراد بها « حضرموت » ولكن هذه يكتبونها باليونانية XADRAMOTITAI وباللاتينية CHATRAMOTITAI وقد أوردوا القنطين معا ، فلو أرادوا قبيلة واحدة لما ذكروها معا ، فلأرجح أن ADRAMITAI يراد بها العادريون أو العاديون .

والعرب يضربون المثل بقدم عاد ويريدون انها أقدم من العمالة ، ولا سبيل إلى تحقيق ذلك لأن ما ذكروه عنها محشو بالباطلات والخرافات كقولهم : إن طول الرجل منهم ٧٠ ذراعا إلى مائة ذراع ، ورأس

أحدهم كاتبة العظيمة ، وعينه تفرخ بها السباع ، ولم يذكروا من ماوكها إلا بضعة أولهم عاد قالوا انه عاش ١٢٠٠ سنة ، وانه تزوج ألف امرأة ، وولد له أربعة آلاف ولد ذكر لسلبه ، واعتدل بعضهم لجمل عمره ٣٠٠ سنة ، ولا تخلو هذه الخرافة من حقيقة ، فالظاهر أن العرب كانوا يسمعون بقدم هذه الأمة ولا يعرفون من ماوكها إلا قرا قليلا ، فجعلوا أعمارهم طويلة لتقع ذلك القدم ، وترتب على طول أعمارهم تعدد الزوجات .

وعثر البقاؤون في آثار بلاد العرب على تنف من بقايا كثير من الفول القديمة ، وعرفوا كثيرا من أحوالهم إلا عادا فانهم لم يروا لها ذكرا . على أن العرب تسودوا إذا رأوا أطلالا قديمة عليها قهوش لا يعرفون صاحبها أن يسموها « عادية » .

وجاء في مجهم ينفوت الجوى بمادة جنس قوله : « جنس إرم جبل عند آبا أحد جيلي طي » ، ألمس الأعلى ، سهل ترطاه الإبل والحبر ، كثير الكلاء ، وفي ذروته مساكن لعاد إرم ، فيه صور منحوتة في الصخر . وقال في مادة صبر : « والصبر جبل بابا في ديار طي » كهوف شبه البيوت ، ولعل بين تلك القهوش وهذه البيوت نسبة ، ففى أن يوفق الرواد إلى كشفها وقراءتها كما قرءوا مثلها في حوران والعلاء ومدائن صالح وتيماء واليمن انتهى . ملخصا من كتاب تاريخ العرب قبل الاسلام

هذا آخر ما عرفه علماء زماننا في التاريخ ، فمثل لك أيها الأخ أن أقص عليك أنباء هجبة ، ذلك أن زماننا هذا تقاربت فيه الأمم ، وامتدت الطرق ، وسهل السفر ، وأنا لا يقنى لي في هذا التفسير أن أكتب من أفواه الرجال ، فبما الواحد لاقعة به ، ولكن جاء صديق من متخريجي الأزهر فأسمعنى كلاما سمعت من كثير غيره ، ولكنى لم أرد أن أكتب عن أحد شيئا ، فقال لي هو انه زار قبر نبي الله هود وسمع بقبر نبي الله صالح في تلك البلاد . فقلت له انظر هذه الخريطة (انظرها بيمينه الصفحة) وقد كان أهداها لي بعض الفضلاء من بيت السقايف المشهور ، فلما نظرها ورأى مكان قبر هود . قال : هذه الخريطة حق . ولقد رأيت في قبر نبي الله هود قهوشا يعنى رأسى لا أعرف أنا ولا غيرى منها شيئا ، فذا رحل بعض علماء الآثار إلى تلك البلاد والوصول إليها سهل ، فان ذلك يفتح بابا للعلم واسعا ، ففى أن يقوم أرباب العلم بهذا ليرفضوا النقاب عن وجه التاريخ اه

فانظر إلى الجبب الهباب ! وكيف ترى قبر هود عليه السلام في ولد قريب من قبر صالح عليه السلام ، وانظر كيف ترى وادى المسيلة الذى فيه قبر هود متصلا بواضى سرانى فيه قبر صالح ، وكيف نسمع أنهم في تلك البلاد يشتون الرجال لزيارة قبرى النبيين كما يزور أهل بلادنا قبر السيد أحمد البدوى رضى الله تعالى عنه



هذه هي الخريطة التي رسمها أهل البلاد بأنفسهم ، وهم أعلم ببلادهم ، وليس بسبب أن نسع في التاريخ أن مما كان سببا في تقي العلامة « ابن رشد » أنه لما سمع أحد جلسائه يقول : هذه ربيع مصر ثانية ، كلفني أهليكت عادا قال على الفور ، وهل ثبتت قبيلة عاد حتى ثبت هلاكها بالربيع . أقول ليس هذا بسبب ؟ لأن للواصله كانت عسيرة جدا ، وإذا صح ما في هذه الخريطة فإنه يؤيد الرأي القائل : إن نمود كانت في الجهة التي فيها عاد على هذا تكون مدائن صالح من البلاد التي كانت تدخل تحت حكمهم

هذا وإنا نحمد الله عز وجل إذ هيا اليوم للسلمين أسباب الرقي ، ومن ذلك أن راسم هذه الخريطة « السيد أحمد بن عبد الله السقايف » قد أخذته الحمية الشريفة والنخوة العربية ، وأعف أن نكون تابعين للأمم ، فرسم هذه الخريطة وجعلها موافقة لواقع بشهادة أهل البلاد .

ألهم ألم الشبان أن يندروا ذلك للنوم الصيق الذي وقع فيه أسلافنا للتأخرون ، وأن يذلوا الجهد ، ويقوموا بنصيبهم من العمل

إن الله عز وجل كما فرق للنافع على الأرض فرق للواهب على أفراد نوع الانسان ، ولن يعطي الأمم ما في أرضها من منافعها ، ولا ما في هوائها ومائها من عجائب إلا إذا برزت كنوز عقول أبناء البلاد جميعا ، وهذه الكنوز لن نعتز عليها إلا بالتعليم ، والتعليم هو الذي يفتح لكل عقل نوع اللواهب التي كننت فيه وهذه اللواهب المختلفة موازية للمنافع المختلفة في أنواع الأرض وللماء والهواء والله هو الولي الحميد .

تذكرة

إن صديقنا الأستاذ الشيخ محمد منصور أحد علماء شين القناطر هو الذى أشرته آقا ، وانه زار قبر هود عليه السلام ، ولم يكن وردى منتهى خطاب فى هذا المعنى ، ولما كتبت ما تقدم ورد خطابه وقد جاء فيه بعد الصلاة مافيه بالحرف الواحد :

« وأما مسألة سيدنا هود وسيدنا صالح عليهما الصلاة والسلام فهناك حديثهما : « فى اليوم الثامن عشر من شهر جمادى الثانية سنة ١٣٤٥ هجرية خرجت بصحبة فقيد الشرق والاسلام السيد محمد بن عقيل الحضرمى وابن عمه السيد أحمد ابن عمر السرى الشهير لإدارة التعليم بحضرموت ، وهى بلاد الأحقاف الوارد ذكرها فى القرآن الكريم ، وقدمنا إليها فى اليوم السادس من شهر شعبان لتلك السنة المذكورة ، وحينما وصلنا إليها وجدنا البلاد فى هياج وحركة غير عادية ، ونظرا لأنى غريب عن البلاد رأيت عدم الاسراع بالسؤال عن سبب هذه الحركة ، ولم أبت إلا يسيرا حتى حضر عندى فى الجناح المصعد لسكرتارى من سراى أحمد بن عمر الفخمة السيد أحمد بن عمر نفسه ، وعرض على التوجه لزيارة قبر سيدنا هود عليه السلام ، فعلت حينئذ السر فى هذه الحركة ، وباستمرار حديثى مع حضرة السيد تبين لى أن البلاد من أقصاها إلى أقصاها تتوجه إلى شعب هود عليه السلام فى اليوم العاشر من شهر شعبان كل سنة لأداء هذه الزيارة ، واليلة الختامية لهذه الزيارة هى ليلة النصف من شهر شعبان ، ولهم هناك مراسيم اعتادها السادة العلويون بحضرموت ، وهناك قبر هود عليه السلام صخرة عظيمة جدا يسمونها الناقة ، وفى صباح ليلة النصف من شعبان يبكرون فاطمين إلى بلادهم ، واعتقاد أن هذا قبر هود عليه السلام متوارى عن سكان البلاد قبل الاسلام ، وكذا هناك قبر سيدنا صالح عليه السلام ، وهو مشهور شهرة قبر هود ، غير أن اعتناء أهالى البلاد بزيارة سيدنا صالح أقل من اعتنائها بزيارة هود .

هذا ما يتعلق بوجود هذين القبرين ببلاد حضرموت التى هى بلاد الأحقاف ، إلى رأيت ما تقدم يعينى رأسى وشاهدته مع مئات الآلاف من أهالى البلاد ، ولذا كان هناك شك فى أن بلاد العرب بلدة تسمى « مكة » توارث الناس عليها جيلا بعد جيل جاهلية واسلاما ، فليصح أن يوجد من يشك فى أن بلاد الأحقاف التى هى حضرموت قبرى هود وصالح عليهما الصلاة والسلام ،

محمد منصور

نحريرا فى ٢٧ أغسطس سنة ١٩٣١ م

تم تفسير سورة الأحقاف

تفسير سورة محمد صلى الله عليه وسلم

(هي مدنية)

الإية : وكأين من قربة هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكتناهم فلا ناصر لهم
نزلت في الطريق أثناء الهجرة

آياتها ٣٨ - نزلت بعد الحديد

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَصْلًا أَمْهَلَهُمْ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَامْتَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ * ذَلِكَ
بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ
لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ * فَلَمَّا لَقِيتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضْرَبَ الرَّعَابِ حَتَّى إِذَا أَخْتَمْتُوهُمْ فَشَدُّوا
الْوَتَاكُ فَلَمَّا مَتَّأ بَعْدُ وَإِنَّمَا فَدَكَ حَتَّى تَفْصَحَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَصَّرَ مِنْهُمْ
وَلَكِنْ لِيُنْزِلُوا بِنَفْسِكُمْ يَبْغِضُ وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَمْهَلَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ
وَيُصْلِحَ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَآهُمْ * بِأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ
يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَنْسَأْهُمْ وَأَصْلًا أَمْهَلَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَرَهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَخْبَطَ أَمْهَلَهُمْ * أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا
وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ * إِنَّ اللَّهَ يَدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي
 مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَطْوًى
لَهُمْ * وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرِيبَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرِيبِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكَنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ
لَهُمْ * أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَدَنِي مِنْ رَبِّهِ كَتَمَ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ * مَثَلُ
الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ
 مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ

رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَلَهُ جَمِيعًا فَقَطَّعَ أَمْعَاهُمْ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَسْجِعُ إِلَيْكَ
 حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ بَاقِئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ
 عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ * وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَكَفَّلَهُمْ تَقْوَاهُمْ * فَهُمْ
 يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ *
 قَاعِلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرَ لِلذَّنْبِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمْ
 وَتَوَاتُكُمْ * وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَلَمَّا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ
 فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ فَظَرُّ الْمُنْعَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ
 لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَلَمَّا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ * فَهُمْ
 عَصَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطُّعُوا أَرْعَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ
 فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ * أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا * إِنَّ الَّذِينَ
 ارْتَدَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ * ذَلِكَ
 بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ *
 فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا
 مَا أَسْبَغَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ * أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ
 يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْنَافَهُمْ * وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَمَرَقْتَهُمْ بِسِيَاحِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ
 يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ * وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ *
 إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَنْ
 يَصُرُوا اللَّهُ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالُهُمْ * يٰ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا
 تُبْطَلُوا أَعْمَالَكُمْ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ
 اللَّهُ لَهُمْ * فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرُكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ *
 إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَقَدْ وَدَّعْنَاكُمْ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْكُرُونَ وَلَا يَسْتَلْكُمْ
 أَمْوَالُكُمْ * إِنْ يَسْأَلْكُمْ عَنْهَا فَيَحْضِكُمْ تَبَخَّلُوا وَبَخَّلُوا وَبَخَّلُوا * هَآ أَنتُمْ هَؤُلَاءِ

تَذَعُونَ لِنُفِقُوا فِي جَنَّةٍ اللَّهُ فَنُكَلِّمُ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يَشَاءُ فَلَنُفِقَنَّ عَنْ نَفْسِهِ وَأَنَّهُ
الْفَنَى وَأَنَّهُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ *

هذه السورة قسبان

(القسم الأول) في تفسير البسملة .

(القسم الثاني) في تفسير السورة كلها .

القسم الأول في تفسير البسملة

كتب قيل بجريوم الاثنين وفي صباح يوم الثلاثاء ٢٣ و ٢٤ مارس سنة ١٩٣٩ م
قيل بجريوم الثلاثاء بنحو ساعتين استيقظت وأنا أفكر في البسملة في أول سورة محمد ﷺ وأقول
في نفسي : إن هذه السورة تحت بسملة إلى سورة التوبة ، فكلاهما فيها القتال ، وإذا كانت التوبة تركت فيها
البسملة فهذه أقرب منها ، فترك فيها البسملة ، وهذه فيها أكثر من عشرين آية خواها الغضب لا الرحمة
(١) على الكافرين الصادقين عن سبيل الله حكم عليهم بالنزال .

(٢) الناجين الباطل .

(٣) وقد أمر المؤمنون بضرب أعناقهم إذا قوام .

(٤) وهكذا حكم الله عليهم بالنص وضلال الأعمال .

(٥) ووصفهم بكرهية الدين المحبطة للأعمال .

(٦) وذكروهم بهلاك من قبلهم .

(٧) وتبرأ من موالاتهم .

(٨) وجعلهم في مرتبة الأنعام ، ونهايتهم جهنم .

(٩) وهم لا نصير لهم من عذاب الله .

(١٠) وهم قد طبع الله على قلوبهم .

(١١) وهندهم يوم القيامة وعذاب النار .

(١٢) وحكم عليهم بالعنة والسسم واللعن .

(١٣) وأن قلوبهم عليها أقفلها .

(١٤) وأنهم تابعون للشيطان .

(١٥) وهم خائفون يوالون الأعداء .

(١٦) وإذا ماتوا ضرب للملائكة وجوههم وأدبارهم .

(١٧) لأنهم يكرهون رضوان الله ويقعون ما أسخطه .

(١٨) وهكذا وصف قلوبهم بالمرض .

(١٩) وأعمالهم تحبط .

(٢٠) وإذا ماتوا فلا غفرة لهم .

وهكذا ، فهذه السورة مع قلة آياتها ، شحوة بالغضب ، فأين الرحمة فيها حتى تبدأ بالبسملة ؟

وبينا أنا أفكر في هذه المعاني إذ خيل إلى أني خارج القاهرة في جو فسيح والسموات مهبّ وكأني بناموسين تسلكمان كما يسلك الناس فيما بينهم ، واحدى الناموسين اسمها « ياسا » والثانية اسمها « ساسا »

ذكرى أليم الصبا في الحقل

وكيف كنت أتهم أصوات الناموس إذ ذاك

ولما أخذنا تسلكمان لم أكن لأميز كلامهما ، ولأفهم خطبهما ، ولكن في أثناء ذلك تذكرت ما اتفق لي وأنا طفل ، إذ كنت أذهب مع والدي إلى الحقل وفيه الفترة ليلا ، وأسمع أصوات الناموس ، وكان يخيل إلى إذ ذاك معان غامضة محزنة ، ملخصها أن هذه الدنيا غامضة لا يفهمها عقل ، ولا أدري أسرارها ، ولا محباتها ، ولا أعرف لها آخر ، وهذه المعاني كانت تخطري فعلا من امتداد أصوات الناموس وهو امتداد محزن في تلك الظلمات ، فهذا الامتداد الذي لا آخر له مع كونه عزوا غير شارب للصود كان يحدث في قلبي حزنا ، وهذا الحزن ينصرف إلى أني أجهل آخر هذا العالم وأسراره .

خواطر في أصوات الناموس الآن

فلما تذكرت ما جال بخاطري أليم الصبا عند سماع أصوات الناموس قلت في نفسي : عسى أن يكون ما أقفل على في الصبا عند سماع أصوات هذا الناموس يفتح على الآن ، ولا جرم أن الله علم أحد ابني آدم بما بث له غوايا يبحث في الأرض ليريه كيف يدفن أثناءه ، فقام هذا الخاطر لي حتى سمعت (ياسا) تقول لساسا بلسان فصيح واضح : فلنعم هذا الشيخ حتى يكون لنا ثواب ما فعله :

تفسير آية : وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض بنير ما فمرت به سابقا

قالت ساسا : وهل أنت دابة الأرض التي يرسلها الله للناس إذا وقع القول عليهم فكلهم أن الناس كانوا لا يؤمنون بآيات الله . قالت ياسا : أنكرين على رأي وتسخرين مني ، فلا تكن أنا ومثلي من دواب الأرض معلمات لهذا الشيخ ، وليكن هو ناقلا عنا ، ولتضع الحقائق الآن لأولي الألباب ، أنظنين أن الكتب السماوية يكتفي فيها بظواهر ألفاظها ، هل فهمت معنى قوله تعالى : « نكلهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون » وكيف يكون الايقان ؟ وأى إيقان يأتي من أجل دابة تسلك وتكتب على وجه الكافر كافر وعلى وجه المؤمن مؤمن ، أليست هذه من خوارق العادات ، أولم يتذكر المسلمون قصة سحرة فرعون إذ سجدوا لما عرفوا علما لموسى فوق علم السحر فأبطله ، فأما بنو إسرائيل فان خوارق العادات التي ظهرت على يد موسى كفروا بها لما رأوا جمل السامري ، وهل ذكرت هذه القصة في القرآن إلا لأجل أن يفهم المسلمون (الذين منهم هذا الشيخ الذي نحن نعلمه الآن وهو بشره لهم) آية : « وما ننمنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ، وآتيناهم ثمود الناقة مبصرة فظلموها وما رسل بالآيات إلا تخوفا » .

فلذا كانت ناقة ثمود وأمثالها لا ترسل إلا تخوفا ، وإذا كان آخر الأنيب قبل له : « أولم يكفهم أما أرسلنا عليك الكتاب بتي عليهم إن في ذلك لرجة وذكرى لقوم يؤمنون » ، فهل بعد هذا كله تظنين أن اليقين الذي عبرت الدابة الناس بعدم اتصافهم به يأتي لهم بمجرد نطقها ؟ وهل هي إلا من خوارق العادات المرسلات للتخويف ؟ وهل يكون اليقين إلا بالثقل الذي يفهم من آية : « وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون » ، فدراة عجائب كل دابة مبثوثة في الأرض هي التي بها يكون اليقين ، أما نطق دابة مثلي ومثلك أمام هذا الشيخ وأمام جوع الناس في محوهم (لا في الخلال البرزخية كما هي الحال الآن مع هذا

الشيخ فان هذه ليست من الحجاب فليست تورث اليقين بل تكون آية يؤمن بها الناس ، ولا يقين إلا بالتأمل والفهم ، وعليه تكون الآية لها ظاهرها ورمزها ، فهي كناية ، والكناية لفظ أطلق وأريد به لازم معناه ، فظاهرها أن دابة تنطق في آخر الزمان ، وهذا الظاهر لا غبار عليه ولا إنكار له ، وإلطنها هو الحقيقة وهو الوقوف على أسرار التكوين لاسيا في عالم الحيوان والانسان للشارايه في أكترايات القرآن وفي السجود إذ يقول المصلي : « سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره الخ » ، فدراسة هذه الحجاب في جسم الانسان والحيوان هي التي تورث اليقين ، وهذا معنى « واسجد واقترب » بخلاف ذكر الركوع فليس فيه إلا خشوع السمع والبصر والمخ ، وليس فيه للتعرض لخلق هذه الأعضاء ، فلما ركع عابد ، والساجد مفكر موقن إذا أدرك وعلم ما يقوله ، وهذا هو الذي قوله دابة الأرض « ان الناس كانوا بأيتنا لا يوقنون » وهذا نظير قول نصيب بلعج عبد العزيز :

لعبد العزيز على قومه * وفيهم نعم غلمه
فيا بك أرحب أبراهيم * ودارك مأهولة عاصمه

إلى أن قال :

وكذلك أنس بالزائر * من من الأم بالابنة الزائرة

فهنا منح نصيب عبد العزيز بأن كلبه أكثر إنسانا يرى عبد العزيز من إنسان الأم بابتها التي هي أحب الناس إليها حين تزورها ، وهذا المعنى ليس مقصودا لأنه لا قيمة له ، ولكن القيمة راجعة لما يلزمه ، وذلك انه يلزم من ذلك أن الكلب الذي اعتاد أن ينبج كل طارق قد اعتاد الزائر ين فكف عن النباح ، بل زاد على ذلك أنه أنس بهم ، ومقتضى ذلك كله الوصف بالكرم ، إذن المعنى الظاهري غير مقصود والمعنى للكناية هو المقصود ، وهذا نجده في جميع الكنايات ، فليكن هكذا في القرآن وهو أوضح من كلام العرب ، فيقال إن وجود دابة في آخر الزمان تكلم الناس لآمانع منه كما لآمانع يمنع من وجود كلب لعبد العزيز يأنس بالزائر ، ولكن المعنى المقصود ليس وجود الدابة كما أن المعنى المقصود في كلام نصيب ليس وجود الكلب الذي يأنس بالزائر ، بل المقصود أن يكون هناك يقين للناس بدراسة العلوم العقلية (كما كان المقصود في كلام نصيب الوصف بالكرم) ومن أهمها علم كل دابة في الأرض ودراستها ، فهذه هي التي تشد إليها الرجال .

فلما سمعت هذا القول وأنا مغشى على عيني هبت كل الهب ، ولم أجد حجة أرد بها هذا الكلام عن نفسي لأني إذا قلت من أنكر الدابة ربما فسق أو كفر يكون الجواب لا إنكار بل الباب مفتوح لها ولآمانع من كلامها : وإن قلت نكتني بنطق الدابة في آخر الزمان وتؤمن بذلك ونسكت أبعد أن ذكر الايقان في الآية بمعنى من ذلك ، ولكنني قلت في نفسي ان هذه المحاورة الجهمية ترد على أنا لأنني ذكرت في كتاب الأرواح (وذكرت نظيره عند تفسير هذه الآية في سورة السجدة) أن هذه الآية تشير إلى علم الأرواح ، وجعلت ذلك مجازا وأنشرح صدرى لذلك ، فان الأرواح الآن قد خاطبت الناس ، فهي أشبه بدابة ظهرت من الأرض كملت الناس ، وأهلت هناك في هذا المعنى . فهذا الذي قاله التلموسان الآن يغاير ما كتبت سابقا ، وهذا والله أحق بالقرآن مما كتبت في تفسير الآية هناك ، فما كنت أتم هذا الخطر حتى سمعت ساسا تقول لباسا أنظنين أن هذا الشيخ يأنس بكلامك كما أنس كلب عبد العزيز بالزائر . فقالت : نعم يأنس به ويسره . فقالت : انه فسر الآية بغير ذلك . فقالت : « وفوق كل ذي علم عليم » ، ففي هذه الليلة جاء له فتوح أكمل ونفسه قبل الفتوح ، وهل العلم أكثر ؟ فقالت ساسا لباسا : ماذا تقولين فيما يروى أن الدابة تكتب على

وجه الكافر كافر وعلى وجه المؤمن مؤمن (أو كما روى) . قالت إيسا : هذا أمر اليوم ظاهر ، إن هذا الزمان قد ظهرت فيه هذه البواهر ، إن الذين يدرسون هذه العلوم قسبان : قسم يدرسونها بدمعة الحقائق وعنده ذكاء ، فهؤلاء يصلون لليقين . والقسم الآخر يدرسونها لأجل نيل الشهادة حسب ويكتفى بالظواهر ، ولما كانت الأم اليوم تمتنع الحزبية ظهر انقسام الأول أمام الثاني بأنه موقن مصدق بمقله ، والقسم الآخر منكرو لأنه لم يصل للحقائق ، والقسبان الآن يظهران مافى قفوسهما أمام الناس ، فالأول قد كتب على وجهه مؤمن ، والثاني قد كتب عليه كافر ، وهذه الكتابة كتابة واضحة معنوية بحيث إن الرجل اليوم يجلس مع كثير من متعلمي هذه العلوم فيجدهم لا يمتثلون لها قبيحة إلا الشهادة التي أخذوها من المدارس ، والذي أوقعهم في ذلك الدراسة الظاهرة ، لأنها توجب الشك ، وإذا جلس مع من تعمقوا في الدراسة يجدهم مرتين والسبب هو قس علم الطبيعة ، وأهمها الهواء ، وهذا هو قوله تعالى : « يصل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يصل به إلا الفاسقين » ، فإذا كان القرآن يصل به كثيرا ويهدى به كثيرا وهو كلام الله فهكذا فعل الله وهو الطبيعة بها الضلال لقوم والهدى لآخرين ، وظهور الضلال والهدى للناس اليوم أوضح من الكتابة على الوجوه . قالت ساسا إيسا : ما الذي تأمر به هذا الشيخ حتى يقوم من مجلسنا هذا بقيادة تلمذة في معنى الرحمة الصالحة في بسم الله الرحمن الرحيم ، لأنه إلى الآن لم يصل للمقصود ، ذلك لأنه يفكر في معنى الرحمة ويريد تطبيقها على مافى السورة من اقتال والكنزالخ .

وهذه المقدمات كلها توجبها أمر واحد وهو أن كلام الهواء أمثالتنا لبني آدم ليس المقصود منه إلا معرفة الحقائق ، ولكن أين هي الحقائق التي يأخذها الناس منا على يد هذا الشيخ للمائل أمامنا . قالت إيسا : أولا ليبن هل الموت عدل ؟ ثانيا ليدرس أمثالتنا من الحشرات ، ثالثا ليفكر في تراكم القاذورات في المائدة وفي الأخلاق ، ثم قلنا ما : نودعك الله وطيرنا ، فما كادنا تطيران حتى زالت غشيتي ورجعت إلى حسي ، ومن عجب أن هذه كلها لم تتجاوز ٢٠ ثانية . وهنا رأيت قضي مغمورة في النور ، مبهجة ، منشرة ، ونجحت لي معان كانت مخبوءة مظنة على عقلي ، وكأن هذه الجلبة التي نطقت بها (إيسا) كشفت الغطاء عن عقلي ، وأحسست بتجليات لم أأل نظيرها فيها سبق .

فلأوضح ما خطرت لي الآن في (ثلاثة فصول : الفصل الأول) في بيان هل الموت عدل ؟ (الفصل الثاني) في دراسة بعض الحشرات (الفصل الثالث) في دراسة تراكم القاذورات المادية التي يسببها تخلف الحشرات الصارث بالإنسان ، وفي تراكم القاذورات الخلقية كقوة الضعية في الإنسان التي يصعها تصبح شجى في خلق الإنسانية وضرا كالحقد والحسد اللذين بهما يكون القتل والقتل بالنفوس الإنسانية بالحرب كفتك الحشرات بها بأنواع الحى والطاعون الخ .

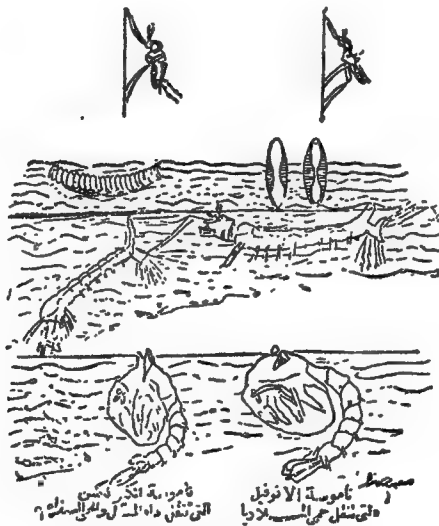
الفصل الأول في بيان « هل الموت عدل ؟ »

لقد ثبت في الحكمة أن الموت رحمة وعدل ، والدليل على ذلك أن الناس إذا ولعوا شوا على الأرض آلاف آلاف السنين هم ودوابهم ونباتهم غن ابن يأكلون ؟ وإذا أكلوا الموجود فأين خلود الحى ؟ وإذا أجزأ أن يخل نظام الملك فيخلد الإنسان ، فأما الحيوان والنبات فيكونان كما نراهما اليوم ، فهل تسع الأرض بنى آدم ألف سنة قط فضلا عن آلاف الآلاف ، وذلك كله فضلا عن الخلود لومح للأحياء لكان ذلك بخلا في الطبيعة وقصورا لأن تعاقب الأجيال في الحياة أكثر كرها ورحمة مما لو كان جبل واحد باقيا إلى الأبد ، إذن الموت عدل ورحمة ، والخلود في الأرض جور يصعبه قلة الرحمة . انتهى الفصل الأول .

الفصل الثاني في دراسة بعض الحشرات

كما خلق الله الماء في الأرض لحياة الحيوان وهكذا النبات وغيرهما خلق النضب في نحو الانسان ليدافع به من يهلكه ، فهو إذن للمحافظة عليه ، فأما الماء والنبات فلهما خلقا ليعيش بهما الحيوان ، وهذا الخلق الانساني اذا انحرف عن الجادة كما نراه في العرب الجاهلية الأولى بأن يكون لاضابطه فانه يكون سببا في التفرق والانحلال وتكون هذه القوة سببا في إهلاك الأمم بدل أن تكون للمحافظة عليها ، فهذا أشبه بتعفن المواد الأرضية ، فتسكون القاذورات والمزابل والأوساخ ، فيخلق في كل ذلك حشرات تصكون في تلك القاذورات وفي البرك والمستنقعات ، وهذه الحشرات توجب الهلاك والموت للزواج ، وهذا واضح فيما تقدم في هذا التفسير ، فهنا حشرات تعيش على القاذورات أصبحت سبب إعدام الحيوان بعد أن كانت نفس المادة عند اعتدالها سبب الحياة ، كما أن الأخلاق السبعة للتعرفه عن الجادة بالطمع والجحد والحسد أصبحت سبب هلاك الأمم وذهاب العمران . ومن أمثلة الحشرات الناموس والبراغيث (انظر شكل ٤١ وشكل ٤٢)

الكلام على الناموس



شكل ٤١ - شكل يبين حياة الناموس في أطوارها المختلفة

تاريخ حياة البعوضة « الناموسة » (١)

تضع الأنثى بيضها فوق سطح الماء الراكدة كالبرك والآبار ، والأودية التي تحتوى على مياه لا تتغير ، وبعد يومين أو ثلاثة أيام تفقس هذه البويضة علفة (دودة صغيرة) تعيش مدة أسبوع على الأقل في الماء ثم يتغير شكلها جلة مرت إلى أن تصبح (شرقة) وأخيرا تخرج منها البعوضة (الناموسة) . وتكفي مدة ثمانية أو عشرة أيام في جوارحها كجوارح القطر المصري من تلويح وضع البويضة لتكوين بعوضة (ناموسة) كاملة . والناموسة تبيض جلة مرات مدة حياتها ، وفي كل مرة تضع مئات من البويضات ، وزد على ذلك أن الأنثى تبيض بعد تمام تكوينها بعشرة أيام فقط ، فتصور العدد الهائل لدرجة ناموسة واحدة ، خصوصا إذا علمت أن الناموسة تعيش عدة شهور .



(شكل ٤٢)

الأمراض التي تنقلها البعوضة (الناموسة)

الملاريا ، حمى التيف ، داء النيل ، الحمى الصفراء ، كيفية قتل العدوى عند ما تلدغ الناموسة شخصا مصابا بأحد هذه الأمراض تمتص جزءا من دمه ومنه جرثومة المرض التي يتم نموها في جسمها ، فكل شخص تلدغه بعد ذلك تلتصقه ببعض هذه الجرثومات فيصاب بالمرض ، فهي بذلك تنقل المرض من شخص واحد إلى عدة أشخاص ، وجميع هذه الأمراض الخطيرة لا تنقل إلا بواسطة أنواع من الناموس ، وهناك أنواع متعددة من الناموس تنقل الأمراض المختلفة .

(١) هذه الحشرات اسمها الناموس وبصلحة الصحة التي نقلنا عنها هذا الموضوع كله تسميها بعوض وهو خطأ

كيف تتق شرّ البعوض (الناموس)

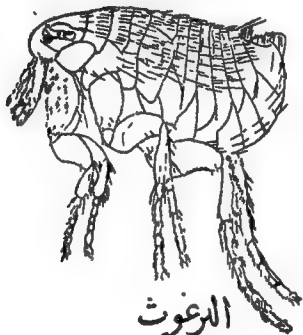
إذا وجدت في جهة يكثر فيها الناموس فاتبع النصائح الآتية :

- (١) أبذل كل الجهد في عدم تمكين الناموس من الدخول في منزلك بتغطية جميع النوافذ والشبابيك بسلك أوقاش رفيع .
- (٢) من الضروري أن تنام داخل ناموسية مع وضع أطراف الناموسية تحت الفراش بإحكام .
- (٣) وجه كل عنابتك لاعدام جميع الناموس الذي يدخل منزلك .
- (٤) لا تترك مياهها راكدة في براميل ، أوازيل ، أوفى أواني أخرى دون تغييرها مرتين على الأقل كل أسبوع .
- (٥) إذا لم يمكنك حفظ نفسك من لدغ الناموس فمن الضروري لوقايتك من الإصابة بالملاريا أن تأخذ حبوب الكينين قبل الغروب وبالليل حسب إرشاد الطبيب .

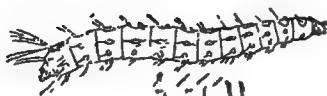
ماذا تفعل لو أصبت بالملاريا

- (١) إذا أصبت بشفيرة ، أوحى ، فاعرض نفسك على الطبيب في الحال .
- (٢) وبعد شفائك من الحمى يجب أن تستمر على تعاطي الكينين لمدة ثلاثة أشهر على الأقل بالمقادير التي يقررها الطبيب .
- (٣) اتبع الارشادات المذكورة سابقا لكيلا تمكن الناموس من نقل العدوى للآخرين .

الكلام على البرغوث



البرغوث



العنقة

(شكل ٤٢)

البرغوث

يختلف البرغوث عن بقية الحشرات الطفيلية كالبق والقمل بأنه منبسط من الجنب ، وهو على عدة أنواع بعضها يعيش على دم الحيوانات ذوات الثدي ، والبعض الآخر على دم الطيور .

تاريخ حياته

بيض الأتي بريشات صغيرة يغاوية الشكل وتقس في مدة من يومين إلى عشرة أيام علقه (دودة صغيرة) يضاء اللون ومغطاة بشعر قصير يساعدها على الحركة ، وتعيش هذه العلقه في القاذورات على المواد الضوية الموجودة بها ، و بعد مدة تنسج هذه العلقه شرقة حولها وتتغير إلى برقة ، ومن البرقة تتكون الحشرة الناضجة . وتمتلك هذه الحشرة معدنكو يناد داخل الشرقة مدة طويلة حتى تشعر بحركة حولها فتقفز من شرقتها .

طباع البرغوث

يعد البرغوث صعوبة في المشي على الأسطح اللساء ، ولذلك يتحرك عليها بالقفز ، ومن طباعه أنه يكره ضوء الشمس ، ويضل العيشة في الأجزاء المظلمة ، وله قدرة عظيمة على القفز ، وقد شوهد يقفز إلى مسافة ١٨ سنتيمترا ، ولو كانت للانسان هذه القدرة بالنسبة لجسمه لأمكن لشخص طوله ١٨٠ سنتيمترا أن يقفز ٢٧٤ مترا تقريبا . ويختلف البرغوث في معيشته باختلاف أنواعه ، فالبعض لا يعيش إلا على نوع واحد من الحيوانات ، وبعضها ينتقل من حيوان إلى آخر ، والبعض لا يترك الحيوان الذي يعيش عليه ، والبعض الآخر لا يلتصق بالحيوان إلا عند حاجته إلى غذاء .

البرغوث والأمراض

البرغوث ينقل الطاعون بواسطة لدغته ، وقد وجد أخيرا أن طريقة نقله لهذا المرض هي كالآتي :

(١) عند ما يبلغ البرغوث شخصا مصابا بالطاعون يمتص جزءا من دمه ومنه ميكروبات هذا المرض فتتم هذه الميكروبات وتتكاثر في معدة البرغوث ، ويفسد طرفها الهوي ، فإذا مالغ البرغوث شخصا سليما قايأ جزءا مما في معدته وبه الميكروبات داخل جسم الشخص فيصاب بالمرض .

(٢) فضلا عن ذلك فإن الميكروبات التي في أمعاء البرغوث يخرج بعضها في إفرازه ، فعند حك الجلد وقت لدغته يتسبب الشخص في تلقيح نفسه بواسطة هذه الإفرازات .

ومعلوم أن الطاعون من أشد الأمراض خطرا وقتكا بالناس ، وهو على ثلاثة أنواع : —

(١) الطاعون الدملي .

(٢) الطاعون التسمي .

(٣) الطاعون الرئوي .

وأعراض هذا المرض ارتفاع شديد في درجة الحرارة تصعبه آلام في الرأس والأطراف وإسهال شديد للرئوي ، وتقرعينا للرئوي ، ويضط لسانه بلبقة بيضاء ، ثم تجف هذه الطبقة وتصبح قاتمة اللون ، وكذلك تتكون هذه الطبقة على الأسنان والشفتين والأنف ، ويزداد ضعف المريض في أيام قلائل ، وقد ينتهي للمرض بموته غالبا بين اليوم الثالث والخامس من ابتداءه . وفي ثلاثة أرباع الحالات تظهر أعراض المرض بتضخم في إحدى الضد كالنمد الموجودة بين الفخذ والبطن من الأمام ، أو الرقبة ، أو تحت الإبطين ، وهذا النوع يسمى بالطاعون الدملي .

أما في الطاعون التسمي فلا يظهر هذا التضخم في القدد ، وقد ينتهي الطاعون الحملي أو التسمي بإصابة الرئة بـميكروب الطاعون فينشأ عن ذلك الطاعون الرئوي ، وهذا النوع الأخير شديد الخطر جدا ، ولا ينجو منه أحد قريبا متى أصيب به ، وهو ينتقل من شخص إلى آخر مباشرة بواسطة الرذاذ الذي يتطاير في الهواء متى سعل المصاب أو بسق ، وتري في الجول التالى بعض إحصاءات عن إصابات الطاعون في ست السنوات الأخيرة :

السنة	عدد الاصابات	عدد الوفيات	نسبة الوفيات إلى الاصابات في المائة
١٩٢٢	٤٨٧	٢٢٨	٤٧
١٩٢٣	١٥١٩	٧٢٥	٤٩
١٩٢٤	٣٧٣	١٩٣	٥٢
١٩٢٥	١٣٨	٧٧	٥٤
١٩٢٦	١٥٤	٧٣	٤٩
١٩٢٧	٧٨	٣٥	٤٤

ومن هذا البيان يتضح أن متوسط نسبة الوفيات إلى الاصابات في السنوات المذكورة هي ٤٩ في المائة أي ان عدد الوفيات كان نصف عدد الاصابات قريبا ، وهذه نسبة عالية جدا تشهد بخطورة هذا المرض وشدة فشكه .

طرق إبادة البرغوث

- (١) حافظ على النظافة التامة في المنزل بكنسه وغسل أرضيته جيدا فان برشات البرغوث توضع وتختفى في القاذورات وتعيش عليها .
 - (٢) سد جميع الشقوق الموجودة في أرضية الغرف ، فان سقوط القاذورات فيها يجعلها بؤرة يتوالد فيها البرغوث .
 - (٣) احترس من وجود الحيوانات الأليفة كالكلاب والقطط داخل المنزل ، فانها تحمل البرغوث ، وإذا كان لابد من وجودها فيجب تنظيفها جيدا على السوام وورش على جسمها مسحوق النفتالين بكثرة .
 - (٤) اعمل على إبادة الفئران لأنها تنقل إليك البرغوث .
 - (٥) لا تجعل بمنزلك أوبجوارك محلات لتربية الطيور ، أو اصطبلات ، لأن البرغوث يتوالد فيها بكثرة .
 - (٦) ضع كمية من مسحوق النفتالين داخل دواليب الملابس .
 - (٧) لا تضع سريرك ملامقا للعائط ، ولا تترك النطاط يتدلى إلى الأرض ، ولدهن أرجل السرير زيت اليوكايتوس ، وورش مقدارا منه أيضا بين المراتب .
 - (٨) اعمل على إبادة البرغوث برش المزيج الآتي في الأماكن التي يكثر بها بعد كنسها :
١٠٠ مقدار من زيت البترول (الفازلين)
١٥ مقدار من الماء .
٣ مقادير من الصابون السائل .
- ويحضّر هذا المزيج بطريقة مخصوصة ، ويمكن طلبه جاهزا من مصلحة الصحة . وبهذا تم الكلام على الفصل الثاني في دراسة حشرى التاموس والبرغوث والجدد رب العالين .

الفصل الثالث

في تراكم القاذورات المادية والخلقية

وهذا الفصل هو التصود

اعلم أيها النكس أن في عالم الانسان قوة غشبية تقدم شرحها ، وهي لم تخلق فيه إلا ليعاقل بها على حياته وكيانه وشرفه ، فلذا حاد عن الصراط استعملها في الاضرار بغيره ، ومن أعجب العجب أننا نجد هنا قاعدة واحدة لا يحصى عنها ، ولا تفسير لها ، وهي ان الخير سواء أكلان في المعنويات ، أو في الماديات ، اذا انحرف عن الجادة تحول إلى شر ، فالداء والهواء والمادة الأرضية ، وحارة الشمس ، كل هذه اذا اعتدلت كانت سبب الحياة ، واذا لم تمتدل كانت سبب الهلاك . ومن ذلك جميع القاذورات والبرك والمستنقعات ، فهذه كانت سبب انحراف هذه المواد عن الصراط السوي ، فهي لو تركت وشأنها تملأ الجوف ففول فيهلك الانسان والحيوان ، ونظير ذلك في أخلاق الانسان اذا تركت قوه الغشبية وشأنها كانت سببا في إهلاك الناس بعضهم بعضا كما في الأمم الوحشية والعرب الجاهلية الأولى .

فهذه هي القاعدة ، إن مابه الصالح من الامور المادية ومن الامور المعنوية عند انحرافه يكون به الفساد وهناك قاعدة أخرى . وهو أن هذا الذي به الفساد يمكن تحويله إلى صلاح بتلطف وحسن صنعة ، وقلبك (مثالان : المثال الأول في الامور المادية) وذلك أن الصفوات والقاذورات خلقت فيها الحشرات كالناموس والبراغيث وغيرها من الحشرات ليتحول الشر الذي في تلك المواد إلى أجسام حية يقل شرها ، فبدل أن يكون الجوف كله متفنا فيهلك الانسان والحيوان بحصر الهلاك في أحياء عندهم استعداد خاص :

- (١) للناديا ، وحى النج ، وداء القيل ، والحى الصفراء مثلا بسبب الناموس .
- (٢) أولطاعون البعل ، والطاعون التسمي ، والطاعون الرئوي مثلا بسبب القبران .
- (٣) أولرض الفتريا بسبب حيوان دقيق خاص بها .
- (٤) أولرض الرهقان (الانكستوما) بسبب حيوان دقيق جدا ، فيكون ألم فوق المعدة وقترم في الجسم ، وآلام في الرأس ، وضربات في القلب .
- (٥) أولحمى التيفودية ، أولالكوليرا ، أو الرمد الصديدي ، أو الاسهال في الاطفال ، والبوسنطاريا ، وذلك بسبب القباب ، وقد تكون الحى التيفودية وحدها بسبب الميكروب الذي يكون في جسم المصاب بهذه الحى ويزرع البول أثناء المرض ، فلذا وصل ذلك إلى ماء أو غيره ولوث به نبات مثلا اتقل منه إلى أماس آخرين .
- (٦) أولطاعون ، أوداء (الاسيروكينا) المصعوب بالبرقان والزيغ ، أولمرض بالهودة الخيطية ، أو البليدان المعوية ، أولحمى التسمية عن عض القمل ، كل ذلك بسبب القبران .
- (٧) أولالتنن ، أو السل ، وذلك بسبب ميكروب خاص يكون في ألبان البقر المصابة بالتنن ، وفي المواد البلفسية التي يصتها المرضي بهذا الداء وهكذا .

فهذه الأمراض كلها الناجمة عن القبران والبراغيث والنبات والناموس والميكروبات جاءت تلطيفا وتهذيبا لهلاك العالم ، والوباء الشامل ، إن رطوبت الأرض لو بقيت فيها ولم تصبح في أجسام هذه الحشرات لمات الأحياء ، فأما هذه الأحياء فاتها حصرت الهلاك في قوم مختصين وترك بقية الانسان والحيوان .

فهذه الجنود المجتدة من الحشرات إن هم إلا شرطه وجند من جنود الله ، يسبهم ينظف الجوف ، ويسبهم ينقذ النفوس الضعيفة من هذه الأرض فيخرجون منها لأنهم مستعدون لذلك كما تحبس الحكومات كل من يضر بالصحة العامة . وبهذا انتهى المثال الأول .

(المثال الثاني في الامور المعنوية)

جل الله الذي جعل الامور للمادية أمثلة وفنظر للامور المعنوية ، وبهذا سهل علينا العلم ، سبحانه الله إن الطبيب وعلماء الحيوان لا يهتمهم إلا ما يختص بعلومهم ، فالأول لاعلاقة له إلا بصحة الأجسام فتكون دراسته لهذه الحشرات وغيرها راجعة إلى ما يختص الأجسام صحة ومرضا ، والثاني لا يهتم إلا بالأوصاف الخاصة لكل حيوان وبه يتميز عما سواه ، ولكن نحن الآن في الدراسة العلمية والنظام البديع الجليل ، فنظرا أعم وفكرنا لا يقف في منطقة واحدة ، اتنا نضرب كتاب الله ، وكتاب الله علم وملكه واسع ، إذن تكون دائرة أبحاثنا علة ، فنحمدك اللهم على نعمة العلم ، ونعمة الحكمة ، ونعمة الفهم .

هاهي هذه المواد العنيفة المشاهدة تهلك الحشرات والنسل ، وهاتين أولاد نراك - حولتها بالحشرات إلى إصلاح الجوع بقدر الامكان ، وحشرت الضرر في طوائف خاصة عندهم استعداد لتلك المرض ، ذلك لأنه ثبت في النسل الأول أن الموت لا بد منه لكل حي ، إذ لو لم يكن موت لكان ذلك خطا وبخلا ووقوعا بالمادة في عمل واحد وهي تصلح لآلاف آلاف من الأعمال ، وإذا ثبت أن الموت لا بد منه وجب أن ننظر فيه ليجم على الأحياء بلا استعداد ، أم يأتي لهم بالتدريج ، والعقل يقضي أن التدريج أفضل الطرق وذلك هو الحاصل بتلك الأمراض التي سببها تلك الحشرات والليكروبيات أي الحيوانات البقية . إذن الضرر في المواد العنيفة حول إلى جنود من الحشرات وغيرها تحدث أمراضا في أناس مستعدين لذلك وهذا حكمة هبية أيضا ، فلتنظر في الامور المعنوية فانا نجد معجزة مثل الامور المادية سواء يسواء ، ألم تر أن الأخلاق السبعة السائدة في أمم العرب في الصحراء أيام الجاهلية جاء الاسلام فحول ذلك الشر إلى خير ، حرمهم على الجهاد ، وذلك الجهاد لاجداث أم تكون متفكة للشرب في صلاتها ، وفي صيامها ، وفي حجبها ، وغير ذلك ، فهناك أناس وقتوا في وجوههم وصوتهم عن نشر الكفر وهم الكفار فأمر الله بقتلهم . إذن الشر الذي حصل بطنين القوة السبعة في العرب الجاهلية حول إلى الخير لاجداث أمة تكون على مشرب واحد ، وبعد أن كان القتل يحدث بلا نظام صار هنا ذلك القتل بنظام ، بحيث لا يتعدى الذين يقاومون الإصلاح بالسلم العلم (دين الاسلام)

إذن ضرر الأخلاق السبعة النضبية انحصرت في فتنة مستعدة للهلاك وهم الكافرون كما انحصر ضرر للمواد القادرة في أناس مخصوصين وهم المستعدون للأمراض المختلفة .

نحمدك اللهم على نعمة العلم ، بهذا عرفنا معنى : « بسم الله الرحمن الرحيم » في أول (سورة محمد) صلى الله عليه وسلم ، فالسورة وإن كان فيها القتل وضرب الرقاب ، والنم والتشجيع على قوم مختصين ، فهذا القتل نعمة ، فليس كل قتل مذموما ، بل هذا القتل ممدوح ، ذلك لأنه أولا ثبت أن الموت لا بد منه والا كان نظام العالم فاسدا . ثانيا أن الأمراض المختلفة إنما وجدت لتكون مقدمات الموت ، وهي موجبات للاستعداد له ولرقى عقول يعلم الطب ، ولارقي للطب إلا برقى العالم الطبيعية كلها . ثالثا : إن هذه الأمراض الناشئة من الحشرات الملاقاة عاشت على القاذورات ضررها أقل من الضرر الذي يحدث لو تركت القاذورات بلا حشرات فيها ، فهناك يكون موت كل حيوان وانسان . رابعا : إن الأخلاق السبعة لو تركت وشأنها عم ضررها . خامسا : إن هذه الأخلاق بسبب الدين انحصر ضررها في أقوام يستحقون الهلاك لأنهم يسارعون إلى مقاومة السلام العلم ، إذن ما ذكر في السورة من القتل ودم الكافرين من أنواع الرجاسات ، وهذا معنى قوله تعالى في أول السورة « بسم الله الرحمن الرحيم » وهذا من أسرار أن سورة الفتح جاءت في الترتيب عقب سورة محمد ﷺ لأن الفتح ليس فتح مكة - حسب ، بل هو الفتح العام بفنر المعارف والعلوم والاسلام ، ألا ترى أن العالم الانساني لم يخط هذه الخطوات إلا بعد انتشار الاسلام ، فيه هجم المسلمون على أوروبا من جهة الأندلس أولا ومن جهة القسطنطينية آخرها ، فاستيقظ القوم وارتقوا بالعلوم والمعارف ، وهكذا الحروب

الصلبية فتحت عيونهم للعلوم والرفق ، وبهذا انقشر البخار والبرق وصار الناس كأنهم في قرية واحدة الآن كل ذلك سرّ الفتح الآتي في السورة بعدها .

نور على نور

اللهم إني أجدك وأشكرك على نعمة العلم ، يندك لليزان في الدنيا والآخرة ، تخفض وترفع : في صباح يوم الأربعاء في التاريخ المذكور ما كنت أكتب في هذه المقالات هذه الجلة : « ومن طبائع البرغوث أنه يكره ضوء الشمس ، ويفضل العيشة في الأجزاء المظلمة » ، أقول : ما كنت أقرؤها حتى تجلت لي أم الاسلام قديما وحديثا ، تجلت لي بيئة علمية حكيمية سياسية .

سبحانك اللهم وبحمدك ، هذه الجلة أنارت لي السبيل « وأشرقت الأرض بنور ربها » ، الله عز وجل هو الحكيم العليم ، هو الذي خلق الشمس وأرسل ضوءها إلينا ، إني لما قرأت هذه الجلة خيلت لي أضواء الشمس كأنها منتشرة صباحا بالشكل الجليل المقبول البديع ، انقشر هذا الضوء فإذا جرى ؟ أطلع أحوال الحيوان ، ولكن البرغوث توارى عنها ، فإذا يقول البرغوث حين يتوارى عن الشمس ؟ يقول : « أيها الناس الأحياء في هذه الأرض ، أنا جند من جنود ربكم ، هو الذي خلقني لأعيش في الظلام ، لماذا ؟ لأنه علم أن هذا الانسان لا يأكل كل إلا إذا آله الجوع ، ولا يقرب الأثني إلا إذا آله الشبق ، ولا يتحرك حركة إلا بسبب يقوم بنفسه ، وعلم أن الناس يجهلون التمتع كنعمة الشمس ، ونعمة الشمس تحفظ صحة الناس والحيوان فبعض الناس لا يتعزّضون لها ، فلذلك أمرني الله أن من ترك الشمس من الناس وجاء عندي ولم يتعزّض لها أقبل له الطاعون القمل ، والطاعون التسمي ، والطاعون الرئوي ، إن الله أمرني أن أعيش في الظلمة حتى ألتئم حتى أضر من جهل ضوء الشمس ومنافها » اهـ

هذا ما يقوله البرغوث قولاً علماً ، وأنا أقول : إن هذا الدرس أعطاني فكرة عامة في سياسة أم الاسلام ذلك ان الشمس شمسان : الشمس المحسوسة ، وشمس العلوم ، وخطأ في الشمس المحسوسة أسهل ألف مرة من خطأ في الشمس العلمية ، لأن الحسيات أقل قيمة من المعنويات آلاف آلاف المرات ، فهناك أمثلة لذلك : (أولا) كانت أمي المصرية قبل نحو مائة سنة أمة محكومة بالترك ، وقد بقيت حافظة أخلاقها البدوية الطرية والاسلامية ولكنهم جهلاء لأن الترك لا يعلمون الأم ، فلما جاء لهم محمد علي باشا وجدهم كحومليونين من النفوس ، ففتح لهم بلاد العرب ، وجعل مصر محمداً ، ذلك أنه وجد في الأمة النخوة والشرف والاباء ، (وبعبارة أخرى) وجد فيهم الشمس المعنوية وهي الأخلاق الفطرية (ثانياً) ان أوروبا لما وجدت أم أبقظ أم العرب خافت أن يرجع الاسلام لسابق عهده بالعرب ، فيجرف أوروبا مرة أخرى ، فخذت شوكتها وحصرته في مصر ، وانحصر الارتقاء في الامور للمادية ، ودخات العالم من أوروبا مع المفسد ، فزاد عدد المصريين اليوم حتى بلغ ١٤ مليوناً أي ما يقرب من أضعاف عددتهم لما دخل محمد علي باشا ، فالشمس المعنوية الأديسية اختفت عن كثير من طبقة المتعلمين ، وبهم لا يفهمهم تمكن الأجانب من البلاد سياسة وتجارة وفسوقاً وخيراً ومداينة الناس ، فلا ترى متعلماً إلا وهو مغمور في عمال الأجانب ، فإذا كنا اليوم أضاعنا أيام محمد علي باشا وقد طفت براقيت الأم طينا ، فما ذلك إلا لاختفائنا عن شمس الفضائل التي انصف بها آبؤنا منذ قرن وان لم يكونوا على علم كلتي عننا اليوم ، إذن القاعدة واحدة ، من اختفوا عن الشمس المحسوسة فلم تظهر ثيابهم وأما كنهم يصابون بأمراض البراغيث ، وهكذا من أصيبوا بمرض الجهل أو الفسوق يصابون ببراغيث الأم الأرضية .

خيال المؤلف

إن الله تجلى فوق عرشه على الأمم في الدنيا قبل الآخرة ، وهو الآن يعاقب المقتصرين قبل يوم الدين ، تجلى الله على الأمم كلها الآن ، وجميع قصص القرآن تشهد أن العذاب يقع على الأمم في الدنيا قبل الآخرة ، ألا ترى إلى قوله تعالى : « أغرقوا فادخلوا ناراً » فالغرق عذاب دينوى .

هذه أم العرب التى أنا منهم وهم يقرؤون هذا الكتاب هم يعلمون أن أجدادهم نشروا الدين والعلم ، ولكن آباءهم تركوا العلوم ، وتركوا المولعب فى الأرض وفى السماء ، فلماذا فعل الله بهم ؟ اختصهم وحلهم بدخول التليان طرابلس وأربطه ، وبدخول الانجليز مصر وفلسطين والعراق والجزائر ومراكش وتونس وسوريا ، وبدخول الاسبانين مراكش ، وذلك على قاعدة ضوء الشمس والبراغيث فان القاعدة لاتغير والله واحد ونظامه واحد ، مع ان اليابان والصين استقلتا ، واثرتك الفرس كذلك ، والمهند اليوم قاعة على ساق وقدم لطلب الاستقلال ، فلم تبق أمة مقسمة بين الملوك إلا أمة العرب ، وما ذلك إلا للجهل الذى عم بلاد الاسلام .

هذا البحر الميت فى بلاد فلسطين ، ذلك الذى جهله الترك الذين كانوا يحكمون البلاد ، وجهله العرب المحكومون ، وما كانوا يظنون أن هذا البحر الممتلئ بالموت يكون مصدا لحياة أم ، ألا قاتل الله الجهالة العمياء ، يا الله انك عدل وحكيم ، نال المسلمون وجهلوا فم بلادهم فاذا جزاؤهم إلا أن تملك أرضهم لفيرهم ، لقد شرط الانجليز على الشركة التى أعطتها استخراج الثروة من البحر الميت أن تعطىها بعد عشرين أى سنة ١٩٤٠ م (١٠٠٠٠) طن من البوتاس التى ، ثم بعد ذلك يستخرجون فى كل سنة (٥٠٠٠٠) طن ، وهذا البحر ٧٠ ميلا فى الطول ، وعشرة أميال فى العرض ، وعمقه ١٣١٠ أقدام ، فهو أوطأ عن سطح البحر الأبيض بألفين وستمائة قدم وقدمين ، وقد ارتفع ماء من سنة ١٨٨٣ إلى سنة ١٩٣٠ م (٢٨٠) قدما ، ويقترون البوتاس فيه بمقدار (٢٠٠٠٠٠٠٠٠) طنا من البوتاس ، و ٩٨٠ ألف طن من المغنيزيا ، و ١١٩٠٠ ألف طن من كلورات الصودا ، و ٢٢٠ ألف مليون طن من كلورات المغنيزيا ، وستة آلاف مليون طن من كلورات الكلس ، ولقد دحض الجفرال اللبى حين استعوز على هذا البحر إذ قال جلته المأثورة : « حقا هذه هى مروج الذهب ، وهى تقدر بنحو ١٠ مليون مليون ٢٠٠ ألف مليون دولارا ، وهذا يعادل ٣٠٠ مرة من قيمة مجموع ديون بريطانيا العظمى كلها فى الحرب للولاية المتحدة ، ومن عجب أن للمهندسين الألمان قرروا أنه اذا أحدث نفق بين البحر الأبيض وبين نهر الأردن وهذه لها علاقة بأمر البحر الميت ، لأن نهر الأردن تصب فيه ، وبني صب فى البحر الأبيض وتحول عن البحر الميت يمكن استخراج قوة كهربائية منه تعادل مليون يمكن توزيعها لإدارة دولاى الأعمال فى كل وقت فى فلسطين وسوريا وتركيا أيضا . ومن هذا القليل :

مشروع القطار بالقطر المصرى

جاء فى جريدة الاهرام يوم ٢٣ مارس سنة ١٩٣١ م ما نصه : « إن القطار موضع منخفض فى الجزء الشمالى من صحراء ليبيا فى منتصف المسافة بين وادى النيل والحدود الغربية ، ويبلغ متوسط عمقه ٦٠ مترا ، وأوطأ نقطة فيه منخفض عن سطح البحر ١٣٤ مترا وهى أوطأ نقطة كشفت حتى الآن فى قارة افريقيا ، وهذا الكشف ظهر سنة ١٩٢٧ م ومن أعجب العجائب أن نفس المنخفض هذا للسكان عن سطح البحر الأبيض المتوسط يعتبرون عظيمة لمصر وهى بلد اسلامية والذى كشفها رجل انجليزى يسمى الدكتور

(بول) مدير مساحة الصحارى ، فهذه الأرض تريد الحكومة المصرية الآن ببلادنا أن تحفر نفقا يمر به المياه من البحر الأبيض إلى القطارة والماء هنا ينزل في ذلك البحر بسرعة شديدة ، وهذه البحيرة دأمة التبخير فكلما صب فيها ماء ارتفع بالتبخر ويكون ذلك بحساب دقيق فيستمر جرى الماء ، وهذا الجرى المنحصر السريع الانحدار يولد قوة كهربائية عظيمة مع بقاء منسوب الماء على حال واحدة ، ويحل منسوب سطح البحيرة خسين تحت الصفر ، فإذا تنوله قوة مقدارها ١٨٠ ألف كيلو واط عند مخرج المنطة وتريد الحكومة أن تصرف في العشرين كيلومتر المجاورة لسطح البحر مرة عادية تحفر في الأرض الخيرية ، ثم تدخل المياه في نفق طوله (٤٥) كيلومترا ، وقطره (١٧) مترا حتى تصل إلى المنخفض ، ويقول رجال الحكومة : إن الوجه البحرى لا يستعمل أكثر من (١٨٠) ألف كيلو واط ، واقتروا أن يجعل هناك ثلاثة أنفاق : أولا نفق (٩٠) ألف كيلو واط ، ثم في سنة ١٣٧٠ بين نفق ثان لتحو (٩٠) ألف كيلو واط أخرى ، وفي بداية القرن الحادى عشر يبدأ في النفق الثالث ، والنفق الأول يحتاج إلى (١٧) مليون ونصف مليون جنيه .

فشروع القطارة بالقطر المصرى أمر كان غيبوا ، وهل يظهر إلا العلم ، والقرنجة هم الذين كشفوه ، فواجب على المسلمين أن يكونوا قدوة في البحث لاسعاد الأمم ، لا أن يمشوا ذبولا للأمم التي فعلت من آياتهم ، إن الانسان كله مسئول عن السعادة العالمة ، والعلم هو الذى يقوم باسعادها في الدنيا والآخرة .

هذه بعض النعم التي كانت غيبة في بلاد الاسلام والمسلمون مجهولتها ، فقال الله للأمم حولها : أيها الأمم : اقتضى بلاد العرب ، وخذى نعى ، انهم قوم جهلاء ، والله ليس هذا خاسا بفلسطين ، إن بلاد نجد والحجاز وبلاد اليمن وغيرها مملوءة بكنوز أكثر من هذه ، ولكن جهل هذه الأمم هو الذى أوجب عقابها على ما فرطت كما يعرض الانسان بالحي ، أولبدرى ، وهو لا يدري سبب المرض ، فالأمم الاسلامية لا يضرها الجهل كما لا يضر لمرض الجهل بسبب علته . اللهم إن عذاب الدنيا بالجهل وعذاب الآخرة بالجهل .

ومن هذا القليل أن مصلحة الصحة المصرية أعلنت عند كتابة هذه الأسطر يوم ٢٤ مارس سنة ١٩٣١ في جريدة الاهرام أن عدد المسايين بالبلهارسيا في مصر ، وهو مرض البول يلبثون نحو ٧٠ في المائة من مجموع السكان أى نحو ١٠ مليون نسمة ، وأن عدد المسايين بالانكلستوما وتعاين البطن يلبثون نصف سكان القطر المصرى ، وأن الذين لم يصابوا بتلك الأمراض سلس مجموع السكان ، فهل هؤلاء المرضى في بلادنا منع الله المرض عنهم لجهلهم قانون الصحة . كلا . هكذا في أمور السياسة ، فإذا جهل أبناء العرب منافع بلادهم ، وما خزن الله فيهم من القوى والقدر فإن الله سريع الحساب ، يعاقبهم اليوم في الدنيا بقهرهم وذلم ، وإذا وقفت الأمم العربية وغير العربية جامدة أمام حكمها إذا لم يصلحوا للحكم ولم يستخرجوا من أرضهم كنوزها ، ولا من حقوقهم قواها الخفية ، ولم ينشطوا الأمم في قواها الحيوية ، وتركوا هؤلاء الحكم فلم يصححهم فإن الله عز وجل يذل الحكوميين والحاكين ، لأنه لا يضر الجهل ، وهناك لا ينبغ الحكوميين أن يقولوا : « ربنا انا أطعنا ساداتنا وكبرانا فأضلونا السبيل » ، فيقول الله لهم : « كلكم مسئولون ، أنسيتم الأمراض تدخل الأبدان وإن جهل المرضى ، أنسيتم عقولكم ، أنسيتم أن لى جندا أسلطهم على كل جاهل ينعمى أيها المسلمون » .

وفي اعتقادى أن المسلمين عموما وأبناء العرب سينهضون نهضة لم يسمح بها المحرقرييا ، والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم . كتب يوم الأربعاء ٢٥ مارس سنة ١٩٣١ م - والى هاتم الكلام على القسم الأول في تفسير البسملة والحمد لله رب العالمين .

التقسيم الثاني في تقسيم السورة

هذه السورة ثلاثة مقاصد

﴿ المقصد الأول ﴾ في وصف الكافر والمؤمن من أول السورة الى قوله تعالى : « كذلك يضرب الله للناس أمثالهم » .

﴿ المقصد الثاني ﴾ في جزاء القسمين في الدنيا والآخرة من خذلان ونصر ، ونار وجنة ، من قوله تعالى « فاذا لقيتهم الذين كفروا » الى قوله تعالى : « والله يعلم مقاديركم » .

﴿ المقصد الثالث ﴾ وعيد وتهديد للنافقين والمتردين من قوله تعالى : « ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة » الى آخر السورة .

التفسير اللفظي للسورة كلها

المقصد الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(الذين كفروا وصلىوا عن سبيل الله) صرفوا الناس عن الدخول في الاسلام ، وهذا يستلزم أنهم هم امتوا عن الدخول فيه (أضل أعمالهم) أبطلها سواء أكانت تلك الأعمال حسنة كصلة الأرحام وإطعام الطعام ، وعمارة المسجد الحرام ، أم كانت سيئة كالنكيد لرسول الله ﷺ والصدة عن سبيل الله ، فالأولى يبطل ثوابها ، والثانية يبطل أثرها ، ويعموت نتائجها ، وهكذا كل من قام عملا شريفا صادقا فإن ماله الخذلان كما يقال في العصر الحاضر : « من كان مع الحقيقة أوضعتها قواها ، فلما عارض لها كالتصر لآله بلعاضة يزيد المنتصرين لها قوة ، فالحق هو الغالب ولكن في العاقبة » وقد ظهر ذلك في كثير من الدول ، فلروس والفرنس والأفغان والترك ، وبلاد بولونيا وهكذا ، كل هذه الأمم كانت مستبدة فأخرجها الله من الدنل إلى العز وذلك بسبر رجالها والعاقبة للصابرين ، كل بحسبه (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) من المهاجرين والأنصار ، وأهل الكتاب المؤمنين وغيرهم ، ونخص القرآن المنزل على محمد ﷺ بالذكر تعظيما لشأن القرآن ، ودلالة على أنه لا يتم الايمان إلا به فقال (وآمنوا بما نزل على محمد) وإنما خصه بالذكر لأنه ناسخ الأديان كلها ، ولا يرد عليه نسخ ، وهذا قوله (وهو الحق من ربهم) وقوله (كفر عنهم سيئاتهم) خبر الذين آمنوا أى سترها بالايمان وعملهم الصالح (وأصلح بهم) حاطم في الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد كما جعل أعمال الكافرين ضالة ضالعة ليس لها من يتقبلها ويثيب عليها كالفلاة من الإبل ، ثم علل ما تقدم من ضلال الأولين ، وأصلح حال الآخرين ، بقاعدة عامة يبرهن على ذلك فقال (ذلك) المذكور من الاضلال وأصلح الابل (بأن) أى بسبب ان (الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق) من ربهم يقول الله : إنما أضلت الكافرين ، وأصلحت حال المؤمنين ، لأن هذين الفريقين جريا على القاعدة العامة وهي ان الحق منصور ، والباطل مغنول ، تلك قاعدة عامة في الدين والدنيا ، فالصالحات المحسنة كصلة الأرحام والناس وإفري أهلها ، لأنها جارية على النسق الحق ، والطريق المستقيم ، والقواعد العلمية الصادقة ، وهكذا الزراعة المثقنة ، والتجارة الحكيمة ، والسياسة المحسنة ، كل من هذه تصح نتائجها ، وتصدق ثمراتها ، فأما الصناعات المردولة ، والتجارات المزجة بضاعتها ، والأعمال المهملة ، فمن يكون نصيبها إلا الضياع والبوار ، لأن الباطل لا يثبت له ، وأحق هو الثابت ، والله هو الحق فينه الحق ، ولما كان المسلمون في هذه العصور

مهملين لمذنبهم وصناعاتهم وهم علة على أوروبا في حربهم وسياساتهم وتجاراتهم ، ضلّ سعيهم ، فأصبوا تابيعين لأوروبا سياسة وبحارة وإعارة إلا من استيقظوا فاتبوا الحق والصدق ، ونشطوا كأهل الأماضول والفرس والأفغان فأولئك الذين قهبوا وعرفوا الحقائق ، قتلوا من نومتهم ، وقضوا غبار القل ، وأخذوا يستنبطون الحيل لاحتراز الجهد ، ولزقاء البلاد ، فالقاعدة واحدة ، فان العلم الصحيح ، والدين الصحيح ، والصناعات الصحيحة ، والآراء الصادقة ، تتأبجها السعادة ، وبضدها تتميز الأشياء . انظرأيها الذكي ، انظر كيف كانت هذه القاعدة عامة ، انظر كيف كانت كما تقدم في قوله تعالى : « ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء الخ » وقوله : « ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار » . انظر كيف جعلها الله مثلا ، انظر كيف جعل كلمة التوحيد وكلمة الكفر كشجرة النخل وشجرة الحنظل ، وثبات أحدهما وعدم ثبات الأخرى أى ان القاعدة واحدة في الماديات والمعنويات ، أى لافرق بين معقول ومشاهد في الضلال والثبات ، وانظر كيف يقول هنا (كذلك) أى مثل ذلك الضرب (يضرب الله للناس أمثالهم) بأن جعل اتباع الباطل مثلا لعمل الكفار ، والاضلال مثلا لخبيثتهم ، واتباع الحق مثلا للؤمنين ، وتكفير السيئات مثلا لفوزهم ، إن شأن القرآن أن يبين مزايا المقام الذى فيه ذكرى عامة ، وموعظة تامة ، وهذا المقام من أجلها وأعظمها ، ضرب للثالباطل والحق كاضرب المثل بالنخل والحنظل في سورة أخرى كل ذلك يرى لغرض واحد ، ومقصد تام ، ألا وهو اثبات وعدم الثبات (وبشارة أخرى) ان الله خلق السموات والأرض بالحق ، على قوانين ثابتة منظمة ، فكل ما قرب من الحق كان باقيا ، وكل ما ابتعد عنه كان هالكا على مقدار بعده ، فرجال الجنة والفساطمة بدون ، ورجال الكسل والتواكل مخذولون ، والمحقوقون في كل شيء محبوبون منصورون ، وبضدها تتميز الأشياء .

لطيفة

نذكر مامر هليك في (سورة آل عمران) من ضرب أمثال خسة من المخلوط المعدنى ، وكيف كان خلط المعدن بنظام فيد فائدة تامة ، فالتحاسن الأجزاء صهر جزمان منه مع جزء من الخارصين تكون مخلوط معدنى صلب هو التحاسن الأصفر سهل الصنع لونه الصفرة ، وهكذا الرصاص لا يصلح لحروف الطبع إلا اذا خلط معه الأنثيمون بنسب خاصة ، والمدافع لا يمكن صنعها من التحاسن وحده ، فاذا خلط معه القصدير بنسب معلومة حصل من المخلوط « البروز » وهو الذى تصنع منه المدافع . فهذه بعض الأمثلة على الحق وهو بعض الحق العام . قال الله تعالى : « خلق السموات والأرض بالحق » وهو النظام التام والقوانين الصادقة وضدها الباطل ، فعلم المهندس التى بها صنع اهرام الجيزة بيلادنا المصرية على مقتضى دائرة الأرض حول الشمس حتى بما به قامت السموات والأرض ، ولكنه لا يكون كخلق الأعظم وهو قوانين السيارات والثواب ونظام الشمس والأقمار ، فان تلك القوانين بها ثبتت تلك العوالم ودلت ، أما قوانين الأعمال الصناعية الأرضية فاما تدوم على نسبة كمالها ، وكل كمال فى الأرض له أثره ، فبالجبال فى الوجوه ، وفى الأشجار ، وفى الأزهار الذى هو عبارة عن التجانس والتشاكل والنسب الصادقة يحصل أثره فى الرائين ، ويكون الأثر فى النفوس على مقدار الحقائق العلمية فى الجبل من زهر وشجر وإنسان ، وهكذا بقاء الاهرام المصنوع على نسب هندسية فلكية يكون على مقتضى ماوصل إليه العلم فى التحقيق ، وهكذا كل بناء ، وكل صناعة ، ولذلك ترى للباني اتنى صانعا جاهل لا يدرك بل تنقص ، ومثل ما رأيت فى المشاهدات تكون الامور المعقولة ، انظر إلى دين الاسلام كيف دام ١٣٥٠ سنة وهو باق لم ينزل ، ذلك لأنه هو الحق ، والحق يبق ، فاذا بقيت الكواكب لتباتها على الحق ، واذا بقي الهرم لبائه على الحق واذا ثبت المدفع لصنعه على النسبة الحق ، هكذا

ثبت القرآن ثلاثة عشر قرناً ونصف إلى الآن وإلى يوم القيامة على مقتضى حقيقته . هذا هو معنى قوله تعالى :
 « ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم » ثم أبان ذلك فقال :
 « كذلك يضرب الله للناس أمثالهم » أى يبين أحوالهم . انتهى المقصد الأول من السورة .

المقصد الثاني

قال تعالى (فذا لقيم الذين كفروا) فى المحاربة (فضرب الرقاب) أى فاضربوا الرقاب ضرباً لأن الرأس من أشرف أعضاء البدن فإذا أدين من البدن كان أسرع إلى الموت والهلاك بخلاف غيره (حتى إذا أختتمتهم) أكثرهم قتلهم وأغلظتموه من التخيخ وهو الفيلق (فقتلوا الوثائق) فأسروهم واحتفظوهم ، والوثائق بالفتح والكسر ما يؤتى به (فلما منا بعد وإنا فداء) أى فلما تخوننا أو تصدون فداء ، أى أنكم تحبون بعد الأسرى من اللئى والاطلاق ، وبين أخذ الفداء ، فاذكر المثل للمكلف إذا أسرى غير الإمام فيه بين القتل واللئى والفداء والاسترقاق ، والفداء إما بمال أو بأسارى المسلمين ، وهذا مذهب الحسن وعطاء وأكثر الصحابة والعلماء والثورى والشافعى وأحمد وأبو حنيفة . وقال أبو حنيفة : إن الآية منسوخة فلا فداء بمال ولا بغيره عنده خيفة أن يعودوا حرباً للمسلمين . ثم ذكر غاية المجموع من الشدة واللئى والفداء قتال (حتى تضع الحرب أوزارها) أآلتها وأقالمها التى لا تقوم إلا بها كالسلاح والكراع ، أى حتى لا يبقى إلا مسلم أو مسلم ، أى هذه الأحكام جارية فيها حتى لا يكون حرب مع المشركين يزوال شوكتهم ، أو ينزل عيسى ابن مريم ، حتى زالت الشوكة أو أنزل عيسى ابن مريم فلا حروب ولا أسر ولا قتال ، ولقد تقدم فى هذا التفسير أن كتابنا المنزل على نبينا صلى الله عليه وسلم يخبرنا أنه سيكون هناك يوم تجتمع فيه الأمم كلها على حال واحدة ويكون بينهم مودة فر بما قرب ذلك الوقت ، وربما كانت الأمم اليوم مستعدة له ، الأثرى إلى المدافع والطيارات والقاذرات الخماقة والمعمية ، كل تلك المهلكات ، ولقد علمنا أن أهل ألمانيا اليوم قد اخترعوا من للمهلكات ما لا تصفه العقول كأضواء منصوبها فتصيب أهل لندن فتحرق بلاد الانجليز فى يوم ما والأونان فى قص برلين والله أعلم ، كل ذلك إفراط فى الاهلاك ، ويقال أن ألمانيا عندما غازت لواطقتها فى الجوق لجعل الهواء كله مسموماً فيموت أهل الأرض قاطبة ، ويموتون هم معه ، وكل هذه أقويل لا يدري مدى صحتها ، ولكن لا بد من بيانها فالنقص من هذا كله أن الأمم قد أفردت فى المهلكات ، وربما كان ذلك سيعود بالإفراط إلى السلم ، لأن الشيء متى زاد عن حده انقلب إلى ضده ، وربما كان هذا السلام أن يكون لكل أمة أعمال خاصة ، ومجموع الأمم تكون لها جمعية تدبر شؤون المجموع ، والطيارات والبرق (التلغراف) والمسرة (التليفون) تجري بينهم لا يمتنع شرق عن غربي ، ولا غربي عن شرقي ، وتكون الأمم كلها أمة واحدة ، نظاماً وحياة ، كما ذكره القزوينى فى كتاب «آراء أهل المدينة الفاضلة» وكما ذكرته فى كتابي «أين الإنسان» الذى سترى ملخصه إن شاء الله فى «سورة الحجرات» قريباً بقلم الأستاذ سنبله الطليانى فى مجلته باللغة الإيطالية وهو مترجم بالعربية لتعلم العقول فى الأرض تفقههم ، مع أنه لا صلة بينى وبين أى إنسان فى أوروبا . وسترى أن السلم يشده كثير من العقلاء ، ولقد حدث فى ألمانيا مذهب البلشفية أى الأكثرية ، واثق هذا المذهب فى روسيا ، وهذا المذهب يقال أنه يجعل الناس كلا فى عمله الخاص به ، والمجموع مسخر لـ «مجموع» ، والتفصيل فى الكتب لا يسعه هذا الكتاب ، وربما كان ذلك مقدمة لمذاهب أخرى تكون متقدمة مهذبة تجعل الناس كلهم إخوة ، وإذا كان المسلمون هم البادئين به كان أفضل لأنهم شهداء الله على خلقه ، فيكون العالم كله إما مسلمين أو مسلمين ، أى ليس بيننا وبينهم حرب ، ولا ضرب ، ولا قتال ، فعلى المسلمين أن يجتهدوا ليصلوا لذلك اليوم الذى لا ينزل عيسى إلا وقد استعد الناس له ، ومستحيل أن ينزل عيسى على قوم مجرمين ، فعلى

المسلمين أن يستكملوا العلم والعمل ، والعنة الحسية والعنوية ليرقوا نفوسهم والأم حوهم ، ويقودوها إلى السلام العلم ، هذا بعض أسرار كتابنا المختص .

إن كتاب « أين الانسان » ظهر لي قريبا انه كله تفسير لآية الحجرات الآتية ، فحجب للقرآن واجب ألف مرة لهذه السورة التي ذكر فيها أن الحرب ترفع أوزارها بسد ما تقدم قريبا في (سورة النسان) والذنان هو الذي ظهر في الحرب الحاضرة ، إنك تجب الآن وستجب ثم تجب اني في هذا التفسير في بحر من الحب ! ومن القرآن ، وما أدري ماذا يكون أثر هذه الحجاب ، وانى أوقن أنه يكون من أسباب سرعة الارتقاء للمسلمين . ثم إن الأمم مادامت لم تصل إلى تلك الدرجة فعل المسلمين أن يكونوا أقوى الأمم في العلوم والصناعات ، ذلك هو الذي سيكون في مستقبل الزمان بعد انتشار هذا التفسير وأمثاله من مؤلفات المسلمين في الشرق والغرب والله هو الولي الجيد .

ثم اعلم أن الله جعل لسل فوائده وللحرب فوائد ، فالأم مادامت في حال الطفولة عقولها أشبه بقول شاب مرهاق لم يبلغ الحلم بحيث لا يزال يقاتل الصبيان ويشاجرهم ويوقع الأذى بهم وهم يزدبون أذى فانها لا تزال في حوب كأهل أوروبا اليوم وأهل الشرق ، فهذه الأمم حكم الله عليها بالحرب لتقوى الأبدان وترقى الصناعات وتقوى الأمم فان الحرب تشرح الصدور ، وتوقظ الشعوب ، وتفتح المنطق ، ويسر السير ، كما يقوله علماء الألمان ، وكما قاله أرسطاطاليس لالاسكندر : « إن الراحة للأمم مضرة بهم » ولناك يقولون : « اذا أردت رقي أمة فاجعلها تخوض الحروب ، فذلك يفتح لها باب السعادة ، والأم الناتئة على فراش الراحة الوئير معرّضة للزوال والهلاك » ، كل ذلك والأم في حال الطفولة ، فأما اذا كملت أخلاقها ومواهبها فان نتائج السلم عندهم نتائج الحرب عند من قبلهم ، فكما فرح الرجل في الأم الحاضرة بنظرة الأعداء ، وشقاء الطفل ، ويجمع الرجال والسلاح والكرام ، هكذا سيكون فرح الأمم بمساعدة غيرها ، وانسراح الصدور بظهور أم جديدة تكافح معهم في الحياة مسلويا لفرح من قبلهم بالنظرة والاتصار على سواهم ، ويكون كل فرد في الأمم للمستقبل أشبه بالأب يجري ويكسح لمساعدة أولاده ، وهذا الكسح يحدث فيه فرحا أشد من فرح المنتصر في ميادين القتال .

الأم اليوم نصف كلمة تسمى لاسعاد أنفسها واهلاك غيرها ، وسيأتي وقت تسمى فيه لاسعاد الجميع ويكون الفرح أشد من الفرح بهزيمة الأعداء ، ويكون جميع الناس كالأمهات والآباء ، وإلى هذين الحالين الانسانيين أشار الله هنا ، وإلى حال الكمال أشار بقوله « حتى ترفع الحرب أوزارها » وإلى حال النقص المشاهدة في الأمم وإلى حكمته . قال : الأمر (ذلك ولو شاء الله لاتنصر منهم) أى لاتنقم منهم بالاستئصال (ولكن) أمرهم بالقتال (ليلاوا بعضكم بعض) أى ليلوا المؤمنين بالكافرين بأن يجاهدوهم فتقوى أبدانهم ، وتصح نفوسهم وترقى عقولهم ، وتنظم معنهم ، وتهدج كلمتهم ، ويجمع شملهم ، بما يرون من اتحاد صدقهم فيوجب اتحادهم وترقى الزراعة والتجارة والصناعة ، وأحوال الأمة ، والقضاء ، وجميع العلوم ، إذ لا يتم حرب ولا غلبة إلا بها وهكذا أعدائهم يرتقون في أمور الدنيا قطع المدن ويحتلونها بالمسلمين فيقومون كتبهم ويعرفون أحوالهم وهذا رقى للنوع الانساني ، ثم الضعيف من الطرفين هالك ، ويكون الرقى دائما ، هنا كله في حال النقص أما في حال الكمال فذلك حين يكون الناس كلهم كأسرة واحدة وحلمهم أرقى من حال هؤلاء الناقسين ، ثم أخذ يبين درجات الترقين من حيث نتائج أعمالهم في الآخرة فقال في فريق المؤمنين المجاهدين (الذين قاتلوا في سبيل الله) أى جاهدوا (فلن يضل أعمالهم) فلن يضيها (سيذهبهم) إلى الثواب أو يثبت هدايتهم (ويصلح بهم) يرضى خصامهم ، وقبل أعمالهم (ويدخلهم الجنة) في الآخرة ويجعلها طيبة الراحة بحيث يطيبها لهم ويجعل لكل واحد جنة منفردة منفردة عن الأخرى بحيث تكون محددة معينة ويهديه إليها

بحيث لا يضل في طلبها ، وذلك كله في الآخرة ، أما في الدنيا فانه يصفها لهم بالوصف الذي يشوقهم إليها ، في الدنيا وصف مشوق لها ، وفي الآخرة طيب الرائحة والهداية إليها ومجديدها ، هذه المعاني الأربعة كلها حاصلة وقد فسر بكل واحد منها قوله تعالى (ويدخلهم الجنة عز فيها لهم) فمنها تحتمل المعاني المتقدمة ، وللاجرم أن لكل امرئ في الحياة عملا خاصا يستوجب حالا في الآخرة لا يتعداه كما يستوجب كل من نال شهادة في علم أو صناعة حالا توازي شهادته في الحياة الدنيا والنظام العمراني ، فاذا مات الانسان وضع في مركزه وضعا طبيعيا لا تكلف فيه ، فيكون الناس في الآخرة أشبه بأنواع السمك في البحر الملح وأنواع الطير في جو السماء ، فكما أن الطير في الجو لكل من أنواعه درجة في العلو لا يتعداها ، هكذا لكل من الصالحين درجة في الآخرة لا يتعداها ، بل يجد نفسه مقهورا على البقاء فيها ، وكما أن السمك منه ما هو قرب سطح الماء ، ومنه ما وجد تحت سطح الماء بمائة قامة ، أو ألف ، أو آلاف كما تقدم في هذا التفسير ، فهكذا أهل السعير ، « ولكل درجات مما عملوا » ، وعلى هذا يكون التعريف هنا بمعنى التحديد والتفريق والاهتداء إليها اه وقرئ « والذين قتلوا » بالبناء للجهول أي استشهدوا ، وهذا جزء المجاهدين في الآخرة ، أما جزاؤهم في الدنيا فهو في قوله (يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله) ان تنصروا دينه ورسوله (ينصركم) على عدوكم (وثبت أقدامكم) في القيام بحقوق الاسلام ، ومجاهدة الكافر ، هذا جزء فريق المجاهدين ، وأعقبه بجزء الكافرين فقال (والذين كفروا) مبتدأ (هـ) كفروا (تمسوا لهم) كما قيل للمجاهدين بثبتت أقدامهم ، قيل للكافرين تمسا يقال للعائر تمسا اذا دعوا عليه ولم يريدوا قيامه ، وضده لما اذا دعوا له وأرادوا قيامه ، فاذا ثبت المجاهد في الحرب عثر الكافر وسقط ولم يقم من سقطته ، وقوله : (وأضل أممهم) مقابل لقوله في فريق المجاهدين « فلن يضل أممهم » وبين سبب ذلك فقال (ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله) وهو القرآن ، وقد تقدم في أول السورة أنه الحق من ربهم ، ومن لم يقب الحق الذي قامت عليه السموات والأرض لم يثبت بل يسقط ويقال له تمسا ، لأن الذي يبنى على الخفاق دائم لا يزول ، والذي يبنى على غيرالحق زائل ، لزوال أسه وعدم ثباته ، وقوله (فأحبط) الله (أممهم) حرب على ما قبله ، وتكراره للإشعار بذلك الترتب ، والاحباط الإبطال ، فكل ما عملوه باطل مع عدم الإيمان الذي هو الأس ، ثم إن المشاهدات المحسة لها آثار في النفوس وتنتج عند ذوي العقول اذا تدبروا فيها واعتبروا ، فلذلك أمرهم الله بالنظر في أحوال الأمم السابقة ومشاهدة آثارها فقال (أفلم يسروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) من الأمم الماضية والقرون الخالية الكافرة ، وكأنه يقال : ماذا كان عاقبتهم ؟ فأجاب (فمراقبه عليهم) يقال دمره أهلكه ، ودمر عليه اذا أهلك ما يختص به أي أهلك الله عليهم ما يختص بهم من مال وولد ونفس ، واذا رأوا ذلك في الأمم السابقة أفلا يسألون أن ما جاز على أحد اللذين جاز على الآخر ، فبطريق القياس التمثيل يقال : ان الكافرين بمحمد صلى الله عليه وسلم يحصل لهم ما حصل للأمم قبلهم ، وهذا قوله (وللكافرين أمثالها) أي ولهم فوضع الظاهر موضع المضمر أي لهم أمثال تلك العاقبة ، أو العقوبة والهلكة ، ثم أتى بسبب ما تقدم كله من عاقبة الفريقين فقال (ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا) أي ماصرهم على أعدائهم (وأن الكافرين لا مولى لهم) فيدفع عنهم العذاب ، وأما قوله تعالى « ثم رددوا إلى الله مولاهم الحق » فمعناه المالك ، وإنما كان الله مولى الذين آمنوا لما تقدم أول السورة من أنهم آمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم ، ومعالم أن الله هو الحق وأنه خلق السموات والأرض بالحق ، فرجع الأمر إلى القاعدة العلمية أن الحق هو الموجب للنصر لأنه ثابت وده جميع القواعد العلمية والصناعية لأنها مؤسسة على نظام الله الذي قامت به السموات والأرض والاسلام لما كان حقا عاش وبقي في زمن عزه وزمن ضعفه دلالة على أنه حق والحق له البقاء ، ومن هنا القاعدة العامة في الدنيا وهي ان الأمة التي اتحدت وجهتها ونظمت أممها لها تكون منصوره ، وقد ينصر الأقلون اذا كانوا

أشد أحكاما ، ولذا تساوت الطائفتان في الأحكام والعلم والعمل غلبت أكثرهما عددا ، إن الله جعل نظام العالم توحيد الوجهة ، فالأم التي وحدت وجهتها وانتظمت قلب من هي أقل منها في ذلك ، كل ذلك من قوله تعالى : « خلق السموات والأرض بالحق » ، ولما كان المسلمون في أول أمرهم أكثر اتحادا وأسرع إلى نشر الفضائل غلبوا مع قتلهم الأم الطيعة ، فلما قسموا المال هزمتهم أقل الأمم ، ولما انتظمت دول أوروبا وكثر اتحادها غلبوا للمسلمين ، لأنهم لم يقوموا بالحق كما يجب ، فالإسلام حق ولكن نظام العالم الذي خلقنا فيه نجب دراسته ، فإذا أغفلناه فقد أغفلنا ما يطلبه الحق وهو القرآن ، إذن تغلبنا الأمم ، هذا هو الحكمة في قول الله تعالى « وهو الحق من ربهم » فالحق من ربهم عنوان لذلك كله ، ولما جاء دور ارتقاء المسلمين ونخاضوا غمار الحرب في هذا الزمان نصرُوا في كل مكان ، في الأنابول ، في القرس ، في مراكش ، في الأفغان ، في الجزائر (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار والذين كفروا يجمعون) في الدنيا بشهواتها ولذاتها (وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ) فليس لهم همة خارجة عن بطونهم وفروجهم وهم ساهون لاهون عماراد بهم في غد ، فكما تأكل الأنعام في معافها ومسلحها وهي غافلة عما هي بسده من النحر والنج كذالك هؤلاء يأكلون ويتلذذون وهم غافلون عن عذاب النار ، وهذا قوله (والنار مشوى لهم) منزل ومقام (وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك) أي أخرجك أهلها (أهلكناهم) بأنواع العذاب (فلانصرهم) يدفع عنهم (أفمن كان على بينة من ربه) حجة من عنده قلبية كالقرآن ، أو عقلية بنور العقل كالتي والمؤمنين (كن زين له سوء عمله) بالشرك والمعاصي (واتبعوا أهواءهم) في ذلك ، والمراد كفر مكة الذين زين لهم الشيطان شركهم وضلالهم ، واللفظ بمعهم وغيرهم (مثل الجنة) صفة الجنة العلية (التي وعد المتقون) أي فيما قصصنا عليك صفتها الحسنية ، نفير مثل مخنوف وهو الجار والمجرور ، ثم استأنف يشرح المثل فقال (فيها أنهار من ماء غير آسن) يقال أسن الماء أسنا إذا قصر طعمه وريحه (وأنهار من لبن لم يتغير طعمه) كما تتغير ألوان الدنيا إلى الحوضه وغيرها (وأنهار من خورقة) تأثيث له وهو اللذيث (للشرايين) أي ماهر إلا التلذذ الخالص ليس معه ذهب عقل ، ولا صداع ، ولا آفة من آفات الخمر (وأنهار من عسل مصفى) لم يخالطه الشمع وفضلات النحل ولم يمت فيه بعض نحله كعسل الدنيا بل هو خالص من جميع الشوائب ، وفي ذلك تمثيل لأشربة في الجنة لقبيضة مجردة من كل تنقيص وقص مع استمرارها وكثرتها (ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم) وفي أهراب « مثل الجنة » وجه آخر وهو أن يعرب مبتدأ خبره قوله (كن هونا في النار وسقوا ماء حيا) حارا شديد الحرارة (فقطع أسعدهم) وهو في معنى الاستهزام الانكارى كقوله « أفمن كان على بينة من ربه » أي أمثل الجنة التي وعد المتقون كمثل جزاء من هونا في النار ؟ كلا . ليس مثله ، وكأنه قيل ليس من هو على بينة من ربه كما يتبع هواه ١ وكما لا تستوى الجنة والنار لا يستوى ذوالبرهان وذو الهوى (ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال أقفا) بعد أن ذكر المؤمنين وجاتهم والكافرين ونارهم ذكر طائفة المنافقين الذين هم كالؤمنين من وجه والكافرين من وجه فقال انهم يستمعون إليك فإذا خرجوا من مجلسك وقد تهاونوا بما سمعوا منك قالوا لأولى العلم من الصحابة ماذا قال الساعة على جهة الاستهزاء وأقفا من أف الشيء لما تقدم منه مستعارا من العضو المعروف وهو ظرف بمعنى وقتا مؤتلفا ، ويقال انتفت الأمر أي ابتدأته (أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم) * قال مقاتل : كان صلى الله عليه وسلم يخطب ويصحب للمنافقين ، فلما خرجوا من المسجد سألوا عبد الله بن مسعود استهزاء : ماذا قال محمد صلى الله عليه وسلم ؟ قال ابن عباس وقد سئلت فيمن سئل (والذين اهتدوا) بالإيمان واستماع القرآن زادهم) الله (هدى) أي بصيرة وعلموا وشرح مسودهم (وأناهم تقواهم) أعانهم عليها ، وأناهم جزأها

(فهل ينظرون إلا الساعة) أي ينتظرون (أن تأتيهم) أي آياتها وهذا يدل اشتغالهم من الساعة (بفتنة) فجاءة (قد جاء أشراتها) علاماتها وهو مبعث النبي ﷺ ، واشتغالهم القمركا قال بعض المفسرين ، والبدن ، وقطع الأرحام ، وقلة الكرام ، وكثرة اللثام (فأتى لهم إذا جاءتهم ذكراهم) أي فأتى لهم : أي كيف لهم ذكرهم إذا جاءتهم الساعة أي كيف يتذكرون إذا جاءتهم الساعة وهاهي ذة علاماتها قد ظهرت حيث لا تنفع الذكرى (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لنبيك) أي إذا علمت سعادة المؤمنين ، وعذاب الكافرين ، فأثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية ، وإصلاح حال النفس باستكمالها ومضمها بالاستغفار من الذنب — ولا بد من التوب الأفياء إلا أن يتركوا ما هو أفضل أو أولى — وتوجيهها إلى الاستغفار للأصابع قال الله (والمؤمنين والمؤمنات) أي لتوبهم (والله يعلم مقابلكم ومثواكم) أي متصرفكم ومنشركم في الدنيا ، ومصيركم إلى الجنة أو إلى النار في الآخرة ، فاقفوا الله واستغفروه . وسئل سفيان بن عيينة عن فضل العلم فقال : ألم تسمع قوله تعالى : فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لنبيك ، فأمر بالعمل بعد العلم . انتهى التفسير اللفظي للقصد الثاني من السورة

لطائف هذا المقصد

- (١) في قوله تعالى : أفلم يسيرا في الأرض الخ
- (٢) » » » : والفريق كفروا بجنون ويأكلون كما تأكل الأنعام والتمشوا لهم .
- (٣) » » » : مثل الجنة التي وعد المتقون الخ
- (٤) » » » : قد جاء أشراتها

اللطيفة الأولى

في قوله تعالى : » أفلم يسيرا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم فتراه عليهم وللكافرين أمثالها »

جاء القرآن والأمة العربية غافلة عن النظر في الآثار البائدة ، والأمم الهالكة ، فكانوا يمشون وهم معرضون ، ويسافرون صيفا وشتاء وهم غافلون ، فبعثهم القرآن من مرقدهم ، وقلموا بنوهم في نظام الجنس البشري . يقول الله : أغفلوا فلم يسيرا في الأرض فينظروا ، صبرهم بالفتنة ، وبكبتهم على ترك السبيل الأرض المصحوب بنظر العواقب المترتبة على الأعمال والفتنة ، وحذرهم أن يصيبهم ما أصاب الأمم قبلهم ، وقد جاء في أول السورة أن القرآن هو الحق من ربنا ، وفي آية أخرى : خلق الله السموات والأرض بالحق ، فكانه يقول لهم : انظروا في الأمم البائدة ، فكل أمة خالفت نظامنا ، وجهلت صناعتنا ، وحادت عن صراطنا ، أوردتها المتألف ، وأذقتها المصائب ، وجعلتها عبرة للعتبرين ، هكذا كان السابقون ، وهكذا يكون اللاحقون فبالت شعري أي حذرنا لمسلمي العصر الحاضر ، وأي ذنب أتقدمهم ، وأي مصيبة حلت برؤسهم ؟ ناموا ولم ينظروا ، لم ينظروا أهل أوروبا وأمريكا ، لم ينظروا كيف حل الخراب بإساحت الأندلس للمسلمين لما بطروا النعم ، لم ينظروا قصور الملوك للمسلمين وآثارهم في قرطبة وبقي بلاد الأندلس ، فإذا أمر الله آباءنا أن ينظروا في آثار غيرهم من الأمم البائدة فتحن مأمورون أن ننظر في آثار الأمم الإسلامية الهالكة بذنوبهم وجهالهم ، وكأن الله يقول : أفلم ينظروا أهل مصر وتونس والجزائر وصراكش وأبناء الشام والعراق والجزائر ، أنهم ينظروا محل بالأندلس للمسلمين كيف اتكبوا على مصنوعات الفرنجة وملابسهم وخرهم فأذقتهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون .

لقد حقر أبناء العرب في الأندلس مجد آبائهم وعاداتهم ودينهم في أواخر أيام عزهم ، وكرعوا من خمر

الاسبانيين وتعلموا على أسانفتهم فالتحت عرى قوميتهم ، فساء صلب المنكرين ، وحل بهم ماحلّ للماضين ، وأنسوا بالافرنج ، فأصبوا صعيذا خلعدين كاتمت قريبا في سورة الأخاف
أفلا يعتبر المسلمون في مصر والشام وبلاد شمال افريقيا عموما كيف لايصلوا لبعضهم الآخر إلا في مطاعهم ولا الفوز إلا مع نسائهم ، وللا لئلا يامن منسوحهم ، فلئن لم يشهوا عما يصلون لينفوق النكاح ، وليحلّ بهم ماحلّ بالأنديسين . أقول : ومن يجب أن العالم الاسلامي اليوم مغيرة وجهتها ، وبألت شرى أظم علماء الاسلام ؟ أهجل حكماؤهم أمثال هذه الآيت ؟ لماذا لم ينهوا الشعوب الاسلامية ؟ لماذا لم يوقفوها ؟ لماذا ناموا على الأحكام القهية ، وجهلوا الحقائق الكونية ، نعم تنبه من المسلمين قوم ولكن ذلك ليس من تعاليم القرآن للمهجورة ، بل من تعاليم الفرجة للسطورة ، فستبطل أهل الأناضول ولكن بالتعاليم الافرنجية تنهبوا وسقروا أن يتكلم في الرسيات أحد إلا باللغة الوطنية ، وأن لا يكتب إلا بها على عكس ما فعل الأنديسيون في أواخر أيامهم إذ كانوا يحاكون الفرجة محاكاة ، ففلوا لهم خاضعين ، وخضعوا لهم صاغرين .
تم الكلام على اللطيفة الأولى والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية

في قوله تعالى : والذين كفروا يجتمعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم

الانسان امتاز عن الحيوان بالعقل والفكر ، حتى حصل تلك القوى التي امتاز بها حلّ به السمل في الدنيا والآخرة ، فأما في الدنيا فبالفساد والفلة ، وأما في الآخرة فبتأثير جهنم وبش القرار ، ومن درس هذا التفسير في السور الماضية أدرك هذا المقصد في مواضع كثيرة فلا حاجة للاطالة ، وإنما أقول : إن المسلمين في القرون الأخيرة ناموا على وساد الراحة ، ونسوا أن لهم عقولا ، وأن لهم دينا ، فأذلتهم الفرجة ، وخضعوا لهم صاغرين . ومن موجبات العقل النظر في الأمم المالكة وأسباب هلاكها ، وقد جاء في اللطيفة المتقدمة الحث على النظر في الأمم البائدة ، والأجيال المالكة ، وأنهم هلكوا بكفرهم ، وأن هذا قانون علم . وإذا كان القرآن يأمر بالنظر في الأمم المالكة لتعتبر بها فهو من باب أولى يأمر بالنظر في الأمم الحية لنقلها ، ونصل عملها ، اذا وافق شرعنا ، حتى على المسلمين أن لا يندروا علما إلا دروسه ، ولا صناعة إلا أحاطوا بها وعليهم أن يرسلوا من عندهم جماعات يجوسون خلال الأمم في أوروبا وأمريكا واليابان ، ويدرسوا أحوالها ، وينشروا أسباب رقيها ، ويتلافوا النقص الحاصل في بلاد الاسلام . ليكون ذلك وليدرسوا لغات الأمم وأخلاقيها وعاديتها ، وليكن في كل علم وكل فن وكل لغة اختصاصيون يقومون بالواجبات ، كل ذلك من قوله تعالى « أفلم يسيرا في الأرض فتسكون لهم قلوب يقتلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تسمى الأسماء ولكن تسمى القلوب التي في الصدور » ومن قوله تعالى : « أفلم يسيرا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم فتراثهم عليهم » ولنا ومن باب أولى فينظروا كيف كان عاقبة الذين هم معاصرون لهم كيف أنهم الله عليهم وأيدهم بالأعداء والعلم والجدتين أمثالا ، هذا هودين الاسلام ، هذا هودين الحق لا تلك التعاليم الناقصة ، المشوّهة ، الجاهلة ، الخاطئة في أكثر ديار الاسلام حتى حتى القول على أكثرنا ، فيقال في الغافلين : « يجتمعون ويأكلون كما تأكل الأنعام » فأصبح أكثر المسلمين تحت رعاية الاوروبيين ، يتركونهم في الحقول يصلون ، ويعجبون منهم الضرائب ، ويندرونهم في الجهالة العمياء يجتمعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، فلا علم يدرسون ، ولا قرآن يقتلون ، ولا حكمة يزاولون ، ولقد أن أن يقر الله قوما ذلوا ، ويسعد قوما شقوا والله هو الولي الحيد . انتهت اللطيفة الثانية

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : مثل الجنة التي وعد المتقون

لقد تقدم الكلام على الجنة والتارقي ﴿البقرة﴾ و ﴿آل عمران﴾ وغيرها وأسهبنا في الكلام هناك ، وانتهى بغيري أن نذكره هنا ما يناسب هذه الآية ، أن الله شرح الجنة شرحاً يسيراً النفوس في ﴿سورة الواقعة﴾ وغيرها ، فذكر الجنات والحرير والخور العين والأنهار وما هو معلوم مشهوراً أكثر من ذلك لأن أكثر الأمم صولماً ، فإذا ماتوا لا يجدون لهم قنة إلا فيها عرفوه في الحياة الدنيا ، فيدخلون الجنة ، وينالون ما يشتهون ، كما يقال : « أريت الجنة فإذا أكثر أهلها الله ، وعليون لأولى الأبواب » ، والمراد ببله أولئك الذين لم يرتفع نظرهم إلى سماء الجبال والكمال والحكمة والنظام ، فأما المتفكرون فهم الذين ينظرون وجه ربهم لما عشقوا جماله في هذه الدنيا ، فيكون نورهم الذي اقتبسوه في الدنيا ونظرهم الحكيم هو الذي يهديهم يوم القيامة إلى النظر إلى وجه ربهم الكريم ، فوصف الجنة بالخور العين والأنهار لأن أكثر الأمة ، وتطلب الطبقة المتوسطة التي لا هي بالغة النهاية في الحكمة ، ولا هي ببقية مع الطبقة الجاهلة بمثل هذه الآية فقال « مثل الجنة » فجعل الأنهار من اللبن والصل والتمر أمثالا ، وفي آية أخرى : « فلاتعلم نفس مألخى لهم من قرّة أعين جزاء بما كانوا يعملون » . وفي الحديث : « في الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » ولا جرم أن هذا أصرح من هذه الآية ، وتبيان لحقائق عالية ، وهي تلك المراتب السامية للفكرين وأهل الحكمة ، وفي آية أخرى : « وفيها ما تشبه الأنفس وتلذ الأعين » وهذا جامع لفئات العوالم ، وفئات الخواص ، وفئات المتوسطين ، وإذا كنا نرى هذه الدنيا قد جمعت فئات الإبهائم في المروج وفئات الملوك الفاضلين والقواد الماهرين ، وفئات الحكماء والعلماء المتفكرين الذين يعرضون عن الماديات اعراضاً ، ويفرحون بما في نفوسهم من الحكمة ، ولا يطلبون به بدلا ، أفلا نقول إن الجنة تكون كذلك ، بل هي أجل وأبهج في هذه المراتب . إن الله سيحشر الناس على حسب ما كانوا في الدنيا ، فالإبهام والجاهلة لا يفرحون إلا بما كانوا فيه ، وأرباب الحكمة لا يفرحون إلا بما كانوا فيه ، وليس من المعقول أن رجلا عشق الحكمة وفيها ثم مات ويحزى ، بالانهماك في المادة أي أنه ينزل في الجنة درجات . كلا . فإذا عشق الحكمة والعلم ولقاء ربه فهو لا محالة مائر إلى ما اشتاق إليه . قال عليه الصلاة والسلام لله من الساعة : « أنت مع من أحببت »

الكلام على الأنهار التي في الجنة

وسيعان وبيضان ، والقرات ، والنيل

في حديث مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « سيعان وبيضان والقرات والنيل كل من أنهار الجنة ، قال الشيخ محي الدين النووي في شرح مسلم : سيعان وبيضان غير سيعان وبيضان ، فأما سيعان وبيضان فهما في بلاد الأرمن ، فالأول نهر أدنه ، والثاني نهر المعصية ، وهما نهران كبيران جدا أكبرهما بيضان » اهـ

أقول : واعلم أن الأرض التي نسكنها فيها الخبز وفيها النثر ، والخبر المحض في الجنة ، والنثر المحض في جهنم ، ولما كانت هذه الأنهار الأربعة متمخصة للخبز ، وهي منبع حياة كثير من الأمم أشبهت الجنة من حيث الحياة والنعم والخبرات ، وهذا وارد في كلام العرب . قال الشاعر :

أوحشية الميتين أين لك الأهل * أبلخون حوا أم علمهم السهل
فتي خبرينا ملطعت وما انتهى * شريت ومن ابن استقرت بك الرحل
وأية أرض أخرجتك فأتى * أراك من الفردوس إن قنن الأصل

فإن علامات الجنان مينة * عليك وأن الشكل يشبه الشكل
فانظر كيف قال الشاعر : « قاتني أراك من القردوس » مع انه يعلم قطعاً أنها مخلوقة في الأرض ، ثم
حلل ذلك بملتين : علامات الجنان ، وتشابه الأشكال ، فهكذا هنا قال : إن هيئة هذه الأنهار أشبه بأهبار
الجنان من حيث الخيرات وإن كان الفرق شاسعاً . انتهت اللطيفة الثالثة .

اللطيفة الرابعة

في قوله تعالى : هدد جاء أشراطها
قد تقدم الكلام على أشراط الساعة في أواخر سورة الأنعام

المقصد الثالث

قال تعالى (ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة) أى هلا أنزلت سورة في امر الجهاد (فلذا أنزلت سورة
عحكم) مينة لا تشابه فيها (وذكر فيها القتال) أى الأمر به (رأيت الذين في قلوبهم مرض) ضعف وفاق
(يظنون إليك) شزراً وكرهية للجهاد وجبنا من لقاء الصدوق (نظر المفتى) عليه من الموت) أى كما ينظر
الشخص ببصره عند معاينة الموت (فأولى لهم) فويل لهم وهودعاء عليهم بأن يليهم المكروه ، وأولى من
ولى على وزن أقص (طاعة وقول معروف) أى يقولون طاعة الخ (فلذا عزم الأمر) أى فلذا دنا الوقت
خائب المناقون وكذبوا فيما وعدوا به (فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم) أى لكان المصدق خيراً الخ (فهل
صبيتم ان توليتهم) أى أمرتم من سماع القرآن وفارقم أحكامه ، أو توليتهم أمور الناس وتأمرهم عليهم (أن
تفسدوا في الأرض) أى أن تعودوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الفساد في الأرض بالعصية والبنى ،
وسفك الدم ، ورجعوا إلى الفرقة بعد ما جمعكم الله بالاسلام (وتقطعوا أرحامكم) أى فهل صبيتم أن تفسدوا
في الأرض وتقطعوا أرحامكم ان توليتهم عن الاسلام أو توليتهم أمور الناس ، وقد تم هذا كله . قال قتادة :
« كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله تعالى ؟ ألم يفسكوا الدم الحرام ، وقطعوا الأرحام ، وعصوا
الرحمن » ، وفي حديث البخاري ومسلم قال عليه السلام : « إن أرحم شجرة من الرحمن فقال الله تعالى من
وصلك وصلته ، ومن قطعك قطعته » ، وفي رواية أخرى نحوه ذلك ، ثم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
اقرموا ان شئتم فهل صبيتم ان توليتهم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم ، أولئك الذين لعنهم الله
فأصمهم وأعمى أبصارهم ، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها اه

وقوله (أولئك الذين لعنهم الله) الإشارة إلى اللذكورين وإما لعنهم لإفسادهم وقطعهم الأرحام (فأصمهم)
عن استماع الحق (وأعمى أبصارهم) فلا يفتدون إلى سبيله (أفلا يتدبرون القرآن) يتصفحوه وما فيه من
المواعظ حتى لا يجسروا على المعاصي (أم على قلوب أقفالها) لا يصل إليها ذكر ولا ينكشف لها أمر ، وإعلم
أن هذه الآية جاءت ردعاً لقسمين من الناس : (١) الذين تولوا عن الإيمان ورجعوا إلى الكفر ، والذين تولوا
عن القرآن وهم مؤمنون (٢) ومن يتولون أمور الناس ، فقولهم توليتهم سواء أكان بمعنى التولى عن الدين
أو عن أحكام القرآن ، أو تولى أحكام الناس مصحوباً بقطع الأرحام ، والافساد في الأرض يقرّب عليه وعيد
شديد ، وعذاب أليم ، فذكر اللعنة والصمم والعمى ، وإهم لا يتدبرون القرآن ، أو أن على قلوبهم أقفالاً . كل
ذلك وعيد شديد وذم لمن اتصفوا بهذه الأوصاف التي جاءت في هذا المقام ، فلو عيّد كما يكون على الكافر
المرتد عن الاسلام يكون على من قطع الأرحام وأفسد في الأرض ظلماً تولية أحكام الرعية ، أو لاعراضه عن
كتاب الله ، ولقد استفاض ذلك الذنب في المسلمين قروناً ، فالآية تليح بأنهم سيقعون في هذا الذنب في

الاسلام ، ولقد قطعت الأرحام في الفولة الاموية والعلمية ، وقاتل كل فريق منهم الآخر ، ولا يزال ذلك جاريا للآن ، بل الأمة الاسلامية اليوم يضرب بها المثل في التقطع والتدابير والتناحر والتناجر لأجل الولاية وتزى ملوك الاسلام ، وشيوخ الطرق ، وبعض آل البيت ، كل يحارب الآخر لا قصد سوى القسط على الناس وقصد سمناء أن ينهى الأبطال واحد فيرا كش قاتل كل منهما الآخر على مرأى ومشهن من فرنسا ، فكان ذلك سببا لوضع يدها على البلاد . كل ذلك داخل في قوله تعالى : « فكل عظيم ان توليت الخ » هذا وسيكون شأن الاسلام في المستقبل غيره اليوم ، وسيقوم الخلف فيقرمون علوم الأمم ، ويفهمون مثل هذا القول ، ويفرون تلك الراسات التي أسماها جند الآباء ، بل يتدبرون القرآن ، وتقول الأقوال من على القلوب ، وتفتح الأبصار والبصائر ويسمعون القول ، واذن يعملون الأمر شوري فيما بينهم ، ولا يولون إلا من أجمع عليه الشنب ، أما الامارات التي جرت في الاسلام سابقا فهي امارات أغلبها كذبة خاطئة جاهلة ، أوقمت للمسلمين في أشد التكبات ، هذا هو المفهوم من قوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلب أعظما » فان الناس اذا جعلوا الرؤساء تبع الأنساب كانت الأمة رهن الجالس على كرسى الحكم ، فان كان عاقلا عاقلا ، وان كان أحمق خرب البلاد ، وتكون الأمة كأنها آلات صماء وعلى قلوبها الأضال ، فإذا عقلت وفهمت ولك الأكفاء ، ولم تبال بالأنساب ، هذا هو غوى هذا المقام ، ثم خصص المرتين بقولت بينهما قوله (إن الذين ارتدوا على أدهرهم) إلى ما كانوا عليه من الكفر (من بعد ما تبين لهم الهدى) باللائل الواضحات ، والمهجرات الظاهرات (الشیطان سؤل لهم) سهل لهم اقتناف الكبائر ، ومعنى السؤل الاسترخاء (وأمل لهم) ومدة لهم في الآمال (ذلك بأنهم قالوا الذين كرهوا ما نزل الله) أى قال المنافقون لليهود الذين كفروا (ستطيعكم في بعض الأمر) أى في بعض ما تأمرون كالتعمود عن الجهاد والتظاهر على الرسول (وا الله يعلم أسرارهم) كقولهم هذا الذي أفشاء الله عليهم (فكيف اذا توفهم لللائكة) فكيف يعملون ويحاثلون حيث اذا قبضتهم لللائكة حال كونهم (يضربون وجوههم وأديبارهم) بمخاض من حديد (ذلك) الضرب والعقوبة (بأنهم اتبعوا ما أسخط الله) أى ترك الجهاد مع رسول الله ﷺ (وكرهوا رضوانه) أى كرهوا ما فيه رضوان الله عز وجل (فأحبط أعمالهم) التي عملوها من أعمال البر لأنها لم تكن لله ولا بأمره (أم حسب الذين في قلوبهم مرض) شك ونفاق وهم المنافقون (أن لن يخرج الله أسفانهم) أى يظهر أسفادهم على المؤمنين فيبديها حتى يعرف المؤمنون خافهم ، والضغن الحقد الشديد (ولونشاء لأريناكمهم) لعرفناكم بدلائل تعرفهم بأعيانهم (فلعرفهم بسيماهم) بعلاماتهم وهو أن يسهم الله بعلامه يطعون بها ، وعن أنس رضى الله عنه : ما نفي على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية أحد من المنافقين كان يعرفهم بسيماهم ، واللام في قوله « فلعرفهم » داخل في جواب لو كائى في « لأريناكمهم » ثم قال (و) الله (تعرفهم في لحن القول) أى أسلوبه ولما تته إلى جهة تعرفه وتورية أى وتعترف المنافقين بالمخديا يرضون به من القول من تهجين أمره وأمر المسلمين وتقييده والاستهزاء به ، فكان بعد هذا لا يتكلم منافق عند النبي ﷺ إلا عرفه بقوله ، ويستدل بفحوى كلامه على فساد بطنه ونفاقه ، وذلك لأن الناس يجبولون على أن تتلقى ألسنتهم بما وقرى أنفسهم واستقر فيها من المعاني فتظهرها فلتات اللسان ، وكما أن العين تظهر ما أكنه الجنان من حب وبغض ولون الوجه بين ماخفى من الحياء والخجل والبشر والحزن والغضب ، هكذا اللسان تأتي على طرفه فلتات تبين تلك الخبائات النفسية ، هذا طريق علم الخلق ، أما علم الله تعالى فقد ذكره بقوله (وا الله يعلم أعمالكم) فيجازيكم على حسب قصدكم فان الأعمال بالنيات (ولنولينكم) بالأمر بالجهاد ، وسائر التكليف الشاقة (حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين) على مشاقها أى حتى تميز المجاهدين الصابرين من غيره ، ويستبين أمره (ونلوا

أخبركم) أى ما يخبر به من أعمالكم فيظهر حسنها وقبحها (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا
الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى) أى من بعد ما تبين لهم أدلة الهدى وصدق الرسول ﷺ وهم قريظة
والنضير والمطمعون يوم بدر (لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا) وإنما يضرون أنفسهم والله منذر عن ذلك (وسيجب
أعمالكم) ثواب حسنات أعمالكم ، أو يكابدهم التى نصبوها للشاقة المذكورة ، وستكون عقبتها قتل بعضهم
وجلاء البعض الآخر عن الأوطان (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْغُوا أَعْمَالَكُمْ)
أى كما أبطل هؤلاء أعمالكم بكفر ، أو فاق ، أو هب ، أو رياء ، أو بنى الرسول وعداوته ومخالفته ، يقول
الله : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقُرْآنِ أَطِيعُوا اللَّهَ فِيهِ أَمْرُكُمْ مِنَ الْفَر_اسِ وَالصَّدَقَةِ ، وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فِيهِ
أَمْرُكُمْ مِنَ السَّيِّئَةِ وَالْفِرْوَ وَالْجِهَادِ ، وَلَا تَبْغُوا أَعْمَالَكُمْ بِالرِّيَاءِ الْخُ (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ
مَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ) كاصحاب قليب بدر (فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) فأما من مات وهو مؤمن مع كثرة ذنوبه فغسى الله
أن يغفره (فَلَا تَهِنُوا) فلا تفحقوا (وَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ) ولا تدعوا إلى الصلح خورا وتذلا (وَأَتِمُّوا الْعَهْدَ)
العابون لهم ، والعابون عليهم (وَاللَّهُ مَعَكُمْ) ناصركم (وَلَنْ يَرْكَمَ أَعْمَالَكُمْ) ولن ينقصكم أجر أعمالكم ، قال
وترت الرجل إذا قُتِلَ قَرِيبًا لَهُ ، أَوْجِبًا مَثَلًا فَأُفْرِدَتْ عَنْهُ (إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَبِيسٌ وَلَهُوَ) لآيات لها (وَأَنْ
تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ) ثواب إيمانكم وتقواكم (وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالُكُمْ) جيع أموالكم بل يقتصر
على جزء يسير كرم العشر ، أو العشر ، أو أشاة من الأربعين إلى آخرواى الزكاة (إِنْ يَسْأَلُكُمْ فِيهِمْ) فيجهدكم
بطلب الكل والالاح كالخلف المبالغة وبلوغ الغاية (تَبْخُلُوا) فلا تفلطوا (وَيُخْرِجُ أَضْغَانَكُمْ)
ويضغكم على رسول الله ﷺ (هَاتَمٌ هَوْلًا) ها لتنبيه ، وأولاد اسم موصول بمعنى الذين صلت (تَدْعُونَ
لَتَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) كلّفوا والزكاة (فَنُكِمَ مِنْ يَسْخَلِ) أى خُفِكُمْ قوم يسخلون (وَمَنْ يَسْخَلِ) بالصدقة
وأداء الفريضة (فَأَمَّا يَسْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ) أى يسخل عليها كأن الله يقول : لو أنكم سئتم إعطاء أموالكم
كلها لبختم بها ، ولكرهمته النية ، والميل على ذلك أنكم أتم الذين تدعون لتنفق في سبيل الله وهى المنافع
العامة ومع ذلك يمنع بعضهم ، فإذا كانت هذه حالكم والمطالب منكم العشر ، أو ربع العشر ، أو أشاة من
الأربعين ، أو أشاة من كل مائة شاة ، فما بالكم لو كنتم مطالبين بالمال كله ، ومع ذلك فمن يخل فأما نتيجة
البخل عائدة عليه (وَاللَّهُ الْغَنَى) وأتم الفقرة) وإنما هو الذى نظم ملكه فيجعل قوما لمنافع العامة ، هكذا
قضى نظامه أن لا يبيع الأرض وعياده فيها بدون مرشدين قائمين بالأمر يبلون ما لهم وجاههم وأنفسهم ،
فإذا كنا أرسلنا محمدا ﷺ إِلَيْكُمْ لَتَكُونُوا لِلنَّاسِ هُدًى ، وظهر منكم أنكم غير قائمين بالأمر لنقص في
استعدادكم ، ولسبق علمنا القديم قلنا هذا الدين إلى أم أخرى يقومون به ويسودون عليكم لأنهم أصلح له
منكم ، وهذا قوله (وَأَنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ) أى يقيم مقامكم قوما آخرين (يُمْ لََا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) في
التولى والزهد في الإجماع وهذا راجع لقوله تعالى : «فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَعُوا
أَرْحَامَكُمْ» فهنا أوضح لتمام «وَأَنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا» خيرا منكم في القيام بهذا الأمر ، وهذه من
مجازات القرآن ، ألا ترى أن أمة العرب الذين خوطبوا بهذا القول هم هم الذين اقتتلوا على الخلافة ، فأولا
بنو أمية قاتلوا آل البيت وشردوهم ، ثم جاء العباسيون والفرس معهم قاتلوا أبناء عمهم فأهلكوا بنى أمية
وشردوهم كل مشرد ، ولما تولى بنو العباس أخفوا يقتلون أبناء الحسن والحسين رضى الله عنهما ، وهذا
هو عينه قطع الأرحام ، فلما استفعل النظم وأخشوا في قطع الأرحام سلبهم الله الملك وقطع إلى الفرس تارة
والترك أخرى ، وذلك أيام ملك بنى العباس ، فكان بنو العباس ملوكا لفظا ، والفرس ، أو الترك ملوكا معنى ،
حتى قال الشاعر في أحد خلفائهم في القرون الأولى :

خليفة في قصص * بين وصف وبنا

يقول ما تلا له * كما قول اليف

فكان لهذا الخليفة ملوكان : أحدهما اسمه «وصيف» ، والثاني اسمه «بنا» وهو نعت أمرهما وكانوا يقتلون الخليفة ، ويجعلون أسر مكانه ، وتارة يسمون عيني الخليفة وهكذا ، ولما ضيف أمر الفرس والترك الأتراك سلط الله التتار فهبطوا على الدول الإسلامية فأفروها ، وخرّبوا الديار ، وأزالوا ملك العباسيين والفرس ، وملكوا هم بلاد الإسلام ، ثم أسلموا هم أنفسهم وتولوا أمر الإسلام . وقد قُتِمَ مطلقاً قريبا وقد كان الترك قائمين بأمر الإسلام ثم تغيرت الحال وحكومتهم الآن مسلحة قوية ولكن تزعم أنها لا دين لها ، وهكذا نرى الفرس والأفغان كل هذه حكومات قائمة الآن إسلامية ، أمالة العرب قاتنا في مصر وفي الشام وفي العراق ، وفي بلاد الغرب طرابلس وتونس والجزائر ومراكش ليس بينهم جامعة ، أما الترك فهم اليوم يبحثون عن جامعة جنسية لغوية ، فأما أبناء العرب ونحن أهل مصر منهم فليس بينهم جامعة لأنهم لم يتعلموا تملياً جميعاً يؤهلهم للاجتماع ، ولذلك نرى الله استبدل بنا نحن أبناء العرب قوماً غيرنا ، وليسوا مثلاً ، بل هم أرقى مدينة وسياسة ، حافظوا على أوطانهم وديانهم ، ولذلك نجد الترجمة في بلادنا جاثمين ، وعلى دورنا حارسين ، وفي رغد عيشنا متمتعين ، وستبدل الحال ويرجع الأمر إلى أصله ويرقى أبناء العرب رقياً لا نظير له في قديم الزمان . هذا المخلص معنى قوله « يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » .

هذا هو الأصل في الاستبدال ، فإذا سمعت قول الكلبى هم كندة والتضع من عرب اليمن ، أو سمعت قول الحسن أنهم العجم ، أو سمعت قول عكرمة أنهم فارس والروم ، وإذا سمعت أن النبي صلى الله عليه وسلم ضرب على منكب سلمان الفارسي ثم قال هذا وأصحابه ، وإذا سمعت ما روى عنه عليه السلام إذ قال : « لو كان الإيمان منوطاً بالتراب لتناوله رجال من فارس »

إذا سمعت هذا كله فاعلم أنه قد تم ، وقد تم ما هو أكثر منه ، فقد قام الترك بدورهم ، وأما الروم فلم يقوموا بدورهم في الإسلام إلى الآن ، وقد عرفت سر ذلك الاستبدال ، فإذا علم الله أن المسلمين لا يصلحون لاقامة العدل في الأرض ، ولا هم صالحون لنظام المدن ، ولا هم قائمون بإدارة حركة العالم الإنساني ، ولا هم آباء لعباده يصلحونهم ويكونون خلفاء الله عليهم أنعم وأبدهم ، وسلط عليهم أمماً أخرى قاتلتهم ، وقد تعقبت الإسلام كما جرى أيام جنكيزخان الذي زحف على بلاد الإسلام في أواخر القرن السادس الهجري ، والسبب هو لذلك كور في ﴿ سورة الكهف ﴾ إذ قتل المسلمون التجار الواردين من بلاده ، وكان معهم مال عظيم ، وذلك بإشارة التجار المسلمين الذين حقدوا على أولئك التجار الأغنياء ، فقام جنكيزخان ثلاثة أيام لم يبق فيها طعاماً ، وتضرع إلى ربه ، وهو من عباد النار ، أى يتقرب لله بالنار ، وقال : يا الله أردت عمارة بلادك فتاومنى للمسلمون ، وقتلوا رجالى . واستعان بالله تعالى ، وقام لحرب المسلمين ، فصره الله عليهم ، وسلط الله التتار على أمة الإسلام ، وذهبت دولة الأمة العربية إلى الآن ، وكان الملك إذ ذاك قطب أرسلان ، وصدحو قرين أسلم التتار ، وقاموا بأمر الإسلام في جهات كشيرة من الأرض ، ولا يدري إلا الله من ذا من الأمم سيقوم بهذا الدين بعد هذا الزمان ، فآية الاستبدال قرأ ولا بأسخ لها ، ولله هو المنزل وهو الخبير اهـ

لطائف عامة للسورة كلها

وهي سبع لطائف

(١) الطيقة الأولى في قوله تعالى : الذين كفروا وصتوا عن سبيل الله أضل أعمالهم . إلى قوله :

كذلك يضرب الله للناس أمثالهم .

(٢) في قوله تعالى : « حتى تضع الحرب أوزارها » .

(٣) في قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا ان تصبروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم . إلى قوله تعالى : فأجبط أعمالهم .

(٤) في قوله تعالى : « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » إلى قوله : « والكافرين أمثالها » .

(٥) في قوله تعالى : « فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون » إلى قوله تعالى : « فاعلم أن الساعة آتية أكرب وأشد » .

(٦) في قوله تعالى : « فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم » .

(٧) في قوله تعالى : « فهل عسى أن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم » .

الطليفة الأولى في قوله تعالى : الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم
إلى قوله : كذلك يضرب الله للناس أمثالهم

مقتضى هذه الآية أن الذين كفروا فصل أعمالهم ، والمؤمنون فصل حالهم ، وهل لنا مصداق هذه الآية أكبر ما شهد به العلامة (لوثراب استودارد) العالم الاجتهادى الأمريكى في كتابه «حاضر العالم الاسلامى» الجزء الثانى إذ يقول تحت عنوان : « سيطرة الغرب على الشرق » مالم ينصه : « إن العالم الاسلامى أخذ في القوق السرى الآن » وضرب أمثالا قلبك لاعل فكرها هنا ، وسنذكر ذلك كله مطولا إن شاء الله في (سورة المجرات) عند الكلام على قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » . وهناك سيكون الكلام في أربع مقالات : المقالة الأولى في قوله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » فنذكر هناك كيف تناكر المسلمون بعد عصر الصحابة واقتل الأمويون والعباسيون وغيرهم ، ونذكر هناك أن أعمالهم تخالف هذه الآية على خط مستقيم ، وكل ذلك إنما جاء من الاستبداد وترك الشورى ، والشورى لا يراعى فيها للخلافة إلا الأصلح ، والمقالة الثانية في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم » إلى قوله : « توب رحيم » وفي هذا كلام في تفصيل الأخلاق الشخصية ، المقالة الثالثة في قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى الخ » وفيها الكلام على معاملة أوروبا لأهل الشرق الآن . المقالة الرابعة في الكلام على هذه الآية أيضا ورأى القى نشرته في الشرق والغرب في السلام العلم .

الطليفة الثانية في قوله تعالى : حتى تضع الحرب أوزارها

لقد قدم تفسيرا لهذه الآيات ، وأن الحرب تنقطع إذا لم يبق في الأرض إلا مسلم أو مسلم ، وإذا نزل عيسى ابن مريم ، وإعلم أن هذا الزمان هو زمان الانقلاب ، فترى الأمم تلهج دائما بالسلام العام ، وزرع السلاح ، وقامت البلشفية ، وأزالت أكثر الملكية ، وجعلت الأمة كأسرة واحدة ، ولكن أعمالها مجهولة لدينا ، فاعلم أن هذه الحركات البلشفية وغيرها لن تلبث اليوم ولا بد من بقاء هذه الآراء ومحورها وتبطلها حتى يأتى يوم ترتفع فيه أمة الاسلام ، وتلقى دلوها في اللاد وتقول : يا عجبا ! إن أوروبا تقول : السلام السلام « ليس بشك فندرجى » يا أوروبا أنا قائمة مقام نبي آخر الزمان الذى قال الله فيه : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، ولقد رحم الله العالم به أيام طفولته ، فوج العالم الانسانى رجة أطارت نومه ، وتقلب الدول والممالك ، وهام هذا الزمان قد دار دورته ، ونحوك كله وصار العصر العلم ، والعلم هو مقتضى ديننا فلنقم بالأمر ، ولنسكن أرقى الأمم علما وصناعة وجيوشا ، ولنقم أمة العرب بنصيحها من العلم والمدنية ، ولترقى ،

ولتند شعوبها من طنجة إلى العراق ، وتضم أطرافها إلى ملكة واحدة كما تقدم شرحه مطولا في (سورة آل عمران) عند قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعوون إلى كتاب الله » فارجع إليه إن شئت تجد طريق اتحاد العرب أولا مع بعضهم ، ثم اتحادهم مع الترك الذين سبقوهم في هذه الخربة وكذا غيرهم ، ثم يقوم المسلمون بعد ذلك بدورهم المهم ويقولون فلنكن راحة للعالمين ، ولكن السلام في العالم ، فلنمهد طرقه حتى نستعد الأمم لاشراق الروح اليسوية ، فيصير العالم اخوتنا ، واذن لا يكون حوب ولا ضرب ، ولا جزية ، بل يكون العالم الانساني كأسرة واحدة ، كل يقوم بما يخصه من الأعمال الانسانية وهو نادم للجميع .

بهذا وحده نستحق أن يقال فينا : « لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » وتكون نسبتنا إلى الأمم كنسبة نينا ^{نينا} إلينا ، فكأننا مبعوثون للأمم ، وللمبعوث يكون كرميا وحكيما وعليها وشجاعا ومقداما ، وبهذا أيضا يظهر قوله تعالى : « ليظهر على الدين كله » فأما نحن الآن فلانستحق وصفا من هذه الأوصاف ، بل نحن عالة على الأمم ، فاذا قام للمسلمون الحاضرون بمبادئ هذا العلم فيها ونعمت والا فإن الله يقول : « وان تولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » فأرى أنه لابد أن تقوم أمة بهذا العمل لانعرفها الآن اذا فكس للمسلمون الحاضرون على أعقابهم ، وبقوا في الجهالة ينسكون ، وفي جهنم الذل والاستعباد يسبحون . هذا وقد تكلمت في هذا الموضوع في سورة كثيرة ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

في قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » والذين كفروا فتصا لهم وأضل أعمالهم »

وأعظم ما نستشهد به على معنى هذه الآية في زماننا ما جاء في كتاب المؤلف المذكور لكتابه حاضر العالم الاسلامي إذ قال في صفحة ٧٩ وما بعدها في الجزء الثاني ملخصه (وسياقي في سورة الطحرات) « إن العرب في بلادهم ، والترك في الأناضول ، والفرس في بلادهم ، وأهل الهند ، كل هؤلاء مجتهدون لفرق ، وأوروبا راحة عنهم سريرا لأعماله » .

اللطيفة الرابعة

في قوله تعالى : « ألم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم » الخ . مقتضى هذه الآية أن معرفة أحوال الأمم قديما وحديثا من أهم ما يقتضي به الأمم الاسلامية ، ولقد كان من صنع الأوروبيين في بلادنا أنهم يمنعون الحقائق العلمية الواضحة ، ويعلمون الناس قسورها لئلا يعرفوا الحقائق ولكن الله غالب على أمره ، ولا تطيل في هذا المقام ، فهذا التفسير جله لا يوضح هذه الحقيقة .

اللطيفة الخامسة

في قوله تعالى : فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون أم لا يأتون إلا الساعة ؟ جاء في الحديث من رواية البخاري : « اذا ضيقت الأمانة ، فانتظر الساعة » ، وكيف ضاعتها ؟ قال اذا وسد الأمر إلى غير أهله . وفي رواية أخرى في البيهقي ومسلم : « إن من أشراط الساعة أن يتقلب الزمان ، وينقص العلم ، ويثبت الجهل » . وفي روايات أخرى : « ويشرب الخمر ، ويشق الزنا ، ويذهب الرجال ، ويبقى النساء » . وجاء أن من أشراطها انشقاق القمر ، وبشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأنت إذا نظرت في هذه كلها علمت أنها هي الأسباب في خراب الأمم ، فإن الأمر إذا وسد لغير أهله بأن أسند إلى من لا يصلح له كما اتفق للملك الترك إذ جعلوا خلفاء الاسلام من أسرة مخصوصة ، فكان ذلك سببا في ضعف الدولة ، فلذلك أخذها الفرنجية ، فلما تولى الشعب الحكم بنفسه طردوا الفرنجية ، فالتفتحت هذه الأحداث التي هي من علامات الساعة الكبرى يجدها من حيث علم الاجتماع دلائل على قيام الساعة الصغرى وهي خراب الدول ، فحي رأيت أمة من الأمم الاسلامية أقامت عليها رئيسا جاهلا يتولى أمرهم ، وتركوا له التفكير أو فشا بينهم ما يضر بنظام الدولة من ظهور الفتن ، وقص العلم ، وظهور النح ، والقتل ، ورفع العلم ، وظهور الجهل إلى آخر ما في الأحداث فإن ذلك كله مؤذن بخرابهم ، وضياح دولهم ، ولما فشا ذلك في أمتنا المصرية دخل الانجليز بلادنا وهكذا بلاد أخرى ، فشكل علامات الساعة المذكورة تكون مننرات بهلاك الدولة التي تقع فيها ، وهذه للنسرات في الأمم تتلاحق آلافا وآلافا من السنين ، والأمم تموت دولة بعد دولة حتى اذا انقضت سلسلة الأمم ، ووقعت الواقعة ، هناك تقوم القيامة ، ويكون العرض العالم الأخرى بعد انتهاء أعمار الأمم .

وقوله تعالى : « واستغفر لنبك الخ » جاء في حديث البخاري عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة » . وفي رواية : « أكثر من سبعين مرة » . وفي حديث مسلم : « إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر في اليوم مائة مرة » . وفي رواية أيضا : « توبوا إلى ربكم فوائده إني لأتوب إلى ربي عز وجل مائة مرة في اليوم » اهـ

ذكر بعض سر هذه الأحداث

اعلم أن الذين اصطفاهم الله من الناس لمداية لخلق لا يقبل الناس على أقوالهم إلا لما فيها من النور الإلهي والاشراق القلبي ، فهؤلاء في أول أمرهم يكونون عاكفين على العبادة والتأمل والخلوة ، فلذا كملت نفوسهم وقاموا بالدعوة والارشاد فإن لم يقدم الامداد لهم من الله وقت دعوتهم ولم تم ، فلا يحكم مرشد ، ولا عالم له قبول ، ولا ولي إلا وهم متجهون إلى وجهة الحق أثناء الدعوة ، فلأنهم غفلوا عن الوجهة الإلهية إبان الدعوة لمجرهم الناس ، لموت وجدهم ، وضعف نفوسهم ، مع أنهم فصحاء ، بلغاء حكياء ، أمال أنبياء فأمرهم فوق هؤلاء ، ومع ذلك هم مزمعون بالتوجه إلى الله دائما ليوم الامداد السري ، فليكن أن تظن أنك وأنت تعلم الناس وترشدهم تنال من نفوسهم مطلبك إلا اذا كانت نفسك متجهة لله في أكثر الأوقات ولذا كان الله تعالى يقول لرسوله ﷺ « فاسجد واقترب » ويقول « فلماذا فرغت » أي من عملك « فأنصب » أي في العبادة « وإلى ربك فارغب » فإياك وأنت لست بنبي . اذا فهمت هذا فهمت قوله صلى الله عليه وسلم : « إنه ليغان على قلبي » أي يغلب عليه ، وذلك أنه وهو في الفزوات وفي حل مشكلات القضايا ، والفصل بين الناس ، وتعلم الأمة ، لا يجد متسعا فيه يذكر الله تعالى ، وقد علمت أنه لابد له من الاستمداد ، ولا امداد إلا بصلة ، والبصلة بين العبد والرب الفكر والاستغفار ، فحي ذكر الله العبد حصلت البصلة بينهما ، فيكون الامداد ، وبه ينفع الارشاد ، ويقع المرشد سامعوه ، فلذا استغفر الله في اليوم مائة مرة ، أو سبعين مرة ، أو أكثر أو أقل ، فالحق ذلك ربط البصلة حتى يستمر الامداد ، فلذا سمع المسلم قوله صلى الله عليه وسلم : « توبوا إلى ربكم فوائده إني لأتوب إليه الخ » فبراد منه هذا للمعنى أي انه يجب بقاء البصلة بين العبد والرب بالاستغفار أو الفكر ، أو التفكير في جهله وصعته أو نحو ذلك حتى يمدد الامداد ، فإن الانسان مادام يزاول الأعمال سواء أكانت دينية أم دنيوية فإن ذكر الله أكبر ، فليفرغ إليه في أوقات الصلوات الخمس وغيرها ليوم الامداد والقبول . وبهذا تم الكلام على الطبقة الخامسة في قوله تعالى : فهل ينظرون إلا الساعة ، إلى قوله : متقلبكم ومثواكم والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة السادسة

في قوله تعالى : فاعلم أنه لا إله إلا الله الخ

اعلم أن هذه الآية عليها ألفت كتب الحكمة بحذفها من أقدم التلويح إلى الآن ، وقد رأيت أن أقدم اليك أيها القارئ في هذا المقام عنوان فلسفة الأمم أجالا وهي رسالتنا للسماة « مرآة للفلسفة » وهي التي أشرنا إليها غير مرة فيما تقدم من التفسير . وهذا نصها :

رسالة مرآة الفلسفة

بسم الله الرحمن الرحيم

في يوم من أيام شهر رمضان للعظم سنة ١٣٤٧ هـ قابلي طائفة من طلبة مدرسة « دارالعلوم » بالقرنل وأخذوا يقفون على أسس في الفلسفة . وعما قاله أوسطهم لي : إن في الشرق اليوم حركة علمية ، وهما هذا تاهض يدرس العلوم على اختلاف أنواعها ، والفنون على تنوع أصنافها ، والعقول استيقظت من سباتها ، وقامت من رقبتها ، وأخذت تبحث في الآراء والبيانات القديمة والحديثة :

وكل يدهي وصلا ليلي * ويلي لاقرهم بهذا كا

فها نحن أولاء جئنا إليك قاصدين أن تبين لنا على وجه الاختصار مقاصد الفلاسفة العاتمة بحيث يكون ذلك المختصر جامعا لجمل ما عنوه ، وأهم ملأوه ، ليكون نموذجاً لمراسلتها في مطالعها ، ولتطمئن النفوس إلى الحقائق ، لأن العقول في الشرق التاهض الآن فترقت وجهتها ، واختلفت آراؤها ، في أصل العالم ، وفي أمر الروح والمادة والعقل ، وماذا قال الأولون في هذا ؟ ولابد من التلخيص بهذه الأصول التي هي أسس العلوم كلها لأن العلوم الجزئية من النبات والحيوان ، وتشريح الإنسان ، والطب ، والفلك ، ونحوها من سائر العلوم الطبيعية والرياضية كلها تحتاج إلى علم يكون لها بمثابة الرأس من الجسد . قلت : هذه مباحث العالم أجمع وكيف أجمع علوم الأمم كلها . ذلك يعوزه مكاتب الأمم كلها شرقاً وغرباً ، ولا طاقة لأمة فضلاً عن فرد واحد بجمع العلوم كلها وتلخيصها ! فقال : أنا ما طلبت إلا إجمال ما اطلعتم أتم عليه ، لا كل علوم الأمم ، وزيد فوق ذلك أن يتجلى لنا رأيك في الوجود ، وتجاربك الخفية ، وما هو أقرب إلى الحق من المذاهب . قال آخر

ومرآة المنجم وهي صفري * تزيه كل علمة وقفر

فقال آخر : إن الوجه من الجسم يدل على ما فيه من قوة وضعف ، وجمال وقبح ، وصحة ومريض .

قلت : سأجيبكم بعد ثلاثة أيام إن شاء الله تعالى . ولما مضت المدة حضروا وطالبوني بالبحار ما وعدت . قلت : إن هذا الموضوع فكرت فيه فرائت أنه يشتمل على (مقدمة وبيان : الباب الأول) في ذكر مذاهب الطبيعيين والهرميين من اليونان والسوفسطائية ومنهم الصندية والعندية والأدريية ، ثم أتقي على آخرهم بذكر مذهب (انكساغورس) الذي ارتقى عن أهل السفسطة بإثبات مانع للعلم ولكن لا عمل له ، ثم أذكر مذهب (سقراط) الذي أثبت صانعا للعالم يحيط به علما ، ثم مذهب أفلاطون الذي قال بذلك وبالمثل الأفلاطونية ثم أتقي بمذهب (أرسطاطاليس) الذي لا يعتبر للمثل الأفلاطونية موجودة ، وإنما يقول على المادة وصورتها والمحول عليه عنده هي الصورة الخ كما استراه إن شاء الله تعالى وهكذا مذاهب الاسكندرانيين وعلماء الانجليز والألمان وغيرهم ان شاء الله تعالى (الباب الثاني) في تقسيم العلوم جميعها بحيث يمكن حصرها أصولا وفروعاً فيخرج القارئ من هذين الموضوعين واقفاً على صفحة من تاريخ العقول البشرية في الفلسفة ، وعلى

صفحة من قس الوجود المقسم إلى علوم ، إذ لكل حصة من العلم قسطها من العلوم ، كالنبات والحيوان والفلك الخ . فقال أوسطهم : فقتل علينا القنمة الآن ثم البايين ، وأقترح أن تسمى الرسالة «مرآة الفلسفة» فأقره الجمع ، وهناك شرعت التي عليهم هذه الرسالة مبتدأ بالقتمة : (١)

مقدمة رسالة مرآة الفلسفة

هنا أربع قواعد :

(١) إن جسم الانسان من العوالم الأرضية .
(٢) وأن الضوء الذي يشرق عليه وعلى كل حيوان ونبات لنفوه آت من الكواكب العلوية كالشمس
(٣) والضوء الواصل لكل حي هو ما يلقه ويناسبه .

(٤) وأيضا فوائد له .
فهذه القواعد الأربع ظاهرة في كل مخلوق ، فكل مخلوق على الأرض إنما هو جسم اشتق من جسم أكبر منه ، وضوءه مساوي ، آت من ضوء عالم ، وهذا الضوء على مقداره ، وهو نافع له ، وعلى مقتضى هذه القواعد الأربع ننظر في نفسه الناطقة وقول : لكل امرئ نفس ناطقة :

(٥) هي من عالم عقلي أكبر منها كما كانت أجسامنا من عالم أرضي أكبر منها ، وكما اشتقت أجسامنا من عالم أكبر منها .

(٦) وهذا العالم العقلي مساوي لا أرضي ، بدليل أن الضوء في القاعدة الثانية من السماء ، فإذا كانت الأرض قد احتاجت إلى عوالم السماء في أخس الضوءين وهو الحسي وهو النور ولم تقدر على الاتيان به من نفسها فهي عن الضوء للضوى وهي النفس الناطقة أهجر ، إذن النفس الناطقة ذات الآثار الباهرة آتية من عوالم أرقى وألطف من عوالم الأرض ، إذن في الوجود عقل عام يستمد منه كل موجود ما يناسبه من الإدراك ، فحساس النبات ، وغرائز الحيوان ، وعقل الانسان كلها منه ، وكما انها جميعها تستضيء بالشمس ، هكذا يستضيء بأطنها بالعقل العام الذي يدركه بالبصائر لا بالابصار
(٧) وهذه النفس الناطقة هي المناسبة لهذا الجسم لا يخلق أعظم منها .

(٨) وغرائز هذه الروح مقدرة بمقتدر منافع الجسم وحاجاته .
فهذه أربع قواعد في مقابلة الأربعة الأولى بالقياس عليها . فقال قائل منهم : إذن هذا برهان تمثيلي . فقلت نعم ، ولستنا ونحن في هذه الأرض بقادرين على برهان عقلي أرق منه . فقال : ماذا بعد ذلك ؟ فقلت :

(٩) هذه القوة الناطقة لا قوة لها على أن تترك ما فوق طاقتها وهو كل معقول ومعالم . فقال : ما الدليل على ذلك ؟ فقلت : لأنها محصورة في مقدار صغير من المواد الأرضية ، وأن الأرض صغيرة بالنسبة للشمس ، والشمس ومجموعتها نقطة من بحر من بحار المجرة ، والمجرة لا قدر لها بالنسبة للأجرام الأخرى ، وما نسبة أرضنا اذا صغرت بحيث تكون جوهر فردا إلى العالم المقدر وجوده إلا كنسبة الجوهر الفرد إلى ألف مليون أرض ، إذن كيف تترك القوة الناطقة المحصورة في جزء صغير من الأرض مالا حده من الوجود .

(١٠) فقال لي : أيهما أصل في الوجود ؟ القوة الناطقة أم المادة ؟ فقلت : إن العلة وصغار العلماء يظنون أن المادة هي الأصل ، ولكن البرهان يثبت أن القوة الناطقة هي أصل الوجود . ذلك أننا نرى هذه المادة لما بحثها القسما قالوا انهم لم يعرفوا إلا صفاتها وهي ست وثلاثون صفة تعرف في فن

(١) تذكرة : لقد ذكرت الباب الثاني في سورة لقمان فلانبعده هنا فيما سيأتي

المقولات وهي عشرة موصفة في كتابي « بهجة العلوم » في الفلسفة العربية ، وموازنتها بالعلوم الحديثة (تحت الطبع الآن) . فالتقل والتلف ، والحرارة والبرودة ، والحلاوة والصنوبة ، والملاحة والمرارة ، وخبث الرائحة وطيبها ، وأموات الحيوان والانسان ، وكلامه وموسيقاه وصور الأشياء وألوانها وأصباحها ، وقربها وبعدها .

هذه عشرون صفة من ست وثلاثين المادة اكتتبنا بها عن بقاياها ، لم يعرف الناس من المادة إلا أمثال هذه وهي لم تخرج عن كونها أعضاء ، فإذا اعتبرنا التقل في قطعة من الحديد ، وقلنا هذا دليل على وجود المادة ، فهذا التقل يزول إذا جناه فسال ، ثم أجناه فصار بخارا ، فأين التقل إذن ؟ وهكذا بقية الصفات ، هذا بحث المتقنين ، فهم قالوا أنها لا وجود لها ، أو وجودها ضعيف ككسائي إيضاحه في الكلام على أرسطو ، ولما بحثها المتأخرون ساروا على نهج غير ذلك التهج ووصلوا إلى نفس النتيجة ، ذلك أنهم قالوا : إن هذه المادة ترجع إلى العناصر التي تبلغ نحو ٨١ والعناصر ترجع إلى جواهر فردية ، والجواهر الفرد راجع إلى قطا ضوئية ، والنقط الضوئية تدور سالبها حول موجبتها ستة آلاف مليون مليون مرة في الثانية مثلا وباختلاف أعداد تلك النقط الضوئية واختلاف حركتها تختلف العناصر ، ومن العناصر ركب هذا الوجود كله من سموات وأرضين . إذن كل ماثرا إن هو إلا أنصواء كهربائية تختلط أمام حواسنا فصارت على هذا النمط التي ألقناه إذن لامادة عند انقضاء : ولامادة عند المحدثين ، وأما هي أمر خيالي راجع إلى عرض هوض ، والضوء حركة ، والحركة قوة ، إذن هذا العالم قوة عظيمة لا غير ، هذا ما يراه الحكماء قديما وحديثا في عالم المادة ، فلننظر إذن في القوة الناطقة (أولا) : أننا نرى أننا إذا رأينا صورة ما في وقت ما ، وكانت هيئة جيدة ، ثم صرّت مشرقات السنين ، فأننا نرى تلك الصورة الشابة قد صارت شيخوخة محمودة الظهر ، فإذا رجعا إلى نفوسنا وجدنا نفس الصورة الأولى لا تزال في ألواح نفوسنا ، وهي بقية لم تتغير ، ولم تسط عليها عذيت السهور : فهي ثابتة ثابت رضوى والأهرام بالجيزة ، إذن الصور تثبت في القوة الناطقة ، ولا تثبت في المادة ، وهذا يؤيد ما قلنا : « ان المادة عرض كثير التغير » — (ثانيا) ان الصور التي ترسم على اللوحات في علتنا الأرضي أشبه بالصور المرسومة في خيالنا ، لأنها صور رسمت في المادة الأثرية التي هي أثبت من عالم المادة والمادة الأثرية أقرب الى النفس الناطقة ، لتلك تدوم هذه الصورة الشمسية في لوحات التصوير مع سرعة تغير الصورة المرسومة في المادة ، إذن عالم الأثير ، وعالم النفوس الناطقة أصل في الوجود ، فأما المادة فليست أصلا فيه ، بل هي فرع ، فهي قوة ، أو هي عرض ، فأما النفس الناطقة فهي أصل ، وهي جوهر . وعليه يكون الناس غشطين في مشاهداتهم ، فهم كما ظنوا الأرض ساكنة ، والشمس دائرة ، وجاء العلم فعكس الأمر عليهم ، هكذا هم أخطأوا في ظنهم أن الوجود هي الأجسام ، فأما الأرواح والنفوس فهي أعراض زائلة ، إذن العلم في واد ، والجهل في واد .

(١١) : معرفة العقل العام بواسطة معرفة النفوس

ان الناس عرفوا عوالم السماء والكواكب بواسطة معرفة العناصر الأرضية ، هكذا فليعرف العقل العام في الوجود بمعرفة النفوس الناطقة ، وبيانه أن هذه الأجسام البسيطة الأرضية كل جسم منها له ضوء مخصوص وكل ضوء منها له خواص تخصه . وذلك بخطوط سود تتخلل ذلك الضوء ، وباختلاف تلك الخطوط السود المتخللة ذلك الضوء تختلف العناصر ، بهذا علم الناس اليوم ماذا في الشمس والكواكب والسيارات من العناصر عند ما عرفوا اختلاف الألوان الواردة من تلك الكواكب ورأوا العناصر فيها عنصرها عنصرها فوجدوها هي العناصر الأرضية كالخديد والححاس والأكسجين وغيرها ، هكذا بالقياس عليه عرف العقل العام بمعرفة نفوسنا .

نحن حكمنا الآن بوجود قوسنا ، وأنها أحقّ بالوجود ، وإنما جوهر ، وأنها أصل والمادة فرع لثبات الأولى وعدم ثبات الثانية ، فهنا نقول إن هذه النفس الناطقة كما قلنا في القاعدة الخامسة مستمدة من نفس أكبر منها ، والتي هي أكبر منها مشتقة عما فوقها ، وهكذا نشاهد أجسامنا المشتقات من أرضنا المشتقة من شمسنا الخ . وهذا العالم العقلي عالم علم أعمّ من عالم الأجسام ، وإذا كنا نرى عالم الأجسام لا يكاد العقل يتصوره نهاية ، فأولى بهذا التعميم أصل الوجود وهو العقل العام ، إذن قطع بأنه عظيم المقدار وهو عالم العلم إلى مالا حد له ، ثم إن أنفسنا مستمدة منه استمداد النفس من الهواء ، واستمداد أجسامنا من الأرض ، وشربة الماء من الماء المحيط بالكرة الأرضية ، المتطايّر بخاره في الجوّ ، التنازل في الأنهار ، للأخوذة منها للشربة ، فنفسنا الناطقة أشبه بشربة الماء المأخوذة من مخزن الماء العظيم ، وأشبّه بالنفس (بالفتح) المأخوذة من مخزن عظيم وهو الهواء ، وأشبّه بأجسامنا المشتقة من مخزن الأجسام وهي الأرض ، ثم إن هذا العقل السكلي الذي خالطته قوسنا وهي فرع منه كما أنّ الماء الذي نشربه فرع من الماء العام يدلنا على موجود لاحتمله هو أصل وجوده ، وإنما كان دليلا عليه لأنه ليس من المقول أن يكون أصل هذا العالم للتبر ملابسا للتغير مثله ، فهذا العقل العام الذي لاحد له قرّحت منه جدلول ، فهو أشبّه بجارنا وهوائنا ، إذن فليكن هذا العقل العام الذي هو أحقّ بالوجود مستمداً من موجود هو أصل وجوده قياسا على أن ضوء الشمس منبعث من الشمس ، فضاء الشمس كما قسنا عليه معرفة العقل العام نستفيد منه فائدة أعظم ، وهي كما أن هذا الضوء وجوده مستمد من غيره ، هكذا وجود العقل العام مستمد من غيره ، وكما أن ضوء الشمس مستمد من الشمس هكذا العقل العام مستمد من أصل الوجود وهو الله . ويحدث نظره لهذا الذي سميناه أصل الوجود (وإنه هو الوجود الحقيقي الذي منه كان العقل الأوّل العام الذي اشتقت منه كل العقول والادراكات) قد وجد بعد العلم ، أو سيكون معدوما بعد الوجود ، وهل علمه عام إلى مالا يقناهى ، فالجواب على هذا واضح وهو أنه إذا أثبتنا وعلمنا أن قوسنا هي أصل في الوجود ، وهي جوهر ، وأن العقل العام المنصّلة هي به أحقّ باسم الجوهر وباسم الوجود من المادة التي لم نخل من كونها عرضاً أوقوة ، فالذي هو مصدر هذا الوجود هو الوجود الحقيقي ، فالوجود أصل والعدم لانفرده .

نحن لانصرف إلا الوجود ، فالوجود هو الأصل ، والعدم هو الذي يحتاج إلى دليل ، فإذا قيل لنا كيف وجد الله ؟ نقول يجب أن نمكّن السؤال ، لأن هذا السؤال إنما يرد إذا كان العلم أصلا ، لكننا نعلم أن الوجود أصل ، لأننا لاتنكر وجود قوسنا المنصّلة بعقل عام موجود مستمد وجوده من أصله وهو الله ، فالوجود أصل ، والعدم يحتاج إلى دليل ، والعدم كذا لأصل لها ، وإنما هذا الانسان ظنّ أن تغير الأجسام وتفرّقها عدم ، فيرى أجسام النبات والانسان والحيوان تتفرّق بعد الاجتماع فيقول قد أعدمت وبرأها اجتمعت بعد الافتراق فيقول ما هي هذه موجودة ، وهذا خطأ ، بل هو اجتماع وافتراق لاغير ، والوجود مصاحب لها ، فالعدم كذا وهمية لاحاطها الانسان في العالم أمامه من صفات له لامن وجود وعدم ، حتى ان العلماء اليوم وقد قالوا ان المادة تنعدم كأمثال (جوستاف ليون) قالوا ان انعدامها مامو إلا رجوعها الى عالم الأثير ، أو رجوعها للقوة ، والأثير موجود ، والقوة موجودة ، إذن أين العلم ؟ فإذا كان هذا حاصلنا في العالم الذي نشاهده وهو فرع فبالأولى يكون ذلك الحكم في أصل الوجود ، فهو لاعمى يسبقه ولاعلم يلحقه ، وكما أن الفكر الانساني قد أخطأ في ظنه أن الأرض ثابتة والشمس متحركة حولها ، وأخطأ في قوله : ان النفس الناطقة فرع عن وجود المادة ، هكذا هنا أخطأ في ظنه أن العلم هو الأصل والوجود طارئ فاحتاج الى دليل على عدم العلم ، وهل نحتاج الاصول الثابتة الى دليل ؟

(١٢) كيف كان خلق هذا العقل العام

فقال أحدهم : كيف كان خلق هذا العقل العام ؟ وكيف كان خلق هذا العالم ؟ قلت له : قمت لك في المسألة التاسعة أن هذه القوة الناطقة جاءت لتربية هذا الجسم فكيف تصدق طورها ؟ قلت : ولكن عقولنا لا تفتأ تسأل ، والأنياب والحكاه كلهم أثبتوا تعاليمهم في ذلك . قلت له : ليس عندنا إلا نموذج قوسنا ، فإذا فكرنا فيها عرفنا بقدر طاقتنا « وفي أشكم أفلا تبصرون » . قال : هذا حق . قلت له : ننظر إلى قوسنا ، أليست تتخيل صوراً وأشكالاً ؟ قال بلى ، هي دائماً التخيل . قلت : أغدومة هذه الصور أم هي موجودة ؟ قال : بل هي معدومة . قلت : كلابل هي موجودة . فقال : ما الدليل على ذلك ؟ قلت : أنا إذا تصوّرتنا في أذهاننا صور البساتين ثم اصطفتنا صورة منها ، وزرعتها بستاناً على هيئتها ، فأتنا إذ ذاك نكون قد اهتمدنا بهدى هذه الصورة ، لأننا نعلمنا بستاناً على مقتضاها . قال بلى . قلت : فهل المعلوم ينتج الموجود ؟ قال : كلا . قلت : إذن هذا الخيال الذي في ذهننا موجود لا معدوم بدليل أثره ، فكل ماله أثر موجود فهو موجود . قال نعم هذا حق . قلت : فإذا كانت هذه النفس الناطقة قد صوّرت فيها صور السموات والأرض وهذه الصور قد أثبتنا لها اسم الوجود ، ولكن لم ترتق في الوجود إلى أن تراها حواسنا كما رأت السفات ، أو القوى التي سميهاها مادة ، فبالأولى التي عرفناه أصل الوجود يزرع السموات والأرضين كما أبرزناها نحن وتكون نسبة هذه العوالم التي أبرزها في الظهور إلى العوالم التي أبرزناها في خيالنا كنسبته إلى قوسنا الناطقة ، فلي مقدار شاكلة قوسنا كان ظهور خيالنا ، وعلى مقدار عظمته هو وبملاؤه أبرز ما صنعه فكان مشاهدنا للعيون ، دائم التقلب ، ظاهراً ، باهراً ، جليلاً . إذن قوسنا هي النموذج الذي نعرف به الإله وبه نعرف خلق العالم ، وإننا هنا قمنا بأبواب العلم على مصراعها .

فقال أحدهم : إذن كيف يكون العالم حادثاً مع قدم الله تعالى ؟ قلت : ألم أقل لك أن باب العلم فتح على مصراعيه ، الإجابة على ذلك سهلة بما قهتتم ، فأقول لك أنت الآن تحضر في ذهنك السموات والأرض إحضاراً وجودياً . قال نعم أحضرها . قلت : أقدم هذا أم حادث ؟ قال بل حادث . قلت : ويمكنك تكرار هذا العمل . قال نعم . قلت : هل هذا العمل وتكراره قديم ؟ قال كلا : والله واللحقة ، ما أجل هذه البراهين إذن العالم الإنساني بعد هذه للباحث سيدخل في جنة عرضها السموات والأرض من المعارف والعلوم ويرتقي في المعلومات كما يرتقي في الحسوسات . قلت : فإذا سمعت أن العوالم الأرضية والسماوية سبقها عوالم أخرى ، وستقبلها عوالم بعد قناتها ، فهذا كله مقيس على خيالنا . فقال : يقولون ولكن الوجود لا يكون من العلم ولا بد من مادة اشتقت منها هذه العوالم كلها ، وكيف يشتق الوجود من العلم ؟ قلت له : ألم أقل لك أن أبواب العلم فتحت على مصراعها ، فهل الصور التي في خيالك احتاجت إلى مادة صوّرت منها . قال لا ولكن نفس مصدرها فقط . قلت : كذا السموات والأرض رجعت إلى موجد هذا الوجود ، وإذا قلنا إن للمادة لا وجود لها ، بل الموجود معان ومضات فكيف تحتاج هي المادة لتصلح منها وتشتق ، ثم قلت : وهذا هو السبب في أن كل دين ، وكل نحلة تحمّض على الرجوع إلى العقول ، وترك الشهوات ، والتأخر عن الدنيا ، وهذا من سرّ التسبيح ، والمُتدين يسبح أي يزهو الله عن الحوادث ليكون ذلك التذكير باعثاً له على التهي عن العوالم التي سميت مادة ، وعلى مقدار اجتهاده يخلص ، ولا يرى الله إلا بعد التخلص من الوهم الذي استولى عليه بهذه المادة المحيطة به ، فيتزبه نفسه عن القاتل يقرب عن تزهو عن العالم ، ويعرفه نظامه يحبه فيحمده ، وفوق ذلك يكبره ، فهذا هو السرّ في التسبيح والتحميد والتكبير في البيانات .

إذا عرفت هذا عرفت معنى : « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن يقول له كن فيكون » فجعل خلق العالم

كنطقنا بالكلام ، وهذا حق - لأننا تصور الوجود كله بمجرد خطوره بياتنا ، وبقي سمعنا اسم قصر أوشجرة أو بستان حالص - به في قوسنا ، فهو يحصل عندما بمجرد نطقنا أو نطق غيرنا ، هكذا العالم بالنسبة لله ، هذا معنى : « إنما أمره ألح » وهذا هو تحقيقه ، فأتناشده في قوسنا نظيره ، غلبة الأمر أن وجود الصور عندما ونحن متخيلوها قصير الأمد في ثانية ثم يزول ، ووجود الأجسام تطول مدته ، فللمادة موجودة مئات الآلاف من السنين بادي الرأي ، والصور الخيالية ذاهبة حالا من خيالنا وإن خزنت في خزائن النفس ، ولكن ليس اسم الوجود خاصا بما طالت مدته ، فلجرادة التي لا يحول عليها الحول موجودة ، والقبيل والغراب موجودان ، فطول الأجل وقصره لا يؤثران في الوجود كما أن الاحساس بالحواس الخمس وعدمه لا يؤثران في وجود ولاعدم ، وخضراء الحزن التي تطلع في الفلوات ، وتصب رهشيا في الضحى ، وقد أزهرت في تلك اللدة وطأ بز ، ثم تخرج في اليوم الثاني كالיום الأول موجودة كوجود النخلة التي تعيش عشرات السنين . وبهذه القواعد التي قررتهاها عرفنا بمقدار طاقتنا وجود الله ، وعرفنا للمادة .

بيان للملائكة ، والأرواح الأرضية

وأنها تعرف من هذا الليل

قال أوسطهم : إن هذا المبحث قد عرفنا كما أثرت أنت فيها قلم علما كان مخبوا ، يقولون : « من عرف نفسه عرف ربه » ، وجاء في كتاب « راجا يوكا » الهندي الذي قرأته بالإنجليزية أن - المدار على علم النفس ، فالنفس مبدأ العالم كلها ، إذن معرفة قوسنا عرفنا ربنا ، وإذا كان الأمر كذلك فإني أقول : لنسرف في البحث إلى الأمام . قلت سر . فقال : إن قوسنا هي التي عرفتنا ما تقدم ، وأوصلتنا إلى الله كما أن ضوء الشمس أوصلنا إلى معرفة قرصها وهكذا ، أفلاقول أيضا أن الكواكب كلها والشموس والهواء والماء والأرضين والنباتات والميكروبات والحشرات ، كل واحد منها فيه قوة عاقلة مستمدة من مصدر الوجود العلم (وبعبارة أخرى) أفلاقول أن العقل العام الذي امتد منه فرع إلى أجسامنا قد امتد منه فروع إلى كل كوكب ، وكل شمس ، وكل أرض ، وكل ذرة ، وكل حجر ، وكل نام ، وكل جامد . وهذا الفرع الذي امتد منه هو الذي يعطي الجاذب خواصه وتلاصقه ، وللمعدن خواصه ، والنباتات فيه النامية ، والحيوان فيه المدركة والإنسان فيه الناطقة ، وكل هذه جدول من النهر المستمد من البحر ، فإذا رأينا التراتيب البيضاء في دماتنا تساعد الجراء في النفاذ عن أجسامنا أثناء الطاعون فتجنبد من الحيوانات الطاعونية آلافا في ساحات ميادين القتال (في الطحال والكبد والقلب وهكذا) فإنا نقول إذ ذاك هذه نفوس صغيرة مستمدة من العقل الكلي الذي له التصرف في المادة كلها ، وبذلك ترى نظاما مدعيا يدل على الوحدة الحقيقية للبدن الأصلي . فقلت إن هذا المبحث يدل على أن جميع البيانات وعلمه الأرواح يذكرون للملائكة ويأمرهم بالرياضة وبالصيام وبالصلة ، وفي الإسلام وجوب الإيمان بالملائكة واليوم الآخر ، لم هذا كله ؟ كل هذه الحقائق صادقة ، وبهذا البرهان أمكننا أن نعرف عوالم وعوالم عقلية مشاكلة للعالم المحسوس ، وهي في توزيعها وتنوعها مشاكلة للعالم المشاهد ، وبهذا تتحلل مشاكلة كل كثيرة أمام الإنسانية ، وبهم للمسلمون خاصة بقولهم بعد النقل آية « وأن عليكم لحافظين كرملا كاتبين » وأمثالها من الآيات التي تعد بالعشرات .

الكشف الحديث والتقديم

والرؤى الصادقة

ثم قلت : وتتحل أيضا بهذه البراهين مشاكلة كثيرة كأمر الكشف ، إن الكشف يرجع إلى فكرة

خلفت لإنسان قدرها ثم أخذ يبعثها ، ثم ظهر وتفتح الناس ، فما ذلك إلا لأن هذه النفوس الانسانية متصلة بموالم اتصال الماء التي تشربه بلباء حولنا ، والهواء التي نستشق بهواء حولنا ، والضوء الذي ينير سبلنا بضوء الشمس ، وهذه النفوس الجبوتية التي ظهرت في أجسامنا تأتي لها آراء من النفوس المحيطة بها إحاطة الهواء بأجسامنا ، فقلة تكون كهافة ، وتارة تكون رؤيا ، وتارة تكون كشفا لأمر نافع كالسكر بهاء ، والفيل على ذلك أن الذين كشفوا أكثر المختبرات لم يكونوا أنخ أهل زمانهم ، ولأعظم مفكرهم ، بل إن نفوسهم بانصافها واستعدادها لأمر خاص ، استمدت تلك الفكرة من العقل العام التي يشمل هذه الكائنات كلها ، وهذا العقل العام لا يحصره مكان ، ولا يحويه زمان ، وبرهانه أنه لا دليل على حصره ، ولا وقوفه عند حد خاص ، وعليه يكون الخلاه وراء الكواكب ليس يتخلو من امتداد هذا العقل العام الممتد من الله إليه .



فلما سمع الطلاب ذلك . قال أوسطهم : الآن عرفنا الأرواح الصغيرة والكبيرة ، وماتلا ذلك كله ، وأنه يعرف بحرفة النفس : أي أنا لما عرفنا وجود نفوسنا قلنا ذلك إلى معرفة عقل علم ، وإلى معرفة مبدأ تلك العقل العام ، وهو الله سبحانه ، وعرفنا أن الوجود هو الأصل ، والعدم هو الذي يحتاج إلى دليل ، وعرفنا ملائكة تصادها وكثرتها على حسب تعدد وكثرة الموجودات للتجزئة الخاصة ، وأكثر من ذلك ، وأن الجاذبية والحق والتلاصق ، وما أشبه ذلك ، كلها نتائج تلك النفس الكلية ، أو العقل الكلي ، التي كان سبب معرفتنا به معرفة نفوسنا ، ولكنني لأرى ذلك برهانا قاطعا . قلت : انه برهان استقرائي ، أي أننا بالاستقراء علمنا أن كل ما اشتملنا عليه نحن من جسم ونفس وضوء فانه متصل بما هو أعظم منه من جنسه ، فهذا دليل استقرائي ، وقيل الاستقراء وإن لم يكن دليلا قاطعا له منزلة شريفة في العلم ، عصرنا الحاضر . فقال : ولكنني أريد لزيادة المعرفة بالله نفسه ، ثم بعد ذلك تذكر آراء الأمم قديما وحديثا .

معرفة الله وعرض آراء علماء اليونان والمسلمين وأوروبا على هذه النظرية

قلت : أما معرفة الله وإن كانت قد تمت فاني أريد القول فيها نبينا . اعلم أن هذه النفوس الناطقة فينا لم نرها فاني إلى اليوم لم أر بعيني إلا أجساما ، أما النفوس فاني لم أرها . قال نعم ؟ قلت والذي رأيته حركات وسكنات وأعمال ، فاستدللت بذلك على وجودها ، إذن وجود الانسان ووجود الحيوان ، أي وجود نفس صديقك ورئيسك وخليفك لم تعلم إلا ما آثرها ، هكذا وجود الله ، لافرق بين الاستدلال على الله والاستدلال على وجود روح صديقك ، ولكننا لم نجد امرأة شككت في وجود زوجها ، ولا أننا شككت في وجود ابننا ، ولا صديقا اشبه في وجود صديقه ، بل كلهم يقولون هم موجودون بدهة كوجود الشمس في رابعة النهار . هكذا وجود الله ، ولكن وجود الله كثرت الشكوك على ، فلذا كانت براهين وحوادثه لانهاية لها ، وبراهين وجود صديقك محدودة أصح العقل النشوي كالأعشى وكل الدهوش أمام اتفاق الأدلة وكثرتها في أحدها وهو موثق بسبب حصر الأدلة وقلتها في الثاني ، وذلك لأن كثرة الأنوار تكاد تضيء الأبصار ، هكذا كثرة أنوار الدليل تكاد تضيء البصيرة ، فالحاجة للإنسان إلى إقامة الدليل على وجود ما كان في غاية الوضوح للبصيرة حتى أعماها فاضطر إلى البحث من جديد . لهذا كان لابد في معرفة الله تعالى من دليل ، وهذا هو السبب في استدلال الناس على وجود الله وتأليف الكتب ، ولعل هذا يكفيك في هذا المقام . انتهت المقدمة والحمد لله رب العالمين .

الباب الأول في ذكر مذاهب الطبيعيين الخ

اعلم أن هنا الانسان ونسبته إلى هذا العالم ومباحثه أشبه بزاوية منفرجة ، ففي أولها عند رأسها حاسة السمع ، ويليها حاسة البصر ، فالشم ، فالبصر ، والعقل ، ولكل منها درجة في رقبته ، ويقابل الانسان في كل درجة من درجات إدراكه حيوان في مرتبته ، وهكذا يقابل في الحكماء طبقات مختلفات الطبيعيين والبحريون والسوفسطائيون وانكساغورس والإلهيون . انظر مايلي :

(العقل) : يدرك الكليات ، وله خمس قوى ، كل منها له مدركات تخصه مثل الحس المشترك والخيال والمفكرة ، والذاكرة ، والحفظة ، وبه يشبه الانسان الملك ، ويقابله مذهب أفلاطون وأرسطاطاليس الذين إلهما وإلى سقراط ترجع جميع المذاهب بعد ذلك عند اليونان وعند علماء الاسكندرية ، وعند المسلمين ، وعند الترجمة كاسترى إضاحه قريبا إن شاء الله (البصر) : به يعرف الشكل ، والحجم ، والسطح ، واللون ، والقرب والبعد ، والنور والظلمة . ويقابل به حيوانا ذا خمس حواس مثل ذوات الأربع ، وبه يقابل مذهب سقراط وإليه ترجع المعرفة بالله تعالى وأنه محيط بالعالم مدبره .

(السمع) : به يعرف الانسان صوت الانسان والحيوان والجملد موسيقيا أو غير موسيقي ، وبه يقابل حيوانا ذا أربع حواس مثل الخلد (يفتح الخاء واللام) التي يعيش في الظلمة دائما ، فيكون أعمى ، وهذا مقابل للمذهب (انكساغورس) بأننا سنة ٤٢٧ ق.م يقول : « إن أول موجود هو العقل ، وهوأى العقل مغاير للمادة ، وهو المحرك لها ، ولكن لا عمل له بعد ذلك » .

(الشم) : وبه يعرف الانسان الخبيث والطيب من الروائح ، وبه يشبه حيوانا ذا ثلاث حواس ، وبه يشبه علماء السوفسطائية إذ قالوا : « لا عمل ولا حقيقة » مثل (بروتاغورس) القائل : العلم باعتبار ما عند الانسان وأن خالف غيره ، ومثل غورغياس إذ يقول : لا علم مطلقا بل هي ادراكات وقتية ، ومثل (بيرون) التي يشك في كل شيء ، وهم العندبة والعنادية واللاأدرية بالترتيب .

(البصر) : وبه تعرف الحلاوة ، والمرارة ، والحارفة ، والملاوحة ، والعذوبة ، وهكذا ، وبه يشبه الانسان حيوانا ذا حاستين كبعض النود على الشجر ، ويشبه به الانسان مذهب الفهرقيين مثل (ديموقراطيس) وقد جمع آراء من قبله ، وقال : « الطبيعة قديمة ، وكذا الدهر » وللمادة صندة مركبة من أجزاء لا تنجزاً .

(الشم) : وبه يعرف الانسان قسلا وخفة ، وحارة وبرودة ، وهكذا ، وبه يشبه حيوانا ذا حاسة واحدة كالبرودة ، وبه يشبه الطبيعيين مثل تاليس المايطي إذ قال : « الأصل في الوجود الماء » ، ومثل (أنكيبائيس) سنة ٥٢٨ ق.م إذ قال : « إن أصل الوجود الهواء » وهكذا .

(الانسان) :

فقال أحد الطلبة لما رأى هذا الجدول : هذا جدول أشبه بالنثر ، فنحن نريد التفصيل ، ويظهر أن تفصيله يفهمنا هذه الدنيا في عصرنا ، فالتنا نحن الآن في زمان انقشرا العلم ودام اللدنية ، وقد رأينا علماء من

الشرق في زماننا تلقوا علوما من أوروبا ، وآثروا بآراء متباينة ، فهذا يشك في الدين ، وهذا يؤمن بالله ، ويكفر بالأنبياء ، وهذا لا يرى غير المادة وهكذا ، فإذا اطعم الناس على جميع المذاهب الفلسفية حكموا على كل قائل بالدرجة التي وصل إليها . قلت : حبا وكرامة ، سأشرح هنا بالتفصيل ماوصل إليه العلم قديما وحديثا إلى وقتنا الحاضر في أمر الله والعالم ، فأما الاختراعات والفنون فأمرها بين أيدي عموم الأمم .

ثم قلت : اعلموا أيها الفضلاء أن الله تعالى عامل الأمم جميعها معاملة الفرد الواحد ، وأقرب الأمم التي ظهر علم فلاسقتها هي اليونان ، إن الأمم اليونانية ومن قبلهم ومن بعدهم كلهم كانت لهم ديانات ، والعاملة لا يشكون فيها ، إنما الذي يهمنا أن نذكر مباحث الفلاسفة الذين جعلوا العقل إمامهم ولم يتقيدوا بالتقليد ، وإنما أردنا أن نذكر مباحثهم ، لأن الله يقول : « وقل الحمد لله سيريكم آياته » ويقول : « سريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » وهذه الإرامة تكون بالحس والعقل ، إذن فلنجعل هذه الرسالة معرضا لامتحن آراء الفلاسفة والحكماء ، ونعرضها على ماقررواها في النظريات السابقة هنا في هذا المقام ، ونعرض إلى أي مدى وصل النوع الانساني في عقله ، ومتى عرفنا ذلك ووقفنا على الحقيقة حينئذ نقول : « أيها الشرقيون أكثروا ما تهتت الانسانية ، وقوموا بخدمتها ، وجتروا لاسعادها ، ولا تكونوا من الغافلين » . فقالوا جميعا : هذا حسن جدا . قلت : يعلمنا الله بهذه المباحث كيف نرتقي في التعليم .

الدرجة الأولى : حاسة اللمس في الانسان ومذهب الطبيعيين

لما خلق الله الطفل جعله يشعر بما حوله من حرارة وبرودة ، وثقل وخفة ، ونعومة وشوثة ، هكذا حصل في الأم ، فان تأليس المالطي المتقدم ذكره وانكسائيس وانكستمندر ، وأولهم قال : « أصل الوجود الماء » ، وثانيهم قال : « أصله الهواء » ، وثالثهم قال : « أصل الوجود مادة لاصورة لها معينة دائمة التحرك » ، ومن معهم قالوا : « نحن ليس عندما إلالماء ، أوالهواء ، أوالنار ، أوالأرض ، أوالمادة العمومية ، فلما أن يكون الماء هوالأصل وقد جد فصار أرضا ، وألطف فصار هواء ، ولما أن يكون الأصل هوالهواء فلما نكثف صار ماء ، ثم لما نكثف الماء صار أرضا ، وهكذا قالوا في الباروكذلك في الأرض ، فهوأولاد في الانسانية يشبهون الطفل وهو في أول أدوار حياته ، وهذه الدرجة في حاسة اللمس ، وفي الفلسفة الحسية تشبه حياة البرودة ، فليس لها حاسة إلااللمس ، ومثلها العلق وغيرهما ، فالطفل في أول أمره كالبرودة وكالفلاسفة الطبيعيين .

الدرجة الثانية في الانسان : درجة حاسة اللمس

هي أرق مما قبلها : ومنض البرد الذي يشاهد على سوق النبات له حستان ، فهو أرق مما له حاسة واحدة ، والقوق أرق من اللمس ، لأن له اختيار الأغذية المنبهة للأجسام ، ويشبه الطفل في هذه الدرجة علماء المهرين ، وهؤلاء يقولون : لادين ، ولا رب ، ولا رسول ، ولا كتاب ، ولا ميخاء للح ، وذلك أن الانسان لم يزل ولن زال والهدر دائر ، لا أول له ولا آخر ، ولقد بدل هذا القولا ليقوى في تاريخه المجلد الأول صفحة ١٦٨ ومثله الفزالي في المقذ من الضلال ، وسياهم زنادقة ، وقد قرأ آراءهم العلامة سقلاطه الطلياني في زماننا ، ووازنها بما في كتاب (سنبليوس) في كتابه « الساء ولعام » فوجد أن هذا القول قله هذا العالم عن (أبناذقليس) وهو أن العالم لم يحدته أحد لاله ولا بشر ، بل كان أبدا انتهى

وهكذا نقل عن أرسطاطاليس في المقلة الثالثة من كتاب السماء والعالم مانصه : « أما من ذهب إلى قول (أنذاقليس) و (ديوقراطيس) فانه قال : إن الأركان لم تحدث لمستحالة بعضها إلى بعض ، بل للاحداث إلا

في الظاهر قلنا موجودة على حدتها فتفرق بعد الاجتماع « انتهى
وقتل عنه في كتاب « الكون والفساد » في المقالة الأولى ، وقل عن ديوتانس في تاريخ الحكماء
مثل ذلك ، ثم قال العلامة سفلاته المذكور ان هذا القول مطابق فضلا فلما ذكره اليعقوبي .

الدرجة الثالثة للانسان الفرد أن تكون له حاسة الشم

وهي أرقى من سابقتها ، لأنها تحدثه عما يد منه ، وتأتي له بأخبار المشومات التي لاتلاسه ، وهذا
هو الأرقى في قوله : « ولما كان الانسان العاقل في ارتقائه يحب أن تكون له حاسة أرقى من حواس الحريين
والطبعيين ، هناك خلقه ديمترطيس فقال بالجزء الذي لا يتجزأ ، ومعنى هذا أنه قد أن يتحرك إلى البعث
فأخذ يبحث في أجزاء المادة التي اكتفى سابقوه بالنظر الى ظاهرها ، فهو يرجع للمادة إلى أجزاء تتفرق
ويجتمع ، إذن هذا أخذ مذاهب من قبله وأراد تلطيفها وتوحيدها ، وتوحيدها لا يتم إلا بإرجاعها إلى الأجزاء
التي لا يمكن تحليلها ، فبدل أن كان الأصل دائريين الماء والهواء الخرج إلى أصل واحد وهو الأجزاء العائمة
الأزلية الأبدية ، وهذا المذهب اقتبس منه الأشاعرة الجزء الذي لا يتجزأ ، وأخذ منه إبراهيم النظام (بقسده
الظاهر) من متكلمي المعتزلة القول بالكُمون ، وأخذ منه الطبيعيون وللحادثة قولهم بإنكار البراءة تعالى
وحدة الوجود ، ويقول الاستاذ سفلاته المذكور : « ومن طابق قول ديمترطيس بما عليه الطبيعيون من
الفلسفة في عصرنا هذا لم يجد فرقا بين القولين ، ولم يرتدوا إلى العبارة ، أما المعنى فلا . ثم قال : ولحق
أن من اقتصر على الطبيعيات ولم يقل بغير المحسوسات لا يسهل إلا اعتقاده آثارهم ، والتحقى بشأهم ، مع
أن من تبصر في عواقب الأمور يتحقق أن مثل هذا الرأي في كل زمان لا يفضي إلا لانكار الحقائق ، وهلم
دعائم العقل ، كيف لا ومن قال انه ليس في الوجود إلا المحسوس ، ولا شيء سواه ، كيف يمكن له أن يحكم
بالوجود ؟ قال : وقد أصاب المحقق ناصر الدين الطوسي في شرح المفصل حيث قال قلا عن أرسطاططيس وغيره
« الحس إدراك فقط ، والحكم تأليف بين مدركات الحس أو بغير الحس ، وليس من شأن الحس التأليف
الحكمي ، لأنه إدراك فقط ، فلا شيء من الأحكام محسوس أصلا ، فلذلك كل ما هو محسوس لا يمكن أن يوصف
من كونه محسوسا بكونه يقينيا ، أو غير يقيني ، أو حقا ، أو باطلا ، أو صوابا ، أو غلطاً ، فإن هذه الأوصاف من
لواحق الأحكام » انتهى كلامه .

قال : وهو واضح بمن تحقق ماهية الحس وانه قصر بالضرورة على خصوص المدرك لا يتعداه . الى أن
قال : فكل فلسفة مقصورة على مجرد الحس لا يكون مثلها حيث لا الشك في الحقائق كما وقع في اليونان
في أثناء القرن الرابع قبل المسيح .

الدرجة الرابعة للانسان

حال الطفل وحال الحيوان التي يستعمل أرق حواس أعلاها السمع

فهو أرق ، وقد أمكنه أن يتسمع مدى إدراكه لما هو أبعد من المشومات مثل حيوان الخلد (فتح
الخلاء واللام) الذي يعيش في الظلمات ، فهذا لا يرى النور ، ولا النجوم ، هكذا الأعشى من نوع الانسان
لا يراها ، فهو إذن في حال أقل مما بعده ، وأوسع مما قبله ، إذن خلق الله في الانسانية الكبرى طبقة
أرقى وهي :

السوفسطائية

قال اليعقوبي في تاريخه (مجلد ١) صفحة ١٦٦ مانصه : « السوفسطائية : وتفسير هذا الاسم باليونانية

(المخالطة) وبالمرية (التناقضية) يقولون : « لاعلم لاعملم » الى آخر كلامه ، وقد تعقبه الاستاذ سدا به وخطأه ، فقال : « السوفسطائية اليونانية معلمو الحكمة ، أو طالبو الحكمة » ، وصوب كلام الشرح ، المرتضى في الانحاف (مجلد ٩) صفحة ٤١٨ إذ قال : « السوفسطائية طائفة من حكماء اليونان ينكرون حقائق الأشياء ، ويزعمون أنه ليس ههنا ماهيات مختلفة ، وسقائى متميزة فضلا عن انصافها بالوجود ، بل كلها أوهام لأصل لها ، وسوفسطاء كلمة يونانية معناها طالب الحكمة » انتهى كلام الشريف الذى نقله الاستاذ (سنتلاه) . ثم قال الاستاذ المذكور : « والحاصل أن السوفسطائية قوم اتخذوا الفلسفة حرفة كانوا يجتازون المدن والأقطار ، يدعون القدرة على كل علم ، وعلى تعليمه أيضا في أقرب وقت ، مع أنهم أجعوا أنه لاعلم فى الحقيقة ولاحكمة . وأن قسارى ما يدركه الانسان من الوجود على فرض وجوده هو ما يدركه بحواسه الخمس ، ولا كان الادراك الحسى مما يختلف بين الناس من انسان لآخر ، بل وفى الانسان الواحد باختلاف الأوقات والصحة والمرض ، ومع ذلك يتغير تغيرا مستمرا ، لزم من ذلك أنه لاحق ولا باطل ، ولا خير ولا شر » ، بل كل ذلك مما توأما الناس عليه ، ليستقيم به معاشهم ، ويكفى بعضهم شره ، وهو فى نفسه أمر ليس بموجود طبعا . ثم قال : « وبصد إجماعهم على هذه الأصول قد اختلفوا ، فذهب :

- (١) — (بروتاغورس) إلى أن ما ظهر لكل واحد حقا فهو حق بالنسبة إليه . فقال : إن الانسان مقياس الأمور فى وجودها وفى عدم وجودها ، أى ما رآه كل واحد موجودا فهو عنده موجود ، وما رآه معدوما فهو بالقياس إليه معدوم ، ولا يعتنى الحكم إلى غيره .
- (٢) — وذهبت طائفة أخرى اشتهرت باسم (غورغياس) إلى أنه لما كانت الأشياء فى حكم التغير الدائم كان الانسان غير متمكن من ادراك الحق بوجه ، وغلبة ما يقدر عليه أن يقتصر على ما يدركه فى كل آن من ظواهر الأشياء لا يعتدى حكمه فيها الى ما يدركه فى آن آخر ، ولا يقول بوجود شئ أبدا ، إذ حقيقة الأشياء على فرض وجودها معا لا طاقة للبشر عليه . قال : والمذهب الأول عند العرب يسمى « مذهب التنبيه » والمذهب الثانى « العنادية » . قال : وقد اختلفوا بهما مذهب آخر ولكنه ليس من السوفسطائية فى شئ ، وهو مذهب (بيرون) كان معاصرا لالاسكندر الرومى ، ذهب الى الشك المطلق ، وهو الامساك عن الجزم بشئ أحق هوأم باطل . قال : ويسميه العرب بمذهب (اللا أدرية) . قال : واليه أشار نصير الدين الطوسى فى حاشيته على المحصل صفحة ٢٣ وذكر ما يقرب مما تقدم فلا نطيل به .

فهنا خرج أهل البحث من انحصار أفكارهم فى الماء ، أو الهواء ، أو أجزاء المادة (و عبارة أخرى) ان هذه الطبقة وهم السوفسطائية أشبه بالجنين خرج من بطن أمه ، فإذا كان من قبلهم قد حبسوا فى العناصر من ماء وهواء وثقل وأرض ، أوفى أجزاء تلك العناصر خرج هؤلاء من ذلك السجن المادى ، وقالوا : نحن لا نتقيد بتقيدنا ، فهو لا أشبه بحاسة السمع وهم أشبه ببلقة الانسان ، وقد اضممت حاسة السمع الى الحواس السابقة . ثم قال : هذه هى فلسفة اليونان فى أواخر دهرها الأول ، وهو منتصف القرن الرابع قبل المسيح من التردد والارتباك بين مذاهب الطبيعيين ، ومشاغبات السوفسطائية ، وأخذ يدحض هذا المذهب . ومما قال : « وقد قيل ان الشك يهدم نفسه » ، وذ كركاية ديوجانس الكلبى انه حضر مجلس بعض السوفسطائية فسمعه ينكر الحركة ويكثر البراهين على عدم وجودها فلم يجبه (ديوجانس) بحرف ، وأخذ يمتحنى فى المجلس ويضرب بعصاه الأرض اشعارا منه بأن مثل هذا القول المسكر للظواهر لا يحتاج فى نفسه الى بيان . ثم قل عن المتكلمين المسلمين فى كتبهم : ان هؤلاء الشاكرين لا ينبغي مناظرتهم بل احراقهم بالنار حتى يحسوها فيعرفوا ما كانوا ينكرون فيمكن التكلم بهم . قاله الامام الرازى فى المحصل ، والشيوخ التقنازاني فى شرح

الكلمة الفلسفية . انتهى كلام الاستاذ سقراطه .

الله إلى هنا لابد لي أن أقول لكم أيها الأذكاء كلام الاستاذ (سقراطه) بنسه وفصسه ، لأنه فيلسوف أوروبي ، ليكون ذلك زجرا لمؤلفي المنطقين في الشرق ، الذين يرجع بعضهم من أوروبا وهم إما دهريون وإما طبيعويون ، وإما سوفسطائيون . وهم يجهلون ماعند أساتذتهم من العلم ، فيرجعون وهم غافلون . قال مافسه بالحرف الواحد : « أما القول بالطبيعة وأن لا شيء غيرها ، فهو لا يرضى العاقل المتبصر » كأنه يقول : نعم لأننا نزع في كون الطبيعة والحركة من أصل الموجودات ، وإنما توقفت في كيفية صدور العمل منها ، فالعلم يكن هناك إلا مادة تتحرك من الأبد إلى الأبد ، فمن أين حصل لهذا العالم النظام العجيب ، والترتيب الغريب ، التي حارت فيه العقول ، وقصرت عن إدراكه الفعول ، كيف ينسب ذلك إلى الاتفاق والمصادفة ، وبجرّد البحث ؟ ليت شعري كيف بقيت على تألقها ، وكيف تجددت على خط واحد المرة بعد المرة ، وقد شهدت العمانية بأن حركات أجزاء لانهاية لها ولا حرك لا تنضي إلا إلى غاية الاتساق وعدم القياس ، وهذا لعمري كمثل من وضع حروف المجهّم في ظرف أوفى صندوق ، ثم جس يحركها يوما بعد يوم طمعاً منه أنها تتألف من تلقاء نفسها ، فتركب منها قصيدة بلغة ، أو رسالة عميقة في المنطق ، أو كتاب في الهندسة دقيق ، أليس هذا من السفه اللين ؟ فانه لو دام على تحريكها السنين والهور ما حصل من كتبه إلا على حروف ، فكيف يتصور حدوث هذا الموجود بما هو عليه من الاتقان والاحكام وقطابي الأجزاء وهجيب مناسبة بعضها إلى بعض من حركات اتفاقية في حلاء لانهاية له .

قال أرسطاطاليس في كتاب سمع الكيان : « إن كل نظام يدل على وجود العقل ، وفضلا عن هذا إن ما حصل اتفاقاً لا يحصل إلا مرة واحدة ، ولا يتكرر ، ولا يسوغ بناء حكم عقلي عليه ، ولا يقبل القياس بخلاف ما شهدت به التجربة في عالمنا الثبوت ، ولولا هذا ما أمكن إنشاء علم من العلوم الرياضية والطبيعية . هذا وإذا فرضنا وجود مجرد الطبيعة ولا شيء سولها فمن أين هذه القوة العقلية التي يجدها كل واحد من نفسه ، وهي مع ما فيها من العجز والتصور من أظهر النواهد على وجود ما يخالف مجرد المادة في هذا العالم ، ولا سبيل من المادة إلى الأفعال العقلية لما بينهما من المغايرة الأصلية . فوجود مثل هذه القوة يستدعي وجود جوهر عقلي يجانسها ويمثلها ويكون مركزاً لها .

ثم قال : وهل من المحتمل أن ما نشعر به من تصور المقولات ، والكشف عن الكيان ، وتفرق القضايا وتركيب القياسات لم يكن في نفس الأمر إلا من اصطكاك جزء من المادة بجزء آخر ، وهل يسوغ في العقل أن ما تضمنته عقولنا من الأبحاث الحقيقة ، والمأخذ العميقة ، كالمنطق والرياضيات والإلهيات ، وما افتنت به القلوب من الشعر الرائق ، والمطرب من الألحان ، وسحر البيان ، أصله من تلك الأجزاء كانبعاث النار من اصطكاك حجر بحجر ، وذلك في خصوص النار ، إذ ليس بين مادة النار ومادة الحجر فرق كبير ، وإنما ليت شعري ما النسبة بين الحجر والعقل ؟ فإذا كانت للمادة غير قادرة أن تكون علة لنفسها ، فمن باب أولى وأحرى أنها لا تكون علة لما هو أعلى منها مكاناً وأهم شأناً في درجات الوجود والا لكان الأخس أصلاً لما هو أرفع ، وهذا مما يستبعد العقل ، وتأقده الفطرة السليمة » انتهى كلام الاستاذ سقراطه مع تغيير يسير جداً . هنالك سيم اليونانيون من هذه الحيرة ، فلا الناصر كلاله ، ولا الهواء أصل الوجود ، ولا الجزء التي لا يتجزأ ولا منهج الشك ، أو المعتدية ، أو العنادية فتني فتبلا عن معرفة الحقائق ، فظهرت طاقة أخرى وهم :

شعبة فيثاغورس

هذه الشعبة ظهرت في أثناء القرن الخامس قبل المسيح ، فتوطنت المستعمرات اليونانية في إيطاليا ،

واسمها « شيعة فيثاغورس »

هذه الشيعة يقول رئيسهم : « إن كل شيء أصله العدد فما من شيء إلا وفيه لقياس وللعدد حظ ، ولم عنابة بالعلوم الرياضية ، ولاسيا الهندسة والحساب ، فأصل ما في هذا العالم هو العدد . وقد دحض العلامة سبتلانه الطلياني كل ما يزي إلى فيثاغورس من المبالغات في كتب أسلافنا العرب . وقال : لم يثبت إلا هذه الفكرة عنه .

ثم ظهر بعده (أبناذوقلس) فقال : « إن هناك قوى محركة للمادة غير المادة سهلها بالحبة والعداوة ، فالحبة تتصل الأشياء ، وبالعدوان تتفرق »

فهذان المذهبان عدلا عن مذاهب اليونانيين الأولى ، فالفيثاغوريون عرفوا النظام الهندى والعبرى في العالم ، ولاجرم أن هذا لا يكون إلا نتيجة لعقل يضبط الحساب ، ولكن لم يقولوا بالعقل ، ولكن هؤلاء أرقى من السوفسطائية ، وأبناذوقلس لاحظ شيئا سهوا المحبة والعداوة للأعداد وللتفرق ، فانظر ماذا جرى : ظهر أنكسافورث . قال الاستاذ سبتلانه : وكان في أواسط القرن الخامس ق . م بمدينة أثينا سنة ٤٢٧ أشار إليه أرسطاطليس بمجلة أولى من كتاب « مبادئ الطبيعة » فقال بعد حكاية الأقدمين مانسه : « ثم نبغ بعد ذلك رجل فقال : « إن العقل هو مبدأ الوجود ، فكان كالصاقي فيما بين قوم سكارى لا يفقهون » اه قال : « والحق أنه منذ ذلك العصر نشأت الفلسفة اليونانية نشأة جديدة ، فهي كالطفل اذا قوى واتسع نطاق عقله وجاء بتصوّر المبادئ بعدما كان في المحسوسات مضمورا ، ولم يخف على مؤرّسها العرب هذا الفرق بين السور الأول والصور الثاني . فقال القنطلى في تاريخ الحكماء مانسه : « وكانت هذه الفلسفة أى الطبيعة شائعة في اليونان الى ما قبل زمان أرسطاطليس بمائة سنة » ذكر هذا أرسطاطليس في كتاب الحيوان فقال : « لما كان منذ مائة سنة ، وذلك منذ زمن سقراط ماله الناس عن الفلسفة الطبيعية إلى الفلسفة المدنية والفلسفة المدنية هي فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطاطليس » انتهى كلامه .

فاذا راجعنا كتاب الحيوان انتهى أشار إليه انقضى وجدناه مطابقا لما ذكره : فهم وجدتم في الكتب العربية ذكر الفلسفة المدنية فافهموا انها لحقة الإلهيات التي أنشأها سقراط وأفلاطون ، ولها مغايرة لما سبقها من الفلسفة الطبيعية ، وفلسفة النهرية .

وحاصل قول أنكسافورث أن المبدأ الأول في الموجودات هو العقل وهو جوهر بسيط مفارق للمادة . موجود بنفسه ، وهو أصل نظام العالم ، والمحرك الأول للمادة . قال : كان العقل أولا والمادة على غاية من الاضطراب والالتباس فأثر العقل فيها وجعلها تركيبا عكسا ، وذلك أنه صمرت منه حركة إلى جزء من تلك المادة فتولدت من تلك الحركة حركة أخرى فتجاوزت إلى ما جاورها من المادة فتولدت من هذه الثانية حركة أخرى فتجاوزت مثل الثانية إلى ما جاورها وهم جوا إلى غير نهاية . قال : فبموجب هذه الحركات المتولدة بعضها من بعض انتظم العالم وتآلفت أجزاءه من غير أن يكون للعقل في ذلك دخل ولا تأثير . فأورد بعض الحاضرين على هذه القالة الشبهة . فقال : « اني قرأت في كتاب الشهرستاني « الملل والنحل » عند ذكر فلاسفة اليونان ما لخصه » الحكماء السبعة الذين هم أساطين الحكمة هم طاليس المائطي وأنكسافورث وانكسافورث وفيثاغورث وسقراط وأفلاطون وأرسطاطليس ، وتبعهم جماعة من الحكماء مثل فلوطرخيس وبرقراط وديمقراطيس والشعراء والفلاسك ، وانما يدور كلامهم في الفلسفة على ذكر وحدانية البرى تعالى واحلته علما بالسكالات كيف هي ، وفي الابداع ، وتكوين العالم ، وأن المبدئى الأول ما هو ؟ وكفى ، وأن الابداع ما هو ؟ ومتى هو ؟ انتهى

ثم ذكر طاليس فقال : إنه هو أول من تقلب في المألوبة . قال : « إن العالم مبدا لا مشترك صفته

القول من جهة جوهريته ، وانما يدرك من جهة آثاره ، وهو الذي لا يعرف اسمه فضلا عن هويته ، الى آخر ما قلناه ، وقد أتى بمثل ما ذكر في حق أنكسائوس . قال : إن مذهبه أن البارئ تعالى أزلي لا أول له ولا آخر ، هو مبدأ الأشياء وهكذا ، وهو قريب من كلام علماء التوحيد في الاسلام . ثم قل عن أنكسائوس أيضا أن أول المبدعات من العوالم هو الهواء ، ومنه تكون جميع مافي العالم . ثم قال في صفحة ٢٩٠ ما يأتي « انه نزل العنصر منزلة القلم الأول ، والعقل بمنزلة اللوح القابل لنقش الصور ، ورب الموجودات على ذلك الترتيب ، وهو أيضا من مشكاة النبوة اقتبس ، وبعبارة القوم التبس . ثم قال : إن أنبذوقلس كان من زمن داود عليه السلام مضى اليه وتلقى عنه ، وقال في حق فيثاغورث أيضا انه كان في زمن سليمان عليه السلام ، وانه أخذ الحكمة من معدن النبوة ، ثم ان يعقوبي في المجلد الأول صفحة ١٣٤ قال في حق فيثاغورث انه أول من نطق بالأعداد والحساب والهندسة ووضع الألفان . وكان في زمان ملك يقال له « أغسطس » وهرب منه ، وبعه ، فركب فيثاغورث البحر حتى صار إلى هيكلي في جزيرة ، فأحرقه عليه الملك الجبار . هذا كلام المؤرخين ، وأنت تقول لنا غير ذلك ، تقول ان طاليس المائطي يقول : « أصل العالم هو الماء » وليس يعتقد بوجود العالم سواء ، وأن أنكسائوس يقول إن أصله الهواء ، ولا يعتقد في الإله أيضا . ومثله أنكسيمندر إذ يقول : « إن العالم مادة لا صورة لها معينه ، فهي دائرة النهر » ، تنغير تارة وترجع إلى أصلها أخرى » ، وقالت : ان ديموقراطيس لا يعتقد بالله ، بل يقول بلجزء الذي لا يتجزأ ، وهو أصل العالم ، ومنه وجد . وقالت : ان فيثاغورث لم يذكر إلا الأعداد ، ولم يعم حول الالهية ، وهكذا أنبذوقلس فانه أرجح العالم للحجة والكرامة ، فهذا كلامك ، وذلك كلام للمؤرخين ، فأنت القويان نصدق ؟ أقولك أم أقوال يعقوبي والشهرستاني في (الملل والنحل) ؟ قلت : إن هذه التي ذكرتها أيها الشيخ قد ذكرها بنفسها وذكر قريبا منها الاستاذ سئلانه الطلياني المذكور ، وهذا الرجل أقرب إلى علماء اليونان منا . ولما قل هذه الأقوال فهاها وأثبت بالادلة استحالة بعض ما جاء فيها بمثل أن فيثاغورث كان بينه وبين أغسطس أكثر من ٤٥٠ سنة ، وكل ما ذكر من التوحيد والمعرفة قال إنه لا أصل له ، وعليه يكون ما قلناه الآن هو لب الفلسفة ، وانما ارتقت حالا بعد حال حتى وصلت إلى سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس وهؤلاء هم الذين لهم السلطان العلمي في العالم الغربي والشرقي كما بيناه . ثم قلت : قد وصلنا في الكلام إلى رأي أنكساغورث للقاتل : « إن المبدأ الأول في الموجودات هو العقل » ولكن لم يحصل لهذا العقل عملا إلا في أول الخلق ثم يترك العوالم وشأنها ، فكان ذلك مما حرض سقراط على إنشاء مذهبه .

مذهب سقراط

قال : هال سقراط في بعض المحاورات الأفلاطونية المشهورة « فيديون » ماترجته لكم حرفيا : إلى ما كنت حديث السبق كنت مولعا بالبحث عن الطبيعيات وأسبابها وأصولها ، والفوى الحركة لها ، فكنت لا أرفض قول الطبيعيين في ذلك ، ولم أجد قولاً آخر يقاومه ، فبقت محبرا مذهب الرى لأدري ما أعتمد ، وبينما أنا هكذا ذكر لي بعض أصحابي أن هناك كتابا منسوباً إلى أنكساغورث صرح فيه بأن أصل الوجود العقل ، فسررت من ذلك سرورا عظيما ، وبادرت الى اقتناء الكتاب لأطالع به بشوق وأسرعني مطالعته فم ألبث إلا وقد تبدل سروري أسفا ، وأملئ بأسا ، لما رأيت هذا الرجل بعد فصبه العقل منبععا للموجودات تركه في زلوية الخمول بطالا ، وركن في شرح الموجودات الى تولد الحركات بعضها عن بعض إلى غير ذلك من الأسباب الطبيعية مما ليس فيه للعقل تأثير ، وذلك مثل من جعل آلة رصافا ، ثم قال : إن الآلة تستنى

عن الصانع ، وإتيا قدرة على إتمام ما أعلت له من تقاده قسها . ليت شعري ما الحاجة حينئذ إلى الصانع إذا كانت الآلة قسها كافية ! فترسكت الكتاب ، ورجعت أبحت عما يقوم لي مقام ماسأني فقدته في كلام أنكسافورث . انتهى كلام أفلاطون حاكيا عن سقراط ، ومنه يفهم ما حل سقراط في الحياء عن كلام أنكسافورث وانكسافورث منهجه .

قال سقراط في محاوره أخرى حكاه عنه تلميذه « أكانوفون » في كتاب التذاكير : « لا تتكرأها الحبيب أن روحك التي في جسدك تنصرف فيه كما شئت ، ضليك أن تعتقد أن العقل هو أصل الأشياء والمتصرف فيها كما شاء » انتهى كلامه .

وقال أفلاطون في محاوره أخرى من المحاورات الأفلاطونية : « أوليس من الظاهر أن المستعمل لآلة هو غير الآلة التي يدبرها ويأمرها ، على ذلك يجري القياس في الأسباب الطبيعية ، فانها كالآلة بيد الصانع الأول وهو العقل ينصرف فيها كيف شاء في قضاء مراده ، ولزم من ذلك أن الهمم في الصنعة في معرفة الموجودات عليها العقلية لاهو مستخرها من الأسباب المادية ، فان الصانع العقل لا يفعل شيئا إلا لفرض ولا يصنع شيئا إلا لآلة ، فما من موجود إلا وله على رأى سقراط قائدة قد وضع لأجلها ، ومصصلحة هي الغاية المقصودة من تركيبه ، يتأتى للعقل أن يتوصل إليها في الأغلب ، إذ هي صادرة عن عقل » . هذا كله كلام الأستاذ ستلايه الطلياني قلته من كتابه مع حذف يسير لا يحل بلغي .

وهناك محاوره أخرى لسقراط قلتها من الكتاب المذكور هذا فيها متعجات من تذاكير كونوفون منها في الفصل الأول من الكتاب الأول . قال أكانوفون :

« إني أريد أن أحكي هنا ما جرى بمحضري من الكلام بين سقراط وأرسطوديموس الملقب بالصغير ، وقد جرى بنا سياق الحديث إلى ذكر الإله ، وكان سقراط قد علم من أرسطوديموس أنه لا يقرب القرابين ويستحق صنعة الكهنة ، ويسخر من معنى العبادة . فقال : أي الناس من يهيك براحة في الصنعة ؟ فقال نعم ، الشراء والمصورون ، من كان منهم أربع من غيره . فقال سقراط : إياها عندك أرفع شأنًا ، أمن يصنع الخنايل الماربة من الحركة والعقل ، أمن يصور الأشباح الحية المتحركة ؟ فقال من يصنع الصور الحية اللهم إلا إذا كانت تلك الصور من عمل المصادقة والاتفاق لأمن عمل العقل . قال سقراط : إذا فرضنا أشياء لا يظهر المقصود منها ، وأشياء أخرى بينة القصد والمنفعة ، فما قولك في تلك الأشياء ، ما هي عندك من فعل العقل ، وما هي من فعل الاتفاق ؟ قال : لاشك أن ما ظهر قصده ومنفعته من فعل العقل . قال سقراط : أولست ترى أن صانع الانسان في أول نشأته جعل له الآلات والحس لما في تلك الآلات من المنفعة الظاهرة فأعطاه البصر والأذنين ليبصر ويسمع ما يكون لبيته صادقا ، وما قائمة الروائع لولم يصنع لنا الخياشيم ، وكيف ندرك الطعام ونفرق بين المر والمخلو والمزول لم يكن لنا لسان نذوق به . إن بصرنا معرض للآفات ، أوليس ترى كيف اعتنت القنطرة الآلية بذلك فجعلت الأجفان له كالأبواب لتقع ما يصيب البصر ، وجعلت الأشفاق كلناخل لتقيها من أضرار الرياح ، فما قولك في آلة السمع وهي قبل جميع الأصوات ولا تعلو أبدا ، أما رأيت الحيوان كيف رتب أسنانه القنطرة وأعطت قطع الأشياء فلقها إلى الأضراس فتدقها دقا ، فلذا تأملت في ترتيب ذلك أيمكن لك أن تشك هل هي من فعل الاتفاق أو العقل . قال أرسطوديموس : نعم إذا تفكرنا في ذلك لانشك في أنها من فعل صانع حكيم كثير العناية بمصنوعاته . قال سقراط : اعتبر ما فصل في الكور من حب التناسل ، وفي الاناث من الخنثى إلى بقية ، وما هو مفروس في كل حيوان من الشوق إلى الحياة والنفور من الموت ، أليس ذلك من عناية صانع قد أراد بقاء مصنوعاته ! فإذا تحققت وجود العقل فيك فكيف تظن أن لا وجود للعقل فيها هو خارج عنك مع أنك إذا تفكرت في الأرض واتساعها ، وقست ذلك

بجسدك فقد تحققت أنه ليس لك من الأرض إلا أنص جزء وأقله ، وكذلك الرطوبة التي منها تركب جسدك فانها ليست من مجموع الرطوبة إلا أصغر جزء ، وكذلك بقية مافي جسدك فكيف تظن أنك منفرد وتستبد بالعقل دون بقية العالم على سعة ورجه ، وأن هذه المصنوعات التي لا تدخل تحت الحصر ، وهذا النظام الغريب الحاصل فيها إنما نشأ عن عدم العقل . قال لا والله وإنما لا أرى أصحاب هذه العجائب كما أشاهد أصحاب الفنايل والصور للمصنوعة في علمنا هذا . قال سقراط : إنك لا ترى نفسك المدبرة لبدنك ، فقل هذا كان ينبغي لك أن تقول ان أفعالك صادرة عن اتفاق ومصادقة لامن عقل . قال : اني لا استمطر الالاهوت وإنما أراها تجل على أن تكون عمتجة لمبادئ . قال : فإذا كانت لا تجل عن العناية بك كان من الواجب أن تحترمها . ثم قال : اعلم أيها الحبيب ان نفسك تدبر جسدك مداوات مقاربة إياه ، فليكن أن تعتقد أن الحكمة الموجودة في العالم تدبر كل شيء كما شئت ، أنظرن أن بصرك يقدر على إدراك ما بعد عنك على مسافة بعيدة ، وأن بصرك الا لا يقدر على أن يحيط بجميع مافي العالم . انتهى ملخصا منقولاً عن الاستاذ سقراطه ويناسب هذه المحاضرة التي بين طياوس وسقراط التي ذكرها أفلاطون . قال طياوس : يا سقراط ، لذكر الآن السبب الذي حل منظم هذا العالم على تنظيمه ، فأقول : إنه كان جوادا ، والجواد لا يبدخه نوع من أنواع البخل ، فإراد أن تكون جميع الأشياء حسنة على قدر الامكان ، فمن ذهب في بيان سبب تكون العالم إلى هذا الرأي وهو رأى الحكماء ، فقد يكون على الصواب والسداد ، ثم كان مراد الله أن يكون كل شيء خيرا ولا شيء شر على قدر امكانه ، فأخذ جميع الأشياء المربية وهي حينئذ مضطربة متحرك بلا نظام ولا ترتيب فجعل النظام فيها بدل ما كان من الاضطراب .

ثم بعد كلام طويل بين تصوير الأبدان من العناصر على يد الله وقصور الآلات المختلفة من البصر والسمع وغيره . قال : « إن البصر نازله إلى في داخل العين ، فمن تلاقيه بالنظر الموجودة في الخارج يتولد البصار » وبسط القول في منح البصر وبيان منافعها . قال : « إن فائدة البصر على ما أرى أنه لو لم تكن لنا القدرة على إدراك الشمس ما كنا نتسكن من الكلام على السماء والعالم ، إذ من مراقبة اليوم والليلة ونحوها الأشهر والأعوام حصل لنا العلم بالأعداد والشعور بالزمان ، وحدث فينا الشوق لمعرفة الطبيعة والعالم ، فنه نشأت الفلسفة وهي أخص ما أقم الله به على الناس » .

ثم قال : « إن الله لم يقصد من إيجاد البصر فينا إلا أن يمكننا من تأمل دوران العقل في السماء لنستفيد منها قويم دوران عقولنا ، وتنظيمه على نسق ما زاه في السماء من ترتيب العقل في دوراء إذ هو وذلك طبيعة واحدة » انتهى كلامه .

وجاء في الفصل الخامس من الكتاب الرابع من المذاكرت ما يأتي : « كان سقراط كثيرا العناية بتدريس أصحابه على العمل فضلا عن تعليمهم أصول الفضايل ، وكان يعتقد أن العفة أصل كل خير ، فكان دائم المراقبة عليها ، يكرر ذكرها في محاوراته ، ومن ذلك ما جرى بينه وبين (أونوديمس) . قال سقراط : أوليس ترى يا حبيبي أن الحرية من أخص الأشياء للدول والمدن . قال : هي عندي أفضل لخيرات وأقسها . قال : فإذا سخر الانسان نفسه للشهوات حتى صار لها كالعبد مقيدا عن آتيان الفضايل أتراه حرا ؟ قال أرى أن لا أعبد منه . قال : كأنك ترى أن الحرية هي القدرة على فعل ما هو حسن ، والعبودية أن يسلط الانسان على نفسه ما يسلبه تلك القدرة . قال نعم ، وكأنك ترى أن من عدم العفة كان من الرقيق . قال : انه والعبد على حد سواء ولا جور . قال : هل ترى أن عبد الشهوات ممنوع عن الخير فقط ، أوليس هو مجبورا على آتيان الشر أيضا ؟ قال نعم . قال : انه ممنوع عن الخير مجبور على الشر لا علة . قال : وما ترى فيمن ينهى عن الخير ويأمر بالشر ؟ قال : إن شر الأرباب هو . قال : وماذا الصودية ؟ قال شر الصودية ما سخرت لشر الأرباب

قال سقراط : فلاشك حينئذ أن من اتبع شهواته إنما هو مسخر لشرّ هودية ، وليس ترى أن الانهماك في الشهوات يعد الانسان عن الحكمة ، ويجعله على قبضها ، فباله مشغول بطلب اللذات عن الأشغال المفيدة وهو مجبور على اختيار الشرّ مع علمه الفرق بينه وبين الخير ، فبسط الكلام في منافع العفة ومقاسد عديمها ، حتى قال : « إنّ عديم العفة لا يبلغ ولا الغرض المقصود منه وهو اللذة ، لأن صاحب الشهوات لا يصبر على الجوع والعطش والسهر وغيرها التي هي سبب التنازعا بالأكل والشرب والنوم ، لذا أمسكنا عنها تكلفنا العفة وصاحب الشهوات لا ينال من ذلك ولا أصغر جزء . قال : فالعفة إذن سبب علنا بالخير ، وتعالى ما به يصحّ البدن ، ويستقيم تدبير المنزل ، ويقدر المرء على مساعدة أحبائه ، ووطنه ، ومبارزة أعدائه . كل ذلك من العفة » انتهى

ولخص كلامه بأن قال : « لافرق عندى بين الحيوان والانسان للثبتم في اللذات ، كيف يجزم من الحيوان من لم يقصد من الامور إلا اتعها ، لا أحسنها ، لا يتأتى اختيار أحسن الأشياء إلا لمن تكلم العفة ، فقدّر بذلك على تمييز الأجناس جنسا جنسا قولنا وفعلنا ، وعلى اختيار الحسن منه ، والامساك عن خلافه .

حناية سقراط بالتمرف والحد

كان سقراط شديد العناية بالتمرف والحدّ ومعرفة حقيقة الأشياء بحيث يجرّدها من العوارض الشخصية فالانسان مثلا عند تمرفه يقطع النظر فيه عن أمثال القصر والطول ، والد كورة والانوثة ، وهكذا ، وما بقي بعد ذلك فهو : هوية الانسان ، وحقيقته ، وبجوهره ، الذى يقوم به وجوده . قال : فإذا أدرك الباحث هذا الحدّ من بحثه لم يبق له ما يطلبه ، وقد ظفر بالعى العقلى الذى به يتصور الانسان ، وهو جوهر الانسان شيء واحد ، وهنا أخذ سقراط يبحث في نفس الانسان وأخلاقه من الصبر والشجاعة والحياء والعفة إلخ معتقدا بأن لا شيء أهمّ للانسان وأجدى عليه من تحسين سيرته ، وتهذيب ضميره ، وأن ذلك أكثر حاجة من اقتناء العلم ، فان من اقتنى علما كثيرا وقلبه باطوى مشغول ، وقسه دنيئة مغمورة في الطبيعة كان كالبناه على غير عمام ، لا يحصل له من تعب إلا مزيد العناء ، ولكن تلاميذ سقراط استعملوا أساليب أستاذهم في البحث في الامليات ، وأشهرهم :

أفلاطون

ولد سنة ٤٢٧ ق.م — ومات سنة ٣٤٧ ق.م

لقد نقل الأستاذ (ستلايه) كلام أفلاطون فقال مانصه : « قال أفلاطون في المقالة الخامسة من كتاب التواميس : ينبغي لمحب الحكمة أن يسعى أولا باقتناب الطل العقولة ، ثم منها ينتقل إلى ما يتفرّك بنوع حركة ضرورية ، يعنى بذلك الطبيعيات ، وقال : إن السلم الحقيقى الذى هو مطلق السقلا ، ومطلب الحكماء ، لا يكون مبناه إلا الوجود الحقّ ، فالوجود الحقّ هو في نفس الأمر الغاية المقصودة من العلم والحكمة ، فكيف السبيل إليه ؟ قال : لا يتأتى الوصول إلى مثل هذا العلم مادام الانسان منفسا مغمورا في المحسوسات مقصورا عليها إذ « المحسوس » أى العناصر الأول التى منه تتكوّن الموجودات الطبيعية دائم التغير والسيلان عسير الإدراك ، والفرقان لا يستقرّ طرفه عين ، يقبل جميع الصور ، ولا يثبت على صورة ، فلا يحسن والحالة هذه إطلاق اسم الوجود عليها ، ولا إطلاق اسم العلم على ما يتعلق به من الإدراك ، والحال أنه يستحيل تعيين ما عينه ، ولا التعبير عنه ، فهو للوجود الحقّ بمثابة الظلام إلى النور ، فلا يبقى الانسان محصورا في هذا الطور من الوجود ما تمكن من معرفة العالم ، ولامن معرفة نفسه بشيء ، وغاية ما يناله هوشى ، شبيه بالعلم قد سلاه

أفلاطون بالظن وبأولهم هو العالم كاتخيل للجسد ، يختلف باختلاف الأوقات ويسيل معه سيلان المادة لا يثبت صاحبه على يقين آليته .

هذا شأن علم السوفسطائية ، وكل علم لم يكن له أساس إلا الحس ، لأن الحس يتغير ويتغيره تختلف القضايا والأحكام العقلية . قال : فلا بد من أن يكون في العالم شيء لا يتغيره التغير ، ولا تطرأ عليه الاستحالة والفساد ، والا فلا علم ولا يقين ولا حكم بشيء ، إذ العلم ما يتعلق بالحق ، والحق مطابقة الصورة المرئسة في ذهننا بالجواهر الموجودة في الخارج ، فلم يكن هناك جوهر ثابت بسيط غير قابل للتغير ما أمكن العلم بشيء . قال أفلاطون في المحاوراة المترجمة (بياثيتوس) : « كيف يتصور أن يحصل الإنسان على الحق ما لم يكن له حصوله على الحقيقة » انتهى .

فلزم من ذلك أنه يوجد وراء المحسوسات صور قائمة وحواهر دائمة تتعلق بها علما ، وهي المحسوسات بمثابة الشبح للخيال قسماها أفلاطون بالمعاني ، وتعرف عند العرب بالمثل الأفلاطونية ، وهو جمع مثل وباليونانية (بواديكا) قد استعملها أفلاطون أيضا . قال الشهرستاني في صفحة ٢٨٣ يمكن عنه ، أي عن أفلاطون أنه أثبت لكل موجود مشخص في العالم الحسي مثالا موجودا مشخصا في العالم العقلي ، يسمى ذلك للمثل الأفلاطونية . انتهى

قال أفلاطون : ما من شيء في هذا العالم إلا وله في العالم العقلي معنى يقابله هو عباد وجوده ومنبع حياته وأصل حركاته ، وموضوع علمنا به ، فلإنسان مثلا والحيوان من كل مائت نوعه ، واستقر وجوده به بخلاف الأمور الطارئة له في العالم العلوي مثل بسيط مجرد عن القشور العادية والطوارئ الحسية مفارق للمادة قائم بنفسه ، فهما حيثئذ عالمان متقابلان متطابقان : عالم الحس والشهادة ، وعالم العقل واليقين . فعالم الحس فيه من التواتر المفردة الناقصة المتغيرة ما يقابله في عالم العقل من كليات المعاني الكاملة الثابتة وهي التي بها يصح تثبيت معرفتنا بالوجود ، وهذه القاعدة الأفلاطونية مما ينبغي فهمها لمن أراد فهم أقوال حكماء الاسلام ، قد أشار إلى ذلك ابن سينا في بعض رسائله حيث قال : « فالحیوان الواحد لا يحصل واحدا وقد تقدمه معنى الوحدة التي بها صار واحدا ولولاه لم يصح وجوده ، فاذن هو الأشرف الأبسط الأول ، وهذه صورة العقل » اه قال الامام الرازي في « مفاتيح الغيب » في المجلد الرابع صفحة ٣٣٧ مانحه : « مذهب حكماء الاسلام أن الموجودات القائمة عن الحواس عل ، أو كالعلل للموجودات المحسوسات ، وعندهم أن العلم بالذات علة للعلم بالماحول ، فوجب كون العلم بالغيب سابقا على العلم بالشهادة ، فلهذا السبب أينما جاء هذا الكلام في القرآن كان الغيب مقتضا على الشهادة ، فهذا كما علمتم هو مذهب أفلاطون بعينه ، فإذا قيل : علما ما هو الموجود وما هو اليقين ؟ وما هي المعاني ؟ فالطريق إليه ؟ قال أفلاطون : « إن المعاني تنكشف بالبصيرة دون مشاركة الحس » ، فإذا تجرعت النفس عن الملاقاة الطبيعية ، وانحازت إلى جوهرها صفا بصيرها فأدركت تلك الجواهر وذلك لأن النفس كانت في العالم العقلي بصفة معان قائمة وجواهر مجردة عن المادة فأهبطت إلى هذا العالم حتى تدرك الجزئيات ، وتستفيد ما ليس لها من ذاتها بواسطة القوى الحسية . قال : وقد كنا أدركنا حيثئذ المعاني العقلية في أول الفطره قبل الهبوط الى هذا العالم السفلي ، فإذا شرعت في التعلم فكأنها آفاقت من نومها وفتحت بصيرها ، وتذكرت ماراته في حياته السابقة ، فإذا وانظرت على ذلك ولم تنكسر حصل العلم شيئا فشيئا وما هو في نفس الأمر إلا رجوع النفس إلى جوهرها واتصالها بجلالها التي منه هبت وإلى تعود ، ومنه قول أفلاطون في تعريف العلم انه اتصال جوهرنا العقل بالجوهر العقول التي في الوجود . وقال أفلاطون في المقالة الخامسة من كتاب التولاميس : « إن عجب الحكمة دائم النزوع إلى الوجود ، معرضا عن الأفراد والظواهر ساعيا : البحث عن النهايات العقلية ، لكي يتصل - جوهره - العقلي بما في الأشياء من الجواهر العقول »

فيتحد بها لما بينهما من الشائكة والمجانسة فتولد من اتصالها المعرفة واليقين ، فما العلم في نفس الأمر إلا تذكر النفس حالها السابقة التي كانت عليها قبل الوجود البشري ، وما قد تشاهده في تلك الحياة السابقة ، فهو أشبه شيء بالولادة ، والنفس أشبه ما يكون بالرأفة الجلي ، تلقى حبلها وتبرز ما كان في قواها كامتا ، وفي جوهرها باطنا .

ومن ذلك أخذ الامام الغزالي في أصل النفس قوله في الرسالة الدنية صفحة ٣٤٠ : « العلوم مركوزة في أصل النفس بقوة كالبذر في الأرض ، والجوهر في قعر البحر ، أوفى قلب المعدن ، والتعلم هو طلب خروج ذلك الشيء من القوة إلى الفعل » .

ثم قال في صفحة ٣٤٠ ماضيه : « وليس التعلم إلا الرجوع النفس إلى جوهرها وإخراج ما في ضميرها إلى الفعل » اهـ

وقد رأينا علما يمرض بمرض خاص كالرأس والصدر فمرض نفسه عن جميع العلوم ، وينسى معلوماته ، وتلتبس عليه ، فإذا صح وعاد الشفاء إليه يزول النسيان عنه ، وترجع النفس إلى معلوماتها ، فتذكر ما قد نسيته في أيام المرض العارض ، فعلمنا أن العلوم ما فتيت وانما نسيته ، فاشتغال النفس بالتعلم هو إزالة المرض العارض من جوهر النفس لتعود إلى ما علمت في أول الفطرة . انتهى كلامه .

فهذه وأمثالها مما يوجد في كتاب الإحياء للغزالي ، وفي التفسير للامام الرازي ، وفي مصنفات عجي الدين ابن العربي وغيره من المتصوفين قطع النظر عن فلاسفة الاسلام هي أفكار أفلاطونية محضة ، نجسونها مبسطة في الماوراء الأفلاطونية ، لاسيا في المحاورة المترجمة (بيانياتوس) وفي الفيديون : « قال الأستاذ سنكلان للطلبة : كان بودي أن فطام شيئا منها لوساعد الوقت ، ثم قال في محاضرة أخرى ناقلا عن أفلاطون : قد يسب في عالمنا الحسيّ الخروج إلى المعاني على صفاتها الأصلية وهي الأشياء الحسية كالخيل في الماء الكدر ، فمن أراد أن يدرك المعاني فعليه أن يجرد الأشياء عن قشورها المادية وظواهرها المتغيرة حتى يصير شيئا قشريا إلى ما في أصلها إلى الجوهر الثابت المعقول ، فقد جاز بذلك على حقيقة الشيء وجوهره المطابق لصفاته الموجود في العالم الصفي ، وهذا كما علمتم مذهب سقراط اقتبسه عنه أفلاطون وجعله أساسا للإلهيات ، قال : فإذا خرج من المحسوسات إلى المعاني ، وروّض فكره فيها كشف من المعاني علما غريبا بهاء والكمال اندرجت فيه المعاني بعضها تحت بعض كما يندرج في عقولنا ماهو أخس فيها هو أعم ، فيصعد من الصورة العامة إلى ماهو أعم منها وجودا وأرفع شأنًا وكلا إلى أن تتحد - جميع تلك المعاني في ذات الإله قدس وتعالى (أقول : هذه عبارة الأستاذ سنكلان التي نقلها عن أفلاطون وهي موهمة لا تحوز في عرف البيانات) وهو ماساه أفلاطون بالغريب الخفض ، والكمال المطلق ، وبالوجود المطلق ، وبمعنى المعاني أيضا ، فالمعاني كأنها أفكاره ، (أقول : وهذه العبارة لا تحوز عند أهل البيانات) وصفاته وجميعها حكمت التي أوجد بها العالم ودرجه وأخرجه من الظلام والاختلاط إلى النور والنظام والترتيب ، وقد اتضح بذلك أن العالم في قبضة الخير الخفض وأنه ما من شيء إلا وله مصلحة هي المقصودة من وجوده ، وهذا هو الركن المهم في الطبيعيات عن أفلاطون ، ولا يمكن لنا أن نخوض فيها الآن ، ثم قال : وبه تعلق أيضا ما قلناه في الأخلاق . قال أفلاطون : فمن أدرك تلك المعاني وتحقق ما هي عليه من الكمال والجمال استصغر دنياه وما فيها ، واستعظم ما شغقت به قلوب العتمة من حب الحياة وجمع المال ، والتوسع في المكاسب ، والانهماك في الدفات الحيوانية ، ونشوق هوائ الرجوع إلى وطنه ومنشئه ، ليس الإنسان كما ذكرنا إلا روحا أي معنى من المعاني قد تعلقت فيه بدن هو لها كالسكن للمنظم فإذا أفاق تأثر العالم لم يكن حرمها واجتهادها إلا على التخلص من هذا الربط والخروج إلى عليها الروحاني فلم يبق إلا تنقية نفسه ، وتركيبه ضميره ، وصل قلبه من الرعونات . لكي يكون مستعدا للاتصال بتلك

الجواهر السافية . قال : هذا شأن كل من كانت نفسه على النظرة أوقرية منها تزايد العلم فيها ، وما ازداد الانسان علما إلا وقد ازداد إلى تلك المعاني قربا ورغبة ، وعن الظواهر الغائية إعراضا وقصورا ، فإذا كملت حكمة الرجل وتم عروجه من معنى إلى معنى كان آخر أمره الاتصال بالعالم الروحاني ، وفيه تمام الحكمة ، وكمال السعادة الأبدية التي ليس بعدها سعادة ولا حكمة إلا ما اختص به الاله تعالى دون غيره لا يشترك فيه أحد ، ويلزم من ذلك أن المعرفة ومكامل الأخلاق لا يطرقان ، وهذه من الاصول المهمة عند افلاطون ، عليه تأسس مذهب في الأخلاق . قال : ان العقل لا يختار ما هو أضر وأدنى وهو يعلم أن هناك ما هو أرفع وأصلح ، فإذا وقع ذلك منه لا يكون إلا للجهل بما هو أصلح ، أو عدم رسوخ العلم ، أو ضعف اليقين ، فكل من ارتكب الذنب والظلم والشر ، ومن اتهمك في الذات الحيوانية ، ومن أفرغ عمره في طلب الدنيا لا يطلق عليه اسم مذهب ولا يجرم إذ لا ذنب باختياره ، والحق أنه لا يعلم إذ اختار ما هو أخس رتبة ، وأقل بقاء ، وأضر عاقبة ، وترك ما هو أعم نفعا ، وأثبت بقاء ، فهو إذن بالرحمة والعذر والتعليم أحق منه بالعقوبة .

ثم قال الاستاذ سنتلوه للطلبة : عرقم تناج المذاهب ، وكيف كانت مذاهب الأولين الطبيعية ولاعتماد لهم إلا الحس ، حتى لم يكن للعقولات عندهم رسم ولا ذكر ، فانقلب بعد سقراط وأفلاطون الأمر بالكلية ، فصارت الطبيعة نجا والعقل متبوعا ، والطبيعة الموجودة آثارا والعقل مؤثرا ، ولم يبق للهوى فعل ولا وظيفة في العالم إلا من حيث القابلية والاتصال ، وانحصر الموجود والتأثير في العالم في العقل والنفس الانساني وهو من ذلك العالم ، وترق العقل الانساني الى الاعتراف بوجود الاله وتديره العالم وأنه خير محض ، فن تبصر في هذا الفرق العظيم ، وتصفح الرسائل الأفلاطونية ، وعلم لها من متانة الحكمة ، ودقة الأفكار ، وجزالة اللفظ لم يسعه أن ينكر ما لهذه الفلسفة من علو المقام الذي اجتمعت عليه الأوائل والأواخر ، فن تأمل التاريخ رأى الفلسفة الأفلاطونية سارية في أفكار الأمم منذ نشأتها سرعان الدم في بدن الانسان ، منها أخذ أرسطاطاليس ، ثم الاسكندر برون ، نصيبا وافرا من أصولهم ، ومنها أخذ الاطيون من النصرى أمهات أقوالهم من النفس الانسانية وبقائها بعد الموت حتى امتزجت باعتقادهم امتزاج العرق بالدم ، ومنها أخذ جيم غير من المعتزلة كشماعة وأنى هاشم وغيرهما من حكماء الاسلام أقوالهم ، ومنها اقتبس فلاسفة القرون المتوسطة من النصرى واليهود كما أخذ منها البعض من فلاسفة ألمانيا في القرن السابع ، ولزالوا منها يقتبسون . فكل هذه الفلسفة التي علا صيتها بين الأمم ، وأثرت في أفكارها عما يستدعي من كل طلب الحكمة طول التأمل ومزيد العناية . انتهى ما قاله الاستاذ سنتلوه بالحرف .

وانما قلت هذا الكلام برمته لأني وجدته أشبه بمجزة لنبينا محمد ﷺ فهذا القول آخر ما وصل اليه العقل الانساني ولم يزد عليه أحد كما سألته أيضا بعد ، وهو آخر سلسلة علوم الأوائل ونهايتها ، ومع ذلك جاء بما هو أعلى منه القرآن ، فهذا يجب أن نحج به نهاية الحنطة على لسان من لم يقرأ حوفا واحدا ، ولم يتعلم ، وهو أمر عجيب وغريب !

فقال بعض الطلبة لى : ما إجمال ما مضى من آراء الفلاسفة ؟ قلت : ان الغاية المطالبة من الفلسفة هو العلم اليقيني ، ولا يقين فيها يطرأ عليه التغير ولا ثبوت له ، فهو الى العلم أقرب منه الى الوجود ، وهذه حال الطبيعة ، فاذن لا تخلو الحال من أحد أمرين : إما أن لا يتمكن الانسان من العلم ، وهذا رأى السوفسطائية وكل من أنكر الحقائق ، وإما أن يكون وراء الطبيعة مالا تدركه حواسنا من الجواهر الثابتة التي لا يتطرق اليها التغير وتكون موضع العلم اليقيني ، وهذا ما حل افلاطون على اثبات ما ساءه بالمعاني وهي جواهر مجردة عن اداة منارة للذبيبة الحسية هيدها العلم إذا نعلق بها عقلا . قل : فإذا جرى بعد ذلك ؟ قلت :

آراء أرسطاطاليس

هناك قال أرسطاطاليس عليه : أنا لا أنزع في أن موضوع الفلسفة هو الوجود ، ولا أنزع في أن الحسوسات الطبيعية ليست من الوجود في شيء فلا يمكن اتخاذها أساسا لمعرفة ، ولا أنزع في أن العلم يتعلق إلا بالكليات لا بالظاهر والأفراد ، كل ذلك سلناه ، ولكن أنزع في قول أستاذي : « إن الكليات التي تعلق بها العلم إنما هي جواهر قائمة بنفسها مفارقة للمادة ، فكيف تكون الكليات قائمة بنفسها مفارقة للمادة ، وهي في الوقت نفسه مؤثرة فيها ، فهنا لا تخلو الحال من أحد أمرين : إما أنها مفارقة لا اتصال لها بالأفراد كالإنسانية العلة لا اتصال لها بزيد وعمرو ، فكيف إذن أثرت في الأفراد الوجود وهي مفارقة لهم وإما أنها مقارنة والمقارن للتحرك المتغير متحرك متغير ، فأين الثبات والديموم التي امتازت به تلك الكليات ثم أين للمفارقة ؟ إذن كلام أفلطون عندي مشكل ، فانه أثبت مفارقة الكليات لأفراد الوجود منها وأثبت تأثيرها فيها ، إذن المفارقة مقارن ان التأثير يغير المقارن غير ممكن (يقول مؤلف هذه الرسالة : هذا القول في عصرنا منقوض فتأثير المفارقة حاصل الآن على بعد) ثم كيف يكون جوهر الشيء مفارقة لما هو جوهره ، وكيف ينطبق الجوهر الواحد على زيد وعمرو الخ ، ثم ان ملازمه أفلطون من أنه منطبق في الأفراد انطباع الصورة في للآلة كلام تشيبيس تمثيلي والمثال غير الحقيقة ، إذن هو أثبت عِلَين : عالم العقل ، وعالم الحس ، ولم يبين وجه الاتصال بينهما . فقال أحد الطلبة لي : فإذا فعل أرسطاطاليس إذن ؟ قلت قل ان أساس العلم شيء نراه بأبصارنا ، ونحسه بحواسنا ، وهو الصورة ، ذلك أن العالم الذي نراه هو عبارة عن مادة ، ولكن هذه المادة انما هي أمر عديم (وبعبارة أخرى) هي مجرد استمداد أو إمكان ، وهذا الاستمداد أو الإمكان أو العدمي تعين لنا وتظهر لنا بالصورة ، فالتا تفرق بين صورة الكرسي والشباك والباب والسقف وجعلها من الخشب ، فالتشبه المشترك بين هذه الأربعة نسميه مادة لها ، والأشكال التي رأيناها من التقادير طولاً وعرضاً وعمقاً ولونا وما أشبهها نسميه صورة ، فهذا التمثيل جعلناه فيها لعدة العناصر ، والصورة العاتية ، والمادة أو الطولي العامة لا وجود لها إلا بالصورة وهي في نفسها إمكان محض ، فالتا فكلما رأينا مادة إلا وهي متميزة بصورة ، أما المادة وحدها فلم نجد لها ، فالتا ترى كوكبا وشما وقرا وجادا وحيوانا وأرضا ، ولم نرهو لي بغير صورة ، فالصورة هي التي تعلق بها العلم وهي موجودة نشاهدها ، أما الكليات والجواهر العقلية فوجودها ذهني لا خارجي ، فكيف يتعلق بها العلم ؟ فالعلم إذن يتعلق بالصورة فينزع العقل الكليات من تلك الصور ، فيرى أفرادا في الوجود ككفرس وإنسان وحسان فيقول حيوان ، ويرى حيوانا وإسانا ونباتا فيقول نام ، وهكذا ، فهذا هو موضوع العلم منه أنزع العقل الكليات ، لا أن الكليات هي أصل العلم ، بل هي فرع عن الأفراد الخارجة المحسوسة فهي الثابتة .

فقال بعض الطلبة : فما تفرع على هذين المذهبين ؟ قلت : تفرع عليها في الاسلام الخلاف بين الأشاعرة والمعتزلة كما يقوله الاستاذ سقلايه ، فإذا سمعت الأشاعرة يقولون : « إن وجودات شيء عين ماهية » فهذا هو عين قول أرسطاطاليس ، وإذا سمعت المعتزلة وفلاسفة الاسلام يقولون : « ان الوجود غير للماهية » وأثبتوا اسم الوجود لما يتصور في العقل ولما يمكن وجوده وهو نفسه معدوم . قال : لاستاذ سقلايه : وما هذا إلا رجوع إلى مذهب أفلطون .

ثم قال أرسطاطاليس : « إن للمادة والصورة لتمييز بينهما إلا باعتبار العقل ، وفي الحقيقة لا يترك أحدهما عن الآخر ، فاللادة توجد بدون صورة ، ولا لصورة خالية عن المادة » انتهى

وقال أرسطاطاليس أيضا : « فهنا أمران : مادة وصورة ، ولما كانت للمادة تخلع صورة وتلبس أخرى كان هناك أمر ثالث لابد منه ملازم لها وهو مانسيه :

الحركة

فالمادة أبدا منتقلة من صورة إلى صورة ، وهذا الانتقال نسميه حركة من مكان إلى مكان ، أو من جوهر إلى جوهر آخر ، أو من كمية إلى كمية ، هذا قوله ، ومعناه أن الغذاء إذا صار في الحيوان جسم سبع مثلا ، والعقل إذا نما سنة فسنه ، والإنسان إذا صار من مكان إلى مكان . فهذه كلها نسميها حركات فالأولى حركات جوهر إلى جوهر ، والثانية نسميها حركات في الكمية ، والثالثة نسميها حركات في المكان . قال :

الطبيعة

هي مجموع الثلاثة : المادة ، والصورة ، والحركة . قال أرسطاطاليس : إن المادة دائمة التزوع والتشوق إلى الوجود لا تزال تشتاق إلى الاتصال بالصورة حتى تستكمل بها ذاتها ، فإذا بلغت من الصورة درجة ما فلا زالت تشتاق إلى ما فوقها ، فهي أولا مادة كادت أن تكون عارية من الصورة خالية من الأوصاف والتمييزات الفعلية ، ثم ترتقي فتصير معدنا ، ثم ترتقي فتصير شيئا متوسطا بين المعدن والنبات ، ثم تصير نباتا فتلتحق بها النفس النباتية ، وآخر درجة منها شيء متوسط بين النبات والحيوان ، ثم تصير حيوانا فتلتحق به النفس الحيوانية ، وآخر درجة منها شيء متوسط بين طبيعة الحيوان وطبيعة البشر ، ثم يصير إنسانا فتلتحق بمادته القوة العقلية وهي نور إلهي يأتيه من خارج ثم ما فوق الإنسان من الجواهر المفارقة والنفس المجردة ، فهي كالسلسلة لربطت كل حلقة بالأخرى ، وكل درجة تابع بعضها بعضا إلى أعلى المنزل . ثم قال : ومن تبصر في هذا الارتقاء العجيب يتحقق أنه ما من خطوة تخطوها الطبيعة إلا وقد خلعت شيئا من أوصافها العادية وقشورها الدنية ، وازدادت صفاء ونورا واتحادا وبسطا إلى أن تصل إلى صفات العقل ، فهو ارتقاء من القوة الخسة إلى العقل المحض ، ومن المادة المجردة إلى العقل الصرف ، والكل متوجه لا محالة إلى الخير المحض ، وهو الغاية المقصودة من الطبيعة .

وقال أرسطاطاليس أيضا : « إن العالم مثل المنزل الواحد ، فيه أرباب وأحرار وعبيد وبهائم ، جميعهم صاحب المنزل في عمل واحد ، ورتب لكل منهم وظيفة خاصة وخطة معلومة لا يتجاوزها حتى يحصل بتعاونهم مصلحة الجميع . أو هو كالجيش الواحد اجتماع تحت اذن أميره اختلفت فيه المراتب والخطط ، واتحد الكل بكلمة الأمير . قال : وبدون هذا الأمير لا يستقيم وجود الجيش ولا تنظم حركاته . قال : فأرأينا في العالم من تناسب الحركات واتحادها يلعبنا إلى الاعتراف بوجود هذا الأمير ، وهو الإله ، وهو مبدأ الحركات ، وهو غير متحرك » .

فهذه آراء أرسطاطاليس ، وما تختم قلبه من آراء سبقت ، هي آخر ما وصل إليه العقل الإنساني إلى عصرنا الحاضر ، وليس هناك فلسفة غير ما تقدمت ، فكل مانسمعه في بلادنا المصرية وبلاد الشرق وبلاد أوروبا في عصرنا لا يخرج عما سمعته الآن .

فقال أحد الطلبة : هذه رسالة فلسفية ، والفلسفة لا تعتمد إلا على دليل ، فما دليلك على أن العالم كله شرقا وغربا لم يخرج من الآراء للمتقدمة من أيام تاليس إلى أيام أرسطاطاليس ؟ فقلت له : قل الأستاذ سئل أنه الطلياني : « انك اذا أردت أن تفهم الفلسفة حتى الفهم فلا بد لك من معرفة آراء الأقدمين ، إذ الفلسفة وسائر العلوم كلهم يكون مقلدا ثم يشبه ثم يصير ككها وهو شخص واحد ، وكالسلسلة كل حلقة منها

ارتبطت بالأخرى حتى لا يمكن حلها من غير أن يفسد الجميع ، فمن لم يقف على أقوال الفلاسفة حق الوقوف لا يتمكن من استنباط آراء المعاصرين ، ولان سبب اتخاذهم رأيا دون رأي ، ولا ما آلت إليه الفلسفة في حالها الراهنة .

قال (باكون) الفيلسوف الانجليزي : « إن التاريخ العلوم كالمصير لجسد الانسان ، به يبصر ما تقدم وما بين يديه ، لكي يعلم الناحية التي ينبغي له أن يتصدها » انتهى كلامه .

ثم انه لا يخفى أن المسائل الفلسفية لا تتغير بتغير الزمان ، وهي الآن على ما كانت عليه في القرون الماضية من البحث عن ماهية الوجود ، ووجود الله ، وجوهر النفس ، وكيفية اتصالها بالبدن ، وإدراكها بالحواس ، وما هي حق المعرفة والميزان الذي به يقاس حقيقتها . فهذه المسائل وأمثالها التي اشتملت عليها الفلسفة لم تختلف باختلاف الأجيال ، أظن أنا نحن الجواب أكثر مما كان يحسنه أفلاطون وأرسطو ، لا والله أنا لو قدرنا على ذلك لقدرنا على الاتصاف بصفات الالهية ، وشتان ما بين البهوضة والقييل ، فلورا جت هر بارت سيسر مثلا لوجدته يعترف في كتابه الموسوم بالاصول الأولية بأن الأوليات في الفلسفة مما لا طاقة للبشر عليها وأن لاسابقة لنا على الأقدمين إلا في المسائل الجزئية ، واللبث الفرعية ، دون ما بينها حل من اشكالات الاصول ، فالمسائل باقية والجواب يختلف ، وكل جيل أخذ سبب من تقدمه بخطوات خطوات وبؤخر أخرى وبلتنا وبين الغاية المقصودة بون يبيد يكاد لا يتصوره عقل البشر فضلا عن أن يتخطاه ، ذلك سر الله لا يحيط به إلا هو .

ثم قال الأستاذ (سنلان) : « فلا يفرق لك أيها الحبيب شققة المتفلسفين ، وأنت إلى الفلاسفة تمجد كلا منهم متبعا رأيا من آراء من تقدم ، يوافقه تارة ويخالفه أخرى إلى أن ينتهي النسق إلى فلاسفة اليونان ، ولهم حق السبق وقضية التمهيد .

فقال بعض الطالب : حقا يقال : « إن كنت ناكلا فالصحة ، أومتعيا فالليل » وهأت ذاصح فقلت فلا سبيل إلى المعارضة ، ولكني هنا أريد أن أعرف تفصيل ما أجله من قلت عنهما فانهما يقولان ان الآراء كلها في عصرنا ترجع الى علماء اليونان (وبعبارة أخرى) ان السلسلة المتتمة التي ذكرتها لا يسدها مذهب من المذاهب في الشرق والغرب الآن ، فأرجو أن تذكر لنا أمثلة على ذلك حتى يصح لدينا أن الآراء لا تصح تلك السلسلة الفلسفية المبتدئة بتأليس المنتهية بأرسطاطاليس .

فقلت : مثال ذلك أنه ظهر في أواخر القرن السابع عشر في إنجلترا الفيلسوف الانجليزي (جون لوك) وكان يقول : « إن المعرفة سببها الاختبار والبحث ، ولا سبيل الى البحث بفكر الحواس ، والحواس توصل مافي المادة من المعاني الى النفس ، فالمادة أصل والامور العقلية فرع ، فهنا ثلاثة أشياء : مادة ، وعقل ، وحواس . فالحواس خدام يتقلون صور المادة الى قلوبنا ، فالمادة هي الأصل والصور والصور خدماها ، وللمادة الأثر الفعال ، فالفلسفة ترجع الى المادة لا غير ، أليس هذا الرأي يرجع الى آراء الفلاسفة الأولين اليونانيين الذين قالوا : « إن العالم يرجع الى المادة من هواد أوماء أوجزه لا يتجزأ » . فقلت لهم : حق فقلت : ثم جاء بعده :

بلوكي

فقال : إن قول (لوك) يثبت من نفسه أن للمادة ليس لها وجود مستقل ، وإنما هي موجودة ، لأن حواسنا تشعر بها ، فإذا لم تكن الحواس لم تكن المادة ، فكان هذا للمذهب راجعا الى مذهب أفلاطون تقريبا ، لأنه جعل المادة تابعة للحواس ، ومعلوم أن الحواس تابعة للنفس . وأفلاطون يقول : لا وجود إلا بالامور العقلية ، ولا علم يتعلق إلا بها . ثم جاء :

هيوم

وألف رسالة عنوانها « الطبيعة البشرية » جارى فيها (بلزكي) في نفي وجود المادة المستقل، ثم أثبت بنفس هذه الطريقة أن العقل ليس له وجود مستقل، ولا جرم أن هذا ينحصر نحو السوفسطائية الذين لا يثبتون علما. ثم جاء :

الأستاذ كانت الألماني

وألف كتابه « تحليل العقل الجبرّد » ووضع فلسفته الكالية، وأثبت أن للدواعي العقل، وأنه أصل المعارف والعلوم، لجعل للعقل والنفس الشأن الأول في هذه الحياة، وأخذت ألمانيا كلها تهتم بما وراء الطبيعة وتبعه أمثال (شالر)، و (غوته)، وقل عنه (بتهوفن) قوله : « إن عييتي في الحياة هما القبة الزرقاء ترصعها الكواكب » و « الناموس الأدبي في نفس الانسان »، وتبعه (شلنغ) و (هيجل) و (شوبنهاور) وكان كتابه « تحليل العقل الجبرّد » كلن تمهيدا لآراء شوبنهاور وفيتشه وبرفش ووليم جيس، ولإزالة نظامه الفلسفي قائما، لأن العلم الحديث في أشخاص يرسون وبوانكاري أثبت أن الحقيقة والمادة والطبيعة ونواميسها كلها مما يستنبطه العقل ولا وجود لها إلا بوجوده، فكان أكليل النصر عقد لكانت وفلسفته فافاز على المادة والاحاد اه

فقال بعض الطلبة : ولأى المذاهب يرجع هذا ؟ فقلت : هو أقرب إلى قول أفلاطون وقد تقدم قريبا فقال آخرون الطلبة : نريد جدولاً بين ما تقدم كله . فقلت : هذا جدول يعرف مذاهب الفلاسفة ومراكزهم في العلم قديما وحديثا بحيث يرد كل منهج إليه، وقد تقدم بعضه ولكننا نذكر ما تقدم وما يفتي عليه، وهذا منه

(١) هؤلاء هم الطبيعيون، هم يشبهون الجنين، والهرود في الطين، أوفى بطن الحيوان، أوطئة الأس .

(١) تاليس المائلي : عنده أصل العالم الماء
انكسيپانيس : عنده أصل العالم الهواء
انكسيمندر : عنده أصل العالم مادة
لاصورة لها .

(٢) هؤلاء دهريريون، هم يشبهون الطفل وحيوانا له حاستان
(٣) هم سوفسطائية، يشبهون الشاب، وحيوانا ذا ثلاث حواس .

(٢) ديموقريطس . أنبذوقلس : أصل العالم عندهم الجزء الذي لا يتجزأ وهو دائم أبدا
(٣) بروداغورس . غورغاريس . يبرون شيعتهم عندية . عنادية . لأدرية
(٤) و بعدهم فيثاغورس يقول : الأصل العدد، وأنبذوقلس يقول : الأصل الحبة والكراهة .

(٤) هؤلاء يشبهون البالغ وحيوانا ذا أربعة حواس وهو الخلد (بالفتح) في الظلمة

(٥) أنكساغورث يقول : أصل العالم عقل نظمه .

(٥) هؤلاء يشبهون الفتي، وحيوانا ذا خمس حواس كالأنعام .

(٦) سقراط، وأفلاطون، وأر. طالمائيس

(٦) هؤلاء إلهيون، يشبهون الشيخ الكامل وسلكا من ثلاثة السماء .

(١) جون لوك : ملهى يشبه تاليس المائلي وهو انجليزى .

(٢) دهريريون يتبع الهريريين، واللمعنون في مصروف الفرق أشتجوا منصب الهريريين

(٢) هيوم يشبه السوفسطائية، وكذلك بعض المسلمين في أوروبا ومصر وبلاد الفرق الذين يشكون ولم يتقوا على المخالفات لوقوفهم على الظواهر وجهلهم بالفلسفة .

(٦) بلزكي، وكانت الألمان يشبهان أفلاطون، وكذلك : سبنر، وجون لوك، وأولييفر لودج .

ومن الجب أن علماء الشرق والغرب يرجعون في هذا المقام إلى قطعة واحدة هي مركز الاتصال ، فلقده قرأت في كتاب « راجا يوتا » القى أثناء سنة ١٨٩٥ ومئة ١٨٩٦ بهيئة محاضرات الاستاذ (سوامي فيشكندا) بعنوان « الفلسفة اليوجية » في مدينة نيويورك بولايات المتحدة ، وهو ترجمه عن الهندية ، يقول بالانجليزية التي ترجمتها هنا إلى العربية ما يأتي :

« إن المذاهب ثلاثة : وهي ، مذهب السنخ ، ومذهب اليوجي ، ومذهب الفيدا . أما مذهب السنخ فانه لا يفكر في إله خالق للعالم ، وأما مذهب اليوجي فانه يقول : « إن العالم له إله ولكنه يختص بالعلم فقط ، وأما العمل فليس له » . وأما مذهب الفيدا فانه يقول : كلا . إن هذه العوالم منظمة موسيقية وهذا النظام الجليل شاهد عدل على إله نظمه بعلمه وأحكمه بقدرته ، إن هذا العلم للشاهد من كواكب وشعوس وعناصر ونبات وحيوان الخ لا يمكن أن تصدر إلا عن ارادة ، أما المذهبان السابقان فهما لا يباليان بخالق للعالم ، ومعنى هذا أن اليوجيين لا يريدون أن يثيروا مسألة خلق العالم بل هم يتجنبونها ، يقول : ولكنكم عرفوا الله بطريقة أخرى غريبة ، وهما هي ذه : « قالوا إن علما قصر على الماتمية له ولا جرم أن العالم فيه ماله نهاية زمانا ومكانا وما لانهاية له فيها ، وقد وجدت على الأرض عقولنا فعرفت ماله نهاية وما لانهاية له ، فقولنا لا تعرفه ، وإذا ظهر في الوجود أن ماله نهاية عرفته عقولنا ، فلا جرم أن هناك عقول يعرف مالاهاية له وهوا الله » وقالوا أيضا : « هو معلم المعلمين علم الأولين والآخرين ، والا فمن أين جاء لهذه العقول علمها ، ويستحيل على المادة أن تحدث علما ، إن علما ثابتة في نفوسنا ولكنها صادرة عن علم معلم آخر ، فوظيفة الإله عندهم علم الملاحذ له ، وتعليم جميع الناس علومهم ، لأن المادة عمياء جاهلة ، والجاهل لا يعطى علما » انتهى

هذا ما ترجمته لك من هذا الكتاب ، وفي الكتاب طول فاقصرت لك على المفيد ، وهنا أقول لك : المهم أني لقيت عجب : إن عقول الشرقيين وعقول الغربيين رجعت إلى رأي واحد ، فإذا رأيت تاليس ومن بعده من الفهرين والطبيين لوجود عندهم إلا للادة ، ورأيت فيثاغورس لا يقول إلا بالعدد ، فهو لاه في مقابلة علماء السنخ في الهند الذين لا يفكرون في خالق العالم ، وإذا رأينا أنكساغورس يقول : « إن العالم إله » ولكنه لا يعمل فيه شيئا ، فهو نظير مذهب اليوجي ، وإذا رأينا سقراط يقول : « الله يعلم العالم ويدبره » فهذا بعينه هو مذهب الفيدا ، وهو الكتاب المقدس عند الهندود ، وإذا رأينا كتب الفيدا قد استدلت بالظلم الموسيق في المادة فهو نفس المليل القى فانه سقراط سواء يسواه ، وقد شرحه سقراط فيما تقدم لك شرحا واما فهنا اتحد الماديون في أوروبا ، والروحانيون في الشرق ، وغاية الأمر أن العقول تنتقل من طور إلى طور حتى تصل إلى الحقيقة ، وإذا رأينا أفلاطون يقول : « إن هناك مثلا أخذنا العلم عنها » فهذه مذهب اليوجيين في الهند يقول هذا القول بنصه وفهه ، فيقول : « إن علما لا يكون من المادة بل هو من الله » وكيف يأخذ العقل عن الحجر ، وقد سمعتم الاستاذ ستلايه التلياني فيما نقلته لكم في هذه الرسالة يقول : « إن فلسفة أفلاطون هي التي سرت في جميع الأمم ، فالنصرى والمسلمون وأم أخرى قد سرت فيهم سر بيان الروح في الجسد ، وأن المانيا اليوم متأثرة بها عن علما الاستاذ « كانت » انتهى .

إذن العالم الانساني كله سار من طرق مختلفة في عصرنا هذا فانه إلى قطعة واحدة ، فاليونان انزلوا إلى العقول والله فوقها ، وأهل أوروبا بشهادة ستلايه وسبنسر ، وكانت الألمانى رجعت إلى هذه النقطة بنفسها . إذن كل أولئك الذين جهلوا هذه الحقيقة لا يزالون في الطريق حتى يصلوا ، فالمسألة مسألة الزمن لا غير وبهذه الرسالة قد وقفنا على حقائق ثابتة مؤيدة بالعلم والمليل والحكمة .

أيها الأصل العلم أم الوجود ؟

بل من العجب أن نفس هذه الآراء شرقا وغربا ، ونهاية الفلسفة في الأمم الشرقية والغربية قديما وحديثا توضح لنا ما قلناه سابقا وهو : هل الأصل هو العلم ؟ أو هو الوجود ؟ فنقول تأييدا لما سبق : إذا رجع الروحيون في الهند إلى قوة فوق القوى تتمهم بالعلم عند اليوجي ، وتنظم العالم أيضا في الفيدا ، وإذا رجع أفلاطون إلى المثل الأفلاطونية ، فذلك كله لا أول له ، ولا جرم أن هذا وجود لاعلم ، إلا أن الوجود أصل ، بل إن نفس البعريين مثل (ديموقريطس) يقولون : « إن المادة لا أول لها » فالوجود أصل عندهم . فهذه الأمم في أثناء بحثها أثبتت أن الأصل هو الوجود ، فإن كانوا في طريق البحث كالدهريين والطبيعيين قالوا هو المادة ، وإن انتهوا فيه قالوا هو العقل ، أو هو الله ، إذن الأصل هو الوجود كما قمتناه ، والعلم يحتاج إلى دليل (راجع ما قدم في هذه الرسالة) .

تذكرة في أصل الديانات والفلسفة

إذن ظهر أن سر الفلسفة عند أمم الشرق والغرب يرمز لها بنظرات الخليل ، إذ أين لنا نظر الكوكب قاتم فالشمس ، ثم انتهى إلى الله ، فهؤلاء اليونانيون قالوا بلله وبلهواء الخ ثم بلجزء التي لا يتجزأ ثم رجعوا إلى ملوواء المادة أيام سقراط وأفلاطون ، وهؤلاء أهل الهند من السنخ ، واليوجيين ، وأتباع الفيدا وقفوا عند المادة ، ثم قالوا بالله يعلم ولا عمل له ، ثم بالله عالم قادر ، إذن قصة الخليل نشبه نظرات الأمم من حيث ترتيبها مبدأ ونهاية ، ولما كان الخليل في بلاد العراق كان مبدأ نظره في الكواكب ، وأهل أوروبا كان نظره في المادة ، وأهل الهند في الأرواح ، فكان بلاد الشرق الأدنى كالتوسط بين المادية والروحية ، لأن النظر متوجه للنور ، وأهل الهند أقرب إلى الروح ، وأوروبا نظرت في نفس المادة الجافة ، ولكن النهاية واحدة وهو الله . انتهى

هذا ، ثم إن للشائين تابعون لأرسطاطاليس وبعدهم الرواقيون الذين يجمعون بين رأي أفلاطون وأرسطاطاليس ، ويقولون : « إن في المادة قوة عقلية » .

فقال آخر من الطلبة : قد فهمنا هذا الجنبول ، وقول سبنسر : « إن للتأخرين يرجعون في آرائهم إلى أقوال اليونان ، وهذه الأمثلة كافية في ذلك ، وأدركنا اتفاق علماء الشرق والغرب في أصول العلم . إذن هؤلاء المتعلمون من المصريين والعراقيين والسوريين والترك لم يخرجوا عن هذه الأقوال . قلت نعم بل لا يمكن لأن الآراء التي قلناها لك عن اليونان لا يخرج عنها قول ، فإذا سمعت أن تركيا ، أو مصر ، أو العراق عنده رأي ملأى أو إلحادى ، فاعلم أنه يرجع إما إلى قول ديموقريطس بلجزء التي لا يتجزأ ، وإما إلى قول السوفسطائيين الذين لا يترفون بحقيقة فيقولون بالعندية أو العنادية أو اللاأدرية ، فترى الرجل منهم يقول : « المعلومات لكل امرئ على حسب ماعنده » وهذا هو الرأي الأغلب عند المتعلمين العلم من الشرقيين ، أو يقول : « لاحقيقة أبدا » .

ولقد علمت فيما تقدم أن الفلسفة كطفل شب فصار كهلا فشيخا ، فأكثر المتعلمين نصف تعليم في الشرق لا يعرفون من الفلسفة إلا للمباحث الأولى التي لا تحتاج إلى نسب ولا تعب فما عليه إلا أن يقول : هذه أمور لا قيمة لها ، ومعنى هذا أنه لا قيمة لهذه العلوم والمباحث ، فهو أشبه بالسوفسطائية كما قمت .

فقال طالب آخر : أريد أن أعرف ماذا حصل بعد أرسطاطاليس من المذاهب ، وما اسم شيعة أفلاطون وما اسم شيعة أرسطاطاليس ؟ قلت : أما اسم شيعة أرسطاطاليس فهم المشاهدون ، وأما اسم شيعة أفلاطون

فهم أهل الكلدان ، وهو اسم بستان ، بأنثنا ، كلن فيه اجتماعهم للدرس والتعليم ، وهذا قول سنكلان ، فهو يقول في أسلافنا أنهم أنشطوا في تسمية أصحاب أفلاطون بسم المشائين .

أما الذي حصل بعد أرسطاطاليس فهو أن مآرء به على أستاذة قاله بتقديره تلاميذه فقالوا له : إن للمادة عندك إمكان محض ، أوسع ، فكيف يكون العلم اشتياق ؟ وكيف تشاق المادة وهي لا وجود لها عندك ؟ إن هذا كلام أشبه بكلام الشعراء خيالي محض ، والفلسفة تطلب الحقائق لا الخيالات ، بل إذا سلمنا أن لها وجودا ضيقا كان للعالم أصلا : مادة ، وصورة ، فصر التوفيق بينهما ، والمقصود من الفلسفة حصر الوجود في أصل واحد ، ثم انهم قالوا له إن أفلاطون لم يقدر على إيجاد الصلة بين علم المثال وعلم المادة ، وأنت اعترفت بالأله وباللادة ولم تقدر أن ترينا وجه تصرف الله في المادة بكلام واضح ، وهذه هي شيعة (تأوفرسطس) و (استراتون) وهم متأخرو المشائين ، فهو له مجزؤه عن إتمام للبحث الاطية التي ابتدأها أستاذهم أرسطاطاليس ، وتوغلا في للبحث الطبيعية ، فمهم من اعتنى بعلم النبات وهو تأوفرسطس ، ومنهم من اشتغل بالتشريح وبالبحث عن طبيعة المعادن وهو استراتون ، ومنهم من قال : « انه لا بقاء للنفس بعد الموت ، لأنها ناشتة من اعتدال المزاج كما تنشأ الألمان من مناسبة الأوتار ، فإذا انحلت المزاج واضمحلت النفس وهم شيعة أرسطاطاليس وغيره من الشيعة الأرسطاطالية ، وهذا ينطبق على مقالته الامام الفزالي في « المنقذ من الضلال » إذ قال ماضه بعد ما ذكر الدهريين من الفلاسفة : « الصنف الثاني وهم قوم أكثر مباحثهم عن عالم الطبيعة ، وعن عجائب الحيوان والنبات ، وأكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوان فرأوا فيها من عجائب صنع القدرة الإلهية وبدائع حكمة الله ما اضطروا معه الى الاعتراف بقادر حكيم مطلع على غاية الامور ومقاصدها ، ولا يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء مطالع لإحاصل له هذا العلم الضروري لكمال تدبير الباني لبنة الحيوان ، لاسيما بنية الانسان ، إلا أن هؤلاء لكثرة جهمهم عن الطبيعة ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم في قوام قوى الحيوان : فظنوا أن القوة العاقلة من الانسان تابعة لزواجه أيضا وانها تبطل بطلان مزاجه ، ثم اذا انعدم لا يعقل » انتهى . قال الأستاذ سنكلان : فهو له الجماعة هم شيعة (تأوفرسطس) .

هنالك قل قائل منهم : إذن الفلسفة بعد أرسطاطاليس أخذت ترجح القهقري . قلت نعم ترك القوم علم الاطيات واقتصروا على علم الطبيعة ، ولكم لم يرجعوا الى السوفسطائية ، ولا الى من قبلهم ، بل اعترفوا بالأله وجهلوا البحث فيه ولهم الحق ، وبضمهم أنكروا بقاء النفس ، لكن مذهب أفلاطون جعل للنفس محل الأول ، فقال : ثم ماذا جاء من المذهب . قلت : مذهب أصحاب الرواق ، وهم منسوبون الى رواق كانوا يجتمعون فيه بمدينة أثينا ، ويسمون أيضا أهل المظالم ، فهو له يقولون على ما يقول سنكلان : « إن هذه المادة لا تقوم ولا تبقى إلا اذا كانت فيها قوة ألطف منها تمسك أجزاءها وتضبطها وتربط بعضها ببعض ، وهذه القوة نوع قوة عقلية ، مصدرها ما هو أعلى منها وألطف من النفوس ، ومصدر الجميع القوة الاطية التي سموها بالعقل وهو عندهم الإله الغارق للمادة ، وقد أبدع في العالم قوة سرية فيه ، امتزجت به امتزاج الدم بشار الأعضاء ، وبسريان تلك القوة في العالم المحسوس حلت الحياة والحركة والحس والعقل في الموجدات كل على حسب رتبته من الوجود ، ومن ذلك ما نشاهده في العالم من النظام والترتيب ، وأما شعربه من مناسبة الحركات ، ومنافع الأعضاء ، وأثار العقل ، والعالم من أعلاه الى أدناه علة ومعلول ، لاصداقة فيه ، وكله مقدر بالحكمة الاطية ، فالنور الاطية الساري في العوالم كلها أشبه بالنار في الخشب والانسان منه حظ عظيم ، ولا يقربه من ربه إلا الأخلاق ، فلم الأخلاق عندهم هو أهم العلوم . قالوا : الفلسفة بستان سياج المنطق ، والطبيعات

أشجاره ونباته ، ومحمد الأخلاق ثمراته ، والحكيم من جع بين العلم والعمل . فبهنا مقلدان لاثالث لهما ، مقام أصحاب الحكمة ، فلا ناس إلا الحكماء ، ومن اتقن أثرهم ، وتشبه بأخلاقهم . ومقام عوام الخلق ، فمن لاعلم له ولا عمل فهو عن لا يمتد بهم ، وهم في الأرض كالأنعام ، وليس هناك مقام ثالث ، ولا واسطة بين المستقيم والمعوج ، فلما أن يكون الإنسان مستقيماً أي حكماً ، ولما أن يكون معوجاً أي غير حكيم .

يقول الأستاذ منتلانه : « إن ملخص مذاهب اليونان يرجع إلى ما يأتي : إما أن يقال : إن الوجود هو هذا المحسوس ، وإما أن يقال هو العقول لا المحسوس ، وإما أن يقال هو المحسوس للعقول معاً ، وليس هناك أمر رابع ، فأول بعثهم كان مقصوراً على المادة يلتمسون ماهية هذا الوجود المحسوس » .

ثم يرسقراط وأفلاطون فأبانا ما بين العقل والمادة من التميز ، فاقبلت المسألة إلى التوفيق بين المادة والعقل واتصالهما ، وتأثير كل منهما في وجود العالم . فقال أفلاطون : الجوهر العقلي هو الأصل في الوجود ، ووجود المادة أمر قريب من العدم المحض ، ثم بالغ في التفرق بينهما حتى كأنه لا اتصال بينهما . ثم ظهر أرسطاطاليس فسبق على أستاذه ، وقال : إن الوصول من العالم العلوي إلى السفلي لا يتأتى بطريق أستاذه أفلاطون ، وأن اتصال العقل بالمادة حاصل في الأفراد ، ولكن لما حاول الارتقاء من عالم الشهادة إلى عالم الغيب ، وإلى العقل الإلهي زلت قدمه . وقع فيها كان يحذر منه ، إذ همز من ذلك فلم يبق إلا التمسك بأحد قولين : فلما أن يقال المادة هي الأصل الوحيد ولا شيء سواها ، وهو قول أبيقورس ودهرية عصره ، أو القول بوحدة العقل والمادة ، وهو قول أهل الرواق ، أقول : وهو يجمع بين رأيي أفلاطون ، وأرسطاطاليس . وبعد ذلك لا نجد من القرن الثالث قبل المسيح إلى آخر القرن الثاني بعده غير المذاهب القديمة ، والحكماء ما بين شاك في الحقائق ، أو دهري لا يقول بغير المادة ، أو رواق يقول بوحدة المادة والعقل ، أو مشائي متفرغ للطبيعات .

شيمة الاسكندرانيين

ويعرفون باسم المذهب الأفلاطوني الحديث

أنشأها بها « مونيوس سكاس » أي الجمال ، فهو في أول حياته كان حالاً ، وكان نصرانياً ، ثم رجع إلى وثنية اليونان ، ولد سنة ١٧٥ بعد الميلاد ، ومات سنة ٢٤٢ ب.م . وتلميذه أفلاطون توفي سنة ٢٩٩ بعد الميلاد ، وتلميذه أفلاطون بروقيروس ، ويشتهر في الكتب باسم فرغوريوس ، ولد بصور الشام سنة ٣٣٣ بعد الميلاد ، وتوفي سنة ٣٠٤ ب.م . فهو ولد ومن بعدهم يسمون الفرع الاسكندري ، وجاء بعدهم (بيليخوس) ومن تبعه ، ويسمون الفرع الشامي إشارة إلى موافقه (بيليخوس) إذ كان باحدى بلدان الشام وتوفي سنة ٣٣٠ ب.م ، ثم سريانوس وبرقلس ومن تبعه ، ويسمون الفرع الأثيني ، لأن دار التعليم إذ ذاك قد انتقلت إلى أثينا ، وولد برقلس سنة ٤١١ ب.م . وتوفي سنة ٤٨٥ ب.م . قال : « ان مذهب الاسكندرانيين آثر المذاهب المعتبرة في الفلسفة اليونانية ، وهومن أحكامها أصولاً ، وأوسعها دائرة ، وأرفعها طريقة ، جسوا بين المذاهب للثقة ، فألقوا بينها بأن أخذوا السليم منها ، ورفضوا السقيم ، وفتحوا كل ما فيها من الخلل والنشبه حتى كان مذهبهم خلاصة أفكار اليونان منذ بداية فلسفتهم ، وعمدة كلامهم . قالوا إن أفلاطون وأرسطاطاليس لم يكن بينهما خلاف في الأصول أبية ، وإنما اختلفوا في أساليب البحث ، فمن فهم مقاصد كل منهما وسر معناه لم يتوقف في الاعتراف بذلك .

قال سبلتيوس في تفسير كتاب المقولات لأرسطو : « اذا ظهر الخلاف بين أرسطاطاليس وأفلاطون ، فاقاعدة أن لا هف عند ظاهر الشيء ، ولا نعتمد بوجود الخلاف بين الحكميين ، بل ينبغي لك أن تستصحي

معناها فتجدهما متفقين لا محالة .

قال الأستاذ ستلاته : « إن هذا الرأي بنى عليه أبو نصر الفارابي رسالته الموسومة (بالجمع بين رأي الحكميين أفلاطون وأرسطاطاليس) وهي مطبوعة في مجموعة رسائل ، تقع فيها مواضع الخلاف المتضمن وجوده بينهما فصلا فصلا ، وقد أصاب وأجاد في كثير مما قاله الاسكندريون ، إن هذا الوثاق ليس يقتصر على أفلاطون وأرسطو ، بل انه يجمع سائر الفلاسفة ، فمن راجع تاريخ الفلسفة العتيقة يتحقق أن الفلاسفة بأسرهم على كلمة واحدة ، يجمعون في المهمات لاتراهم يختلفون إلا في الجزئيات والفترويع .

فلك حكمة الأوائل تدلولوها غابرا عن سالف من بداية الاجتماع الانساني ، اشتركت فيه الفرس والبرامهة والسككديان والعبرانيون ومصر واليونان ، كيف لا والعقل الانساني جوهر واحد لا يتغير باختلاف الأقاليم والأعصار ، وأصل كل حكمة الإلهام الإلهي ، فينبغي للحكيم والحللة هذه أن لا يلقوا قولا من الأقوال ، بل عليه أن يأخذ على حق معناه وحقيقة جوابه يعمده مطابقا للأصول ، فإذا تحقق الخلاف ولم يكن وجه للتأويل ، فالرجع إلى مذهب أفلاطون إذ هو الأقرب للحكمة الأولية .

وهنا أقاض الأستاذ ستلاته في آراء علماء الاسكندرية إلى أن قال ناقلا عنهم : إن هذا الخلاف لا يبدؤ إلا اذا تفكر الانسان في نفسه فانه يرى أن روحه متصرف في بده ، ومع ذلك هي جوهر لطيف مفارق لمادة الخ . وهكذا ضربوا المثل لله بالشمس ، وأن حرارتها وضوؤها ينشأتان إلى أقصى أطراف العالم ، وهكذا السراج يضيء البيت ويقتبس من نوره مئات السرج ، وهو لا ينقص ولا يفيض ، والصوت يؤثر في سمع القوم وهو لا ينقسم مع كثرة المستمعين ، وهكذا العلم يركب في أذهان المستمعين ، ولا ينقص ذلك من علم العالم شيئا ، إذن الله واحد لا يتجزأ مع تكثير ما يصدر عنه من الآثار ، والقدرة اذا بلغت أشدها لا تبقى مطلقة ، فلا بد من بروز آثارها .

ثم قال : إن الشهورستاني نسب هذا القول خطأ إلى أرسطاطاليس ، وهو في الحقيقة من مذاهب الاسكندريين ، وأبان أن كتاب (أولوجيا) الذي هو أول ما نقل إلى العربية في القرن الثالث الهجري ، وفيه أمثال هذه الآراء قد نبه علماء الاسلام إلى أرسطاطاليس وهو في الحقيقة جملة منتخبات من الكتاب الرابع والخامس والسادس من إلهيات أفلاطون نقل من السرياني إلى العربية بلبيل انه منقسم إلى (سيامير) وهي كلمة سريانية معناها المقالة ، ومعنى (أولوجيا) قول على الربوبية .

فقال بعض الطلبة : قد عرفنا الآن صور الآراء في العصور الأولى أيام اليونان وأيام الاسكندريين في المدة التي قبل المسيح والتي بعده ، فترد الآن أن تبين لنا أولا كيف اتصلت الفلسفة العربية بالأفلام الاسلامية أي كيف نقلت من علماء الاسكندرية إلى علماء الاسلام ، وثانيا تريد رأيك أنت في هذا الخلاف الذي بين حكماء اليونان وإن كان علماء الاسكندرية قد تعرضوا للجمع بين الأقوال للتقاربة . قلت : أما نقل الفلسفة اليونانية إلى العربية فإن لها طرفا شتى منها ما تقدم ذكره هنا ، وهو أنهم نقلوا كتاب أفلاطون الذي ذكرته لكم سابقا انه بعد المسيح من السريانية : أي ان السريان كانوا نقلوه إلى لغتهم ثم نقل الكتاب إلى العربية وهناك طرق أخرى لا يحيط المقلد ذكرها ، ولكن أذكر لكم مقاصد الفيلسوف الكبير الفارابي إذ قال ماضيه بالحرف الواحد من كتاب عيون الأنبياء : « إن أمر الفلسفة اشتهر في أيام ملوك اليونانيين وبعد وفاة أرسطاطاليس بالاسكندرية إلى آخر أيام المرأة ، وانه لما توفي بقي التعليم بحال فيها إلى أن ملك ثلاثة عشر ملكا ، وتوالى في مدة ملكهم من معلمى الفلسفة اثنا عشر معلما أحدهم المعروف بأندرونيقوس ، وكان آخر هؤلاء الملوك « المرأة » فظنها أغسطس الملك من أهل رومه ، وقتلها واستحوذ على الملك ، فلما استقر له نظري في خزائن الكتب ، فوجد فيها نسخا لكتاب أرسطاطاليس قد نسخت في أيامه وأيام ثاوفرسطس ،

ووجد المعلمين والفلاسفة قد عملوا كتباً في اللغاتي التي عمل فيها أرسطو، فأمر أن تنسخ تلك الكتب التي كانت نسخت في أيام أرسطو وتلاميذه، وأن يكون التعليم منها، وأن ينصرف عن الباقي وحكم أندرونيقوس في تدير ذلك، وأمره أن ينسخ نسخاً يحملها معه إلى رومه، ونسخاً يبقها في موضع التعليم بالاسكندرية، وأمره أن يستخف معلماً يقوم مقامه بالاسكندرية، ويسير معه إلى رومه، فصار التعليم في موضعين، وجرى الأمر على ذلك إلى أن جاءت النصرانية فبطل التعليم من رومه وبقى بالاسكندرية إلى أن نظرت النصرانية في ذلك، واجتمعت الأساقفة، وتناوروا فيما يترك من هذا التعليم وما يبطل، فأرأوا أن يعلم من كتب المنطق إلى آخر الأشكال الوجودية، ولا يعلم ما بعده، لأنهم رأوا أن في ذلك ضرراً على النصرانية، وأن فيها ألقوا تعليمه ما يستعان به على نصرة دينهم، ففي الظاهر من التعليم هذا المقدار، وما ينظر فيه من الباقي مستورا إلى أن كان الاسلام بعده بمدة طويلة، فانتقل التعليم من الاسكندرية إلى أنطاكية وبقى بها زمناً طويلاً إلى أن بقي معلم واحد قتل منه رجلان ومعهما الكتب، فكان أحدهما من أهل حران، والآخر من أهل مرو. فأما الذي من أهل مرو قتل منه رجلان: أحدهما إبراهيم الروزي، والآخر يوحنا ابن جيلان، وتعلم من العراقي اسراييل الأسقف وقورير، وسارا إلى بغداد، فغشاغ إبراهيم بالهين، وأخذ قورير في التعليم، وأما يوحنا بن جيلان فانه تشاغل أيضاً بدينه وبمصر إبراهيم الروزي إلى بغداد فأقام بها، وتعلم من الروزي متى بن يونان، وكان الذي يتعلم في ذلك الوقت إلى آخر الأشكال الوجودية، وقال أبو نصر الفارابي عن نفسه انه تعلم من يوحنا بن جيلان إلى آخر كتاب البرهان، وكان يسمى ما بعد الأشكال الوجودية الجزء الذي لا يقرأ إلى أن قرئ ذلك وصار الرسم بعد ذلك حيث صار الأمر إلى معلم المسلمين أن يقرأ من الأشكال الوجودية إلى حيث قدر الانسان أن يقرأ. فقال أبو نصر: انمقرأ إلى آخر كتاب البرهان اه

فلما سمع ذلك الطلبة. قال بعضهم: لقد تلجت صدورنا لهذا البيان فنحن الآن نود أن تبين رأيك في الخلاف المتقّم في أصل العالم والمادة التي شجر بين أفلاطون وأرسطاطاليس. فقلت: إن هذا الخلاف إنما يصح على الطريقة التي أبرزها هذان الحكماء للناس، فهناك نشبت الآراء، واختلفت الطرق، واحتاج النوع الانساني الى علماء يجمعون بين الآراء، ويوحّدون الصغوف كماذى قلته لكم عن علماء الاسكندرية فلاعيده.

فقال قائل منهم: ولكن هذا الرأي الذي جمعوا به بين الآراء المختلفة وإن كان جيلاً وانما لا تزال الشبه محمّولة، فإن هذا كله ماهر الإلتباس، والقشيب لا يعطي برهانا، ولا يؤدّي الى الحقيقة، فإن ضوء الشمس والسراج ونحوهما ماهي إلا أمثال. فقلت: لقد قمت لكم مافي المقتمة من القواعد في مبدأ العالم والمادة ما لا يتوجه عليه هذا الاعتراض ولا الشكوك، وهذا هو الذي هداني الله اليه فادرسوه وفكروا فيه، فهو لا يتوجه عليه ما توجه على أفلاطون وعلى سقراط، والعلوم الحديثة قربت البعيد، وسهات الطرق، فطرق العلم اليوم أقرب الى أن تكون معبدة سهلة، وقد تبين بمراسة المادة والعورة أن هذا العالم كله يرجع الى نقط ضوئية. فقالوا بحسب الافاضة في هذا الموضوع؟

بحث عام في المادة والصوت في الهواء

ثم قمص الهواء، ثم الفوه في الأثير، ثم العناصر المادية

قلت: أنا قمت لكم أن آراء المتقدمين والمتأخرين أجمت أن المادة وجودها إما ضعيف، وإما هي مصلومة، وما الموجود على حسب الرأي العام في الأمم الآن إلا نظرية سرية الحركة تنوعت الى ضوء

وحارة وكهرباء وماء وسعدن الخ .

إن الهواء إذا اهتز في الثانية الواحدة ٣٣ مرة تنج عنه أدنى الأصوات بحيث تتمكن آذاننا من سماعه ، فإذا زادت الاهتزازات بحيث تبلغ ٣٦ ألف مرة في الثانية ، فهو أعلى صوت يمكن أن يؤثر في عصب أسمعنا ، إذن الحركات الهوائية التي تقل عن ٣٣ مرة في الثانية والتي تزيد عن ٣٦ ألف مرة في الثانية لانسمعا ، وهذا حق ، لأن الريح العاصف إذا اشتدت فانتا لانسمع صوته ، إذ نرى الأشجار تتكاد تلس الأرض ونحن لانسمع لها صوتا ، لأن الأذن لانسمع ما زاد على الحد المتقنم ، وأكثر الناس لا يسمعون .

بحث في مادة الهواء

إن نتيجة الامتحانات التي ألقاها العلامة « ويليام كروكس » أعلام الأكاديمية العلمية في باريس دلت على أن أثن الآلات المفرغة الهواء لانكتفي لانفراغ الهواء أو أي غاز آخر من إناء محكم السد ، بل لابد من بقاء أثر قليل ، وقد فرغ هو الهواء من كرة زجاجية قطرها ١٣ سنتيمترا ولم يبق فيها إلا جزء واحد من مليون ، ومع ذلك كان عدد ذرات ذلك الجزء الزهيد من الهواء يبلغ مليون مليون مليون .
قال : وإذا أردنا ادخال القنرات الهوائية التي أخرجناها بحيث يدخل في كل ثانية براسطة فتحة خاصة مائة ألف ذرة في الثانية الواحدة احتجنا إلى سبعة مائة مليون سنة لعملاء هذا الفراغ ثانيا ، وهذه المدة تكون قد انطلقت فيها شمسنا وطاحت أرضنا ، فهذا عرفنا الصوت وعرفنا جرم الهواء ، فلنشرع في :

مبحث الضوء

فنتقول : لقد استقر رأي العلماء اليوم على أن أصيغنا لا ترى الاهتزازات في الأثير التي تقل عن أربع مائة مليون مليون في الثانية الواحدة ، ولأنها تزيد على ٧٩٠ مليون مليون في الثانية الواحدة ، إذن الصوت حركت والضوء حركت ، فأقلّ الصدين لون الحرة ، وأكبرهما لون البنفسجي ، وبقية الألوان بين هذين اللونين ، وقد أدرك العلماء الآن أن الطيف الشمسي يمتد إلى ما وراء البنفسجي ، ولكن لا ندرك العين كالاندرك الأذن ما راد من الحركات عما حدد حاسة السمع ، إذن للسؤال كلها في الصوت والضوء ترجع لكمية الحركات لا غير ، والإنسان عبارة عن جهاز معدّ لاندرك ما يناسبه من ذلك ، ومحرور مما عداه .

العناصر المادية

فأما العناصر للمادية فما هي إلا حركات في الأثير كالخركات التي ظهر بها الصوت في الهواء ، والحركات التي ظهر بها الضوء في الأثير ، غاية الأمر أن الحركات كلها كانت أشد سرعة كانت أغلظ عجمها ، وكلما كانت أقل كانت أظف ، فترى العناصر الأرضية ما هي إلا قطضونية تهتز في الثانية الواحدة أضعاف مائة من اهتزازات الحركات التي أحدثت الضوء ، فلذا رأينا الضوء قد نشأ من اهتزازات تبلغ في الثانية الواحدة ٤٠٠ مليون مليون فان العناصر للمادية تنشأ من اهتزاز الأثير ستة آلاف مليون مليون مرة فأكثراً وأقلّ في الثانية الواحدة كما نراه مفصلاً في تفسير سورة النور عند آية : « الله نور السموات والأرض الخ » وقد تبين هناك أن قطرة الماء تبلغ ذراتها ملايين الملايين ، وأن بين تلك القنرات خلاء يساوي الخلاء الذي بين السماء والأرض والنجوم والشمس . إذن هذه العوالم ما هي إلا حركات ، فإذا اشتدت كانت من العناصر ، وإذا ضعفت كانت ضوءاً منظوراً . إذن العناصر ضوء متكاثف متجمد لا غير ، وهذا الضوء المتكاثف متخلخل جداً ، فالمادة كلها بحرفة تجويفات عظيمة وأصولها الحركات في عالم لانعرفه إلا بالآثار ، هذه هي المادة فكيف تكون

أثبت كما تقدم أن العلم يحجز عن قضيته ، بل بقي منه مقدار عظيم يعدّ للبلايين من القرات ، فهذا نظير ما في نفوسنا من الكسر الدائر ، فهذا مثل ١٠٠٠٠٠٠٠٠ الذي ألمانا عند تجزئتها تشابه ماركوك في نفوسنا من العادم المتعددة التي لانهاية لها في التحجزة .

مسألان من علم الميقات

وهنا أفضل مسألتين من علم اللغات (المسألة الأولى) السين الكيدة والبسيطة (المسألة الثانية) المسوف والكسوف .

السؤال الأول : السنين الكبيسة والبسطة

إن السنين القمرية لمسبعة أحوار، كل دور ٣٠ سنة، ومجموعها ٢١٠ سنة، وهذا هو الدور الكبير والدور الصغير منه ١١ سنة مركبة كل منها من ٣٥٥ يوما، وتسمى سنة كبيسة، ومنها ٩ سنين كل منها مركبة من ٣٥٤ يوما وتسمى سنة بسيطة، فكل دور من الأدوار الصغيرة هذا حكمه، وهذه الأدوار لا تتغير فتكون إذن أشبه بالكسرات المأثرة المقسمة في عدد ٣ والسنة الكبيسة في كل دور هي ٢ ٥٥ و٧ و١٠ و١٣ و١٥ و١٨ و٢١ و٢٤ و٢٦ و٢٩ وهذه الأعداد في الكبيسة تكون في كل دور وبقية الأعداد بسيطة.

المسألة الثانية : الخسوف والكسوف

إن في كل ١٨ سنة و ١١ يوما يحصل ٧٠ خسوفاً وكسوفاً، منها ٢٩ خسوفاً و ٤١ كسوفاً، وكل خسوف وكل كسوف في كل دور لا يتغير، فهي إذن مثل السنين الكيسمة والبسيطة، فهذان اللتان يشبهان $\frac{1}{2}$ التقنمة التي رأينا لها أدواراً منظمة في قنوسنا .

بهجة جميلة وخلاصة هذا المقام

إن نفوسنا مشتتة على أعداد وعالم ، وذلك الأعداد والعالم كانت فيها ثابتة ، أما المادة فلا تلبث لها ولا دوام ، والبليل على ثبات العالم في نفوسنا أن الكسرات البادئة والكسرات البادئة متى عرفه الانسان وجده محبوا في النفس كأنه كثر كان حقيقيا ، ثم يجد عدم تنامي التجزئة في المادة التي لا تلبث لها ، فهي دائما مضطربة وهي أشبه بما نراه في أنفسنا من عدم تنامي التجزئة في الكسرات البادئة المتكسمة ، وإذا نظرنا إلى عدم الوقوف على آخر الكواكب في العدد فهو نظير ما نحن به في حقولنا من عدم انتهاء للأعداد المركبة من الواحد فلا الواحد في نفوسنا وقفنا على أجزاءه ، ولا العدد المركب من تكرار هذا الواحد وقفنا على نهايته ، إذن نفوسنا أصل للمادة وهي مستمدة من نفوس أكبر منها أصل لها وإلجيج وإجوع لله كما جاء في لقواعد التي في مقدمة هذه الرسالة ، إن نفوسنا شابهت المادة من جهة ، وبخلافها من جهة أخرى ، فهي ثابتة من حيث حفظ صور العالم فيها ، مضطربة من حيث حركتها العسكرية التي لا تنهدأ في النوم ولا اليقظة ، فهي كبحر عظيم ، ساكن الماء ، مضطرب الأمواج دائما ، أما اللغة فهي كلاب النار .

إن من الجب أن تلك الحركات التي برزت في الأثير وكان منها النور والهواء ، وجيع العناصر قد ظهرت فيها أدوار منظمة لصوراتها في الأفلاك كأدوار الحسوف والكسوف المتتقمة ، وأدوار السنن الكيكية والبسيطة فيه. الأدوار الحادثة في المادة تشبه الأدوار الصدية في الكسر الدائر ، وهذا مركوز في قفوسنا ، إن نواميس العناصر ونواميس الضوء والحرارة كلها مقترات عديدة وقفوسنا منطوية عليها ، وستكشف لنا إذا جاوزنا هذه الظلمة الحسية ، وأن مآزاه في المادة للفرعة من الجواهر العقلية من التذلل بنسوق إلى النظام الخيوي

في قوسنا ، وليس بيننا وبينه إلا مفارقة للمادة ، ومتى فارقناها وصلنا الى سعادتنا وخرجنا من هذه العوالم المضطربة ، وهأنذا الآن أقول قد أجبنا بهذا البيان عن الأسئلة الأربعة المتقدمة ، فثبت النفوس جارية سالما به ثبتت معلوماتها ، والعلم هو نفس العلوم بخلاف المادة المضطربة ، وهذا هو السؤال الأول ، وأما قولكم كيف نقول وحدة الحقائق مع انه يعلم ما لا يفهمه كثرة ، جوابه أن قوسنا كما قلنا تعلم العدد وتعلم الكسر ولا نهاية لهما ، ومع ذلك لا يقول أحدا ان نفس متحدة بل يقول هي واحدة ، وأما قولكم كيف يعلم الله ما لا نهاية له مع ان عقولنا لا ندرك ذلك فكيف نفقه ما لا ندركه ؟ فهذا أيضا مدفوع ، فنحن ندرك الكسر الدائر المتقدم ، وندرك أدوار الخسوف والكسوف ، وأدوار السنين الكيسمة والبسيطة ، ونعلم أن تلك الأدوار جميعها لانهاية لها إجمالا ، ولكن عقولنا تشهد أن الله يعلمها تفصيلا ، وليس الحادث كالقديم . وأما جواب السؤال الرابع وهو إذا كانت المادة أشبه بالمعوم ، أو هي معلومة ، فإذن علام نجد ونجهد ونخترع ونظم للمدن فالأولى تركها ؛ فهذا السؤال يحتاج إلى الإضافة في الإجابة عنه : فاعلموا أيها الأذكياء أن وقوفنا على هذه الحقائق ، ووقوفنا بها يدفعنا للعمل والرقى والاسراع فيما بقدر طاقتنا ، ولي على ذلك شاهدان : الشاهد الأول نفس أطفالنا الذين أذاع هذه الفكرة في العالم فانه ألف جمهوريته في نظام الأمم وسياساتها وحكوماتها وقرينة الجيوش ، والأسماء ، وعلم الأخلاق ، وقد أجمع المحققون أن هذا الكتاب ليس له نظير من هذا القبيل قبله ولا بعده ، وقد تحققت انه أثر في كل الأمم ، والسبب في ذلك أن الانسان متى أيقن بأن نفسه قريبة من خالق العالم يشعر بفروح ونشاط ومسرّة لا نظير لها ، ويرى أنه خليفة له ، فيريد أن يرضيه ويتعجب إليه بل يرى فوق ذلك أنه أب للناس حوله وهم أبنائه ، تستشعنايته بالإنسانية ، ويرى من واجبه أيضا أن يكون دائم العمل والفكر مشاكلة لما رأى من الأبداع الغريب والنظام للدهش في العالم التي شعرت به حواسه ، ويعلم أنه إنما أبدعت له هذه العوالم ليدرسها ويترن على العلم فيها ، فهي أشبه بلوح الصبيان في المكتب ، وكأنه هوسبي يعلم ، والسي اذالم يتقن قراءة اللوح لم يغز بعد في بقية حياته بالسعادة المترتبة على ذلك ، كذلك هؤلاء مع علمهم بأن هذا العالم وجوده خيال يعتقدون اعتقادا جازما بأنه لوح لهم يقرءونه ، وبه وحده وبدراسة يسهلون حالا وما لا ، فهم من جهة يدرسون هذا اللوح ، ومن جهة أخرى يزهدون في اللذات التي تحول بينهم وبين تلك الدراسة ويعجزون بين الزهد في الخطام والزهد في العلم والدراسة ، فالجهل الذين يظنون أنهم صالحون يزهدون في دراسة لوح هذه الدنيا ، فهؤلاء أطفالون مغرورون ، والحكماء يحرمون على ادراك حقائق هذا الوجود مع زهدهم في لذاته التي كلها وقتية لادائمة ، هذه هي الحقيقة التي لا مبرر فيها لقوم يفتلون . الشاهد الثاني : الأنبياء والمرسلون فما من نبي إلا وزهد الناس في الدنيا وزهد هو فيها ومع ذلك نجد المرسلين منهم لا أكثرهم دول وعمالك ، ووافهم يحرمون على العلم بالوحى وبالعقل على تعليم أممهم ، فما ذلك إلا لأنهم جعلوا هذه المادة لوحا يقرءونه ، وأعرضوا عما فيها من اللذات ، وانتظروا لقاء ربهم فرحين مستبشرين وآثارهم دائمة ، فهذه الطاقة أرقى من سابقها وهم هذه الأمم وزهدهم في الدنيا هو الذي أعانهم على تنظيمها واعدادها للعبادة كالأبناء يحرمون على تربية الأبناء ، ويعتونهم بكل ما يلزم للحياة ، هذا هو الصراط المستقيم ، هذه هي الحقيقة الواضحة الجليلة التي استبشرت بها نفسي واطمأنت إليها وفرحت بها ، ولو شئت الآن أن أدرج في هذه الرسالة فوائد الكتب الماتسة كالقرآن والابنيل والتوراة ثلاث بها مجلدا من الآيات والسير الشريفة ، ولكن هذه الرسالة راجعة للعقل ، والحكمة خاصة لا تختص بدين ولا مذهب ولا ملة ، بل عامة للناس ، يقرءونها بمقولهم ويدرسونها .

فقال قائل من الطلبة : بقيت لي مسألة . فقلت : ماهي ؟ فقال : أريد إيضاح ما تقدم في المقدمة من حيث العالم المشاهد واستنتاج عالم الغيب منه فوق ما تقدم ؟ فقلت : ذكرت لكم فيها تقدم أن جسمي مشتق

من العوالم الأرضية ، وأن الضوء المحيط به أت من العوالم السماوية ، وأن الأرض اذا عجزت عن الضوء الحسى فهي عن الضوء للنوى وهي العقول أعجز ، وتكون النتيجة أن العقول مركزها ومركز النفوس فى عالم غير المادّة ، وكأن جسمى جاء من عالم كبير وهو العالم للمادّى المجانس له هكذا عطفى جاء من عالم عطفى مجانس له قياسا على جسمى . قال نعم تقدم هذا . قلت : وأما الآن أريد بيانا ، لندرس الحواس والنفوس والشراب والغذاء فى الجسم ، الانسان يتنفس من الهواء ، ويتغذى بالطعام ، كما ان جسمه من الأرض وما حولها ، ويشرب من الماء وهو محيط بالأرض ، فهنا أربعة أمثلة : جسمى ، وغذائى ، وشرابى ، وتنفسى (والأغذية مخلوقة فوق الأرض) فهذه الأربعة كل منها مشتق من مخزن كبير من جنسه . قالوا جيما نعم . قلت : والحواس الخمس هذا حكمها ، فكما كان الجسم من جرم هذه الأرض وما عليها ، وغذائى من أغذية عليها ، وشرابى من ماء محيط بها ، وتنفسى من هواء يحيط بهما ، والضوء الذى يحيط بالجميع أت من عوالم سماوية ، هكذا لما كانت :

- (١) حاسة اللمس التى تعرف الحرارة والبرودة والنخوة والخشونة قد أحاطت بها عوالم من جنس ما تحتاجه .
- (٢) وحاسة السمع التى تعرف الحلو والمر والملح قد أحاطت بها عوالم كثيرة من جنس ما تحس به .
- (٣) وحاسة الشم أحاطت بها للشمومات التى تمتها .
- (٤) وحاسة السمع أحاطت بها ككرة الهواء التى تؤدى إليها الأصوات .
- (٥) وحاسة البصر أحاطت بها عوالم النور التى تمتها بالضوء فيكون الابصار ، هكذا كانت قوسنا لها عوالم تحيط بها من جنسها .

جسمى (١) وغذائى (٢) وشرابى (٣) وتنفسى (٤) والنور الذى امتدى به (٥) وحاسة لى (٦) وحاسة ذوق (٧) وحاسة شى (٨) وحاسة سمى (٩) وحاسة بصرى (١٠) . كل هذه تستمد من عالم يحيط بها مجانس لها ، فهذا الاستواء يلجئنا أن نقول لاعتادة أن روحى وتنفسى وعطفى يحيط بها عوالم مماثلة لها عاقلة روحية تسمية تستمد منها ، وهذه النفوس والأرواح لها مرجع وأصل ، وهو الذى يسميه الناس والسياسات « الله » كما أن الضوء المحيط بجسمى له أصل وهو قرص الشمس ، فلهذا هو أصل العالم .

فهذا العالم المشاهد منقوشة صورته فى عقول أبرزته كاتقاس الأعداد للتقمنة فى صفولنا فتبرزها فى الخارج على مقتضى ما نشاهد ، والذى هو قوسنا تلك العقول اتصال قوسنا بها واستمدادها منها كالاستمداد من الماء من النهر والطر ، وما ابراز تلك العقول ما كمن فيها من تلك الصور فى الخارج إلا ككبرائنا نحن ما كمن فى قوسنا من المعاني بالطق باللسان ، واخراج الكلمات من الخارج الصوتية ، وهذا الموضوع كله هو معنى : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » وفى السماء رزقكم وما توعدون * فورية السماء والأرض إله خلقى مثل ما أنكم تنطقون » فبصر بنطقنا ولم يعبر بأسمائنا التى تصدر عما ركزنى قوسنا من المعاني كالنطق لأن النطق سريع سهل ، فصنع الله للعالم ، وصنع العقول التى تسمى ملائكة يعبر عنه تعلما لنا بنطقنا الذى يبرز ما كمن فى صفولنا ، فهنا عرفنا العالم الذى يسمى ملائكة ، وعرفنا أن له مبدأ وهو الله ، وعرفنا أن تلك العقول التى سميناها ملائكة تدرشون هذا العالم كما تدرش نحن منزلنا ، وعرفنا أن قوسنا سترجع إلى تلك العوالم بعد موتنا كما أن أجسامنا ترجع إلى عوالمها التى خلقت منها ، فهذه مجامع العلم والحكمة ، وهذه هى التى حيرت العقول ، وأذلت الفحول ، والله يهتدى من يشاء إلى صراط مستقيم

فقال آخر : ما المادّة التى خلق منها العالم ، قلت اذا احتجبت أنت إلى مادّة فى نفسك لتكون فيها صور ذهنية احتاج العالم إلى مادّة ، وهذا هو الذى تقدم فى هذه الرسالة انه قد حلّ الاشكال الوارد على أفلاطون فى نظرية المثل الأفلاطونية .

برهان بقاء النفس من العلوم الطبيعية والفلكية

فلما سمع الطلبة ذلك ، وكان في يوم الثلاثاء ٢٦ مارس سنة ١٩٢٩ م مساء . قال قائلهم معبرا عن جميعهم : إن أسلوبك في هذه المحاورات معنا أسلوب جميل يجلب الأبواب ظاهره ، ولكننا لما رجعنا إلى أنفسنا ألفينا أنفسنا مملكت تشبه (سقراط) مع (أنكساغورس) ، أو تشبه (أرسطاطاليس) مع (أفلاطون) أو المشائين مع (أرسطاطاليس) فكما أن سقراط لما قرأ كلام أنكساغورس بعد موته وجدده غير مجد ولا دفع في وصف العقل ، وهكذا أرسطاطاليس اعترض على أفلاطون إذ لم يبين وجه ارتباط اللث التي ذكرها بالعوالم المشاهدة ، وهكذا المشامون بعد (أرسطاطاليس) قالوا إن أستاذهم وقع فيها وقع فيه أستاذه ، إذ لم يبين (أرسطاطاليس) وجه تأثير خلق العالم في المادة ، ولا وجه العلاقة بين الخالق والخلق ، هكذا نحن رد عليك بنفس ما قلت ، وننقض كلامك في حياتك ، ذلك أنك قلت في أول محاوراتنا معك إن البليل على أن النفس الناطقة من عالم غير العالم الأرضي إنما أشبهت الضوء ، فكما أن الضوء قد هجرت الأرض عن أن تمتدنا به فهي عن الضوء المعنوي أجهز ، إذن نقوسنا من عالم علوي لطيف ألطف من الضوء . فقلت نعم أنا قلت ذلك أولا وآخرا . فقال قائلهم : ونحن الآن نقول مستدلين بطريقتك على عدم بقاء النفس ، فنقول : كما أن ضوء الشمس يبقى فناء لامرذ له عند غروبها ، هكذا أرواحنا بعد موتنا لا بقاء لها ، فما أجسامنا إلا كالأرض ، وما أرواحنا إلا كنضو الشمس ، فلو كان لأرواحنا بقاء بعد موتنا لكان لضوء الشمس بعد غروبها بقاء في أرضنا ، ولكن ضوء الشمس يعدم حالا عند غروبها ، إذن يكون العدم حثا عند موتنا ، وهذا قياس منطقي لا يقبل المعارضة ولا الجدل على حسب طريقتك التي اخترتها واكتفيت بها ، إذن أصبحت محاورتك معنا معطية لنا اليقين بعدم النفس عند الموت بعد أن كان عندنا شبه برهان على بقائها قبل هذه المحاضرة ، فالتاس إذن يؤمنون إيماننا كإيمان الجاهل ، فأما البرهان فلا . فقلت لهم : أنظروا أنكم قانون في استدلالكم ، صادقة براهينكم ؟ قالوا نعم ونحن بذلك موقنون . قلت فاصبروا : إن نفس هذا البرهان يثبت بقاءها ، فلنبحث ضوء الشمس المذكور : إن أرضنا في استضافتها أشبه بالمستحم في النهر لاغير ، وماضو الشمس إلا كماء النهر والرياح الجارية ، إن الماء يجري من خط الاستواء في النيل إلى البحر الأبيض والهواء تحركه الحرارة فيمر على الأشجار والزارع فيحركها وينفض عنها الغبار ويرى إلى جهات أخرى من العالم ، وضوء الشمس يجري منها ساريا في العوالم لا يقف كما لا يقف ماء النيل بعد دمره على بلادنا ، فكما يزعم النسي لا تدبر عنده أن الرمح المأبى عليه وهو في مزدهنة قد فئت ، ويزعم للمستحم في النهر وشارب الماء أن للماء الذي مر به أو شربه قد فو وباتفي وإنما هوسا في طريقه بحيث يجري ماء النهر حتى يصل إلى البحر بالنسبة للمستحم في النيل ويترك في الجسم فيختلط بالدم ، ثم ينزل بولا أو هرقا من الجسم ، ثم ينزل على الأرض فيتحول إلى بخار يرجع إلى الجو ولا يبقى ، هكذا ضوء الشمس الذي يمر بأرضنا هو باق ولا يبقى فيبقى الهواء وكما بقي للماء سواء بسواء ، ألا ترون رعاكم الله أن علماء الفلك يقولون : قد كشفنا سديما جديدا ، ووجدنا ضوء قد سافر في الجوامات مليون سنة ، وهذا آتوما كشفوه . أفلا ترون أنهم الآن في أمريكا قد ابتدعوا منظارا ، وهم الآن يصنعون ، أنظره ٢٠٠ بوصة ، وهم يتوقعون أنهم سيرون به كواكب قد جاء نورها من أجرامها منذ مائة ألف مليون سنة ، إن الدكتور وشايلي الأمريكي مدير مرصد (جامعة هارفرد) الأمريكية من أشهر علماء الفلك . نشرت عنه إحدى المجلات الأمريكية أن نظامنا الشمسي مع المجرة التي هو منها عبارة عن كرة واحدة ، فكما أن أرضنا تدور كل ٢٤ ساعة دورة هكذا هذه المجرة ونظامنا الشمسي الذي هو ذرة واحدة في ثمانية مليون سنة ، ويجري في الثانية الواحدة ٢٠٠ ميل ، ويقول : إن مركز

هذه المجرة هوشطة اتصال المغرب والحية بالراعى ، وهذه النقطة تبعد عن الأرض خمسين ألف سنة نورية ، فالنور المنبعث منها وراه فى الأرض الآن خرج من تلك النقطة منذ خمسين ألف سنة نورية ، إذن النور لم يصدم وهو باق تلك المدة ، وهذه المسافة للنور قليلة فإن العلماء يرون الآن نجوما انبعث النور منها منذ مئات الملايين ، فاذا كان هذا قول علماء الفلك فعناه أن الضوء لا يقضى إلى أمد عظيم ولم يجدوا دليلا على انقضاءه ، فاذا رأينا الضوء لا يزال جاريا مائة ألف مليون سنة ، ولا تدرى متى يضى فإن نفوسنا التى هى ألقف وأبسط من الضوء ، إذن تعيش هذه المدة وتعيش إلى الأبد ، بل لا دليل على فناءها ،

ومن أراد اعتقاد فناءها فليأت بدليل على فناء الضوء ، الذى هو ألقف منها وأبسط ، وقد أجمع علماء الفلك أنهم يرون بعد مئات ألوف الملايين من السنين ، إن هذا القول يدلنا على أن عالم الأثير الذى يجرى فيه الضوء ليس كالمنا ، أولاترون اننا نرى الصكرة فتراها تجرى ثم تقف ولكن جرى النور خالف ذلك ، فهو يجرى ولا يقف ولا ينقطع ، إذن حركات النور فى الأثير تخالف حركات الأجسام الأرضية ، فالنور لم يثبت عنه إلى الآن بل هو يتقلع من عالم إلى عالم ، ونور شمسنا من تلك الأنوار ، وما أرضنا إلا أشبه بالمستعم فى النهر كما قلت ، فاذا غربت الشمس فعناه أن أرضنا كانت غارقة فى ضوء الشمس فخرجت من ذلك النهر ، فكما أن خروج المستعم من النهر لا يدل على انقضاء ماء النهر ، هكذا خروج أرضنا من بحر ضوء الشمس عند الغروب لا يدل على فناء النور ، بل النور باق ، وهو يجرى ، ويتقلب أحياء فى عوالم أخرى ويبحثونه ويستخرجون منه عناصر الشمس كما نستخرج نحن عناصرها وعناصر النجوم من ضوءها . إذن ردكم على برهاني وقولكم إن كلامي يشعر بفناء النفس قد رجع إليكم وهو أقوى مما كان وأدلى على بقاء النفس بعد الموت ، بل يزيد ثباتا وقوة بأن النفس بعد الموت قد حلت معها جميع أعمالها وهى تحاسب عليها غير متوقفة ، أفلاترون أن علماء الفلك يستخرجون من الضوء حقائق الكواكب بتعليه فيعرفون تركيب كل كوكب ، أفليس هذا كسألة الحساب سواء بسواء لا يضيع منه مثقال ذرة كما لم يضيع من الضوء مثقال ذرة من تركيب الكوكب ، بل يرى علماء الفلك بمنظارهم حقائق الكواكب وما فيها من العناصر عنصرا عنصرا ويحكمون على أبعادها ، فالضوء يعرف الأبعاد ويعرف كل عنصر فى الكوكب مهما تباعدت أقطاره وامتدت مسافته . إذن الروح باقية وأعمالها معها لا يضيع منها مثقال ذرة ، ضوء الكواكب يقول بلسان حاله : « ولا تجزؤون إلا ما كنتم تعملون » .

فقال الجميع : الحمد لله ، هذا برهان لا مطنع فى ضمه . فقلت : الحمد لله رب العالمين ، وبهذا تم الكلام على الباب الأول من « رسالة الفلسفة » . وأما الباب الثانى فقد تقدم فى « سورة لقمان » فلاحاجة لتكرره هنا (فارجع إليه هناك إن شئت) — انتهت اللطيفة السادسة فى قوله تعالى : « فاعلم أنه لا إله إلا الله الخ » والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة السابعة

فى قوله تعالى : فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم انظر الى قطع الأرحام فى الأمم العربية للتناحر والنال والتميز ، لماذا كل هذا ؟ للخلافة والشهوات النفسية ، ويظهر لى أن هذا القرآن الذى نزل بالشورى وحفظ العلاقات بين العشائر والأقارب لم يأخذ مجراه عند الأمم العربية أسلافنا ، ولم تستعده تمام الاستعداد ، فأكادت شمس النبوة تغرب وتظهر نجوم العلم فى ظلمات السياسة العربية الحالية حتى رأينا الملبسين وذمويين وغيرهم يتقاولون ويتناحرون ويدبرون المكائد ويعشون الجوايسم لأجل الخلافة ، فزالت دولهم ، ونكست أعلامهم ، ونزح عليهم السقف من

فوقهم ، وبات دولهم بالوبال .

الانتظر إلى ماسأ ذكره في (سورة الحجرات) إن شاء الله من تلك المسكايد المنصوبة ، والحبل المحبوك والمظالم للركومة ، والجندود العائرة ، والأعمال البائرة .

وكيف ترى أبا جعفر المنصور قد انصرفت همه إلى عصية العرب ففرقتها وأخذ يضرب من يؤمنهم وينصب الشباك لاصطياد الرجال وقتلهم ، والتفرق بينهم ، وكيف ترى « قثم » بن العباس بن عبيد الله بن عباس وهو شيخ العباسيين وكبيرهم بأمر غلامه أن يستغني على مرأى ومسمع من أهل اليمن وسادات مضر أيهما أفضل وهو يجاوبه أن مضر أفضل من أهل اليمن ، فقامت الفتنة بين القبيلتين على قدم وساق ، وتفرقوا شفرمتر ، ولما قدم المهدي بن المنصور من خراسان ، قال له قثم : اعتبر بانك المهدي الجانب الآخر من بغداد واجعل معه قطعة من جيشك فلا يتعدون فقتضرب بعضهم ببعض عند الحاجة ، وهكذا لما كانت أم الأمين عريية وأم المأمون فارسية صار للعرب حزاباً للآل والفرس حزاباً للثاني وضرب الآخرون الأولين ، وقدرني للمأمون في حجب البرامكة وسعوا له في ولاية العهد والفضل بن الربيع سعى في تأييد الأمين وحله على قض يعة أخيه ، ونصر الخراسانيون ابن أخنهم للمأمون بتدبير الفضل بن سهل ، وكان العرب من الجند العباسي قد أنكسهم الحضارة والترف وتبدوا سياسة التقسيم فلم يستطيعوا دقعا ، هناك أخرج الخراسانيون الخلافة من العرب وسلموها إلى المأمون كما أخرجوها قدام من بني أمية وسلموها إلى أجداده ، وزاد الطين بلة ما حصل في أيام المعتصم التي تولى الخلافة سنة ٢١٨ هـ وقد جمع حوله الأتراك والفرافضة ، وضرب العرب الضربة القاضية ، إذ قطع الطاء عنهم ، وانحط شأن العرب من ذلك الحين ، ومنعوا الولايات فتسكن الفرس من الدولة ، وهناك قام مردلوج في أصفهان سنة ٣٣٢ هـ يريد أن يأخذ بغداد وينقل الدولة إلى الفرس فلم يفلح ، ولكن نفوذ الفرس استعجم ، وفي أيام المأمون ومن بعده تظاهر التشيع بالطن في العرب والمأمون يفرهم منه ، ومنهم سهل بن هارون قيم بيت الحكمة ، وكان شديد التعصب على العرب ، وأبو عبيدة الراوية المشهور ، وعلان الشعبي .

والدولة العباسية عصران : عصرا ارتفاع من سنة ١٣٢ هـ إلى سنة ٢١٨ هـ وعصر تهقر ويتسدى بخلافة المعتصم وينقضى بانقضاء الدولة العباسية ، إن عصر بني أمية كان للعرب فيه السيادة التامة ، وكانوا يظلمون غيرهم من القبط والنبط والروم والسريل والكلدان والفرس والترك والسودان ، ومن أسلم من هؤلاء يأخذون أرضه ومنزله ، ويلزم بأن يحارب معهم لأنه مسلم ، ولكنهم لا يسلمونهم بأنفسهم ، بل يخرجونهم مشاة بلانزق ولاني ، فأثر ذلك في نفوسهم فكثرت الحوارج ، ولما قام المعتصم من آل البيت العلويين والعباسيين نصرهم الخراسانيون ، واتخذ الخلفاء أمهات أولادهم من الفرس ، فكان هؤلاء الأبناء شديدي الميل إلى الفرس ، ولقد أراد المنصور أن يستنحي عن الحرمين الشريفين بالقبة الخضراء التي بناها ببغداد ، لتقوم مقام الكعبة ، فكانت هذه سبب مباينة محمد بن عبد الله من آل علي - كرم الله وجهه بفتوى مالك رضى الله عنه وهكذا الأندلسيون قطعوا الدعاء لبني العباس إذ ذاك ، فاجتهد المنصور في قتل محمد بن عبد الله بعد أن علم أن ما فعله من مخالفة لا يجدي نفعا .

وبالجملة ان الجملة الإسلامية كانت في عصر الراشدين عريية ، وكان غرضهم الأول نشر الاسلام في الأرض يدفعهم إلى ذلك اعتقادهم المتين بصدق الرسالة ، وأن الله يدعهم إلى ذلك ، فلما تولوا شؤونية استعاضوا عن ذلك الاعتقاد بطلب المال ، وتحول الغرض إلى السلطة الزمنية السياسية ، وظلت الجماعة العربية متبعية ، وفي عصر العباسيين استبدلوا الأعاجم بالصبيية العربية ، واحتاجوا في اصطلاحهم وأستخدامهم إلى المال ، وانخرطوا هم في سلكهم بواسطة الأمهات ، ثم أصبح الأعاجم من الفرس والترك والديلم والصغد والفرافضة

وغيرهم يساقون إلى الاستئثار بالنفوذ بواسطة المال .

ثم إن المأمون لما مات سنة ٢١٨ هجرية أفضت الخلافة إلى أخيه المعتصم بالله ، وكانت أمه تركية الأصل من بلاد السند في تركستان ، فنبى بها للأتراك ، وكان قد أصبح لا يأمن الفرس على نفسه بعد أن قتلوا أخاه الأمين ، وهي أول مظاهر جوارتهم على الخلفاء ، ولم يكن له من الجهة الأخرى قبة في جسد العرب لما يعلوه من ضعفهم بعد ما ساء لهم إياه العباسيون من الاذلال ، وزد على ذلك أن أخاه للمأمون أوصاه عند دقو أجله بحاربهم ، فلم ير له غنى عن اقتناء من ينصره غير الفرس والعرب ، وكانت الفتوح الإسلامية قد أدركت ما وراء النهر ، وكان العمال هناك يعثرون الهدايا إلى بلاط الخلفاء ، وفي جلتها صبيان الأتراك والفرغانة فهان عليه اقتناؤهم لئلا ينال نسب أمهم ، فاشتري منهم ألوفاً ، واشترى بعضهم بالمال والبعض الآخر أتاه على سبيل الهدية ، وتكاثروا حتى بلغ عددهم ثمانية عشر ألفاً ، فضلت بهم بغداد ، وضجروا بغداديون من سوء تصرفهم ، فابتغى لهم مدينة سامراء ، وأقامهم فيها ، وأطلق لهم الأرزاق ، وجند منهم الجنود ، ولا ريب أنهم كانوا عوناً له في تأييد سلطانه ، والفوز في حروبه ، ضد أعدائه من الروم والترك ، ولكنهم كانوا من الجهة الأخرى سبيلاً إلى تقهقر الدولة العباسية بما كان من مطامعهم في الأموال واستئثارهم بالنفوذ حتى أصبحت الدولة وبيت مالها وخلفاؤها عرضة لأغراضهم . انتهى من كتاب « تاريخ الفتوح الإسلامية »

هذا كله قطع للأرحام لأجل الخلافة ، ولو كانت الخلافة بالشورى ما انتطح فيها عززان ، ولا قتل الحسين ابن علي كرم الله وجهه جند عبيد الله بن زبيل أمير السكوفة في كربلاء يوم عاشوراء سنة ٦١ هجرية ، ومن قطع الأرحام المذكور في الآية قيام المختارين أبي عبيد الله التقي بالسكوفة مطالباً بدم الحسين لا بتناز الأموال ، لا لوجه الله تعالى داعياً إلى بيعه محمد ابن الحنفية أخى الحسين من أبيه ، ومحمد ابن الحنفية علم عدم صدقه فلم يكن راضياً عن عمله ، فدعا إلى عبد الله بن الزبير وعلم عدم صدقه ، فأرسل أخاه مصعباً قتله ، لولا حب المال القوي بقطع الأرحام لم يبدل نوامية جهدهم في قتل دعاء العلوية ، ولا قتل هشام بن عبد الملك أباً هشام بن محمد ابن الحنفية بأن دس إليه من قتله بالسلم في الليل ، لأن فرقة الكيسانية كانت تدعو إليه بعد أبيه وهو راجع إلى المدينة ، فهدد بالخلافة قبل موته إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وهذا عهد إلى ابنه إبراهيم الامام ، لولا الطمع في المال والشهوات لم يطلب إبراهيم الامام البيعة في خراسان باسم آل محمد إماماً لم يرضوا بذلك موثقين أنها ستكون في العلويين لا في العباسيين ، ولكن العباسيون استقبلوا بالملك وقتلوا العلويين قتيلاً ، كل ذلك قطع للأرحام مصداقاً للآية .

باع أبو العباس السفاح وأخوه أبو جعفر المنصور سراً النفس الزكية من ذرية الحسن رضى الله عنه ، فقد كان العباسيون والعلويون مطالبون معا بزوال بني أمية ، وكانوا أصدقاء ، فلما استتب الأمر للعباسيين غدروا بأبناء عمهم ، لولا أن الخلافة أصبحت لفرض المال لا غير لم يبع إبراهيم الامام لأبي مسلم الخراساني أن يقتل الناس بمجرد التهمة فيبلغ من قتلهم ٦٠.٠٠٠ نفس قتلوا صبراً بدون سرب ولم يسلطه على مضر ويقول له أنهم هم العدو القريب النار ولم يقل له اقتل من شككت فيه ، وإن استطلعت الأمانع بخراسان من يشكم بالبرية فاقطع ، وأبما غلام يبلغ خمسة أشبار واتهمته فاقطع .

يأيت شرى : لم هذا كله ؟ ليس ذلك ترك الشورى ، ولحب المال وجهه ، لولا حب المال لم يقتل أبو مسلم جماعة من كبار الشيعة ، وفهم جماعة من التقياء ، وكبار الدعاة ، ومن هؤلاء الكبار أبو مسلم الخلال القى نصر الدعوة العباسية بماله كما نصرها أبو مسلم سيفه ، فهذا لما اتهمه السفاح في قتل الخلافة للعلويين واستئثاراً بأبي مسلم في قتله قتلوا وقتلوا عماله في الأطراف وهكذا فعلوا بسليمان بن كثير وهو شيخ جليل من أكبر دعاة العباسيين ، غاية الأمر أنه اتهم بجهل للعلويين ، فقد بلغ أبا مسلم عنه مثل ما بلغه عن أبي مسلمة ،

فأحضره ، فقال له : أنعم قول الامام لي : « من اتهمته فاقضه » . قال نعم . قال فاني قد اتهمتك ، خفف سليمان ، فقال : ناشدتك الله ، قال لاتناشدني فأنت منطوق على الفش ، وأمر بضرب عنقه ، وهكذا الكرماني وأولاده وغيرهم .

هناك ستم الناس صفك السماء حتى أن أبا مسلم إذا طلب رجلا أوصى وتكفن ونحط ، ولقد ثار لأجل ذلك بعض الأمراء من شيعة بني العباس وصاح : ما على هذا اتبعنا آل محمد أن تسفك السماء ، وأن يعمل بغير الحق ، قتبه ٣٠٠٠ رجل قتلهم كلهم أبو مسلم بمنوده ، أليس هذا هو معنى الآية : « فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم » ، أليس هؤلاء يصدق عليهم وصف العبي والسم في قوله تعالى : « أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » وإن لم يكونوا كفارا . أوليس قتل أبي مسلم بأمر إرلهم الامام العلويين ولشيعه ، ولكل عربي ، ولكل غلام بلغ خمسة أشبار من العرب هو قس قطع الأرحام في الآية ، لماذا هذا ؟ لئلا والله ، لئلا والله ، فأين يمة السفاح والتصور للعلويين ، أوليس من المولم أن يبكي كبار العلويين على بني أمية من شدة ماذاقوا من بني العباس ، ويقول محمد بن عبد الله : « ما بنو العباس إلا أقل خوف الله من بني أمية ، وأن الحجة على بني العباس أوجب منها عليهم »

أفلا تعرف بهذا معنى قوله تعالى : « ألا تدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » فأين القرآن إذن . بأي كتاب أم بأية سنة . يقتل الناس بالتهمة ١ أليس هذا يخالف القرآن على خط مستقيم ، وسرى لإن شاء الله في (سورة الطهات) بقية هذا الموضوع من قتل العلويين وبقية العباسيين ، وقتل أبي مسلم نفسه وغير ذلك ، ولا كفى بما ذكره في (سورة الشورى) وفي (سورة الأحقاف) ليم السطون بعدنا أن هذا ملك لاخلقة ، وأن الخلافة الاسلامية ليست على هذا الخط ، وأن هؤلاء لم يبقوا القرآن ، ولكن الذين بعدنا سيقرون ما كتبناه ، ويسلمون أن اتباعهم في ذلك فرور وجهل ، فيجب أن تكون الخلافة بالشورى ، وأن يكون الخليفة تابعا لمجلس الشورى ، ويحرم عليه أن يعمل هملا ، أو يأخذ مالا ، أو يتصرف إلا بالشورى هذه هي الخلافة الاسلامية ، ولو كان هؤلاء الخلفاء مقيدون بالشورى كهم وعلى وأبي بكر لم يفعلوا ذلك كله ولم يقطعوا أرحامهم ، لأن المال التي طمعوا فيه ليسوا أحرارا في أدخله وحوزه ، والله هو الولي الجيد والى هنا تم الكلام على اللطيفة السابعة في قوله تعالى : « فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم » وبها تم تفسير سورة محمد صلى الله عليه وسلم والحمد لله رب العالمين .

(تم بحمد الله تعالى وحسن توفيقه الجزء الحادي والعشرون من كتاب « الجواهر » في تفسير القرآن الكريم ، وفيه الجزء الثاني والعشرون ، وأوله تفسير سورة الفتح)



الخطأ والصواب

صحيحة	سطر	خطأ	صواب
٢٣	٢٣	ونبهة	ونبهة
٣٤	٤	أليس هي	أليس هو
٣٥	١٨	أه	ان
٧٦	٢	بسنخ	سنخ
١٠٢	٣٢	٢٦	٢٥
١٠٣	٣	٢٧	٢٦
١٠٤	١١	٢٨	٢٧
١٠٤	١٨	في شكل ٢٩	في شكل ٢٨
١١٩	٢٧	هذا	هذا أكبر
١٢٢	٧	القرآن	القرآن بقوله
١٤٦	٨	أبوسفيان	سفيان
١٤٦	١١	أبوسفيان	سفيان
١٦٢	٣٢	بضع	بوضع
١٧٨	١٢	بشتر قرون	بشتر قرون
١٨٣	٣	قبلا	قتلوا
١٨٣	٨	ابن عمر	ابن عمر
١٨٣	٢٣	المرور	المرور
١٨٦	١٠	فلان الأندلسيون اعتبروا	فلان الأندلسيون
٢٠٥	٨	الثلاثاء	الاثنين
٢٠٧	٢٨	التحل	التمل
٢٠٨	٢٨	إذا لو	إذا
٢٢٧	٣٣	استقر	استقل
٢٣٣	٣	فيه	في هذه
٢٣٦	١٣	اشتقت أجسامنا	اشتقت أرضنا
٢٤٠	١٥	عرفنا	عرفنا
٢٤٣	١٦	وأنكسمنتر	وأنكسمنتر
٢٤٧	٨	الهندي	الهنسي

فهرست

الجزء الحادى والعشرين

من كتب الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

مؤلف

٢ (سورة النحل) مكتوبة بالحرف الكبير مشكلة .

٤ تفسير البسملة ، وبيان آراء أفلاطون وأرسطاطليس والرواقيين وبارطلى والاستاذ كانت فى علم الأخلاق ، وأن سقراط يقول بسانع العالم بدليل أثبت من دليل الاستاذ كانت الألمانى القى جصل دليله راجعا لعلم الأخلاق ، أما أرسطاطليس فهو أنزل منها فى ذلك ، ومؤلف هذا التفسير أتى يرهان أكل من الجوع ، وأبان أن لكل حاسة عللا يتصل بها مناسبا لها كالألس بالنسبة للمعوسات والعقل وهو أعلاها بالنسبة للعقول من الملائكة وصانع العالم

٦ امتحان نفس المؤلف بالسرائر والضرراء ، أما السرائر فاليقين التى لاسعادة توازيه فى الأرض ، وبالجملة بهذه المجرىات والسدم الجميلة ، وأما الضرراء فذلك أن المؤلف حدث له حادثان : إحداهما داخلية وفانيتها خارجية ، ففكر فى نفسه أن السريرة التى فى قلبه لو بقيت ملكتت نفسه ، فهذا الهم الداخلى نصبة ، فأما الهم الخارجى فهو أيضا باب للنعمة . ذلك أنه ركب فى عربة مع الناس إلى بلدة شين القنطر ، فغفل له والناس حوله أنه ارتقى فوق سلم إلى السماء ، ورأى هناك نورا ونهرا وقصورا فيها حور مقصورات ، وهما خيل له أن انسانا يقول له : « هذه السلام اشارة إلى درجات الطفل فى نفوه ، وهناك درجات لنفوه فى الرحم ، ودرجات أخرى فى ارتقائه فى الحياة ، وانتهى الرحلة العلة ، وأما الحور فى ذلك الخيال الدنيوى فاهى إلا أنملة الرحلة والحب والابدام بخلاف الحور فى الآخرة فهى حقائق . وبينما هذه العانى تخيل قلب مؤلف التفسير كانت مشاكه الخارجية تحمل بأسهل ما يكون ممددا قوله تعالى : « نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة »

١٠ صورة السلم التى تخيلها المؤلف ، وفيه الصعود والتزول ، وفيه ١١ درجة ، وفوقها الحب والعلم والرحمة والجمال ، وهذه الأربعة توحيها الحشرة المرسومة فى صفحة ١١ فهناك دقة الصنع وهى رحيمة إذ تنظم بينها ، وهما ذكر كلام الشيخ المبلغ إذ أبان أن نور النبوة غير نور الولاية

١٣ التفسير القفلى للسورة كلها

١٤ الاعتبار بأمر فرعون

١٥ رجوع إلى مشركى مكة ، مخوف مشركى مكة بأن قوم تبع (بتشديد الباء) أقوى منهم فهلكوا

١٦ ذكر البرهان القلى على البعث بعد الاخافة بالموعظة

١٧ وصف العذاب لأهل النار . وصف أهل الجنة

١٨ لطيفة فى قوله تعالى : « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة » تذكر المؤلف ما كان من نعمة الله عليه إذ كتب

رسالة قبل الحرب الكبرى بمشر سنين بوقت الأهم الاسلامية للمستقبل ويقول : « إن الحرب القادمة يخفى منها وفيها هلاك للسامين » وسبب ذلك سؤال شاب قازانى وقد ظهرت الحوادث مؤيدة تلك الرسالة

١٩ اللطيفة الثانية ، وفيها بيان أن عقول الشرقيين راقية ، ومنها أنبياء وحكماء ، فإثابة هذه العقول ذنوب عظيمة ، وهذا القل فى الشرق عقاب عليها ، وهذه ذنوب سلبية . وهناك ذنوب قلبية كالسند

والكبر الخ ، واتقسم الثالث من الذنوب ذنوب جسمية ، وعقاب القسم الأول الجهل ، وقلة العلم ، وعقاب القسم الثاني المنازعات الداخلية ، وعقاب القسم الثالث بأذى القضاة في الذنوب المعروفة ، وبالأضرار والمال في ذنوب لاضابطها كالانهماك في شراء البضائع الأجنبية ، فهذا يساعد ذنوب القسم الأول قلة الصناعات في البلاد ، وهذا يشتره : « يوم تبطن الخ »

٢١ ومن للعذاب إرسال النمل ، وهو دخان الجوع ، ودخان القبر ، ودخان قبل قيام الساعة وهو محسوس وكل شر غالب يسمى دحانا . كيف كان النمل عذابا ، وكيف ظهر النمل في حوب الألمان وهو من أشرار الساعة ، ولكن ذلك بمعنى غير ما فهم أكثر الناس

٢٣ الرسالة القزائية ، وبيان المؤلف للطالب القزائي ، ان هذا الموقف رهيب ، وكيف يستحق مثله فقال له : هل العلماء المتقنون أموا معلهم ؟ أم يحق لنا نحن أن ن فكر ، ويقول المؤلف : كيف أحكم في سادة ملهم مؤرخو الأفرنج بأنهم هم المعلوم لفلاسفة أوروبا ، وقد ترجوا كتب الأمم حولهم ، ثم خلف من بعدهم خلف تنازعوا في فروع الفقه وتركوا جميع العلم ، ثم جاءت طائفة فأخذت تفتي هؤلاء للمذنبين بترك العلم كالقزالي وابن رشد ، وهؤلاء جاء قوم بعلمهم فبنوهم وكفروهم .

٢٥ أوضاع الاسلام ملك وقيمه وصوفي اذا كانوا جميعا منحرفين ، إن الله يقول : « إن الله خلق الحب والنوى ، بدون سؤال لعائنه تعالى بنا ، ولكنه لم يجب عن الامور الجزئية كالنمل والبسر واليتامى إلا بعد السؤال .

٢٦ يقول الله : « قل سبروا في الأرض » والسبر تعوزه اللغات ، إن الله أوعده المسلمين الجاهلين بقوله : « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا الخ » وقد تم ذلك كله ، وهنا أفتد المؤلف المسلمين وذلك قبل الحرب الكبرى بشر ستين ، يقول : « إلى أرى كأن الأساطيل الهوائية في السماء ترى الناس بنار ودخان » وقد تم ذلك ، وهنا ذكر المؤلف الطيارات في الجزر والضبب القاتل

٢٨ صورتان لطائرة ز بطن ، وصورة الجنود يشتدون الجبال ، وصورة اللطاد بعد نزوله ، وبيان أن اللطاد سافر من ألمانيا إلى أفريقيا في ٢٤ ساعة

٣٠ النمل والضباب وآثارهما في أم زماننا ، وأن النمل سلاح الحرب المقبلة ، وحض التتريك الذي استخرجته ألمانيا من الهواء أطال مدة الحرب ، لأنها صنعت به للدعرات ، ومن العجب أن هذه الدعرات بعد الحرب أصبحت نافعة في أحوال الحياة العادية ، اخترع الأمريكيون غزا اذا أتى من الطائرة يقتل آلاف من الناس ، واذا أقيمت ست قتال منه على عاصمة من العواصم أبلدت جميع سكانها ٣١ تكاثف الضباب في انكسار ، وأهلك في البلجيك ٦٠ قسما ، وهو ضباب لم تدخل فيه عناصر من غيره ، وجاء تفراف من برلين أن ضبابا الضباب ١٣٠ شخصا غير المرضى ، هذا بعض مجزات القرآن في إزال - سورة باسم النمل ، وظهرت حقاها الآن .

٣٢ حادثة سقراط مع أرسطو ودعوى أحد أصحابه في تفسير : « وما خلقت السموات والأرض وما بينهما لاهين » وبيان أن من يصنع التماثيل العاقلة المتحركة أربع عن يصنع التماثيل الخيرية مثلا بلا حكمة ولا احساس وكيف شك أرسطو ودعوى في صانع الصور العاقلة ، لأنه لا يراه ، ولكن يرى صانع التماثيل المعروفة وكيف رد سقراط عليه بأن روحك لا تراها ، ولكنك لا تتكسرها ، واذا كان هذا الصانع قد أمثلك بالحياة واتقان الصنع والابداع فهو أيضا يطلب منك العبادة لأنه لم يتجاف عن خلقك وأنت ضعيف جد ضعيف ، وهنا أخذنا يبحثان في قتل الإنسان نفسه وهل يجوز ؟ وأظهر سقراط محرمه ، وبرهن

على أن الفيلسوف لا يكره الموت ، لأنه يملئ نفسه الحرية في التفكير التي يشغل عنه هذا البدن ،
ونفسه أعلى من أن تحب الفناء .

٣٤

إن الفيلسوف عنت بالاجتهاد في الفصل بين نفسه وجسده ، وهل يعرف الجبال والعدل والطير إلا
بواسطة الروح وحدها بعد الموت ، والله هو الذي يخلصنا لنصل إلى هذه السعادة العلمية ، والله قد
أذن بسررى الآن فضل السم ، وإذا كان الفيلسوف يضيع حياته في انفراد روحه عن جسده وقتنا
فوقنا ، أفليس من المحقق أنه يفرح بالموت ، لأنه يبعد عن هذا الجسم العائق عن العلم ، ثم استدل
على بقاء النفس بأن الحياة بعدها موت فلا بد من حياة بعد الموت ، لأن الضد يتبع ذاته ، وأيضا
للعلم نفعه بالعلم ، ولولم تكن لنا حياة سابقة في هذه العالم لم ندرك هذه العلوم ، وأيضا المساواة والجبال
والعدل لا وجود لها هنا فلا بد أنها معروفة لنا سابقا ، وأيضا النفس بسيطة والبسطة لا يتحلل ، فإذن
هي باقية ، وأيضا النفس أمرة البدن ، إذن هي إلهية ، فليست قابلة للزوال فإن صفت رجعت إلى
الوجود الحق ، فكانت عنده في مقعد صدق ، وإذا كانت مدسة فلها تلحق بعالم الخير والخير رابع ،
والمؤلف يرى أن هذا انحراف عن الاسلام فبره بثبوت ، ثم أبطل سقراط قولهم : « إن النفس للبدن
كالألحان لآلة للوسيقى ، أو أنها نتيجة تكاثر العناصر واعتدالها في المزاج ، أو أنها بعد طول الحياة
المستقبله تهي » وهذا الأبطال محجج : مثل أن العلم لا يتصور إلا بمعلومات سابقة ، إذن النفس
ليست نتيجة تكاثر المزاج ، وأيضا لو كانت تابعة للمزاج في البدن لم تكن أمرة له ، وأيضا الأشياء
المحسوسة لا تكون إلا بوضع معان غير محسوسة أزلية وهي لا تهمل التيقن ، وأيضا تفوت النفوس
عظيم جدا ، فهو جوهرى وتفاوت الألحان عرضى فهي لا تتفاوت إلا في القوة والضعف ، أما النفوس
فتتفاوت آت من حيث أنها نفوس لا غير ، وأيضا لو كان الموت نهاية كل شيء . لكن ذلك لفائدة الأشرار
وهو خلاف العدل

٣٧

(الجمهرة الثانية) وفيها حكاية الشاب اليهودي التلميذ في إحدى الكليات إنكثرا إذ قتل نفسه لئلا
يأسع من الاستاذ أن الإنسان بالوت يخطى بالسعادة . خاتمة للقال في معجزات القرآن في سورة الباخان
تذييل لسورة النتن بذكر مقال المترانسوم ، يقول : « إن وضع مدفع على أحد جانبي نهر
النيل مع استعمال الغازات الخاطئة يكفي لإهلاك الأمة المصرية »

٣٨

٣٩

(سورة الجانية) مكتوبة بالحرف الكبير مشككة

٤١

تفسير البسملة ، نظر المؤلف في جسمه إذا هو محجب ، يده مطلقان ، ورجلاه على الأرض ، وعقله
موافق لاطلاق يديه ، والحيوان لم يزل ذلك فكانت غرائزه على مقدار ما نال من الأعضاء ، ارتقى
عن الحيوان فقال بمقدار رقبه ولكنه لم يصل للكواكب ، ولم يخترق الأرض ، فهو إذن محبوس .
ومع هذا الحبس يرتفع عقله إلى السموات العلا ، ولم يحبس لكائنات حياته باطلة ، لأنه لا يدرس شيئا
بل يطلق سراحه في الكواكب العظيمة فلا يعقلها ، إذن هو محبوس في مدرسة لا غير ، وهذا من حكمة
تباعد الكواكب في السموات ، الفتنان الخير والنشر جعل لرقى أرواحنا ، نحن الآن في حال تشبه
جهنم ، لا أنها جهنم ، البول الظالمة والمظلمة مصدبتان ، والأولى يصبح الظلم في رجالها عادة قسقط
بعد حين ، وهذا هوس الإيمان بالتدريج وشره من الله ، وهذا معنى : « تنزيل الكتاب من الله
العزيز الحكيم » فالعزة بجهنم والرجة برقى أرواحنا ، والعزة والحكمة في آخر السورة كاثي في أوها
وبهذا فهم معنى الرحمن الرحيم في البسملة ، فإذا لم يعرف الناس ما كتبناه فكيف يقولون أنه رحن

٤٤ رجيم إلا اذا أصبح الشقاء نفسه قسبا من أقسام الرحمة ، وهذا سرّ أصبح اليوم ظاهرا فليعرفه الناس
وهنا أخذ المؤلف يطبق أقوال المصطفى في صلواته على ماذكر الله خلق الشمس وبضوئها انتفع كل
حيوان ونبات ، وهذا الضوء حرمة الناس بسبب جهلهم بالتقليد الاعشى من اكثار الملابس عليهم
المائة ضوء الشمس أن يلقى أجسامهم فقتل سعادتهم ويكثر شقاؤهم ان الله عامل الملوكة والامراء
والاغنياء غالبا معاملتنا للبيان فهو يكثر لهم الملابس والمأكول ، فيحجبون عن الشمس وتستفسر
الأبدان فقتل السعادة ويقصر العمر ، وهذا هو أجروهم على حفظ بلادهم . التقليد الاعشى قتل
الانسانية

٤٥ ان بعض الأمم الشرقية فضلا عن اسرافها في مأكلها وملبسها تسرف في شراء المتاجر الأجنبية
فيلحقها القتل اللدنى فوق القتل البدنى . ان حاسة البصيرة تعرف ماحولها وكل حاسة أرق مما قبلها
والعقل فوق الجميع وله هوعالم عقلى يتصل به ، كما أن العين تتصل بعالم النور . اذن هنا رجتان عامتان :
رحمة الشمس والبصيرة ، ورحمة العقل العام التى استمدت منه عقولنا كما استمدت أعيننا
النور من ضوء الشمس العام في العالم ، وهاتان الرجتان مذكورتان في البسملة

٤٦ التفسير اللفظي لهذه السورة

٤٩ الاعتبار والتأسي بقصص بنى إسرائيل

٥٢ طاقبت هذه السورة ست : اللطيفة الأولى في آية « ان في السموات والارض لآيات للؤمنين »
وفي هذه عشر مسائل عن مقدار محيط الكرة الأرضية ونصف القطر وسرعة الحركة الأرضية ووزن
الهواء الجوى وارتفاعه وهكذا ، والاجابة عليها ، وهكذا الكلام على حجم الشمس وبسرها ، وفي
أى درجة من درجات العرض يسير أطول نهار ٢٤ ساعة ، والليل معدوم

٥٤ كيف قصر السلخون في هذه العلوم وعصوا علماءهم . وهنا ذكر أقوال العلامة الرازى ، اذ وصف
فقهاء الاسلام في زمانه بالنفقة ليقولون ليس في القرآن الا أحكام الفقه ، فاتهم أنه ليس في القرآن سورة
طويلة للأحكام وفيه سور كثيرة سيما السور المكية ليس فيها الا دلائل التوحيد ، والتبوة والبعث
والقيامة

٥٥ الكلام على اختلاف الليل والنهار وشرح جدول في صفحة ٥٧ فيه زيادة ونقص النهار والليل
بالرجات ومصطلح القبط والسريان والروم . مثلا الشمس تدخل في برج الميزان يوم ١٤ توت قريبا
وتتو بدخل في ٢٩ آب من شهور السريان ، وهو يدخل يوم ٣١ من أغسطس من شهور الروم ،
وذلك في منزلة الشربطين التي تطلع في فجر ٢٣ برمودة ، ثم الكلام على تصرف الرياح . فكما أن الشمس
حسابا في الشهور المختلفة باختلاف الأمم ولها أيام طويلة وقصيرة هكذا لها عمل في الرياح ، ومعلوم أن
زوايا انكسار الضوء تكون متفرجة كلما ارتفعنا الى أعلى ، وعند الطبقة الباردة يرد البخار فيكون
سحلا فظرا ، والهواء حتى وصل الى أعلى سار جهة الشمال وجهة الجنوب ويحل محله غيره ، فالرياح
تهب في الجنوب والشمال فتكون أنواع الرياح من الموسمية والتجارية ، والهندية ونسيم البر والبحر
وما أشبه ذلك وكل هذه ترجع الى الحرارة والبرودة

٥٧ أسباب كثرة المطر :

(١) وصول البخار الى الطبقة الباردة :

(٢) ومقابلة الهواء الجبال :

(٣) والرياح الضدية تأتي من الجهات الحارة الى الباردة :

(٤) والرياح الموسمية :

بهذا يفهم المسلم معنى العزة ، والحكمة فبالعزة قهر الهواء والماء فتصرف فيهما بالحرارة والبرودة ،
وبالحكمة سيطر الشمس عليهما فتقرب وتبعد بنظام لتنتج نافعة ، فهذه هي الحكمة :

٦٠ هجعة العرفان ، في جزائر المرجان ، وأن المؤلف يتناكف في الحساب الجيب الذي سيذكره
في سورة الرحمن في قوله تعالى الشمس والقمر بحسبان من عجائب الجفر والتربيع وحساب الأوقات
من حيث نظامها وبدائعها وإن استعملها الجهال في الأمور النافعة الحظيرة يتناكف هو يفكر في ذلك اذ
وقعت في يده عجة اعجازية ، وفيها رسوم أنواع المرجان التي لم تظهر الا في هذا الزمان ، فأصبح قلبه
في جنة العلوم الرياضية ، وعينه في جنة المناظر المرجانية ، فالتقط سعيد بالحكمة ، والعين قريرة بالمناظر
الجبلية ، هنا تناول المؤلف الجبلية وترجم ما فيها من عجائب المرجان ورسم صورها تفديرا لقوله تعالى « الله
الذي سنخرلكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره الخ » وفيها عجائب مثل صور السمك العائش حول
سلاسل الصخور المرجانية في البحار ، وسمك النحل للمقوش وصورة في صفحة ٦٢ وبيض سمك
النحل للمقوش ، وله صورتان في صفحة ٦٣ ، وفي صفحة ٦٤ صورة قطعة من الجزائر المرجانية ، وفي
صفحة ٦٥ ثلاث صور مرجانية منها ما يشبه الورق أو يشبه السلاسل الصخرية ، أو يشبه النباتات
القطرية ، وفي صفحة ٦٦ و ٦٧ صور للرجان المشدود بخط ومرجان موريور ومرجان مثل
الشبكة ومرجان الكوب ، وفي صفحة ٦٨ و ٦٩ و ٧٠ و ٧١ صور مرجان المحيط الهندي ومرجان
كوب البحر ، وكأس بحري من المرجان ، وأنايب بحرية مصنوعة من المرجان ، وحصير البحر الذي
كان أول أمر كتب عنه داروين ، ومرجان الكورنيان الحي ، وفي صفحة ٧٢ الى ٧٤ صور
مستعمرة للرجان في البحر الهندي ، وشقائق البحر فوق الصخور ، وسلاسل الصخور المرجانية في
جزيرة (داكو) والجزيرة البركانية

٧٥ ههنا أتى المؤلف بآيات تناسب هذه المناظر ، ثم أتى بأمر خاص يناسب زمانا فقال : ان الله يقول
« ولعل قوم هاد » فكل جيل أئس يخصصون هدايته من أنبياء ، وعلماء ، وأئمة الاسلامية ،
لها هداة كل بحسب زمانه ، وأم الاسلام أشبه بهذا الجنين في هذا الغلاف ، قد أحاطت بعقولهم
الخرافات ، فاهداة فيها يفكرون في اخراج أمهم من الخرافات الخبيثة بهم ، فهؤلاء الهداة فيها أشبه
بالتغير الكيماوي الذي حدث في هذه البيضة التي به يكون خروج الجنين منها ، لافرق بين الأمة
والجنين ، فكلامها له هاد ، فلجنين التغير الكيماوي ، ولأمة حكام يخرجونها من الظلمات الى النور :

٧٦ (المعاني الخمسة في الحقل) بت ليلة ٢١ ابريل سنة ١٩٣١ بقرية كفر الباشا ، وأخذت أفكر
عند تناول الطعام في معنى الجوع ومعنى الشبع ، وأن ههنا قائدين وسائقا ، فالسائق هو الجوع ، والقائدان
لقد الطعام والارض مع تناول السواء وأن الله فصل مع الانسان ما يفعله الانسان مع دابة نافرة منه
وفي الطريق عند الرجوع تحت زينة على صدر امرأة محمل برة فذكرني ذلك أن جمال الانسان
محدود من جهات ثلاث ، وجمال النجوم ونحوها ، وجمال المرجان لاحتله ، وثمرت كل جمال على
مقتضاه ، فالنجوم والمرجان ونحوها بها يستخرج من القوى مالا حله ، والعلم لاحتله كما أن ذلك الجلال
لا حله ، ولما كان جمال الانسان محدودا كانت منه ذرية محدودة

٧٧ الطيفة الراية : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات الخ » ويان أن كل ألم نعمة لأنه منذر اذن

اتقى الشر في الارض لأن كل شر فهو لأجل خير ، ومن عجب أن الغزالي يقول : « ان كل عذاب مآله الا نتيجة مقتدات كما أن المرض نتيجة افعال في طعام أو شراب » ويقول (إسبنسر) : « ان الطبيعة عقابا منظما حكما فان قلت الخالقة قلّ الاثم وبالعكس يكن يخطئ بشجرة »

٧٨ انا كنا نستنسخ ما كتبت تصامون ، وههنا يان علماء الأرواح وأن العوالم كل له مقام معلوم كالسمك في البحر والهدوب في البر والطير في الجو ، ويقولون ان أرضنا عالم خشن والأثير حولها لطيف ، وأثيرها بالنسبة لأثير حول عالم غيرها خشن ، وليس يمد الانسان عن الرقي الى العوالم العليا للطيفة الاذاته وغفلتها : ثم علماء الأرواح يقولون : ان فكر الانسان يؤثر في غيره وفيه يؤثر فيه وأفكار الناس أشبه بالآلات موسيقية كلما كانت أكثر واضبط وأوفق كانت آثارها جيدة وبالعكس .

٨٠ الطيفة السادسة فئة الحدر السوات ورب الأرض الخ ، وفي هذه الآية تربية العوالم والكبرياء فيها وان الله غالبها وهو مع ذلك حكيم ، وههنا أخذ المؤلف يذكر أقوال المصلى في صلاته ويطبقها على هذه العوالم العلية والسفلية .

٨١ ان كل جبل في أرضنا منشؤه الشمس وجودا وظهورا ، فلتكن الشمس وجودا وظهورا عن ذات قدسية ، وهذه قرة العين في الصلاة : ان الصنعة الجسيمة لصانع أرضي تشوق الناس الى صانعها ، ومعنى رأوه اكتفوا به .

٨٢ ﴿ نور النبوة وبهجة العلم ﴾ في حديث « جعلت قرة عيني في الصلاة » الأرض ذرة بالنسبة للشمس ، والشمس ذرة بالنسبة لبعض كواكب الجوزاء البالغة قدر الشمس ٢٥ مليون مرة ، والعالم لا تعرف له نهاية . والله حكيم لا يعطى الانسان للعلم الا بمقدار ، لذلك كثرت الاصنام في الأرض التي نسبتها الى الحقيقة كنسبة الجبل المنفوخ الى ولد البقرة وهي لا تدرك الا اذا رآته : عظم الله ، وتزل الناس الى الاوثان ونحوها .

٨٣ قصة الخليل وبينما صلى الله عليه وسلم

(١) الاصنام - كسر الخليل (٢) نظر في النجوم (٣) وصل الى الله ، هذه حال أهل الأرض : خلال فصول فصول أو (١) شهوات أرضية (٢) فصول (٣) فصول كسر الخليل الاصنام ، ومحمد صلى الله عليه وسلم انتقل من حب النساء بغية الى أن جعلت قرة عينه في الصلاة ، الخليل كسر الاصنام وارتقى الى العالم ثم وصل ، والنبي ﷺ كان حب النساء مقدمة مباشرة لحب الله ، فهو كسر الاصنام كما كسر الخليل ، وكسر الشهوة أيضا ووصل ، وهذا عجب

٨٤ « فئة الجد » الخ أيضا . نظام الأخرية في الأرض . آثار صفات الله واصله ليلا وتلك الآثار تنقلب فينا بحسب طباعتنا نحن كما ينقلب الماء في الحفظ مر ١ ، وفي القاء كفة حوا . والعرق في الانسان من نفس الماء العام ، ولكنه يصكون بحسب أمزجتنا كما اتفق لي أنا إذ كنت أكل اللحم نارة وأتركه أخرى فاتصف العرق بالصفين باعتبار الخليل . فلا عجب اذا كانت آثار نعم الله تنقلب فينا نحن وسوسة للشياطين فتصنف بالحسد والمقتد الخ ، وذلك من كبريائه وكرمه ، ولذلك لا يرى ولكن ذلك ليس لمنع منه بل لضعف قابلية الخلق ، فمهم بوقته راحة منه فكبريؤه مصحوبة بالحكمة ، وبما نعرفه من العلم الضئيل حاصل بصيغة التريية : لو أن الأشجار أعلنت الناس بما فيها بلا تعب منهم لكان ذلك خطلا : فله متكبر ورحيم ومرب .

٨٦ الآثار العلية : بها فهم الآية ، وصفات الكبرياء ، والعزة مع التريية . ألا ترى الى الجبال والبراكين

والجمل والثلال والإلازل طر بركان (ديبلي) ، وتكون له رأس ، وهكذا أكثر الجبال تحدث بعد البراكين ، وهل البراكين إلا نعمة . ألم يشتر الأمر بكون بركانا في المكسيك بليون جنبه لاستخراج الكبريت منه ، جبال وبراكين تخرج للناس نعمة ، وأي نعمة أعظم من نعم الجبال .

٨٨ ﴿ الفصل الثالث ﴾ في تعليم الأنبياء الخ : وان الله على إذ يحصر خطابه للناس في طائفة ، وبإيجاد الطرق الثلاث في المحادثة : كان حلياً ، والكبرياء في السموات والأرض غير العلوق على الأنبياء : فلتفهم هذه الحكمة . رأى المؤلف جنازة بشارع زين العابدين ، والنساء خلفها يبكين : فقال النوع الانساني لمنع العلم جهل بقاء الروح . فبكى والبكاء لجهل لاغير .

٩٠ ﴿ الفصل الرابع ﴾ في تربية النفس بالكبرياء والعزة ، وهما طريقة دالتون تناسب نظام الله المتقدم ، وهذه الطريقة تجعل التلميذ مسئولاً عن عمله والمدرس يلاحظه وهو يفعل مايشاء في معمله أو كتابه والمدرس يفهمه ماأغلق عليه ، وفي أول النهار يدرس التلاميذ وحدهم ، وفي آخره يرشدهم المدرسون .

٩٣ ﴿ الفصل الخامس ﴾ في أن سياسة الأمم كمال الطبيعة إذا أكل الانسان فوق الشبع أو مطلقاً ضاراً فهو المسئول إذا مرض ، هكذا الأمم إذا حكمها للترفون من أبناء الملوك وهم غير صالحين للحكم فهم المسئولون ، فأين الشورى إذن ، إذا علم الترف قل العلم ، وبقلة العلم تضيق الأمة ولما ترف المسلمون أذلهم الله ببيدهم حكومتهم ثم بأعدائهم ، وحقه للملوك في أن الملك بالوراثة من غير أهلية حكم ابليس بفضل النار على التراب ، وكما جهل للمسلمون سابقا السياسة جهلوا العالم . الانحطاط يكون بالجهل واحتلال الأجانب وأولها أهمها . الأمة الحرة كالأسد والحر ، والقليلة كالبقير والغنم .

٩٥ ﴿ الكلام على الاندلس ﴾ وكيف كان العرب متى كانوا في حال سلم أخذوا يتباغضون ويتقاتلون كالتارناً كل بعضها ، ان لم تجد مأناً ككله ومن ذلك أنهم كافترو البربر على جهلهم معهم بالأيذاء والاحتقار . استقلال الأمويين بالاندلس : دام ملك الأمويين بالاندلس (٣٠٠) سنة ، ولها أدوار ثلاثة : دور التأسيس : ثم عصر الفوضى : ثم عصر ملوك الطوائف : الملوك منهم عبد الرحمن الداخل . فالحكم . فبعد الرحمن الثاني الذي شغلته النساء والمظاهر الخارجية فصمت الفوضى فحمد ابنه القتي ولاد الحسين والموالي وكرهه الناس ، وهناك انفصلت أقاليم واستقلت : ثم ولي ابنه المنذر ولم يدم ، وبعده أخوه عبد الله فصمت الفوضى جداً وقررت الأمة شيعاً ، وبعده حفيده عبد الرحمن الناصر ، وهذا كان عصره ذهبياً وأرجع الجند وحفظ الملك وقاتل المسيحيين : ثم تنافس أعقاب الناصر هذا على الخلافة ثم كان انتقال النفوذ الى الوزراء وظهور بني حود ثم الانفصال من المملكة ثانياً ، وبالجملة ان العرب أذلهم الانتماس في الشهوات والانقسام ولم يزالوا كذلك حتى أزالهم فرديناند وإيزابلا .

٩٨ فله الجد الخ أيضا : يجب المؤلف من قصة موسى مع فرعون وأما موازنة لقصة العوالم الارضية وبياته (١) انه ألقى في التابوت (٢) والتابوت أقاء الى السائل (٣) فأخذه الموت (٤) وقيل لأتمه ليتخفى الخ (٥) وقته القبطي (٦) وأعماله مع السحرة (٧) ونجاشه : (١) تحدث زلازل (٢) فيكون الخوف والخطر (٣) فتكون أراض زراعية (٤) ومنافع الكبريت (٥) وجوئر (٦) وجبال ، وهذا بينه تعليم دالتون ، وهو بينه العزة والكبرياء مع الرحمة والحكمة والترية ، وهذا تفسير لاسماء الله في الآية (١) كبرياء الله وعزته وتربيته للمؤلف . انه قد عاهد الله أن يؤلف المسلمين متى قتل ولم يجد وهو مدرس الاصلاح الجملة لتأليف فأخذ يؤلف فيه ، ولكنه ترك التأليف

يوم حصة فتأبه رجل يعرفه فذهب ليشتري عجلا ولؤلؤا معه ، اذن الله طاقبه بالتوجه لحل البهايم فله الكبرياء والعزة ولكنه يريه (٢) لما حزم على التأليف أحطت في المزعجات والنوازل ولكنتي قلت في قصي : اتى شديد الحياة وأثار بسرعة ، فقله بهذه المصائب يعلى الثبات ليوم التأليف ، وقد وجدت معونات كثيرة من الله عز وجل (٣) حديث السمكين اذ قالت احدهما للأخرى لماذا أرى بنى آدم أكرم منا ، ان البحر يعلو فوقنا مئات الأمتار ، ولكن هؤلاء ليس فوقهم من الهواء الا ما لا يزيد على عشرة أمتار : فكيف هذا : قالت الثانية لتجتمع وتلدع الله أن يخفف منا : فأجاب الله الدعاء بأن أرسل من البحر بخارا في البحر . قلت الأولى : ان هذا البخار لا يقتل ماء البحر . قالت الثانية : اسبرى ولا تبغى ، فصار البخار سحابة فطرا ، ومنه ما صار طعنا فوق الجبال ، وهذا الثلج يتخذ له طريقا في الأودية ، ويدفع بهضما ، ويكسر معه من الجبال حجارة وصخورا : ثم ينزل الى البحر في جهة اليلابن وفيها ، وهذه الحجارة تصبح مأوى للسمك : هذا ملخص حديث السمكين ، وفي أثناء ذلك ترى شكل ٢٥ صفحة ١٠٣ : تشق الصخور بسبب التغيرات ، وشكل ٢٦ واد نلشي من سقوط مغارة جيرية ، وشكل ٢٧ مقطع رأسى في جانب الجبل فيه بر ، وشكل ٢٨ الآبار الارتوازية ، وشكل ٢٩ صفحة ١٠٥ منظر بر ارتوازي ، وشكل ٣٠ واد عميق ضيق ، وشكل ٣١ تحول الحضبة الى أودية ، وشكل ٣٢ هضبة حديثة ، وشكل ٣٣ الحفر الوعائية بسويسره ، وشكل ٣٤ أسباب وجود الشلالات ، شكل ٣٥ منطقات نهر المسيسيبي ، شكل ٣٦ تكوين سهل الفيضان : المطر والبرد والثلج : التلاجات وخطر الثلج ، شكل ٣٧ صفحة ١١٠ صورة الطرف الأدنى من الجرف الثلجي في الزون ، شكل ٣٨ زيادة سرعة النهر الجليدى ، شكل ٣٩ نقل الثلج للصخور . تذكرة في قوله تعالى « وما أنزل الله من السماء من ماء » ، والكلام على القيمة الغذائية للأكلات ، وان السر اللازم للكيلو جرام في اليوم ٢٨ لمن في الفراش ، و ٣٣ للجالس ، و ٣٣ لشغل بسيط ، و ٤٠ لشغل متوسط ، و ٤٨ لشغل صعب الخ .

١١٧ ﴿ تفسير سورة الأحقاف ﴾ . كتابة السورة مشكلة بالحرف الكبير

١١٩ تفسير البسملة ، تجلث الرحة في السورة بالعزة والحكمة والصبر ، ومدح التوى بر والديه ، وذم من عصاهما واطهار حكمته ، وهي أن الانهماك في الشهوات يورث الخزي ، ويدخل ضمن هذه القاعدة القول الأموية والعباسية والأندلسية والمصرية الخ

١٢٠ بيان أن في السورة ستة مقامد

١٢١ التفسير القضي

١٢٢ معارضات النبوة والاجابة عنها

١٢٣ أهل الاستقامة الذين وحدها الخ

١٢٤ « واذ كرأنا عاد » الخ

١٢٥ الكلام على الحق وسماهم القرآن

١٢٦ « فاصبر كاصبر أولوا العزم الخ »

في هذه السورة خمس لطائف ، اللطيفة الأولى في آية : « أذهبتم طياتكم الخ » وذكر حديث الربيع ابن زياد مع عمر رضي الله عنه ، وحديث البخاري : « إن ما أخف عليكم الخ » وفيه أن كثار المال

يكون سبب هلاك الأمم
الكلام على الحق ، وأن الأرواح في الدنيا إما ملهمة ، ولما واقعة في الوسواس ، وهناك أرواح تحيط بنا
من كل جانب تساعدنا وتفتننا
١٢٩ موازنة بين علماء الاسلام وعلماء أوروبا في هذا المقام ، وآية : « أدم يروا أن الله الذي خلق السموات
والأرض الخ »

١٣١ هنا مبحثان : مبحث اتباع الشهوات وترك الصحة هلاك للفرد ، ومبحث التبذير في الأموال هلاك
الأمم والأول تقدم في سور كثيرة ، والثاني كذلك

١٣٢ ولكن نذكر هنا محاوره بين سقراط وغلوكون ، ويان أنه لا يجوز أن يخوف الشعب من الموت ،
ولا يجوز أن يكون في الشر ما يوجب الفسوق ، بل يكون بسيطاً ، وكذلك الموسيقى ، وهكذا الطعام
يكون بسيطاً ، وهكذا يكون هناك تمرين الأعضاء لجنتك ، فلو سقي البسيطة لصفاء الروح ، والتمرين
للجسم ، فيحصل الاتزان ، والحكماء يجب أن يكونوا متخمين من هؤلاء الجنود المتفنين ، ويجب
مراقبة الشراء فلا يسمعون الشعب ساجدة وسفالة فلا يفسد الحكماء وهم لا يشعرون ، ويجب اظهار
مجانب الجمال ليورث الصلاح في نفوس الحكماء

١٣٤ ثم أخذ يذم السكر والاكثر من الطعام ، وذم الأمم التي تحتاج إلى كثرة الأطباء ، أو القضاة ، ف نظام
الطعام يخفى عن الطبيب ، وبساطة الموسيقى تخفى عن القضاة ، والناس ذهب وفضة ونحاس ، فليكن
كل في موضعه . ويجب أن يكون للحكماء خيام لا يوت ثلاثاً يسبحوا ذكاً باجتماع ، ويجب أن تكون
سعادتهم ساجدة لا أرضية ، وأخذ يذم التهمين في الطعام والشراب وهم لا يفهمون أن الطبيب وأدريته
لا يزيدهم إلا هلاكاً كما لا يفهم رجال السياسة إذا ظلموا إلا التخلي

١٣٦ وليس يجوز أن يحكم الأمم إلا الفلاسفة المغمورون بالحكمة ، ومن يجب أن سقراط قبل النبوة بألف
سنة ، ثم كانت أكثر تعاليمه موافقة لها ، وهذا الفيلسوف قد صرح (سبسر) وغيره أن فلاسفة
أوروبا بالنسبة له أطفال

١٣٧ وهنا نذكر عصر الخلفاء الراشدين من سنة ١١ إلى سنة ٤١ وفي هذا العصر كان الصحابة حاكمين
من الأمة حال الأم مع أبنائها ، فهم يتبرعون من المال ، يفرقونه على الناس ، ولا ينفقون على عيالهم
منه شيئاً ، فصر وعلي وأبو بكر كلهم تفاخروا في الزهد ، وفي عصر الأمويين شاع التبذير في الدولة ، ويقال
إن سيدنا عثمان نفسه مات وعنده ١٥٠ ألف دينار الخ

١٣٨ وقد كان عمر يحرم على جنود المسلمين أن يملكوا أرضاً ثلاثاً يكسبوا عن الجهاد ، ولكن المسلمين بعد
ذلك رجعوا إلى أخلاق الروم والفرس في حوز المال ، وقصة أبي ذر الغفاري في ذم كسب المال مع
معاوية وعثمان رضي الله عنه معروفة إذ قناه إلى الربذة حتى مات ، وكانت هذه من أسباب قتل عثمان
رضي الله عنه

١٤١ الاسراف في أيام بني أمية ، وكيف أراد عمر بن عبد العزيز أن يرد المظالم إلى أهلها ، فحبوا بقتله
بالسم ، فلما مات رجع الظلم أكثر مما كان وزاد ، وقد انغمس خلفاء بني أمية في الترف وقد يولون
العامل بأشارة جارية ، ثم أخذوا يستكثرون من الصنائع والموالي الخ

١٤٣ دولة بني العباس واسرافها

١٤٤ حتى أنه كان لنسائهم مروءة فقد كانت الخيزران أم الرشيد ملكها أكثر من مال (روكفلر) في زماننا

وهكذا أم محمد الوائى وأم المستعين

١٤٥ وأكثرها من الجوارى والظلمان

١٤٧ الوزراء كانت ثروتهم كثروات الخلفاء ، إن الخلفاء وزير المقتدر ولّى في يوم واحد ١٩ وإيا على

الكوفة ، وقد انقسم الوزراء في الترف والتعيم في دولة بني العباس وبلاد الأندلس والفاطميين ،

وأول وزراء الفاطميين كان عنده أقطاع في الشام دخلها ٣٠٠.٠٠٠ دينار في السنة ، وخلف ما قيمت

٤٠٠.٠٠٠ دينار

١٥٠ للمدينة كانت محصورة في المدن عند الخلفاء ومن خالفهم

١٥١ القلاصون يعملون بالأجرة ، ومنهم من لم ير الدينار طول عمره ، وبين ذلك حكاية ابن طولون مع

السياد وابنه إذ أعطاه ٢٠ ديناراً فأت من القترح الخ

١٥٢ وهذا ذكر المؤلف جلال العلم في زماننا ، وأن الفلسفة والتاريخ والدين أصبحت كلها علماً واحداً ولم

يكن ذلك قبل الآن ، ويان هيئة عمر رضى الله عنه مع عمله وأنه كان يجتهد في حفظ القولة بلواصلا

وعمله يريهون أن يوسعوها شرقاً وغرباً

١٥٣ كثرة الأسرى والأرقاء ، وقد غنم موسى بن نصير ٣٠٠.٠٠٠ رأس من السبي ، وقس على ذلك

الكلام على معاملة الأسرى

١٥٤ كان للخلفاء عناية بترك الأسرى . يان أصناف الأرقاء ، وأنهم إذا كثروا عند أحد انقلعهم جنداً ،

وقد يتخلون زينة المجالس

١٥٥ الكلام على المحبيين وأن الروس الذين كانوا يسمون السلاف والسرب والبوهيم والبلات تزلوا شمالي

البحر الأسود ونهر الطونة ، ثم توغلا في أوروبا ، وحاربوا السكسون والمهون وغيرهم ، وكانوا يؤخذون

أسرى عن طريق فرنسا فاسبانيا فصرفوا لشلن ، وهناك راجت تجارتهم عند المسلمين وهم من الجرمان

(ألمانيا والسلاف) ولا يزال الجركس وجورجيا يبيعون أولادهم إلى الآن ، وسلاف هي كلمة معناها عبد

عند الإنجليز وغيرهم

١٥٦ خساء بعض الأرقاء : كان هناك في فردون بمقاطعة اللورين فرنسا معمل لخصاء الأطفال من هؤلاء

وموت بعضهم ، وكان ملوك الفرنج يهدونهم إلى المسلمين ، وقد كان للجوارى شأن عظيم ، فكان

الناس يقيمونهم هدايا لجال ، أولصوت ، أو نحو ذلك

١٥٧ سليمان بن عبد الملك يذم الفناء ، ويرى أنه فتح باب لثما ، وقد أمر بأن يخصى الله شون بالمدينة .

١٥٨ الغيرة ، الباس ، مبادئ العباسيين : دار الشجرة بناها المقتدر وفيها شجرة من ذهب وفضة لها ١٨

فصلاً ، لها فروع مكللة بالجواهر الخ . قصر الزهراء بقرطبة للخليفة الناصر . الزاهرة للتصوير بن أبي عمار

١٦١ قصر الحمراء ، وأمثاله وهو بقرطبة محفوظ للآن . مبادئ آل طولون بمصر . مبادئ الفاطميين كالقصر

الشرقي والقرني ، وهذا الأخير أفتقوا عليه ٢٠٠.٠٠٠ دينار

١٦٣ مبادئ الأبريين ، والماليك . القوة والرخاء ثروة الخلفاء ، وأهلهم

البنخ في الألبسة

١٦٥ الأثاث ، والرياش عند العباسيين . القروش والأثاث عند الفاطميين . أثمان الجوارى ، وقد كانت

الزلفاء قديمت بليون درهم أى (٧٠.٠٠٠) دينار . مبلغ للسخاء على العموم

١٦٨ سخاء البرامكة ، وهما حكاية الرجل الذي كان يبكي في خراب البرامكة ، وكيف أعطوه مالا لاعتله

وضياعاً ثم آذاه عمال العباسيين ، فردّ المؤمنون على الرجل أمواله

١٦٩ التهتك

١٧٠ شكل المجلس واحتفالات الاعراس

١٧١ استقبال الوفود

١٧٢ عقاب الأمراء المسلمين بجهلهم في نفس الحياة الدنيا قبل الآخرة . ذكر ما جاء في «مروج الذهب»

من قتل المتوكل والمتصر بالله بعد المتوكل والمستعين والمعتز

١٧٥ ثم قتل المعتد على الله العباسي ، والمعتد بالله بعد المعتد ، والمعتد بالله . والقاهر بالله ، والمتقي لله

والمستكني

١٧٧ ذكر كره لهدى بالله العباسي الذي أراد أن يقتل أكثر أبي بكر وعمر فقتله جده الترك ظلماً ، ولما تحققوا

صلاحه وزهدوه بكوا عليه

١٧٨ إن الأم الإسلامية بعد العصور الأولى اتبعوا خطوات الأم التي حكموها فسقا وظلماً

١٧٩ يجب أن نمتحن التاريخ امتحاناً تاماً ، ونحترم من الشعر كل ما يضر بامتلاك بعض أقوال المعمرى ،

وأقوال الشعراء الفزليين ، ونحترم دخول كل صورة في الدنيا تدعو إلى الفسوق ، ويجب أن نترك

محالة الفرجة ، ونعصم التعليم للرجال والنساء الخ

١٨٠ براق بن عمار اتفق مع الأذفوش على أن يتخذوا أمة العرب بمعاينة حربة الدين ، والتجارة

والتعليم وتم ذلك وامتلأت البلاد بالمر والنسوق والبشرى ، والبابا نفسه ينفق على ذلك من جيبه

الخاص ، ولعب المدرسون بقول التلايد . قيس يخص شبان المسلمين بشرب الخمر الذي عهده من

عنب قرطبة . عدد البشريين بالأندلس (١٠٠٠) ، كشف حسين بن جعفر قائد في بلنسية أن ابن

ذى اللون وزير هدى يريد تسليم البلاد لفرنجية ، وتم ذلك قبل أن يبلغ الحسين ذلك لعدى

واقضت الأوبار ، وقتل (١٣) ألفاً للدفع عن المرض و(٣٠) ألفاً للمحافظة على الدين

١٨٣ وبراق بن عمار الخائن قتل أيضاً ، وقد وعد البابا جندل بن حودا أن يكون ملك الاسلام بالأندلس

فأخذ جيشه ليحارب قرطبة فدخّل الروم بلدته اشبيلية ، ثم قتله هو ، اعتراض على المؤلف وأنه

يفسر القرآن بالتاريخ للشكوك فيه ، وإجابته على ذلك بأن النظر في التاريخ من حيث الاجال

والنظر فيه من حيث التفصيل خطأ ، فنحن وإن كنا لاصدق أن أمثال هارون الرشيد يتوغل في

الذات فنحن مع هذا نأخذ باجال التاريخ كله ونبنى مستقبلنا عليه فلا نسرف كإسرفون ، ولا نقصف

كما يصفون ، ومماثل التاريخ الأكمل النظر في هذا العالم كله ، فهو من حيث التفصيل ضلال ، ومن

حيث لاجال حكمة وعلم نؤمن إذا نبذنا العبرة بالتاريخ كنا أسوأ أمة ، وإذا كان الانجيز قد انتصروا

بتاريخنا عند احتلال مصر ، وبنده احتلال الهند فلماذا لا نتفحص نحن به أن الناس إذا لم يعولوا الاصل

اليقين ، وتركوا الظن عطلت تجارتهم وبارت أرضهم الخ ، ولم يكن لعلم الفقه وجود ، وطاحت الأمم

فلا نظام لها ولا مقام

١٨٦ أن المسلمين قد نسوا درس الاندلس ، هاهنا الأمة المصرية أيها إسماعيل بلش لم يتفطن عظمائها الى

مكيدة قائد الجيش للمصرى ، وهو امريكي في حوب الحبشة ، وقد اتفق مع التجاشى على اهلاك

جيشنا ، ثم علم بذلك الخديوى فسكت لحوف الفتنة

١٨٧ الأم الإسلامية كلها متشابهة ، وقد سخطت الأمة الإنجليزية والفرنسية في أحوال مصر لأجل الدين

والقصد احتلال البلا وقد تمّ والمصريون جلاؤنا ليس هو عليهم كما قال أحد العلماء الأوروبيين ، وقد أخذ الخديوي معه أوقافا مالية بنحو (١٣) مليوناً من الجنيهات

١٨٩ وما مثل تاريخ الأمم الإسلامية الا كتل شجر السنط ، ورقه هو القى يتسل : رثة الحيوانات أشبه بأخبار عمر وهى ، وشوكه أشبه بسوق الملوكة وجهلهم : فلذا أراد الناس أن ينساقوا العصر الأول شاكتهم نوارج للتأخرين من الملوكة .

١٩٠ اتى نظرت ليلا فى السماء فرأيت هواء وسحابا وكواكب غفل الناس عنها وعن إبداع حيون الحشرات وهجائب نظمها كغفلة أم الإسلام عن تاريخ أسلافهم وهم لا يتعلمون .

١٩١ يتذكر المؤلف أيام الشباب ، وهو يحضر فى نفس الأمم أمة أمة إجمالا ، وهى يذهبن الواحدة تلو الأخرى : فهاموا الآن فى هذا التفسير يجمع آراء الأمم ، وقد أخذ يتمتعن تاريخها ويتبعه المسلمون بعدنا فى ذلك الامتحان بما هو أدق وأتم .

١٩٢ ان الرؤساء والمؤمنين مسئولون عن أمهم ، والسلاسل التى تتوضع فى عناق الكافرين فى الآخرة هاهى ذه الآن موضوعة فى أعناقهم فى الدنيا بشكل بسيط .

١٩٣ من أشرار الساعة : أن قلد الأمة ربها ، وهذا يقرب مما فعله خلفاء العباسيين : فان أتهات الأولاد جاء تفرق الدولة على أيديهم ، وهذه مهجرة للنبوة ، ووافق على ذلك سنسر الانجليزى .

١٩٤ للدولة العباسية محاسن كلها ملو ، وكان لهم دروازين وهجائب والجزية معلومة الخ .

١٩٥ الأعمال العامة والادارة فى الدولة العباسية مثل ديوان الضبط ببغداد ، وصهاريج القواطر فى الطريق الخ ونظام العلوم والصنائع والقانون الأدبية والصناعية والمكاتب الخ .

١٩٦ والكلام على نفاستهم وعلى انحطاطهم .

١٩٧ وهل تفهم كلام الله الا بتل هذا التاريخ : ان الاموال كثرت عندهم كأموال قارون ، وظهروا فى زيتهم ثم ذلوا وقتل أ كرفهم .

١٩٧ ما حسل لقارون ، وسيتفتح بهذا التاريخ للمسلمون ، ان الشورى هى القانون الحق : فهل أثنى عن المسلمين أيام انحطاطهم مبانيهم وزخارفهم : كلا بل أخلها أعضاؤهم .

١٩٩ فى الفصل الثالث « واذا ذكر أنا عاد » ، ويبان أن العرب كانوا فى العراق ومصر قبل الميلاد بنحو أربعة آلاف سنة ثم رجعوا الى الجزيرة : فكان منهم عاد إرم ونموذ إرم ، وقد كتب اسم عاد

اليونانيون حوالى زمن الميلاد كما كتبوا حضرموت ، والعرب خرافات فى أمة عاد ، ولم يعرفوا التقابون على اسم عاد الى الآن ، وجاء فى بعض القواميس ذكر عاد إرم .

٢٠٠ ملحق خريطة تلك البلاد وفيها قبرهود وصلح عليهما السلام .

٢٠٣ سورة محمد صلى الله عليه وسلم : السورة كلها مكتوبة بالحرف الكبير .

٢٠٥ فى السورة ٢٠ آية فيها التنبؤ على الكافرين : فكيف تبدأ بالبسملة ، وفيها الرحمة ، والجواب على ذلك : ينقسم الكلام على أيام الصبا : إذ كنت أسمع أصوات الناموس بهيمة مهزنة ، وهأنذا

اليوم أسمع فى عالم الخيال ناموسين تفسر إحداها آية دابة الأرض بأنها على حقيقتها ، ولكنها رمز الى الوقوف على صفاتى هذا الوجود ، ومنه الحيوان ، وأبدأ الاجابة بالبرهان على أن الموت عدل

٢٢٥ (الطيف الأولى) فى قوله تعالى : « أفلم يسروا فى الأرض » فى هذه اللطيفة يبان أن أكباد العرب القدماء قبل النبوة كانوا لا يمتدحون بالأثم البائدة حوّلهم ، ثم رأينا للتأخرين من المسلمين بالأندلس

وأمر الإسلام فسقوا فهلكوا ، فلماذا لا يعتبر المسلمون الحاليون بحال تلك الأمم .

(اللطيفة الثانية) في آية : « والذين كفروا يمتنعون الخ » وفيه بيان أن الانسان امتازعن الحيوان بالعقل ، حتى أنامه هلك في الدنيا والآخرة ، وفيه حث على درس جميع العلوم (اللطيفة الثالثة) فيها وصف الجنة ، وأنها لعنة تذكر بالأوصاف المشهورة ، وللخاصة بالأمتال ، وللخاصة الخاصة بما هو أرق بأن يحتر كل مع من يميل إليه ، وهو هنا استنهاد بأشعار العرب

٢٢٨ تيسير : « ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة الخ » وهذا تيسير لفظي

٢٣٠ « وان تتولوا يستبدل قوما غيركم الخ » وأن الأمويين والعباسيين اقتتلوا على الخلافة ، وهو تقطيع

للأرحام ، فانتقل الحكم للفرس تارة ، ولترك أخرى ، وللتار كفلح ، ثم للعثمانيين الخ

٢٣٢ لطيفة في آية : « الذين كفروا وصنوا عن سبيل الله » وبيان أن هذا المقام سيذكر فيه مقال من

كتاب « حاضر العالم الاسلامي » في أول سورة الطحرات ، وفي آية : « حتى تضع الحرب أوزارها »

وأن هذه الآية تشير إلى السلام العالم ، وأن المسلمين هم أولى بذلك ، فليقوموا برقي أنفسهم ، ثم

ليكونوا رسل السلام العالم في الأرض لأنهم رجة للعالمين ، وهنا الكلام على أشرار الساعة ، وأن

النبي ظهر منها يراد به هلاك أم بعلامات خاصة ، وذكر سر حديث : « إنه ليغان على قلبي » وأن

كل واعظ ومرشد لا يتم له ذلك إلا بسطة بين قلبه وبين ربه والا اقتطع الامداد الذي يصدر منه

إلى الناس .

٢٣٥ « فاعلم أنه لا إله إلا الله » والكلام على رسالة امرأة الفيلسفة ، وأن بعض طلبة دار العلوم سألوني

عن مقال في الفلسفة واني جعلت ذلك في مقدمة وباين ، والباب الثاني ختم في سورة لقمان والمقدمة بها

(١٠) قواعد ملخصها يرجع الى قياس العقول الانسانية التي تهدي الانسان بأضواء الشمس المشرقة

على جسمه ، وكما أن الجسم من الارض والقوة يشرق عليه وهو على مقدار الجسم ، وينفخه فهكذا

العقل من عقل أكبر منه ، وهو من غير الأرض كنوء الشمس وهو على قدر الانسان ، ونافع له

ولا يعرف ما فوق طاقته وهو أصل الوجود لأنه يحفظ الصورة فأما المادة فانها لا تحفظها لتقلبها بل المادة

لا وجود لها عند القدماء وعند المحدثين لانها لم تظهر للسماء الا بصفتها وهي عند المتأخرين قط

ضوئية ، وباختلاف حركتها يكون اختلاف الأجسام والصور في أنفسنا دائماً بخلافها في المادة إذن

الأصل قنوسا والمادة فرع لما إذن الناس إخطأوا في ظنهم أن المادة أصل كل كإخطأوا في قولهم أن

الشمس تدور حول الأرض . معرفة العقل العالم بواسطة معرفة النفس ، إن الناس عرفوا عناصر

الكواكب بأضوائها للشبهات لأضواء العناصر الأرضية ، هكذا فلنعرف العقول المحيطة بالعالم من

معرفة عقولنا فكما أن أجسامنا من الأرض ، ونفسنا (بالفتح) من الهواء ، وشربة الماء من البحر

حولنا فهكذا عقولنا من عالم عظمي يحيط بنا وإذا كان الضوء مستمدا من الشمس فليكن هكذا

عقولنا مستمدة من إله خلق العالم ، وهذا الموجود الذي هو سبب وجود العقول العامة لا يجوز أن

أن نبعث عن سبب وجوده لان هذا يقال اذا كان العدم هو الأصل ، والحق أن الوجود هو الأصل

أما العدم فاما هو كلة جوفاء لم يعرضها الانسان وإنما نعبد قد أخطأ في فهمها إذ ظن أن تفريق أجزاء

الحيوان والنبات عديم ولا عديم البتة وإنما هناك تفريق كما أن ظهور حيوان جمع ولا وجود

جديد وإذا قلنا المادة تنضم أو معدمة فليس هذا معناه العدم لانها ترجع الى الأثير والقوة والقوة

والأثير موجودان إذن الانسان غلط أيضا في ظنه ان العدم أصل

٢٣٩ كيف كان خلق هذا العالم ، ان العالم لا يحتاج الى مادة يخلق منها (أولا) ان المادة نفسها ظهر أنها لاوجود لها فكيف تحتاج الى مادة (ثانيا) ان خيالنا موجود لأنه يكون سببا لظهور صور في المادة على مقفاه وما كان سبب الوجود لا يكون معلوما (ثالثا) ان هذه الصور الخيالية الموجودة بسرعة الزوال وهي ضعيفة لا تراها الحواس (رابعا) أن العوالم المحيطة بنا ظهرت بمرادة الله كما ظهرت خيالنا بمرادتنا ، ونسبة ظهورها وقاها الى ضعف وزوال صور خيالنا كنسبة عظمة الله الى ضعفنا وبهذا نعرف « إنما قولنا لشيء اذا أردناه أن نقول له كن فيكون » لأن الكلام يحدث في عقولنا وجود التكلم به والعقل العام المحيط بالعالم تستمد منه جداول الى كل جاد ونبات وحيوان وكل عالم ، وتكون تلك الجداول العقلية مختلفة باختلاف تلك الاجسام اه

٢٤١ معرفة الله وعرض آراء علماء اليونان والسليين وأوروبا على هذه النظرية : أنت لا تعرف وجود صدقك ، ولا وجود ابنك إلا بما يدنو من أعماله ، ولم تر روحه مطلقا ولا تشك في ذلك الوجود ، والله تدل عليه كل حركة وعمل في العالم ، فراهينه أعظم ، ولكن لكثرتها جعلت العقل كالدهوش فسكر من الناس من وصل إلى العقل الكامل فعرف ربه بعقله ، فيكون الانسان كالملك وكذهب أفلاطون ومن معه ، ومنهم من كان أدنى فصار كالبعصر كذهب سقراط ، وكالمليون ذى الأربع . مذهب أنكسافورس مثل الخلد (فتح الخلاء واللام) الذى يعيش في الظلمة ، وأول موجود عنده العقل ، ومذهب السوفسطائية كحاسة الشم ، وكليون ذى ثلاث حواس ، وديموقراطيس يقول بقدم الطبيعة وهو كحاسة النوق ، أنكساجانس كحاسة اللمس ، ثم ان السوفسطائية هم العنصرية وأستاذهم بروتاغورس ، وعنادية وأستاذهم غورغياس ، ويلحق بهم اللاأدرية يقعون يرون ، وهنا ذكر (ديوجانس) الكلبى الذى استاء من تعريف الانسان بغير الحقيقة .

٢٤٦ ليس من المقول أن تكون العلوم للنظمة والقول البديعة والشعر وهذا الجبال ناشتا عن اصطكاك حجر بحجر . كلا . وكيف تخرج قائم وعالم من تحرك حروف الهجاء في صندوق ، فهذا مستحيل ويوافق هذا قول أرسطاطاليس وغيره . شيعة فيثاغورس

٢٤٧ آراء فيثاغورس وأنباقولس ، فالأول يقول : الأصل العدد ، والثاني يقول : المحبة والعداوة أصل الوجود ، وحكاية نبوغ أنكسافورس ، وأن العالم نشأ عن عقل حركة وتركه .

بيان آراء الشهرستاني في (الملل والنحل) ، وأنه يقول في هؤلاء للفلاسفة انهم أشبه بملء الاسلام يوحنون ، والرد عليه بأن هذا غير صحيح وهذه التواريخ فيها خطأ : مثل أن فيثاغورس كان في زمن أغسطس مع أن بينهما ٤٥٠ سنة وغير ذلك .

حكاية سقراط وأنه لما كان حديث السن أغرم للباحث العقلية ومعرفة الله فسمع بمذهب أنكسافورس ففرح ، ولكن وجدته يقصر عمل الله على مجرد العلم فقط ولا عمل له ، وكيف يهين سقراط بانتظام السمع والبصر وغيرهما وأن لها غاية تامة على مدبر ، وهذا النظام يفرق بينه وبين مانع لا يفضل ذلك ويان أن البصر أعظم فعمة لأنه رأى السماء والكواكب فهو محرك للفلسفة وهي أجل الشئ ، ويان أن الله اذا كانت عنايته بالانسان نعمة فلماذا لا يتجه إليه بالعبادة ؟

٢٥١ وسقراط يعنى بالتعريف والحذ ، ويرى أن الأخلاق تهذيبها أجدى على الانسان من المعرفة ، ويان أن أفلاطون لا يجعل اسم الوجود ينطلق على المشاهدات ، بل على أمته لما نشاهده لها في المشاهدات

من آثاره ، فأما ما زاره فليس معلوما بل هو أشبه بالمتظنون ، لأنه لا ثبات له ، ومالاتباته لا يتعلق به العلم والانسان كان يعرف الحقائق قبل وروده إلى هذا العالم ، وبالتعلم يرجع إلى حاله الأولى شيئا فشيئا فيذكر ماني ، وهذه قالها أيضا الفارابي والرازي وابن عربي ، وهذه كلها آراء أفلاطون بنسبها وقصها فهي مثل مجاهد في (فيدون) وغيرها ، ومتى عرف الانسان الحقائق احتقر هذه الدنيا احتقارا تاما ، وسقراط يقول في الأخلاق : « إن الناس يركبون الذنوب لجهلهم مغبتها ، أوصفت علمهم » وهو حق ورأى أفلاطون امتزج بأرواح الاسكندرانيين والاطليين من النصارى والمعتزلة وفلاسفة ألمانيا وبض أوروبا ، ويقول المؤلف : إن هذه الآراء معجزة لتبيننا صلى الله عليه وسلم لأنها ظهرت قبل وجوده ، وجاء هو بأهم منها .

٢٥٥ يقول أرسطاطاليس : إن آراء أفلاطون منقوضة ، فكيف يكون المفارق للمادة مؤثرا فيها ، وكيف ينطبق السكلي الواحد على أفراد كثيرة وجعله منطبقا بضرب مثل ليس برهانا . المادة والصورة والحركة هذه الثلاثة هي الطبيعة ، ولا انفصال بين المادة والصورة إلا في العقل ، ثم إن الطبيعة ترتقي من أدنى جاد إلى أعظم انسان ، ويبان أن ما ختم هو آخر ما وصل إليه العقل الانساني ، والاعتراض على ذلك بأنه لا دليل عليه ، واجابة المؤلف بذكر أن الفلسفة ككفل ظهر فترعرع .

٢٥٧ فلاسفة أوروبا ليسوا شيئا بالنسبة لفلاسفة اليونان : آراء (باكون) الانجليزي في تاريخ العلوم ، رأى (جون لوك) يقول : للمادة هي الأصل ، رأى (باركلي) يقول : « إن الأصل النفوس وحواسها »

٢٥٨ كانت الألمانية وكتابه تحليل العقل المجرد ، وألمانيا كلها تتبعه ، وأمثال شارفوتنه الخ . درجات الفلاسفة وهي : أقلهم تاليس ، وأعلامهم سقراط ومن معه ، والدرجات الست أوطا الطبيعيين وآخرها الاطليون وبينهما السوسطائية ونحوم ، وهما قاعدة ، ويدخل ضمنها كل متعلم في الشرق والغرب بوضع كل في درجة من هذه الست

٢٥٩ مذاهب السنخ واليوجي وكتاب الفيدا : هذه الثلاثة فظالمها كنظام فلاسفة اليونان : المادة ، مما له يعلم مما إليه يعمل ، فالتاس كلهم يرجعون لنقطة واحدة

٢٦٠ الوجود أصل ، قصة التحليل ، نموذج النظام ، الفلاسفة وتاريخهم

٢٦١ أرسطاطاليس رد على أفلاطون فرد عليه أيضا تلاميذه وقالوا له أنه يرد عليك ما أوردته على أستاذك فلذلك جاء بعده أبيقور وشيعته ، فاستسكوا بالمادة وأهل الرواق ، فقالوا : المادة متحدة مع العقل والمشاركون تفرغوا لعلم الطبيعة . شيعة الاسكندرانيين : أولهم مونيوس سكس ، ومنهم الفرع الاسكندري والفرع الشامي ، والفرع الأثيني ، وأهم المذاهب كلها مذهب أهل الاسكندرية .

٢٦٣ إن الفارابي جمع بين رأى الحكيمين كما فعل ذلك أهل الاسكندرية ، وهذه الحكمة أجمع عليها فلاسفة الشرق والغرب . قصة الفارابي وكيف تعلم الفلسفة ، وكيف انتقلت إليه من الفرع الاسكندري إلى آخره

٢٦٤ بحث عام في المادة والصوت في الهواء ، بحث في مادة الهواء ، مبحث الضوء ، العناصر للماذبة ، وأن المادة كلها عبارة عن قط ضوئية اختلفت باختلافها . كما وكيف .

٢٦٦ ثبات العالم العقلي ، ويبان أن عقولنا تفهم الكسر التي لانهاية له ، فالواحد لانهاية لأجزائه ، ولا لمكرراته ، والأعداد والعلوم غذاء للأرواح ، والعلم والعالم والمعلوم متحدات .

٢٦٨ السنين الكيسة والبسيطة ، والخسوف والكسوف ، وأن الأدوار هي بينها مشبهة أدوار الكسوف .
 ٢٦٩ بيان أن الانسان هيكل يمتد عالم الضوء والهواء والموسمات ، المادّة لا يعوزها أصل تستخرج منه كما
 أن صورنا النحنية لا تحتاج الى أصل وهي خالصة كما أننا نرى الضوء يجري من أبعاد لاحد لها ولا يعلم
 ٢٧١ (اللطيفة السابعة) : فهل عسيتم ان توليتم الخ وبيان أن الصابيين والأمويين رجعوا إلى صبيّة
 الجاهلية ، وأن المنصور قتل الملوين ، والمأمون قتل الأمين وقرب القيس ، والمعتمد قرب القرك
 وانحطت الدولة ثم زالت ، كل هذا تقطيع للأرقام

(تمت القهرست)



فتح المفسر

الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير

لفخر اليمن بلاجدال ، نادرة زمانه ، مفعم أخصامه ، غزير المادّة قوى الحجة
محي السنة ، قاعم البدعة ، رافع لواء العلم بين الأنام ، العلامة القاضي الحافظ الضابط
المحدث المفسر الشهير .

محمد بن علي بن محمد الشوكاني اليماني الصنعاني

صاحب (نيل الأوطار وغيره) المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ رحمه الله تعالى آمين
القاتل في خطبته ، وصفا لتفسيره [فهذا التفسير وإن كبر حجمه ، فقد كثر
علمه ، وتوفر من التحقيق قسمه ، وأصاب غرض الحقّ سهمه ، واشتمل على
ما في كتب التفاسير من بدائع الفوائد ، مع زوائد فوائد ، وقواعد شوارد ، فإن
أحييت أن تعتبر محجة هذا ، فهذه كتب التفسير على ظهر البسيطة ، انظر تفاسير
المعتمدين على الرواية ، ثم ارجع الى تفاسير المعتمدين على الدراية ، ثم انظر في هذا
التفسير بعد النظرين ، فعند ذلك يسفر الصبح لدى عينين ، ويتبين لك أن هذا
الكتاب هو لبّ الباب ، وعجب العجاب ، وذخيرة الطلاب ، ونهاية مأرب أولى الألباب [
جار طبعه من النسخة الوحيدة المكتوبة بخط المؤلف المحفوظة كالدرّة القيمة
في خزينة الدولة العثمانية المحمية ، نحو [القرن من الزمان] وثقة الحد لم تمتد اليها
يد الحدّثان .

وقد اعتنى طبعه على ورق جيد ، بحرف جديد ، مع ضبط القرآن بالشكل
التام ، مصححا بمعرفة لجنة من علماء الأزهر الشريف .

يحتوي على ٢٠٠٠ صحيفة تقريبا بقطع النصف ، وقسم على أربعة مجلدات
ظهر منه المجلد الأوّل والثاني : لغاية سورة هود ، وباقيه قريبا يظهر بمشيئة الله تعالى
وهو بشكل يسر الناظر ، ويهيج الحاطر والله وليّ التوفيق .

